

شعر الجهاد في الأدب العربي بالمغرب

من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي
حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي

تأليف

د. عبد الحق المريني



مؤسسة عبد العزيز سعود الحبطين الثقافية

ردمك: 5 - 23 - 704 - 9921 - 978 ISBN

رقم الإيداع: 0098 - 2020

حقوق الطبع محفوظة للناسر

بمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم (البايطين الثقافية)

هاتف: + 965 22415172

فاكس: + 965 22455039

بريد إلكتروني: info@albabtaincf.org

تصميم الغلاف: محمد ناجي

صدرت هذه الطبعة بمناسبة إقامة الدورة الثامنة عشرة

دورة «ابن سناء الملك وابن مليك الحموي» - 2023

الكويت 2023

التصدير

لم تتحن يوماً جباه المغاربة أمام جحافل الغزاة والمستعمرين، كانوا يواجهون غزاة ديارهم ببسالة وشجاعة منقطعتي النظير في معارك كثيرة، واكبها الشعراء حضوراً وروحاً وفكراً على امتداد قرون طويلة وتحديدًا من منتصف القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وهي الفترة التي تناولها مؤرخ المملكة المغربية الدكتور عبدالحق المريني في دراسته هذه والتي حملت عنوان «شعر الجهاد في الأدب العربي بالمغرب من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام».

لقد كان إيمان الشعراء كإيمان المجاهدين لا يتزعزع بأن النصر في نهاية المطاف سيكون لأصحاب الأرض، سيكون مؤكدًا على المستعمرين والغزاة مهما كان عددهم ومهما كانت عدتهم، ولا بد للحق أن ينتصر «إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر» «ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر».. نعم لا بد لكل مظلوم من يوم يدحر فيه ظالمه دحرًا ويقضي عليه قضاءً مبرماً.

ولقد كان من الشعراء أنفسهم مجاهدون كثيرون جاهدوا بالسيف والقلم؛ يحرضون على الجهاد، ومنازلة الأعداء على كل ذرة تراب من المغرب، يقدمون الغالي والنفيس دفاعاً عنه.

وقد امتد هذا الجهاد، واستعرت نيرانه، واتسعت دائرته مكانياً وزمانياً، واستشهد في معارك الجهاد الكثيرون من خيرة أبناء المغرب.

سجل الشعر كل هذه الأحداث، وبقي كثير منه يتردد في الصدور، وقليل منه دَوَّنَته الأقلام والصحائف حيث كان مَبْثُوثًا هنا وهناك.. وقد اضطلع الدكتور عبدالحق المريني منذ أكثر من عقدين من الزمن بالبحث عن هذا الشعر وجمع ما أمكنه جمعه واستعرضه في دراسته، وهي دراسة غاية في الأهمية لأنها ستظل مرجعًا مهمًا للباحثين في التاريخ الجهادي والنضالي للمغاربة ينهلون من فيضه ما يقوِّي عزائمهم ويوحد مشاعرهم ويحفظ وحدتهم.. ويقدم للأجيال العربية المعاصرة والقادمة في سائر أنحاء الوطن العربي صورة مشرقة من صور الجهاد والكفاح الشريف والذود عن الأوطان.

ويسرنا في «مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية» أن نقوم بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره من جديد بمناسبة إقامة الدورة الثامنة عشرة للمؤسسة، دورة «ابن سناء الملك وابن مليك الحموي» - 2023، ليكون هذا الكتاب بما تضمنه من شعر ودراسة في متناول القراء والدارسين والمهتمين بمتابعة الشعر العربي والدراسات الأدبية في المغرب العربي.

وقد كانت المؤسسة تعتزم إصدار الكتاب ونشره وتوزيعه في مهرجان ربيع الشعر العربي الثالث عشر لسنة 2019 ولكن لم يتسنَّ لها ذلك لتعذر إقامة المهرجان في السنوات الماضية بسبب الإجراءات الصحيةة والإغلاقات التي اتخذتها الدول لمواجهة انتشار جائحة كورونا.

والله ولي التوفيق،

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في 21 جمادى الآخرة 1444 هـ

الموافق 14 يناير 2023 م

نصروك بالسيوف يا خيرَ مالكٍ
فحقَّ علينا النصر بالشر والشعرِ

☆☆☆☆

أرى المجدَ سبيلاً والقريضَ نجاهه
ولولا نجاد السيف لم يقتل

(أبو العلاء المعري)

إهداء

... إلى التي علمتني الصبر والأناة، إلى التي راحت راضية مرضية قبل أن ترى أو تسمع بهذه الأطروحة متوجة بالفوز والقبول إلى والدتي خديجة بناني.

... وإلى الذي رباني فأحسن تربيتي وهذبني فأحسن تهذيبي، إلى والدي الحاج محمد المريني.

هذا غيض من فيض رضاكما، وقبس من دعائكما الصالح. رحمكما الله برحمته الواسعة وجزاكما عني خير الجزاء وأسكنكما فراديس الجنان.

التقديم

من بين أهم السمات التي تميز عموم الأدب الذي صدر عن المغاربة على امتداد التاريخ، والشعر منه على الخصوص، يبرز ملمحان متداخلان ومتكاملان، هما الواقعية والالتزام، إذ يشكلان ظاهرة تكاد لطغيانها أن تحول النظر عن هذا الشعر، في غير اعتراف به، وإذا ما التفت إليه، فإنه يواجه بالنقد المهاجم له والطاعن في فنيته، معتبراً إياه مجرد مستند يضاف إلى وثائق التاريخ.

إلا أنني لا أرى الأمر بهذا الإطلاق، لأن الشاعر الملتزم بصدق والمتحرك في إطار واقعه بحق، ليس هو الذي يقتصر على التدوين والتسجيل، لأنه إن فعل يكون موثقاً إن لم أقل مؤرخاً، ولكنه الذي ينصهر في هذا الواقع ويستمد منه وينفعل به ومعه بإحساس مرهف يجعله يرصد الأحوال والتناقضات والمتغيرات والعوامل الفاعلة فيها، ولا يكتفي برصدها، بل يعانيتها ويندمج فيها، وينتهي منها إلى موقف متميز يكون نابغاً عنده من وعي صحيح ورؤية صائبة، ومفضيًّا به إلى تعبير فني لا يخلو من إبداع وروعة إذا ما توافرت له إمكانات هذا التعبير.

ثم إن ارتباط الشاعر بواقع مجتمعه، في التزام بقضايا الوطن والدين وغيرها مما يشغله وأمته من هموم وآمال، لا يحول دون انبثاق شعره من أحاسيس وخلجات ينطلق منها هذا الشاعر في أجواء حرة، غير مشلول الحركة من جهة، ولا هارباً من نفسه ومجتمعه في انزواء لا يؤدي إلى غير اجترار آلام ذات مريضة. من هنا كانت عناية هذه الأطروحة بشعر الجهاد في الأدب العربي بالمغرب، باعتبار هذا الشعر ظاهرة تلفت انتباه الدارسين المعتمدين، وتغريهم ببحثها، على

سعة المادة التي تعكسها، وصعوبة استقصاء هذه المادة ومواجهتها بالاستقراء والتحليل وشتى أدوات المنهج الملائم.

ولعل غير قليل من الضباب الذي يؤثر على وضوح صورة الجهاد في الأذهان راجع إلى المصطلح نفسه، بما ينم عنه في مدلوله اللغوي من جهد وجراة وشجاعة، وبذل وتضحية لحماية النفس والوطن والكيان بجميع مقوماته، ولرد مختلف أنواع البغي والعدوان، ولتحقيق الأمانى والآمال، وإتاحة حياة الحرية والعزة والكرامة والسعادة. وحين ينظر إلى هذا المدلول من الزاوية الإسلامية، تتحول كل تلك الأهداف لتوجه في سبيل الله ونصرة دينه وطلب مرضاته.

غير أن هذين المدلولين لا يبعدان الجهاد عن مجاله البطولي، بل يقويانه ويرسخانه، سواء في بعده الفردي الذي يظهر به الشخص مزوداً بطاقة عادية أو خارقة يتوسل بها في تحقيق الغلبة والنصر، ومزوداً كذلك بقيم وفضائل تدفعه إلى خوض غمار الصراع ضد الخصوم والأعداء، وكذا في بعده الجماعي الذي يجعل الأمة كلها تتعباً لمواجهة التحديات التي تسعى إلى المس بسيادتها ووحدتها، أو عرقلة نموها وتطورها وما تتطلع إليه من رقي وتقدم.

والجهاد بهذا يشكل ملمحاً من ملامح حياة الأفراد والشعوب، في ارتباط بالروح الديني وما يبيث من مكارم، وما يحث عليه من مواقف للمحافظة عليها والدفاع عنها حتى لا تهان أو تداس.

وهو حين يرتبط بالتعبير الشعري المعرب عن الواقع، يتجاوز كونه مجرد قيمة كبيرة سامية أو مبدأ مثالي رفيع، ليتجلى ملموساً كما مورس في هذا الواقع، وليتلور في ذهن المتلقين لذاك التعبير، ويتسرب إلى إحساسهم، فيدركوه ويستوعبوا

أهدافه، من خلال ما يخلفه في أعماقهم من آثار تجعلهم يستحضرون نماذج فريدة ومثلاً عالياً يكيّفونها مع مشاعرهم الوطنية، وخلقاتهم الدينية، وذواتهم التواقة إلى المواقف المجيدة العظيمة.

وفي هذا ما يفضي إلى تعبئة النفوس وملئها بالثقة، وإفعامها بالتفاؤل، لاسيما في المرحلة المعاصرة التي أخذ فيها الجهاد مفاهيم وأبعاداً أخرى جعلت الأدب المعبر عنه يقدم صوراً جديدة من نضال الأفراد وكفاح الشعوب، في ظل ظروف وشروط مخالفة، وإن ظلت النوازع والغايات واحدة أو تكاد.

وزاد في صعوبة الموضوع وسعة مادته، تناوله عبر فترة طويلة تمتد من منتصف القرن الخامس الهجري إلى منتصف الثالث عشر. وهي فترة حافلة بالأحداث المتلاحقة فيها والمتعاقبة، وغنية - نتيجة هذا - بالتحويلات التاريخية التي عكست تطورات سياسية وفكرية واجتماعية، سواء على مستوى المغرب أو الأندلس أو الأقطار المجاورة، إذ عرفت في عهدها الأولى وحدة بينها جميعاً، كان للمغاربة دور كبير في حمايتها والذود عنها وتحمل عواقبها، لاسيما بعد انقضاء هذه العهود وما تلقوه إثرها من ردود فعل انتقامية.

وكان من نتائج هذه الحقائق أن بثت في كيانهم على العموم، وعلمائهم وأدبائهم على الخصوص، شعوراً عميقاً بتلك التحويلات، وزادتهم تمسكاً بالدعائم والمرتكزات، وقوت إرادتهم في الصمود والثبات.

وحتى تتبين معالم هذا الجهاد ومواكبة الشعر له، فقد بدأ الباحث باستعراض هذا الشعر في عهد الفتح الإسلامي عامة، وما كان منه متصلاً بالمغرب خاصة، مع الإمام بما قيل منه في ظل الأدارسة. ثم تناول ما كان منه مرتبطاً بالفترة المحددة، منضوياً تحت أغراض بدأها بالفتوح، لينتقل منها إلى المقاومة، غير مهمل ما جاء من الشعر الجهادي مدمجاً في المدائح والمولديات.

وانتهى بعد ذلك إلى تأمل خصائص هذا الشعر في جانبها الموضوعي والفني، مركزاً على أنه مطبوع بميسم الشجاعة والإقدام، للدفاع عن الأرض والعقيدة، ينوه بالأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس، ويشيد بهم وهو يقدم صوراً حية لمواقع القتال، وللمجاهدين فيها وما كان لهم من مواقف ومعارك، وما توسلوا به في ذلك. ثم هو يعرض وقع النصر في النفوس وما تشعر به وتعبر عنه من نشوة، وهي تتغنى بما حقته للدين والوطن، في تحريض على متابعة الجهاد ومواصلته، وفي حث على الاستشهاد ورتاء الذين استرخصوا أرواحهم فيه.

وغالباً ما يلجأ الشعراء في ذلك إلى التناول المباشر الذي تطغى عليه الألفاظ الموحية بالحرب والقتال، في تعبير عفوي تداخله محسنات محدودة وتضمينات معرفية، وفي اعتماد على الإيقاعات القوية الملائمة، واللجوء أحياناً إلى الجوار. ولم يكتف الدارس بهذا، ولكنه بعد أن قدم مجموعة من الفهارس والمسارد، ألحق بأطروحاته عدداً من النصوص الغميسة التي رأى إيرادها كاملة مما يتمم الشواهد التي توصل بها في البحث.

ولا أخفى أن الدراسة بهذا تعتبر مرآة لحال الجهاد كما عبر عنه الشعر، مما يجعلها إضافة أدبية وتاريخية ذات أهمية قصوى وغنى متفرد. وتعتبر كذلك استفزازاً للوجدان المغربي الذي لم تفتر حيويته، على ما تعاقب عليه من وقائع وأحداث، وعلى ما قطعه من أشواط رافقها تطور كبير مس مفاهيم البطولية والجهاد. ثم هي تعتبر نموذجاً يحتذى لمتابعة الدرس في موضوعها الممتد المتواصل.

ومن الإنصاف للباحث الفاضل السيد عبدالحق المريني صاحب هذه الأطروحة الجيدة التي سعدت بالإشراف عليها، أن أشهد له بالجهد الكبير الذي بذله في البحث والتتقيب، بأناء وصبر، وتريث واتزان، وإصرار على مواجهة الصعب واجتياز الوعر، في تواضع جم جبل عليه بجميل وداعته ولين طبعه وحسن سلوكه، وفي

تطلع دائم عنده لمزيد من الدرس والتكوين، وطموح كبير لإشباع ميله الأدبي، ورغبة ملحة لاكتساب الجديد من العلوم والمعارف.

آية ذلك هذه الأطروحة التي توج بها أعمالاً علمية كثيرة حررها في موضوعات مهمة ودقيقة، ككتابه عن المهدي بن تومرت، وعن المرأة، وعن الجيش المغربي، وكعنايته بجمع ديوان الحسنيات الذي يضم الأشعار التي واكبت المسيرة الحسنية، وعنايته أيضاً بجمع عدد من كلمات مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأعز أمره، وفق ترتيب ييسر الرجوع إليها والاستفادة منها، وإعداده بالاستكتاب لدراسات وشهادات عن جلالته، وعن والده المنعم مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه، كذا إعداده بالاستكتاب أيضاً «لمدخل عن تاريخ المغرب الحديث».

ولا أخفي ما شعرت به من بهج وحبور حين أخبرني الأخ المريني بعزمه على إخراج أطروحته من رفوف مكتبته لترى النور، ثم حين طلب مني أن أقدم لها بهذه الكلمة. ولست أشك في أن الطلبة والدارسين وعموم القراء سيقبلون عليها ويفيدون منها في الاطلاع على صحائف مشرقة من تاريخ المغرب المجيد وإبداع شعرائه المواكب لهذا التاريخ والمرهص به في نفس الآن.

فليهنأ الصديق العزيز الأستاذ الدكتور عبدالحق المريني بهذا الإنجاز القيم، وليواصل جهوده المثمرة المعطاء، والله تعالى يوفقه ويرعاه ويسدد خطاه.

عباس الجراري

الرباط في 12 شعبان 1417هـ

الموافق 24 دجنبر 1996م

مقدمة الطبعة الجديدة

كان شعر الجهاد في الفترة الطويلة من تاريخ المغرب عبر خمس دول من «الإدرسيين إلى العلويين» حكمت المغرب، غزيراً، وفيراً، وحماسياً، ملاً دواوين الشعراء وأراجيز الناظمين ومصنفات الأدباء والكتاب وأسفار المؤرخين، وأرخ لمختلف المعارك والحروب التي خاضها المغرب دولة وشعباً.

وعندما عازمت على تأليف هذا الكتاب، وتصفحت أمهات كتب الآداب المغربي فلم أجد فيها باباً مستقلاً يدعى بشعر الحرب أو الجهاد، أو الغزوات. فكان هدف هذا الكتاب إذاً هو استخراج هذا النوع من الشعر، وتمييزه عن الفنون الشعرية الأخرى وجمعه وتحليله.

وخلال البحث والتقصي وجدت فكرة الجهاد سادت تاريخ المغاربة ورافقت دولهم. فلم تنقطع أبداً حركة الجهاد في مغربهم. فهو جهاد مستمر من أجل المحافظة على استقلال البلاد. ومن أجل الدفاع عن الثوابت الإسلامية، ومن أجل إغاثة المستجيرين الذين عجزوا عن رد العدوان الأجنبي.

فكان شعر الجهاد حاضراً خلال هذه الحركة بكل ثقله. واستتجنا من ذلك أن الجهاد في المغرب لم يحقق فقط بالسلاح بل حقق حتى باللسان والقلم، فجاهد شعراء المغرب بقصيدهم دفاعاً عن المغرب وحرية ودينه، وجاهدوا إسقاطاً لأعدائه والمعتدين على كرامته، وللتحريض على الجهاد والتشجيع عليه استجابة لنداء المستصرخين والمستغيثين من المغرب والأندلس، والتصدي لكل معتد أثيم على شواطئ المغرب وغناء أرضه.

ولم تكن الغاية المتوخاة من هذه «الحركات» الجهادية هو الحرب والدمار أو الاعتداء على الآخرين -فالمجاهدون لا يلجؤون إلى السيف إلا عندما يعتدى عليهم وعلى حرمة دينهم- بل كانت فكرة الانتصار للدين الإسلامي والدفاع عن الوحدة الترابية للبلاد هي الهدف الأسمى لكل «حركة» جهادية. وكانت هذه الفكرة نفسها هي التي تراود شعراء الجهاد وكتابه.

ألا يستحق هذا الشعر تنقل باحثه عبر الخزانات الوطنية والخاصة لتصفح أمهات الكتب في الأدب والتاريخ، ودواوين الشعراء، وأراجيز الناظمين، ومصنفات المؤرخين، وأسفار الرحالة، ومخطوطات الباحثين، ومراجع نادرة مغمورة لعله يجد ضالته المنشودة؟

ألا يستحق هذا الشعر الخروج إلى الوجود... والانفراد بمصنف يلقي عليه الأضواء، ويبرزه متجلياً شامخاً يفرض وجوده بين الأصناف الشعرية الأخرى القديمة والحديثة؟

وهكذا ألقى هذا الجهد المتواضع الأضواء الكاشفة على شعر الجهاد الذي أبان لقارئه أنه كان طرفاً في الجهاد مع المجاهدين، وسلاحاً من نوع آخر يشد أزهرهم، ويدعم جهادهم ويقوي عزائمهم، ويدفعهم إلى النصر القريب. وكان هو أيضاً مؤرخاً لحركة الجهاد وشاهداً على أطوارها عبر تاريخ المغرب. وبفضله صار شعراؤه أقرب من المؤرخين إلى إثبات مكنونه، ووصف معاركه ونضالاته.

وبذلك كان للجهاد في المغرب عمادان: السيف والشعر، تعايشاً معاً وتبادلاً التأثير، فكان الشعر ضرورياً للتحسيس على الجهاد، وكانت «حركة» الجهاد باعثة لقول الشعر، ومؤثرة فيه شكلاً ومضموناً.

ولا يخفى على القارئ النبیه لهذا المصنف أنني أعني بالجهاد، الجهاد الرامي إلى الدفاع عن النفس وعن الوطن وعن الملة كلما وقع اعتداء عليها. يقول

القرآن الكريم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وليس بالمعنى الذي ألصق به في هذا العصر، الملفوف بالتعصب الأعمى والاعتداء الشنيع على الغير بدون هوادة، والمعرض على العنف المقيت والنفير والتفجير، والزحف الظالم والذي يتناقض تناقضاً تاماً مع جوهر الجهاد المشروع وروحه وضوابطه الأخلاقية، وأهدافه الإنسانية. إن الجهاد لا يعني فقط الموت في سبيل الله والوطن بل يعني أيضاً الحياة في سبيل الله والوطن.

ويسعدني غاية الإسعاد أن تتفضل مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية بدولة الكويت الشقيقة - بمناسبة تنظيم مهرجان ربيع الشعر العربي لسنة 2019 والإعلان عن صدور «معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات»- بإعادة طباعة هذا الكتاب مشكورة في حلة مميزة من باب اهتمامها بديوان الشعر العربي وانشغالها بظواهره وقضاياها ورموزه وأعلامه، مما يدعم ثقافياً أسباب التواصل والتعارف والتعاون بين دول الوطن العربي مشرقه ومغربيه.

والله ولي التوفيق والهداية

عبدالحق المريني

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم.. وصلى الله على خاتم النبيين والمرسلين

تاريخ المغرب سلسلة من الملاحم الحربية والمعارك الضارية خاضها أهله ليحافظوا على وحدة بلادهم، وليقفوا سدًا منيعًا أمام التوسعات الأجنبية عبر شواطئه، وليحموا الرسالة الإسلامية التي حمل لواءها إدريس الفاتح ولينشروا ذيول هذه الرسالة في الأندلس شمالاً وفي الأقاليم الصحراوية إلى وادي السنغال جنوباً.

ولم تكن حركة النضال والجهاد هذه تقودها الدولة فحسب وتخوض غمارها القوات النظامية، بل كثيرًا ما أخذ المجاهدون على عاتقهم هذه المهمة الشاقة والعسيرة والنبيلة في نفس الوقت، وأذكوا في نفوس المغاربة الشعور الديني والوطني ليجاهدوا في سبيل الله، وليدافعوا عن عزة الإسلام وكرامة بلادهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ذلك أن المغاربة - كما عرفوا عبر تاريخهم المجيد - لا يركنون للاستسلام واليأس، وإنما دأبهم أن يصبروا ويصابروا ويستلهموا من ذخيرة إيمانهم القوي روافد من القوة والبأس الشديد لمجابهة التحديات ومطاردة الانكسارات.

ففكرة الجهاد والنضال هي فكرة سادت تاريخ المغاربة وسأيرت عصورهم ودولهم، فلم تتقطع أبدًا حركة الجهاد داخل المغرب وخارجه: في الأندلس وفي إفريقيا وفي «السودان». نضال مستمر من أجل الاستقلال والدفاع عن الإسلام

وإغاثة المستجيرين من الجيران الذين عجزوا عن رد العدوان وحماية أهل والبلد،
وأخيراً كما قال ابن خلدون: «غضب لله ولدينه».

فجذبت فكرة الجهاد المجاهدين المغاربة بألقها ودفعتهم إلى استرخاض أرواحهم
في سبيلها غير جزعين من بأس أعدائهم مؤمنين بأن كل شيء قد قدر تقديراً.

وكان باعث تشبث المغاربة بحركة جهادهم هو إيمانهم الراسخ - كباقي المسلمين -
- بأن الجهاد هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية ومبدأ من مبادئ الإسلام
التي أخذت مكانتها بين عقائده، وأمر متعلق بذمة المسلمين أفراداً وجماعات⁽¹⁾.

وكان هدفهم من جهادهم ليس لدوافع عدوانية وإنما هو إحساس غريزي
لإعلاء كلمة الله - وكلمة الله هي نصرته الحق وإقرار العدالة وإحلال السلام -
ولنشر دينه القويم وحماية دعوته ولقتال أعداء الإسلام جهاداً في سبيل الله، وحباً
في الاستشهاد حتى يلقوا ربهم شهداء وينعموا بما وعدوا به من جنان تحت ظلال
السيوف وآخرة هي خير وأبقى⁽²⁾.

ولما كان الجهاد في سبيل الله يحقق بوسيلة السلاح أو النفس أو المال أو
حتى باللسان فقد جاهد شعراء المغرب بلسانهم وقلمهم دفاعاً عن المغرب وحرية
وعزته⁽³⁾ ودينه وإسقاطاً لأعدائه والمعتدين عليه.

وكانت «حركتهم» الشعرية قوة دافعة يغذيها الإيمان العميق والإحساس
بضرورة الانطلاق برسالة النضال والجهاد إلى المغاربة كافة.

(1) قسم بعضهم الجهاد إلى ثلاثة أقسام: «الأول: مجاهدة العدو الظاهر، والثاني: مجاهدة الشيطان،
والثالث: مجاهدة النفس».

(2) يقول أحمد الناصري صاحب الاستقصا: «ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل... تباروا في جهاد
عدوهم وقتاله، سواء في ذلك الخاصة والعامة، قاموا لنصرة الدين غيرة واحتساباً، فاستشهد منهم
أقوام وأسرى آخرون...».

(3) يقول القرآن الكريم: «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» (النساء 95).
«الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم
الفائزون». (التوبة 20).

فواكب الشعر المغربي «مسيرة» المغرب «الجهادية»، وترجم وعبر على أن المغرب كان مسرحاً لسلسلة من النضالات المتواصلة التاريخية، وخلد في طي دواوينه ملاحم رائعة لبطولات الجيوش المغربية وبلاتها في ميادين الجهاد والاستشهاد داخل البلاد وخارجها، وارتبط شعر الجهاد ارتباطاً وثيقاً بحياة المجاهدين في الدفاع عن حوزة البلاد والذود عن حماها ومحاربة أعداء المسلمين وحماية راية الإسلام في العدوتين: المغرب والأندلس.

فكان شعر الجهاد جزءاً صميمياً من حياة المغاربة ونضالهم وصوتاً مدوياً لجهادهم، ولساناً معبراً عن إرادتهم وسلحاً منافحاً عن شرفهم، وكانت كل قصيدة من قصائده مربوطة بحادث يمت إلى تاريخه النضالي من قريب أو بعيد.

ولما كان شعر الجهاد والبطولة والنضال في الأدب المغربي متصلًا بتاريخ الأمة المغربية وجهادها وصورة لأناشيد بطولاتها وسجل عزمها، ولما وقف شامخاً على رأس بقية الاتجاهات الشعرية المغربية - وهو من الغزارة والعمق وبشكل لا يمكن تغافله أو تجاوزه ويستدعي في نفس الوقت الوقوف عنده طويلاً واستقصاءه واستقراءه ودراسة أبعاده ومغزاه - انتبعت إلى فكرة تدوين هذا الشعر واستخراجه من أشعار الوصف والمديح والهجاء والثناء والتهاني والفتوحات والمولديات المنبثة بين دفتي كتب الآداب والتاريخ والرحلات المغربية، وتضاعيف كتب التراجم والطبقات والدواوين الشعرية المطبوعة منها والمخطوطة، والمبثوثة في ثنايا مختلف المصنفات، وجمع شتاته ووضعه في باب مستقل وتحت عنوان جديد⁽¹⁾.

(1) قد سبقني أستاذي الدكتور عباس الجراري إلى هذا الاتجاه وأصدر كتابين يجمعان جزءاً من شعر الجهاد الحديث وهما: «النضال في الشعر العربي بالمغرب» من 1830 إلى 1912 «ومعركة وادي المخازن وملاحمها في الأدب المغربي».

وناقش محمد الطاهري بجامعة «هيدلبرج» الألمانية سنة 1990 أي سنة بعد مناقشة هذه الرسالة - رسالة لنيل دكتوراه الدولة في موضوع: «شعر الحرب في عهد الموحدين». تناول فيها الباحث الأشعار التي تحدث فيها أصحابها عن حروب الموحدين في شمال إفريقيا والأندلس وجزر البليار، موازناً بينها وبين ما ورد في النصوص التاريخية والرسائل الرسمية.

قد بذلت قصارى جهدي لتعقب المجاهدين المغاربة في انطلاقاتهم العسكرية، وغزواتهم الحربية لتقصي شعر الجهاد والتتقيب عليه من بين ثلثيا رفوف المصنفات المتباينة. وحاولت التغلب حسب استطاعتي على ما واجهتني من صعوبات تعترض كل الباحثين والمنقبين في حصر «مادة» جديدة. وبعد جمع ما اهتديت إلى جمعه من مادة شعر الجهاد وتصنيفه وتبويبه حسب أبواب الرسالة وفصولها، ربطت هذه النصوص الشعرية بظروفها التاريخية بالقدر المناسب - دون طغيان الجانب التاريخي على الجانب الأدبي - وبمسبباتها وبالتأثيرات الداخلية والخارجية لعلّي أضعها في إطارها العام الحقيقي الذي ليس هو إلا إطار الملاحم النابعة من أعماق التاريخ المغربي. إذ لم يكن الشعر في عصر من عصور المغرب بمعزل عن قضاياها التاريخية وحركاته الجهادية، فكل قصيدة من قصائده تربطها علاقة من قريب أو بعيد بحادثة أو نازلة تاريخيتين.

ومن هنا جاءت صعوبة البحث في هذا الموضوع وتحرير فصوله إذ أصبح يركز على عنصرين أساسيين: الأدب والتاريخ، لا مناص من الجمع بينهما.

فبرزت هذه الرسالة إلى الوجود عن شعر الجهاد في الأدب المغربي من عهد يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي، بعد التروي في اختياره والاعتماد على تصنيفه وتحليله واستجلاء مكنونه.

وقد حصرت موضوع الرسالة في هذه الفترة من تاريخ المغرب لغناها بالأحداث الداخلية والخارجية ولكونها فترة مشرقة من تاريخ الجهاد المغربي زاخرة بالفتوحات الداخلية والخارجية وبالصور الرائعة للبطولة والشهامة والنجدة والقوة والتضحية والإيثار للمجاهدين المغاربة الأبرار في حومات الوغى وزحمت القتال. وهي أهم ما شغل المغاربة - طوال هذا التاريخ البطولي - إيماناً منهم بضرورة الدفاع عن سلامة بلادهم والذود عن رسوخ عقيدتهم الإسلامية وحماية دولتهم الحاكمة والشرعية.

وقد سائر الشعر المغربي هذه الأحداث وواكبها واضطلع بتسجيل مفاخر الجهاد، والتغني بالبطولات والملاحم وبالفتوحات والانتصارات، ووصف أحوال الحروب وقسوة المعارك واندفاع المجاهدين في ساحات الوغى، جهاداً في سبيل الله يدفعهم التمسك بالعقيدة السليمة والإيمان الصادق بأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. فكان «شعر الجهاد» غزيراً ووفيراً، قوياً ورفيعاً، واقعياً وحيّاً - لا خيالياً ولا صورياً - ملأ بطون دواوين الشعراء وأراجيز الناظمين ومصنفات الكتاب ورسائلهم وكتب المؤرخين وأسفار الأدباء منهم، وأصبح وثيقة تاريخية تؤرخ لمراحل حية من تاريخ المغرب الجهادي والنضالي وتخلد ما لم يستطع النثر أن يخلده أناشيد للبطولة والعزة والمجد.

وهذا ما قصدت من جمع - ما تشئت من شعر الجهاد في مختلف المصنفات الأدبية والتاريخية - في سفر يؤلف ملحمة خالدة ويملاً زاوية شاغرة من زوايا الشعر المغربي.

وإذا كنت وقفت ببحثي عند نهاية عهد المولى عبدالرحمن، فلأنني أرى أن بهذا العهد تبدأ فترة جديدة في تاريخ المغرب، غنية بأحداث متميزة كانت لها انعكاسات على الفكر والأدب بما أشعت عليهما من روح خاصة عني بأبرازها من سبقني من الدارسين⁽¹⁾.

فقد انتقل المغرب من مرحلة العظمة دولة وأدباً إلى مرحلة أخرى من تاريخه، وأصبح فيها موضوع مساومة بين الدول الأوروبية التي تتربص به الدوائر لاحتلاله واقتسام أرضه واغتصاب ثرواته، ومن باب التبعية انتقل الأدب المغربي عامة والشعر خاصة من مرحلة الغزارة وقوة التعبير وفخامة اللفظ إلى مرحلة التقاعس

(1) انظر «النضال في الشعر العربي بالمغرب» من 1830 إلى 1912 للدكتور عباس الجراري المشار إليه سابقاً.

والخمول، والضعف والهزال، وانقلب شعر الجهاد إلى شعر الموعظة والحكمة وشعر التوسلات والتزهّد والاستغفار بأن يمن الله على هذا البلد الآمن بواسع رحمته وكريم رعايته وخفي ألفاظه.

وماذا أعني «بشعر الجهاد»؟..

أعني به ذلك الشعر الذي يهدف الشاعر المغربي من ورائه - ومن خلال قصائده المدحية والفخرية والحماسية والراثية والهجائية والوصفية - إلى:

- الإشادة بشجاعة الجند المغربي - مشاة وفرسانا ورماة - وبلائهم في حماية الإسلام والعقيدة الدينية في هذه الديار وفي غيرها من الديار المجاورة لها برًا وبحرًا.

- التتويه بإقدامهم البطولي للذود عن حمى الوطن والإيقاع بأعدائه الثائرين الباغين.

- إبراز ضراوة القتال وشدة العراك بين الجيوش المغربية والجيوش الغاصبة المعتدية وانهزام فلولها المنحجرة المنهزمة.

- وصف دقيق لوسائل الطعان وأسلحة النزال وسنن الاقتتال في ساحات الوغى.

- التغني بنشوة الظفر والانتصار: انتصار جنود الله على جنود الشيطان.

- الإشادة بشجاعة الإمام وفروسيته ورسالته الجهادية.

- تخليد الفتوحات الظافرة والانتصارات الباهرة وتهنئة الإمام القائد بها.

- التحريض على الاستشهاد في سبيل الله والاستتجاد بالمجاهدين - الذين أخذ الإيمان بمجامع قلوبهم - كلما اعتدي على حرمة هذا البلد سياسيًا وعقائديًا.

- هجاء الثوار والعصاة والأعداء وتهديدهم بالوعد والوعيد.

- رثاء ما تنتهي إليه «الحركات الجهادية» عادة من شهداء خالدين في جنات النعيم.

فجاء هذا الشعر بمثابة «فن جديد» يضاف إلى الفنون الشعرية المعروفة في الأدب المغربي والذي يطلق عليه «شعر الحماسة» في الأدب العربي قديماً، أو «شعر الحذب» حديثاً، جديرًا بالبحث والتأمل، وقمنا بالتحليل والدراسة.

لذا سلكت في هذا البحث منهجاً ينطلق من اختيار «شعر الجهاد» باعتباره ظاهرة منفردة و«فن جديد» في أدبنا تحتاج إلى أن تدرس وتحلل لتبرز من خلالها ملامح إبداع شعري ممتد طوال عصور مختلفة، إيماناً مني بأن منهج دراسة الأدب المغربي على أساس الظواهر والقضايا - وهو المنهج الذي سار عليه د. عباس الجراري⁽¹⁾ في دروسه وبحوثه - يبقى في المرحلة الدراسية الراهنة أنسب من غيره لكشف النقاب عن هذا الأدب ولم شتاته وتجاوز ثغراته.

وأود أن أؤكد هنا أن هذا المنهج يستند إلى الاستقصاء والاستقراء وإلى التعامل مع المادة بموضوعية وعقلانية دون إهمال عنصر التذوق، وكذا إلى التوسل بمختلف الأدوات الإجرائية التي قد يتطلبها هذا التعامل، في تكامل وتوفيق لا ترقيع فيه ولا تلفيق.

ومن ثم فهو منهج يقوم على الوصف والتحليل - والنقد إن اقتضى الحال - ويهدف إلى التعريف بظاهرة شعر الجهاد وإبراز ملامحها الخصوصية. وهكذا قسمت الأطروحة إلى: تقديم ومدخل وأربعة أبواب وخاتمة.

1 - تقديم.

2 - مدخل عام: وجعلته في ثلاثة مباحث:

أ - المبحث الأول: عن الجهاد.

ب - المبحث الثاني: عن شعر الحرب والجهاد في عهد الفتوحات الإسلامية.

(1) انظر مقدمة كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها» للدكتور عباس الجراري، ج. 1 ابتداء من ص 3.

ج - المبحث الثالث: عن الجهاد في أشعار الفتوحات الإسلامية للمغرب
وفي أشعار العهد الإدريسي.

3 - الباب الأول: شعر الفتوحات، وجعلته في فصلين:

الفصل الأول: شعر الفتوح الداخلية⁽¹⁾، وأعني بها الانتصارات التي حققها
الملوك المغاربة الفاتحون ضد الثوار والمتمردين والعصاة
الذين شقوا عصا الطاعة في جميع جهات البلاد.

الفصل الثاني: شعر الفتوح الخارجية، وهي الانتصارات التي خلدها
الملوك المغاربة على رأس جيوشهم وجحافلهم بالمغرب
الأوسط وإفريقية والأندلس والسودان على عهد الدول
المرابطية والموحدية والمرينية والسعدية.

4 - الباب الثاني: شعر المقاومة، وقسمته كذلك إلى فصلين:

الفصل الأول: شعر التحريض على الجهاد والاستجداء بالمجاهدين لتلبية
نداءات المستغيثين من أهل الأندلس المنكوبة ولإيقاظ
همم المغاربة لينهضوا للدفاع عن ثغورهم والوقوف سدًّا
منيعًا في وجه الزحف المسيحي على شواطئهم وثغورهم.

الفصل الثاني: شعر الدفاع الوطني ورد العدوان الخارجي الإسباني
والبرتغالي على سيادة المغرب - انتقامًا منه على وجوده
السالف بالأندلس - وحض المجاهدين على الثبات
والصمود والمطاردة تحسبًا لكل كارثة أو نازلة.

(1) قد تساءل البعض لماذا لم نستخدم لفظ «الحملات» بدل «الفتوحات»، والجواب أننا أطلقنا على هذه الانتصارات الداخلية وصف «الفتوحات» لأن قادتها «يفتحون» من أجل إحقاق الحق، والمحافظة على الوحدة الوطنية والدينية من جهة أولى، ولتثبيت مشروعية الدولة الحاكمة من جهة ثانية، كما أننا تجنبنا استعمالها لأنها تتضمن معنى العدوان والتهجم، كما هو الشأن بالنسبة «لحملة» نابليون على مصر، والحملات «الصليبية» المعروفة، بينما كان هدف «الفتوحات الداخلية» المتحدث عنها لا من أجل العدوان، بل لرد العدوان، ولتحقيق ما فيه خير البلاد والعباد دينًا ودنياً.

5 - الباب الثالث: أغراض أخرى غير مباشرة، وتناولتها في فصلين:

الفصل الأول: شعر المديح.

الفصل الثاني: شعر المولديات. ففي قصائد المديح والمولديات التي كان يلقيها الشعراء تخليدًا للانتصارات وإحياء للأعياد الدينية وليلة عيد المولد النبوي نجد شعراً يشيد بشهامة الملوك والأمراء في معاركهم وحروبهم وبيطولة أجنادهم وبالانتصارات التي حققوها على أعدائهم في الداخل والخارج.

6 - الباب الرابع: خصائص شعر الجهاد، وهو بدوره في فصلين:

الفصل الأول: روحه ومضمونه. (الخصائص الموضوعية).

الفصل الثاني: فنيته. (الخصائص الفنية). ففي هذا الباب جمعت ما توافر جمعه من الموضوعات التي تطرق إليها شعراء الجهاد في قريضهم واستجلبت الطوابع الفنية لهذا الشعر ومقوماته وأبعاده الفنية.

7 - الخاتمة: وتخلصت في الأخير إلى خاتمة - أسأل الله حسناتها - ضمنيتها تلخيصاً موجزاً يكشف عما انتهت إليه محاولتي المتواضعة، ويبين القيمة الحقيقية لهذا العشر من حيث ارتباطه بالوقائع والأحداث التي عايشها وواكبها، ومن حيث جماله وإبداعه، ومن حيث أبعاده في الأدب المغربي.

هذا وقد اتبعت منهجاً خاصاً في الترجمة للشعراء والملوك وقادة الجهاد والأعلام، وكذا في إعطاء نظرة تاريخية عن مواقع الجهاد ومراكزه الواردة في الرسالة. ذلك أنني لم أترجم في الهوامش إلا للشعراء الذين أطنبوا في نظم شعر الجهاد، واستدلتت بجل قصيدتهم لغزارته ولاحتوائه لمضامين شعر الجهاد،

كأبي العباس الجراوي ومالك بن المرحل وعبدالعزیز الفشتالي ومحمد بن إدريس العمراوي وغيرهم من الشعراء كثير.

كما أنني لم أترجم للملك الدول التي حكمت المغرب إلا للذين كان لهم دور قيادي في حركة الجهاد والدفاع عن الإسلام في هذه الربوع، وفي رد كل اعتداء أجنبي على المغرب وأهله، كيوسف بن تاشفين المرابطي ويعقوب المنصور الموحي وأبي الحسن المريني وأحمد المنصور الذهبي السعدي والمولى إسماعيل العلوي وغيرهم من الملوك والأمراء وقادة الجهاد الذين برزوا في الدفاع عن حرمة الإسلام والمسلمين في المغرب الإسلامي.

وقد اتبعت نفس الخطة في التعليق على مراكز الجهاد ومواقعه حيث لم أتناول بالتأريخ إلا المراكز التي كانت ميداناً لعمليات الجهاد ومنطلقاً لها، كما أنني - توضيحاً لكل تساؤل واستفسار - فإني لم أتعرض قط في هوامش الباب الرابع من هذه الرسالة والتي تناولت فيه خصائص شعر الجهاد الموضوعية والفنية - لأي مصدر من مصادر الأبيات الشعرية المثبتة فيه استدلالاً وذلك لأنه سبقت الإحالة على مصادر القصائد الأم في الأبواب السابقة. وأعتقد جازماً أن إثباتها مرة أخرى يعد ضرباً من التكرار اللاموضوعي.

كما وضعت في آخر هذه الرسالة فهرس لأسماء الشعراء والملوك والأعلام الآخرين وللمواقع والحروب والقصائد وأشعار الجهاد الواردة حسب قوافيها.

ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أقدم بالشكر الجزيل والتقدير الوفير لأستاذنا الدكتور عباس الجراري على حسن رعايته وجميل مساعدته وسديد توجيهه لأجل تنوير السبيل كلما أظلم، وتقريب المقصد كلما بعد، وتقويم المنهج كلما اختل، وإذكاء «شعلة» مواصلة البحث والتقصي والتمسك بالصبر والمصابرة، ومتابعة التحرير واستخلاص الخصائص كلما خمدت العزيمة وضعفت الإرادة وطويت صحف الرسالة وجفت أقلامها.

كما أزجي الثناء الجميل للأستاذ الجليل السيد محمد بن تاويت⁽¹⁾ وإلى الأستاذ
البحاثة السيد عبدالقادر زمامة وإلى المشرفين على الخزانة الوطنية - بقسميها:
المطبوع والمخطوط - والمشرفين على الخزانة الحسنية الذين دلوني على مصدر من
المصادر أو نص من النصوص.

وقد بذلت قصارى جهدي في تحرير هذه الرسالة تحريراً يلائم عظمة
موضوعها، مستعيناً بالله في مبتدأها ومنتهاها، معتذراً عن كل تقصير أو قصور،
وعما لا بد أن يكون قد فاتني أو عسر على إدراكه من المراجع والمصادر. فإن
وفقت إلى بعد ما نشدت وتوخيت كان ذلك من فضل ربي، وإن كانت الأخرى -
وما أظن أنني بمنجاة منها - فحسبي أنني بذلت الجهد وأخلصت النية وأن أنال
أجر ما اجتهدت، والله مقيل عثرتي وهو حسبي وعدتي، مردداً مع شيخ المعرة
أبي العلاء المعري:

وقد يخطئ الرأي الفتى وهو حازم
كما اختل في وزن القريض عبيد

عبدالحق المريني

(1) كان الأستاذ محمد بن تاويت مازال على قيد الحياة رحمه الله إلى تاريخ مناقشة الرسالة.

المدخل

- المبحث الأول: كلمة في الجهاد.
- المبحث الثاني: شعر الحرب والجهاد في عهد الفتوحات الإسلامية.
- المبحث الثالث: الجهاد في أشعار الفتوحات الإسلامية للمغرب وفي أشعار العهد الإدريسي.

المبحث الأول: كلمة في الجهاد

الجهاد لغة بذل الجهد، وفي الاصطلاح الشرعي هو محاربة أعداء الدين الإسلامي والقتال خالصاً للدفاع عن العقيدة الإسلامية لوجه الله، وإعلاء كلمته، والدفاع عن المسلمين، وتأمين حياتهم بقوة السلاح - إذا ما وقع اعتداء عليهم وعلى حرماهم وأرضهم - تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾⁽¹⁾، ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾⁽²⁾، لأن الإسلام لا يرضى للمسلمين المذلة والمسكنة والهوان.

كما يدخل في نطاق الجهاد محاربة من يمنع تحقيق أن: ﴿يكون الدين كله لله﴾، ودعاة الإلحاد والضلالة وإزاحتهم عن طريق الدعوة الإسلامية الصحيحة قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾⁽³⁾ دون قتل غير المؤمنين من المشركين والكفار والمنافقين ظلماً وعدواناً أو للحصول على مغانمهم. فإن ذلك يصبح اعتداء وليس جهاداً. قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾⁽⁴⁾. لأن الجهاد ليس في الحقيقة الإسلامية حرب مطلقة، بل هي حرب مقيدة بشروط عدة، منها عدم الابتداء بالاعتداء. فالمجاهدون لا يلجأون إلى السيف إلا عندما يعتدى على حرمة الإسلام، وتنتهك حرمة المسلمين.

(1) البقرة: 194.

(2) الحج: 39.

(3) الأنفال: 39.

(4) البقرة: 190.

وإذا كان الجهاد هو جوهر العقيدة الإسلامية، فأساسه في الإسلام أن يكون في سبيل الله، قال تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا﴾⁽¹⁾.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، فأَيُّ في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله⁽²⁾.

ويعد الجهاد ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، وحكمه في الإسلام أنه فرض كفاية حسب المذاهب الأربعة، وقد يصير سنة وتطوعًا وربما فرض عين⁽³⁾ عندما يعتدى على أرض إسلامية ويهاجم أهلها المسلمون، أي عندما ينزل «عدو الدين» بأرض الإسلام ويعتدي على الأمة الإسلامية فيصبح الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان.

وشروط الجهاد: الإسلام والبلوغ والعقل والرجولة والطاقة على القتال، قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾⁽⁴⁾.

وثواب المجاهد في حالة استشهاده هو الجنة: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾⁽⁵⁾، وثواب المجاهد في حالة انتصاره هو الفوز والغلبة، فالمجاهد فائز في كلا الحالتين، الانتصار والاستشهاد، ومن لم يستطع الجهاد بالسلاح لضعفه أو لمرضه أو لعجزه جهز غازيًا في سبيل الله - قال الرسول ﷺ: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد

(1) النساء: 74.

(2) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، ج. 4، ص 179، ط. الحلبي بمصر، 1962.

(3) يقول قاضي فاس علي التسولي في «الجواب البسيط على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري» في هذا الموضوع: «إذا نزل عدو الدين بأرض الإسلام أو قريبًا منها وبدأ الدخول إليها فإن الجهاد فرض عين على أهل ذلك البلد وعلى رماهم، شيوخًا وشبابًا أحرارًا وعبيدًا»، ص 8 من الملزمة وانظر كذلك المنوني: المظاهر، ج. 1، ص 17.

(4) التوبة: 41.

(5) آل عمران: 169.

غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا»⁽¹⁾ - ، كذلك من جاهد بماله أو بكلمته أو بقريضه أو بحكمته ذوداً عن الدين والوطن والشرف.

وقد وردت في التنزيل آيات بينات كثيرة تحض على الجهاد في سبيل الله وتدعو إليه وترغب فيه وتوصي بإعداد القوة لصد المعتدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾⁽²⁾، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾⁽³⁾، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾، ﴿وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾⁽⁵⁾، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾⁽⁶⁾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلِكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾⁽⁸⁾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁹⁾، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁰⁾. فاقتضت حكمة الله أن تكون الأمة الإسلامية - بعد هذه الأوامر الإلهية - مجاهدة، عزيزة الجانب لا تستكين إلى هوان، وأن يكون الجهاد في سبيله تكريماً وتشريفاً لها، لتكون خير أمة أخرجت للناس.

(1) البخاري: الصحيح، ج. 3، ص 214، (طبعة دار الفكر). قام الدكتور عبداللطيف الشاذلي بتحليل لهذا الحديث النبوي في رحاب الدروس الحسنية (رمضان 1406هـ) تحت عنوان: «مسألة الدولة والحدود: السياسة والتاريخ»، «الدروس الحسنية» (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، ص 74 وما بعدها.

(2) الصف: 4.

(3) التوبة: 111.

(4) التوبة: 41.

(5) الحج: 40.

(6) آل عمران: 142.

(7) الصف: 10 - 11.

(8) الحج: 78.

(9) المائدة: 35.

(10) النساء: 95. انظر باقي الآيات الواردة في موضوع الجهاد في السور القرآنية السالفة الذكر: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النحل، الحج، العنكبوت ومحمد..

وجعل الله من الجهاد لأمتة تكليفاً قائماً وباقيًا حتى تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾⁽¹⁾. وهو إعداد بجميع عناصر الجهاد وما يتعلق به من عقيدة راسخة وإيمان قوي وفنون حربية عالية، وحركة دائبة⁽²⁾.

وقد قص القرآن الكريم علينا أحسن القصص عن الجهاد والمجاهدين من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، تعطي للمسلمين أروع الأمثلة في روح الجهاد وأهدافه المثلى. «وقد تطور مدلول لفظ الجهاد في القرآن الكريم تبعاً لظروف التنزيل وأحوال العصر» وأطوار التاريخ. فلم تقتصر كلمة الجهاد في الكتاب على معنى الحرب والقتال وردع الأعداء وحماية «دار الإسلام» وإعلاء كلمة الله فحسب، بل تعدى معناها ليشمل معاني جهاد النفس والصبر على الأذى وتحمل المشقة في سبيل الله والدين الحق. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾⁽³⁾، «فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً»⁽⁴⁾، «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً»⁽⁵⁾.

كما أن الجهاد من وظيفته في القرآن الكريم «تحريك للعالم الإسلامي»، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾⁽⁶⁾.

(1) الأنفال: 60.

(2) مما ينسب للمنتبى وهو غير موجود في الدواوين المطبوعة قوله:

ولو يستوي بالنهوض القعو
د لما ذكر الله فضل الجهاد

(د. محمد بن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، ص 292).

(3) العنكبوت: 69.

(4) الفرقان: 52.

(5) لقمان: 15.

(6) سورة الحج: 40. قال جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله - في هذا السياق - في إحدى خطبه: «أقول وأؤكد أن الجهاد يشمل كل شيء لا أستثني نهاية فكرة الحرب لأن الرجل يموت للدفاع عن عقيدته، يموت للدفاع عن بلده، يموت للدفاع عن أسرته، يموت للدفاع عن كرامته، فما هي كرامة

ومن مظاهر الجهاد أيضاً في الإسلام: «المرابطة في الشعور لحمايتها من هجوم الأعداء». قال تعالى من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد وردت في موضوع الجهاد أحداث نبوية شريفة روتها كتب الحديث والفقه محرضة على الجهاد وموضحة مغزاه ومزاياه، جاعلة منه أعظم عبادة فرضها الله عز وجل وأفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ورسوله ومن أهله أخير الناس، استنهاضاً لهم المسلمين لحماية الدعوة الإسلامية من أعدائها المتربصين بها والعمل على نشر الرسالة الإسلامية: رسالة الهداية والعدل والإيمان والحق.

وكان صاحب هذه الأحاديث النبوية - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - مجاهداً باراً منذ مبعثه في مكة المكرمة إلى هجرته إلى المدينة المنورة إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ليبلغ دعوة ربه إلى الناس كافة⁽¹⁾. فلما سئل ﷺ عن أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»، وقال أيضاً: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»⁽²⁾. وعن أي عمل أفضل؟ قال: «الجهاد في سبيل الله بعد الصلاة في ميقاتها والبر بالوالدين»⁽³⁾.

المسلمين إذن، إذا - كلما - داسهم العدو في شرفهم وفي إسلامهم وفي أموالهم وفي أعراضهم وفي عقيدتهم، فما هي إذن قيمتنا إن نحن استسلمنا تمشيًا مع حضارة القرن العشرين واستثنينا نهائياً العمل العسكري، أنا لا أستثني أي شيء وإنما أقول آخر الدواء الكي، علينا أن نجرب كل شيء وأن نركب جميع المسالك، وأن نطرق جميع الأبواب، وأن لا نترك فجاً إلا وصلنا فيه الأولين، ولكن:

إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً
«البيت الشعري من قصيدة للممتبي» (انظر: قال جلالة الملك الحسن الثاني - 2. ص 180، إعداد عبدالحق المريني).

(1) كانت غزوات الرسول - من أجل الجهاد في سبيل الله - وسرايا قادته تنطلق من المسجد النبوي الشريف أو من غيره من المساجد. وفي المسجد كانت تعقد رايات وبنود المجاهدين وتوزع فيه أسلحة الجهاد وفيه يتلقى المجاهدون أحكام الجهاد. وكان عدد غزوات الرسول تسعاً وسراياه سبعاً وأربعين سرية.

(2) أحمد بن حنبل: المسند، ج. 3، ص 456، ص. المكتب الإسلامي، بيروت 1978.
(3) البخاري: كتاب الجهاد والسير، ج 2، ص 134، ص. دار الفكر، بيروت، وانظر كذلك: ابن عبد البر: الاستيعاب، ج 1، ص 234.

قيل إن للجهاد أربع مراتب: «جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين».

ولما سئل الرسول عن معنى القتال في سبيل الله الذي يحبه للمسلمين،
أجاب ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»⁽¹⁾.
وقال أيضاً في التحريض عليه: «لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا
وما فيها»⁽²⁾. وقال عليه الصلاة والسلام: «من رابط ليلة في سبيل الله كانت له
كألف ليلة صيامها وقيامها» (أخرجه بن ماجه عن عثمان بن عفان). وقال ﷺ
حتى لا يقع المسلمون المجاهدون في مغبة التهور والانفعال: «أيها الناس لا تتمنوا
لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال
السيوف»⁽³⁾. وقال عليه الصلاة والسلام مخبراً بأن الجهاد في سبيل الله هو قمة
السلوك الإسلامي: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»⁽⁴⁾
وما شابه هذه الأحاديث النبوية⁽⁵⁾، التي تفيض معانيها ودلالاتها بأجر الجهاد وثوابه
عند الله بما تبذله الأنفس المجاهدة من مشقات وما تكابده من مهالك ومخاطر.
فالجهد في الإسلام - حسب هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية -
فلسفة متكاملة تتناول شخصية المجاهد وسلوكه وعقيدته في الجهاد. فالمجاهد
يتحرك عن إيمان واقتناع، وليس عن جبر أو قسر. وهو يربط في جهاده بين

-
- (1) أبو داود السنن، ج 3، ص 14، ص. دار إحياء السنة النبوية، بيروت.
(2) الترمذي: السنن، ج 4، ص 181 - 182، ط الحلبي بمصر 1962. وقال أيضاً ﷺ: «رباط يوم في
سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». وقال: «من رابط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها
وقيامها». (أخرجه بن ماجه عن عثمان بن عفان).
(3) مسلم: الصحيح - كتاب الجهاد والسير - ص 1362 - 1361، ط دار إحياء التراث العربي -
1955م. وفي سنن الترمذي ورد نص الحديث هكذا: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، ج 4،
ص 187 (ط. الحلبي بمصر 1962).
(4) الترمذي: السنن - كتاب الإيمان - ج 5، ص 11 - 12 (ط. الحلبي بمصر 1978م).
(5) لعبدالله بن علي بن طاهر الحسني كتيب جمع فيه «أحاديث مصطفىة وكلمات نبوية في فضل الجهاد
وأهله «سماء»: «لباب مراقي الجنة فيما ورد في الجهاد والسنة»، (مخطوط بخ. ح رقم 2993).
كما لعلي بركة كتاب جمع فيه أربعين حديثاً في الجهاد، وهو مخطوط بخ. ح تحت رقم 11942.

عقيدته الدينية وعقيدته العسكرية. وهو يقاتل متشبعاً برصيد هائل من الثقة بأن الله سينصر جنده المقاتلين في سبيله، ملتزماً بالأخلاق الحربية الإسلامية⁽¹⁾.

وقد تداول بعض معاني الجهاد شعراء مجاهدون في فجر الإسلام اجتذبهم «ألق الجهاد» فتركوا أهلهم وذويهم وصموا آذانهم عن كل دعوة إلا عن دعوة الجهاد أي دعوة الله.

فهذه امرأة النابغة الجعدي - مثلاً - تتأشده أن يبقى في «بيت السلامة»، ولكنه يجيبها بأن لا عذر له في التخلي عن الجهاد والعودة عنه:

باتت تذكرني بالله قاعدهً
والدمعُ ينهلُ من شأنيهما سبلا
يا ابنة عمي كتاب الله أخرجني
كرهاً وهل أمنعن الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربّ الناس أرجعني
وإن لحقتُ بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا⁽²⁾

(1) لخص الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق أخلاق الجهاد الإسلامي في عشر خصال وردت في خطبته التي ودع بها جيش أسامة بن زيد المتوجه للقضاء على الاضطرابات التي حدثت بعد موت الرسول ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، قموا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقوا أقواماً قد فحسوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله». (محمد الخضري: إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص 23).

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج 1، ص 251 - 252.
النعمان عبدالمنعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص 37.

ونجد أن كثيراً من المؤمنين في صدر الإسلام يدفعون أبناءهم للجهاد ويناضلون بلسانهم إلى جانب الشعراء من الرجال، فالشاعرة الخنساء - التي تتحدر من سلالة أبطال مغاوير - تدفع ببنيتها الأربعة «المغاوير» إلى الجهاد وتزودهم بوصيتها الكبرى: «... وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين وأن الدار الباقية خير من الدار الفانية..». فيبارك الأبناء نداء أهمهم - وقد فعل فيهم الجهاد ما فعل في نفوسهم - ويقاثلون حتى يستشهدوا، فتهتز والدتهم مفتخرة: «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم»⁽¹⁾.

وما كانت - عند مراحل الدعوة الإسلامية - غزوات بدر وأحد والخندق وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف وتبوك، وغزوات الفتوحات الإسلامية كالقادسية واليرموك وفتح مصر وفتح إفريقية والمغرب والأندلس وعين جالوت..⁽²⁾ إلا صوراً رائعة لحركة الجهاد الإسلامية لإعلاء كلمة الله الواحد الصمد، ونشر العدل والمساواة والحق والكرامة الإنسانية بين الناس، ورد أعمال العدوان والعبودية ومحاربة الكفار والمشركين، وتطهير الأرض من رجسهم وفسادهم.

فكان الجهاد «حرباً مقدسة» التزم بها المسلمون وقد فرضها الله عليهم فرضاً - لا من أجل الاعتداد أو الاستعلاء أو البطش والهيمنة والقهر - وإنما من أجل حماية أنفسهم بأنفسهم - كلما اعتدي عليهم - والدفاع عن عقيدتهم الإسلامية وحماية وطنهم الإسلامي مقدامين لا يترددون، مقبلين لا يدبرون، ثابتين لا يتزعزعون، صابرين لا يتخاذلون، صامدين لا يتزحزون، صادقين فيما عاهدوا الله عليه تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَنكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ص 40 - 41، انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي، ج 2، ص 745 - 746. وقد برزت في هذه الفترة أيضاً الشاعرة خولة بنت الأزور.

(2) انظر عن هذه المعارك الإسلامية: جمال الدين حماد: معارك الإسلام الكبرى. محمد فتحي بكوش: معارك الإسلام الكبرى.

(3) محمد: 31.

وهكذا إذا كان الجهاد في الإسلام دفاعاً وإنقاذاً وإصلاحاً وهداية البشر إلى طريق الله، رحمة بهم وعدلاً فهو أيضاً «عقيدة راسخة وبصيرة نافذة وخطة محكمة ودراية عسكرية»⁽¹⁾.

ولم ينته جهاد المسلمين بانتهاء حركة الفتوحات بل ظل قائماً كلما اعتدي على الإسلام وعلى حرمة المسلمين وعلى بلدانهم، وكلما شنت حروب صليبية على المسلمين وعلى أماكنهم المقدسة، إذ لا فرق بين الجهاد لحماية الدين الإسلامي والجهاد لحماية الوطن الإسلامي.

فالجهاد الإسلامي سنة الله في المسلمين مدى حياتهم ووجودهم فهو هجومي ودفاعي معاً مصداقاً لقوله تعالى في محكم آياته: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.. ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز»⁽²⁾.

ويدلي شعراؤنا «المجاهدون» بدلوهم في التعريف بفضائل الجهاد ومزاياه وثواب المجاهدين عند الله:

فينشد الإمام الكلاعي⁽³⁾ في مدح المجاهدين قوله:

هم القوم إن هموا لكشف ملمة

فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعز

وإن سئلوا أعطوا وإن نزعوا أشطوا

وإن وعدوا وفوا وإن عاهدوا بروا

(1) محمود شيت خطاب: العسكرية العربية الإسلامية، ص 17.

(2) الحج: 39 - 40.

(3) هو أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، اشتهر في الأندلس كأكبر عالم وأديب، تخرج على يده جلة من علماء المغرب والأندلس وإفريقية، كانت حياته حافلة بالبطولة والجهاد في سبيل الله حتى قتل وهو يجاهد مع الموحدين بالأندلس لإعلاء كلمة الله، فجمع بين القول والفعل، ترك عدة مؤلفات مخطوطة وأشعاراً نشر بعضها في «الذيل والتكملة» وفي «أزهار الرياض» وغيرهما. (انظر: رسالة دبلوم الدراسات العليا للسيدة ثريا لهي التي تناولت فيها بالدرس شخصية «أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي» بكلية الآداب بالرباط 1986).

وإن مدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم
نشاوى تمشت في معاففهم خمر
وإن سمعوا العواء قاموا بسرعة
حرامٌ عليّ همامهم في الوغى الفر⁽¹⁾

ويقول محمد بن إدريس العمرابي شاعر العلويين ووزيرهم:

وأفضل أعمال الفتى نصرة الهدى
وقتل العدا إن الجهاد هو الذخر⁽²⁾

ويقول عبدالله الهبطي في ألفيته:

إن الجهاد أكبر المعين
عليه تذبذبي أمور الدين
لذات ربنا العظيم الخالق
الواحد الحميد نعم الرازق⁽³⁾

ويعرف الحسن اليوسي المولى إسماعيل بفضائل الجهاد في قصيدة له
يخاطب فيها أهل تطاوين محرضاً إياهم على الجهاد ضد الإسبان المحتلين:

طوبى لعبد خاشع يتقلب
في طاعة المولى وفيها يدأب
ويجاهد الكفار لا مستجلباً
فخرًا بذاك ولا المطامع يطلب
بل يبتغي إعزاز دين محمد
خير الورى الهادي الشفيق الأقرب

(1) انظر هذه القصيدة ضمن قصيدة «فتح سيدنا ومولانا الحسن للقطر السوسي» لعلي السوسي (م).
خ.ع) رقم 633 د، ص 146 - 147.

(2) العمرابي: الديوان، ص 268. انظر ترجمة الشاعر في باب «الفتوحات الداخلية».

(3) منظومة الإمام الهبطي المخطوطة، ص 10 - 11.

فيكون أغضب ما يكون إذا لقي
وأشد ما يلقي إذا ما يغضب
وتراء كالأسد الهصور إذا التظت
حرب يصول على العدة ويحذب
ويقوم ممثلاً لأمر الله في
أمر الجهاد وفي رضاه يرغب
وثوابه يرجو ونيل شهادة
يعلو بها يوم الحساب ويقرب
إن الجهاد لخصلة حمودة
في الدين منصبها لعمرى منصب
أجر عظيم للمعاد مدخر
وغنيمة في عاجل تترقب
كم آية فيه تبين فضله
وحديث صدق في الجهاد يرغب
ولكم نبي مرسل أوصى به
ولكم صحابي به يتقرب
قد قال فيه المصطفى ومقاله
صدق لخير الناس فيما يحسب
رجلان متعزل وآخر ممسك
بعنانه مترصد مترق
فإذا تسمع صيحة يدعى لها
يومًا يطير إلى الصريح فيضرب⁽¹⁾

(1) الحديث النبوي المشار إليه هو: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على منته كلما سمع صيحة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة في هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في الخير». (مسلم: الصحيح - باب فضل الجهاد، ج 6، ص 39 - 40).

ولربّ ذي نسك تيقن أنه
أولى فيما يروم ويعجب
كم شاط ما بين الصوارم والقنا
فيه نفوسٌ طهرت لا تذب
فهو الجديرُ بأن يرام سبيله
وأجلّ ما يدعى إليه ويندب
وأجل ما بذلت نفوس ذوي العلا
فيه وأولى ما إليه تتعب⁽¹⁾
ويقول العلامة الصالح السيد علي بركة⁽²⁾ من قصيدة في تفضيل الجهاد على
غيره من العبادات:

يا من غدا بعبادةٍ يتقربُ
ويرى لدى الحرمين دأباً يدأبُ
تالله لو أبصرت أقواماً لهم
بجهاد أعدهاء الإله تقرب
لعلمت في جنب الذي عاينته
أن الذي عاينته لا يحسب⁽³⁾

(1) الحسن اليوسي: الديوان. مخطوط خ. ع، ص 6 - 7، محمد الجواهري اليوسي الشاعر، ص 161.
(انظر ترجمة اليوسي في فصل: «التحريض على الجهاد والاستجداء بالمجاهدين».)
(2) عاش في تطوان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري.
(3) محمد داوود: تاريخ تطوان، المجلد 1، ص 369.

المبحث الثاني

شعر الحرب والجهاد في عهد الفتوحات الإسلامية

لقد عاش العرب طوال تاريخهم حروباً مستمرة «بين طعن القنا وخفق البنود» بين قبائلهم المتناحرة في جاهليتهم أو بين المسلمين الفاتحين وأعدائهم. وقد قدمت هذه الحروب والغزوات مادة غزيرة للشعر والشعراء، فأصبح الشعر مرتبطاً بأيام العرب وحروبهم وغزواتهم، يواكب معاركهم، وهم يتسابقون في ميادينها ويخوضون لهيبها.

وكان الشعراء خلق المتحاربين يذودون عنهم بقريضهم ويفاخرون بشجاعة أبطالهم، ويشيرون حميتهم ويهونون من بأس أعدائهم ويستخفون بأسباب الموت والهلاك، ويرثون قتلاهم وشهداءهم، ويصفون أدوات نزالهم من سيوف ورماح ونبال وقسي ودروع، التي تبقى ماثراً اعتزازهم وافتخارهم.

ففي جاهلية العرب كان القتال والنزال فريضة الحياة، كانت «أيامهم» طافحة بالبطولة والشهامة والنجدة والحماسة وإباء الضيم، إزاء الشمائل الرفيعة كالكرم ونصرة المظلوم والحلم والوفاء بالعهد والعدل والعفو عند المقدرة... حتى قيل إن معظم شعرهم - الذي هو في الحقيقة «شعر الحرب» «الممزوج» بالمدح والثناء والوصف والفخر والمتجلى في «مطولاتهم» - أنشد في أعظم «أيامهم» وفي خوالد وقائعهم.

فكلما شنت على العربي حرب خاضها - حباً أو كرهاً - للدفاع عن شرف قبيلته، لا يهاب الموت بل يزدريه، لأنه لا يرضى بمذلة الانهزام ولا يرضى أن يتأخر

عن «شرف الدفاع» أو يتهم بالجبن والفرار من مواجهة ما لا بد منه، فيركبها «إن لم يكن إلا الأسنة مركب»:

تسيلُ على حدَّ السيوف نفوسنا
وليست على غير السيوف تسيلُ

قال عنتره بطل حرب داحس والغبراء مع عبس وذبيان⁽¹⁾:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزلٍ
فأجبتها إن المنيةً منهلٌ
لأبد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياك - لا أبالك - واعلمي

أنني امرؤ سأموتُ إن لم أقتل⁽²⁾

وكلما خاض العربي حرباً يخوضها عن قسر لأنها تبتدئ «بالكلام» وتنتهي «بجثث وهام»، ولأنه يعتبرها «ذميمة» وأيامها «كريهة» وذات أوجاع وأهوال، قال عمرو بن كلثوم:

ففي نسالك هل أحدثت صرماً
لو شوك البين أو خنق الأميना
بيوم كريهة ضرباً وطعنأ
أقرّ به مواليك العيون⁽³⁾

(1) من الحروب التي أثارت حمية شعراء الجاهلية أيضاً حرب البسوس التي استمرت بين قبيلتي بكر وتغلب زهاء أربعين سنة. «وقد أنضجت هذه الحرب الشعر الجاهلي وحقت للقصيد العربية صورتها الفنية». «وظهرت هذه الحرب بوضوح في قصائد الشاعر المهلهل بن ربيعة فارسها وشاعرها الأول».

(2) شرح ديوان عنتره بن شداد ص 120 (ت: عبدالنعم عبدالرؤوف شلبي) المكتبة التجارية القاهرية.

(3) عمرو بن كلثوم: المعلقة - شرح المعلقات السبع ص 119.

وقال زهير بن أبي سلمى محذراً من رزايا الحرب ومآسيها:

وما الحربُ إلّا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها ذميمة
وتضرّ إذا ضريتموها فتضرم⁽¹⁾

وإذا خاضها فإنه يندفع في غمارها بكل قوته ومنعته ويركب مخاطرها
متحمساً مقدماً جريئاً مقبلاً مدبراً معاً، يقول عنتره مفتخراً ومفاخراً:

لما رأيتُ القومَ أقبل جمعهم
يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئير في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم يغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم
ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر أقدم⁽²⁾

ويختار الموت في رحابها: «معزراً القول بالفعل». قال بعض بني قيس بن ثعلبة:

أنا لنرخص يوم الردع أنفسنا
ولو نسام بها في الأمن أغلينا
بيض مفارقنا تغلي مراجلنا
نأسو بأموالنا أثار أيدينا⁽³⁾

(1) زهير بن أبي سلمى: المعلقة - المصدر السابق ص 81.

(2) شرح ديوان عنتره بن شداد ص 153 - 154.

(3) أبو تمام: ديوان الحماسة، ج 1، ص 26 (المكتبة الأزهرية مصر، ط 3 - 1972).

وقال الصحين بن الحمام المري:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما⁽¹⁾

وقال امرؤ القيس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكرٍ مفيرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً

كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علٍ⁽²⁾

ويتسابق إلى الحرب سواء أكان شاباً أم شيخاً، يقول عمرو بن كلثوم:

بشبان يرون القتل مجداً

وشيبٍ في الحروب مجربينا⁽³⁾

وقال الحصين:

تأخرتُ أستبقي الحياة فلم أجد

لنفسي حياةً مثل أن أتقدما⁽⁴⁾

وإذا دخل غمار الحرب فإنه يدخلها بخيوله المجرية في الحروب وبسيوفه

البتارة، ويترك وراءه أشلاء قتلى أعدائه، قال النابغة الذبياني في الغساسنة:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم

عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبٍ

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم

من الضاريات بالدماء الذوارب

(1) المصدر السابق ج 1، ص 61.

(2) امرؤ القيس: المعلقة، شرح المعلقات السبع ص 28.

(3) عمرو بن كلثوم: المعلقة، شرح المعلقات السبع، ص 126.

(4) أبو تمام: ديوان الحماسة، ج 1، ص 60.

فهم يتساقون المنية بينهم
 بأيديهم بيض رقاق المضارب
 ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم
 بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب⁽¹⁾
 وهو يقتحم المعركة غير هيَّاب، «يستقبل الموت ولا يستدبرها»، مومناً بنصره
 وقدرته على إبادة أعدائه: قال طرفة بن العبد:
 إذا القوم قالوا: من فتى خلتُ أنني
 عنيت فلم أكسل ولم أتبلدِ
 وإن أدع للجلي أكن من حماتها
 وإن ياتك الأعداءُ بالجهد أجهد
 أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه
 خشاش كراس الحية المتوقد⁽²⁾
 وقال عمرو بن كلثوم:
 أباهندٍ فلا تعجلُ علينا
 وأنظرنا نخبرك اليقيننا
 بأننا نورد الرايات بيضا
 ونصدرهنَّ حُمْرا قد رويننا
 متى ننقل إلى قوم رحانا
 يكونوا في اللقاء لها طحيننا⁽³⁾

(1) النابغة الذبياني: الديوان ص 46 - 47 (نشر الشركة التونسية للتوزيع الجزائر 1976).

(2) طرفة بن العبد: المعلقة، شرح المعلقات السبع، ص 56 و64 و66.

(3) عمرو بن كلثوم: المعلقة، شرح المعلقات السبع، ص 122 - 123.

وبذلك يكون العربي قد درأ مظلمة من المظالم عن أهله ودياره أو رفع ضيماً
عن جاره أو أنجد من استغاث به.

وإذا خرج منتصراً من حربه ونزاله، فإنه يجنح للسلم ويعفو عند المقدرة،
قال عنترة:

أثني علي بما علمت فإنني
سهل مخالفتي إذا لم أظلم
يخبرك من شهد الوقعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم⁽¹⁾

ثم كان ظهور الإسلام وهو أعظم حدث في تاريخ العرب. وأصبح القتال عند
العربي أبلغ وأعمق من الدفاع عن شرف القبيلة والديار، أو أخذ الثأر أو استتصار
المظلومين، بل أصبح جهاداً، أي حرباً مقدسة، وصار العربي يقاتل من أجل نشر
دعوة إلهية احتساباً لله، ألا وهي الدعوة الإسلامية، ويستشهد في سبيلها إذا لقي
ربه، اعتقاداً منه بأنه: «ومن لم يمت بالسيف مات بغيره»⁽²⁾.

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم⁽³⁾

وكان الشاعر العربي المسلم يجاهد بلسانه وبقرضه من أجل نشر هذه
الدعوة، ويهجو المشركين ويرد على الأعداء منهم، ويشيد بجهاد المسلمين

(1) عنترة بن شداد العبسي: المعلقة، شرح المعلقات السبع، ص 144 - 147.

ذكر بعض مؤرخي الأدب العربي أن صيت بعض شعراء الجاهلية لم يبق إلا بسبب ذكره لأخبار الحرب
في شعره وإبانتته عن شجاعة أصحابها ونجدتهم. فبذلك خلدت مثلاً أخبار المهلهل الذي يقول في
مصرع كليب بن وائل:

كيف أهدا ولا يزال قتيل	من بني وائل ينسى قتيلاً
قتلوا ربهم كليباً سباهاه	ثم قالوا ما إن نخاف عويلاً

(2) بقيته: تعددت الأسباب والموت واحد.

(3) زهير بن أبي سلمى: المعلقة، شرح المعلقات ص 87.

المستमित الذي يخوضونه من أجل نشر الرسالة الإسلامية القويمة بمثاليتها الخلقية، ومبادئها العقدية.

وما أن واجه أحد صحابة الرسول الكريم محمد ﷺ، أولئك الذين آذوه وصحبه وشعرائه بقوارص الهجاء بقوله: «ماذا يمنع الذين نصرُوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم»؟ حتى هاج شعراء قريش من المسلمين وشنوها «حرباً شعرية» يفتخرون فيها بحسبهم وإسلامهم، ويهجون فيها من تهجم على محمد ودينه. وبذلك «تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس التي تشيد بالخلق القويم والعزة وصيانة الشرف».

قال كعب بن زهير يمدح الرسول وأنصاره ويندد بالمتحالفين مع أعدائه في لاميته المشهورة: «بانت سعاد» التي أنشدتها أمام الرسول يوم أسلم فخلع عليه الرسول بردته، منها:

إِنَّ الرِّسُولَ لَسَيْفٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ
مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ
فِي عَصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كَشْفٌ
عِنْدَ الْلِقَاءِ وَلَا مِيلٌ مُعَاذِلٌ⁽¹⁾

وكان الصحابي الجليل حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة المحمدية⁽²⁾ وشاعر معارك الإسلام والمسلمين «وشاعر قصيدة الجهاد» يرد هجمات قريش

(1) شرح ديوان كعب بن زهير ص 23، (السكري)، الدار القديمة للطباعة والنشر - القاهرة 1950م.
(2) لما قال رسول الله ﷺ للأنصار وقد هجاه قوم من قريش: ما يصنع الذين نصرُوا الله بسلاحهم أن ينصروهم بالسنتهم، قال حسان بن ثابت، أنا لها يا رسول الله، وأخذ بطرف لسانه، والله لو وضعته على صخر لفلقته، أو على شعر لحلقه، فقال النبي ﷺ: «كيف تهجوهم وأنا منهم؟ قال أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين. فقال له رسول الله ﷺ: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» (صحيح الجامع الصغير: 2، 209).

الشعرية ويدافع عن الإسلام ورسوله ويدعو القبائل لاعتناق الدين الحنيف، ويهجو خصومه الألداء مثل أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان بن الحرث.

فمن قوله في الإشادة برسالة محمد:

نبي أتانا بعد يأسٍ وفرةٍ
من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً
يلوح كما لاح الصقيل المهند⁽¹⁾

ومن قوله في مدح بطولات الأنصار:

وقال الله قد يسرتُ جنداً
هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معدٍ
قتالٌ أو سبابٌ أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء⁽²⁾

ومن قوله في هجاء المشركين وهو يسل الرسول منهم «كما تسل الشعرة من العجين»⁽³⁾:

ألا أبلغ أبا سفيان عني
مغلغلة فقد برح الخفاء

(1) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص 78 - 79، (عبدالرحمن البرقوقي)، المطبعة الرحمانية، مصر 1929م).

(2) المصدر السابق ص 6.

ومن قوله مفتخرًا بشجاعة أنصار الرسول أيضًا من قصيدة أخرى:

قومٌ إذا حاربوا وأضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

(3) البخاري: الصحيح، باب هجاء المشركين من كتاب الأدب، ج 4، ص 74، ط: دار الفكر - بيروت.

بأن سيوفنا تركتك عبداً
وعبد الله سادتها الإمام
هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوهُ ولست له بكُفٍّ
فَشَرُّ كَمَا لَخِيرِ كَمَا الْفِداء⁽¹⁾

ويقول حسان في يوم أحد:
أولئك قومي سادة في فروعهم
ومن كل قوم سادة وفروع
بهن يعز الله حين يعزنا
وإن كان أمر - ياسخين - فظيع
فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم
قتيل ثوى لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزله بها
وأمر الذي يقضي الأمور سريع⁽²⁾

وقوله في شهداء غزوة بدر (ويوم بني قريظة):
صباغةٌ وجدٍ ذكرتني أحبة
وقتلَى مضوا فيهم نفيع ورافع
وسعدٌ فأضحوا في الجنان وأوحشت
منازلهم والأرض منهم بلاقع

(1) شرح ديوان حسان بن ثابت ص 7 - 8.

(2) شرح ديوان حسان بن ثابت ص 315.

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم

ظلال المنايا والسيوف اللوامع⁽¹⁾

وكان عبدالله بن رواحة ممن شهد غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية، وكان مجاهدًا بسيفه وقلمه، ودافع بهما عن الإسلام. ولما دخل الرسول من الجهاد إلى مكة قذف ابن رواحة في وجه قريش بصيحة الحرب والجهاد، فتجاوبت أصدائها في جنبات مكة وأنشد:

خلوا بني الكفار عن سبيله

خلوا فكل الخير مع رسوله

يا ربّ إنني مؤمن بقليله

أعرف حقّ الله في قبوله⁽²⁾

وكانت غزوة بدر حافزًا للمسلمين على تأكيد صحة عقيدتهم ففخروا بدينهم وبإيمانهم وبالنصر الذي منحه الله إياهم، كما تعرضوا للكفار يعيرونهم بالهزيمة والكفر، ويعرضون بأكابرههم وعقيدتهم الوثنية.

يقول كعب بن مالك:

عجبتُ لأمر الله والله قادرٌ

على ما أراد ليس لله قاهرٌ

قضى يومَ بدرٍ أن نلاقي معشرًا

بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

فلما لقيناهم وكلّ مجاهدٍ

لأصحابه مستبسلٌ وهو صابر

(1) المصدر السابق، ص 253 - 254.

(2) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص 186 (ت: محمود شاكر) ط: المعارف، مصر.

شهدنا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غيره
وأنَّ رسولَ الله بالحقِّ ظاهر
فكَبَّ أبوجَهْلٍ صريعًا لوجهه
وعتَبَته قد غادرنه وهو عائر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى
وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار في مستقرها
وكل كفور في جهنم صائر⁽¹⁾

وهكذا أصبح الشعر يخدم الدعوة الإسلامية الجديدة بعدما كان يخدم القبيلة، وأصبح له دور دفاعي حيث غدا من أسلحة الإسلام القوية التي واجه بها خصومه وأعداءه⁽²⁾.

وكان صوفية صدر الإسلام: «يسهمون أيضًا في الجهاد الذي فرضه الإسلام والذي سماه الرسول رهبانية هذه الأمة، إذ قال: «رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله». «ومن خير الأدلة على ذلك وثيقة تروى عن عبدالله بن المبارك الناسك المشهور في أواخر القرن الثاني للهجرة، وكان يناضل في سبيل الله مع الجيوش الغازية للروم في آسيا الصغرى، تارة بسيفه، وتارة بتحريضه للمجاهدين المحاربين من حوله، بما يتلو عليهم من آيات الجهاد وأحاديثه. وبينما هو ينهض على خير وجه بأعباء هذا النضال إذ الفضيل بن عياش صديقه، وكان مجاوراً بمكة يتسكع ويتبتل إلى ربه يرسل رسالة يحثه على أن يصنع صنيعه من المجاورة بمكة ولو إلى فترة قصيرة، فرد عليه برسالة شعرية ردًا مفحماً، بين له فيه أن الجهاد فوق النسك درجات، وأنه حرٌّ به أن يترك مكة ومناسكها إلى النسك الحقيقي: نسك الجهاد في سبيل الله وسبيل إعلاء كلمته، وله يقول:

(1) يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص 264 - 265.

(2) د. عباس الجراي «من أدب الدعوة الإسلامية» ص 26.

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا
لعلمتَ أنك في العبادة تلعبُ
من كان يَخْضِبُ جِيده بدموعه
فَنَحورنا بدمائنا تتخَضَّبُ
أو كان يُتَّعَبُ خَيْله في باطلٍ
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريحُ العبير لكم، ونحن عيرنا
وَهَجُ السنابك والغبارُ الأطيب
ولقد آتانا من مقال نبينا
قولٌ صحيح صادق لا يُكْذَبُ
لا تستوي أغبارُ خيل الله في
أنفٍ امرئٍ ودخان نار تلهب
هذا كتابُ الله ينطق بيننا
ليس الشهيدُ بمَيِّتٍ لا يكذبُ⁽¹⁾

ثم جاءت الفتوحات الإسلامية⁽²⁾، وهي من أكبر الفتوحات في تاريخ البشرية، أنهت عصوراً وفتحت عصوراً. وكان لها أعظم الأثر في تطور الحضارة الإنسانية،

(1) د. شوقي ضيف: «مشاركة الصوفية في الجهاد ونشر الإسلام»، فصل من كتاب: «من المشرق والمغرب - بحوث في الأدب». الدار المصرية اللبنانية - 1998 - 61 - 62 ص.

(2) بدأ الفتح الإسلامي سنة 11هـ، وانتهى سنة 100هـ، وكان مد الفتح الإسلامي على عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان حتى سنة 31هـ، ثم أصبح الفتح الإسلامي استعادة للفتح من سنة 31هـ إلى سنة 100هـ كان أكثر قادة الفتح من الصحابة وأقلهم من التابعين وجميعهم من العرب والمسلمين، عدا طارق بن زياد فاتح الأندلس. ويضاف إلى قادة الفتح أسد بن الفرات فاتح صقلية ومحمد الفاتح فاتح القسطنطينية، ويضاف صلاح الدين الأيوبي إلى طبقة قادة إعادة الفتح، ومن أتى بعد هؤلاء من القادة هم قادة الدفاع عن البلاد الإسلامية، وذلك من سنة 101هـ إلى سقوط بغداد في أيدي التتار سنة 656هـ. ويعد قائد معركة عين جالوت على أرض فلسطين من هؤلاء القادة.. (محمد شيت خطاب: العسكرية العربية الإسلامية ص 66 - 67) بتصرف.

وكانت نقطة انطلاقها قوله تعالى: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهر على الدين كله ولو كره المشركون»⁽¹⁾. فأظهر الله دين الحق والعدل والهدى والكرامة في الأمصار والأقطار، لتحرير الإنسانية المعذبة والمستعبدة والمضطهدة⁽²⁾.

فلما هدد هرقل امبراطور الروم وكسرى ملك الفرس الإسلام بالوعد والوعيد، شرع الجهاد وأصبح فريضة على المسلمين، وخاضوا حركته التحريرية والثورية الكبرى، وشرعوا في فتح الأقطار والأمصار لنشر الدعوة المحمدية بها، ففتحو العراق وبلاد فارس والشام وفلسطين ومصر وإفريقية، وكتب لهم النصر وأيدهم الله بقوة وروح من عنده، وكانت كلمة الله هي العليا. «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»⁽³⁾.

وإذا كان النصر حليف جهاد المسلمين المجاهدين في هذه البلدان، فذلك لصدق طويتهم في النزال ولعظيم إيمانهم بالرسالة الملقاة على عاتقهم، ولحبهم في الاستشهاد في سبيل الله، يحفزهم في ذلك قول الرسول الكريم: «الجنة تحت ظلال السيوف»⁽⁴⁾.

فعلى كثرة الحروب والمعارك في هذه الفتوحات كثر الشعر في تصويرها ووصف مراحلها وشد أزr المجاهدين في صفوفها وبث روح الهزيمة في نفس أعدائها.

(1) التوبة: 33.

(2) إلا أن النزاعات المتكررة بين الفرق الإسلامية والتيارات المتصارعة في خضم الفتوحات تولد عنها شعر آخر ترك أثراً للآلام والجراح. من ذلك قول أحد قواد الخوارج (قطري بن الفجاءة) من قصيدة «قوية ومتميزة» يخاطب فيها نفسه:

أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	عن الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع

(3) الروم: 47.

(4) البخاري: الصحيح، كتاب الجهاد والأسير، ص 140 - 141.

فبرز شعر الجهاد الإسلامي على عهد هذه الفتوحات في قصائد المديح والهجاء والفخر والثناء. ولم يكن القصد من ورائها المدح والهجاء والثناء والافتخار، وإنما كان قصد شعرائها هو تعزيز مسيرة هذا الجهاد والمساهمة في نصرته أهداف الإسلام وتركيز مبادئه، والتتقيص من قوة خصومه.

ففي شعر المديح مثلاً لم يقتصر شاعره على تعداد مناقب ممدوحه، بل يتعداه إلى تدعيم كيان الدولة الإسلامية الفتية ومناصرتها وتأكيد المعتقدات الإسلامية. يقول الأخطل في الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان خليفة الله على الأرض:

إلى امرئ لا تعرينا نوافله

أظفره الله فليهنأ له الظفرُ

الخائضُ الغمرُ والميمونُ طائرهُ

خليفة الله يستسقى به المطر⁽¹⁾

ويقول جرير فيه أيضاً:

لولا الخليفة والقرآن تقرأه

ما قام للناس أحكام ولا جمع⁽²⁾

وفي شعر الهجاء لم يهدف شاعره من ورائه إلا بث روح الانكسار والخذلان، في نفوس الواقفين في وجه توسيع رقعة الوطن الإسلامي.

وفي شعر الرثاء يتعرض الشاعر للمآثر المحمودّة للشهداء معدداً مناقبهم الحربية في حومات الوغى وداعياً بالاقْتداء بهم والسير على نهجهم، متفجعاً حزيناً، ولكنه متمسك بروح الاستسلام لقضاء الله وقدره، مؤمناً بما أعده الله للشهداء من الجزاء الأوفى:

(1) شعر الأخطل، ج 1، ص 196 - 197، ت: د. فخر الدين قباوة، بيروت 1979م.

(2) شرح ديوان جرير، ص 355 (محمد الصاوي)، دار الأندلس - بيروت.

يقول أبو عامر بن غيلان في رثاء ولده الذي خرج غازياً فأدركه الطاعون:

عينني تجوّد بدمعها الهتان
سما وتبكي فارس الفرسان
لو أستطيع جعلت مني عامراً
تحت الضلوع وكلّ حي فان⁽¹⁾

فاتخذ بذلك شعر الفتوح بعداً جديداً وأصبح سلاحاً من أسلحة الإسلام
القوية التي يواجه بها أعداءه بكل تدبر وإمعان النظر وحماس عقدي، حتى كاد
بشار بن برد «أن يلخص معركة بكاملها في بيتين من الشعر» من قصيدة مدح بها
أحد قواد الأمويين:

ركبنا له جهرًا بكل مثقف
وأبيض تستقى الدماء مضاربه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه⁽²⁾

أو في بيت واحد من الشعر:

إذا ما عضبنا غضبة مغرية
هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما⁽³⁾

وفي حرب القادسية التي دارت رحاها بين العرب والفرس بقيادة سعد بن
أبي وقاص، أظهر فيها المجاهدون من صور البطولة والنجدة والاستشهاد ما جعل
شعراءهم يتدفقون شعراً بالفخر والحماس والإعجاب، حتى كان يوم القادسية من
أشد أيام الحروب الإسلامية ومن أكثرها شعراً أيضاً⁽⁴⁾.

(1) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ج 3، ص 14.

(2) ديوان بشار بن برد، ج 1، ص 334 - 335 - ت: محمد بن الطاهر بن عاشور، نشر الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع - الجزائر - 1976.

(3) ديوان بشار بن برد، ج: 4، ص 184.

(4) د. عباس الجراري: من أدب الدعوة الإسلامية ص 3.

فمن أبدع ما يروى في هذه المعركة قطعة قيس بن مكشوح المرادي، التي
يفتخر فيها بقتل قائد جيش الفرس:

جلبت الخيل من صنعاء تردي
بكل مدجج كالليث سامٍ
إلى وادي القرى فديار بكرٍ
إلى اليرموك فالبلد الشام
وجئن القادسية بعد شهر
مسمومة دوائرها دوام
فناهضنا هنالك جمع كسرى
وأبناء المرازبة الكرام
وقد أبلى الإله هناك خيرًا
وفعل الخير عند الله نام⁽¹⁾

ويقول نافع بن الأسود يمجّد بني تميم وبسالتهم في القادسية مفتخرًا:

وقال القصاة من معد وغيرها
تميمك أكفاء الملوك الأعظم
هم أهل عزٍّ ثابت وأرومة
وهم من معد في الذرا والغلاصم
فجاءت بهم عند الكتائب نصره
فكانوا حماة الناس عند العظام
فصبوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا
وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم

(1) فتوح البلدان للبلاذري، ص 259، ط: ليدن 1866.

لدى غدوة حتى تولوا تسوقهم

سيوف تميم كالليوث الضراغم⁽¹⁾

ويفخر أبطال المسلمين بانتصارهم على الأعجميين وقتل قائدهم رستم، مثل قول بشر بن ربيعة الخثعمي:

تذكر هداك الله وقع سيوفنا

بباب قديس والمكر عسير

عشية ود القوم لو أن بعضهم

يعار جناحي طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قراع كتيبة

دلفنا لأخرى كالجبال تسير

ترى القوم فيها أجمعين كأنهم

جمال بأحمال لهن زفير⁽²⁾

«فتحول الفخر بذلك عند شعراء العرب بالحسب والنسب إلى الفخر (بقضية الجهاد نفسها) وبالانتساب إلى الإسلام وإلى نصرته ودعوته والجهاد في أعدائه».

وتتوالى الفتوحات: فيفتح عمرو بن العاص فلسطين وخالد بن الوليد الشام⁽³⁾

(1) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ج 6، ص 262.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني، ج 1، ص 171 - 172، ط: 1، مصر 1328هـ.

(3) نظم شبلي ملاط قصيدة وصف فيها بطولة الفارس العربي ضرار بن الأزور وأخته في حادثة جرت لهما عند فتح دمشق على يد خالد بن الوليد، ومطلعها:

أدموع خولة أم عقيق الوادي أيام نادى للجهاد مناد

«وترى خولة أخاها وهو يتأهب للحرب فتبكي فرحاً، ثم يأخذان بالحديث عن الجهاد، فيقول ضرار متحمساً:

يا خول إن أبي وجدي استشهدا قبلي على مرأى النبي الهادي

وأنا على آثار من درجوا ومن يعدوا من الأبناء والأجداد

ثم تشتعل نيران القتال فيستبسل ضرار في الهجوم على حصن للأعداء ولكن الأقدار تشاء أن يجرح جرحاً بليغاً فيتمكن الأعداء منه ويأسرونه. ولما بلغ خولة أسره اتقدت نار الحمية في صدرها وحملت

ويهزم الروم في موقعة اليرموك الشهيرة (13هـ)⁽¹⁾.

ويستمر الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، ويخترق الرشيد العباسي آسيا الصغرى ويفتح هرقله إحدى مدنها الكبرى، وقد تغنى شعراؤه كثيراً بهذا الفتح.

من ذلك قول الشاعر أشجع السلمي:

برقتُ سماءُك في العدو وأمطرتُ

هاماً لها ظلّ السيوف غمام

وإذا سيوفك صافحت هامَ العدا

طارت لهنّ على الرؤوس الهام

وهي متكررة بزي فارس من الفرسان حملة شديدة على الأعداء. ولما رأى العرب هذه الحماسة منها انتقدت حماسهم فغاروا معها، وهكذا ربحوا المعركة وأنقذوا أخاها من الأسر. يقول الشاعر في ختامها:

ومشى الغزاة الفاتحون ودوخوا ما دوخوا من أمة وبلاد

قل للألى عزت بهم أوطانهم وتسودوا من طارف وتلاد

كونوا ضاراً في الجهاد وخولة إن الجدود تعيش في الأحفاد

(أنيس الخوري المقدسي: «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث»، ط 2، ص 181 - 182)،
نقلاً عن ديوان الملاط، ص 283.

(1) لم يوجد في مصنفات الأدب العربي شعر كثير يصور انتصار المسلمين في هذه المعركة أو في بيت المقدس أو حتى في فتوحاتهم لمصر وشمال إفريقيا، إلا ما قل ودل (انظر د. عباس الجراري: «من أدب الدعوة الإسلامية»، ص 84 - 85).

إلا أن موقعة اليرموك ألهمت بعض الشعراء المحدثين فذكروا بالمجد القديم. من ذلك قصيدة أنيس الخوري المقدسي بعنوان: «وقف على اليرموك»، مطلعها:

على اليرموك قف واقراً السلاما وكلمه إذا فهم الكلاما

إلى أن يقول مخاطباً عرب اليوم:

ألا هبّوا أحدثكم بمجد لكم غشي الجزيرة والشاما

إلى اليرموك أن تبغوا المعالي وفوق ضفافه فاجثوا احتراما

هنا الإسلام ضاء له حسام غداة استلّ خالد الحساما

وهيب أبو عبيدة مثل ليث يجر وراءه الموت الزؤاما

فأصلى الروم حرباً أي حرب وفل بعزمه الجيش اللّهاما

وسار على روابي الشان يخطو تخر له الربى هاماً فهاماً

(أنيس الخوري المقدسي: «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث»، ص 182 - 183).

أثنى على أيامك الأيام
والشاهدان الحل والإحرام
وعلى عدوك يا بن عم محمد
رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رعته وإذا غفا
سلّت عليه سيوفك الأحلام⁽¹⁾

ويقول حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) يتغنى ببطولة كتائب المأمون ضد
البيزنطيين، في وقعة «شنعاء» من وقائعه ضد الروم للدفاع عن الدين الحنيف حتى
ساروا خاضعين:

لما رأيت الدين يخفق قلبه
والكفر فيه تغطرس وعرا
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه
حسن اليقين وقاده الإقدام
أساد موت مخدرات ما لها
إلا الصوارم والقنا أجام
حتى نقضت الروم منك بوقعة
شنعاء ليس لنقضها إبرام
ما كان للإشراك فورة مشهد
والله فيه، وأنت والإسلام⁽²⁾

وعاش المسلمون «والنصر معقود بريائاتهم، والكرامة محفوظة بسيوفهم،
والخزي يحيق بأعدائهم» حتى استجارت امرأة «أخذها جيش الروم سبية» فصاحت

(1) الأغاني للأصبهاني، ج 18، ص 162.

(2) ديوان أبي تمام (شرح الصولي) ج 2، ص 376 - 378، نشر وزارة الثقافة والفنون - العراق 1978.

«وامعتصماه»⁽¹⁾ فتوجه المعتصم بعسكر كبير إلى عمورية وفتحها بعد أن شن معركة حامية ضد البزنطيين، ودك حصون المدينة وقلاعها وعاد مظفرًا منصورًا. فأنشد أو تمام (شاعر المعارك) ملحمة الرائعة التي يستهلها بقوله:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ
في حدِّه الحد بين الجد واللعبِ
ومنها في تخليد هذا الفتح:
فتح الفتوح تعالى أن يحيطَ به
نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ
فتحُ تفتحُ أبوابُ السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القُشبِ
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
عنك المنى حفا معسولة الحلب
أبقيتُ جدَّ بني الإسلام في صعدِ
والمشركين ودار الشرك في صلبِ
لم يعلم الكفر كم من أعصرِ كمنت
له المنية بين السمر والقضب
ثم يقول في المعتصم قائد المعركة مجسدًا بطولته:

(1) ذكر المؤرخون أن هناك واقعة مشابهة لصبيحة «وامعتصماه» وقعت بالأندلس، ذلك أن سكان المناطق الشمالية من الأندلس «كانوا عرضة لاعتداءات النصارى» فأرسل الحكم بن هشام الشاعر عباس بن ناصح الثقفي موفدًا هناك، فسمع امرأة تصيح: «واغوثةا بك يا حكم»، فأرسل العباس قصيدة إلى الحكم يقول فيها:

تداركُ نساء العالمين بنصرةٍ فإنك أحرى أن تغيثَ وتقتصرا
فقام الحكم بحملة «أدب بها المعتدين» وخاطبَ شاعره قائلاً:
ألم تري عباس أني أجبتها على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركتُ أوطارًا وبردت غلة ونفستُ مكروبًا وأغنيتُ معسرا

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ
لله مرتقبٌ في الله مرتغبٍ
لم يغزُ جيشًا ولم ينهض إلى بلدٍ
إلا تقدّمه جيشٌ من الرعب
لو لم يقدر جحفلًا يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفلٍ لجب⁽¹⁾

فكانت موقعة عمورية موقعة فاصلة بين العرب والروم⁽²⁾.

ويقول أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري - تلميذ أبي تمام - يمدح المتوكل،
مهنئًا إياه بعيد الفطر ومشيدًا بجحافله الزاحفة:
أظهرتُ عزَّ الملك فيه بجحفلٍ
لجبٍ يحاط الدين فيه وينصرُ
خلنا الجبال تسيّرُ فيه وقد غدثُ
عددًا يسير بها العديد الأكثر
فالخيلُ تصهلُ والفوارسُ تدعي
والبيضُ تلمعُ والأسنةُ تزهرُ

(1) ديوان أبي تمام (شرح التبريزي) ج 1، ص 40، مطبعة دار المعارف، مصر، ط 3، سنة 1972.

(2) لقد خص بعض الشعراء أكثر شعرهم لوقائع المسلمين مع الروم. «فهذا مثلاً عبدالله بن سبرة الحرشي الذي قطعت يده في بعض المعارك فراثها ووصف مبارزته مع رئيس الروم في يوم «فلطاس»، في قصيدة لا تخلو من طرافة» منها:

يمنى يدي غدث مني مفارقة	لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وقائل غاب عن شأني وقائلة	هلا اجتتبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله	نحوي وأعجز عنه بعدما وقعا
ما كان ذلك يوم الروع من خلقي	ولو تقاربت مني الموت فاكتعما

وافتن فيك الناظرون فأصبع
يولي إليك بها وعينٌ تنظر
ذكروا بطلعتك النبي فهلّوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا⁽¹⁾

وكان أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتبي قد بلغ الذروة في التغني
بشهادة سيف الدولة وكماته الأبطال، في معارك ضد البزنطيين وضد الثأرين
من بني العباس:

لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
تظلُّ ملوكُ الأرض خاشعةً له
تفارقه هلكى وتلقاه سجدا
وتحيي له المال الصوارم والقنا
ويقتل ما تحيي التبسم والجدا⁽²⁾

كما ينشد من قصيدته المشهورة:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
يكلّف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
يفدي أتم الطير عمراً سلاحه
نسور الفلا أحداثها والقشاعم

(1) ديوان البحري ج 2، ص 1071 - 1072 (ت: حسين كامل الصيرفي) ط 2 دار المعارف، مصر.

(2) ديوان المتبي (شرح البرقوقي) ج 1، ص 185: ط: مصر 1930م.

وما ضرّها خلقٌ بغيرِ مخالفٍ

وقد خلقت أسيفه والقوائم⁽¹⁾

وقد صاحبت قصائد المتنبّي حروب سيف الدولة بتصويرها بطولات الحروب ووقائع المعارك وتقديم النماذج البطولية، التي حركت المحاربين ودفعتهم للمشاركة في تلك الحروب، وشجعت أيضاً سيف الدولة على المضي في طريق حروبه التحريرية.

وقد أبدع أبو فراس الحمداني في روميّاته الخالدة متغنياً بخصاله الحربية في سجنه عند الروم وهي تفيض كلها بالحماسة والجلد والشمم:

وإنّي لنزال بكلّ مخوفةٍ

كثير إلى نزالها النظر الشرزُ

وإنّي لجرارٌ لكلّ كتيبةٍ

معودةٍ أن لا يخل بها النصر

يمنون أنْ خلوا ثيابي وإنما

على ثيابٍ من دمائهم حمر

وقائم سيفي فيهم اندق نصله

وأعقاب رمحي فيهم حطّم الصدر⁽²⁾

وتم فتح الأندلس على يد موسى بن نصير الفاتح العربي ووالي المغرب، ومولاه طارق بن زياد. وتتابع على حكم الأندلس الولاة والخلفاء الأمويون وملوك الطوائف ثم الدول المغربية الواحدة عليها من المرابطين والموحدين. ونبيغ في

(1) ديوان المتنبّي، ج 2، ص 269.

(2) ديوان أبي فراس الحمداني ص 86 - 87، المطبعة السليمية بيروت 1873.

الأندلس شعراؤها وصرفوا شعرهم في أغراض الشعر، وعالجوها وأبدعوا في وصف الحروب الأندلسية وجيوشها وأبطالها.

يقول الشاعر ابن هانئ الإشبيلي الأندلسي الملقب بمتبّي المغرب في وصف رائع لأحد هذه الجيوش المرابطة:

جيشٌ تقدّمْتُ الليوثُ وفوقه
كالخيل من قصب الوشيح الأسمرُ
ويقوده الليثُ الغضنفر معلماً
في كل شثن اللبدتين غضنفر
في فتية صدأ الدروع عبيرهم
وخلوفهم علق النجيع الأحمر
قومٌ يبيتُ على الحشايا غيرهم
ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبخ في الدماء قبابهم
فكأنهن سفائن في أبحر⁽¹⁾

ويقول في مدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله:
هذا إمامُ المتقين ومن به
قد دوّخ الطغيان والكفار
في جحفلٍ هتم الثنايا وقعه
كالبحر فهو غطامط زخار
والله خصك بالقرآن وفضله
واخجلتي ما تبلغ الأشعار⁽²⁾

(1) ديوان ابن هانئ ص 162 - 163، طبعة صادر، بيروت.

(2) ديوان ابن هانئ ص 146 - 152.

وهبت ريح الحروب الصليبية، وكان الشعراء في مقدمة من يشيد بنصر كل
من استرد الحصون من الصليبيين منذرين ومتوعدين.

ولما انتصر صلاح الدين في واقعة حطين ضد الصليبيين، تقدم يستولي على
المدن والقلاع والحصون زاحفاً على بيت المقدس.

وقد أنشد صلاح الدين العماد الأصفهاني سنيته الرائعة بالمناسبة:

حطتْ على حطينَ قدر ملوكهم
ولم تبقِ من أجناس كفرهم جنساً
كسرتهم إذا صَحَّ عزمك فيهم
ونكستهم إذ صار سهمهم نكساً
بواقعةٍ رجت بها الأرض جيشهم
دماراً كما بَسَّتْ جبالهم بساً
بطون ذئاب الأرضِ صارت قبورهم
ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رُمساً⁽¹⁾

ويقول ابن الساعاتي «مرحباً بدخول صلاح الدين مدينة طبرية»:

رددت أخيلة الإسلام لما
غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما
يعزُّ على العوالي أن يهونا
وما طبرية إلا هدى
ترفع عن أكف اللامسينا

(1) د. شوقي ضيف البطولة في الشعر العربي، سلسلة إقرأ، عدد 331، ص 90 - 91.

قضيتُ فريضة الإسلام منها

وصدقت الأمانى والظنون⁽¹⁾

وقال الشهاب محمود «يصف تحرير عكا على يد سلاطين المماليك قائلاً»:

الحمد لله زالت دولة الصلب

وعزَّ بالترك دين المصطفى العربي

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها

في البحر للشرك عند البر من أرب

عقيلة ذهبَت أيدي الخطوب بها

دهراً وشدَّت عليها كفُّ مختضب

لم يبقَ من بعدها للكفر إذ خربت

في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب

ولما نزلت جيوش النصارى في دمياط بمصر عصفت الجيوش المصرية

والشامية بأسطولهم وفتكت بهم فتكاً ذريعاً وصور ذلك البهاء زهير شاعر مصر

في رائيته التي مطلعها:

بك اهتز عطف الدين في حل النصر

وردت على أعقابها ملة الكفر

ومنها:

سدَّت سبيل البحر والبر عنهم

بسابحة دعم وسابحة غرَّ

(1) ولما تم فتح بيت المقدس «واستعادها المسلمون من أيدي الصليبيين» أنشد معظم الشعراء قصائدهم في هذا الفتح، «وفتحوا بذلك باباً جديداً في الشعر العربي سموه «القدسيات»، وكان من أبرز شعرائه: العماد الكاتب، وابن الساعاتي، وأبو الفضل الجلياني الأندلسي».

وباتت جنود الله فوق ضواير

بأوضحها تغني السراة عن الفجر⁽¹⁾

وهكذا «ظلت البطولة العربية تضطرم في معارك العرب (مع أعدائهم) على مدار التاريخ: اضطرمت منذ الفتوح الإسلامية في معاركهم مع البيزنطيين، وازدادت حدتها في معاركهم ضد الصليبيين، وسقطت شعل منها في معاركهم بالأندلس مع الإسبان، وتراكم منها رماد ثقيل منذ أن احتل العثمانيون البلاد العربية في القرن السادس عشر الميلادي»⁽²⁾.

وكانت هذه العصور طافحة بقصائد الجهاد والحرب والحماس والفخر والبطولة، وجهتها الدعوة الإسلامية، ونفحات الفتوحات الإسلامية وجهة خير وصلاح، فكانت أداة صالحة لإعلاء كلمة الله ولرفع راية لا إله إلا الله في ربوعها. ولقد بقيت معارك الجهاد - للدفاع عن الحمى ولحماية الدين الإسلامي منذ حملة نابليون على مصر إلى نهاية الحملات الاستعمارية على العالم الإسلامي والعربي - سبباً مباشراً أيضاً من أسباب الاستثارة، وأداة للتحسيس والاستنفار، وحافزاً من حوافز «الدفع الشعري»، وعاملاً حاسماً من عوامل إثارة العاطفة الإسلامية والغيرة الوطنية في نفوس الشعراء، فينشدون قصائدهم الفياضة، ليشدوا من عضد المجاهدين وليلهبوا حماس المكافحين والمناضلين، وليخلدوا في سجلات الخلد أعمال أبطالهم وإقدام شجعانهم وتضحيات شهدائهم.

(1) ديوان بهاء الدين زهير ص 49 - 50، مطبعة الموسوعات - مصر 1322هـ.
(2) د. شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي ص 109. ومن أعظم هذه المعارك وأشدها في تاريخ الفتوح الإسلامي معركة «بلاط الشهداء» الذي استشهد فيها «رجل الجهاد والاستشهاد» عبد الرحمن الغافقي الذي قام بفتح بلاد الغال (فرنسا)؛ وانهزم أمام «شارل المطرقة» سنة 732هـ بمدينة «بواتي».

وقد ترك الشعر المغربي في هذا المضمار ديواناً حافلاً يصدع بالدفاع عن الإسلام وحضارته، ويشيد بالجهاد والمجاهدين، أطلقت ألسنة شعرائه وأذكت عواطفهم الجياشة ومشاعرهم الملهبة، الفتوحات المتوالية في إفريقية والأندلس وممالك السودان، وصور الملاحم والبطولات الخالدة ضد الغزو المسيحي للثغور المغربية. وذلك ما سنتولى - بإذن الله - بحثه ودراسته وإخراجه.

المبحث الثالث

الجهاد في شعر الفتوحات الإسلامية للمغرب وفي أشعار العهد الإدريسي

قد يتفاجأ كل قارئ لتاريخ المغرب باللوحات البطولية وصور الشهامة والرياء التي تملأ مجلداته ومصنفاته.

فحب النضال والجهاد والشجاعة والبطولة والإباء ليس صفات يتحلى بها المناضل المغربي فحسب عبر تاريخه، بل غرائز ماثورة بين ضلوعه، تجعله يأبى الضيم ويتحدى بكل شمم وإباء كل معتد أثيم على حرمة بلاده وقداسة عقيدته.

فكل المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ المغرب القديم والوسيط والحديث اتفقوا على أن كل من سولت له نفسه الاستيلاء على بلاد المغرب الأقصى، إلا واصطدم باستماتة قوية في الدفاع، وجابه بطولة منفردة في البسالة والتضحية من طرف أبنائه.

فقد اشتهر أهل المغرب قبل الميلاد وبعده، بالقوة وبحب القتال من أجل الدفاع عن النفس والمحافظة على الاستقلال الذاتي.

إن الكتائب الرومانية العسكرية التي تواردت على المغرب - منذ فجر تاريخه - في عمليات عارضة وحملات متوالية لم يطب لها الاستقرار، لذلك قام الرومانيون بتحسين المدن المغربية - داخل المثلث الروماني - التي احتلوها خوفاً من الغارات البربرية. فكان المغرب مستعصياً عليهم نظراً للروح الاستقلالية لدى

القبائل المغربية البربرية التي كانت قابضة على زمام الطرق الواصلة بين المنطقتين الشرقية والغربية.

ثم ابتداء تاريخ المغرب الإسلامي بعهد الفتوحات الإسلامية. فبعد أن فتح العرب مصر جعلوا منها قاعدة عسكرية لفتح الشمال الإفريقي. ولقد استغرق مدة تقرب من الثمانين عاماً (23 - 100هـ)، بينما اجتاح الفتح بلدان العراق والشام ومصر في مدة لا تزيد على العشر سنوات، وهذا راجع في معظمه إلى مناعة بلاد المغرب وشدة حراس أهلها في النضال والجهاد⁽¹⁾.

فلقد اصطدم الفاتح العربي بمقاومة عنيفة من طرف أهل المغرب ظانين أن لهذه الحملة غاية استيلائية وصبغة استغلالية بينما لم تكن سوى امتداد للتعريف بالدعوة الإسلامية، وكان هدف هذه الدعوة هو نشر الدين الإسلامي وإنقاذ البشرية من الزيف والضلال وهدايتها إلى نور الحق والإيمان واليقين. فكان الفاتحون الأولون يتحاشون الاصطدام مع البرابرة حتى لا يغامروا بالمسلمين العرب في حروب خاسرة، وكلما دارت حروب عنيفة بين الجانبين أدت إلى خسائر كبيرة في الأرواح، وقد أكدت الهزائم التي منيت بها الجيوش العربية في إفريقية والمغرب أن فتح هذه الجهة من إفريقيا كاد أن يصبح مستحيلاً «لأنه متى قضي على قبيلة بربرية إلا وت خلفها قبيلة أخرى».

وقد تم فتح المغرب الأقصى نهائياً على يد عقبة بن نافع الفهري⁽²⁾ في زمن

(1) د. أحمد مختار العبادي: صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس، مجلة البنية - س: 1، ع 9، ص 79.

(2) عقبة بن نافع الفهري: أحد كبار القادة في صدر الإسلام، شهد فتح مصر، وجهه عمرو بن العاص إلى إفريقية واليا عليها سنة 42هـ، كما أبقاء معاوية على نفس الولاية، فتوغل فيها حتى وصل وادي القيروان فبنى به مسجده، وبعد بذلك عقبة مؤسس مدينة القيروان وجامعها العتيق (50هـ - 671م)، وإلى هذا يشير الشاعر أبو القاسم الفزاري (م: 345هـ)، في قصيدته التي يقارن بها بين بغداد والقيروان:

عراق الشام ببغدادى وهذى عراق الغرب بينهما كثير)

يزيد بن معاوية الأموي سنة 62هـ، وقد بدأ عقبة زحفه من مدينة طنجة وتقدم نحو ويلي (قصر فرعون)، ثم انتقل إلى جبال الأطلس، حيث قاوم المصامدة مقاومة عنيفة ثم عرج على الحوز ودرعة وسوس ومضى نحو آسفي، ولم يوقفه إلا بحر الظلمات حيث أدخل قوائم فرسه حتى بلغ الماء بطن فرسه - راغباً في مواصلة الفتح إعلاء لكلمة الله - ورفع يديه إلى السماء وقال: «يا ربي لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك.. لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك»⁽¹⁾. وبقراًنك الكريم الذي هو «قوام الدين ودستور وسياسة وبحر أخلاق وقاموس لغة وديوان ثقافة».

كلام مدى الأيام لا يتبدل ونور من الله عظيم منزل

بقوله:

بناها المستجاب وقد دعا في	جوانبها دعاء لا يبور
وذكر بعض المؤرخين أنه كان في جيش عقبة عدد من الصحابة، وإلى هذا يشير نفس الشاعر:	بلاد خطها أصحاب بدر
(انظر تفاصيل حياته في كتاب: عقبة بن نافع الفهري لمحمود شيت خطاب).	وتكل اختط ساحتها الأمير
ولما وقف على قبره الشاعر أبو بكر مصطفى بن رحمون أنشد قائلاً في قصيدة:	يا أخي عنك كل ضعف ويأس
جل معي في فتوح عقبة وانفض	تح تنبئك في فصاحة قس
وسل القيروان عن عسكر الفا	لم تنلهاء يد العفاء بلمس
عن بقايا فوق الثريا مكاناً	من معاني الفداء أروع درس
وتوجه نحو الجزائر تبصر	مهج الفاتحين أفخر لبس
ههنا تبصر الشهادة تكسو	بضحايا الفتوح من خير جنس
وطن عسر الإله ثراه	صرحاً يزهى بأمت أس
وبنى فيه للعروبة والإسلام	نأ بأزكى جنى وأكرم غرس
لم يزل من جهاد عقبة مزدا	يحدو جهادها كل حدس
أمة تعشق الهدى وإلى التحرير	

(مجلة الثريا التونسية، عدد 13 و14 س: 1947، ص 45 - 46).

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 27 (ط: دار الثقافة).

نظامٌ وقانونٌ وسيفٌ ودولةٌ
سلامٌ وتأديبٌ وهديٌ مفصلٌ
وعلمٌ وثقيفٌ وفضلٌ وحكمةٌ
وعدلٌ وتشريعٌ وقولٌ مرتلٌ
لكل زمانٍ أو مكانٍ رأيته
منارٌ لدى الإنسان لو هو يعقل⁽¹⁾

وكان على عقبة بن نافع الفهري بعد ذلك أن يعود إلى القيروان⁽²⁾ عن طريق الساحل ولكنه عاد «إما عن طريق ممر تازة أو عبر واحات منحدر الأطلس الصحراوي»⁽³⁾، وهذه الطريق الداخلية مليئة بالشعاب والمكائد، وهذا ما حدث به، حيث انهزم عقبة بتهودة من مدن الزاب أمام جيش كسيلة - القائد البربري - الذي أوقع به وبزهاء ثلاثمائة من الصحابة والتابعين، فاستشهد في معركته الجهادية سنة 63هـ، التي خلدتها هذه الأبيات الشعرية من قصيدة طويلة نظمها الشاعر التونسي محمد الحليوي، ذاكراً فيها العهود التي تعاقبت على إفريقية، وتاريخ القيروان، ودخول عقبة إياها:

إيه يا أرض الغزاة الفاتحين
وضريح الشهداء الخالدين
حدّثني عن عقبة في جنده
يحملُ النورَ لليل المدلجين

(1) محمد بن تاويت ومحمد صادق عفيفي: الأدب المغربي، ص 21. وانظر: عثمان الكماك «مراكز الثقافة»، ص 12.

(2) من هذا المعقل الإسلامي والرباط الجهادي انطلق موسى بن نصير لنشر الرسالة الإسلامية في ربوع «المغرب الكبير» حتى وصل إلى مدينة طنجة، ومنه انطلق القاضي أسد بن الفرات حتى وصل إلى البحر فركبه مجاهداً ونزل بجيشه بصقلية وفتحها للإسلام، ومنه انطلقت أم البنين الفهرية فاطمة بنت محمد الفهري مهاجرة إلى المغرب الأقصى فنزلت بفاس سنة 245هـ واشترت أرضاً وأقامت بها جامع القرويين الكبير.

(3) عبدالعزيز بن عبدالله: تاريخ المغرب، ج 1، ص 11.

جاء الناس ببشرى وهدى
يفتح الدنيا ويهدي الحائرين
فإذا التكبير موصولُ الصدى
في سهولِ ذاهبات وحزون
وإذا الإسلام خفاقُ اللواء
وإذا النصر حليفُ المسلمين⁽¹⁾

واستمرت بعد ذلك إمارة كسيلة خمس سنوات قائمة مستقلة بعد أن مكث عقبة قائداً في إفريقية طيلة عهود عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وشطراً من أيام معاوية بن أبي سفيان.

ولم يذهب استشهاد عقبة وأصحابه سدى، بل زود المسلمين الفاتحين من بعده بمعلومات حيوية لا تنضب عن عدوهم وأرضه، وقد اقتطف الفاتحون ثمرات استشهاد عقبة بعد ست سنوات من وفاته.. «فكان فتح إفريقية إلى المحيط فتحاً مستداماً منذ كان حتى اليوم»⁽²⁾، وفتحاً ثابتاً مدد حدود الإسلام غرباً وأدخل البربر في دينه طائعين.

ثم توالى فتوحات جديدة على المغرب على يد فاتحين آخرين مثل زهير ابن قيس البلوي (قاهر كسيلة، ومكسر شوكة قبيلة أوربة المقاومة، والمنتصر على البربر في معركة «ممس» بالجزائر وفتح منطقة تونس وصاحب القولة: «قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا»؛ وحسان بن النعمان الغساني (الذي تولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر في إفريقية، وفتح قرطاجنة وفاس ومنشئ مدينة تونس)؛ وموسى بن نصير (مجدد فتح المغرب الأوسط، وفتح المغرب الأقصى والأندلس

(1) ابن تاويت وعفيفي: الأدب المغربي، ص 22 (نقلاً عن الحركة الأدبية والفكرية في تونس لمحمد الفاضل بن عاشور).

(2) محمود شيت خطاب: عقبة بن نافع الفهري، ص 156.

وقسماً من جنوب فرنسا)، الذين استطاعوا جميعاً أن يجعلوا قبائلهم تتوق للجهاد في سبيل الله تحت راية الإسلام في المغرب والأندلس⁽¹⁾. إلا أن في عهد حسان بن النعمان ارتد كثير من البرابرة وقاموا بفتنة - بقيادة «الكاينة داهية» - ضد العرب الفاتحين. فانبرت لهم الجيوش الأموية الإسلامية، ولكنها انهزمت أمام صمودهم وقوتهم. فهياً حسان زحفاً جديداً واجه به فلول البربر بقيادة الكاينة إلى أن تم النصر عليهم واعتقدوا الإسلام من جديد وأذعنوا لأحكامه وتشبثوا بمبادئه وأصبحوا أداة للفتوحات الإسلامية (82هـ - 701م)⁽²⁾ وبإسلامهم استقر الإسلام في المغرب «خالياً من كل خلاف أو تعقيد». وتم فتح المغرب عسكرياً ودينياً، وحقق له هذا الفتح المبارك استقراراً دينياً طيلة أحقاب التاريخ.

وقد كان موسى بن نصير⁽³⁾ قائداً عسكرياً محنكا ومصالحاً دينياً أيضاً، وكانت حركته حاسمة فيما يتعلق بإسلام لمتونة حيث أوغل في بلاد سوس وترك أثراً كبيراً عند المثلثين، وهذا الفاتح هو صاحب القولة المشهورة في كتب تاريخ المغرب: «ما هزمت لي راية قط، ولا فض لي جمع، ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين». ويعد عهده من أهم العهود المغربية، إذ تم فيه بزعامته وقيادة مولاة طارق ابن زياد فتح بلاد الأندلس على يد جيش متآلف من مات من العرب وآلاف من البربر المجاهدين في سبيل الله.

(1) قال عبيدالله بن عوف الخولاني في حسان وموسى معاً:

كنا نؤمل حساناً وإمرته	حتى أتاننا أمير غير حسان
النصر يقدمه والحزم سائقه	عف الخلائق ماض غير وسان
الحق نسبته والعدل سيرته	جزال المواهب معط غير مئان

(ابن عساكر التهذيب - 146/4).

(2) كتب د. خالد جاسم الجنابي كتاباً صدر - ضمن منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية - بعنوان: «تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي»، وقد تحدث فيما تحدث عنه عن مساهمة البربر مع العرب في استكمال تحرير إفريقيا والأندلس وتوطيد أركان الإسلام هناك.

قدم المرحوم محمد إبراهيم الكتاني عرضاً عن هذا المؤلف في مجلة: «الأكاديمية» (دجنبر 1988م).

(3) انظر عن هذا الفاتح: «موسى بن نصير» لبسام العلي - دار النفائس بيروت.

على أن القسوة في معاملة البربر من طرف الولاة العرب والعناصر العربية الزائفة عن القيم الإسلامية المثلى، أذكى في نفوسهم روح الثورة على العرب، وانفجرت من جراء ذلك ثورات بربرية كبرى متوالية⁽¹⁾.

ولما بدأت فئات الخوارج ترد على المغرب من المشرق وروجوا مذهبهم وجد البربر في المذهب الخارجي - الذي لا يرى أن الخلافة يجب أن تبقى في قريش، والذي «وافق طبيعتهم الاستقلالية ورفضهم لكل سيادة خارجية تفرض عليهم»⁽²⁾ - تشجيعاً على الثورة على الولاة العرب. من ذلك أن ميسرة المدغري البربري الذي اعتنق مذهب الخوارج الصفريّة - ثار بمساعدة هؤلاء الخوارج - الذين انضموا إلى جيش الفتوحات الإسلامية - على الوالي العربي على طنجة وناحياتها: عمر المرادي وقتله، ودعا لنفسه بالخلافة. ولما لم يتفق ميسرة مع أتباعه، قتل هو الآخر، وولوا عليهم بربرياً آخر هو ابن حميد الزناتي الذي تمكن من صد بعض هجومات العرب على المغرب. وكان من بين قواد ميسرة صالح بن طريف الذي تزعم قبيلة برغواطة وهي من قبائل مصمودة.

وقد ادعى حفيده يونس بن إلياس بن صالح البرغواطي النبوة وانتحل لنفسه ديناً جديداً، وقتل خلقاً كثيراً من البرابرة ليطيعوه ويتبعوا دينه حتى استطاعوا أن يقضوا عليه.

ويقول سعد بن شهيد (وقيل هشام) المصمودي في وقعة بهت من قصيدة طويلة يهجو فيها البرغواطيين وزعيمهم «صالح المومنين» بعد أن دارت عليهم الدائرة:

(1) كانت أسباب الفتنة الحقيقية هي أن البربر لم يعتادوا الإسلام في أول أمره، ولكنهم لما اكتنحو كنهه وعرفوا حقيقته أصبحوا من أكبر دعااته وأشد أنصاره، فناصروه وعززوه وجاهدوا في سبيله الجهاد الأكبر، فسهلوا بذلك فتح العرب للأندلس وكانوا حاميتها إلى آخر العهد بها. (عبدالله كتون: النبوغ المغربي، ج 1، ص 7).

(2) د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ص 44.

قفي قبل التفرق فأخبرينا
وقولي وأخبري خبراً مبينا
هموم برابر خسروا وضلوا
وخابوا لا سقوا ماءً معينا
يقولون: النبي أو عفير
فأخزى الله أم الكاذبين
ألم تسمع ولم تر يوم بهت
على آثار خيلهم رنيننا
رنين الباكيات فهم ثكالي
وعاويةً ومسقطهً جنينا
هنالك يونس وبنو أبيه
يوالون البوار معظمينا
فليس اليوم ردتكم ولكن
لياليكم كنتم «مستيسرينا»⁽¹⁾

ولما استكمل العرب فتح المغرب - في عمليات تروح وتغدو - تاركين تلقين التعاليم الإسلامية والمبادئ الدينية «لفقهاء مجاهدين» من نوع آخر قسموا المغرب إلى ولايات وجعلوا على رأس كل ولاية قبيلة من العرب. وهكذا جعل العرب «الحميريون» الذين جاؤوا إلى المغرب في حملة موسى بن نصير وطارق بن زياد على بلاد الريف. وقد نصب الالحميريون «العبد الصالح» أميراً على بلد نكور.

ولما تغلب عبيد الله المهدي الشيعي كتب إلى أهل المغرب في اسم أمير نكور سعيد بن صالح النكوري يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتدين برمامته ناضماً ومتهدداً:

(1) مستيسرينا: نسبة إلى ميسرة المدغري صاحب طنجة.

- ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 226 (ط: دار الثقافة).

- ويلاحظ أن ناظم هذه القصيدة قلد عمرو بن كلثوم في معلقته النونية المشهورة وزناً وقافية.

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم
وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً
وأعلو بسيفي قاهرًا لسيوفكم
وأدخلها عفواً وأملاها قتلى

فأجابه شاعرهم ولعله أخ سعيد يوسف بن صالح صاحب إمارة النكور:

كذبتَ وبيتُ الله لا تعرف العدلا
ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا كافرٌ ومنافقٌ
تميل مع الجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمدٍ
وقد جعل الرحمن همتك السفلى⁽¹⁾

هكذا - رغم الاضطرابات التي كان يعانيها المغرب - حاول المغاربة دائماً إثبات وجودهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم. وقد زادهم المد العربي قوة فجرت طاقتهم النضالية⁽²⁾ وبقوا طوال تاريخهم - كما سنرى - وعلى عهود دولهم الإدريسية والمرابطية والموحدية والمرينية والسعدية والعلوية يدافعون عن استقلال وطنهم

(1) ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 178 (ط: دار الثقافة).

ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 442.

ومن القصائد التي صورت أيضاً الوضع السياسي المضطرب بالمغرب الأرجوزة التي نظمها بعض الشعراء، مادحاً عبيد الله لما دخل مدينة نكور منتصراً على سعيد بن صالح منها:

حطم أهل كفرها بالكلكل وجاء رأس رأسها المبذل

على القنا من الرماح الذبل ذولمة شعثناء لم تفتل

(ابن عذاري البيان ج 1، ص 179 - 180).

(2) د. عباس الجراري: النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912، ص 3 - 5.

ويناضلون من أجل وحدة ترابهم ويحمون عقيدتهم الدينية ويعززون مكانة الإسلام ببلادهم والبلدان المجاورة لها⁽¹⁾.

وبعد «الحركات الفتحية» الإسلامية التي أتينا على ذكرها والتي حولت «إفريقية» إلى بلاد إسلامية عقيدة وحضارة، وبعد انتهاء «عصر الولاة»⁽²⁾ قامت سلطة مركزية في المغرب جسدها الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية سنية بالمغرب الأقصى⁽³⁾.

(1) والجدير بالإشارة أن هذه الروح التي تمسك بها المغاربة طوال تاريخهم هي التي دفعتهم للصمود وحدهم في وجه النفوذ العثماني القوي الذي اجتاحت الأقطار الشرقية البعيدة من المغرب والأقطار القريبة منه كالمغربين الأدنى والأوسط، وثبتوا في هذا الصمود ضد الاحتلال الإسباني والبرتغالي - الذي هدد شواطئهم ومدنهم الساحلية - ودافعوا عن العقيدة الإسلامية من التبشير المسيحي. وتمخض عن هذا الصمود ضد الاعتداءات الأجنبية حركة فكرية وكثر أدبي وشعر فريد في بابه.

(2) انتهى «عصر الولاة» في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية الخارجية الإباضية سنة 1964هـ، وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة 172هـ، وفي إفريقية (المغرب الأدنى) بقيام الدولة الإدريسية سنة 172هـ، وفي إفريقية (المغرب الأدنى) بقيام دولة بني الأغلب سنة 184هـ.

(3) الدولة الإدريسية دولة سنية ولم تكن قط شيعية رغم أن مؤسسها من أهل البيت، لم يعتنقوا الآراء الشيعية التي شاعت أيام الفاطميين بل اعتنقوا الفقه السني المالكي. وهي دولة علوية هاشمية عمرت فوق القرنين: قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ولم تنقرض إلا أواخر القرن الرابع للهجرة. وهي أول تجربة نجح فيها أهل البيت في إقامة دولتهم لأنفسهم. وكان لها أثر حاسم في صياغة مذهب السنة وتعريب البلاد المغربية وإقامة دولة إسلامية منظمة - بعدما كان جل أهلها يدينون بدين النصرانية واليهودية - يقودها إمام مطاع من أهل البيت. «والذي تتبع تنقل الإمام إدريس من المشرق إلى المغرب في أعقاب وقعة فخ يتعجب كيف استطاع أن يفلت من العباسيين ويؤسس دولة إسلامية» - اجتمع المغاربة حولها - «وجعلت حداً للصراع القائم بين الشيعة والخارجية والسنة من جهة، وبين الحنفية والمالكية من جهة أخرى، والذي انتهى بانتصار المذهب السني المالكي». ومؤسس هذه الدولة هو إدريس بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى، ولد بالمدينة المنورة، وبعد قتل أخيه محمد النفس الزكية فر إلى المغرب صحبه موله راشد. فنزل بوليلى على قبيلة أوربة. فاجتمع عليه البربر وخلصوا عنهم طاعة العباسيين ونادوا به ملكاً سنة 172هـ. فخرج غازياً مجاهداً ووصل إلى تلمسان. توفي مسموماً سنة 177هـ. ولما مات قال شاعر الرشيد حاقداً:

أتظن يا إدريس أنك فائتٌ	كيد الخليفة أو يتيك فرارٌ
إن السيوف إذا انتضاها سخطه	طالت فتقصر دونها الأعمار
فليدر كنك أو تحل ببلدة	لا يهتدي فيها إليك قرار

(ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق 1 ص 21 - 23).

كانت هذه الدولة مضغمة بنفس ديني عميق وروح جهادية مثلى، فعملت على تصفية مخلفات الشرك وعلى الزيادة في تفهيم البرابرة حقيقة الدين الإسلامي في معظم النواحي المغربية التي بسطت نفوذها عليها، وعلى توحيد الصفوف حولها وبذر بذور الوحدة الدينية معتمدة في كل ذلك على نسبها الشريف، لتقرير مشروعية حكمها وعلى اتحادية قبيلة أوربة كسند ودعم لها. وقد ركزت هذه الدولة كل جهودها لهذه الغاية معتبرة أعمالها العسكرية جهاداً في سبيل الله، وبذلك نشرت الدين الإسلامي في مرحلة قصيرة جداً (172هـ - 197هـ) في كافة أرجاء المغرب ولم يبق في عهدها مكان لديانة أخرى.

وعند تصفح تاريخ هذه الدولة نجد أن وقعة جرت بين المولى إدريس بن إدريس والخوارج الصفرية من البربر، شهدها وتحدث عنها داوود بن القاسم بن عبدالله بن جعفر الأوربي: فبعدما وصف الواقعة الحاسمة أعجب بما رأى من شجاعة إدريس وقوة بأسه في جهاده وثباته في الحروب. فسأله الأمير عن أسباب تعجبه فقال: «حسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك والبشر عند لقاء عدوك»، فأجاب: «ذلك بركة جدنا» ﷺ، ثم تابع الأوربي قائلاً: «وقد عجبت من كثرة تقلبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك»⁽¹⁾. فعلق الأمير الإدريسي

عن الدعوة الإدريسية ومؤسسها انظر: ابن القاضي: «جذوة الاقتباس» (القسم الأول)، وعلي ابن أبي زرع: «الأنيس المطرب بروض القرطاس» (ص 20 وما بعدها) وعبدالله كنون: «الإمام إدريس» - ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 33، د. عباس الجراي: وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (1976).

- الفكر والوحدة - أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره بالمغرب ص 79.
- «الموحدين ثورة سياسية ومذهبية»، المناهل، عدد 1، س 1، ص 97.
وعبدالله السعداني: «إدريس الإمام منشئ دولة وباعث دعوة» - مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 4 - 5، 1980 - 1981. ود. حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 109 - 117. ود. سعدون عباس نصرالله: دولة الأدارسة في المغرب - العصر الذهبي.
(1) من المعلوم أنه لما بويع إدريس الثاني سنة 186هـ، كفه راشد فآدبه وأحسن تأديبه وعلمه الفقه والشعر وسير الملوك وسياستها، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحروب. (الجزنائي: جني زهرة الأس ص 16).

على ذلك بقوله: «ذلك مني زعم للقتال وعزم وصرامة وهو أحسن في الحرب فلا
تظنه رغباً». ثم أنشد مفتخراً في «حال قتاله لمن عانده»:

أليس أبونا هاشم شدّ أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نملّ الحرب حتى تملنا
ولا نشتكي مما يؤول إلى النصب
ولكننا أهل الحفائظ والنهي
إذا طار أرواح الكماة من الضرب⁽¹⁾

وقد بلي إدريس بن إدريس في عهده بخيانة أحد عماله: بهلول بن عبدالواحد
المدغري، الذي استماله إبراهيم بن الأغلب - عامل العباسيين في عهد هارون
الرشيد على إفريقية - واستهواه بالمال حتى بايع هارون الرشيد، واعتزل إدريس
في قومه مدغرة. وكان هدف الوالي بن الأغلب هو إثارة الفتن في المغرب، وإدارة
المكائد للدولة الإدريسية الفتية والتوصل إلى اغتيال أميرها بعد قتله لمولاه راشد،
أليس هو القائل؟:

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً
وأني بأخرى لابن إدريس راصداً
تناوله عزمي على بعد داره
بمختومة يحظى بها من يكابد

ولما كان إدريس بن إدريس شاعراً مجيداً خاطب البهلول بقصيدة شعرية
يرجوه فيها أن يراجع طاعته، ويحذره من مكر إبراهيم بن الأغلب.

(1) علي الجزنائي: جني زهرة الأس ص 17.
- عبدالله كنون: أمراؤنا الشعراء ص 10 - 11.
- وفي جذوة الاقتباس لابن القاضي (ق 1، ص 31) ورد البيت الثالث هكذا:
ولكننا أهل الحقائق والنهي إذا طار أرواح الكماة من الرعب

أبهلولٌ قد حملت نفسك خطة
تبدلت فيها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم على بعد داره
فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب
وقدماً رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خالياً
ومنّاك إبراهيم شوك قتاد

وكتب الإمام إدريس من جهة أخرى إلى إبراهيم بن الأغلب كتاباً يدعو فيه
إلى طاعته والكف عن إذايته ويذكره بقرابته من الرسول ﷺ وفي أسفل كتابه أورد
هذه الأبيات الشعرية:

انكر إبراهيم حق محمد
وعترته والحق غير مقول
وادعوه لأمر الذي فيه رشده
وما هو لولا رأيه بجهول
فإن أثر الدنيا فإن أمامه
زالزال يوم للعقاب طويل⁽¹⁾

«وتكشف هذه الأبيات الشعرية عن الاضطراب النفسي الذي كان يعيشه
الأمراء الأدارسة فيما بينهم أو مع خصومهم»⁽²⁾.

(1) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج 1، ص 55.

عبدالله كتون: الإمام إدريس رقم 33، ص 13 - 14.

(2) د. عباس الجراي: نشأة الأدب العربي في المغرب، ظروفها ومظاهرها، المناهل، عدد 2، ص 2، ص 123. (وانظر كذلك كتابه: «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها» ج 1).

ولما توفي إدريس بن إدريس⁽¹⁾ مسموماً سنة 213هـ اجتمعت كلمة البرابرة على

(1) لم يخل أي ديوان شعري لشعراء المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث من أكثر من قصيدة في تخليد جهاد الفاتح المغربي إدريس الأكبر وخلفه إدريس الأزهر ناشر الرسالة الإسلامية في ربوع المغرب. ونثيت هنا على سبيل المثال بعض الأبيات من قصيدتين، الأولى للسيد عبدالسلام بن محمد بن عبدالسلام بن عبدالله - مقرظ تأليف العلامة المهدي الوزاني - في الرد على ابن المهنا القسنطيني الذي كان ينقم على إدريس الفاتح ويكن له العدا، يقول الشاعر:

يجادلنا في الطاهرين ومن لهم
ومن جاهدوا في الله حق جهاده
بكل قتام غرة وحجول
وقاموا بعبء الدين وهو ثقیل
ثم يخاطب الشاعر الناظم العنيد:

أتنقم من إدريس إن كان طالباً
وقد كان في قتل الحسين وأهله
أتنسب إدريس إلى غير عيصه
فنشهد أن الله لا رب غيره
حقوقاً بها الشهم الحسين قتيل
لظلم وعن نهج الهدى لنكول
وتحسب أن الشبل ويك دخيل
وأن ابن إدريس لطفه سليل
ثم يشرح الشاعر لابن المهنا ما هي الدعوة الإدريسية الإسلامية:

دعا المغرب الأقصى بدعوة صادق
وأسمى به الإسلام يعلو مناره
فلبى دعاه وعمره وسهول
وأصبح والإيمان فيه يجول

ويتوجه الشاعر لابن المهنا لبيان له - إن كان ذلك يحتاج إلى بيان - مدى تأثير الدعوة الإدريسية على العهود المغربية المتوالية وعلى سيرة ملوكها الأبطال:

أتذكر فضل المغرب الأقصى جاحداً
تواترت الأخبار طراً بفضله
ومنهم سيوف نحو نحرك شرع
ومنها بحور قد تفجر بعضها
وهل نحن إلا الصخر توهى ينطحه
وما تاه في الببداء من غير مرشد
ألم يكفك التاريخ بالحق شاهداً
لقد مرّ قرن بعد قرن وفضلنا
أما سلفت فينا ملوك خضارم
تسير بهم للمكرمات سوابق
يخوضون في نيل العلى كل غمرة
ويقتحمون الموت والموت أحمر
لهم كل يوم للوغى ورجالها
بزوغ نجوم ما لهن أفضول
وما كان في نقل الثقة فضول
مواض قواض ما لهن فلول
فأدرك منها وافر وطويل
قرون وعول أن أتته وعول
فليس له غير الضلال قفول
وعدلاً رضىً ليس عنه عدول
يزيد وجيل قد تقضى فجيل
لفيلقها فوق السماك مقيل
فيخلف من بعد الرعيل رعيل
فلا يعترهم في العظيم ذهول
وللبيض والسمر العوالي صليل
نزال وللضيف الملم نزول

محمد بن إدريس والي البصرة (بصرة المغرب) وطنجة وما يليهما، وبايعه إخوته جميعاً، واتخذ مدينة فاس قراراً له وفرّق بلاد المغرب بين إخوته، عملاً بنصيحة جدته السيدة كنزة. فنكث أخوه عيسى العهد وخرج عليه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم - عامله على طنجة - يأمره بمحاربته فأبى القاسم وكتب إليه معتذراً، وفي شيء من اليأس، بهذه الأبيات التي تعد من أقدم القطع الشعرية المغربية:

سأترك للراغب الغرب نهبا
وإن كنت في الغرب قبيلاً وندبا
وأسمو إلى الشرق في همة
يعزبها رتباً من أحبّا
وأترك عيسى على رأيه
يعالج في الغرب همّاً وكربا

(ع. ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 382 - 385).
أما القصيدة الثانية فهي للشاعر محمد بن المفضل غريط أوردتها في ديوانه المخطوط «الرخيص والثمني» مدح بها إدريس الثاني مشيداً بخصاله العسكرية وبلائه في نشر الرسالة الإسلامية، منها:
قطب البلاد غوثها حامي حماه بسيفه المرهوب
من أخضع المغرب الجموح لعزه بجهاد محتسب وجد حبيب
من قام بين الجند أفصح خاطب بمقال منصور اللواء مهيب
من كان في الحرب الضروس كجده يردي الجموع بعزمه المثوب
(ديوان الرخيص والثمني ص 33 - 34).

وأنشد العلامة سيدي المدني بن الحسن الرباطي من قصيدة جامعة في المولى إدريس: (1341هـ):
وأحيا دارساً (إدريس) لما بدا فينا كتاج فوق هام
له فضل عظيم ليس يحصى على أبناء مغربنا العظام
به الإسلام قرّ في قراه وأعطته البرابر بالزمان
وأتباع الهداة على هداهم بميزان لهم بعد الحمام
وسل سليله إدريس سيفاً لإرغام العداة على الرغام
(انظر القصيدة بتمامها في: الإتحاف لابن زيدان ج 2، ص 7: وفي كتاب: «الحافظ الواعية محمد المدني بن الحسن» لعبدالله الجراري ص 119 - 122). (وقد استعرض فيها ناظمها أحداثاً تاريخية عن المغاربة والعرب وما أنجبوا من عباقرة وفاتحين).

ولو كان قلبي على قلبه
لكنْتُ له في القرابة قلبا
وإن أحدث الدهر من ريبه
شقاؤنا علينا وأحدث حربا
فإنني أرى البعد سترًا لنا
يجددُ شوقًا لدينا وحبًا
ولم نجنِ قطعًا لأرحامنا
نلاقي به آخر الدهر عتبا
وتبقى العداوة في عقبنا
وأكرم به حين تعقب عقبا
وأوفى من ذاك جوب الفلاة
وقطع المخارم نقبًا فنقبا⁽¹⁾

وتعتبر هذه القطعة بحق «عن نفس كبيرة وهمة عالية مرتفعة عن سفاف الحياة ومهازلها» وصراعاتها، وكذلك عن شيء من اليأس والاضطراب اللذين يخالجان نفس ناظمها وتعطي أيضًا صورة نابضة عن التناثر والإضغان بين الإخوة الأدارسة وتباين اتجاهاتهم السياسية.

وبعد هذا الكتاب زهد القاسم في منصبه، وكتب الأمير محمد بن إدريس إلى أخيه عمر والي صنهاجة وغمارة يأمره بمحاربة عيسى: فخرج إليه في عسكره وأوقع به ثم أمره بمحاربة شقيقه القاسم، فحاربه وتغلب عليه⁽²⁾.

وهذه قصيدة أخرى للأمير عبيد الله بن يحيى بن إدريس، يخاطب فيها عبدالرحمن الناصر لدين الله الأموي، لما افتتح سبته سنة 319هـ، والتي هي نظام

(1) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج 1، ص 131 - 133.

(2) ابن الأبار: الحلة السيرة، ص 133.

باب المغربين ومفتاح باب المشرقين وهي على ما قيل مجمع البحرين وقاعدة البر والبحر..» يقول الأمير الإدريسي:

بسيفك دانت عنوة وأقرت
بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها إذ تقربت
ولا حليت بالزي لمّا تحلّت
ولكن أزالست راسيات عقودها
عزائم لو ترمي بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مؤيد
تدال بحمد الله من شرّ دولة
فهذا أوان النصر منها وهذه
بشائره تروي الأنام بسبته

فصارت سبته بعد الفتح مفتاحاً إلى العدو (الأندلس)، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين الناصر، وفيها ورد الخبر على عبيد الله بالمهدية بدخول موسى بن أبي العافية وأهل سبته في طاعة الأمير الأموي⁽¹⁾.

فكان من سمة الأمراء الأدارسة نظم الشعر - كما لاحظنا - ذلك الشعر الذي يعد في مضمونه ومجموعه شعراً سياسياً وجهادياً.

(1) ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 200 - 201 - 204 (ط: دار الثقافة).

- ومن الأشعار التي قيلت في هذا الخليفة الأموي - «الذي اعتز به ركن الدين واحتفى ذمار المسلمين وقام الجهاد على ساق.. وطاعت له البرابر في جميع نواحيها واعتصموا بحبله» - قول الشاعر الأندلسي ابن عبد ربه:

يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت	نداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به	ما هيجت من حمياك الذي احتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر ذمته	وذلت الخيل إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية	تطوي المراحل تهجيراً وإدلاجاً

(ابن عذاري: البيان، ج 2، ص 21) (ط: دار الثقافة).

وكان ممن وفد على الأمراء الأدارسة ومدحهم الشاعر بكر بن حماد التاهرتي الذي
أنشد في الأمير عيسى بن إدريس صاحب جراوة وتلمسان قصيدة منها هذه الأبيات:

سائلُ زواغة عن فعال سيوفه
ورماحه في العارض المتهلل
وديَارُ نفزة كيف داس حريمها
والخيلُ تمرغُ بالوشيج الذبَل
وغشى مغيلة السيوف مذلة
وسقى جراوة من نقيع الحنظل⁽¹⁾

هكذا نرى أن شعر الجهاد في عهد الفتوحات الإسلامية للبلاد المغربية، وفي
العهد الإدريسي - أي في عهد ما قبل الدولة المرابطية - يكاد ينحصر في هذه الننف

(1) ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 200 (ط: دار الثقافة).

وعلى ذكر سيوف الأدارسة بالبيت الثالث تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى بعض الأبيات الشعرية
التي قيلت في سيف إدريس الأزهر الذي علق بمنار جامع القرويين لما تنازع عليه حفدته. وقد جمعها
المؤلف إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في كتابه: «نثر الجمان» مشيراً إلى أن في شهر ربيع الثاني
764هـ اجتمع بجامع القرويين جماعة من «طلابها الأذكياء وأدبائها النبلاء»، وكان المؤلف في جملتهم
وأنشد كل واحد منهم في ذلك السيف: من تلك الأشعار قول أبي عبد الله محمد ابن محمد بن
عبد الرحمن المعروف بالريب:

وما خص إدريس المنار بسيفه	لغم ولكن كي يعم نداؤه
مشيراً: أجبوا داعي الله تأمنوا	ومن لم يجب داعيه هذا جزاؤه
وقول أبي عثمان سعيد بن إبراهيم السدراتي:	
لإدريس سيف أظهر الدين والهدى	بأفق منار للآذان نشيدا
فمن ظن أن الذل أورثنا به	فهل ذلك إلا ظالم ضل واعتدى
وقول عبد الله بن أجروم:	

تساموا بفاس سيف إدريسهم	فوق مناره لأمر مخوف
بل أشعروا بقول خير الورى	جنتكم تحت ظلال السيوف
وقول أبي عبد الله محمد بن علي النجار المشهور بالحبك:	
شهرة المشرفي فوق المنار	عزة للورى ودين النبي
سيف إدريس محمد للأعادي	وانتصار الملوك بالمشرفي
(إسماعيل بن الأحمر: نثر الجمان، الباب 12، ص 451 - 461).	

المبعثرة في كتب التاريخ والتي على قلتها تبرهن على الروح الجهادية والحماسية التي كان يتمتع بها أدباء وشعراء تلك الحقبة المضطربة من تاريخ المغرب.

ولعل أسباب هذه القلة راجع إلى انشغال المغاربة واهتمامهم بالفتوحات والغزوات التي وصلت إلى قعر الأندلس، وبالقلاقل التي خلقتها محاربة الفئات الضالة والفرق المتطوعة وانسياح الخوارج إلى المغرب هروباً من الشام، وبالصراعات المتوالية بين العرب الفاتحين وبين البرابرة سكان المغرب الأصليين من أجل الاستئثار بالحكم والذود عن الوطن، وبظهور دولتي مغراوة وبنو يفرن، وقيام دولة الفاطميين التي حولت المغرب إلى دولة المجاهبات، بعد أن قلقت من وجود الأمويين بالأندلس، وأخيراً بالاضطرابات والنزاعات على السلطة بين أبناء إدريس الثاني، والتي تعرض المغرب من جرائها إلى فتن وأهوال، لم تتج من مهالكها إلا إمارة نكور بالريف وإمارة بني مدرار بسجلماسة، وإلى الغزو العبيدي والغزو الأموي، واكتساح أبي عامر عبدالله محمد بن أبي عامر⁽¹⁾.

كما أن القلة راجعة إلى عدم احتكاك الفاتحين الأدباء الطارئين على المغرب بالأدباء المغاربة، لأن الفاتحين (أو عرب الفتح) لم يكونوا يعتبرون المغرب دار استقرار وثقافة وأدب، بل كانوا يعتبرونه دار جهاد، ورباطاً عسكرياً ومعبراً إلى الأندلس وإفريقية لنشر الرسالة الإسلامية والجهاد في سبيل الله⁽²⁾.

(1) وردت في ترجمة الشاعر الإدريسي الأمير إبراهيم بن إدريس الإدريسي الحسني أبيات يخاطب فيها بني مروان بقرطبة لما رأى غلبة ابن أبي عامر على هشام المؤيد واستبداده بالأمر دونه، منها:

أَيَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمِيَّةٍ وَاحِدٍ	وَيَسُوسُ هَذَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَحْدَبُ
تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالِي هُودَجٍ	أَعْدَادُهُ فِيهِنَّ قَرْدٌ أَشْهَبُ
أَبْنِي أُمِيَّةٍ أَيْنَ أَقْمَارِ الدَّجَى	مِنْكُمْ وَمَا لُجُوهُهَا تَتَغَيَّبُ

(عبد الوهاب بمنصور، أعلام المغرب العربي، ج 1 ص 34).

(2) ذكر في عبد القادر زمامة في مقالة عن «نشأة الأدب العربي في المغرب»: «أن المغرب كان في العصور الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي وطن بطولية وأبطال، لا وطن أدب وأدباء، وشعر وشعراء». دعوة الحق مارس 1959.

لذا نعتبر أن الشعر المغربي بصفة عامة وليس شعر الجهاد فحسب كان يشكو في هذه الحقبة المليئة بالاضطرابات من الضمور والفتور والهزال لبساطته في المعاني ويسره في الأسلوب وانعدام العواطف، وأنه لم ينبع خلالها شاعر بالحضرة الفاسية يستحق التدوين والتتويه، وأنه لم تنشط الحركة الأدبية في المغرب بصفة عامة، والحركة الشعرية بصفة خاصة إلا بعد أن فتحتها المرابطون عسكرياً، وبرزت بعد ذلك السمات الخاصة للشعر المغربي في أحضان الدولة اللمتونية المرابطية العتيدة: أول دولة مغربية قوية ومنظمة ومستقرة، حكمت المغرب الأقصى والأوسط والصحراء والأندلس زهاء مائة عام (539هـ)، وقامت على الرباط والجهاد، وعاش رجالها مرابطين مجاهدين.

ومن ثم ترعرع أدب الجهاد شعراً ونثراً في غمار جهاد المغاربة الذين يسعون تحت إمرة دولهم لنشر كلمة الإسلام وللجهاد في سبيل الله عملاً بقوله تعالى: ﴿إِن تَتَصَرَّوْا اللّٰهَ يَنْصَرِكُمْ﴾ في سورة محمد، وبقول الرسول ﷺ يوم دخل مكة: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية». فارتبط الجهاد بشخصيتهم - عبر تاريخهم - ارتباطاً وثيقاً، واتخذوه مذهباً لهم للمحافظة على وحدتهم السياسية والدينية والمذهبية⁽¹⁾.

(1) انظر في هذا المجال محاضرة د. عباس الجراري: «الدين ووسطيته وتحديده وسياق الشخصية المغربية». (الدروس الحسنية لعام 1406هـ) طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

الباب الأول: شعر الفتوح

– الفصل الأول: شعر الفتوح الداخلية.

– الفصل الثاني: شعر الفتوح الخارجية.

الفصل الأول

شعر الفتوح الداخلية

كان أول هم للدولة المغربية الناشئة هو بسط سلطتها على مجموع البلاد المغربية، ونشر الرسالة الإسلامية ومحاربة أهل البدع والثوار الذين يرغبون في تأسيس إمارات مستقلة، ثم التفكير بعد ذلك في «التوسع» جنوب البلاد أو شمالها أو شرقها، لتتميم رسالتها الدينية الإصلاحية، أو لإغاثة من يستجد بها، أو للدفاع عن كيانها ورد الهجومات الأجنبية على حدودها وشواطئها، تحفزها إلى ذلك دعوة الجهاد في سبيل الله، وحماية المسلمين من المشركين، ومحاربة «الضالين المضلين».

وهكذا قامت دولة المرابطين في قبيلة لمتونة بجنوب المغرب، معتمدة على التقشق والجهاد والتشبث بمبادئ المذهب المالكي السني، لتقاوم الحملات المضادة والعدائية وتشر دين الإسلام كما جاء به صاحب الدعوة المحمدية ﷺ، وتحارب الدعوات الباطلة والانحلال الخلقي، وتقضي على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وغمارية (التي كانت تدعو إلى استبدال الإسلام السني بإسلام محلي) وتقطع دابر المذهب الإباضي الخارجي.

وكان قائد هذه الحركة الإصلاحية ورائدها الديني هو عبدالله بن ياسين⁽¹⁾، «الشهم الحازم والمتدين الجريء»، والسياسي المغامر والعظيم الإيمان بالإسلام،

(1) عن عبدالله بن ياسين (395هـ - 450هـ) وشخصيته في ميدان الجهاد دفاعاً عن العقيدة الإسلامية، انظر: عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين رقم 37 من ذكريات مشاهير رجال المغرب. وإبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، الفقيه المفكر والداعية والقائد المجاهد - دار الإصلاح - القاهرة.

و«صاحب الرأي والخير والتدبير الحسن». دعا ابن ياسين - بالحكمة والموعظة الحسنة - إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى التمسك بما جاء في الكتاب والسنة، وإلى الاستعداد للجهاد في سبيل الله سواء في المضارب أو في الرباطات أو في الحصون، وقال لأتباعه: «يا معشر المرابطين إنكم جمع كثير.. وقد أصلحكم الله وهداكم إلى الصراط المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأملوا بالمعروف وتنبهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وتقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام فاستعدوا لقتالهم»⁽¹⁾.

ولما كثر عدد مريديه خرج بدعوته من رباطه - على حدود الصحراء - على رأس أتباعه المرابطين الأنقياء المجاهدين في سبيل الله، واشتد في عقاب المجرمين والمخالفين للتعاليم الإسلامية والتمسك بالتقشف والقناعة في كل ملذات الحياة. ولما لم يتعظوا بالوسائل اللينة والموعظة الحسنة ولم يغيروا منكراتهم وصموا أذانهم عن الإسلام الصحيح أخضعهم بالقوة، وحكم السيوف في رقابهم، وبدأ في الجهاد في قبائل لتونة وكدالة ومسوفة. وزحف على سجلماسة بدعوة من فقهاءها واستولى على درعة، وما لبث المرابطون بقيادته أن استولوا على تارودانت - بعد زحفهم إلى سوس - التي كانت على المذهب الشيعي، وأقروا بها المذهب المالكي⁽²⁾.

(1) ابن أبي زرع: القرطاس، ص 79.

(2) المذهب المالكي هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الفقه الإسلامي منشؤه هو مالك بن أنس المتوفى سنة 179هـ. وهو إمام دار الهجرة بدأ حياته جامعاً للحديث الشريف، حافظاً له، وأصول المذهب المالكي هي: القرآن والسنة والقياس وعمل أهل المدينة. ويمتاز المذهب المالكي بالوضوح والحسم. وكان دخول مذهب الإمام مالك إلى المغرب والأندلس ليس دخول مذهب فقهي فقط بل كان أيضاً دخول أسلوب حضاري حيث رفع مالك بن أنس بالعلم وأهله، وجعل من العلم رمزاً من رموز القوة والسلطان. (انظر: د. عباس الجراري: «أسباب انتشار المذهب المالكي» الدروس الحسنية ص 39 (رمضان 1405هـ) وكتابه: «وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ». ولم يعرف المغرب طوال الأربعة عشر قرناً الماضية أي مذهب آخر غير المذهب المالكي، ولا أي عقيدة أخرى، غير عقيدة أهل السنة «تارة في صورتها السلفية، وتارة في صورتها الأشعرية».

ثم استسلمت أمام قواتهم أغمات بعد حصار شديد واقتحموا تادلة. وبعدها غزا ابن ياسين مع أبي بكر بن عمر في جمع عظيم من المرابطين والمصامدة «بورغواطة الكفرة»، وحل ببلادهم، وفرت بورغواطة أمامه في جبالهم. ولما انفرد عبدالله بن ياسين في قلة من أصحابه لقيهم جمع كبير من البرغواطين فقاتلهم قتالاً عنيفاً حتى استشهد سنة 450هـ⁽¹⁾.

ولم يعن مبدأ الجهاد في سبيل الله عند عبدالله بن ياسين وخلفائه - كما شاهدنا - الفتح فحسب، بل رد عدوان العدو والمرابطة لترقب حركاته، ومحاربة البدع الضالة، وتوحيد الأمة حول المبادئ الإسلامية. وعلى هذا الأساس قامت الدولة الجديدة وسمي دعايتها بالمرابطين.

وعندما يتخذ مبدأ الجهاد صفة المرابطة يصبح غير محدد بزمان أو مكان، فهو جهاد دائم وحرب متصلة الحلقات على الكفار وعلى الذين لا يستجيبون للدعوة الإسلامية داخل البلاد أو خارجها؛ وفي هذا الاتجاه وعد الداعية المجاهد عبدالله بن ياسين أصحابه بأنهم إن صبروا ونصروا دين رسول الله ﷺ فإنهم سيفتحون «ما وراءهم».

(1) القاضي عياض: المذارك، ج 8، ص 82 - 83. هذا وبعد وفاته تابع حركة الجهاد أبو بكر بن عمر في السودان (مملكة غانا) سنة 1054م واستولى على عاصمتها سنة 1076م. ولكن سرعان ما قامت انتفاضات استشهد أثناءها ابن عمر. وبوفاته اضمحلت سلطة المرابطين «بغانا» وبقي الإسلام محصوراً في رقعة جغرافية صغيرة إلى أن برزت «مملكة مالي» في الساحة السياسية في المنطقة وحملت الدين الإسلامي إلى أدغال ومجاهل غرب إفريقيا كله. والجدير بالإشارة في هذا المضمار أنه كانت القوافل التجارية الإسلامية المتجهة إلى إفريقيا السوداء تتطلق من برقة بليبيا والقيروان بتونس وتلمسان بالجزائر ومن طريقه لمتونة (وهي الآتية من المغرب الأقصى على امتداد ساحل المحيط الأطلسي إلى حوض نهر السنغال). ويبدو أن الدعوة الإسلامية سلكت طريق لمتونة للوصول إلى السنغال لارتباطه تاريخياً وجغرافياً بغانا ومالي اللتين كانتا على صلة وثيقة بالمغرب والجزائر أيضاً، فضلاً على أن حركة عبدالله بن ياسين رابطة فترة من الزمن في جزيرة «أندر» السنغالية. (عبد القادر محمد سيلا: «المسلمون في السنغال»، ص 51 و53 و54).

وقد تغنى شاعر الأندلس والمغرب عبد الجبار بن حمديس الصقلي⁽¹⁾ - الذي كثيراً ما تردد على أغمات وسلا وسبته - بشجاعة المرابطين في المعارك وبلاتهم في الحروب، في قصيدة يمدح فيها أهل المغرب:

حماة إذا أبصرتهم في كرية
رضيت من الأساد عن كل غاضب
إذا ضاربوا في مازق الضرب جردوا
صواعق من أيديهم في سحائب
لهم يوم طعن السمر أيد مبيحة
كلى الأسد في كراتهم للثعالب
إلى أن يقول واصفا غزواتهم واستشهادهم:

إذا سكتوا في غمرة الموت انطقوا
على البيض بيض المرففات القواضب
إذا ما غزوا في الروم كان دخولهم
بطون الخلايا في متون السلاهب
يموتون موت العز في حومة الوغى
إذا مات أهل الجبن بين الكواعب

(1) هو عبد الجبار بن حمديس الأزدي الصقلي شاعر ومؤرخ من سرقوسة بصقلية، ازداد سنة 447هـ وتوفي سنة 527هـ ببجاية ودفن بها. مدح المعتمد فأجزل عطاءه، وأطال المدائح فيه كما مدح الرشيد بن المعتمد، وارتاد مجالس الشراب واللهو بإشبيلية. ثم انتقل إلى إفريقية ومدح صاحبها تميم الصنهاجي وبقي متنقلاً بين أغمات وسلا والمهدية وبجاية وقابس وميوزقة وسبته. خلف ديوان شعر، وكتاب: تاريخ الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس. (انظر حياة ابن حمديس بالديوان من ص 13 إلى ص 17). من قوله في مدح بلاء المعتمد بن عباد في حروبه:

وكلما عقد الرايات معتما	حلت أيادي من آرائه عقدا
شهم صبور إذا ما القوم زاحمه	مزاحماً في كفاح ظنه أحدا
إذا الفوارس كرت نحوه وجدت	نار الشجاعة في إيمانها بردا

(الديوان: ط بيروت، ص 170 - 171).

حشوا من عجاجاتِ الجهادِ وسائداً
 تعدُّ لهم في الدفن تحت المناكب
 فغاروا أفلولَ الشهبِ في حُفَرِ البلى
 وأبقوا على الدنيا سواد الغياهب⁽¹⁾
 وفي ديوان الشاعر الأعمى التتيلي نجد أبياتاً يشيد فيها بحنكة علي بن
 يوسف المرابطي العسكرية:
 جلبت الخيل مشرفة الهوادي
 تعزُّ على قيادك أو تهوئُ
 كآرام الصريمة أو مهاها
 وليس سوى الرماح لها قرون
 سوابح من غمار في حديدٍ
 فما تدري أخيل أم سفين
 يلقيها الطعان ولا يبالي
 مشيح ما يبل له طعين
 يجلها ثياب مكايديه
 إذا انتفضت من الورق الغصون⁽²⁾

(1) عبد الجبار بن حمديس: الديوان، ص 31 - 33.

(2) د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ص 102. (نقلاً عن ديوان الشاعر ص 200). ويلاحظ د. عباس الجراري أن شعراء المرابطين يضيفون دائماً على ممدوحهم حلة المسلمين الأوائل في مواقفهم الجهادية كمثّل قول أبي الحسن بن الجد في مدح يوسف المرابطي:
 انظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفر
 يرفع الرايا بطرف ساهر يقظ كما رعاها بطرق ساهر عمر
 (د. عباس الجراري: التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب - دعوة الحق، عدد: 4 و5 - 127 - مارس 1974).

وقد آلت سلطة هذه الدولة المجاهدة إلى قائدها الفذ يوسف بن تاشفين⁽¹⁾، - «هذا الورع في إيمانه، البسيط في حياته، المتواضع في سلوكه، المتقشف في لباسه» - وقد برز قائداً محنكاً في زحفه على الشمال المغربي بعد أن ندبه الأمير أبو بكر اللمتوني ليكون قائداً لجيش المرابطين. وقبل أن يتقلد قيادة الدولة المرابطية الفتية أسس عاصمة دولته المرابطية: مراكش، واتخذ منها قاعدته العسكرية، وكون جيشاً ضخماً وفتح فاس سنة 455هـ. ثم نازل قلعة فازاز المنيعة واشتغل بعد حصارها بإخضاع جبال الريف لسلطته، ثم نازل فاس مرة أخرى، وأعمل السيف في رقاب الزناتيين بها، ثم توجه إلى طنجة ومنها إلى سبتة ثم فتحهما بعد حصارهما براً وبحراً. وهكذا واجه يوسف بن تاشفين بلاداً كانت تتحكم فيها قيادة مغراوة وزناتة وبني يفرن وبرغواطة، التي تجمعها كراهية تقليدية لصنهاجة التي تنتمي إليها قبيلته.

وقد استطاع بفضل حنكته السياسية وقوته العسكرية أن يخضع المغرب من سجلماسة إلى طنجة إلى نفوذ دولته، ويجمع شتات الإمارات ويخلص المغرب من إمارة البورغواطيين «الضالة»، وينشئ دولة قوية تعتمد الإسلام المبسط الواضح أساساً لها⁽²⁾.

وليحيى بن محمد بن محمد بن يوسف الصيرفي الغرناطي الأصل - صاحب كتاب: «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» - وشاعر من الشعراء المتقدمين في عهد الدولة اللمتونية، قصيدة يمدح فيها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف

(1) يعد هذا الملك من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب وكان لهم أبعد الأثر في توجيه تاريخه وتحديد حدوده الطبيعية، كما قام بدور كبير في أنقاذ الأندلس من الضياع خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، مما بوأه مكانة هامة في تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي، وعد من أفذاذ الرجال في تاريخ الفتوحات الإسلامية ومن المجاهدين الأبرار في سبيل الله، حتى أتى عليه أبو حامد الغزالي. انظر: عبدالله كنون: يوسف بن تاشفين رقم 38 من «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، محمد حسن الجمل: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» - دار الشعب - القاهرة.

(2) د. عباس الجراري: تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين. المناهل عدد 16، ص 6، ص 42.

ثباته في حرب شهدها، ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات هامة في ميدان سير الحروب، يقول منها:

يا أيها المأذ الذي يتقنُّ
من منكم الملكُ الهمام الأروع
ومَن الذي غدرَ العدو به دجى
فانفضَّ كلُّ وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعانُ يصدّها
عنه ويزجرها الوفاء فترجع
والليل من وقع السنابك بينهم
صبحٌ على هام الكماة ملمّع
أنى فزعتم يا بني صنهاجة
وإليكم في الروع كان المفزع
ما أنتم إلا أسودٌ خفيةً
كلُّ لكل عظيمه مُستطلع

إلى أن يقول في سياسة الحرب وخططها التي يراها الشاعر «ضرورة للإحراز على النصر والظفر»:

أهديك من أدب الوغى حكماً بها
كانت ملوكُ الفرس قبلك تولعُ
خندقٌ عليك إذا ضربت محلة
سيان تتبعُ ظافراً أو تتبع
والبس من الحلق المضاعفة التي
وصى بها صنعُ السوابغ تبّع

واركب من الخيل السوابق عدة
حصناً حصيناً ليس فيه مدفع
واحذر كمين الروم عند لقاءها
واحفظ كمينك خلفها إذ تدفع
إياك تعبئة الجيوش مضيقاً
والخيلُ تفحص بالرجال وتمرع
واجعل من الطلاع أهل شهامةٍ
للصدق فيهم شيمة لا تخذع⁽¹⁾

وإذا رجعنا إلى نماذج شعرية أندلسية في مدح المرابطين نجد قصيدة الشاعر
الأندلسي أبي إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسي يمدح الأمراء المرابطين⁽²⁾
ورجال دولتهم وجنودهم، في شخص الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين،
ويشيد بخصالهم الحربية في أسلوب متسم بالهيبة والشدة والوقار، منها:

أرايك أمضى أم حسامك أقطع
ومراك أبهى أم حديثك أسمع
لك الخير ما أهداك والسلم صائب
يطيش وما أعداك والخيل تمزع
ولا غير أطراف الأسنة مقول
يبين ولا غير الفرائص مسمع
وما الوشي حسناً غير بيض محاسن
تسن على عطف علاك وتخلع

(1) الحلل الموشية ص 124 (ط: الدار البيضاء) وابن خلدون: المقدمة ص 275 - 276 (ط: بيروت).

(2) أورد ابن أبي الخصال في «رسائله»، رسائل موجهة لهؤلاء الأمراء يهنئهم فيها بعودتهم منصورين
بغزواتهم. انظرها في: «رسائل ابن أبي الخصال»، م. خ. ح (رقم 10889).

إذا هزَّ أعطافُ المعالي حسبته
يديرُ بها كأساً عليه تشعشع
وحسبك من فلجٍ لأبيضٍ واضحٍ
يعيد ويبدي في المعالي فيبدع
ويا رب جيش للعدو كأنه
عبابٌ ضخْمٌ قد طمى يتدفع
عرضتُ له والليثُ دونك جراً
فأجفل إجمال النعامة تجزع
ولفته ريح للمهابة بارحُ
فأقلع إقلاع الغمامة تقشع
وأدبر لا يلوى على متعذرٍ
حذار فتى يسري إليه فيسرع⁽¹⁾

(1) أبو إسحاق بن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، ط: مصرية، ص 82 - 83، وله قصائد أخرى في مدح أبي إسحاق ورجاله المرابطين منها:

وبدد شمل آمال الأعادي	وطأ تيجان أرباب الصليب
وسمهم أن يعضوا أو يعضوا	بعقب الحرب أنملة الحريب
فإنك والرباط إلى اغتباط	كفيل السعد بالفتح القريب

(المصدر السابق).

ومنها قوله أيضاً في بأسه الحربي:

وتدمي الشفار وتجني القنا	وتحمي الذمار وترعى المهل
وتملأ رعباً صدور الأعادي	وترغب بأساً أنوف الأسل

(ديوان ابن خفاجة م. خ. ح رقم 1140، ص 46). (انظر فصل: شعر فتوح الأندلس).

ومنها أيضاً:

وحسب الأعادي من أن يزحوا به	مغيراً غراباً صبح الحي بقعا
كأن على عطفيه من ضلع السرى	قميص ظلام بالصباح مرتعا
كأن له من عامل الرمح هاديا	منيحاً ومن ذلق الأسنة مسمعا

(قلائد العقبان)

كما نجد للشاعر أبي الحسن ابن الزقاق البلنسي نصوصاً شعرية كثيرة في مدح بطولات المرابطين، منها هذه القصيدة النونية التي يصف فيها وصفاً دقيقاً بلاء المجاهدين المرابطين في ساحة النضال بإمرة أحد الأمراء اللمتونيين، مستهلاً قصيدته بمخاطبة الأمير وتحريضه على الاستماتة في الجهاد:

الجيشُ يملِي نصره الملوَانِ
فافتك بكل مهند و سنانِ
واجنبْ إلى الهيجاء كلَّ كتيبةٍ
واخفض إلى الهيجاء كل عنانِ
وارجمْ شياطينَ الوغى بكواكبِ
تمحو الضلالَ إذا التقى الجمعانِ
والسيفُ دامي المضربين كجدولِ
في ضفَّتَيْهِ شقائق النعمانِ
يقضي بيمينك دائماً منه على
يمينك ماضي الشفرتين يمانِي
ألبستُ أعطاف الجياد لدى الوغى
متبخترات مشية النشوانِ
تطأ الجماجم تحتها فكأنما
قد أنعلوا بالهام كلَّ حصانِ
وإذا المنايا استحوذت فمناهمُ
بيعُ النفوس بكلِّ سوق طعان⁽¹⁾

ومن خلال هذه الأشعار - على قلتها - بدأت تظهر ملامح شعر الجهاد في الأدب المغربي وتشابهه بأدب الفتوحات الإسلامية الذي يدور حول معاني الجهاد والشجاعة والإباء.

(1) ابن الزقاق: الديوان ص 266.

ولما منيت الدولة المرابطة - دولة الحرب والإنقاذ - في مرحلة انهيارها بالضعف وعجزت عن إقرار هيبة دولتها في المغرب من جراء ما حصل لجيوشها من إرهاب في الدفاع عن الأندلس، تقلص ظلها وظهرت دعوة جديدة - دعي أهلها بأهل العدل والتوحيد⁽¹⁾ - في وقت أصبحت ديار الإسلام مهددة في كل من إفريقية والأندلس بالخطر المسيحي.

(1) قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة اللمتونيين، وكانت في أول أمرها حركة دينية، وكان قصد مؤسسها المهدي بن تومرت هو محاربة الفساد وإصلاح الدين، ثم أصبحت دعوة دينية وسياسية معاً تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحارب بالسيف لبسط نفوذها وتقليص نفوذ المرابطين. فقد جاء في رسالة بعث بها ابن تومرت إلى الموحدين يحرضهم على قتال المرابطين: «فإذا صبر الكفرة على القتال والظلم والفساد فكيف لا نصبر على ديننا وتمسك بسنة نبينا، ونصبر كما صبر الرسول وأصحابه.. واعلموا وفقكم الله أن الذين جاهدوا عليه هو هذا الدين ولا تبديل له ولا تحويل حتى ينفخ في هذا الصور.. واعلموا وفقكم الله أن العدو لا يغلب بالعدة ولا بالعدد وإنما يغلب بحسن النية والتقوى: (عبدالله علي علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص 349 - 355).

وبلغت الدولة الموحدية - وهي الدولة الثانية من دول الجهاد في المغرب - ذروة مجدها وعزها في عهد عبدالمؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور الموحي الذين استطاعوا أن يوسعوا رقعة الثورة الموحدية ويثبتوا دعائم دولتهم بجيش قوي - من أبناء المصامدة وصنهاجة وزناتة ومن العرب الهلاليين - معزز بالأساطيل البحرية (100 قطعة) وبصناعة الأسلحة لها. وقد دعت هذه الدولة إلى مذهب جديد - متأثر بمذهب الغزالي - الداعي إلى التشبث بمصادر الإسلام الصحيح: الكتاب والسنة وإجمال الصحابة، والاعتماد على علم الكلام والأصول، والناهض لكتب الفروع والفقهاء، والأمر بإحراقها، وإلى المذهب الظاهري الذي يدعو إلى الأخذ بظاهر القرآن والسنة، وإلى مذهب ابن حزم القرطبي، وإلى عدم الخروج عن روح المذهب المالكي في الفقه (وإن كان الموحدون حادوا عنه توحيداً وعقيدة).

وقد اعتبر لجوء الدولة الموحدية إلى هذا «العالم المتفتح» منافسة قوية للفاطميين الذين ينتسبون لآل البيت. فقد خطا المغرب على أيدي الموحدين - بعد المرابطين - خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومكانته في العالم الإسلامي ونحو عقيدته الإسلامية، وظهرت فيه فكرة توحيد «المغرب الواسع» في دولة واحدة كان عهدها عصرًا ذهبيًا بالنسبة للمغرب، وحكم خلفاؤها بلادًا تضاهي ما حكمه العباسيون. (انظر التفاصيل في كتاب: د. عباس الجراري: الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي من ص 31 إلى ص 38، وفي مقاله: «الموحدون ثورة سياسية ومذهبية» بمجلة المناهل، عدد 1، ص 84).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا التعليق أن الخلفاء الموحدين أظهروا اهتمامًا لا مثيل له بأمور الجهاد. فعبد المؤمن الموحدي كان يملئ أحاديث الجهاد بنفسه على الموحدين وكان ابنه يوسف يأمر العلماء بجمع أحاديث الجهاد. وكان يقوم بإملائها بنفسه على الجنود الموحدين ويأمرهم بحفظها. وكان يعقوب المنصور الموحدي هو الذي يرفع راية الجهاد في فتوحاته. ومن اهتمام الموحدين بالجهاد

وقد اختلف المؤرخون في وصف هذه «الدعوة» الجديدة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، وقد نعتوها باجتماعية وعقدية وفكرية وسياسية. والحقيقة أنها كانت كل ذلك، إذ عملت على إصلاح المجتمع المغربي - الذي تفشت فيه المناكر والفواحش - وتشجيع الاجتهاد الفقهي بعدما سيطر الجمود الفكري على الفقهاء، ومحاربة البدع والشعوذة وأصحاب الحيل والنحل، وإقامة دولة جديدة على أسس التوحيد والعدل والقوة والجهاد والنضال تشمل الشمال الإفريقي والأندلس، وتزاحم الدولة العباسية بالشرق.

وهكذا يبدو، أن دور مؤسس هذه الدولة: المهدي بن تومرت⁽¹⁾، كان في رباط تينملل دوراً روحياً ودينياً في شكله، ولكنه سياسي في جوهره ومقاصده.

وقد تعبر هذه الأبيات الشعرية، والمنسوبة إليه، عن بعض أهداف دعوته:

ذرني وأشياء في نفسي مخبأة

ألبس لها درعاً وجلباباً

أنهم كانوا ينقشون الآيات الدالة على الجهاد في أعلى أبواب قصباتهم. وكانت حروب الموحدين تحمل طابعاً جهادياً لما تأثر أصحابها بكتاب منظرهم محمد بن تومرت الذي خصص فيه باباً كاملاً للجهاد وما يرتبط به من قضايا. ويبدو اهتمام الموحدين المتزايد بالحروب والجهاد حتى في نقوش بناياتهم حيث نقشوا على إحدى نوافذ صومعة حسان المطلة على البحر سيفين متجهين نحو السماء. وقد عرف العصر الموحي نشاطاً في ميدان التأليف في موضوع الجهاد. فابن المناصب ألف كتاباً اسمه «الأنجاد في أحكام الجهاد» بين فيه فضل الجهاد وضرورته بالنسبة للدولة، وصنف القاضي عبدالرحمن بن حبيش كتاب «المغازي» في عدة مجلدات. (د. الحسين بو لقطيب: «جوانح وأبوثة مغرب عهد الموحدين»، نقلاً عن مصادر مختلفة، بتصرف، منشورات الزمن، قضايا تاريخية، عدد 4، 2002).

(1) انظر عن هذا الداعية الزاهد المتقشف: ابن القطان في «نظم الجمان» والمراكشي في «المعجب». هذا ولابن تومرت كتاب سماه: «أعز ما يطلب» (طبعة الجزائر) خصص فيه فصلاً عن الجهاد مستدلاً فيه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في موضوع الجهاد. (ص 265 و267)، وكان يتمثل دائماً بقول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير	كطعم الموت في أمر عظيم

والله لو ظفرتُ كفي ببغيتها
ما كنتُ عن ضرب أعناق الورى أبى
حتى أظهر هذا الدين من نجسٍ
وأوجب الحق للسادات إيجابا
واملاً الأرض عدلاً بعدما ملئتُ
جوراً وأفتح للخيرات أبواباً⁽¹⁾

فيعد المهدي بن تومرت في أبياته هذه الناطق باسم المجاهد المحارب، الذي
يسعى لإحقاق الحق وملء الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، وتطهير الدين الإسلامي
من نجس أعدائه.

وينشد أحد الشعراء في كتائبه التي أسس بها دولته قوله:
كتائبه مشفوعة بملائك
ترادفها في كل حال وترفد
وما ذاك إلا نية خلصت له
فليس له فيما سوى الله مقصد
إذا خطبت راياته وسط محفلٍ
ترى قمم الأعداء في الترب تسجد
وإن نطقت بالفصل فيهم سيوفه
أقر بأمر الله من كان يجحد⁽²⁾

ولم يبرز دور ابن تومرت برونّاً كاملاً إلا في عهد خلفه عبدالمؤمن الموحي الذي:
افتتح المغرب ثم المشرقاً
ومهد العليا وساد وارتقى

(1) عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر ص 70 (نقلاً عن وفيات الأعيان لابن خلكان ج 3، ص 324).
(2) المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 140.

كان عبدالمؤمن الموحيدي⁽¹⁾ سياسياً ماهراً ومكافحاً شجاعاً انبرى من تينملل - قاعدة الموحدين - لفتح المغرب ومحاربة فلول المرابطين المنظمة. وقد وصل زحفه إلى تلمسان. ولما قفل راجعاً فتح فاس وسلا وسبته وحاصر مراكش، بعد أن قتل من كان متحصناً بها من أمراء المرابطين. ولما ظهر ثائر سلا محمد بن هود بن عبدالله الماسي والتحق برياط ماسة وتلقب بالمهدي وهزم جيشاً للموحدين وانضم إليه معظم المغرب، جهز عبدالمؤمن أبا حفص الهنتاتي في جيش كثيف قضى على ثورته في معركة صاخبة سنة 542هـ⁽²⁾.

وانتهت فتوح عبدالمؤمن للمغرب بفتح مكناسة - بعد أن حاصرها الموحدون سبع سنوات - وبعد أن أخضع البرغواطيين الذين عادوا إلى الظهور بعد غلبة الدولة المرابطية على أمرها⁽³⁾.

(1) ولد عبدالمؤمن قرب تلمسان وأخذ العلم عن فقهاءها، والتقى في طريقه إلى الحج بالمهدي بن تومرت، فرجعاً إلى المغرب وأسس حركة انتهت بالقضاء على المرابطين، وبعد موت المهدي ببيع عبدالمؤمن بجامع تينملل ونهض لمحاربة المرابطين. وما زال «أمير المؤمنين» ينتقل من نصر إلى نصر حتى أنشأ الدولة الموحدية العتيدة المظفرة. توفي سنة 585هـ في طريقه إلى الأندلس مجاهداً.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 1، ص 277 - 278. وقد أورد ابن الخطيب الرسالة التي وجهها أبو حفص عمر الهنتاتي قائد الجيوش الموحدية لعبدالمؤمن إثر انتصاره على الثائر الماسي والتي افتتحها بقول أبي تمام:

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وكثيراً ما كانت كتب الفتوح في المغرب والأندلس تفتح بهذا البيت الشعري تفاعلاً.

(3) لما هُنا أبو محمد عبدالله الجياني عبدالمومن ببعض انتصاراته على حشود لمطة التي أقبلت على مراكش مع الأمير إسحاق بن علي بن يوسف بقصيدة مطلعها:

أضاءت لنا الأيام واتصل النجج وكانت وجوه الدهر مسودة كلج

فرد عليه عبدالمؤمن الناقد البصير والشاعر الأديب بقوله:

هو الفتح لا يجلو غرائب الشرح أصاب بني التجسيم من بأسه طرح

أتتنا به البشرى على حين غفلة بمهلك قوم كان موعدها الصبح

(الحلل الموشية ص 119) وذكر صاحب «شذرات الذهب» ابن العماد الحنبلي أنه نظم بيتين قالهما وقد كثر الثوار عليه:

ومن الشعراء الذين خاطبوا عبدالمؤمن الموحيدي - وهو من أهل السياسة والحكمة والعلم - الشاعر أبو محمد ابن المالقي الذي كان يحظى لدى الملك الموحيدي بمكانة خاصة. وتشتمل قصيدته على الوصايا والنصائح في ميدان السياسة والحكم والمعاملة مع الرعايا وعلى الحث على تقوية الجيوش الموحدية والعناية بجندها، يقول الشاعر:

وفر جنودك بالأرزاق توسعها
فالأزرع يزكو إذا وقّرت سقياه
وافعل بهم وادعُ ما أنت فاعله
فأنت يوم انشعال الحرب تُجزاه
أمر على الجيش من ترجو كفايته
ودع سواه وإن ناجتك قرباه
فراية النصر مكتوبٌ بطرتها
بيتٌ على إثر هذا قد كتبناه
ما للجبان ومالي لستُ نسبته
أما الشجاع فيهواني وأهواه⁽¹⁾

لا تحفلن بما قالوا وما فعلوا إذ كنت تسمو إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه فما ترد صدور الخيل بالكتب
(د. عباس الجراري: الأمير الشاعر، ص 95 - 96).

(1) نشر الأستاذ عبدالله كنون هذه القصيدة في مجلة «الثقافة المغربية» (عدد 9، ص 1973، ص 7) تحت عنوان: «أنجم السياسة» تبعاً لقول الشاعر:

هاذي السياسة لاحت بعض أنجمها ما كل نجم رصدناه قصدناه
وهو الذي نسبها إلى أبي محمد ابن المالقي، وربما قيلت في أبي يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن، لأن في أيامه برزت شخصية الشاعر. ومما أكد للأستاذ كنون أنها نظمت في أيام الموحدين البيت الشعري الوارد ضمن القصيدة هو:

للأشعرية فينا مذهب عجبٌ ومن سعادتنا أنا اعتقدناه
وظهور مذهب أبي الحسن الأشعري كان على يد المهدي بن تومرت الموحيدي. ويستبعد أن يكون ناظمها هو لسان الدين بن الخطيب على حد قول بعضهم. وذلك لأن القصيدة لا توجد في ديوانه «الصيب والجهم والماضي والكهام» الذي جمعه بنفسه وأودعه مختار شعره، ولأن نفسها يمتاز

ولما انتقل عبدالمؤمن إلى الرفيق الأعلى بايع الموحدون باني مسجد إشبيلية أبا يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن (533هـ - 580هـ) بفضل جهود أبي حفص الهنتاتي، وقد سار على نهج والده في حركة توحيد القطر المغربي ضد «الخارجين عن الحكم الموحي»⁽¹⁾.

وقد قام بعض الشعراء⁽²⁾ يهنئون الخليفة الموحي الجديد بخلافته مشيدين بخصاله العسكرية التي ورثها عن أجداده الموحدين: أبطال الجهاد والجلاد، من ذلك قول أبي الوليد إسماعيل بن عمر الشبلي الذي أنشد قصيدته مطلعها:

بالسلاسة والوضوح، بينما أسلوب ابن الخطيب يميل إلى الجزالة والقوة، وينهج نهج الشعراء في التخييل والتمثيل. انظر عبدالله كنون (أنجم السياسة وقصائد أخرى، ص 14 - 15). وقد وقفت على هذه القصيدة في آخر مخطوط بالخزانة الحسنية يحمل رقم (1394) ويجمع بين دفتيه «الروض الهتون» و«مشاهير أعيان فاس القديم»، ولم يثبت الناسخ اسم ناظمها. ومما يعتقد أن صاحب المخطوط وجامعه تمثل بها ووجهها إلى أحد الملوك العلويين وربما يكون المولى إسماعيل أو أحد الملوك الذين أتوا بعده.

(1) قال الملزوزي:

ثم اقتدى بفعل عبدالمؤمن	يبغي جهاد كل من لم يؤمن
فجمع الأموال والذخائر	وألف الجنود والعساكر

(نظم السلوك ص 57).

(2) من هؤلاء: الشاعر الكاتب القاضي عمر بن عبدالله بن عمر السلمي يمدح الخليفة الموحي يوسف بن عبدالمؤمن بن علي:

الله حسبك والسيح الحواميم	تغزو به سبعة وهي الأقاليم
سبع المثاني التي لله قمت بها	عليك من سرها معنى وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على	كل الورى حاكم بالله محكوم
والدهر سبعته وسبعة جعلت	جواد مالك والمنصور مخدوم

(المقري: أزهار الرياض، ج 2، ص 362). وله أيضاً يمدح الأبطال الموحدين:

شباب مأؤه في مقلتيه	يحول وفي القلوب له قرار
متى يرد اللمي منها لماها	وبيض الهند والأسد الحرار
بأيدي مقحمين على المنايا	بهم تحمي الحقائق والذمار
عواليهم أسنتها الذراري	تمور بسعدهم أبداً مدار
فوارس عندها للنقع ليل	إذا أبدى ظعائنه النهار

(المراكشي: الأعلام، ج 9، ص 276).

عهد أنار به الهدى والدين
واستظهر التأيد والتمكين
بشرى الخلافة إذ تقلد عهدها
البر التقي الطاهر الميمون
إلى أن يقول مردداً صدى حديث بيض الصوارم عنه، وكفى به حديثاً:
شبل غذته لحوم أساد الوغى
في حيث ملطف الوشيخ عرين
وكأنما الهيجاء أم برة
تحنو عليه برفقه وتلين
يا سيذاً أعطى السيادة حقها
واختصه الترجيح والتبيين
شهدت بفضلك صادقات وقائع
لم تلتبس بشهودهن طنين
وتحدثت بيض الصوارم في الطلى
بحديث مجدك والحديث شجون
لله درك والفوارس تدعي
والحرب خاسرة المتاع زبون⁽¹⁾

وأنشد أيضاً الشيخ المسن أبو بكر بن المنخل الشلبي قصيدة في تهنة الخليفة
الموحدى، يبشره فيها بالفتوح التي ستتم على يده بفضل جياده التي لا يثنيها السرى:
مرحت جياذك ليس يثنيها السرى
ولأمر غيب ما تطيل مراحها

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 240 - 241.

وبفضل سيوفه ورماحه التي ستسقي العداة يوم الوغى سموها:
وشرت سيوفك بالعلی أغمادها
يوم الوغى فاستجزلت أرباحها
تسقي العداة سمامها فكأنها
أيد تصفق للندامی راحها
وبفضل جنوده الذين «سيطيرون» لكل صارخ يستجدهم ويستغيث بهم إذا ما
أصابهم ضيم:
وإذا دعاهم صارخ كريمة
طاروا لها بيض الوجوه صباحها
متهللين كأن في قسماتهم
سرجاً تبين تحتها أشباحها
ثم يتوجه الشاعر إلى الخليفة يذكره بما تفعله الأعداء بمسلمي الأندلس،
معلقاً كل رجائه على جيوشه للتخلص من إذاية المهاجمين الضالين:
إن الأعادي لا تزال كعهدها
توري بشلب مغارها وكفاحها
فعلى سيوفك أن تبید كماتها
وعلى جيوشك أن تروح ساحها⁽¹⁾

وقد اتجه أبو يعقوب يوسف في أول أمره إلى القضاء على بعض الثوار الذين
عركوا صفوة الوحدة الإسلامية بالبلاد: فعندما ثار صنهاجي يدعى «مرزدغ» واستولى
على تازة وقاومه الجيش الموحدى، قام ثائر آخر في جبل غمارة المتصلة بسبتة سنة
561هـ يدعى «سبع بن منعفاذ». وقد شق عصا الطاعة بقصر كتامة «وفرق الفرق

(1) المصدر السابق، ص 243 - 245.

وأدخل الفزع وقطع الطرق»، ولم ينجح الجيش الموحيدي بقيادة أبي حفص الهنتاتي في إخضاعه، فنهض إليه الخليفة بنفسه - لما عظم أمره - وغزاه بجبل غمارة وانتصر عليه وقتله. ولما انصرف أبو يعقوب يوسف عائداً إلى حضرة مراکش منصوراً أنشده الشعراء يهنئونه بهذا الفتح «الداخلي» وبهذا الانتصار على أعداء الموحدين.

فقال الشاعر أبو عمرو أحمد بن حربون⁽¹⁾ من قصيدة، يصف فيها وصفاً رائعاً كيف تم انتصار الخليفة الموحيدي على أعدائه الثائرين:

بلغتُ بكم حججَ الكتاب المنزلِ
ونصرتُم نصرَ النبي المرسلِ

ثم يشرح الشاعر كيف تم ذلك:

وجلوتم غمرات كل دجنةٍ
لو أن صبحاً راقها لم تنجلِ
وجنبتُم هوجَ الرياح خبائباً
وسيرتم إذ نام ليل الهوجلِ
وخضبتُم بالضرب ناصلةَ الظبي
وضربتُم بالسعد قبل المنصلِ
وسحبتُم والله يشكر سعيكم
في عرصة الأعداء ذيل الجحفلِ
طابتْ لكم ريح الجلال كأنما
يتعرفون هناك عرف المنديلِ

وبعد هجاء الثائرين واستتكار فتنتهم:

(1) هو أبو عمرو بن عبدالله بن حربون، كان من جملة كتاب أبي حفص، أورد له ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في عدة مواضيع شعرية أنشدها في مختلف المناسبات، انظر المن بالإمامة ابتداء من ص 245 وما بعدها.

ضربَ الشقاءُ وجوههم بضلالةٍ
تاهتُ بهم في حوز ليلٍ أليلٍ
واستعجلوا أمر الإلاه فجاءهم
والويل كلُّ الويل للمستعجل

يعود الشاعر ليهنئ الخليفة الموحي بالفتح والظفر:

هنئت مولانا أبا يعقوب بما
خولت من فتحٍ أغر محجّل⁽¹⁾

ونظم شاعرنا قصيدة أخرى يهنئ فيها أبا حفص نفسه بالنصر الذي أحرزه
على «المنافقين المرتدين بالجبل»، ذلك النصر الذي طار بذكره «الخبر الجلي»
وجعل منه سيف فداء للإسلام:

نضى منكم لنصر الدين سيفاً
يفديه الحسام المشرفي
أسيدنا أبا حفص هناكم
ويهني الدين فتحكم الهني
ويدعو له في خاتمة قصيدته بقوله:

ولا زالت صوارمك المواضي
وفيه من دماء عداك ري⁽²⁾

ولما انتشرت أصداء الفتح بصنهاجة⁽³⁾ وما جاورها من الجبال، تطارح أهلها
على الموحيين لقبول توبتهم، فقبلها الشيخ أبو حفص وأبلغ الأمر للأمير أبي يعقوب

(1) ابن عذاري: البيان المغرب - 3، ص 69 - 70 - 71 (ط: تطوان) ابن صاحب الصلاة: (المن بالإمامة ص 325 - 328).

(2) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 333 - 334.

(3) هي قبيلة بربرية يعتقد الطبري أن أصلها من عرب حمير، أكد هذا النسب علماء صنهاجة ونسابوها. ولا يخلو سهل أو جبل بالمغرب من صنهاجيين. وتتفرع هذه القبيلة الأم إلى قبائل أخرى كجاية وهسكورة وجزولة... (عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب ج 1، ص 328).

يوسف، فصفح عنهم، فأنشد شاعر الموحدين أبو عمرو أحمد بن حربون قصيدة أخرى يهنئ فيها الأمير الموحي بهذا النصر الثاني على أعدائه التائبين، يقول فيها مخاطباً الأمير:

بيضت وجه الدين منك بعزيمة
لبس الحسام لها الرداء الأحمر

فكانت فكرة الانتصار للدين والدفاع عنه تراود الشاعر في كل قصائده، إذ كانت هي الهدف الأسمى لكل حركة جهادية قام بها الموحدون:

لولا المحبة في الجهاد وأجره
لكفاك سعدك أن تجهز عسكرا
ملك تضرعت الهضاب لبأسه
وغدا له الزمن العنود مسخرا
أبشر فكل صباح يوم إنما
ياتيك بالفتح المبين مبشرا⁽¹⁾

ولما ثار قوم من «البربر المرتدين» في جبل «تاسررت»، عسكر إليهم أبو حفص مرة أخرى بجمع وافر من الموحدين، فغزاهم وأجلاهم عن ذلك الجبل، ثم «انصرف على عادته التي عوده الله من النصر والظفر».

فاغتنم الشاعر ابن حربون هذه الواقعة ليهنئ الأمير الموحي (سيف الخلافة المقصل والمقصب) بانتصاره في غزوته ونيل بغيته وليشيد بالخصوص بشجاعة جيوش الموحدين وبلائها في المعركة لنصرة الدين وإعلاء كلمة الحق:

جيوشٌ تسير وقدامها
جيوشٌ من الرعب لا تحسب

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 329 - 331.

طلّاعها الماء الأكرمون
فلم يخل من ملك مرقب
إذا أخذت للوغي زيتها
ولاح لديك بها المذهب
رأيت سبائب روض الربا
يغص بهاء الأفحيح السبب
تود الكواكب لو أنها
من بعض جنودكم موكب

ثم يخاطب سلسل الخلافة الموحدية مهناً كعاداته:
فيهني الخلافة أن أصبحت
بصارم سيفكم تصرب
ألم تر قيصر في ملكه
إلى السلم من بأسك يهرب؟⁽¹⁾

وقد أمر أبو يعقوب المنصور شعراءه بأن يفتحوا قصائدهم في الفتوحات الموحدية «بالحمد لله»⁽²⁾، فكان شاعره ابن حربون أول من أجاب وأجاد في الإشادة بطائفة الموحدين وجهادهم ضد الأعادي المرتدين:
الحمد لله مدني شاسع الأمل
وناظم الشمل في سلك من الجذل
ومن أتاح لنصر الدين طائفة
حتى اغتذى يتمشى مشية الوعل

(1) المصدر السابق، ص 360 - 362.

(2) اتفق الموحدون على وضع علامة «الحمد لله» في رسائلهم اقتداء بالإمام المهدي الذي كان يفتح بها رسائله ومخاطباته، (محمد المنوني: العلوم والآداب في عهد الموحدين، ص 34).

وجردوا للأعادي كل عاديةٍ

يمسي ويصبحُ منها الدهرُ في شغلٍ

ثم يخاطب شاعرنا الموحدين مشيداً بفتوحاتهم وانتصاراتهم على من عمي
عن سبيل الرشـد، وضل سواء السبيل، في وقائعٍ حدقت بها القنا من كل جانب:

هذي فتوحكم بالغرب قد طلعتْ

على الأنـام طلوع الشمس في الحملِ

وقائعُ حدقت بها القنا مـقـلا

بـلا جفون وأجفـاءُ بلا مـقل

أنى عموا عن سبيل الرشـد ويحـهم

يا ضلُّ من ضلَّ في مهـدية الدول

حتى أصبح هؤلاء المـضلـلون عـبرة لمن اعتبر:

فأصبحوا عـدرة تبـدو لمـعتبرٍ

مـجـدلين بما رامـوه من جـدلٍ

بما أتتهم جنودُ الله أسـلمهم

شيطانهم وانثنى يثني على الحـيل

ويختم شاعرنا قصيدته بقوله:

ومن يـجـد عن سبيل المؤمنين يـجـدُ

بـعدلٍ كلُّ أصمِّ الكعبِ معـتـدلٍ⁽¹⁾

ولما كان المنصور بإشبيلية، وصله خبر الثائر «الجزيري» بمراكش - عاصمة
الموحدي -، فأمر الخليفة أبا الحسن بن أبي حفص بمتابعته وطرده وملاحقته

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 363 - 366.

حتى عثر عنه وطوفه، فأنشد الشاعر أبو العباس الجراوي⁽¹⁾ في مجلسه بإشبيلية قصيدة يهنئ المنصور على تخلصه من هذا الثائر «الإبليس الفاتن» - الذي لم تصل خطورته إلى درجة خطورة ابن غانية - وعلى إطفاء نار فتنته بصارمه وحد سيفه:

قضى الله بالتأييد والظفر
وبالسعادة في ورد وفي صدر
أثرت في نصرة الدين المسير على
طيب المقام وبعث النوم بالسهر
مظفرٌ ما لمغرورٍ يطالبه
في الأرض من ملجأ عنه ولا وزر
جد الجزيري في إتلاف مهجته
حتى تورط في ورد بلا صدر
نارٌ من الفتنة العمياء أطفأها
سعد الإمام وحد الصارم الذكر
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها
وترتمي من شرار الخلق بالشرر

(1) ولد أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي (أو الكراوي) في العقد الثالث من القرن السادس الهجري. وهو من تادلة، تلقى تعليمه بمراكش وفاس ثم انتقل إلى الأندلس وتقلب في أنحائها، أعجب به عبدالمؤمن الموحي حتى قال له يوماً بجبل الفتوح: «يا أبا العباس إنا نباهي بك أهل الأندلس» (كما قال المعز لدين الله وقد أسف لموت ابن هانئ: إنا كنا نباهي بك أهل المشرق). وقد عاصر الشاعر عبدالمؤمن وابنه يوسف بن عبدالمؤمن وحفيده يعقوب المنصور وكذا محمد الناصر (الذي حضر معه فتح المهديّة)، ومدحهم جميعاً مسجلاً في قصائده فتوحاتهم وحروبهم. فكان لسان حال الدولة الموحدية المعبر عن مواقفها والمدافع عن كيانتها من خلال مدح خلفائها. وقد جمع الشاعر أشعاراً كثيرة ضمنها في كتابه: «صفوة الأدب وديوان العرب» على غرار حماسة أبي تمام. فاشتهر كتابه «بحماسة الجراوي» أو «حماسة أهل المغرب». وضاع هذا الكتاب كما ضاع ديوانه. ولعل ضياعه يرجع إلى تجاهل ابن صاحب الصلاة لأشعاره، وكذلك المراكشي في «معجبه» لسلطنة لسانه، في هجائه اللاذع. توفي سنة 570هـ (انظر ابن سعيد: الفصول الياضعة ص 99 - 100)، د. عباس الجراوي: أبو الربيع سليمان الموحي ص 106، وعبدالله كنون: أبو العباس الجراوي المشاهير رقم 6، ولحسن الشبيهي الحسني: «أبو العباس الجراوي شاعر الموحدين»، وهي رسالة دبلوم (نوقشت بفاس سنة 1981 وطبعت سنة 1986).

زاد الشقي على الخفاش مشبهه
ضعف البصيرة إذ ساواه في البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهووا
فيها سراعاً ووافاهم على الأثر⁽¹⁾

ثم فر الثائر إلى فاس ومنها إلى مالقة بالأندلس حيث أشعل نار الفتنة، فأمر
ال خليفة الموحي بالقبض عليه وقتله سنة 586هـ.

فقال الجراوي من قصيدة أخرى مقللاً من أهمية الثائرين الذين أصابهم
الهلع، من هول ما رأوا من قوة الجيوش الموحدية التي سقتهم كؤوس الذل والإهانة،
وردت كيدهم في نحرهم:

ما للعدو بما أعدته قبل
ولا بغير انقيادٍ منه تمتنعُ
غزاهم الرعبُ في جيش بلا لجبٍ
فأحجبوا من وراء الدرب وانقمعوا
دارتُ عليهم كؤوس الذلُّ مترعةٌ
تسقيهم جرْعاً من بعدهم جرع

ثم يخاطب الخليفة الموحدي:

كل الممالك ملكٌ خاضعٌ لكمُ
وكل ممّتنعٍ طوعاً لكم تبع⁽²⁾

فكان الشاعر الموحدي من خلال هذه القصائد يشارك بقريضه في «حركة
الجهاد»، ضد الثوار المتمردين على دولته الفتية، وذلك بهجائهم والتتديد بتمردهم
وعصيانهم، والتقليل من أهميتهم العسكرية، وكذلك بمواساة الخليفة الموحدي،

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 3، ص 181 - 182، (ط: تطوان).

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ص 182 - 183.

وتشجيعه على إحباط مناورات رؤوس الفتنة والانشقاق، وتهنئته بالفوز عليهم وتشيت صفوفهم، وأخيراً بالإشادة بشهامة الجيوش الموحدية وصمودها أمام قوة وهول الثائرين.

وبذلك كان للشاعر الموحي نصيب في إرساء قواعد دولته على أسس ثابتة راسخة والدفاع عن دعوتها التوحيدية، والحفاظ على استمرار وجودها ودوام سلطانها. وفي ذلك قوة للدين الإسلامي وإعلاء لكلمة المسلمين في الغرب الإسلامي⁽¹⁾.

ولم يكن العامل الديني أو المذهبي أو العقدي من وراء تأسيس الدولة المرينية كما هو الأمر بالنسبة للدول التي سبقتها: فالدولة الإدريسية قامت - كما لاحظنا - على نشر الإسلام ومحاربة الخوارج والوثنيين، وكان أساس الدولة المرابطية هو القضاء على أهل الزيغ والضلال من البورغواطين، وكان أصل الدولة الموحدية هو الدعوة الإصلاحية التي كانت تتلخص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالعامل الأساسي الذي أدى إلى تأسيس دولة بني مرين هو العامل السياسي فقط⁽²⁾. ويتلخص في تصدع الإمبراطورية الموحدية التي شملت أقطار المغرب، الأندلس بعد ضعف الموحدين السياسي والعسكري، وبعد هزيمتهم المرة في وقعة العقاب واندحاراتهم المتكررة أمام هجومات قبائل بني مرين الزناتية. فاستغل بنو مرين انقراض دولة الموحدين واضمحلالها السريع، وأجهزوا عليها قبل أن «تتمكن من رأب صدوعها وعلاج أدوائها».

(1) وبسبب ذلك كانت حصة شعر الحرب والجهاد كبيرة في الأشعار الموحدية، مما يدل على أهمية هذا الشعر وعلى ضراوة الكفاح المستمر، الذي قام به الموحدون لمواجهة خصومهم المرابطين بالمغرب وأعدائهم المسيحيين بالأندلس.

وفي سنة 620هـ ظهر كتاب «الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف «حدد فيه الجهاد والاستعداد إليه» مما يدل على أن النشر كان له نصيب في التحريض على الجهاد.

(2) عن بني مرين: انظر روضة النسر في دولة بني مرين لأبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر. ومن الناحية الدينية فقد نبذ المرينيون دعوة الموحدين ورجعوا إلى المذهب المالكي الذي تقوى بسبب إنشاء المدارس العلمية إلى جانب الزوايا والرباطات، (د. عباس الجراري: الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، عدد 1، ص 111).

وكان على رأس هذه الدولة الجديدة الأمير عبدالحق المريني، «فضل يجاذب الموحدين حبل الملك زمنًا ثم قضى، وخلفه أولاده أبو سعيد عثمان وأبو معروف محمد وأبو بكر، فاستمر التنافس بينهم وبين ملوك الموحدين»⁽¹⁾ حتى قضوا عليهم وأوقعوا بالموحدين في موقعة نكور (عام المشعلة: 613هـ). وكانت معركة فاصلة أعلن في أعقابها يعقوب بن عبدالحق نفسه سلطاناً على المغرب، وتلقب بالمنصور⁽²⁾. ولما عزم يعقوب المريني على ضم شتات «الإمبراطورية الموحدية» السالفة، اصطدم بنزاعات وحروب متعددة دخلت خلالها هذه «الإمبراطورية» تحت نفوذ «إخوة» بني مرين: بني عبدالواد - أو بني زيان ملوك تلمسان - وبني حفص ملوك إفريقية، وتقاسم القشتاليون والقطالانيون معظم القواعد الإسلامية بالأندلس وآلت رقعة صغيرة إلى بني الأحمر من بني نصر (629هـ).

ولم يبق تحت السيطرة الفعلية لبني مرين سوى المغرب كما سنشاهد من خلال هذا الفصل.

(1) عبدالله كنون: «النبوغ المغربي»، ج 1، ص 106.

(2) قال المززوي في أرجوزته: نظم السلوك (ص 79) عن جهاد هذا الملك المريني:

أول من منهم حمى الإسلاماً	وشئت الصليبان والأصناما
وكم شجاع في الوغى قد جدله	يلقى الكمي حتفه إن جد له
تراه في الحروب كالشهاب	وسيفه في إلهام ذا التهاب
والخيل خوفاً منه وسط العيثر	كحمر فرت أمام القصور
رايته يصحبها التمكين	مبارك طالعه ميمون
للولاه ما نالت بنو مرين	كل المعالي والمنى والدين
هداهم يعقوب للرشاد	وللهدى والمجد والجهاد

ويقول أيضاً:

لما غدت ملكت إليه طنجة	كانت عليه للجهاد حجة
فخشى الأمور أم تطولا	فجهز الغزاة والأسطولا

ولما تمت بيعة يعقوب المريني⁽¹⁾ بفاس سنة 656هـ، شرع في الاستيلاء على مناطق المغرب، فأحمد ثورة الإشبانيين بسلا (الذين ثاروا بمساعدة ابن أخ له يعقوب بن عبدالله بن عبدالحق)، واستولى على المدينة وتوجه إلى آفنا وأخضعها إلى نفوذه مع تامسنا. وبدأ يعقوب المريني يفكر في فتح مراكش، فزود أبا دبوس الذي استنصر به بجيش من المقاتلين بعددهم ليقضي على المرتضى آخر أمراء الموحدين⁽²⁾. ولما تم لأبي دبوس ما أراد استنجد بيغمراسن ليقاوم هجوم جيش يعقوب على أحواز مراكش، فتصدى الأمير المريني ليغمراسن بوادي تلاغ سنة 666هـ بجيوشه الوافرة «والعدد والسلاح والسيوف الباترة»⁽³⁾. فسارت «الخيول

(1) بايع بنو مرين «أمير المسلمين» يعقوب المريني سنة 658هـ. ففتح البلاد من سوس إلى تلمسان وقضى على دولة الموحدين. ولما تم له ملك المغرب سمت همته إلى الجهاد. فجاز إلى الأندلس أربع مرات (كما سنرى في الفتوحات الأندلسية)، وملك بالأندلس المدن والحصون. من آثاره: فاس الجديد ومدينة أخرى بالأندلس.

ولم تنهزم له راية، ولا زال مواظباً على الجهاد حتى أتاها اليقين. (الذخيرة السنية، ص 90). وفيه يقول ابن الخطيب أيضاً في «رقم الحل»:

تملك الشرق معاً والغربا	وجاهد الروم وشب الحربا
وقهر العجم وأفنى العربا	طعناً على طول المدى وضربا

(2) لم يكن الأمير المريني مرتاح الباب من الأمير عمر المرتضى الموحدي، فاشتبك معه في موقعة دامية بوادي أم الربيع سنة 659هـ انهزمت فيها عساكر الموحدين. وفي هذه المعركة يقول الملزوزي في أرجوزته: نظم السلوك (ص 80 - 81).

ولم يزل يعقوب في كل ربيع	يقرب بالجيشين إلى أم الربيع
كانت بها ما بينهم حرب البسوس	ويومهم يوم التقوا يوم عبوس
فرت بها الأعراب عن أموالها	خائفة في الحرب من أبطالها
ورجعوا منهزمين لعمر	وهذه أدهى عليه وأمر

كما دارت معركة أخرى بينهما في واقعة «جليز» وحاصر المنصور المريني الأمير الموحدي حصاراً شديداً.

(3) يقول الملزوزي أيضاً في هذه المعركة:

ثم التقى الجمعان في تلاغ	وجيشه بجيش ذا يناغي
فجادت الأبطال للأبطال	واختلط الأمثال بالأمثال
فما ترى إلا الخيول ترمح	وأهلها إلى اللقاء تطمح

ترمح، وبفرسانها إلى اللقاء تطمح، والسيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام
تقطع وتقطف».

والجو يرمل في سماء فساطل
وبنى بها ظللا على الفرسان
والسيف دامي المضربين كجدول
في ضفتيه شقائق النعمان
وقال شاهد المعركة منشداً:
سل مواقف حزبهم لما التقت
يوم الصباح كتائب بكتائب
والنبل في ظلم العجاج كأنه
وبلّ تتابع في خلال سحائب

ودامت المعركة زمناً حتى منح الله بني مرين النصر على بني عبدالوادي، وفر
الأمير يغمراسن مهزوماً إلى تلمسان⁽¹⁾. وكان قتلهم من «أعظم الجهاد» كما قال
الملزوزي⁽²⁾ في ملحمة.

ملحمة أعظم بها من ملحمة	يخاف فيها عنتر ومسلمة
فولت الأدبار عبد الوادي	وذاقت الحمام عند الوادي

(نظم السلوك ص 84 - 85).

(1) الذخيرة السنية، ص 115 - 116.

(2) هو أبو فارس عبدالعزيز بن عبدالواحد الملزوزي المكناسي المتوفى سنة 697هـ. هو شاعر الدولة
المرينية بدون منازع، ومخلد حروبها وحركات جهادها وهاجي أعدائها، وخصوصاً في عهد يعقوب
المنصور المريني وولي عهده أبي مالك، وكان أول اتصاله بالمرينيين لما تم لهم الاستيلاء على مكناسة
سنة 646هـ. وكان أديباً ملحوظاً وشاعراً سيالاً. نظم أرجوزته المشهورة «نظم السلوك في الأنبياء
والخلفاء والملوك»، وذكر فيها جميع غزوات المرينيين بالمغرب والأندلس ممتدحاً إياهم على اضطلاعهم
بالجهاد الإسلامي، وذلك بمناسبة عودة أبي يوسف يعقوب المريني من العبور الرابع والأخير للأندلس
حيث توجه بالمعاهدة التي فرضها على القشتاليين لصالح الأندلسيين.
عرف به ابن الخطيب في الإحاطة واستشهد بأشعار ملحمة كثير من المؤرخين مثل صاحبي «الذخيرة
السنية» و«القرطاس».

ثم حاصر يعقوب المريني أبا دبوس حتى لاذ بالفرار، ولكنه قتل بعدما تقاذفته الرماح، وبه انتهت دولة الموحدين سنة 668هـ. (1269م).

ودخل الأمير المريني مدينة مراكش فاتحاً وبايعة أهلها ورجالها، وفر من كان بها من الموحدين إلى الجبل، وبذلك تم له فتح المغرب ما عدا سبتة التي أبقاها تحت ولاية العزفيين، وتلقب بأمير المسلمين. ثم بعث ولده وولي عهده أبا مالك المريني إلى بلاد سوس لغزو من بها من الثوار ومن فر إليها من «أشرار الموحدين». فتم له فتح سوس من ماسة إلى بحر المحيط، وأمن البلاد وأصلح أحوالها، فحضرت وفود كثيرة إلى مراكش لتهنئة الأمير المريني بما وهبه الله من فتح ونصر.

فرفع الأديب مالك بن المرحل⁽¹⁾ إلى الأمير الأديب أبي مالك عبدالواحد ابن السلطان بن أبي يوسف يعقوب ميميته الرائعة (التي تمثل نضج التجربة الشعرية المدحية في شاعريته) يهنئه فيها ويشيد بدولة بني مرين «دولة الدين والدنيا»، معارضاً بها بائية أبي تمام في فتح عمورية، مطلعها:

(انظر عبدالله كنون: عبدالعزيز المززوي، رقم 9 من ذكريات مشاهير رجال المغرب، محمد المنوني: الحياة الأدبية في العصر المريني الأول - الأدب البطولي - دعوة الحق، عدد 256، ص 52، وعبدالوهاب ابن منصور: تصدير: «نظم السلوك»، المطبعة الملكية).

(1) هو أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي المصمودي النسب، ولد سنة 604هـ وتوفي سنة 699هـ بفاس (ولد أيام الناصر الموحدي وتوفي أيام الناصر المريني). وهو «خير من يمثل الأدب المغربي في منتصف القرن السابع الهجري»: كان شاعراً وعالمًا وفقيرًا ومشاركًا في علوم اللغة والنحو والعروض، ولي القضاء بفرنطة وكتابة الأمير أبي مالك بن يعقوب المنصور المريني، ثم السلطان يوسف بن يعقوب، وقد خصه بكثير من قصائد مدحه. ترك «الشاعر المخضرم» شعرًا غزيرًا وعدة أراجيز في اللغة. ظهر نبوغه الشعري لما كان بسبتة، وسماه ابن الخطيب «شاعر المغرب»، كما لقب «بأبي تمام المغرب». عاش في عصور ستة عشر ملكًا من ملوك الموحدين والمرينيين، وترك دواوين شعرية تسمى «بالجولات» و«المجموعات النبوية» و«العشريات الزهدية». انظر عنه: محمد الفاسي: الشاعر مالك بن المرحل - مجلة الثقافة المغربية، عدد 7، سنة 1972. عبدالله كنون: مالك بن المرحل، ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8.

وراجع ترجمته في الإحاطة لابن الخطيب (ج 1) وجذوة الاقتباس لابن القاضي، والأنيس المطرب لابن أبي زرع، ونفح الطيب للمقري (ج 10)، وسلوة الأنفاس للكتاني (ج 3).

ففتحُ تبسمت الأكوانُ عنه فما
رأيتُ أملح منه مبسمًا وفما

إلى أن يقول:

الحمدُ لله هذا ما وعدت به
يا خيرَ من ولي الدنيا ومن حكما
بفتح مراكش عمَّ السرورُ فما
يكابدُ الغم إلا قلبُ من ظلما
حبا بها الله مولانا الأمير كما
حبا أباهُ فأسنى فتحها لهما
فلم يزل سعدة المألوف متصلاً
بسعد والده المنصور منتظما
فدولة الدين والدنيا قد اختلفت
في الفتح والنصر والتأييد بينهما

فلم يخلف الله وعده، وحبا أمير المؤمنين بفتح مراكش، ورفعت رايته خفاقة،
وكفاه الله بذلك نقم الأعداء، وزهى غرب البلاد على شرقها بهذا النصر وأصبح
العرب والعجم يهابون قوم المغرب:

فالغربُ يزهو على شرق البلاد به
وقومه يرهبون العُربَ والعجما
ويختم شاعرنا قصيدته بتهنئة الملك بهذا الظفر على أعدائه الذين أعمى
الله بصيرتهم:

مولاي يهنيك ما أعطيت من ظفرٍ
على عدوى أصبحوا في حيرةٍ وعمى

من سنة الله أن يحيي خليقته
على يدك وأن يكفيها النكما
وأن يقيم بك الإسلام من أود
وأن يديم بك الإحسان والنعما
وأن يقر عيون المسلمين وأن
يشفي الصدور وأن يبري بك السقما
لله منك مليك لا نظير له
لولاك لكان وجود الدين قد عدما
ولا يجزى المرء إلا بما اقترف من ذنوب ومعاصي وإجرام، ولا مفر من
ذلك الجزاء:

وعن قريب إلى يمينك مرجعهم
فلا يجازى امرؤ إلا بما جرما
أين المفر وخيل الله تطلبهم
لا يعصم الله منهم غير من رحما⁽¹⁾

ولما بعث محمد بن الأحمر إلى أمير المسلمين يعقوب المريني يستنصره ويدعوه
إلى الجواز إلى الأندلس، عزم على نصرته ولكنه بعث إلى يغمراسن - الذي قرر
القضاء عليه في قعر داره والدخول إلى تلمسان عاصمته - يعرض عليه سلمه
ومودته حتى يجوز إلى الجهاد آمناً على جهاده، فامتنع عن ذلك وأقسم أن لا يصالح
الملك المريني حتى يأخذ منه ثأره لنفسه ولولده عمر، الذي قتل في إحدى المعارك
مع بني مرين، وكتب إليه كتاباً ضمنه هذين البيتين الشعريين:

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا
وتأخذ عبدالوادي منكم بثأرها

(1) الذخيرة السنية، ص 118 - 120.

وأشفي غليلي من مرين التي طغت

بسبي غوانيها وقتل خيارها

فلما سمع منه أمير المؤمنين ذلك عزم على غزوه⁽¹⁾ فرفع له الشاعر عبدالعزيز
الملزوزي قصيدة يحرضه فيها على الخروج إليه ومحاربتة لأن قتال الثوار وخصوصاً
الذين يتقاعسون منهم عن قتال النصارى هو عين الجهاد:

أرى كل جبارٍ بسيفك يصغرُ

وكل مليكٍ عن فعالك يقصرُ

وكل مليكٍ خضت دار الفلاله

فحسمته بالسيف ساعة يظهر

ويروي الشاعر قصة الصلح الذي عزم السلطان المريني على عقده مع
يغمراسن، ولكن يغمور:

(1) يقول شاعرنا الملزوزي في أرجوزته نظم السلوك حول الحوار الذي جرى بين المنصور ويغمراسن
(ص 122 - 125): قال المنصور ليغمراسن حاضاً على الجهاد:

لهم يا يغمور للجهاد	وأسرع إلى مناهج الرشاد
وإن أبيت السير للجهاد	وحدت عن مناهج الرشاد
فلتترك الناس على جهادهم	مؤمنين في حمى بلادهم
فأجابه يغمراسن:	
سيروا إلى مرسلكم يعقوب	فماله عندي سوى الحروب
فأتى المنصور نهر ملوية وأمر بـ:	
فأمر المنصور بالفساد	في رض من عاق عن الجهاد
كأننا في وسط أرض قرطبة	لا فرق فيما بينها في المرتبة
من صد ذا ملك عن الجهاد	وشرع الفساد في البلاد
شرعاً وطبيعاً واجب جهاده	ولإمام فيهم اجتتهاده
ومن يجاهدهم هو المجاهد	لا سيما منافق وجاحد
بمثل هذا نزل الروح الأمين	قل جاهدوا الكفار والمنافقين
فجعل الكافر والمنافقاً	يجاهدان فهما توافقا
جهادهم فرض بحكم الشرع	فهم سواد قد أتوا بالجمع

لم يغتبط بالصلح جهلاً وغلظة

فيا عجباً من خاسرٍ كيف يحشر

ويتساءل شاعرنا كيف يمكنه أن يهتدي إلى الرشيد هذا «الشقي المغير»،
ويتجه بالخطاب إلى يعقوب المريني ويدعوه إلى الجهاد ضد هذا «المغامر»، الذي
ما فتئ يناوئ بني مرين حتى يملك أرضه ويأخذه قهراً، ويذكر يغمور بمواقع سابقة
انتصر فيها الحق على الباطل:

فأسبق به فهو الجهاد برأسه

فحتى متى في الدير يغمر يقصرُ

فتأخذه قهراً وتلمك أرضه

فأنت عليه في الملاحم أقدر

أينسى نقيض إيسلي ثم وجدة

ويوم تلاغ والقنا تتكسر

وقد سطعت بيض جفاف صوارم

وقد حجب الشمس المنيرة أغبر

ولا شمس إلا وجه يعقوب إذ بدا

تراه لدى الهيجاء والحرب مسعر

ولكن «المغامر»، حسب ما أورده شاعرنا، فزع من خوض معركته ضد السلطان
المريني لما رأى من شدة قوته، وتولى على أعقابيه منحسراً.

فما رأى أسيافكم تستبي الطلا

وأبصر خيل الله كالأسد تزأر

تولى على أعقابيه متحسرا

فأين مضت أيمانه والتجبر

ويعقب الشاعر في آخر قصيدته بأن الله سيتم رسالته بقوم من أهل المغرب
مشيراً إلى الحديث النبوي (المشكوك في صحته):
وقد قال خير العالمين محمد
يكون لكم بعدي لذي الغرب معشرُ
بهم يعتلي الإسلام بعد امتهانه
ويرجع في أثوابه يتبختر⁽¹⁾

ويلبي السلطان المريني نداء الجهاد، فخرج من حضرة فاس «وسار في
جيوشه المنصورة الوافرة وجنوده المؤيدة الظافرة»، ورتب كتائبه وتلاقى الجمعان
بوادي إيسلي وجعل أمير المسلمين ولده الأمير عبدالواحد على ميمنته وولده الأمير
يوسف على ميسرته وأتى هو في القلب والساقة «ووقف تحت ظلال البنود مع
أنجاد بني مرين».

في جحفلٍ يحمي يوم الوغى
في جمعه تفريقُ ما يجمعُ
بحر حديد موجه أطلاله
يزيد بيضاً وقنّاً تلمع

ودارت رحى الحرب وحمي وطيسها فانهزم أهل يغمراسن، وفر قائدهم إلى
تلمسان وقتل ولده الثاني فارس في هذه المعركة (670هـ). وكان يوماً مشؤوماً على
«يغمور» الشقي الذي هدمت كيانه أسد بني مرين:
فذاك يوم للشقي مذمّم
به زجر المشؤوم طيراً مذمّماً
تغشته عقبان من الخيل وقّع
وما طال ما كانت على ذاك حوماً

(1) الذخيرة السنية: ص 126 - 127.

بكل كمي في اللقاء مدجج
إذا لمح الحرب العوان تبسما
أسودّ مرين أرعدت بصليها
وأبدت ببرق البيض كالوشي معلما⁽¹⁾

ولما عاد السلطان المريني إلى فاس مظفرًا منصورًا رفع الشاعر عبدالعزيز
الملزوزي إلى صديقه الأمير عبدالمالك المريني قصيدة رائعة، مطلعها:
أشأقتك أطلال الديار الطواسمُ
فقلبك حيرانٌ ودمعكُ ساجمُ

يصف فيها «الكائنة والقتال» وقوة الجيش المريني وبلاء والده وأخويه في
هذه الحرب الفاصلة وكيف تمزقت فلول يغمراسن، ويهنئه بنصر المرينيين على
أعدائهم و«يشفق» على يغمراسن هذا الذي أراد أن يأخذ الثأر لابنه الأول، ففقد
ابنه الثاني. ومن يقدر على مواجهة ليوث الحرب وأسود العرين من دولة بني مرين؟
منها مخاطبًا ممدوحه:

مذل الأعادي في سماء عجاجة
بها البيض برقٌ والدماء غمائمُ
أبو مالك ليث الحروب وغيثها
وبدر إذا ما الحرب بالنقع فاحم
ألسنت ترى أسد العرين تبيدهم
وأجسامهم قد فارقتها الجماجم؟
إذا الخيلُ جالت في الحروب حسبتُها
قضاء من الرحمن ما منه عاصم
أراك على اليمنى تبيد حُماتها
وذاك على اليسرى فأين المقاوم؟

(1) المصدر السابق، ص 129 - 132.

ترى جثث الأبطال تسقط بينها
 سقوطاً مبانٍ فارقتها الدعائم
 أباً ملك لا زلت للملك مالكا
 لك السعدُ بيتٌ والسيوف تماءم
 فمَرَّقَ ذاكَ الجيشَ كلَّ ممزقٍ
 كما مَرَّقَتْ ميثاً بغير قشاعم
 أتيت لأخذ الثأر ويحك منهم
 وقلت عسى الأيام يوماً تُسالم
 هنيئاً لكم نصرٌ مبينٌ على العدا
 وطولُ سعود شأنها متدائم
 فما المجدُ إلا حيث أنتَ ومن يُرد
 سواك لمجدٍ أو علا فهو أثم⁽¹⁾

وبعد أن رجع يعقوب المريني من هذا الحصار التاريخي بعدما «قلد المنابر
 عقود الابتهاج ووهب الإسلام منيحة النصر غنية عن الابتهاج»، نهض يحاصر مدينة
 طنججة⁽²⁾ سنة 672هـ. ثم توجه لفتح سجلماسة التي كانت تحت حكم قائدتها عبد الملك
 العبدالوادي، وأقام فيها حتى هدها سنة 673هـ وفي هذا الحصار يقول شاعرهم:
 عساكر بني مرين مالها عدد

كلهم فارس الهيجاء ذو كرم

(1) المصدر السابق: ص 133 - 134.

(2) يقول الملوذي في أرجوزته عن هذه المدينة:

ومن جهاد الروم ليس تخلو
 وغيره وقتل البطارق
 ولم يدع في أرضهم مصونا
 وهكذا قد زعم المنصور

هي التي للعدوتين أصل
 منها أتى للغزو قدما طارق
 وافتتح البلاد والحصونا
 وأمرهم في قتله مشهور

(نظم الملوك، ص 92 - 93).

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا

وهم أنزلوا ملوك العرب والعجم⁽¹⁾

ويأبى الله إلا أن ينقض على أبي عنان المريني⁽²⁾ سنة 759هـ وزيره وصاحب

(1) الذخيرة السنية، ص 139.

(2) أبو عنان المريني أقوى شخصية برزت على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في العهد المريني، واستطاع أن يكون المحرك الأساسي لسياسة المغرب الإسلامي. هو أبو عنان بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني. لقب بالمتوكل على الله، ولد بفاس سنة 729هـ من جارية اسمها شمس الضحى، تولى إمارة تلمسان وبويع بها سنة 749هـ. ثم ثار على أبيه لما كان بتونس. ولما استتب له الأمر بالمغرب وتلمسان خرج عليه أخوه أبو الفضل ولكنه قضى عليه واستولى على قسطنطينة وعلى تونس من الحفصيين. ولما عاد إلى فاس مرض فقتله خنفاً وزيره الفودودي سنة 759هـ وبعد وفاته وقعت عدة اضطرابات أثارها ملوك بني الأحمر، وتهافت شيوخ الغزاة وغيرهم من أبناء الأسرة المرينية على الملك.. ترك أبو عنان أثراً بالمغربين الأوسط والأقصى تدل على عظمة ملكه وحسن ذوقه. كان يجمع بين السيف والقلم فكان قائداً عسكرياً وشاعراً وفقياً. (د. محمد بن شقرون: «دراسة عن فيض العباب» ص 66 - 67 - 89). كان أبو عنان القائد يستعرض عسكريه لمعرفة الحاضر من الغائب والقادر من العاجز من المجاهدين في يوم يدعى يوم «التميز». وقد أشار ابن الخطيب إلى هذا العرض بقوله من قصيدة له:

وترى الطيور عصائباً من فوقها	لحلول يوم في الضلال عصيب
هذبتها بالعرض يذكر يومه	عرض الورى للموعد المكتوب
وهي الكتائب إن تنوسي عرضها	كانت مدونة بلا تهذيب

(ابن الخطيب: ديوان الصيب والجها، ص 289). (يعني بالمدونة: مدونة سحنون وبالتهذيب تهذيب البراذعي).

وكان الجيش المريني في عهد أبي عنان يستعمل الأسلحة النارية. وقد ورد ذكر هذه الظاهرة في قصيدة لابن الخطيب عندما استعملت هذه الأسلحة في حرب أبي عنان مع بني زيان ملوك تلمسان:

والروم فارم بكل رجم ثاقب	يذكي بأربعها شواطئ لهيب
بدوابل السلب التي تركت	بني زيان بين مجدل وسليب

(ابن الخطيب: ديوان الصيب والجها، نشر محمد شريف قاهر، ص 288). وكان الأسطول المريني في عهد أبي عنان موضع إشادة عديد من الشعراء. حيث كانت له جولات في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان أبو عنان يشرف على توفير الألواح لصناعته من غابة «جناة» حسب ابن بطوطة. نذكر من هؤلاء الشعراء:

- أبو القاسم بن رضوان المالقي كاتب الدولة في عهد السلطان أبي عنان الذي أنشد:	ولما استقامت بالزقاق أساطيل	له واستقامت للسعود محاملا
رأها عدو الله وانفض جمعه	وأبصر أمواج البحار أساطلا	

- وأحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني - نزيل القاهرة - الذي قال من قصيدة له مخاطباً أبا عنان:

شواره وعامله على جبل طارق، أبو مهدي عيسى بن الحسين بن أبي الطلاق فقبض عليه، وسيق إلى سبّطة وانتهى أمره إلى سجنه ثم إلى قتله بالرماح. فسر بذلك أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان وأنشد قصيدة يهجو فيها الثائر الغاوي:

وغاوي رمى في هوة الملك قاذفًا

يدُ البغي والرأي المضلل والغدرُ

ويصف الشاعر محاولته اليائسة للإغارة على قواعد الدين في هذا البلد:

أغار على الدين الحنيف يهدّ من

قواعده ما شاده القادةُ الغرُّ

ملوك الهدى والقائمين بنصره

قديمًا وسل فالبر ينبيء والبحر

ورام صرامًا دونه النجم ساريًا

ولم يدر جهلاً أنه المرتقى الوعر

فلله ما أنشأته من مراكب

قطائعها مثل النجوم قلوّعها

كأن مجاديف الغراب قوادم

انظر: محمد مختار العبادي، د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 96 و297 - وعلي حامد الماجي: المغرب في عهد السلطان أبي عنان، ص 166 ومحمد المنوني: نظم الدولة المرينية - مجلة البحث العلمي عدد 2، ص 223. وقال ابن حجلة في أبي عنان أيضًا:

ملك إذا ما الحرب ألفت قناعها

له الله ما أعلاه في الحرب همة

(ابن حجلة: منطق الطير - مخطوط ب. خ. ح. دون ترقيم للصفحات). وأنشد ابن الخطيب في رقم الحل في أبي عنان:

الأسد المفترس المصنوع له

واحد آحاد الملوك العظما

ومخجل الغيث إذا الغيث هما

(ابن الخطيب: رقم الحل، ص 84).

ولكن هيهات، فإن ملوك الهدى والمجاهدين القائمين بنصر دينه، يآبون ذلك
ويعتبرونه بدعة و«أمراً إمرأ» ووزراً كبيراً ومنكراً عجباً:
وهيهات يآبى الله ذلك والعُلا
ودينُ الهدى والملك والبيض والسمر
دعوتهم للغدر لما اتخذته
سبيلاً فقالوا: بدعة أمرها إمر
فكان النصارى منك أوفى بذمة
وأكرم عهداً إن ذا لهو الوزر
لئن رمت دنيا أنت قارونها الذي
له الحرث والأنعام والخيل والتبر
وإن كنت للأخرى جنحت ولم يكن
أعد نظراً إن شئت ما هكذا الأمر
أوتيت إلى تلك الربا غير صالح
فأدركك الطوفان وهو الظبا البتر
وجرد كأمثال الروابي سوانج
وغلب كأسد الغاب يقدمها النصر⁽¹⁾

وقد صارع أبو فارس عبدالعزيز المريني⁽²⁾ كتلة من الثائرين كان على رأسهم

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 339 - 341.

(2) أبو فارس عبدالعزيز بن أبي الحسن المريني ملك شهم جدد سلطة دولته وساهم في استرداد الجزيرة الخضراء مع بني الأحمر كما استطاع أن يسترد تلمسان من بني زيان. من قوله شعراً مبهلاً:

وأرغب خالقي في العفو عني	وأطلب حلمه يوم الحساب
وأرجو العون في عز ونصر	على الأعداء محروس الجنب
وعبدك واقفٌ بالباب فارحم	عبيداً خائفاً ألم العقاب

وقد نظم هذه الأبيات مديلاً بها قول والده أبي الحسن:

أرضي الله في سري وجهري	وأحمي العرض من دنس ارتياب

عامر بن محمد الهنتاتي، أحد كبار رجال الدولة المرينية وصاحب جبال هنتاتة من حوز مراكش، الذي شق عصا الطاعة في عهد السلطانين أبي الحسن⁽¹⁾ وأبي عنا.

وأعطي الوفر من مالي اختياراً وأضرب بالسيف طلى الرقاب
(ابن الأحمر: نثر الجمان ص 71 - 72 - روضة النسر ص 23) وقد رثاه ابن الخطيب بقصيدة يقول فيها عند تعداد صفاته:

وسمحك للجهد بكل سام من السام النضار وكل جام

(ابن الخطيب: أعلام الأعلام (مخطوط) لوحة: 6 - 7).

وقد وجه أبو عبدالله محمد بن عباد لأبي فارس عبدالعزيز المريني رسائل في سياسة الحكم وآدابها مستدلاً بأقوال الرسول ﷺ وأعمال الخلفاء الراشدين: منها رسالة طلب منه أن يقرأها على الجند يوصيهم فيها بطاعة أمير المؤمنين والتعاون لحمايته ونصرته واقتحام الأخطار المحدقة بالبلاد. (انظر هذه الرسالة في مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 255، ص 67 - 69).

(1) ولد أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبدالحق (السلطان الحادي عشر) في سنة 697هـ وتوفي سنة 752هـ بجبل هنتاتة جنوب مراكش ودفن بشالة، يعد واسطة عقد ملوك الدولة المرينية. وقد جمع الخطيب بن مرزوق التلمساني أخباره ومآثره في كتاب «المسند الصحيح الحسن في محاسن السلطان أبي الحسن» (انظر عرضاً عن هذا المؤلف لمحمد بن شقرون في مظاهر الثقافة المغربية، ص 128)، وكان الخطيب سفيراً لبني مرين لدى الحفصيين، وذكره ابن الخطيب في «ريحانة الكتاب». من أعماله العسكرية الخالدة فتح تلمسان وانتزاعها من بني زيان ودخوله إلى تونس واسترجاعه لجبل طارق من القشتاليين وخوض معركة طريف البحرية الحاسمة. وكان عهده مليئاً بالنشاط السياسي والعمراني والاجتماعي والفكري. وقد اتفق المؤرخون على أنه كان ملكاً عادلاً، عالي الهممة، قوي الشكيمة محارباً مجاهداً في سبيل الله. ولما وقف ابن الخطيب بجبل هنتاتة على محل وفاة السلطان أبي الحسن حيث أصابه طارق الأجل لم يبرح أن أنشد مادحا أبا الحسن وأبناءه وقبيلة هنتاتة وشيوخها الذين حموه بعدما أسلمه أهله وأنصاره، ومذكراً بالأحداث التي عاشتها، مطلعها:

يا حسنهما من أربع وديار أضحت لباغي الأمن دار قرار

منها:

وجبال عزٌ لا تذلل أنوفها إلا لعز الواحد القهار

ومقر توحيد وأس خلافة أثارها تنبي عن الأخبار

لله أي قبيلة تركت لها النضراء دعوى الفخر يوم فخر

نصرت أمير المؤمنين وملكه قد أسلمته عزائم الأنصار

وتخاذل الجيش اللهام وأصبح الأبطال بين تقاعد وفرار

حق على المولى ابنه إيثار بذلوه من نصرٍ ومن إيثار

(يعني به أبا سلام) ويختم قصيدته:

حييت من دار تكفل سعيها المحمود بالزلفى وعقبى الدار

وقد نازله أبو فارس بجنوده وحاصره بمعتقله واستولى عليه وقتله سنة 771هـ.

وقد أنشده قبل المعركة الشاعر محمد بن يوسف الشبوكي قصيدة يحرضه فيها على الإيقاع بعامر ابن محمد الهنتاني⁽¹⁾، «المنتقض على الدولة» ويهجو هجاءً مرّاً⁽²⁾.

ولما تولى الملك أبو العباس أحمد بن أبي سالم المريني، قام بينه وبين عبدالرحمن بن أبي يفلوسن نزاع حول تقسيم المغرب بينهما. وقد تدخل الغني بالله ابن الأحمر ملك غرناطة ليصلح ذات البين بعد حروب تكررت بينهما سنة 784هـ. فتم له فتح المغرب بنصرة الغني بالله وأزال منه دولة أبي زيان.

وقد أنشد الشاعر ابن زمرك⁽³⁾ قصيدة يهنئ السلطان ابن الأحمر الذي شد

وضعت عليك من الإله عناية ماكر ليل فيك إثر نهار

انظر: المقري: أزهار الرياض، ج 1، ص 294 - 297 «نفح الطيب»، ج 8، ص 323 - 324 و«نفاضة الجراب»، ج 3، لوحة 25.

وتجدر الإشارة إلى قصيدة أخرى رثى فيها ابن الخطيب أبا الحسن المريني وهي رائية طويلة قالها بعد مرور مدة على وفاة أبي الحسن، وذلك خلال منفاه في المغرب على عهد السلطان أبي سالم، وقد أنشدها على قبره. مطلعها:

إن بان منزله وشططت داره قامت مقام عيانه أخباره

منهاه مخاطباً أبا الحسن:

يا قائد الجيش الكثيف كأنه بحر تلاطم بالقنا زخاره

حشر الأنام فما يؤمل حصره بشبا البراع ولا يطاق حصاره

وقد وصف الكفيف الزرهوتي «الحركة» التي قام بها أبو الحسن المريني من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى لتوحيد المغارب في نص شعري عامي اللهجة سماه «الملعبة» تحدث فيه عن مراحل «الحركة» وأنواع أسلحتها المستعملة وعن ساحة القتال. (علق عليها وشرحها. د. محمد بن شريفة، المطبعة الملكية 1987).

(انظر رقم الحل ابتداء من ص 97).

(1) هو الفقيه الشاعر محمد بن أبي يعقوب الشبوكي الفاسي، كان من بيت علم وأدب، وكان فارس القريض و«حامل لوائه الطويل والعريض».

(2) انظر القصيدة في فصل «التحريض على الجهاد والاستجداء بالمجاهدين»، (ص 17 من ج 2).

(3) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريح الغرناطي. لما رحل إلى فاس طلباً للعلم عينه السلطان أبو سالم بن أبي الحسن كاتباً لولده. ثم رجع عند ابن الأحمر وخصه بكتابة سره. ولما أظلم الجو بينه وبين ابن الخطيب (ترجم له هذا الأخير في إحاطته ج 2، ص 221) تولى مكانه بعد فرار ابن الخطيب وحظي عند ابن الأحمر ومدحه بقصائد عديدة إلى أن انتهى أمره باغتياله بين أهله.

أزر السلطان المريني بأسطوله حتى تم له هذا الفتح الذي سماه شاعرنا «بفتح
الفتوح» في قطر الجهاد والذي أتى بالنصر المنتظر:

هي نفحة هبت من الأنصار
أهدتك فتح ممالك الأمصار
هبت على قطر الجهاد فروحت
أرجاءه بالنفحة المعطار
فتح الفتوح جنيت من أفنائه
من شئت من نصر ومن أنصار

ثم يشيد الشاعر بالمساعدة التي قدمها للأمير المغربي ضد خصمه يفلوسن:

أعطيت أحمد⁽¹⁾ راية منصور
بركاتها تسري من الأنصار
أركبته في المنشآت كأنما
جهزته في وجهة لمزار

ثم يشير إلى الأسطول الأندلسي الذي زود به الأمير المريني لحماية شواطئ
المغرب ومراسيه:

لما قصدت بها مراسي سبتة
عطفت على الأسوار عطف سوار
لما رأته من صبح عزمك غرة
محفوفة بأشعة الأنوار
فأفضت فيها من نداء مواسم
حسننت مواقعها على التكرار

(1) يعني به أحمد بن أبي سالم المريني الذي فتح المغرب بنصرة ابن الأحمر له، وأزال منه دولة أبي زيان
بن عبدالعزيز بن أبي الحسن المريني.

ورأيت أهل الغرب عزم مغرب
قد ساعدته غرائب الأقدار

ثم يقول:

وخطبت من فاس الجديد عقيلة
لبتك طوع تسرع وبقدر
ما صدقوا متن الحديث بفتحها
حتى رأوه في متون شفار⁽¹⁾

وهكذا بدأت تظهر بوادر ضعف القوة العسكرية للدولة المرينية حيث استعانت في آخر عهدها بدولة بني الأحمر ملوك غرناطة، لاستتباب نفوذها بالمغرب ضد الزعانف الذين استبدوا بسلطتها. ولعل أسباب الضعف الذي أصابها راجع إلى الثورات الداخلية والحروب المتوالية التي خاضته ضد بني عبدالواد والحفصيين، والتي أنهكت قواها وأتت بنتائج عكسية لأهدافها، حيث فشلت في محاولة توحيد أقطار المغرب تحت راية جهادها اقتداء بدولة الموحيدين.

ولما أصبح المغرب هدفًا لأحداث خطيرة بسبب الفتن والثورات المتعاقبة التي شعلها ملوك ضعاف، استبد بهم وزراء وقواد للجيش ومرترقة وسلاطين بني الأحمر بالأندلس، صارت ضرورة القيام بالجهاد وتنظيم حركته وقيادته، وحماية الحدود وتحرير الموانئ المغربية من الاحتلال الأجنبي، وإنقاذ البلاد من التفكك والانحلال من أوجب الواجبات، وبالفعل انطلقت حركة الجهاد من الجنوب المغربي ومهدت لظهور الحركة السعدية⁽²⁾ ودولتها المجاهدة. فعندما سقطت بعض جهات المغرب في أيدي الثوار بعد نهاية الدولة المرينية، أبلى محمد الشيخ السعدي البلاء الحسن لفتحها واستردادها. وذاع صيته في مجموع الجهة الشمالية والشرقية من البلاد مما سهل على السعديين احتلال كرسيف ودبدو.

(1) المقرئ أزهار الرياض، ج 2، ص 28 - 30.

(2) انظر بداية فصل «الدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي»، الآتي بعد.

وقد أورد الشاعر محمد بن علي الهوزالي⁽¹⁾، وصفاً لجيش محمد الشيخ وهو
يحارب أعداء الإسلام والمسلمين بالمغرب، قائلاً من قصيدة مطلعها:
بيضُ السيوف وسمر العوالِ
توطد أركان أس المعالِ
ومنها:

وأفضل العوبة بينهم
تراشقهم في الوغى بالنبال
الذمعة عندهم
معانقة القرن عند النزال
فإن تيمن أخو خور
منادمة الشرب تحت الظلال
تمنوا منادمة الحرب في
الهواجر بين شداد الرجال
إذا الرعب خام به فزع
أذابوا الحديد بحر المصال
يزيدون في حربهم مرة
إذا ما تمادى اللقا واستطال
ثم يتعرض شاعرنا لوصف الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية قائلاً:
فعاث عثوا عظيمًا فلا
يزيد سوءه جفوة ودلال

(1) أبو عبدالله محمد بن الهوزالي هو شاعر المنصور الذهبي الرسمي، نشأ في كنف الدولة السعدية. وكان متضلعا في علوم اللغة والآداب والقضاء والفتوى. تولى القضاء بسكتانة وتوفي في القرن الحادي عشر الهجري. شرح ديوان المتنبي. وكان أغلب شعره في الخليفة المنصور السعدي وبلائه في معركة وادي المخازن. وقد لقب بـ «أخو علقمة وليبد». (انظر عنه درة الحجال ج2، ص 233، ومناهل الصفا، ص 236 ورسالة نجاة المريني عن عبدالعزيز الفشتالي، ص 38).

ففي كل يومٍ له طفرةٌ
وفتكُ بمعمةٍ واغتيال
وقد استبيحت بسائطهم
ودبَّ العدو لصوب الجبال
وأصبح سكأنها في زهولٍ
كأن لم يكن بينهم من رجال

ولكن الأمير السعدي كان لهم بالمرصاد:
فردَّ إلى نحرهم كيدهمُ
بحربٍ زبون وكيدٍ مطالٍ
وجندٍ قوي وبأسٍ شديدٍ
ورأي مطاع ونسج احتيالٍ
وأس الحروب على خدع
تصيدُ الأسود بحوك السلال

ثم يتوجه شاعرنا بالخطاب إلى الأمير المجاهد محمد الشيخ، ويشيد بما
حققه من أمن وأمان:

فظهرت الأرض من زجرهم
بعزم بني المصطفى خير آلٍ
فنلنا الأمان على ديننا
وأبنائنا وخدور العيال⁽¹⁾

وينطلق الشعراء السعديون في تمجيد جهاد محمد الشيخ السعدي وبلائه في
حروبه ضد الأعداء:

(1) محمد المختار السوسي: سوس العالة، ص 68 - 69 (نقلاً عن مخطوطة في ملكية محمد المنوني).

من ذلك قصيدة جمع فيها الشاعر سعيد الحامدي خصال الشجاعة والبطولة
والشهادة التي كان يتصف بها محمد الشيخ، في مراحل نضاله يقول فيها:
أمام إمام عود الطعن بالقنا
وعلم حد السيف حز الغلاصم
إذا ما الكمأة ملت الطعن في القفا
أملّ عليهم ضربهم بالصوارم
أخو العزم إن يعزم تلاشت همومه
وذو الحزم لم تفرع له سِنَّ نادم
وكلُّ كمي يحتمي القرن قرنه
يرى ضربة الأقران ضربة لازم
فلست ترى في الشرق والغرب مثله
سلوباً لأسلاف الأسود الغواشم

ثم يخاطبه بهذا البيت الرائع:

ملكنت على الأعداء بالسيف سيفهم
جهاًراً وكان السيف أعدل قاسم⁽¹⁾

وللشاعر سعيد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز الجزولي في مدح هذا
الأمير السعدي قائد الجيوش وبطل الجلال والجهاد - وكتائبه الجرارة حين مزق
جيش النصارى وأجلاهم في معركة «بتكريط»، وانتصر على من نأواه وبغى عليه
من قصيدة:

لا تسألني عن البيض العتاق وسل
عن العتاق وبيض الهند والسمر

(1) محمد المختار السوسي: سوس العالمة، ص 69 - 70 (نقلاً عن مخطوطة في ملكية محمد المنوني)،
والسيف هو ساحل البحر.

أذكر بتكريطٍ يومًا لا يعادله
دهرٌ رمى كلَّ يومٍ منه بالشرر
ليلٌ من النقع لكن شهبه قضبٌ
تهدي الحتوفُ ظباها نشوةَ السحر
تلقى الكماة به نشوى وقد ثملتُ
من المحيا حميا الموت لا السُكر
سوقُ المنية ما ينفك يعمرها
كل ابن هيجاء في الأرواح مُنجر
هيهات هيهات إنَّ البيض همتها
في البيض والحر لا في البيض والصُفر
لله ما غضبة هاجت فما تركت
للمسلمين بأرض الشرك من وطَر
تربّ الحروب يلبي كل صارخةٍ
إلى الوغى غير رعيدي ولا حذر
كم فارسٍ وسطها يصلى بنار لظى
من علة الكِبَر لا من علة الكِبَر
وقائدٌ قدّه في القدِّ معتدلٌ
بالأسر لما غدا بالعدل لم يؤسّر

إلى أن يخاطب ممدوحه بقوله:

شَعَبَتْ صدعَ بلاد السلم وانصدعت
أرض العدا بك صدعًا غير منجبرٍ
فالآن أيقن دين الله أن له
سيفًا إذا هزّ فهو بالفتوح حَر⁽¹⁾

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 283 - 286 (تحقيق: عبدالله كتون) وهو المصدر الذي اعتمدته في

ولنفس الشاعر قصيدة بائية أخرى في الأمير السعدي لما مزق شمل المارقين
يصف شجاعته وبطولته وشدته في معترك خاضه ضد أعدائه، منها:
أسالمُ صرف الدهر قبل لقائه
فأليتُ لا ألقاه غيرَ محاربٍ
بحمر العوالي حاز كل فضيلةٍ
ببيض المعالي نال أسنى المكاسب
أبادَ العدا قتلاً ونهباً ومأسراً
ولا فضلَ إلا للقنا والقواضب
فغادر أشلاء البغاة بموقفٍ
تمرُّ به ريحُ الصبا والجنائب
ومزَّق شملَ المارقين بقتلهم
مجاهل أشباه الفرابي السباب
بكل كميٍّ صادق البأس باسلٍ
يخوض عبابَ الموت للقرن غالب⁽¹⁾

وبعد معركة وادي المخازن وما آلت إليه من انتصار باهر قام أحمد المنصور
السعدي بإعادة تنظيم جيشه وعزم على خوض غمار سياسة «الفتوحات» والاستيلاء
على إقليمي توات وتيكورارين الصحراويين وضمهما إلى سلك دولته سنة 991هـ

جميع الأشعار المنقولة منه. وللجزولي قصيدة في رثاء الأمير محمد الحران ابن محمد الشيخ وتعزية
أبيه، وقد سقط قتيلاً في محاولته لاسترجاع تلمسان من الترك عام 955هـ. مطلعها:
أتزوي الأماني والأمني سراب وتغني المغاني والمغاني خراب
ومنها:

مهيباً تلاقيه القبائل والقنا	فتغضي وأعمار الكمة نهاب
لقد أقحم الحران في الحرب نفسه	وأقدم بالشبان وشيب وشاب

(الفشتالي: مناهل الصفا المصدر السابق، ص 290).

(1) الفشتالي: المناهل، ص 288 - 289 (ت: ع. كنون).

«فجهز العساكر وجند الجنود وجيش الجيوش» من الحضرتين مراكش وفاس، وتلاقى الجيشان بسجلماسة وحاصرت الجيوش السعدية تيكورارين - بعدما أساء سكانها الرد ولاذوا بالمنع - للدخول في طاعة المنصور السعدي، وانقضت عليها «وأرعدت رعود النار من جهة بالرصاص والبارود حتى ارتفع النداء بالأمان»، ورجعت الجيوش إلى «توات» ونزلت عليها فأتى سكانها طائعين. ولكن ما فتئ أن أعاد أهل تيكورارين الكرة وأصروا على الصيان، وفقطع الجيش السعدي دابرهم واستأصل شأفتهم. وكان هذا «خاتمة الفتح»⁽¹⁾.

وقد أخبر السلطان السعدي بهذا الفتح وهو بمراكش فأنشد فيه الشعراء السعديون قصائد كثيرة. وكان أول المنشدين الوزير عبدالعزيز الفشتالي⁽²⁾.

هكذا تحرز العلى والمعالي

وتدق الطلا بسمر طوال

ويشيد شاعرنا بالقيادة الحكيمة «للسوابق الجرد» و«لكمة الهيجاء» وللرماة السعديين، الذين صبوا النار والصواعق على الأعداء والثوار، حتى تحقق الفتح الجليل وطابق صيته ربوع البلاد:

(1) المصدر السابق، ص 36 - 40.

(2) ولد أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي سنة 952هـ بقتالة، ثم يمم مدينة فاس ولزم مجالس علمائها فبرع في علوم الأدب وفي فن الكتابة والشعر. تولى وزارة القلم في بلاط المنصور السعدي ورئاسة ديوان الإنشاء. وكان شاعر الدول السعدية بلا منازع ومدون حولياتها ومؤرخها الرسمي. من آثاره أنه أرخ للسعديين في كتابه: «مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفاء»، وشرح مقصورة المكودي كما شرح ورتب ديوان المتنبي. وله عدة أشعار نقشت على جدران وقبب وأروقة قصر البديع بمراكش، وله مدائح في ولي نعمته المنصور السعدي ومولديات بارعة كانت تجود بها قريحته في الحفلات العديدة. (عن هذه الآثار: انظر رسالة نجاة المريني: عبدالعزيز الفشتالي شعره، ص 53 - 64). وقد توفي سنة 1032هـ بمراكش. قال فيه المنصور الذهبي: «إن الفشتالي نفتخر به على الملوك ونباري به لسان الدين بن الخطيب». (فكلاهما كان مسؤولاً في الدولة وشاعراً مفلحاً متميزاً وشاهداً على حركة جهاد ملكه وسلطانته). وقيل فيه أيضاً: «به يفتخر أهل المغرب على أهل المشرق». ترجم له كثير من المؤرخين كالمقري في نفع الطيب (ج 6، ص 59) وفي روضة الآس، (ص 112)، والقادي فينشر المثاني (ج 1، ص 241)، وابن القاضي في درة الحجال (ج 3، ص 130)، وليفي بروفنسال في «مؤرخو الشرفاء» (ص 80)، وعبدالله كنون في ذكريات مشاهير رجال المغرب (العدد الأول).. وللфشتالي ابن هو محمد بن عبدالعزيز الفشتالي أورد له المقري أشعاراً في «روضة الآس» (انظر، ص 204).

وتقوّد السوابق الجرد أسد
هيح غابها وشيخ العوالي
من كماء الهيجاء تحملها فو
ق متون الجياد شم الجبال
ورمأة تشب نارًا تلظى
جعلوا وقدها جسوم الرجال
سير العزم منهم جيش نصر
غمّر السهل والهضاب الأعالي
صبحتها منها صواعق ضجت
لصداها أفلاك سبع ثقاف
ثم يرجو من السلطان السعدي أن يولي وجهه نحو المشرق الذي ينتظر حلوله:
فأدرك مصر والعراق ويئم
حرم الحي ألكم خير آل
إن شرق البلاد يرجوك شوقًا
مثل ما يرتجى طلوع الهلال
فهنيئًا لكم بفتح جليل
طبق الأرض صيته المتعالي⁽¹⁾

ويتوالى الشعراء يشيدون بهذا الفتح الذي تم به توحيد شطري البلاد شمالها وجنوبها. من ذلك قصيدة أبي عبدالله محمد بن علي الهوزالي التي يشيد فيها بكتائبه «المنصورية» وبلاتها في الحرب والطعان وقد شبهها بالبساتين:

(1) المصدر السابق، ص 40 - 41. وفي هذه القصيدة أشار الشاعر إلى معركة وادي المخازن بقوله:

فاسأل الركن والمخازن عنه إذ جلا الخطب عند ضنك المجال

والملاحظ أنه رغم أن عهد المنصور كان مزدحمًا بالفتوحات الداخلية فإن شعراءه حين كانوا يهنئونه بهذه الفتوح كانوا دائمًا يعرجون على موقعة وادي المخازن فيلمحون إليها ويشيرون. (انظر د. عباس الجراري: معركة وادي المخازن في الأدب المغربي، ص 19، ط 2).

فتوح جنى المنصور في عرصاتها
أزهارُ نصرٍ يانعٍ من جنانها
فلا روضٌ إلا من كثيف كتائب
ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
ولا غصن إلا من قناةٍ قويمةٍ
ولا زهر إلا من شبة سنانها
كتائب منصورية قذفت بها
مرام نأت عن أرضها ومكانها
تهيمُ بها الأرواح حتى كأنها
تناغي عزيف الجن في دورانها
وتطوي بساطاً أرضها بقنابل
سنابكها أضوى لها من بنانها
ويخاطب شاعرنا في ختام قصيدته المنصور السعدي بقوله داعياً له بالنصر
على أهل الفتن في المغرب والمشرق:
إلى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا
وفخر بني ابن المصطفى وهجانها
بني الحسن السبط الزكي الذي خبت
به فتن الإسلام في هيجانها
فلا زالت الأقطار تعطي قيادها
لسيفك من سوسٍ إلى خرسانها⁽¹⁾

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 31 - 32 (ط: المطبعة الملكية).
ربما قد تشتم رائحة «الزعة الشيعية» في مثل هذه الأبيات ولكن هو في الحقيقة مجرد حب لآل البيت والتعلق بهم.

ولما ارتحل أمير المؤمنين إلى فاس وصله خبر شق الطاعة بتاكورين مرة أخرى فأمر بالنهوض من سوس ومن فاس في عساكر هامة. وكان الهجوم سجالاً إلى أن علم الثوار أن لا طاقة لهم بمقاومة جيش المنصور. «فسكنت الأحوال وهدأت الأهوال واطمأنت الآمال». «وامتدت عين المنصور إلى وراء ذلك من بلاد السودان»⁽¹⁾.

ويأتي دور الشاعر الكاتب بديوان المنصور أبي علي الحسن ابن أحمد المسفيوي ليمدح المنصور ويشيد بفتح «بلاد السودان» (الأقاليم الصحراوية) في قصيدة مطلعها:

تجلى بسعد الجد مقتبل النصر
كذا غاية العليا كذا غاية الفخر
فمن همم أضحى الثريا لها الثرى
ومن عسكرٍ يقتاده رائدُ النصر
ويتساءل شاعرنا كيف يغفلون ما يأتي به «طارق» الدهر والزمان:
فهل خاب سعي السود أو فال رأيها
وهل قاومت في زعمها عاصفُ القسر؟
رعوا حقبةً مرعى الهدوء وأغفلوا
عواقبَ ما يأتي به طارقُ الدهر
فما راعهم إلا طلائع عسكرٍ
تزجى بأسد الغاب داميةً الظفر
ويذكرهم بما أصاب الروم من هول الجيوش السعدية:
كما فلَّ غرب الروم سيف انتقامه
وطافَ عليهم طائفُ القتل والأسر

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 58 - 59.

ثم يقدم التهاني للإمام المجاهد السعدي إلى اتساع رقعة بلاد المغرب تحت
سلطانه من بلاد سوس إلى نهر «السنغال» ومنها إلى بغداد :
فيهنه ملك الأرض موطوءة له
سينتظم السوس الأقصى إلى النهر
فما دون درب الشام إلا التفاتة
وما دون بغداد العراق سوى فتر⁽¹⁾

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 74 - 75.

يضرب شعراء الدولة السعدية على نفس الوتر الذي ضرب عليه شعراء الدولتين الموحدية والمرينية
حيث يمنون جميعاً ملوكهم بالاستيلاء على العراق ومصر وضم المشرق إلى المغرب تحت راية مغربية
واحدة. من ذلك ما نقش في بهو من أبهاء قصر البديع:

قطب الخلافة تاج مفرق دولة	رميت بمجملها اللهام الكور
وجرى إلى أقصى العراق لرعبها	جيش على جسر الفرات عبور
(الأفراني: نزهة الحادي، ص 108) وقول الهوزالي سابقاً (ص 97).	
فلا زالت الأقطار تعطي قيادها	لسيفك من سوس إلى خرسائها
وقول أحمد بن القاضي (صاحب كتاب المنتقى المقصور) في مدح المنصور الذهبي:	
نصره الله وملكه	ملكاً عظيماً فاخر المنصب
كي ينظم الأقطار في سلكه	من سوس الأقصى إلى يثرب
(المقري: روضة الأس، ص 255).	

وقول الفشتالي يحرض المنصور على استرداد الأندلس كما سيأتي ذكره في فصل «التحريض على
الجهاد»:

أوطئ جيوشك أرض أندلس فقد	نذرت تطيعك كي يوفى نذرها
وقول المسفيوي:	
وتنال أندلساً يجرود ربوعها	برد المنية من قتام العثير
بل أكثر من هذا:	
وتحل بالحرمين رباً زاكياً	مأوى لجذك ذي السجايا الطهر
(الفشتالي: المناهل، ص 90).	

«وكان الأجدر بهؤلاء الشعراء - يقول محمد بن تاويت - أن يطربوا المنصور بهذه الترنيمة التي تمنيه
بسيطة وطنجة والجديدة التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار البرتغالي في داخل البلاد نفسها».
(الأدب المغربي)، ص 327.

وإن دل هذا على شيء فقد دل على أن المغرب لم يقطع صلاته بالخلافة الإسلامية، ويعتبر نفسه
جزءاً من الأمة الإسلامية التي يسعى جاهداً ومجاهداً لضم شتاتها تحت «راية مغربية» واحدة.

وفي سنة 996هـ ظهر الثائر «بن قرقوش» من مكناسة الزيتون في منطقة الهبط وفي جبل غمارة. و«كان أهلها في غاية من الجهل والغباوة»، وادعى أنه من أهل البيت. وتكنى بأمير المؤمنين. فجهز له المنصور العساكر من فاس بقيادة ابن بجة وتفرقت جموعه أمام قيادة الجيش السعدي، وقبض عليه ولي عهد المنصور الشيخ المأمون وقتله وأتباعه، وخرب ابن بجة «قومه وعشيرته» «عبرة لمن اعتبر، وأكبر موعظة لمن ازدجر، وتخويفاً لمن عداهم، وردعاً لمن سواهم». وفي هذا الفتح والانتصار يقول عبدالعزيز الفشتالي مهنئاً المنصور السعدي:

أنل فبكل كف منك نيل

ومر فالدهر يفعل ما تقول

وأشار إلى الثائر المهزوم على يد «الأسد» الهصور وحفيد الرسول:

ومن تنوي ولو عنقاء جو

فسيفك ذو الفقار به كفيلاً

وأشقى الناس من يعصي إماماً

وليأه: علي والرسول

إذا زار استكان الأسد رعباً

وترهب منه إن هدر الفحول⁽¹⁾

ومن الوقائع التي جرت بين المنصور وبين ابن شقيقه: المتوكل، وقعة هاجمت فيها جيوش المنصور المتوكل وظهيره الثائر «ابن ويسعدن» وحكمت في جموعهم السيوف والحرايب. وكان ممن شهد الواقعة القاضي والقائد الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشياظمي أو الشياظمي⁽²⁾ الذي ذكر «أنه لما اشتد الزلزال واستحكم

(1) الفشتالي: المناهل، ص 95 (تحقيق كريم).

(2) ذكر المقرئ في روضة الآس أنه كان فقيهاً، وأديباً متفنناً وكاتباً بليغاً مشاركاً (ص 173). كما كان ربياً للسياق يقود ألف فارس. لازم حضور مجالس المنصور الذهبي الحديثية والأدبية. وكان أكبر ناظم للمولديات وأغزر شعرائها. أورد له الفشتالي في مناهله كثيراً من شعره، وذكره ابن القاضي في درة البحال (ج 3، ص 258). (انظر محمد حجي: الحركة الفكرية ج 2، ص 397).

الطعن والنزال» رأى أمير المؤمنين «ثابت الجأش راسخ القدم»، فأنشده بيتين من قصيدة الكاتب محمد بن عيسى:

هو الغيثُ ثم البحر في الجود والندى
وليثُ إذا جد الطعان هصورُ
يفوقُ السهام عزمه وانبعاثه
ويقصرُ عنه في الثبات ثبير

فأجابه المنصور متمثلاً بقول أبي فراس الحمداني:
ونحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الحسنة لم يُغْلِه المهر⁽¹⁾

وجرت أحداث وقعة أخرى بين المتوكل وعم المنصور في سوس بمضيق «أساطس». وكان المتوكل قد أدخل في صفوف جيشه فرقة من الأتراك الأشداء التي كان قد أدخلها هو وشقيقه المعتصم إلى المغرب. وقد هباً المنصور جيش زواوة - الأعداء الألداد للأتراك - لمواجهة في المعركة واخترق بهم «الأسداد المنضودة رصفاً بالصخور». ثم ركبتهم سيوفه وتم الاستيلاء على محلّتهم، إلا أن فرقة من الأتراك باغتت خيل المنصور فأمر المؤمنين برميهم بالرصاص، وسل سيفه ليسوق به الجيوش إلى الكرة على هؤلاء المهاجمين الأقوياء. فأنشد علي بن منصور الشياظمي قصيدة يصف فيها التحام المحاربين في وقعة «أساطس» وانقضاض المنصور على أعدائه. منها:

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 146 - 147 (تحقيق عبدالله كتون).

الأفراني: نزهة الحادي، ص 118.

والبيتان يوجدان بديوان أبي فراس الحمداني، ص 87 (المطبعة السليمانية ببيروت 1873م).

لله إقدامه المشهور حين سطا
بهم وقد رجموا من ساطس شغبا
وهال هول بغاة في الكد أصعدت
إذ رسل الجو من أحجارهم سحبا
والجيش قد جاش وارتجت جوانبه
وهاله الخطب وسط الشعب فاضطربا
ثم تقدم كالليث الهزبر وقد
هاجت حفيظته وأرعدت غضبا
فرد فرداً صروف الدهر مرغمةً
لحين ما صرفت أنيابها نوباً⁽¹⁾

وبعد هذا الانتصار الباهر الذي أحرزه المنصور الذهبي على خصومه ووصل به ملكه إلى درجة عظيمة من السعة والفخامة والجلال بدأ يجدد أسطوله ويشتكث مراكبه الجهادية وآلاته الحربية لما كان يؤمله من فتح الأندلس واسترجاعها⁽²⁾.

ولكن البرتغاليين دبروا له مؤامرة لقلب عرشه، فحرضوا ابن أخيه الناصر بن عبدالله الغالب سنة 1103هـ - (الذي كان قد التجأ إلى الإسبان بعد معركة وادي المخازن ثم جلبه البرتغاليون إليهم بطلب من المنصور كشرط لفداء أسراهم) - للدخول إلى مليلية والحصول على سند من القبائل الريفية ليوقف في وجه عمه المنصور. ولما التفت عليه الحشود الريفية شمر صاحب فاس - ولي عهد المنصور الأمير أبو عبدالله محمد الشيخ المأمون - إلى قطع دابر الناصر الثائر وتقريق عساكره وحشوده واستئصال جموعه وأتباعه، وأرسل رماته وفرسانه في «جيش النار» إلى تازة.

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 145 - 151 (ت: كنون).

(2) كتب المنصور في هذا الشأن إلى أهل مصر ومكة والمدينة وغيرها من البلاد الشرقية «بطلب الدعاء بالإعانة على محاولة الأمور الجهادية وأخذ الأهبة والاستعداد والحزم على استرجاع جزيرة الأندلس». (الفشتالي: المناهل، ص 108).

والتقى الجيشان على سفح جبل «مدغرة» وانتصرت القوة النظامية على قوة الفتنة والغدر، وطارد المأمون الناصر إلى أن التجأ إلى جبل بني يزناسن ودارت بينهما معركة أخرى، فنكص الناصر على عقبيه وركن إلى النجاة بالقرار، ولكن المأمون قبض عليه واحتز رأسه وبعث به إلى المنصور بمراكش سنة 1005هـ.

وكان المنصور عازماً على الالتحاق به بفاس لمساندته في معركته الفاصلة. فرجع الأمير السعدي منصوراً إلى فاس وأخبر «الحضرة المراكشية» بهذا النصر الجديد والفتح الكبير⁽¹⁾.

فأنشد الشاعر عبدالعزيز بن محمد الفشتالي قصيدة يصف فيها مؤامرة الغدر والخيانة. مطلعها:

مغالِبُ أمر الله لا شك مغلوبٌ

وباغي استيلا ب ما تملكت مسلوبٌ

يطلب من الملك السعدي - فيها - أن لا يكثر بأهل الغدر ولا يقيم لهم وزناً، فإن الله ينتقم من حلفاء الأعداء:

فلا تكثر بما يلم فقد طوى

لك الله في المكروه ما هو محبوبٌ

(1) مما قيل في مدح هذا الجيش السعدي المنتصر بقيادة ولي عهد المنصور وقد وجه الناظم (المجهول الاسم) خطابه للأمير السعدي قائلاً:

لله بهجة يوم عودك ظافراً	تختال بين ذوابل وشعار
وانساب كالوادي أمامك عسكرٌ	ملأ الفضا برماته الأنصار
من كل مقدم الكريهة جامعٌ	بعزيمة الإعلان والإسرار
حملت مناكبهم مدافع رصعت	كقضيبي دوح يانع الأزهار
وظلعت في أرجاء فاس مثلاً	طلع الهلال بليلة الإفطار
حسننتها بمآثر وحميتها	بعساكر تغني عن الأسوار
فاسحب بها ذيل النعيم مهناً	ومطاع أمرك في البسيطة جار

(الفشتالي: المناهل، ص 283).

عدوك كان البحر يلقاكَ دونه
فأَمَك كي تغتاله وهو مجنوبٌ
تبرم من ذل الصليب كأنَّ به
يرى وهو فوق الجذع في الجو مصلوب
تجرع من أيدي النوائب صابها
فرن رام تصعيداً أتى وهو تصويب⁽¹⁾

ويتصدى شعراء المنصور لهجاء التأثير المارق والاستخفاف بمؤامراته الدنيئة
ووصف بلاء الجيوش السعدية في ميدان المعارك، وتهنئة المنصور بالفوز على أخطر
أعدائه، وولي عهده المأمون بانتصاره على «أهل الفتنة والدمار» ببلاد الريف وبلاد تازة.

من ذلك: قصيدة أبي عبدالله محمد الهوزالي، يقول منها:

لقد جردَ المنصور منه مهنداً
فرى كل ليثٍ من عناد وعدوانٍ
ألا أيها المنصور بالله أذعنْتُ
لسيفك أعناقُ العدا أي إذعان
ولاحت عليهم كل زغف كأنما
أفيضت على أبدانهم زرق غدران⁽²⁾

وقصيدة أبي علي الحسن بن أحمد المسفيوي الذي يشيد فيها بعزم المنصور
الذي يصدع به جموع الأعداء في الجنوب والشمال ويكسرهما تكسيراً مطلعها:
وفاك فتحٌ واضحُ الإقبال
أربى على الماضي مدى استقبال

ومنها:

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 94 - 98. (ت: كنون).

(2) المصدر السابق، ص 103 - 104.

كم كاد عزمك من عدو قبله
فصدعته صدع الرداء البالي
وإذا انتحاك الجمع منه فإنه
وقف على التكسير واستيصال⁽¹⁾

وقصيدة أبي الحسين علي بن منصور الشيعي (أو الشياظمي) الذي عبر
فيها عن نفس المعاني والأفكار التي وردت في قصيدة المسفيوي.

مطلعها:

هكذا هكذا تكون المعالي
مسندات على العلى والعوالي

منها:

فاسأل الركن والمخازن عنه
إذ جلا الخطب عند ضحك المجال

ثم يخاطب المنصور الظافر:

يا رعى الله منه أي عماد
قد أذاق الهموم حزب الضلال
وحمى بالببيض وسمر العوالي
حوزة الملك من أذى كل قال⁽²⁾

ولا يفوت عبدالعزيز الفشتالي أن ينظم هو الآخر قصيدة يهجو فيها «أحزاب
الضلالة» - الذين تجرأوا بثورتهم على قاهر البرتغال والسودان - ويتلزم فيه
بالثورية في عدة أبيات لأن أمير المؤمنين كان يقول: «إن الكلام الخالي من محاسنها
لا يحسن له الاستماع ولا تتفعل له الطباع».

(1) المصدر السابق، ص 104 - 106.

(2) المصدر السابق، ص 106 - 107.

مطلعها:

الفتح من حركات أحمد واجب
كل العوامل في العدا له طالب
إلى أن يقول مستخفاً بهجوم الثائرين و«جمعهم المكسر»:
أثروم أحزاب الضلال سفاهة
غلباً لحزب الله وهو الغالب
أودى بجمع مكسر جمع له
تعنو الجموع أعاجم وأعارب
جمع له في الحرب أي وقائع
أضحت على الأعداء وهي نوائب
مارت بأشلاء العدا تناثراً
أضحى الوهاد بهن وهي أهاضب
قد حلقت للنصر فوق سمائها
من كل فتخاء البنود عصائب
صبت على السودان منه صواعق
فهمت على «إسحاق» وهي مصائب⁽¹⁾

ومن ذلك أيضاً قصيدة أبي عبدالله محمد بن عمر الشاوي التي يقول فيها
مادحاً أولاً ثم هاجياً ومتواعداً:

تهناً أمير المؤمنين فقد جرت
لسطونك الأقدار جري السوابق
أضاءت بك الأيام واحلولكت على
عدوك وارتجت رؤوس الشواهد

(1) المصدر السابق، ص 107 - 108.

وذاك الذي خيَّب اللهُ سعدَه
تردى فلم تنفقه نصرَةً مارق
فكان كما قد قيل لكن رأسه
أتى سابقًا والرجل ليستُ بسابق⁽¹⁾

لقد قال حقًا، لما أنشد شاعر الدولة السعدية أبو عبدالله محمد الهوزالي
على لسان أحمد المنصور الذهبي وبحضرته في «محلقته» بأغمات لما كان يتبارى في
قول شعر الفخر مع شعرائه وأدبائه، كما كان يفعل المعتمد بن عباد:

أخوضُ عبابَ الموت في حومةِ الوغى
وسمرُ القنا بين الضلوعِ تحكُمُ
وأصدع قلبَ الفيلقِ المجرِ عنوةً
ويصدعُ قلبي أحور العينِ أفحمُ
وأحمي ذمار الملكِ شرقًا ومغربًا
ويحامي فؤادي وهو فيه محكمُ
وأكتم ما أنويه حتى عن الحشا
وأودع بلواه ما ليس يكتُمُ

ويتدخل علي بن منصور الشياظمي قائلًا بعد الشاعرين المسفيوي والفشتالي
من قصيدة يشيد ببلاء المنصور في الدفاع عن الإسلام:

أليس هو المنصور من وطَّد العلا
وذَبَّ عن الإسلام والخطبِ مظلمُ
ومهد به بالهندواني وبالقنا
وما أسس الرأي السديد المعلمُ

(1) الأفراني: نزهة الحادي، ص 102. ويعني بالمهجو الشاعر الناصر بن السلطان الغالب (الاستقصا ج 5، ص 146).

اليس الذي حاط البرية واغتنى
به الدين مرصوص المباني مفخم
وتلل عرش الكفر عنه اعتزازه
وغادره بالببيض وهو مصرم
فدانت له صيدُ الملوك وأصبحت
ممالكُ تمضي كل ما هو يلزم
فمذ ظفرَ الإسلامُ منه بصارم
تيقن أن الشرك لا شكَّ مقصم⁽¹⁾

إن المنصور السعدي بشهادة شعراء دولته: محمد الهوزالي وأبي الحسن بن أحمد المسفيوي وعبدالعزیز الفشتالي ومحمد بن علي الفشتالي وعلي بن منصور الشياظمي.. قاوم أحزاب الشرك وطواغيت الكفر وصبر لهول الثوار وأصحاب الفتن، وثبت محتسباً لصولات البرتغال والأتراك وصدماتهم المتوالية، ووجد بين شمال البلاد وأقصى جنوبها، وجاهد جهاد الصابرين الصالحين، ورفع راية الإسلام خفاقة، وأعاد للمغرب هيئته وسلطانه.

وناهيك بما أشاد به شعراؤه في قصائدهم من خصال ومزايا المجاهدين: صرامة وبأس وإقدام وعزيمة قوية وثبات جأش وشجاعة مثالية ورسوخ قدم وقيادة عسكرية محكمة في وقائع حربية تشيب لها النواصي، حتى حكم الله بالفتح والظفر وأيده بنصر من عنده، وأثابه على نضاله وجهاده أحسن الثواب. يقول مفتي مراكش عبدالواحد الفيلاي:

ففيك أقول والنصوص شواهدُ
أحاديثُ صحت ليس فيها منازعُ

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 131 - 134 (ت: كنون). المقرئ: روضة الأس، ص 53 (ط: المطبعة الملكية).

بكم رأس هذا القرن جدّد ديننا

وفاضت بحور للعلوم دوافع⁽¹⁾

فكان بحق ناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين!

وبعد وفاة المنصور تولى الملك زيدان بن المنصور الذي كان قوي الشخصية شديداً في تصرفاته عنيفاً في سلوكه. ولم يهنأ بالخلافة مدة طويلة حتى قام الثوار من كل صوب يطالبون بالعرش والسلطان⁽²⁾.

فقد قام ضده يحيى الحامي الذي كان ساعده الأيمن في القضاء على ثورة ابن أبي محلي سنة 1022هـ، وقد انتصر عليه في حصن «المنكب» الذي سماه الشاعر عبدالعزيز الفشتالي «حسن الفتح»، مهنئاً أبا المعالي الأمير السعدي الملقب «بالناصر» من قطعة شعرية:

وردّ البشيرُ بحصن الفتح في

شهرٍ به حور الجنان تزين

فتحُ أتاكَ يقوّدُ حسناً بعده

فتحُ يؤمّك بالتي هي أحسن

فيموتُ يحيى ثم يحيا جدم

ويطيّبُ للخلق الهنا والمأمن⁽³⁾

كما ثار عليه أبو فارس عبدالله بمراكش، وانقلب ضد أبي فارس أخوه محمد المأمون (الملقب بالشيخ)، واستولى على فاس ثم التجأ إلى الإسبان طالباً منهم نصرته، وحاول زيدان أن يستعين بالأتراك ضد أشقائه، ولكن دون جدوى.

(1) الأفراني: نزهة الحادي، ص 150.

وقد أشار الناظم ببيتيه إلى الحديث الشريف: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» أو في رواية أخرى: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها». (انظر سنن أبي داود كتاب الملاحم ج 4، ص 103، ط: دار إحياء السنة النبوية، بدون تاريخ).

(2) في هذه الفترة انقسم المغرب إلى مملكتين: مملكة فاس ومملكة مراكش، ونشطت حركة الجهاد الشعبي البحري التي اتخذت هدفاً مزدوجاً: المقاومة الوطنية وإضعاف السفن المسيحية. (إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج 2، ص 314).

(3) عبدالله كنون: رسائل سعدية، ص 227. انظر فصل التحريض على الجهاد.

وبعد سنتين عاد محمد المأمون الشيخ من إسبانيا تاركاً أهله رهينة لملك إسبانيا فيليب الثالث (ملك إسبانيا والبرتغال وإيطاليا)، وسلمه مدينة العرائش سنة 1011هـ ليساعده على استرجاع سلطانه على المغرب.

وفعلاً استولى محمد المأمون على تطوان وبقي أهل الشمال يتربصون به الدوائر حتى اغتالوه. وكان لهذا الحادث وقع عظيم في نفوس المغاربة ورد فعل قوي من جانبهم. وقد تهيأت ضده ثورتان: إحداهما بفاس تزعمها الشريف أحمد بن إدريس العمراني، منادياً بالجهاد لإغاثة وإنصاف مسلمي العرائش⁽¹⁾. وقاد الثورة الثانية ابن أبي محلي من سجلماسة بدعوى أنه المهدي المنتظر، واستولى على مراكش عندما كان ابن زيدان بأسفي.

وبعد اغتيال حامي الديار المغربية الشهيد العياشي - الذي أقض مضاجع الأجانب بالمغرب - أصبحت سلا والرباط خاضعتين لسلطة الدلائيين، واستمر الموريسكيون في حركتهم الجهادية البحرية ضد المغيرين على السواحل المغربية.

ولقد بدأت حركة الدلائيين دينية في عهد المنصور، وبعد موته اتخذت اتجاهاً سياسياً، وقد امتد نفوذها إلى بعض جهات المغرب في عهد الشيخ محمد بن بكر الدلائي. ولما كانت بعض القبائل البربرية لا تسعى إلا في نشر البغي والعدوان جمع الشيخ الدلائي قبائل ملوية تحت لوائه وأمرها بغزو هذه القبائل «الباغية». ولما لم يزد هم زجره إلا بغياً ونفوراً طلع إلى الجبل فاراً من الفتن إلى بلده للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى رجع المغرضون عن غيهم، فاستأنف الشيخ الدلائي إغاثته للمستضعفين الذين يقاومون من بغى عليهم ظلماً وعدواناً، وتعزيزه لهم بمن يعينهم من شجعان الأجناد والعساكر⁽²⁾.

(1) الأفراني: نزهة الحادي، ص 198. محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص 207.

(2) الحوات: البدور الضاوية، ص 120 - 122.

وفي ذلك يقول شاعر زاويته أبو العباس أحمد الدغوي⁽¹⁾ من قصيدة له
مقسماً «بأقدام الكمأة وبالسمر تقطر بالدماء وبالعاديات وبحياة أبطال الهياج»..

إن السلطان السعدي:

لينورن الحق ليل ضلاله
بتألق من كل بيض صارم
وليجبرن الدين بعد صدوعه
وليهدمن ركن الفساد القائم
ولينصرن الله جند وليه
قطب الكمال أعز نصر دائم

ثم يخاطب «شيخه» مشجعاً إياه على متابعة الجهاد - بعدما اشتد وطأ الفتنة
- وخوض معركة التحرير ضد التأثيرين:

يا أحلم الحلماء وأصرفهم إذا
ما الرأي ردّ إلى مشورة حازم
صل واغلظن في الله واسقط مجاهداً
بحسام عزمك ذي الذباب الحاسم
واقطع حبال خبال كل معارضٍ
ومعانيدٍ للحق غير ملائم

(1) هو أحمد الدغوي شاعر الزاوية الدلائية. كان شاعر المدح والثناء والهجاء والمولديات. مدح كثيراً الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، وأنشد في حضرته مولدياته بالزاوية الدلائية. إلا أن الركافة تغلب على شعره. أورد سليمان الحوات جل أشعاره في «البدور الضاوية». (انظر: محمد حجي: «الحركة الفكرية» ج 1، ص 28، والسقاط: الشعر الدلائي، ص 362).

ويوجه الشاعر لومه للقبائل الباغية:

فإلام تبرح في الضلال قبائلُ

من عرب مغربنا سدى وأعاجم

وترم رم الشرك فرصة مأكِرٍ

بالمسلمين الغر غير مسالم..

ثم يعود مخاطباً الشيخ الدلائي مبشراً إياه بفوزه ونصرته:

ولواء نصرتك المؤيد خافق

للدين بارد ظله من ناعمٍ

والدين أنت إمامه ورئيسه

والدهرُ عبدك وهو أطوع خادم

وليُبشر الإسلام منك وأهله

بحمايةٍ ورعايةٍ ومغانم⁽¹⁾

ولما ملك الثائر علي بن موسى السملالي بلاد الصحراء وكان فظاً غشوماً ظلوماً حاصره الشيخ الدلائي بجيشٍ من الفرسان والرماة وأنصار الدين وحماته، ولكنه أصيب برمد في عينيه فبعث إليه برسالة «زواجرها أمضى من سيوف أولي الحماسة». فكان الشيخ الدلائي - المجاهد بقلمه - من الذين قال فيهم الشاعر محمد المكلاتي في مقامة مدحه بها سماها: «المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية»:

يا ابن الذين رووا أحاديثَ العلى

عن خير خلق الله من عدنانٍ

(1) البدور الضاوية: ص 123 - 124 .

قَوْمٌ إِذَا دَجَّتِ الْخُطُوبُ وَأَظْلَمَتْ
وَدَهَى الْبَرِيَّةَ فَاجئِ الرَّجْعَانِ
تَرْكُوا سِيوْفَ الْهِنْدِ فِي أَغْمَادِهَا
وَتَقَلَّدُوا سَيْفًا مِنَ الْقِرَآنِ⁽¹⁾

ولما استولى الدلائيون على فاس وعظم أمرهم، هزموا محمد الشيخ الأصغر بن زيدان السعدي وفي هذا الظرف بدأ العلويون يتحفزون للإعلان عن دعوتهم ونشرها في ربوع المغرب. فبعث الأمير السعدي من مراكش برسالة إلى مؤسس الدولة العلوية محمد بن الشريف الحسني السجلماسي لما بويغ بفاس سنة 1060هـ - وهي من إنشاء وزيره القائد محمد بن يحيى أجانا - يهنئه فيها على دعوته الجديدة ويحذره من غدر بعض الثوار من البرابرة والأعراب وأهل فاس، وقد ختمها بقصيدة ذكر فيها بعض الخصال العسكرية التي اتصف بها ممدوحه:

صَقْرُ الصِّيَاصِي عَلَى الْأَعَادِي صَائِلٌ
غَوْرًا يَغِيرُ فِي الْمَلَحِمِ يَسْتَلُّ
أَنْفَارُهُ لِلْمَارْقِينَ صَوَارِمٌ
وَبِكُلِّ ظَفَرٍ مَنْذٍ يَسْطُو ذَوَابِلُ
نَادَى بِكُمُ النَّصْرُ الْعَزِيزُ لِمَغْرِبٍ
وَلَكُمْ عَلَى فَاسٍ الْجَدِيدُ كُلُّلُ
فَجَنُودُكَ الْجَرْدُ الْعَتَاقُ وَإِنْ نَظَرَ
تَ إِلَى تَلْمَسَانَ يَطِيْشُ السَّاحِلُ

(1) نفس المصدر السابق، ص 125 - 130 - 169.

هذا ومن بين الثوار الذين قاموا لإدراك ما فات: عبد الكريم الشباني والخضر غيلان - وقد ظهر في السنة التي توفي فيها العياشي - وكان له اتصال بالأتراك، كما كانت له علاقة خاصة بالإنجليز. وكان هؤلاء الثوار كلهم خصومًا ألداء للإسبان والبرتغال.

ثم يحذرهِ ويوصيه:

لا تعد عن جبل البرابر واصطبر
حتى يهون على الجواسيس مدخل
لا تأمن الأعراب في أقوالها
واقمع فظاظة من يجور ويختل
وعليك بالغارات في أوطانها
بكتائب تسبي النساء وتقتل
لا تتخذ من أهل فاس صاحباً
أو حاكماً يصل الأمور ويفصل
واضرب لبیت الملك أوتاد الدّها
تزداد صيئاً في القلوب وتقبل

فأجابه المولى محمد بن الشريف بقصيدة - في نفس الوزن والقافية -
وهي من إنشاد الفقيه محمد بن سودة المري الغرناطي الفاسي يوصيه فيها بترك
الخمول والانكماش تحت الظل الوريث والخروج إلى الحرب والطعان والتسلح
بجميع أنواع الأسلحة لخوض غمار المعارك:

إنني أبتُّ لكم وصايا جمّة
إن أنت للنصح المصرح تقبلُ
فاستيقظن من الخمار ومن رعى
في أرض أساد الثرى لا يغفل
وانفض غبار الدُّل واخلع ثوبه
يزداد وجهك بهجةً ويهلل

إلى أن يقول:

واركب مطايا الصافنات إلى الوغى
يحيى إلى الحرب العوار المحفل
وخض الغمار وهزّ رمحاً وادرع
واعل العنان وفي اليمين المنصل
خاطرُ بنفسك في الفيافي جائلاً
تردي العدو وكلّ ليلٍ منزل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع
من يعصي أمرك تزجرنه فيفعل⁽¹⁾

إلى آخر الوصايا الحربية التي لا تصدر إلا عن «فارس مجرب وقائد محنك»⁽²⁾.

وقد قاوم المولى محمد بن الشريف - رأس الملوك العلويين - محمد الحاج
الدلائي وأهل زاوية الدلاء، ولكن سرعان ما تصالحا وتقاسما بلاد المغرب سنة
1060هـ، ولم يقض على الدلائين إلا المولى رشيد الذي أبعدهم إلى تلمسان⁽³⁾.

(1) الأفراني: نزهة الحادي ص 254 - 255.

ابن الحاج: الدر المنتخب المستحسن م: خ. ح. (12184) ج 5، ص 219 - 221. وانظرها كذلك في
الاستقصا، ج 6، ص 105 من بعض التغير في مفرداتها.

(2) ذكر د. محمد بن شريفة في بحثه عن «ملاح شخصية محمد الأول» أن المولى محمد كان يتمنى
أن يكون «الموحد للوطن والمحرم للثغور» الذي يظهر بعد الألف أي في القرن الحادي عشر للهجرة،
وذلك لما اطلع على رسالة أهل سبته لعبدالحق - آخر ملوك بني مرين - مستغيثين به لإنقاذ مدينتهم.
فأجابهم الملك المريني على لسان كاتبه بقصيدة يوصيهم بالتزود بالصبر وانتظار ظهور أمير «يحيى
رسوم الغرب بعد دروسها»... «يفك أسر ثغوره ونجوده» منها:

مهما طوى الفلك الثلاثة فابشروا بمقامكم فيها مقام خلود
راقبه بعد الألف يا ابن أوانه تظفر لديه بغاية المقصود

(المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر - ص 332).

(3) قال الحسن اليوسي يتحسر على الزاوية الدلائية ويمدح الشيخ محمد ابن ناصر في قصيدة دالية
طويلة منها:

ولما قتل المولى محمد بن الشريف في حرب ضد شقيقه المولى رشيد، استولى هذا الأخير على مدن تازة وفاس ومراكش، ولما دخل إلى هذه المدينة دخول الفاتحين أنشد أحمد بن عبدالعزيز العلوي مؤلف كتاب «الأنوار الحسنية» أو «الأنوار في الأنساب المحمدية» قصيدة - سبقت الإشارة إليها - من إنشاء محمد الهوزالي - شاعر المنصور الذهبي - غير بعض مفرداتها وترتيب أبياتها، ومدح فيها المولى الرشيد⁽¹⁾ «المنصور»، الملك الشهم الزاحف إلى مراكش على رأس «كتائبه المنصورة» - التي قضت على الفتن الداخلية في هيجانها - وصاحب الفتوحات العظمى.

منها:

كتائبه منصورة قذفت بها

مِرامِ نأت عن أرضها ومكانها

ضربت بساط أرضها بقيائل

سنابكها أطوى لها من بناتها

غيث الوري الشيخ ابن ناصر الذي	نصر الإله به شريعة أحمد
وأعاد وجه الدين أبيض مسفراً	بهجاً مقراً عين كل موحد
وأقام سمك بنائه حتى سما	فوق السماك على الأواسي الوطد
وأزاح عنه كل حندس شبهة	وضلالة وخلاعة وتشدد
كم سنة أحييت بعد إماتة	وضلالة أخدمت بعد توقد

(اليوسي: الديوان (م. خ. ج. ص 37) ومحمد الجواهري: اليوسي الشاعر ص 106.

كما للشيخ أبي علي اليوسي قصيدة أخرى يرثي فيها زاوية الدلاء لما أوقع بها السلطان مولاي رشيد سنة 1078هـ مطلعها:

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا	فيأبى ويعتاض بها العقيق بها حمرا

المصدر السابق ص 87 - 95، والجواهري: اليوسي الشاعر ص 113.

(1) هو الإمام الرشيد اسماً ومتصفاً والحق يظهر من معنى ومن كلم

(الإمام أبو زيد عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي: ديوان اللؤلؤ والمرجان (ق 5) بدون ترقيم، م.

خ. ج. 597).

سحائبُ من صحرائنا قد أثارها
صَبَا النصر يحدوه حذاءُ كنانها
فتوحُ جنى المنصور في عرصاتها
أزاهر نصرٍ يانعٍ من جنانها
ولا غصنٌ إلا من قناةٍ قويمَةٍ
ولا زهرٌ إلا من شتات سنانها
ولا روض إلا من حماة كُلماتها
ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
فلما همت تلك السحائب فوقها
أفاقٌ وهبت من ذكرى هيمانها
فألقت مقاليدَ الأمور إلى الذي
قضا العزَّ عنها فارتدت بهوانها
إلى الملك الشهم الذي لقحت به
لقاء الحروب بكرها وعوانها
فلا زالت الأقطارُ تعطي مقادها
لسيفك من زمامها وعنانها⁽¹⁾

ولما كان المغرب موزعاً في هذا العهد «بين نجل أبي حسون بسوس والأطلس الصغير، والدلائيين بقلب البلاد، والخضر غيلان بالهبط والغرب، والشيخ أعراس بالريف»⁽²⁾، كان المغاربة على أتم استعداد للانضواء تحت لواء مولاي رشيد، ليوحد صفوفهم ويستأصل فوضى الانقسام والتقسيم بينهم.

(1) انظر: المقرئ: روضة الآس، ص 31 - 32، ط: م، وأحمد العلوي: الأنوار الحسنية ص 78 - 80، وعند المقارنة بين القصيدتين يظهر الخلاف الواضح في بعض مفردات أبياتها.

(2) عبدالعزيز بن عبدالله: تاريخ المغرب، ج 2، ص 5.

فانبرى المولى الرشيد يحارب خصومه والحكما الجهويين مدة سنوات، حتى
وحد أقاليم المملكة التي فرقت بينها الإمارات الجهوية، وأصبح ملك البلاد بدون
منازع. وهذا ما ردد صداه الإمام أبو زيد بن عبدالرحمن في قصيدته التي خاطب
بها المولى الرشيد:

ألا عم فهذا الجيش والله ناصره
يجوب الشناخيب المنفيات سائره
فهذي جيوشُ الخير تغزو بهمة
وتلك بعزم حيرته دوائره
فقاتل وواصل أو فجاهلن
فأنت الذي دانت إليه نظائره
وإن جنحوا للسلم فاجنح تكرما
فما يعتني بالخير ألا أخايره⁽¹⁾

وكانت هذه المرحلة أساسية في الانطلاق نحو وحدة الصف الداخلي وتحرير
قواعد الاحتلال الأجنبي للمغرب وسواحله.

ولما توفي المولى الرشيد، تولى الملك أخوه وعامله على مكناسة السلطان
المظفر أبو النصر المولى إسماعيل بن الشريف، أعظم سلاطين العلويين قوة وأجلهم
قدرًا⁽²⁾. ولما تمت بيعته بفاس كون الجيوش الحافلة والعساكر الوافرة والخيول
المطهمة، ونهض من مكناسة - بعد أن اتخذها دار القرار - لتمهيد البلاد، وقمع
الثورات الداخلية، وإخضاع العصاة المتمردين ومنازلتهم⁽³⁾.

(1) الإمام أبو زيد بن عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي: ديوان اللؤلؤ والمرجان (ق 5) م. خ. ح (بدون ترقيم).
(2) عن هذا السلطان انظر: «روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف» لأبي عبدالله محمد
الصغير اليفرنى، و«مولاي إسماعيل ابن الشريف» لعبدالله العمراني.
(3) مثل: ابن محرز بناحية مراكش، والخضر غيلان بناحية الهبط، وإخوته الثلاثة: الحران وهاشم
وأحمد بجيل ساغرو، وابنه محمد بناحية تادلة والدلائيين وغيرهم من «الضالين المضلين». يقول
أحدهم مخاطبًا المولى إسماعيل وهاجيًا عاصيه:

يقول عبدالله بن يوسف الوادنونى في وصف هذا الجيش العرمرم الإسماعيلي
وأسلحته ورجاله من قصيدة - تعد أطول مدائحه - لما هناً قائده بعودته الظافرة
من الصحراء سنة 1089هـ.

خميسٌ تضيقُ الفيح من جنباته
كما امتدّ دون (السيف) خضر الخضارمِ
عرمرم جيش الروع يوقع بالعدا
ولما يلاقوا الحرب شر الهزائم
فمن يحدّه منهم تجلدهُ فما
حمائله إلا خيوط التمام
ثم يوجه الشاعر الخطاب للثائرين:
ألا أيها العربان ماذا لقيتمُ
من أروع خواض الدجى والسمام
حسبتم فساح البيد تفلت جمعكم
وقد طاردتكم ضاريات القشاعم
ويهيئ المولى إسماعيل بالفتح والغلبة:
هنيئاً أمير المؤمنين بأوبةٍ
من أرض المنايا والردى والملاحم
عزمت فملت الفتح فذا موفراً
(على قدر أهل العزم تأتي العزائم)⁽¹⁾

يا من جميع الكائنات فدّى له	مولاي يا إسماعيل يا غيث الورى
الله من دون الخليقة سلّه	ما أنت إلا سيفٌ حقّ منتضى
أعماه من طرق الهدى وأضله	من لا يرى لك طاعة فالله قد

(اليفرنى: روضة التعريف ص 50).

(1) المختار السوسى: «سوس العالمة» ص 72 - 73 - 74 (دون ذكر للمصدر الأصلي).

وقد نظم أبو عثمان سعيد التلمساني قصيدة، يخاطب فيها على لسان المولى إسماعيل، قائد ثورة الدلائيين أبا العباس أحمد بن عبدالله الدلائي، ويهدده بالقتل والفناء:

تأهَّب ليوم العيد فالحرب عيدُ
لنا وعليكم محنةٌ ووعيدُ
ستعلم أشقى الناس يومَ لقائنا
إذا قهقهت في الحرب منَّا رُعود
أتجهل قبل اليوم ما قد علمته
وإنَّ لنا تحت السيوفِ عبيد
ويغيره بالغرور:

أتطلب دارَ العزِّ بعد غدوةٍ
وانتَ من المجد الأثيل بعيدُ
ويستصغر جيشه ويحتقره:

عدمنا عتاق الخيل إن لم تصلكمُ
عليها من الأبطال منَّا أسود
تخطفُ كالعقبان خزان أرضكم
وفي الحرب منهم قائدٌ وحصيد
ثم يفتخر عليه:

فسلَّ إن جهلت الناس عنَّا وعنكمُ
متى قابلتَ جيش الأسود قرودُ
يا أحمد المغرور ما أنت بالذي
تخفقُ في الهيجاء عليه بنود

يحيرك يا ابن البربرية غائص

وبحري بموج الصافنات يجود⁽¹⁾

ومن «سعادة» المولى إسماعيل أنه «ما ثار عليه ثائر ولا نبغ عليه قائد إلا مكته الله منه وغلبه عليه». وبذلك دانت له كافة القبائل الثائرة - «ولم يبق من ينازعه في أمر من الأمور، وساعده الدهر على ما يروم» - «ودوخ بلاد المغرب طوعها»، واستولى على تخوم السودان، وامتدت مملكته من هذه التخوم إلى بلاد مسكرة من ضواحي تلمسان، ولذلك قال شاعر من أهل عصره:

ألا قل لمن شقّ العصا كان يبتغي

ورامَ لهذا الملك بالهزم ينسجُ

فمولاي إسماعيل باز محلق

إذا صرصر البازي فلا ديك يصرخ⁽²⁾

وما أن انتقل المولى إسماعيل إلى جوار ربه حتى قام خلفاؤه ينسفون ما شيده «أبو النصر» من شامخ البنيان نسفاً، ويبدلون أمن البلاد خوفاً وقوتها ضعفاً، لولا أن تداركها الله بولاية أبي عبدالله سيدي محمد بن عبدالله⁽³⁾، الذي امتاز «بحسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي». فلم يلبث أن ضرب على أيدي «أهل الفتن والفساد» وساح في البلاد متفقداً لأموورها، مستصلحاً لأحوالها، محصناً لشغورها، مشيداً المعازل والأبراج⁽⁴⁾.

(1) محمد بن المفضل غريط: فواصل الجمان، ص 48 - 49.

(2) محمد الصغير اليفرنى: روضة التعريف، ص 56.

(3) عن هذا السلطان الجليل انظر: عبدالله كنون: السلطان محمد بن عبدالله - سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب - رقم 35.

(4) عبدالله كنون: النبوغ المغربي، ج 1، ص 206. هذا ولم يبرز المولى محمد بن عبدالله في الميدانين السياسي والعسكري فحسب، بل برز أيضاً في ميدان العلم حيث كان له اعتناء خاص بالأدب والتاريخ وأحوال العرب وأيامهم ووقائعهم. وقد وجه يوماً «نصيحة» لأفراد الأمة المغربية ينصحهم فيها أن لا يخرجوا عن مناهج الشريعة في أحكامهم وأعمالهم. وقد ضمنها آراءه في الجهاد وفضائله مورداً

وفي هذا يقول أبو العباس أحمد بن الونان⁽¹⁾ - الذي كان من ندمائه - في أرجوزته الشمقمقية:

فبايعته الناس طرا دفعة
لم يك فيها أحدُ بالأسبق
وأعطيت قوسَ العلا من قد برا
أعوادها رعاية لالأليق
وشاد ركنَ الدين بالسيف وقد
حازَ بتقواه رضى الموفق⁽²⁾

ووجه سيدي محمد بن عبدالله اهتمامه الخاص أيضاً إلى الشؤون البحرية والمراكب الحربية.

فقد عمل على إحياء أسطول والده المولى عبدالله، وشرع في إنشاء السفن البحرية لهذا الأسطول بمرسى العدوتين ومرسى العرائش المحررة⁽³⁾، لتكون جاهزة

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الجهاد، وقال: «ينبغي للمؤمن الموقن أن يسمع ويطيع كما أمر الله به من الجهاد ويستعد بما قدر عليه، سلاح وفرس جواد وتعلم رماية وفروسية ليؤجره الله على نيته ويثبته على حكم قصده وطويته.. وليتعلم ما يتعلق به من الأحكام من حسن النية والإخلاص وصدق العزيمة لتكون كلمة الله هي العليا، ويشعر نفسه تصديق ما وعد الله به من نصر الاسلام وأهله وخذلان الكفر وشيعته، ويعرف حرمة الفرار من الزحف وما أعد الله لمن مات شهيداً مقبلاً وما أعد الله لمن مات مدبراً ليكون على بصيرة فيما يأتي وما يذر». (ابن زيدان: الإتحاف، ج 3، ص 220 - 221).

(1) عاش أحمد بن الونان في عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله، اشتهر بأرجوزته «الشمقمقية»، وسبب ذلك هو أن والده كان يلقبه السلطان العلوي بأبي الشمقمق، تشبيهاً بذلك الشاعر المجوني الذي وردت أخباره في الأغاني، فلزمته هذه الكنية وتخطته إلى ولده وحتى إلى أرجوزته، ولما أنشدها أمام السلطان لقي تقديرًا عنده، وأجازه عليها. وهي أرجوزة جامعة لكثير من فنون الأدب وأخبار العرب، وقد شرحها كثير من الأدباء المغاربة كأبي عبدالله الجريسي السلاوي، والمؤرخ أحمد الناصري والفقير محمد المكي البطاوري الرباطي والعالم الأديب عبدالله كنون، توفي ابن الونان سنة 1187هـ. (عبدالله كنون: ابن الونان - سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، رقم 15، ومقدمة شرح الشمقمقية لنفس المؤلف).

(2) عبدالله كنون: شرح الشمقمقية ص 111 - 112.

(3) وفي هذا يقول أبو عبدالله بن علي الدكالي في أرجوزته: «إتحاف أشرف الملأ»:

لرد الهجومات العدوانية على الشواطئ المغربية وحماية الثغور من كيد المحتلين الغاصبين كالصويرة ومهدية والعرائش⁽¹⁾ وطنجة، وقد شحنها بالعساكر والجنود والرايات والبنود وشحنها بالمدافع والبنب والكور وما إلى ذلك⁽²⁾.

ومصدر الأجفان عدوتا سلا	بها تشاد ولديها يعتلى
وبعضها ينشأ بالعرائش	فويل من لقيها من طائش
وبلغت أجفانه المئينا	وكان قصده به مبينا

(إتحاف أشرف الملاء: ج. 227، ص 27).

(1) لقد مدح الشاعر القروي محمد الطيب بن صالح الغماري المولى محمد بن عبدالله بقصيدة طويلة بعد أن قضى على رؤوس الفتنة بالشمال والجنوب وبعد اندحار الأسطول الفرنسي في هجومه على العرائش: يقول منها:

صحائف حمد لم تزل أي فضله	له في سماء الخافقين هدير
إذا استجدت زور الرماح علت له	بناحياتها صولة وزئير
أيعصمهم مأوى العقاب وفوقه	لعقبان رايات الأمير خفير
ولما انجلى ليل العجاجة عنهم	بدا فيه رقرق الدماء يemor
ففي كل صدر منهم وخز عامل	وفي كل شلو للحسان جفير
أشار عليهم بالهودة حازم	لرأي رآه لو يطاع قصير

(سعيد أعراب: ظهائر سلطانية لحراسة الشواطئ المغربية، دعوة الحق عدد 268 - مارس 1988).

(2) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الثامن من الاستقصا للناصرى. ولم يعتن - المولى محمد بن عبدالله بالشؤون البحرية والعسكرية وتجهيز الموانئ المغربية بالمعدات العسكرية لزنه كان من أكبر القادة العسكريين في عصره - فقط، بل لأنه كان في حالة حرب ضد الإسبان، وكان كل من المغرب وإسبانيا يحتفظان بعدد كبير من الأسرى، وكان الإسبان يعاملون الأسرى المغاربة بقسوة كبيرة مما حمل السلطان على إرسال سفارة إلى مدريد برئاسة أحمد بن المهدي الغزال. ولما عاد السفير من سفارته ورحلته كتب «رحلة» سماها «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد». ومما جاء في مطلعها: «الحمد لله الذي فرض الجهاد وسنه، واشترى به من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، نحمد سبحانه وتعالى حمد من جاهد في الله حق جهاده.. أما بعد، فإن روح الجهاد ونفسه ومعناه المعبر، وحسه وجود الخلفاء والأئمة للقيام بشؤونه وما يتعلق بأموره المهمة مع ما يجب عليهم من الاهتمام بمباشرة الأئمة، فيتأملون أموره بذهن ثاقب، ويستعملون الفكر فيما يعد بالنفع على المؤمنين في الحال والعواقب، يتعرضون لنفحات الله بجهاد أعداء الله والرفق بعبادة وأن من اختص بهذه المنفعة العظيمة من ملوك الإسلام وجاوز الحد في استعمال البعض والكل في الجهاد وما يتعلق بأموره باعتناء واهتمام إمام جزعت مدن الكفر لسلطورته وفزعت سفن المردة لعظمته وقوته.. مولانا المنصور بالله المجاهد في سبيل الله أبو عبدالله السلطان الأعظم مولانا محمد بن مولانا عبدالله خلد الله نصره لم يزل مستعيناً بالله على ما خوله وأولاده من النظر في أمور عباد الله والسعي في جهاد أعداء الله، فكان رحيماً بالمؤمنين، فظاً غليظاً على أعداء الله الكافرين. جد أيده الله في تهيب المراكب للجهاد.. وخص عساكره المؤيدة بالله على حضور المنية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا..» (الغزال: نتيجة الاجتهاد، ص 8 و 33 - 34).

ولما كان له من همة في الجهاد عالية، فقد كان يبعث برسله حاملين الهدايا والإعلانات المالية لعدد من الأقطار الإسلامية وقادة المسلمين، مساعدة لهم على حرب «الكفار» وتدعيمًا منه لمبدأ الجهاد المقدس في الإسلام⁽¹⁾.

ومن الفتوحات التي حققها المولى محمد بن عبدالله إبان حكمه، انتصاره على ثورة طائفة من أهل الريف، ولقد أنشد ابن الونان قصيدة يهنئ فيها السلطان بفوز رجال جيشه على «المرتدين» ويهجوهم هجاءً مرًا قائلًا:

سعد الذي أدى لظلك طائعًا
وسعى لخدمتك السعيدة وابتدر
لم يشق إلا خائنٌ متمردٌ
نبذ الأمانة والشرعية مذخر
كبغاة أهل الريف لا قرّت بهم
عينٌ ولا أسقى بلادهم المطر
فلقوا جزاءهم على يد الإلام المجاهد:
ضلوا عن النهج السوي ببغيهم
فسطا بهم سيفُ الإمام وما ائتمز
ألقى عليهم من صواعق بنبه
ما كان يمحو العين منهم والأثر
ظهرت بقتلهم البلاد من الأذى
ولكم بهم من كان فيهم من قدر⁽²⁾

ولمّا ألقى المولى محمد بن عبدالله القبض على صالح الثائر المشهور بأكادير، وألقاه في السجن مدحورًا، نظم أحمد بن عبدالله المامسجيني قصيدة مطلعها:

(1) د. علي أبو لعيك: «جهود سيدي محمد بن عبدالله العلوي في ميدان التحرير والإصلاح»، الجامعة الشتوية - الكتاب الأول - ص 302.
(2) أحمد الناصري: زهرة الأفنان، م. خ. ع، ص 312. ولابن الونان قصيدة أخرى في فتح البريجة أشار إليها الناصري في زهرة الأفنان دون إثباتها (ص 312).

إن السعادة ألحفتك برودها
وثننت إليك قريبها وبعيدها
زفت إليك النصر هذا اليوم واتخذ
— بذت نهار اليوم بشرا عيدها
الله أكبر قد أتيت مظفراً
أي البلاد ترى ترى مسعودها
ثم يتحدث الناظم في قصيدته عن الفتنة التي أذكى أوارها «الأوباش المارقون»:
كنا من الأوباش وسط مراجلٍ
فارت يوالي المارقون وقودها
يا طاماً رقع البغاة مراتع البـ
غى البيدة لو تكون مبيدها
إلى أن:

زأرت أسودُ الحق فوق نقادها
فرأت مخالف لا تطيق أسودها
فهناك ألفى طالع لا صالح
من كان من فئة البلاء عنيدها
لكن سيوفَ الحق تأمل أن تفي
بعهودها كيما تصون عهودها
ثم يخاطب الناظم ممدوحه طالباً منه أن يقطع دابر أهل الفتنة والضلالة:
هذي البلاد ولا أزيدُ لسيدي
علمًا بها قد رازها وحدودها
تبغي يدا عراكة كي تستر
دُ السبيل رؤوسها وعبيدها

فالرأي أن ترقى الجنود إليهم
ويد الصباح كما تمدّ بنودها
فتصول فيهم صولة هزاة
فتطيرُ زيغ قلوبهم وكنودها⁽¹⁾

ولما توفي المولى محمد بن عبدالله اضطربت الأمور من جديد وخلفه المولى يزيد باني القلاع، فعزم على استئناف القتال ضد الإسبان، وهب لمحاصرة سبتة، وتوافدت عليه أفواج المتطوعين برسم الجهاد. وعند وفاته خلفه الملك العادل والعالم الأديب أبو الربيع المولى سليمان سنة 1206هـ، الذي لم يكن موفقاً في استتباب الأمن في البلاد خصومه الأقوياء، فقد قضى سنين عديدة في عراك مستمر لاستئصالهم والقضاء على جرثومتهم⁽²⁾.

فلما غادر فاس إلى مراكش، قامت فتن بها وأصبحت المدينة فريسة للنهب من طرف قبائل البربر والعرب والودايا، فتصدى لمحاربتهم. فقال أبو عبدالله محمد ابن إدريس المراوي من قصيدة طويلة:

بسليمان قد سلمنا وسدنا⁽³⁾
فالعلى منزل له والعلاء

-
- (1) المختار السوسي سوس العالمة، ص 86 - 87 (دون ذكر للمصدر الأصلي).
(2) تمت بيعة هذا السلطان في خضم من الانقسامات الحادة بين الأمراء العلويين، واجه في عهد سلطنته كثيراً من الثورات والاضطرابات في الشمال والجنوب وفي الأطلس، وفي عصره تم الاتفاق على حل أسطوله الجهادي، وقد شجع المولى سليمان الدراسات الفقهية وبناء المساجد في مختلف أنحاء البلاد.
(3) ولد أبو عبدالله محمد بن إدريس العمرابي بفاس سنة 1209هـ، ونشأ بها. كان كاتباً للمولى عبدالرحمن عندما كان خليفة لعمه مولاي سليمان، ثم صار وزيراً له بعد توليه الملك. كان له دور كبير في الدولة المغربية بعد احتلال الجزائر، وعند موقعة إسلي ترك ديواناً شعرياً حافلاً بشعر الجهاد. توفي بعد هزيمة إسلي بمرض الطاعون سنة 1264هـ الموافق 1847م. (انظر محمد الأخضر: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 409)، وعبدالله كنون: الوزير ابن إدريس - ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 3، والدراسة التي قام بها السيد التهامي شهيد عن ديوانه لنيل دبلوم الدراسات العليا (بكلية الآداب بالرباط سنة 1985م).

يشجعه على محاربة هؤلاء المارقين من العرب والبرابرة والودايا الذين وصفهم بقوله:

وغدا بإقامة الدين في الغر
ب غريباً أنصاره الغرباء
لم يجد في البرابر الغلف برّاً
فشأنه البر في البرا والبراء
وكذا العربُ أعربوا عن مساوٍ
فَهُمْ في سوء الخروج سواء
والودايا أتوا بأدواءٍ عيبٍ
داؤُهُم ما له الزمان دواء
قتلوا سلبوا وخافوا وحافوا
ما ثنّاهم عن القبيح ثناء
ويذكر شاعرنا أن الملك لم يألُ جهداً في الجهاد فيهم، بعدما خانوا ذمة
الإسلام واعتدوا على يهود يعيشون في كنف الإمام، وقتلوا وسلبوا ونهبوا..
نلتَ رشداً برشداهم وجهاداً
فأبى منهم الرشاد إباءً
وإذا خذل الإله أناساً
من محياهم يزولُ الحياء
ويطلب منهم أن يبعدهم عنه ويتخذ حليفاً له العبيد الذين يرعون ذمة الله:
فعبيد الإله خيرُ عبيدٍ
قد كفى منهم الإمام كفاءً
فاتخذهم مواليا وجنوداً
واصطفاهم فإنهم أصفياء

قد أصاب الأعادي منهم عذابٌ
ودهى منهم الدهاءُ دهاء
(وإذا سخر الإله أناساً
لسعيدٍ فإنهم سعداء)⁽¹⁾

وقد استطاع السلطان العلوي أن يفل شوكة آيت يَمور من البرابرة، وسوس، وزعير من الأعراب ويرغمهم على الدخول في طاعته، حتى «جاءت راغمة الأنوف ملقية السيوف»، فلا قبيلة طغت منها إلا ونالها مكروه، وأحاط بها سيفه واحتوى عليها قهره، فتقبل خائفة مشفقة على نفسها، طائعة مذعنة طالبة العفو والنجاة، فيعاملها بالعفو والصفح عما سلفت من جنايتها، ولم يواخذها بما اقترفت أيديها. ويعبر عن هذا السيد حمدون بن الحاج السلمي المرداسي⁽²⁾ في قصيدة له أنشأها للمولى سليمان عند ختم كتاب البخاري وكان متجهاً للحرب:

وهو حشر لمن طغوا في بلادي
لسعير وبيس عقبى الدار
فيسصلون بالسيوف سعيراً
هي بيض تكسوهم باحمرار

(1) محمد العمراوي: الديوان. م. خ. ع، ص 15 - 16، والتهامي شهيد: ديوان العمراوي، ص 413 - 415. الناصري: الاستقصا، ج 8، ص 144 - 145، والبيت الأخير هو من همزية البوصيري المشهورة، (ديوان البوصيري ص 51، ت: محمد كيلاني 1973).

(2) ولد أبو الفيض حمدون بن الحاج بفاس سنة 1174هـ، نشأ بها ودرس بجامعة القرويين، اختاره المولى محمد بن عبدالله لتعليم ابنه المولى سليمان لتفوقه في مختلف العلوم، ولما تولى المولى سليمان الملك قربه وأصبح من علماء دولته المبرزين ومن شعرائه المقربين، تولى بعض المهام المخزنية كالحسبة ثم تولى تدريس الحديث بجامعة القرويين، تخرج عليه كثير من العلماء أبرزهم الوزير بن إدريس العمراوي، وذكر محمد المنوني أنه كان يتزعم نشر «الأفكار الوهابية» بالمغرب، فكانت دروسه الحديثية بالقرويين معركة مستمرة ضد البدع والأهواء (كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، دعوة الحق، مارس 1966). توفي بفاس سنة 1232هـ، ترك ديواناً شعرياً: «النوافح الغالية في الأمداح السلিমانيّة»، وعدة مقامات ورسالات. (انظر أحمد العراقي: النوافح الغالية في الأمداح السلیمانيّة، - دراسة وتحقيق - رسالة دبلوم الدراسات العليا في الآداب بكلية الآداب بفاس 1981) ص 43 وما بعدها.

هي زمهريرٌ ولكن إذا شُبِّ
بَتَّ حروبٌ عادت وقودًا لنار
محركاتٍ لقلبٍ كلِّ ظُلومٍ
من عتاةٍ عتوا عتوقدًا
فقد طفقت مسحًا بسوقٍ وأعنا
قٍ لهم إذ ألُهو عن الأذكار
أخرون مقرنون بأصفا
دٍ كستهم ثياب خزي وعار
ولبست بُردَ السماحة والصفح
الجميل ولا فضل للأبرار⁽¹⁾

وقد وصف المرداسي أيضًا جيش المجاهدين الذي يرد المولى سليمان به كيد
الأعداء، في قصيدة يجيب بها قاضي دمنات لما استهزى السلطان لقدمه إلى
مراكش وسوس للاطلاع على أحوال الرعية السيئة:
يا من ينادي بسوس يستغيثُ به
فما يهيش له قس وسحبانُ
هاهٍ من تناديه مقبلٌ عليك على
ما ناله من عظيمِ القدر عنوان
في عصبيةٍ من جيوشه إذا طلعا
فإنهم هم أسادٌ وغزلان
تختالُ زهوًا بهم أعطافها وإذا
علوا هضابًا عليها فهي عقبان

(1) بلحاج السلمي المرداسي: ديوان النوافح الغالية: م. خ. ع، ص 38. ديوان النوافح، ت: أحمد العراقي
ص 187.

يرمي بموجٍ من الأبطال ملتطمٌ
كأنهم في ظهور الخيل كثنابٌ
وفي يديهم بيضٌ نارها اشتعلت
من لا يدينُ إليها فهو قربان
وسمر اضطربت شوقاً إلى شرب دم
كأن لها بحشا الأعداء خلجان⁽¹⁾

ويعطينا الشاعر سليمان بن محمد الشفشاوني المشهور «بالحوات»⁽²⁾، صورة
ناطقة عن بلاء هذه الكتائب السلিমانية في حركاتها الجهادية ضد «المرتدين

(1) المصدر السابق ص 89 - 90. ديوان النوافح، ت: العراقي ص 248. ويوجد بهذا الديوان أيضاً
قصيدة في مدح المولى سليمان وذكر خصاله العسكرية، عارض بها صاحبه قصيدة المتنبي السينية
التي مدح بها محمد بن زريق مطلعها:

حادى به الحادي فهاج العيسا وأطار قلباً كطائر عيسى
إلى أن يقول:

ساس البلاد بسيرة عمرية وأنار شرقي البلاد وسوسا
ديوان النوافح، ت: العراقي، ص 273، 274 (نسخة م. خ. ح رقم 222 ص 97 - 99). كما يشمل
الديوان على قصيدة أخرى عارض بها صاحبه «رائية ابن عمار» الطالعة في سماء الأدب مطلع
الشموس والأقمار، مطلعها:

أدر الزجاجاة فالنسيم نفى الكرا واهتز يرشف راح ظل أسكرا
ومنها:

والرمح في كفيه مهتز إلى رشف الطلى مما طفا وتجبرا
يا صابغاً من أحمر وأسود بيضاً وسمراً من حديد أخضرا
شام ابن ذي يزن بغمده منسياً كسرى وقيصر والهمام المنذرا
لم يبق للعبيسي والأوسي أن يقدم وأن يفخر بيوم مفخرا
(المصدر السابق، ص 130 - 132)، ديوان النوافح، ت: العراقي، ص 313 - 314.
ويقول شاعرنا في مطلع قصيدة أخرى:

أدر الزجاجاة فالنسيم قد انبرا وجلى إلينا من شدهاء العنبرا
(ص 134) وفي مطلع قصيدة رائية رابعة لما جاءت المولى سليمان عرب تادلة وأحوازها مبايعة:
جاء نصر الله والفتح الذي نضر الله به وجه الورى
(ص 62 - 63) (ديوان النوافح، ت: العراقي، ص 318 و227).

(2) هو أبو الربيع سليمان بن محمد الحوات الشفشاوني، ينتمي للقطب مولاي عبدالسلام بن مشيش.
ولد بشفشاون سنة 1160هـ ثم انتقل إلى فاس واستقر بها، كرس حياته للتدريس والتأليف، وتوفي

العصاة»، في قصيدة يبرز فيها كيف تنهزم جيوش الباطل من شدة الخوف والهلع أمام جيوش الحق والنظام:

حاق العذابُ «بأخبث البرابر» من
أسوأ ما اقترفوا بغياً وطغيانا
أقبح بهم تركوا دين الهدى هملاً
وشرعوا دونه للبغي أديانا
حلَّت بهم من جنود الملك صاعقةٌ
وأرسلت شهباً تشوِّظُ نيرانا
فأهلكتهم وقد كانوا ذوي عددٍ
في عددٍ لم يكد يحصى حسابنا
نادى هلموا إلى الجهاد فامتألتُ
أباطحُ الأرض رجلاً وركبانا
على عتاقٍ من الخيل مسومةً
كالريح تركض بالبروق فرسانا
لم يجتمع مثلها لغيرك أبداً
سوى النبي سميهِ سليمانا

سنة 1231هـ، كما نبغ في نظم الشعر وهو ابن عشرين سنة، اتصل بسيدي محمد بن عبدالله ومدحه، كما كان له اتصال متين بالمولى سليمان، وكان - مع حمدون بن الحاج - في طليعة الشعراء الذين مدحوه وخلدوا مآثره، فقلده خطة نقابة الأشراف بفاس. له ديوان شعر: «الأمداح السلিমانيّة»، وترك عدة مرثي وتقايد ورسائل عديدة. كتب عدة مصنفات للتعريف بمشاهير أبناء البيوتات العلمية، أهمها: «البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية»، وهو مصدر أدبي هام. و«الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة». وللحوات كتاب آخر اسمه: «أجوبة سليمان الحوات» (م. خ. ح. 12126) أورد فيه خطبته المشهورة في الجهاد، منها: «أيها الناس إن الله تعالى فرض الجهاد على المسلمين وحضهم على الاستعداد له إرهاباً بأعداء الله الكافرين، فاستمعوا لأمر الله فيكم واتصلوا لعلكم ترحمون...». ترجم له صاحب السلوة وصاحب الدرر البهية. (انظر مؤرخو الشرفاء ص 241 - 243، والقسم الأول من أطروحة عبدالحق الحيمر عن «شعر الأمداح السلیمانيّة»).

أما قتال المحاربين أعظم من
قتال من لم يزل يعبد أوثانا
فريثما سمع الأعداء قوتهم
رأيت أرواحهم فارقن أبدانا
وحكموا السيف في رقابهم
فجرت أودية بدم يفيض غدراناً⁽¹⁾
ويصف شاعرنا ما فعله المولى سليمان على رأس «عصبة جيوشه»، لما خرج
للفتح ببلاد الحياينة بعدما «بطش ببرابرة آيت يemor» بقوله:
لاحت نجوم من الإسعاد في فلك
يدور بالنصر والتمكين والظفر
وانقض منها شهاب البطش في زمر
أقبخ بهم دون خلق الله من زمر
أتى سليمان أرضهم وعسكره
لم يتفق جمعه للغير في القدر
إلى أن يقول بعد أن وصف هلاكهم:
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
والبوم يندبهم بالويل في الأثر
دارت عليهم من الأبطال دائرة
بالسوء من حيث لا يلفون من وزر

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، م. خ. ع، ص 201 وما بعدها. نظم الشاعر هذه القصيدة
لما غزا ممدوحه قبيلتي كروان وآيت ومالو وانتصر عليهما، مطلعها:
هذا هو الفتح ما لا تسمعون به من الفتوحات أزماناً فأزماناً

فاستأصلوا جمعهم بالقتل أونةً
 والسبي أخرى وكم لله من ضرر
 حتى اكتسى الجؤ ثوب حمرةٍ بدمٍ
 من نحرهم في صباح الصارم الذكر
 ثم يتوجه للحيانية يخاطبهم شاتماً وهاجياً:
 حل البلاء بهم من كل ناحيةٍ
 وعاد ذنبهم ليس بمغتفر
 تعساً لهم ولرأيهم ما فعلوا
 والجهل يعمي الحجا عن أوجه الحذر
 ويعلق الحوات على هذه الواقعة بقوله:
 فهذه وقعةٌ شنعاء يفرُّ لها
 كلُّ عدوٍ فرارَ الخائف الحذر
 سارت بأخبارها الركبانُ مرهبةً
 في كل قطرٍ تجدُّ السير في السفر
 ثم يختم قصيدته مادحاً الجيوش السليمانية بقوله:
 لكم جيوشٌ من الأبطال طائفةً
 ترمي العدا نارها في الحرب بالشرر
 جمعتها جمعٌ صحيحٍ وقمت بها
 في وسط فحكيتم هالة القمر⁽¹⁾

وينشد الحوات قصيدة مماثلة في تهنئة المولى سليمان بفتح بلاد تامسنا بعدما دارت على أهلها الدائرة، وقد صفا الجو بالمغرب وأصبح في دعةٍ واطمئنان منها:

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، ص 9 - 11. وتوجد هذه القصيدة أيضاً في مجموع ضم بعض أشعار الحوات، م. خ. ح (12496).

والثَّائِرُونَ وَإِنْ شَبَّتْ لَثَوْرَتَهُمْ
نَارٌ مِنَ الْبَغْيِ تَرْمِي الْحَقَّ بِالْشَّرِّ
أَطْفَأَهَا سَعْدُهُ فِي الْحَالِ وَانْتَكَصُوا
وَمَا لَهُمْ كَالْفِرَارِ قِطٌّ مِنْ وَزْرِ
اللَّهِ نَاصِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهَتِهِ
مَهْمَا تَوَجَّهَ لَا يَبْقَى وَلَمْ يَذَرِ
فَهَذِهِ أَرْضُ تَامَسْنَا بِهَا عَدَدٌ
وَعَدَدٌ أُخِذُوا كَالطَّيْرِ فِي الْوَكْرِ
دَارَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَبْطَالِ دَائِرَةٌ
بِالسَّوَاءِ فِي الْوَجْهَتَيْنِ: الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ
حَتَّى أَنْابُوا إِلَى اللَّهِ وَلَمْ يَجِدُوا
لِغَيْرِهِ مَهْرَبًا مِنْ سَائِرِ الضَّرَرِ
فَأَصْبَحَ الْمَغْرِبُ الْمَيْمُونُ فِي دَعَا
وَوَقْتَهُ كُلَّهُ صَفْوٌ بِلَا كَدَرٍ⁽¹⁾
وبعد ما قام المولى سليمان بحركة ضد ابن مطير بجيش لجب:
(فقام الجيشُ حلتهم بسفحٍ
يخبر أن معظمهم سرابٌ)
تخوضُ بها الفجاءُ على عجاجٍ
بأسلحةٍ تصيبُ ولا تصابُ
إلى أن أنشبو ببني مطيرٍ
عشيةً يومٍ حاق به العذاب

(1) المصدر السابق، ص 22.

ففرت في تنائف من جبال
وقد ضاقت بقتلاها الشعاب
«ومن في كَفِّه منهم حسامٌ
كمن في نحره منهم سخاب»

فتحقق الفتح:

فكم ملكٌ له فتحٌ ولكن
سليمانٌ له الفتح العجَاب⁽¹⁾

اتجه إلى الريف والشمال المغربي للقضاء على فلول «المشغبين وأرباب
الفتنة والخراب» الذين تعاملوا مع النصارى، محرّضاً من طرف شاعره «الحوات»
لمهاجمتهم في شهر رمضان ولكي يختم صيامه بالجهاد في سبيل الله حتى يأخذ
للدين ثأره:

واختم صيامك بالجهاد لمعشرٍ
فالريف باعوا جنّةً بالنار
نقضوا عهد الدين نقضَ خيانةٍ
فجهادهم أولى من الكفار
وانهض لهم بقوةٍ علويةٍ
أخذاً لدين المصطفى بالثأر

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، ص 23.

هذه القصيدة مطلعها:

فكم راع به عبث الذئباب	وكم أسد عليه ضرا الكلاب
فكن متقلداً الحسام حزم	وعزم لا يفل له ذباب
ودونك من مواضيه رماحاً	تشير النصر حيث لا سحاب

وهي مقتطفة من قصيدة أبي الطيب المتنبّي (عن الأمر المولوي) التي مدح بها سيف الدولة حين ظفر
ببني كلاب، مطلعها:

بغيرك راعياً عبث الذئباب	وبغيرك صارماً ثلم الضراب

(انظر: ديوان المتنبّي - شرح العكبري 75/1، والحيمر «شعر الأمداح السلیمانیة»، ق: 2، ص 23).

واجمع عليهم كل جندي راجل
يقوى على الإقدام في الأوعار
من كل ليث في الحروب إذا بدا
صارت عداه قصيرة الأعمار
وعساكر الفرسان أيضاً خلفه
سيفاً لمن يفر حين فرار⁽¹⁾

ولما خاض المولى سليمان معركة ضد هؤلاء الريفيين وأعراب أنكاد وانتصر
عليهم، نظم الحوات قصيدة في وصف هذه المعركة:
الحلم غرّ أولئك الذين عثوا
والحلم يوقع في الفساد أحيانا
لكن إذا سل سيف العزم عن مدد
رأيت في صفقة العثو خسرانا
ولما فتك بهم الجيش السليمانى رغم فرارهم:
ظنوا الجبال التي فروا بقنتها
تمنعهم من عزائم سليمانا
كلا أليس كلمح الطرف حاصرهم
فيها بعسكره خيلاً ورجلانا
واقترحوهم سباقاً في معاقلهم
ولم تكن قبل للفرسان ميدانا

يذكرهم الشاعر بما أصاب أمثالهم من بني ورياغل وأهل الزاب من قبل
الجيش السليمانى ويتساءل عن مصيرهم:

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، ص 95 - 96، هذه الأبيات هي من قصيدة نظمها الحوات
في مدح المولى سليمان بمناسبة ختم البخاري - على عادته في كل شهر رمضان - وتهنئته بعيد
الفطر، وحته على محاربة المتعاونين مع النصارى من أهل الريف.

أين الذين تنمروا بغابتهم
وأكثرُوا السعي بالفساد والطغيان
قد أضرموا بينهم للحرب نائرةً
لا مثل ما كان في سعدٍ وغسانا
ولولا صفح الإمام عنهم:
ولولا الإمام عفا عنهم وأصلح لم
تُبْقِ العساكر منهم قطُ إنسانا
ثم يتخلص الشاعر للحديث عن بطولة عساكر المولى سليمان في ميدان الوغى:
عساكرٌ رفعتُ بالملك رايتها
لنصرة الدين أحرارًا ووصفانا
قاموا بأمر أمير المؤمنين على
ساقٍ من الحرب مطعانا بمطعانا
على جياذٍ من الخيول صافيةٍ
تحسبها في مجال السبق عقبانا
فكيف إذا لا يرهبه الأعداء وأهل الشر والفتن والدمار، وهو يخاف الله؟
فكيف لا ترهب الأبطال صولته
لأنه لم يخف إنسًا ولا جانا
خاف من الله خوف المتقين له
فخافه الخلقُ: سوقةً وسلطانا
ثم يتوجه بالخطاب إلى ممدوحه:
يا من شجاعته وبذلُ راحته
تحیی وتقتل إرهابًا وإحسانا

جَبَّتْ الرعية في إصلاح فاسدها
من باب مراکش إلى تلمسانا
وَأَلْ ما بينهم من الحروب إلى
صلح كما آل في عبسٍ وذياناً⁽¹⁾
ويقول من قصيدة أخرى يهجو فيها «بربر الريف» بعدما تحالفوا مع النصاري
المحتلين لشواطئهم، وباعو لهم زرعهم وماشيتهم حسب ما ورد في قصيدة:
كانوا يبيعون دينهم على طمعٍ
وذاك لا يُرتضى في سائر المللِ
سحقاً لهم وخسارةً لما ربّحوا
إنّ الذي ارتكبوا من أعظم الزللِ
ما كان أضعفهم في الدين مذ زمنٍ
لم يعبدوا ربهم إلا على ثقل
فلما أتاهم أمير المؤمنين - الذي ملكه الله أمر هذا الخلق.. وحشر لهم جنوده
وعساكره من كل «سباقة على موسمة» وكل «رجاله كأنهم أسد»:
يا ويلهم نزلت بهم عساكرٌ من
مَلَكُةِ الله أمر الخلق في الأزلِ
فضاقتِ الأرضُ كلّها بما رحبتُ
حقاً عليهم لفرط الروع والوجل
ورايةُ النصر والتمكين تخفقُ في
تلك السواحل فوق الملك البطل
وحاصرتهم جنودٌ في معاقلهم
ترمي بأحضائهم بنادق الشعل

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، ص 27 - 29.

ثم يدعو عليهم شاعرنا بالويل والثبور:
حق العذاب عليهم أين ما ذهبوا
وليس ينجو الذي يرعى مع الهمل
ذلّوا وبانوا ولا عزّ لهم أبداً
إلا إذا أسلموا لله في العمل⁽¹⁾

ولما انتصرت الجيوش السليمانية على الذين عاثوا فساداً في حوز تطوان، نظم
أحد شعرائه قصيدة يهنئ المولى سليمان بهذا النصر الجديد الذي أحرزه على أهل
الجبيل بالشمال المغربي، وهو مجرد لسيف عدالته وقائد لليوث الوغى من أجناده:

وجدتَ سعيِرَ الظلم عمّ دخانه
بإقليمنا في نجد أرض وفي الغورِ
فجردت سيف العدل من بطنِ غمده
فأطفأته في الحين عزماً على الفور
جلبتَ جيوشاً كالسيول كثيرةً
تردّ على الأعقاب من كان في الصدر
فهم كالليوث العاديات لدى الوغى
وأعداؤهم مثل الذياب على جدر
وبذلك طهر السلطان البلاد من الظالمين الطغاة وقطع دابرهم:
غسلتَ وطهّرتَ البلاد بأسرها
من الظالمين العاكفين على الجورِ
أذقتهم كأس العقوبة منزعاً
فهم من أليم الرعبِ سكرى بلا خمر

(1) الحوات: قصائد في مدح المولى سليمان، ص 140 - 142.

تركتهم صرعى خلال ديارهم
كأنهم أعجازٌ نخلٍ بلا صدر
وكان ذلك جزاؤهم ومصيرهم المحتوم:
قضى الله بالخذلانِ حتماً لمن طغى
وبالنصر للسلطان ذي النهي والأمر
لقد زعموا جهلاً بأن الإله لا
يعاتبهم قطعاً على ذلك المكر
وقد جهلوا ما في العقود مبيئاً
لمن حارب المولى وأعرض عن ذكر⁽¹⁾

وعندما بعث المولى سليمان أخاه المولى الطيب إلى الجبل لضبط الأمور أنشد
الشاعر حمدون المرداسي لاميته أشاد فيها بحنكة المولى سليمان وشغفه في الطعن
في «مناوئيه» حتى لم يستطيعوا المجازفة بأنفسهم في حرب ضروس معه:
أزمانهم سعدت فيه كما سعدت
أزماننا بسليمان ابنه البطل
لضربِ والطعن في العدا يميلُ كما
يميلُ صبُّ لضمِّ القدِّ والقبل
خرصانه في عواليه مبنيةٌ
عاداتُ آبائه النيران في القل
وإن تناءى عدوُّ قال رمحه في
طويلي الوصول فحل السيف في الخل

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان، المجلد 3، ص 200 - 201 (نقلاً عن مخطوط بالخرانة السودية) بفاس.
ويظن الفقيه المؤرخ محمد داوود أن ناظم هذه القصيدة هو الشاعر عبدالقادر المنوني (٥).

وإن تقاربَ قال السيفُ في يده
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

ثم يخاطب ممدوحه مشيراً إلى المعركة التي صالت فيها جيوشه في الجبل:
يا بادياً سيف الدولة وحاميتها

ما قاله المتنبي فيك لم يحل
أرسلت جيوشاً عليهم تؤزهم
أزاً كما ترسل البازي على جبل

ثم يدعو الشاعر للسلطان بالوقاية من شر الطغاة:

كفأك شرَّ الطغاة في البلاد فدمُ

في ظل أمنٍ ظليلٍ غير منتقل⁽¹⁾

وخاض المولى سليمان معركة في الصحراء ضد برابرة آيت عطة وعرب
الصباح⁽²⁾، فأنشد الحوات قصيدة أشاد فيها ببلاء كتائب المولى سليمان (فرسان

(1) أبو الفيض حمدون المرداسي: النوافح الغالية، م. خ. ح (222) ص 82 وما بعدها وهي من أشهر
مولدياته، انظر كذلك: «ديوان النوافح»، ت: العراقي ص 254 وما بعدها. ومحمد المنتصر الريسوني:
«المولى سليمان بين شعراء عصره» - مجلة دعوة الحق، عدد 3، ص: 14، ص 185 - 187.

(2) يقول أبو القاسم الزياتي في هذه المعركة من قصيدة له مبرزاً دور المولى سليمان فيها:

من بد شمل بني عطا وقدهم قتلاً وأسراً وللحصون قد خربا
أجلاهم عن أمم كانت لهم خولا وجورهم لحق البربر والعربا

(الزياتي: البستان الطريف، م. خ. ح (11542) ص 357).

وأورد محمد بن موسى بن ناصر في كناشته (م. خ. ح. 12029) بدون ترقيم قصيدة لم يثبت اسم
صاحبها وهي في نفس الموضوع:

وجهز نحوهم جيشاً حفيلاً تقدمه ابنه البطل الرزينا
فجاءتهم جموع الحق تترا كتائبٌ كالجبال السائرينا
فلم يك ساعة حتى تولوا على الأعقاب خسرى خاسرينا
تفرق شملهم من بعد جمع وصاروا نهباً للنهابينا

كما أورد بن ناصر في كناشته قصيدة أخرى نسبها لأبي عبدالله محمد ابن يوسف الأستوري الدرعي
يحض أهل درعة على محاربة عرب الصباح:

يا أهل درعة لا تعبئوا بجمعهم فالله ناصر كمسرا وإعلانا
ثم يوجه الخطاب للمولى سليمان:

السباق وعصابات رجالة) التي لبث نداء الجهاد:
 لبوك إن ناديتهم (وأسرعوا)
 في السير إسراعاً لما تترقب
 ما قلت في قوم هلموا للوغي
 إلا أتوك فوق ما تتطلب
 ولما دخلوا المعركة بقيادته أدخلوا الرعب في صفوف الأعداء:
 وتحملوا سود الجعاب مكاحلا
 والجمر في أجوافها يتلهب
 وتقلدوا بيض الصفاح صوارماً
 كادت بأرواح الأعادي تذهب
 وارتاعت الصحراء وأقصى السوس من
 أبنائكم ومن الذي لا يرعب
 وفعلت في تلك الصحاري برهة
 ما لو رآه سكندر يتعجب
 ورجعت في يمن ويسر ظاهر
 والجيش خلفك غالب لا يغلب⁽¹⁾

جاهد بريك لا أبصر كمتكلا على أمرٍ ساحرٍ شيطان ميانا
 (المصدر السابق).

(1) الحوات: الأمداح السليمانية (م.خ.ع) ص 45 - 47.

للحوات - فيما ظهر من شعره - سبع عشرة قصيدة (من بينها ما سبق إثباته) نظمها بمناسبة غزو المولى سليمان لبعض القبائل البربرية «المتردة» على سلطانه أو الممتعة عن دفع فريضة الزكاة، وقد قال في حق هؤلاء البرابرة من قصيدة:

طالما أكثر البرابرة بغياً وعتوا وأفسدوا في البلاد
 أخذتهم عساكر الملك حتى تركتهم في مثل سبع شداد
 لو أرادهم أن يببّدوا لبادوا مثل ما باد قبلهم قوم عاد
 الأمداح السليمانية (م.خ.ع، ص 48 - 51).

ومن هذه القصائد أيضاً ما قاله لما حل السلطان ببلاد تادلا فاتحاً:

كما أشاد حمدون بلحاج بانتصار المولى سليمان على آيت عطا بقوله متأثراً
برائية أبي فراس الحمداني الشهيرة:

ملك له رعبٌ يسيرٌ بسيره
مسيرته ربحٌ رضاه أم البشرُ
ومنه أسودُ الغاب تنفض هيبه
«كما انتفض العصفورُ بلله انقطر»
وقد صبَّ من فوق جيوشٍ عليهمُ
ولم ينهجهم من بأسٍ وقعته وعر
وأظلمت الدنيا عليهم بأسرها
«وفي الليلة الظلماء يفترقُ البدر»
فدوقوا العذابَ اليومَ يا شرَّ بربرٍ

ففي مثل هذا اليوم لا كرٌّ لا قرٌّ⁽¹⁾

أيان سرت لك المقام الأكبر	وعليك ألوية السعادة تتشرُّ
تجني ثمار الفتح من ورق الوغى	وغصونها الجرد العتاق الضمر
حاشا للملك أن يقاس بغيره	بل دون ملكك تبعٌ أو قيصر
فلكل ليثٍ من كماتك صولةٌ	وبكل فجٍّ من جنودك عسكر
فاقذف بعقبان الجيوش على العدا	ومن العدا من ذنبه لا يغفر

(المصدر السابق ص 70 - 88).

وأخرى أنشدها لما انتصر المولى سليمان على قبائل الشاوية ودكالة وعيدة:

فحشرتُ لسليمان عساكرهُ	من كل شهم تهاب الأسد لقياءُ
فقام ينصر دين الله معتصماً	به ومن يعتصم بالله يرهأه
وصار يطفئ عزماً نار فتتهم	فحل من حيهم ما كان أقواه
هذا جزاء الذين أفسدوا وبغوا	وخالفوا أمر من نصره الله
وهذه عادة الله جرت معه	في فتحة كلما يعسر لولاه

(المصدر السابق، ص 217 - 222).

ويلاحظ أن الحوات لا يفتأ عن تكرير نفس المعاني في جل قصائده المدحية.

(1) مخطوطة بالخزانة الحسينية، مجهول اسم صاحبها، رقمها: 12401، ص 11.

وقال معارضاً قصيدة لسان الدين بن الخطيب في مدح أبي سالم إبراهيم المريني، وهي من نفس وزن
وقافية القصيدة المخطوطة وتتشابه أبياتها، منها: في صلابة وقوة جيوشه ضد الأعداء:

ولقد أمر السلطان المولى سليمان شاعره حمدون بلحاج، أن يبعث بقصيدة -
على لسانه - لأهل ثغر الجزائر يهنئهم فيها بانتصارهم على الكفار، معتبراً هذا
الفتح من الفتوحات المغربية التي تميز بها عهده، منها:

حمداً لمن نصر الإسلام فانتصرا
وبدّد الكفر والضلال فانتشرا
ثغرُ الجزائر أضحى اليوم مبتسماً
بالنصر والفتح مسروراً ومزدهراً
يومٌ عبوسٌ على العدو جمعهم
مكسر ووجوههم غدت دبراً
قمتُم أهيلَ جزائر قيام على
أصبحتم به في عصرٍ لكم غرراً
لا زال سهمكم في ثغرة لعدى
يعلو الثغوب به على الذي كفراً
إن لم أكن معكم بالذات مجتهداً
فإنني معكم بالروح منتصراً
وقد قرأنا بخاريا لنصركم

وهو البخاري لما القاري قراه⁽¹⁾

وتنتفض الآساد منه مهابةً	كما انتفض العصفورُ بلله القطر
هو البحر جوداً غير أنه إن سطا	تبين أن البحر مطعمه مُرٌ
أعاديده موتى والقبورُ سروجهم	لقارعة السيوف والأسل الحشر
ولا نصبٌ من فوق جيوش عليهم	كما انصب من جوعلى حجلة صقرٌ
وتُنشِب أظفارُ المنية فيهم	ولم يُنْجهم من بأس وقعته وعر
ولله جيشٌ من عبيد يجره	غرايب سود لا يصل له ظفر

(النوافح الغالية في الأمواج السليمانية، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 171 - 172،
الرباط 2000). (وانظر فصل شعر الجهاد في أشعار المديح).
(1) حمدون بلحاج السلمي المرداسي: ديوان النوافح الغالية، ص 282 - 284، ديوان النوافح الغالية، ت:
العراقي، ص 492 - 493.

ولما عاد المولى سليمان من الجنوب إلى الشمال وفتح مدينة فاس أشاد الشاعر محمد ابن إدريس العمراوي بهذا الفتح مرة أخرى، داعياً الله أن يديم نعمة الفتوحات على ملوك هذه البلاد الذين ينصرون دينه ويخذلون رؤوس الفتنة و«حاملي رايات المحنة»:

ناهيكَ من ملكٍ بالعدلِ مشتملٍ
بالله منتصرٍ بالحق قد نادى
يقاتلُ السعد عنه من يناصبه
فكم أباءَ خوارجًا ومُرَّادًا
عليه لله نشر الحق في سيرٍ
والله ينجده بالنصر إنجادًا
خليفةُ الله دُمَّ للدين تنصره
فقد أتاك إله العرش إسعادًا
أيقنتُ أنك في الأملاك منفردٌ
لما أقمتَ فتوح الأرضِ أشهادًا
وانعم بفتحٍ عزيزٍ جلَّ طالعه
عمت بشائره مصرًا وبغدادًا⁽¹⁾

وفي آخر ولاية المولى سليمان شغل أهل الودايا الفتن في «ملاح» اليهود بفاس العليا، إذ كلما وجدوا فرصة لإثارة الفتنة أثاروها على عاداتهم، فيسجنهم المولى سليمان ويوعدهم بالزجر. وقد دعا عليهم الشاعر محمد ابن أبي بكر بن عبدالكريم بن علي اليازغي في قصيدة له، منها:

يا غارةُ الله عهد الله ينتظرُ
إن الودايا لذاك العهد قد كسروا

(1) العمراوي: الديوان، ص 164، التهامي شهيد: ديوان العمراوي ص 455 - 456.

شنوا على ملة الإسلام غارتهم
وزمة المصطفى في أهلها خفروا
سبوا نساءهم من بعد ما سلبوا
ديارهم ولدور البغي قد عمروا
إلى أن قال:

يا أهل فاس سيروا بهم على مهل
ولا عليكم فإن الله ينتصر
تربصوا بهم السوء دائره
تأتي جماهم فلا تبقي ولا تذر
تصبها راحة المنصور فوقهم
فيصبحون وفي أخبارهم عبر⁽¹⁾

ولما توالى على المولى سليمان تعسفات القبائل الثائرة عليه⁽²⁾ ودسائس حاشيته،
اشتد مرضه وانتقل إلى عفو الله بعدما عاش مجاهدًا، مخلصًا لرسالته الجهادية⁽³⁾.

(1) ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 101.

وتوجد «بمجموعة قصائد شعرية» (مخطوطة بالخزانة الحسنية تحمل رقم 11067) همزية لابن إدريس بن الحاج الزموري هجا فيها أهل الودايا لما نهبوا حارة اليهود بفاس، وبدل النصح للمولى سليمان لاضطهادهم ومعاقبتهم.

كما نجد في نفس المخطوطة همزية أخرى لنفس الشاعر يهجو فيها البرابرة الثائرين وينعتهم بالسفهاء: نقضوا العهد وخالفوا الأمر والنهي ألا إنهم هم السفهاء (صفحات المخطوطة غير مرقمة).

(2) لأبي القاسم الزياني أرجوزة خاطب فيها المولى سليمان في أيام «الغوغة» بفاس، جمع فيها أسماء من ثاروا عليه أيام الفتن، مطلعها:

أحمد ربي والصلاة والسلام
على النبي راكب البراق
(مجموع مخطوط ب. خ. ج. 11474) - بدون ترقيم للصفحات.
(3) رثى الشاعر محمد بن العربي قصارة الملك الراحل بقوله:

عجباً لموت غاله إذ لم يخف	فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب	غضب الجنود وغيره الأعوان
لو كان ينفع خاض نيران الوغى	حرصاً عليه فوارس الشجعان

وبويع أبو زيد المولى عبدالرحمن بن هشام⁽¹⁾ ملكاً على المغرب بعد وفاة المولى سليمان سنة 1238هـ. ولم يكن يقل عن عمه فضلاً ودراية. فتقلد زمام الأمر وقام بأعباء الملك والحكم. وكان أول عمل قام به هو أن نهض من عاصمته فاس متجولاً في أنحاء المملكة متفقدًا لأحوال رعيته، ضارباً على أيدي الثائرين مستعملاً معهم سياسة البطش والشدّة⁽²⁾. وقد عبر عند ذلك شاعره أبو عبدالله محمد أكنسوس⁽³⁾ في قصيدة أنشدها لما نزل السلطان بفاس في بعض حركاته:

ولضاربوا من دونه من سامه	بظبا السيوف وعاصر المران
وحموه بالنفس النفيسة إنما	يحمون روح العدل والإيمان
لكن قضاء الله حم فلا يرى	للمرء في دفع القضاء يدان

(مخطوطة بالخزانة السوديّة بفاس ص 10).

وقد نسب المراكشي هذه القصيدة لمحمد بن إدريس الفاسي المتوفى سنة 1264هـ (الأعلام، ج 10، ص 109 - 110).

كما أسندها ابن تاويت لنفس الشاعر (الوافي، ج 3، ص 879) وفي آخر قصيدته يتخلص محمد ابن إدريس الفاسي إلى مدح الشرفاء العلويين:

تخذوا الديانة والصيانة شرعة	وتقلدوا بصوارم الإيقان
إن حاربوا أبدوا شجاعة جدهم	أو خاطبوا أزروا على سحبان

(1) ردع هذا السلطان جميع الحركات التي كانت تهدد الأوضاع الداخلية بالبلاد ووقف في وجه الغزو الاقتصادي الأوروبي، وعني بتسليح الجيش وتدريبه، ووقف بشموخ وثبات ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

(2) لما دخل السلطان المولى عبدالرحمن - فيما دخل - إلى مكناس بحضرة فاس، أنشد محمد بن إدريس الفاسي قائلاً:

زهت بقدموكم أرجاء فاس	ومشت للسعود بلا قياس
غزوتهم بأساد غضاب	على جرد كأعلام رواص
جاء الأعراب في حلل تبدت	كحنيس كل باغ منهم خاس
وسوف تبيدهم قتلاً وأسراً	وتفنيهم حتوفك باختلاس
عدوك لو تعلق بالثريا	لكان من الحماية ذو إياس

مجموع مخطوط ب. خ. ج (11532) (دون ترقيم لصفحاته).

(3) هو الكاتب الشاعر والعلامة المؤرخ، ولد سنة 1211هـ، ونشأ بسوس، وانتقل إلى فاس لطلب العلم، فبرع في صناعاتي النظم والإنشاء، وبهما وصل إلى رتبة الكتابة فالوزارة في أواخر عهد السلطان مولاي سليمان. ونكبه بالسجن مولاي عبدالرحمن بسعي من الوشاة، ثم استقر بمدينة مراكش حتى توفي سنة 1294هـ (1877م). خلف آثاراً نثرية وشعرية منها: كتابه «الجيش العرمم الخماسي في دولة أولد مولانا على السلجماسي» عن تاريخ الدولة العلوية من نشأتها إلى عهد سيدي محمد بن

هو الملكُ الجمجام ليس لمعتدٍ
سواه إذا دارت عليه الدوائرُ
هو السيدُ المرهوب يفلقُ بأسه
رواسي الأعادي لا تقيها المغافر
يسيرُ فتغشاهُ السعود مطيعةً
أماماً وخلفاً حيث ما هو سائر
وتخلف الرايات فوق كتائبٍ
لها النقع غابٍ والسيوف أظافر⁽¹⁾
وقال في عسكره ضمن تهنة له بالملك:
له العسكرُ الجرارُ تبرقُ في الوغى
صوارمُ منه والمدافع ترعدُ
يعد إلى الأعداء كل كتيبةٍ
من الرعد يحدوها الوشاح المسدد
وكل كمي كالغضنفر مغضباً
وكل صقيل وهو ماضٍ مجرد
يبيد العدا قبل اللقاء مهابةً
فصارمه يفري الطلى وهو مغمد⁽²⁾
وقال من قصيدة أخرى مشيداً بعساكره وليوثها:
وجالد عباد الصليب فاذعنوا
لعزته تحت الضراعة أعبدا

عبدالرحمن، (انظر عرضاً مفصلاً عن هذا الكتاب في «مؤرخو الشرفاء» (ص 136 - 145)، كما ترك ديواناً شعرياً. انظر: عبدالله كتون: أكنسوس - ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 4. (1) محمد أكنسوس: الجيش العرمم، ج 2، ص 24. (2) الناصري: الاستقصاء، ج 4، ص 211 - 213.

وعددٍ أمثالِ الأسودِ عساكرا
تخرلها الأسدُ الضراغم سجدا
وتحسبُ أنَّ الجو نارٌ تأججتُ
يضجُ لها باغي الفساد مشردا
وتخفقُ ريح النصر بين بنودها
على غرة المنصور أكرم من غدا
على الملك الجحجاح أبهى متوج
تبخرت واقتاد الخميس المجندا⁽¹⁾

وقال من قصيدة ثالثة في نفس الموضوع:
أعدَّ عدادًا للعدا بعساكرٍ
مسومةٍ ركبانٍ خيل ورجلانٍ
ليوث افتراس كلما زارتُ على
ديار أناسٍ زارها كل أحزانٍ
فوارسٌ تغتال النفوس كأنها
إذا أصبحت أرضًا عصائب عقبانٍ
إذا اضطربت في الجو قال هبوبها
ألا إنَّ نصرَ الله والفتحَ وافان⁽²⁾

وقد تحركت «حركة» السلطان في أول جولتها إلى الجنوب المغربي لقطع دابر المتمردين.
وقد أظهر الله أمره في هذه «الحركة»، وخصوصًا لما انتصر المولى عبدالرحمن
في حوز مراكش سنة 1239هـ، «وقد أسفرت وجوه اليمن عن جمالها وأطلعت بدور
السعد في بروج كمالها».

(1) أكنسوس: الجيش العرمرم، ج 2، ص 79.

(2) المصدر السابق: ص 90.

وقد تصدى لتهنئة المولى عبدالرحمن بانتصاره الكبير في حوز مراكش،
شاعر الدولة العلوية الوزير محمد بن إدريس الكبير العمراوي صاحب الموهبة
والشاعرية الفياضة - «لما كان منخرطاً في سلك كتابه وارتسم في ديوان خدامه
وحجابه» - في قصيدة رائعة⁽¹⁾ تحدث فيها عن غزوات السلطان «المحاكية لغزوات
الصحابة»، وجمع فيها من «أخبار جهاده عيوناً ومن مديحه فنوناً»، فيقول شاعرنا
- بعد أن عدد مفاخره ومناقبه -، متحدثاً عن اليوم الأغر الذي حقق الله له فيه
النصر «لحزب التقى على حزب الشقى»:

كم أظهر الله من عزٍ بدولته
للدين إن سامه الباغون وابتدروا
ورب يومٍ أغر قد نصرت به
منهاج جدك قد شاعت به البشر
بوقعة دوخت غرباً بموقعها
واهترز بالمشرق الأملاك واعتبروا
ويأتي الشاعر بوصف لانتهزام الأعداء المتمردين، وفرارهم أمام جيوش الله
الظافرة المنتصرة، وسقوطهم صرعى وكيف يحقق بهم المكر السيء:
دارت عليهم من الأسواء دائرة
وحاق مكرهم بهم لأن مكروا
فأصبحوا وقد أباد الله نعمتهم
وحلّ ساحتهم الأحداث والغير

(1) أطلق شاعرنا - الذي يعتبر حلقة وصل بين العهدين السعدي والعلوي، والذي ينتسب إليه «لو شئت أن
أتكلم شعراً لفعلت» - على قصيدته المطولة عدة أسماء: «الروض البسام ونتيجة السنان والحسام»،
«روضة النصر في آثار ملك العصر»، «حرز اليمن والأمان في أوصاف مولانا عبدالرحمن»، «الخريدة
الحسنة الوشام في مدائح مولانا عبدالرحمن بن هشام».
(عن مخطوط بالخزانة السوديّة بفاس، ص 36).

صرعى على الأرض قد حاق المحاق بهم
وقد كساهم ثياب الذلة العفر
قد قام فيهم خطيبُ السيف مفتخرًا
في منبر الراح والهيحاء تستعر
رأى الجيوش بهاء الأرواح ظامئة
فشمروا عن ذيول الحزم واتزروا
ولم يزالوا بهم حتى انثنوا هربًا
كأنهم في سباريت الفلا حمر
ولو كنت شاهدنا والحرب كاشفة
عن ساقها وجنود الله تنتصر
أبصرت بحرًا به الأبطال سابحة
كالموج في اللج لا تبقي ولا تذر
وسورة الفتح من بعد القتال أتت
والعاديات ضحى بالنصر تفتخر
ثم يتحدث شاعرنا عن بلاء الجيش العلوي وثباته في ساحة الوغى:
أبلى به الجيش والأعرابُ مثلهم
والبربرُ النصيح في الهيحاء تعبرُ
جندُ لعمرى أنصارُ «مهاجرة»
لكنهم لصفات اللؤم قد هجروا
لا يعرفون سوى الإقدام من خلق
وليس يعرفونهم في شدة خور
سعادة الملك المنصور قد ظهرت
بها الجيوش على الأعداء قد ظهوروا

وبعدما يعدد شاعرنا مناقب السلطان العلوي من كرم وعدل وحلم ورشد
وخلق وعلم، يشيد بوقائع السلطان وغزواته في أهل غياثة ودكالة وغيرهم:
كم من مشاهد بالتمكين شاهدةً
ومن مواقف فيها النصر ينتشرُ
ومن وقائع في الأعداء قد بهرتُ
سارت بصورتها الركبان والخبر
قد صاحبته مع الأيام أربعةٌ
الفتحُ والنصرُ والتمكينُ والظفر
قد أذكرتنا مغازيه التي اشتهرت
مغازيًا قصّها الأخبار والسير
وفي الختام يخاطب الشاعر ممدوحه ويحرضه على المضي في طريقه لنصرة
الدين وإعلاء كلمة الله:

قاتل بسعدك فالأيام مسعدةٌ
وامر بما شئت إن الدهر مؤتمرُ
وانصر بسيفك هذا الدين معتصماً
بالله فهو لأهل الحق ينتصر
ومن تكن في سبيل الله نهضته
يعنو له الصعب أو يسمو به الخطر⁽¹⁾

(1) محمد بن إدريس العماروي: الديوان، ص 244 - 247، التهامي شهيد: ديوان العماروي ص 495 - 498. هنا وقد كتب ابن إدريس مقامة أشاد فيها بنصر السلطان «وجيشه المنصور المولوي» في إحدى قدماته من الحوز ضمنها كثيراً من الأبيات الشعرية لغيره من الشعراء مثل:

في عسكر ملاً القلوب مهابةً والأرض خيلاً بالعوارف يفهق
لفتح والتمكين فيه دلائل وعليه ألوية السعادة تخفق

ومثل:

ملك حليفاه التوكل والرضا وأوصافه علم وحلم وسؤدد

ولما أظهر أهل هشتوكه وشياظمة⁽¹⁾ «العقوق» و«ضيعوا الحقوق»، قام لهم
السلطان في غزوة جامعة وأوقع بهم أشر وقعة، وفي هذا ينشد وزيره وشاعره
أيضاً قصيدة أخرى يقول منها:

لقد أوقع المنصور بالغرب وقعةً
تهز قلوب الشرق من عظم القدر
وصال على أهل الضلال بغزوة
تقوم لها الدنيا على قدم الشكر

يصاحبه أمن ويمن ورحمة
(ابن زيدان: الإتحاف، ج 4، ص 32 - 234).
(1) لأبي القاسم الزياني قصيدة ذكر فيها قتال المولى عبدالرحمن لهؤلاء الثائرين الذين نعتهم بالمفسدين
والملاحدين، منها: بالمفسدين والملاحدين، منها:

بشرى لكل المسلمين	بنصر حزب المؤمنين
على يد العدل الأمين	ليث الملوك أجمعين
عابدُ رحمن الإمام	سلسل مولانا هشام
بدد شمل المفسدين	قمع جمع الملحدين

(الزياني: تكميل الترجمان بدولة السلطان مولاي عبدالرحمن، م. خ. ح (4790) بدون ترقيم
لصفحاته).
ومن نافلة القول أن لأبي القاسم الزياني منظومة طويلة في ملوك المغرب وغيرهم من الملوك المسلمين
سمّاها: «ألفية السلوك في وفيات الملوك»، شرحها وسمى شرحه: «بغية الناظر والسامع والهيكل
الجامع لما في التواريخ الجوامع» (م. خ. ح 1250). وقد ترجم فيها ملوك من صنهاجة بإفريقية كقوله
في أحد ملوكها سماه الحسن:

وسار في قومه للجهاد
وترك الباقيين في العناد
(ص 110).

كما ترجم مملوك المرينيين، كقوله مثلاً في محمد بن عثمان المريني:
كان شجاعاً فاتكاً مقداماً
ويهزم الجيوش كل عاماً
(ص 135).

وتعرض لملوك بني عبدالواد بتلمسان، وبني زكرياء من الموحدين بإفريقية، وبني الأحمر بالأندلس
والأشراف الزيديين بالمغرب والأشراف العلويين إلى المولى عبدالرحمن بن هشام، فمن قوله في
المولى إسماعيل:

وفتح الثغور من أهل الصليب
وعمر الحصن بالفقر المخيب

وبعد أن هجاهم شاعرنا وصف المعركة الحاسمة وتقهقر الأعداء، مشيداً
بالموقف الحازم الذي وقفه السلطان من هؤلاء الثوار:

بهشتوكة حل الوبال وأختها
شياظمة لمّا اكتسوا حُلل الغدر
أحاطت بهم «خيل الإله» ورجله
وحاق بهم شؤم الخسارة والمكر
فأضحوا حروفاً أعجمت برصاصهم
وأشكلها ضرب المهند والسمر
وهم فرق أسرى وقتلى وفرقة
تحكم في أعراقها لجُج البحر
فلله تمّ موقفٌ قد وقفته
أميرُ الورى والحرب تلفح بالجمر

وبعد أن يطلب شاعرنا من الذين طغوا وتجبروا أن يعودوا إلى رشدهم
يخاطب سلطانه وقائده:

فما لا مرئى ناواك في الأرض مهربٍ
يرى وسعها في العين أضيق من فترٍ
ولو رام أن يرقى السماء لرده
إليك الردى واقتاده الحين للقبر⁽¹⁾

ويواكب الشاعر العمراوي مسيرة السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام في
القضاء على «أهل الفتنة» ومحاربة «أعداء الدولة والملة والدين»، فيقول من قصيدة
له هاجياً «البرابرة الثائرين» الذين يجلبون للبلاد الهلاك والدمار ويغيرون ما أمر
الله به مهدداً إياهم بالويل والثبور إذا ما تمادوا في غيهم:

(1) العمراوي: الديوان، ص 255 - 256، التهامي شهيد: ديوان العمراوي، ص 505 - 506.

إن البرابرة لم تبر يمينها
ورأوا قتال بغاتهم تضليلا
نبدوا الشريعة ضلة وتتبعوا
للمازيغية شرعةً وسبيلا
رابطوا وما ربطوا رباط حمية
للدين لكن بدلوا تبديلا
لعنوا لقد جلبوا الهلاك لجمعهم
وتوقعوا خزيًا يراد طويلا
فلسوف تدركهم وخامة غيهم
ويذيقهم داعي الهوى تذليلا
أبدولة المنصور ينجم كفرهم
كلا سيترك حزبهم مفلولا
وتراهم قسماً إذا لم يقلعوا
مقتولاً أو مغلولاً أو مخذولا
فليرقبوا عمّا قريب سطوة
من ربهم تدع الحليم جهولا⁽¹⁾

فلما يهجو شاعرنا خصوم سلطانه كأنما ينتزع منهم أسباب المقاومة ويستلب
منهم كل مقومات المجابهة حتى تتمكن من أنفسهم صورة الهزيمة المرة، فيجهز
عليهم المجاهدون بكل قواهم ويحققون النصر المنتظر.

ويرغب شاعرنا المولى عبدالرحمن - في قصيدة أخرى - في الجهاد فيهم
والدفاع عن وحدة البلاد ومخاطبتهم بلغة السيف التي يفهمونها حق الفهم:

(1) العمراوي: الديوان، م. خ. ح رقم (1968) بدون ترقيم لصفحاته. شهيد: ديوان العمراوي ص 618.

رأيت العزَّ أجملَ والمعالي
بظلَّ المشرفية والعوالي
وضربُ الخيلِ بالخيلِ المذاكي
وتسليطُ الرجالِ على الرجالِ
وإن خطابهم بلسانِ سيفٍ
لأفصح من مخاطبةِ المقال⁽¹⁾

ويقول أيضاً من قصيدة أخرى يحرضه على محاربة «فئات البغي والضلالة»
ومنهم الذين عاثوا في الأرض فساداً:

وسِرُّ من نصر ربك في جنودٍ
تفل بها الأعادي والجبالا
وطأ بالقهر طائفة الأعادي
ولا تترك لهم أصلاً ومالا
وخذهم عاجلاً أخذاً وبيلا
وأولهم المذلة والوبالا
فإن الله قد أعطاك نصراً
وسنى لك الفتوح به ووالى
سيخزيهم وينصرهم عليهم
ويشفي صدورَ من للحق قالاً⁽²⁾

(1) العمرابي: الديوان، م. خ. ح رقم (1968) بدون ترقيم لصفحاته. شهيد: الديوان ص 836. ويشير الشاعر هنا إلى بيت أبي تمام الشهير:

السيف أصدق أنباء من الكتب

(2) المصدر السابق. وقد انفردت هذه النسخة المخطوطة الفريدة بهذه الأبيات المذكورة دون غيرها. وقد أورد الشاعر نفس معاني هذه القصيدة في عدة قصائد له، من ذلك قوله:

قاتل بسعدك فالأيام مسعدة	فأنت بالله منصور ومنجود
من لم يدن بك منقاداً بطاعته	فدينه عند أهل الأمر مردود

ويوالي المولى عبدالرحمن فتوحاته - تلبية لنداء النضال والجهاد - ويوقع
بقبيلة زمر - الشلح في بعض حركاته لأنها «كانت قبيلة بغي ومكر وفساد، وما زال
يغزوها من حين لآخر حتى أباد أهلها وأذاقهم النكال والوبال».

فينشد العمرأوي قصيدة طويلة يتحدث فيها أول عن فضل الجهاد
وعزة أهله:

مهوّر المعالي البيض والأسل السمرُ
وأقصى أمانى الصيد النهي والأمرُ
وما العزُّ إلا للجهاد وأهله
إذا زاغ أهلُ البغي أو نجم الكفر
وما العيشُ إلا أن ترى وسط جحفلٍ
له كل حينٍ في سبيل الهدي ذكر

ثم يصف الشاعر بطولة ممدوحه وبلاء جيوشه في الحروب والغزوات:

إذا ما غزا ترتاع من بأسه العدا
ويهتز من أخباره البر والبحرُ
وإذا خفقت في الأفق رايةُ نصره
سرى من سطاها الرعب في الناس والذعر

كم آيةٍ لك في الأعداد ظاهرةً بذكرها لاح في الآفاق تمهيدُ
وقوله:

قاتل بسعدك من عاداك معتصماً بالله فهو على الأجناد أغناك
وامر بما شئتُ إنَّ الدهر ممثِّلُ بما أمرتُ فإن الله أعطاك
وقوله:

قاتل بسعدك فالأيام مسعدة وامر بما شئتُ إن الدهر مؤتمر
وانصرب سيفك هذا الدين معتصماً بالله فهو لأهل الحق ينتصر
ومن تكن في سبيل الله نهضتُ يعنوله الصعبُ أو يسمو به الخطر
(المصدر السابق).

هو البحرُ والأبطالُ في الحرب موجه
هو الليلُ والفرسان في أفقه زهرُ
له من سباع الطير والوحش عسكرُ
يؤازره قد قاده الذيب والنسر
وأفضل أعمال الفتى نصرة الهدى
وقتل العدا إنَّ الجهاد هو الذخر
ولله في هذا الوجود خلاصةُ
هداهم لهم في كل صالحة ذكر
عساكرُ فتحٍ عود الله رفعها
إذا قوبلت يسري لناصرها الكسر
سرى حزمه في جيشه وثباته
ففي كل قلبٍ من شجاعته قدر
له أيةُ التمكين في الأرض والعالا
له العزُّ والتأييدُ والفتح والنصر
ثم يتعرض الشاعر لعساكر الفتح وكيف غزت أرض زمور:
ويقدمه للحرب كلُّ شمرذلٍ
حرامٌ عليه في وطيسِ الوغى الفرُ
وأسد على جرد كأن وجوههم
بأفق ظلام النقعٍ من بشرها فجر
وباعوا نفوسًا في الجهاد نفيسةً
من الله سيماها التثبّت والنصر
أحاطت جيوشُ المسلمين بأرضهم
وعمَّهم منها التسلط والقسر

ويذكرنا الشاعر مرة أخرى باللغة التي يفهمها الأعداء:
ولا شيء مثل السيف أنفع للعدا
إذا لم تفد فيها المواعظ والذكر
وقد زجرهم السلطان ولكنهم لم يذعنوا:
رماهم به المنصور لما تحزبوا
ولم ينفع الإنذار فيهم ولا الزجر
ومن عاند وتمادى في غيه، كان «المنصور» له بالمرصاد:
ومن عاند المنصور أصبح طعمة
لأسيافه أو ساقه للردى القبر
فكم حاولوا من مكرهم ردًا بأسه
فعاد عليهم بالردى ذلك المكر
ويصف الشاعر ما صنعت أسلحة السلطان وكتائبه بأعدائه المتطعين
«شياطين الضلالة»:

وتسري سراياها فتغدو وصنعها
بفرسانها التشريد والفتك والأسر
وتختطف الأبطال كل مدجج
لديهم ولا ينجيه كُر ولا فر
تخط صفاح البيض فيهم صحائفًا
تفيد الهدى قد أشكلت خطها السمر
تعلمت «اللام» البلاغة فيهم
فللبيض والمران عند اللقا شعر
إذا ما لقوا حادوا عن الحرب وانثنوا
وأجسامهم نظم وأرؤسهم نثر

وبعد هذا العراك الطويل يرق قلب أمير المؤمنين وقائد جيوش المسلمين
فيعضو عن الأحياء منهم:

فرقُ أمير المؤمنين لحالهم
وعاد بحلم أنه الراحم البرُّ
عفا عنهم مولاهم عفو قدرة
وقابلهم من فضله الصفح والبر

وهكذا انتصر الدين والحق وانكسر الشرك والباطل:
فقد نصر الرحمن بالحق عبدهُ
وحاقَّ بأهل الباطل الشؤمُ والخرُّ
وقام بنصر الحق بالحق فاعتلى
به ركنُ هذا الدين واعتصم الثغر

ويختم شاعرنا قصيده بتهنئة «المنصور» والدعاء له:
هنيئًا أمير المؤمنين بغزوة
تضعض منها الشرك وانجبر الكسرُ
بقيت لهذا الدين تحمي ذماره
ودام لك التمكين والفتح والنصر⁽¹⁾

(1) العمرابي: الديوان، ص 261 - 268، التهامي شهيد: ديوان العمرابي ص 481 - 489، الإتحاف ج 5، ص 244 - 254. وذكر محمد المنوني أن هذه القصيدة ربما تكون لشاعر آخر لأن القصيدة تتناول حركة السلطان عبدالرحمن لزومور الواقعة سنة 1269هـ في حين أن الشاعر ابن إدريس توفي عام 1264هـ. (المظاهر ج 1 طبعة الرباط ص 57). ومما ذكره أبو القاسم الزياني في كتابه: «تكميل الترجمان بدولة السلطان مولانا عبدالرحمن» (مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم 126) في الورقتين 20 و21، أن السلطان المولى عبدالرحمن استعمل «الحركة» لزومور وبني أحكم سنة 1242هـ وخرج إليهم بجموعه، فاقتلوا، فنصر الله جنوده ووجه السلطان أسراهم في الأغلال والقيود وقطع رؤوس قتلاهم وعلقت على أسوار المدينة، فأنشد الزياني عن شعر ضعيف:
هنيئًا لكل المسلمين بغزوة غزاها أمين الله في البربر النذل

ويقول العمراوي من قصيدة أخرى نظمها في دخول المولى عبدالرحمن إلى مكناس سنة 1240هـ بعد أن فتحها وانتصر على بني مطير، الذين هاجموها فذاقوا «البلاء» من ويل صواعقه ومدافعه: (وهذه أول مرة يتعرض الشاعر فيها لذكر الأسلحة النارية):

وجبت بلادهم قهراً ففروا
مخافةً أن تبيدهم الجنودُ
فبنت وللمدافع صوتُ رعدٍ
وللبنب التصوب والصعود
وخلفت الأعادي بلاءً
يلازمهم وهم لا يبيد
أصابتهم صواعقُ محرقاتٍ
لها من فوق رؤوسهم رعود
تحكم فيهم طعنٌ وضربٌ
ومرَّق لحمهم نسرٌ وسيد

ثم يتساءل:

وكيف يؤملُ الباغي نجاةً
وأنتَ لكلِ ذي بغْيٍ مبيدٌ
بسيفٍ أو برمحٍ أو دعاءٍ
يحقُّ على المراد به الوعيد

إلى أن يقول:

وبشرى لأهل الشر بالذل والويل	فبشرى لأهل الخير بالأمن والهنا
ومن شاء فليذنب فلسجن والقتل	فمن شاء فليتب فقد ظهر الهدى
أبوزيد سيف الله في النصل والبذل	فقد جاءكم فخر الملوك وعدلهم

وقد وردت هذه القصيدة في مخطوط آخر للزياني يحمل عنوان: «تاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية»، يوجد ضمن مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 12109 دون ترقيم لصفحاته.

وهل يبقى مع الحق اعتداء

وينكر فضلكم إلا عنيد⁽¹⁾

ويقول العمرأوي من قصيدة أخرى في انتصار المولى عبدالرحمن الجديد على قبيلة غياثة الثائرة التي «تمردت ونقضت عهودها»، فأبأها قتلاً وأسراً حتى ثابت إلى رشدتها:

كم فتكة لك بالأعداء ظاهرة

لذكرها بلسان الدهر ترديد

انظر لغياثة المراد إذ نقضوا

عهد الإله ومن ينقضه مطرود

عموا وصموا عن الأنذار حين دعوا

والملتجي لسوى الرحمن مبعود

جاست ديارهم خيل الإله ضحى

وصادهم في الوغى الصيد الصناديد

فأصبحوا قد أباد الله نعمتهم

وعمّ شملهم المغرور تبديد

ما زلت توسعهم قتلاً وتثخنهم

أسراً إلى أن بدا لله تفريد

ثم انتنيت وجيش النصر خافكة

أعلامه ولهم لله تحميد⁽²⁾

ولما ثار أهل زاوية الشراردة «وعكروا صفو الأمن والأمان، وظهرت منهم علامات الخيانة والغدر»، عزم السلطان العلوي على محو آثار قريتهم وتشتيت

(1) مخطوط بالخزانة السوديّة بفاس ص 20 . التهامي شهيد : ديوان العمرأوي، ص 468 – 469 .

(2) العمرأوي: الديوان ص 158 . التهامي شهيد : ديوان العمرأوي، ص 464 .

شمل جموعها، فخرج من فاس بعساكره السلطانية من عبيد ووداية وأهل الغرب وأمر خيالة الشاوية ودكالة بأن تتضمن إليه، ثم نزل «بكتائبه المنصورة وعساكره المحشورة» على تلك القرية «المنسوبة للشرود»، فحاصرها وسقى أهلها كأس الردى فتركوا ديارهم «في أسمال الذلة والصغار» سنة 1244هـ.

فأنشد الشاعر محمد أكنسوس قصيدة - قريبة إلى الزجل - في هذا الفتح الذي كان طليعة ملك السلطان العلوي:

شفا المولى المؤيد كلَّ صدرٍ
به من قيل وقعتها الجروحُ
لقد حسم الفساد بكلَّ أرضٍ
فساد لنا به الدينُ السميع

ثم يتخلص الشاعر لهجاء الثائرين وزعيمهم المهدي الشراذي:

ومن كانت مراكبه جماً
فسحقاً حين يصرعه الجموحُ
أتيج لهم لحينهم جهولُ
غوى للضلالة جنوح
يقودهم إلى العصيان سرّاً
ويظهر أنه البر النصوح
هو الدجال في صمتٍ وفعلٍ
فمن يدعوه مهدياً قبيح

وبعد ذلك يشيد الشاعر ببطولة ممدوحه وشجاعته:

أيطمَع في النجاة بلا نجا
سيدركه الهزبر المستبيحُ

فأهلكه الإمام فكان عيسى
كذا الدجال يهلكه المسيح
وجرد من جلالته حسامًا
يزيلُ به الضلالة أو يريح

ثم يستهزئ الشاعر بجهلهم بمكانة «آل إسماعيل» وبطولتهم:

فظنوا آل إسماعيل يرنو
بغير الجزم طرفهُمُ الطموحُ
وما علموا بأنكم سيوفُ
لحدّكم نجيعهم سفوح⁽¹⁾

ونظم الشاعر الطيب بن عبدالسلام الوستاري قصيدة أخرى على نفس
الموال يهنيء فيها المولى عبدالرحمن على ما حصل له من الظفر والفتح لزاوية
المهدي الشرادي ويشيد ببلاء جنده وكماته في هذه الغزوة ويهجو «الغر الوقح»
الذي لو جنح للسلم لعفا عنه «الملك الصفوح الحليم»، مطلعها:

فتوح لا يماثلها فتوح
بها للغرب توبته النصوح

ومنها:

أتاهم سيدٌ ملكٌ همامٌ
بجنْدٍ لا يقيْلُ ولا يريخُ
بأبطالٍ كماءٍ كل شهم
له سيفٌ ومركبه سبوح

(1) محمد أكنسوس: الجيش العرمرم ص 13 - 14. ولأبي القاسم الزياني قصيدة في تهنة السلطان
بانتصاره على الشراردة منها:

الحمد لله الذي	قُرت عيون المسلمين
جاء البشيرُ سابقًا	بشر بالفتح المبين

(الزياني: تكميل الترجمان م. خ. ح. 4790 بدون ترقيم).

فشرد جمعهم في كل وجه
ومكّن من رقابهم الصفيح
فها هم بعد رفعتهم بخفضٍ
أسيرٌ أو قتلٌ أو جريح
فأين هداية «المهدي» فيهم
وزعمه أنه هو المسيح⁽¹⁾

وللشعر محمد بن إدريس العمرابي قصيدة من نفس البحر والقافية أورد
فيها نفس المعاني نظمها في حدث إيقاع المولى عبدالرحمن بن هشام بالشراردة
والانتصار عليهم، مطلعها:

فتوحٌ في مضامنها فتوحٌ
بها تغدو البشائرُ أو تروحُ
إذا المنصورُ أزمعَ غزوَ قطرٍ
تلقتَه البشائرُ والفتوح

ومنها:

غدت هاماتهم ثمُرُ العوالي
وحكم في رقابهم الصفيحُ
فهم من بعد قتلٍ وانهمزامٍ
أسيرٌ أو شريدٌ أو جريح

وذلك جزاء من فقد رشده وخرج عن الطريق المستقيم، ولم تنفعه نصيحة
الناصحين، وتمادى في عناده وغيه:

إذا ما الله شاءَ هلاكَ قومٍ
فلا حذرٍ لبلواهم يزيحُ

(1) ابن زيدان: الإتحاف، ج 3، ص 93 - 94.

عموا عن رشدهم بغياً و صموا
فلا وعظٌ يفيد ولا نصيح
ولو شاء الإله لهم صلاحاً
حمتهم توبة منهم نصوح⁽¹⁾

ولما استولى المولى عبدالرحمن على زاويتهم وذخائرها وشرده أهلها تشريداً،
فر زعيمها المهدي الشراذي وانتهى به المسير إلى آيت باعمران، ولما ضاقت به
الأرض أرسل الشفعاء إلى المولى عبدالرحمن، فعفا عنه.

وفي هذه الواقعة يقول محمد بن الحسن أقصبي يهنيء نفسه بهذا الفوز
ويهجو الثائر المنهزم:

فحق لنا الهناء ولا كيوم
من الشراذي الغرب استراحا
وكيف وفي اسمه الشر ابتداءً
وجيشُ الشرّ ينفي لا جناحا
فما المهدي بمهدي لرشدٍ
ولكن سبه الشرع إباحا
أضل فريقه عن نهج حقٍّ
فراموا من أميرهم الكفاحا
فحكم فيهم الآلات ضرباً
ورميّاً والدماً منهم أباحا
وصار منهم أسرى وقتلى
وأعمل في رؤوسهم الرماحا⁽²⁾

(1) العمراوي: الديوان، ص 120 - 121.

التهامي شهيد: ديوان العمراوي، ص 448 - 449.

(2) ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 23 - 24.

ويواجه المولى عبدالرحمن ثورة شنيعة أخرى أذكى نارها جيش الودايا⁽¹⁾ بخروجه عن طاعته سنة 1247هـ. فأنشد ابن إدريس العمراوي قصيدة يشجعه فيها على قتالهم ونزالهم، ويوصي جيش البخاري المجاهدين أن يثبتوا ويصبروا ويصابروا ويرابطوا، فإن الصبر مقرون بالنصر، وإن جهاد البغاة المتمردين هو مقدم على جهاد الكافرين، وإن البغي والتمرد مربعه وخيم، وجزاؤه الخزي والخسران، فيقول مخاطباً السلطان القائد:

أمولانا أمير المؤمنين
حباك الله نصرًا مستبينًا
وحكم سيف عدلك في الأعادي
وأودى به البغاة المعتدين
فإنك غالب بالله مهما
غزوت حبالك الفتح المبين
وقل لعبيد سيدنا البخاري
ومن في حزبهم والمسلمين
ثقوا بالله واعتصموا وقولوا
إلهي أنت خير الناصرين
فأنت ملاذنا وبك استعنا
على هلك البغاة المارقين
سيخزيهم وينصرهم عليهم
ويشفي صدور قوم مومنين
ولا تخشوا فأنتم في جهادٍ
ونصرة دين رب العالمين

(1) رجال الأودايا هم رؤساء محلة المولى علي بن سليمان خليفة أبيه بتلمسان. ولكنهم جاروا وعاثوا في الأرض فساداً، فكان المولى على يسجنهم تارة ويزجرهم تارة أخرى، ثم رجعوا إلى المغرب بدون إذن من السلطان، فكان جزاؤهم العقاب. (ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 100).

وقدم أهل مذهبنا جهاد الـ
 بغاة على جهاد الكافرينا
 فقد شقوا العصا وبغوا وخانوا
 بغدرهم أمير المؤمنين
 فكم من مثلهم صاروا حديثا
 وذكرنا سائرا في الغابرينا
 وإن البغي مربعه وخيم
 عقوبته معجلة يقينا⁽¹⁾

(1) العمرابي: الديوان، م. خ. ح. رقم 1968. بدون ترقيم. شهيد: ديوان العمرابي، ص 600. وللعمرابي
 نونية ثانية يهني فيها أبا زيد المولى عبدالرحمن بانتصاره على قبيلة زعير الثائرة وهي لا تخرج
 عن معتاده، منها:

وافى البشير بما أقر الأعينا	فرحاً وأطلق بالثناء الألسنا
لله در عصابة فتكوا بهم	وكسوهم ثوب المذلة والفنا

العمرابي: الديوان م. خ. ح. (رقم 12075) بدون ترقيم انظرها أيضاً في ديوان العمرابي لشهيد ص 598.
 وله نونية ثالثة في السلطان المولى عبدالرحمن ينصحه بالصبر على كيد «المعتدين المارقين» حتى
 يقطع الله دابرهم ويفل شوكتهم:

ألا أبشر أمير المؤمنين	فإن الله مخزي الكافرينا
متّم نوره كرهًا على من	تجبر من بغاة جاحديننا
وينصر عبده نصرًا عزيزًا	ويخرب حزب قوم مارقينا
ويخزيهم وينصركم عليهم	ويشفي صدور قوم مومنيننا
فحسبك سيدي صبرٌ جميلٌ	فإن الصبر سيفُ العارفيننا

(المصدر السابق)

ولا يبعد أن تكون هذه النونية هي قطعة من النونية الأولى، ويبدو أن الأمر قد اختلط على الناسخين.
 وقد أثبتتها شهيد في «ديوان العمرابي» ص 596. وللعمرابي نونية رابعة في المولى عبدالرحمن بن
 هشام منها:

وسير جيشه في الأرض حتى	وجى بمهجة كل شان
وأوطأ خيله كل الأعادي	بأساد الشرى عند الطعان
ودان له بقهر كل عاتٍ	وفك من المكاره كل عان

إلى أن يقول:

به أرض المغارب قد تسامت	كما اشتاقت إليه المشرقان

(انظرها في ديوان العمرابي لشهيد ص 587).

وتمر السنون وتخامر مرة أخرى أهل الفتنة «فكرة التآمر والخيانة»، تثور فتنة
باغية من آيت عطا بالصحراء على السلطة الشرعية وتزيد في الطين بلة، فيقوم
لها المولى عبدالرحمن بن هشام، ويستأصل جراثيم فسادها ويرضخ صناديدها
قهراً للطاعة والامتثال (1271هـ).

فينشد أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد الحمادي المكناسي قصيدة يصف
فيها كيف فتكت القوات النظامية بشرذمة البغي والطغيان، منها:

يا ويح قوم حاربوا من جهلهم
رباً إليه مآلها ومصيرها
شنّوا على أولي الرسالة غارةً
شعواء عاد على الرعاع بثورها
فرمت سهام الفتك في سروعاتها
حتى تناهى بغيتها وشرورها
فأثت إليه الصافنات سوابحاً
تختال والفتح المبين سفيرها
وعزيمة علوية علوية
هبت عليهم من رباها عبيرها

ثم يشيد الشاعر بأعمال «فتية النصر»! واستشهادهم في سبيل الله:

لله فتية نصره لجناح من
خير البرية والإله نصيرها

وللشاعر الطيب بن عبدالسلام التستري المتوفي أواسط المائة الهجرية 13 قصيدة نونية أخرى في
مدح المولى عبدالرحمن منها:

جمعت هذا الجيش تبغي به	إشادة الدين وقطع الخنا
فجاء وفق نية والفتى	ثمار ما يغرسه قد جنى

(عن مخطوطة بالخزانة النونية) المظاهر، ج 1، ص 57.

باعوا النفوس وإن غلت أثمانها
من ربهم لهم الجنان وحورها
ولهم أجل مكانة من مالك
زان الخلافة واستقام سريها⁽¹⁾

ويقول الشيخ الطالب بن حمدون في نفس المناسبة مشيداً ببطولة السلطان
القائد وشهامته في محاربة آيت عطا:

آيت عطا لما أطغت وأفسدت
وجارت على آل الرسول وقد سروا
أصيبوا برعب من جلال إمامنا
فقاتلهم عرب وتجنيسهم سر
وقد صب من فوق جيوش عليهم
ولم ينجهم من بأس وقعته وعر
وأظلمت الدنيا عليهما بأسرها
«وفي الليلة الظلماء يفترق البدر»

ثم يتوجه بالخطاب إلى المتآمرين من فئة البغي والضلالة:

فذوقوا العذاب اليوم يا شرّ بربرٍ
ففي مثل هذا اليوم لا كر ولا فر⁽²⁾

ولما أثخت سيوف السلطان العلوي في صدور الصحراويين من آيت عطا
توافدت عليه وفودهم وتقدموا خاضعين لعزته ملينين لدعوة الأمن والأمان، ويقول
في ذلك الهادي بن علي مخاطباً السلطان:

جاءت لحضرتك الأعداء خاضعةً
وهم على الحق لولا العفو أسراكا

(1) ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 255 - 258، المظاهر ج 1، ص 57.

(2) المصدر السابق ص 258، وقد سبق أن أشرنا أن هذه القصيدة قيلت في المولى سليمان لما انتصر على
قبيلة آيت عطا، ولكن ابن زيدان يروي أنها قيلت في المولى عبدالرحمن لما انتصر على نفس القبيلة.

تهوي إليهم على جردٍ مطهمةٍ
كأنهم سربٌ طيرٍ أم مغناكا
وتأمل العفو عما كان من زلٍ
وتطلب السعدَ في استجلاءٍ مرآكا
مولاي يا عابد الرحمن يا ما
الله في فلك العلياء رقاكا
قاتل بسعدٍ من دعاك معتصماً
بالله فهو عن الأجناد أغناكا⁽¹⁾

ويذف أبو القاسم الزياني بشرى انتصار المولى عبدالرحمن بن هشام وقهره
لقبيلة زروالة وهي «من الأعداد الذين جازوا الحد في الاعتداء»:
بشرى وبشرى لما قد كان ينتظرُ
فتح الإله فقد أتى به الخبرُ
جاء الإمامُ وحزب الله يقدمهم
النصرُ والعزُّ والإقبال والظفر
عمُّ السرورُ جميعَ الخلقِ وابتهجوا
وشمل الذلُّ أهلَ البغي والكدر
بقهر زروالة عسَّ البغاة ومن
في حزبهم وبهم قد كان يفتخر
واليوم حتى دجاج القفص قد حمدوا
إذ حام فوقهم العقبان والنسر
وانقطع القولُ والقيـل متى سمعوا
فتحاً جديداً به الأكباد تنفطر⁽²⁾

(1) مخطوط بالخزانة السوديّة بفاس ص 12 .

(2) أبو القاسم الزياني: «تكميل الترجمان بدولة السلطان مولانا عبدالرحمن» م. خ. ح (رقم 126) ورقة 10.

وتتوالى الأحداث والمآسي ويتوفى المولى عبدالرحمن بن هشام بعد أن قضى سنين طويلة في تهدئة البلاد ومجابهة ثوارها ودعم ثغورها⁽¹⁾.

وهكذا تناول شعر الجهاد في هذه الفترة، الفتوحات التي حققها الملوك العلويون⁽²⁾ داخل المغرب بعد معارك صاخبة خاضوها لقمع القبائل الثائرة وفئات «البغي والضلالة».

(1) بعد وفاة هذا الملك الشهم خلفه ولده المولى محمد بن عبدالرحمن ابن هشام الذي كان عهده مليئاً بالأحداث الخطيرة. ذلك أن إسبانيا التي كانت تحتل سبتة ومليلية استغلت موقف المغرب المنهار للتتوق إلى التوغل داخل التراب المغربي وإلى احتلال مدينة تطوان. فأمر المولى محمد بن عبدالرحمن بن هشام جميع أهل الثغور للتأهب للجهاد وأمدهم بالموونة والعتاد. وكانت بين المغاربة والإسبان جولات حربية انتهت بمعركة تطوان (1276هـ - 1860م) السلبية. وكانت هذه الهزيمة الثانية الشنعاء - وهذه المرة أمام الإسبان - فاتحة للتدخل الإسباني في المنطقة الشمالية من المغرب. وقد دفعت هذه المعركة السلطان العلوي إلى التفكير في إخراج جيش جديد قوي ومنظم إلى الوجود ليرد الصاع صاعين لكل معتد أقيم. وقد عبر الشاعر التطواني المفضل أفيلال عن هذه المأساة أصدق تعبير في قصيدته - التي تذكرنا بنونية الرندي في رثاء الأندلس - والتي يستسلم فيها للقضاء والقدر ويتحسر على مدينة تطوان ويتأسف لما آلت إليه ويوصي أهلها بتفويض أمرهم إلى الله، مطلعها:

يا دهر قل لي على مه
نصبت له للدواهي
كسرت جمع السلامة
لم تخف من ملامة

(محمد داوود: تاريخ تطوان، م 5، ص 215).

انظر مجموعة أخرى من القصائد التي ترثي لحال تطوان ولما أصاب أهلها في هذا المجلد من تاريخ تطوان وفي العدد الأول من مجلة تطوان (1956) وفي مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 66 (ص 237 - 239).

ومن القصائد التي أنشدت في الإشادة بجيش محمد بن عبدالرحمن (محمد الرابع) قصيدة محمد أكنسوس، منها:

له العسكر الجرار تبرق في الوغى
يعد إلى الأعداء كل كتيبة
صوارم منه والمدافع ترعدُ
من الرعد يحدوها الوشيع المسد
وكل كمي كالغضنفر مغضباً
وكل صقيل وهو ماض مجرد
يبعد العدا قبل اللقاء مهابة
فصارمه يفري الطلى وهو مغمد

(الناصرى الاستقصا، ج 9، ص 82).

(2) نظم مولاي هاشم بن أحمد بن محمد بن عبدالواحد بن علي بن طاهر الحسني منظومة سماها: «كتاب الجوهرى في نسب أولاد سيد الورى وما بنى المليك وما اشترى»، وهي في أنساب ملوك الدولة العلوية (م. خ. ح رقم: 12486). كما نظم سيدي محمد المهدي بن عباس الناصري منظومة في تاريخ ملوك الدولة العلوية من محمد بن الشريف إلى سيدي محمد بن عبدالرحمن (م. خ. ح رقم 12459).

ولم يخرج هذا الشعر عن مواضيع تتكرر ومعاني تتشابه: هجاء الثوار ووصف انهزامهم واندحارهم أمام بطش القوات النظامية، الإشادة بشجاعة وصوله الجيوش السلطانية وكماتها الأبطال، توبة الثائرين وعفو أمير المؤمنين عنهم، تهنئة السلطان العلوي بالفتح والقضاء على فئة «المارقين العصاة».

وكان بالحق بطل هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة العلوية المولى عبدالرحمن بن هشام الفارس المقدام والمكافح المناضل الذي جاهد في الله ما وسعه الجهاد، ولهذا دعي، «بعباد الرحمن»:

يا من يطالب أمرهم بدلائل
أتطالب البرهان بالبرهان
إن كنت تجهل فالحسامُ معلم
يشفى البريء به ويشقى الجاني
أين المفر لمن عتا عن أمركم
أترى البغاة تفوق للعقبان
أين المفر لكل من شق العصا
يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
لم يمنع الأعداء منهم معقل
لو أنهم صعدوا إلى كيوان
لكنهم باؤوا بأخسر صفقة
فكأنهم غصبوا أبا كبشان
جيش تسد وفوده مسرى الصبا
وتهدر وطأته نرى تهلان
فإذا أشرتم في الزمان لمقصد
كان القضاء لكم من الأعوان

أخلصت للرحمن في طاعته

فلذا دعيت بعابد الرحمن⁽¹⁾

وهكذا رسم شعر الجهاد في أشعار الفتوحات الداخلية صوراً هامة لبأس المغاربة المجاهدين، وصمودهم وبطولتهم لمقاومة الأعداء وردع المعتدين، والقضاء على «موقدي الفتنة والثورات الضلّة»⁽²⁾، في حومات الوغى وزحمت القتال؛ ولاقتحامهم كذلك أهوال الحرب والنضال في غير خوف ولا وجل، وإنها لتعد بحق وثيقة تاريخية في هذا السبيل، تكشف عن الروح الإسلامية المجاهدة الأصيلة وعن الوجدان الديني الوطني الشائر.

(1) أكتسوس: الجيش العرمرم، ج 2، ص 15 - 16. ونسب أكتسوس هذه القصيدة للعلامة أبي محمد عبدالله الريحاني.

(2) يلاحظ القارئ أن هذا الفصل يشتمل على بعض الأوصاف «المشيئة» في حق بعض القبائل المغربية التي ثارت ضد السلطة الشرعية كما هو مثبت في كتب التاريخ. إن هذه الأوصاف التي حرصنا على وضعها بين مزدوجتين حسب ما تقتضيه صياغة الجملة، منقولة بالحرف من المصادر التي استندنا عليها في نقل الأحداث، وكذلك من الأشعار التي واكبت هذه الأحداث.

الفصل الثاني: شعر الفتوح الخارجية

– شعر فتوح المغرب الأوسط وإفريقية.

– شعر فتوح الأندلس.

– شعر فتوح السودان.

1 - شعر فتوح المغرب الأوسط وإفريقية

يتبارى شعراؤنا - كما سنفصل في هذا الباب - في تهنئة الأمير المغربي بالفتح الذي حققه خارج المغرب - سواء بالمغرب الأوسط وإفريقية أو بالسودان أو بالأندلس - وبنصره لدين الله وبإحيائه له وباستماتته في هذا الفتح حتى ينصره على أعداء الإسلام والمسلمين.

فبعد أن تم ليوسف بن تاشفين المرابطي فتح المغرب والصحراء وبعض مشارف السودان، زحفت جيوشه نحو المغرب الأوسط واقتحم على رأس جيوشه وجدة سنة 474هـ وتلمسان وأحوازها مستأصلاً شأفة المغراويين. ووالت جيوشه المرابطين فتوحها لباقي مدن المغرب الأوسط، كوهران مثلاً. وقد بقي الشعر «صامتاً» في هذا الظرف حسب ما توافر لنا من مصادر.

وفي عهد الموحدين عزم عبدالمؤمن الموحي على التدخل عسكرياً في المغرب الأوسط فاصطدم بمقاومة بني حماد، ولكنه استمر في فتح مناطقها عبر ملوية وتلمسان حتى دخل إلى مدينة الجزائر ومنها إلى بجاية. ولما تم فتح هذه المدينة (وتسمى أيضاً الناصرية نسبة إلى الناصر الحمادي) - على يده كان شاعر «الخلافة الموحدية» ابن حبوس الفاسي⁽¹⁾ - شاعره الرسمي ورفيقه في إقامته

(1) هو أبو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبوس الفاسي، ولد بفاس سنة 500هـ، ثم درس على أهلها وجمع بين العلم والأدب والشعر حتى تفوق على معاصريه، فشبه بابن هاني الشاعر الأندلسي الذي يلقب «بميتبي المغرب»، ولقب هو بالمشرق بشاعر المغرب لانتشار شعره وجودته. رحل إلى تلمسان ثم إلى مراكش وإلى الأندلس. اتصل بالخليفين الموحدين عبدالمؤمن وابنه أبي يعقوب ومدهما وحظي عندهما. وقد حضر مع عبدالمؤمن جميع مواقع المشهورة وترك فيه شعراً كثيراً، تبين عن نفس ممدوحه وشخصيتهم الكبيرة. وقد مدح أيضاً المرابطين إلا أن الموحدين طمسوا كل

ورحلاته والشاهد معه الوقائع والحروب، حاضرًا في هذا الفتح فأنشد قصيدة
واصفا فيها ما شاهده ومادحا بطل الفتح عبدالمؤمن الموحيدي، يقول منها:
من القوم بالغرب تضغي إلى
حديثهم أذن المشرق
جروا والمنايا إلى غاية
فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة
فمهما تصب باطلاً تحرق
يقودهم ملك أروغ
تفرد بالسؤدد المطلق
تخييره الله من آدم
فما زال منحدرًا يرتقي
إلى «الناصرية» سرنا معًا
ولما تفتنا ولم تلحق
إلى برزة في ذرا أرعن
تجلّ عن السور والخندق
يعودون منا بمولاهم
ومولاهم عاد بالزورق

ما يتصل بهم. يغلب على شعره المدح والحكمة. ويتسم «بالجودة والرشاقة والصناعة». فهو شاعر عن
«حسن مرهف ونفس غير حبيس». وحينما داهمت الفتن البلاد ترك الأمراء الموحدين واستقر بفاس
حتى توفي بها سنة 570هـ.

انظر هذا الشاعر: د. عباس الجراري: ابن حبوس، دعوة الحق - س 4، ع 6 (1961)، وعبدالله
كنون: ابن حبوس الفاسي - الذكريات - عدد 39. «وابن حبوس»، مجلة «الثقافة المغربية» رقم 5،
ص 31، وعبدالقادر زمامة: «ابن حبوس»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - عدد 7، ص
137، ومحمد بن تاويت: ابن حبوس الفاسي - مجلة «الثقافة المغربية» عدد 7، ص 13.

واكسبه خوفه رقلة

فلو خاض في البحر لم يغرق⁽¹⁾

ولما دخل العرب الوافدون من مصر إلى إفريقية واستولى النورمانديون على المهديّة التي شيدها عبدالله الشيعي (الثائر على بني الأغلب) سنة 300هـ - بعد أن فقد الصنهاجيون سيطرتهم عليها، رأى عبدالمؤمن أن يخلصها مما آلت إليه،

(1) صفوان بن إدريس: زاد المسافر، ص 68.

عبدالله كنون: ابن حبوس الفاسي، المشاهير رقم 39، ص 16 - 17 (وقيل إن هذه القصيدة قيلت في فتح عبدالمؤمن للمهدية).

د. عباس الجارري: ابن حبوس - دعوة الحق، ص 4، ع 6، 1961. كما لابن حبوس قصيدة أخرى وهي من أبلغ الشعر وأمدحه تبني عن نفس عبدالمؤمن القوية وشخصيته الكبيرة منها:

أمرؤ المؤمنين لقد أضاء الزم	ان بنور هديك واستنارا
لكم شرق البلاد ومغربها	وأمركم مع الفلك استدارا
يسير إليكم من ناء عنكم	يدور إليكم من حيث دارا
فمن قد فرّ عنكم من عدو	فنحوكم إذا يبغي الفرارا
ولو خوفتم أعلام رضوى	لما سكنت ولا وجدت قرارا

(زاد المسافر، ص 1 - 2) وعبدالله كنون المصدر السابق ص 18. كما أن ابن حبوس كان أول مادحي عبدالمؤمن لما حل بجبل طارق، لم يبق من قصيدته «على خاطر المراكشي» إلا هذان البيتان من الشعر:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا	وتعلمت أيامه أن تعدلا
ولأنتم سرّ الإله وأمركم	ملأ العوالم مجملًا ومفصلا

وفي رواية أخرى:

ويحسبه إن كان شيئاً قابلا	وجد الهداية صورة فتشكلا

(انظر: المراكشي: المعجب ص 127، ط: سلا، وكنون: المصدر السابق ص 11).

ومن الشعراء الذين دخلوا على عبدالمؤمن في مجلس التهنة العلامة أبو محمد المالقي شيخ الطلبة الذي هنأه بالفتح. وقد سأله الخليفة عن قوله: «أنشد شاعر شعراً في هذا الفتح»، فقال: إنه الشاعر ابن حبوس قال قصيداً حسناً أوله:

شدت إليك على الرياح سروج	وأين الفرار بأهلكم يا جوج

(ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 121 - 122).

وزاد صفوان بن إدريس في كتابه زاد المسافر (ص 1 - 2) بيتين آخرين:

عصفت بدعوتك الرياح الهوج	وسطاً بأمرك ذابلٌ ووشيج
وتقدمتك إلى العدو مهابة	يشقى بها في سدّه ماجوج

فأولهما يشبه الهجاء وثانيهما يعبر عن مدح بليغ.

فتوجه - بتشجيع من يحيى بن عبدالعزيز آخر ملوك بني حماد - في جيش هام ورسا بأسطوله أمام المهديّة وحاصرها برّاً وبحراً واستولى على صفاقص وقابس⁽¹⁾ وطرابلس وقفصة وبرقة ..

وقد توجه عبدالمؤمن إلى المهديّة من حضرة مراكش ماراً من رباط الفتح (عدوة سلا)، حيث رابط بها وأمر بالكتب إلى قبائل الموحدّين بالنفر إلى الجهاد وإعداد الزاد، وإلى «أهل البحريّة» بإنشاء «الأساطيل والأجفان».

وبعدما استخلف أمراء موحدّين بمراكش وفاس وإشبيلية وقرطبة وغرناطة، تحرك من معسكره بسلا سنة 554هـ حتى وصل إلى مدينة المهديّة (مقر النصارى من أهل صقلية)⁽²⁾، ونازلها وتلاحق الأسطول إليه بالآلات والمجانيق والعدد. وأمر بقتال الكفرة ورميهم بالحجارة ليل نهار وأرسل عليهم من سحائب السهام وابلاً. وقد دام حصار «هذه المدينة المنيعّة في المعافل الرفيعة» سبعة أشهر حتى يسر الله فتحها على صلح من النصارى الذين طلبوا الخروج بأمان إلى بلادهم⁽³⁾.

(1) لما أساء عرب بني سليم إلى أهل مدينة قابس استدعاهم الخليفة عبدالمؤمن وخطبهم بقصيدة من نظم القاضي ابن عمران منها:

أسليم دعوة ذي إخاء مرشد	هاد إلى الحق المبين المسعد
ومذكر ما كان أسلافكم	فضلوا به أفعال كل مسدد
بجهاد أعداء الله ونصرهم	لرسول ربهم النبي محمد
وتعرفوا إنا عليكم صُبرٌ	حتى يعود جواب هذا المنشد

(ابن عذاري: البيان 3، ص 39، ط: تطوان).

(2) يعني بالنصارى النورمانديون في جنوب إيطاليا وفي صقلية الذين كانوا يفرضون سيطرتهم البحرية على حوض البحر الأبيض المتوسط وينافسون فيه الإمبراطورية الموحديّة.

(3) ابن عذاري: البيان، ج 3، ص 38 (ط: تطوان). هذا وسبق للروم أن احتلوا مدينتي المهديّة وزويلة سنة 480هـ في ثلاثمائة مراكب حربية على ظهرها ثلاثون ألف مقاتل بسبب غياب عسكر سلطانها عنها «وخلوا كافة الناس من الأسلحة والعدد وقصر الأسوار وتهدمها، وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة»، وخلاف قائد الأسطول في الخروج إليهم. وقد استوعب ذلك الشاعر أبو الحسن الحداد في قصيدة أولها:

أنسى يلم الخيل أو يقف	وبين أجفاننا ثوى ادنف
غزا حمانا العدو في عدد	هم الدما كثرة أو اللعف

وعندما تم له فتح «مهدية - تونس» جلس عبدالمؤمن «مجلس التهنئة والشكر» وأمر «بوصف الفتوح والجدل الممنوح» بهذه القصيدة التي هي من إنشائه ونظمه كما ذكر ذلك ولده أبو يعقوب حينما أمر موحي إشبيلية بأن يلقنوها لطلبة إشبيلية، وضمنها في رسالة بعث بها من مهدية إلى الموحيين - في اسم أخيه أبي حفص عمر حاكم إشبيلية وتلمسان - يبشرهم بالفتح ويصف فيها «آثار الوقائع بالسيوف الحداد»، ويعلن «ببلوغ الأوطار وفتح المشارق وإتمام مراد الله في غلبة الكفار، ونيل الغلبة لأولياء الله الموحيين الأبرار».

منها:

ولما قضينا بالمشارق أمرنا
وتم مرادُ الله في كل مطلبٍ
وأشرقَتِ الشمس المنيرة فوقنا
وأصبحَ وجه الحق غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافرٍ
وعاد به الإسلام بعد تقلب
وكسرت الصلبان في كل بيعةٍ
ونادى منادي الحق في كلِّ مرقب
أسرنا بأعناق المطي إليكمُ
فطارَ به شأؤُ السرور بمغرب
فأبشر أبا حفصٍ بنصرٍ مؤزرٍ
كفيل بما تبغيه في كل مذهب

من كل آو - وليت ما أتلّفوا
قد جهلوا في الحرب ما عرفوا

عشرون ألفًا ونصفها اتلفوا
جاءوا على غرة إلى نضر
(ابن عذاري: البيان 1، ص 301).

ولا بد من يومٍ أغرَّ محجلٍ
يسيلُ دماء الكفر في كل مذنبٍ
وتشفى صدور المؤمنين بغزوةٍ
تكون على حكم الحسام المدرب
ويغزو بلاد الروم جيشٌ عرمرمٌ
بخيلٍ من قيس وأبناء يَغْرُب
يصول به عن عصابة الحق معشرٌ
بجملةٍ ما يلقاه خير مجرب
فيدفع بالصمصام كل مجاهرٍ
ويقطع بالبرهان كل مشغب
فطوبى لأهل الغرب ماذا يرونه
من النصر والفتح المبين المقرب⁽¹⁾

وقد أراد الخليفة الموحي أن يفتتح بهذه القصيدة مجلس الشعراء الذين
سيتبارون في تهنئته وينثرون عليه من عقود مديحهم أعذب قصيدهم.

فأنشد أبو العباس الجراوي قصيدة مهولة في فتح المهديّة هذه سنة 555هـ،
ومدح الخليفة عبد المؤمن الموحي، الإشادة بضراوة خيوله وبلاء كتائبه في الحرب،
وذم أهل صقلية من الأفرنجة وهجائهم هجاءً لاذعاً ساخرًا نابغاً من نفس أبيّة
أحست بالإهانة في دارها وبين أهلها:

لمن الخيول كأنهن سيولُ
غصت بهن سباسبٌ وهجولُ
طويت لها الدنيا بأبعد ما انتحت
دان وأبطا سيرها تعجيل

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 41 (ط: تطوان) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 123 - 125.

يغزو أديم الأرض من سهلاتها
 مثل اسمها حتى تكاد تزول
 فصهيلها محض الثناء وإن يكن
 لا يفهم الإقدام منه صهيل
 جَهْلَ النصارى أنه الملك الذي
 يَـرِثُ البلاد وعذرهم مقبول
 أهل الجهالة هم فكيف ألومهم
 وعلمت أن الطبع ليس يحول
 شكر البلاد مع العباد خليفة
 هو بالبلاد وبالعباد كفيل
 لو تنطق «المهديتان»⁽¹⁾ لقاتنا
 في الشكر ما لا يدرك التحصيل
 بالأمس يماً سمعها ناقوسهم
 واليوم يماً سمعها التهليل⁽²⁾
 ومما قاله الجراوي أيضاً في حصار مهدية من قصيدته التائية مخاطباً
 الخليفة الموحي:
 هنأ إمام الهدى فالعدل منبسط
 والدين منتظم والكفر أشتات
 أعيت مأثركم من أن تنال وكم
 شئت عليها من الأقوال غارات
 وكم أرادت ولأه الشعر تحصرها
 فأخفقت دونها منهم إرادات⁽³⁾

(1) هما: مهدية إفريقية ومهدية الرباط (نسبة إلى المهدي بن تومرت) التي اختطها عبدالمؤمن اتجاه سلا.

(2) ابن عذاري: البيان، 3، ص 48 (ط: تطوان).

(3) المصدر السابق، ص 48.

وقد حقق عبدالمؤمن الموحي انتصاراً آخر بإفريقية وهذه المرة على عرب
رياح الذين كانوا أشد نكاية بالنفوذ الموحي، فأنشد الشعراء أمام الخليفة
الموحي قصائد يهنئونه بهذا الانتصار ويصفون ما حل بهؤلاء المتخاذلين من
هزيمة وانكسار. فمن ذلك قول الشاعر أحمد بن سيد الإشبيلي المعروف بالصلص
قصيدة منها:

فأتت على شيع الضلال كما أتى
ضوء الصباح على سواد الغيب
ومضت على حدّ الحسام أعارب
نكثوا عهداً أبرمت في يعرب
لما حداهم للجهاد مشمر
ذهبوا من التأويل أخبث مذهب
فكأنما ألقى الكتاب إليهم
«أن الجهاد عليهم لم يكتب»⁽¹⁾

واستمر الشاعر هكذا في هجائهم والتقليل من أهميتهم أمام الخليفة الموحي.
ولم عزم أبو يعقوب على الجهاد في الناحية الشرقية من المغرب «قدم ابنه
المنصور أبا يوسف على رأس الجهاد». وعندما وصلت الجيوش الموحدية إلى تلمسان
«وعبأ أمير المؤمنين جيوشه برسم الغزو إلى قفصة وبلاد القيروان»، ودخل إلى
بجاية واحتلها وقضى على الثائر «ابن المنتصر» الذي كان يحرض العرب على الفتنة،
وقبض عليه. ثم سار من بجاية إلى قفصة (المدينة الأزلية)، ونازل المدينة بالمجانيق
حتى طلب أهلها (بنو الرند) العفو والصفح «فأسكنها بعسكر من الموحيين»⁽²⁾.

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 168 - 172.

(2) صدرت عن الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور من جهة أخرى وصية يوحى فيها بنيه وأهل دولته
بالعودة الأندلسية وثغورها ويدعوهم إلى جهاد الأعداء فيها. يقول منها: «ولتعلموا أعزكم الله أنه
ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها»..
«ولو مد الله لنا في الحياة لم نتوان في جهاد كفارها حتى يعيدها دار إيمان» (الحلل الموشية ص 160).

وقد نظم الشاعر أبو الربيع سليمان الموحيدي⁽¹⁾، قصيدة في هذا الفتح يقول منها مخاطباً عمه المنصور الموحيدي:

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وأنت لعونكم الملائك سبقا
حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
وأمدك الرحمن بالفتح الذي
ملأ البسيطة نوره المتشعشع
ومضيت في نصر الإله مصمما
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
أين المفر ولا مفر لهارب
والأرض تنشر في يديك وتجمع
أخليفة الله الرضي هنية
فتحاً يمد بمثله ويشفع
فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً
ولبست منه أنت مالا يخلع⁽²⁾

(1) أبو الربيع سليمان الموحيدي هو ابن عم المنصور الموحيدي تولى ولاية سجلماسة وأعمالها إلى السودان ولكن ابن غانية خرج عليه ودحره، ولد بعد العقد الخامس من القرن السادس الهجري. فتلقى العلم بالمغرب والأندلس وشغل مهام مدنية وحربية. حفظ التاريخ لهذا الأمير الشاعر كثيرا من المواقف الأدبية والحربية. توفي سنة 606هـ. جمع ديوانه محمد بن عبدالحق بن عبدالله الفساني، ويسمى: «نظم العقود ورقم الحل والبرود». انظر عن هذا الشاعر المجاهد:

1 - د. عباس الجراري: الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحيدي ص 125 - 133.

2 - ابن تاويت: الوافي، ج 1، ص 184.

3 - عبدالله كنون: الأمير سليمان الموحيدي: الذكريات رقم 10.

(2) أبو الربيع سليمان الموحيدي: الديوان، ط: تطوان، ص 20. ووردت هذه القصيدة في الذخيرة السنية (ص 157 - 158)، وفي الأنيس المطرب لابن أبي زرع (ص 319 - 320) وفي نفح الطيب للمقري (ج 4، ص 103) الذي نسبها أيضاً لشاعرنا أبي الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن الموحيدي. كما نسبها الزياني لهذا الشاعر الأمير في «الترجمة الكبرى» (ص 261)، وقال بأن هنا بها ابن عمه السلطان يعقوب المنصور أبي يوسف بن عبدالمؤمن بعد تحقيقه نصراً على الصليبيين في غزوة «الأرك».

ثم رحل أبو يعقوب عن قفصة إلى تونس، وخاطب أهل مراكش وأهل الأندلس برسالة بعث معها بقصيدة من نظم الكاتب الخطيب والفيلسوف الطبيب أبي بكر بن طفيل الوادي، يبشرهم فيها بأن الله أنجز وعده وهزم «أبطال الظنون الكواذب»، وأن حزب الموحدين «أغلب غالب»، مطلعها:

أقيموا صدور الخيل نحو المغرب
لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

منها:

ولما انقضى الفتح الذي كان يُرتجى
وأصبح حزب الله أغلب غالب
وأنجزنا، وعد من الله صادق
كفيل بأبطال الظنون الكواذب
وساعدنا التوفيق حتى تبين
مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأذعن من عليا هلال بن عامر
أبي ولبي الأمر كل مجانب
أشرنا بأعناق الجياد إليكم
وعجنا عليكم من صدور الركائب
إلى بقعة قد بين الله فضلها
بمن حل فيها من إمام وصاحب⁽¹⁾

ولما وصلت هذه القصيدة إلى مدينة إشبيلية «استبشر الناس بما يسر الله لأمر المؤمنين من عظيم الفتح وكريم النجح». فأنشد أبو مروان عبد الملك بن محمد في مجمع أشياخ إشبيلية قصيدة يبارك فيها هذا الفتح:

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 114 - 115 (ط: تطوان).

فتح يفوت مدارك الأوهام
ويعجز الإحصاء بالأقلام
ثم ينوه بالخليفة الموحي «ناصر الإسلام» الذي سار على نهج الخلفاء
السابقين، وأمن البلاد وطهرها من المروعين:
صدع الدجى صدع الرداء بنوره
فأرى الغواة تقضي الأحلام
حين البشائر صورت حمل المنى
بقبول خير خليفة وإمام
لما طوى طي السجل مشارقاً
أم المغارب ناصر الإسلام
يا أيها الملك الذي في ظلّه
أمن المروع حوادث الأيام
وسطاً وجاد وما يطاول شأوه
أسد العرين ولا الغمام الهامي
وجرى على نهج الخلافة تابعاً
أثارها في النقص والإبرام⁽¹⁾

وما أن اعتلى أبو يوسف يعقوب المنصور عرش الخلافة المغربية حتى شغلت
أحداث إفريقية أيضاً باله بسبب ثورة بني غانية الذين لم يخضعوا خضوعاً تاماً
للموحدين، بل بقوا على الولاء للمرابطين وخصوصاً بالجزر الشرقية (ميورقة
ومنورقة)⁽²⁾. فحاربهم حرباً ضارية واستولى على بجاية سنة 580هـ (وقيل سنة

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 115، ص: تطوان.

(2) تدعى هذه الجزر اليوم بجزر البليار.

والجدير بالذكر أن الغلبة كانت سجلاً بين المنصور الموحي وبني غانية. فرغم جهوده الحربية التي
أبلاها لاستئصال شافتهم ظلوا يهددون مدناً إفريقية كتونس والمهدية وصفاقس والقيروان وقفصة،

581هـ)، وأخرج بني غانية منها بعد حركة عسكرية عظيمة شاركت فيها الجيوش البرية والبحرية، فأنشد أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في هذا الفتح قصيدة مطلعها :

لوأوك منصورٌ وسعدك غالبٌ
وحزبك للأعداء عنك محاربٌ
يصف فيها انهزام رأس الثائرين علي ابن اسحاق وصفًا رائعًا ودقيقًا بعد أن وقع عليه هجوم الموحدين برًا وبحرًا :
تلاقى عليه البر والبحر ترتقي
سفينًا إلى استيصاله وكتائب
غريقٌ بغرقى مثله متمسكٌ
وموجُ المنايا منهم متراكب
وذلك بعد أن غرته الأطماع وهوت به وأتباعه إلى الهلاك :
هوت بهم الأطماع في هوة الردى
وغرتهم جهلاً بروق خوالب
أطاعوا غويًا لم تقيده سرعة
ولم تُره وجه الصواب التجارب
وبعد أن لم يستفد هذا الثائر الضال من انهزامه عند احتلال بجاية (الناصرية) والحفاظ عليها :
تصائم عن وعظ الزمان بقلبه
وأعرض عن وجه الهدى وهو لاحبٌ

ومدناً من المغرب الأوسط كبجاية وتلمسان. وقد احتلوا بعضها ودعوا فيها للدولة المرابطية بني عمومته وحتى للدولة العباسية. وقد أهلكهم الناصر الموحدي بأسطوله في جزرهم الشرقية. (د. حسن جلاب: حدود الوثيقة الشعرية عصر الموحدين نموذجًا).

تخيّل أنّ الناصرية دارهُ
يطاعنُ عن ساعتها ويضاربُ
ثم يكشف الشاعر لرأس الفتنة عن أمر الله الذي لا مفر منه:
وفي الغيبِ من إنجاز طائفة الهدى
ونصر أمير المؤمنين غرائبُ
هو الأمرُ أمرُ الله ليس يفوته
مناوٍ ولا ينأى عليه مناصب
وبعد أن علم بوصول الجيش الموحي فر الثائر إلى تونس:
وما هارب منه ولو بلغ السها
بناجٍ وهل ينجو من الله هاربٌ؟
بناصرها المنصور تاهت خلافةُ
تناسبه في حسنه ويناسب⁽¹⁾

وحارب المنصور أيضاً فلول الميورقين «الأغزاز» من أتباع بني غانية والعرب
وأشباعهم الذين استولوا على الجنوب التونسي وبلاد طرابلس، فنهض لهم وانتصر
عليهم، وفر يحيى بن غانية إلى صحراء برقة.

ودخل المنصور إلى تونس سنة 583هـ بعد فتح قفصة، فتوافدت الوفود مهتة
بهذا الفتح الجديد. وكان في حضرة المنصور الشاعر أبو العباس الجراوي الذي
صاحبه في حركته «الجهادية» هذه⁽²⁾، حيث هنأه بهذا الانتصار الذي حققه على
«أصحاب الفتنة والعصاة المارقين» وأنشد قائلاً:

فتحٌ يطاول فتحه الأحقابا
خضعث له فرق الضلال رقابا

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 151 - 152 (ط: تطوان).

(2) محمد الفاسي: أبو العباس الجراوي (محاضرة) ص 3.

واستشعر المراق منه مخافةً

ملكث عليهم جيئةً وذهاباً

إلى أن يقول هاجياً أهل قفصة الثائرين الذين ذاقوا من جراء فتنتهم وتعنتهم
ألواناً من الشقاء والعذاب:

طمعُ الشقاء بأهل قفصة وارتقى

بهم شواهقُ صعبةٍ وعقاباً

وأبى لهم إصرارهم من قبل أن

رأوا العذاب إنابةً ومتاباً

لم يغن عنهم إذا أتاهاهم من علٍ

أن يحرسوا الأسوار والأبواباً

طلبتهم تحت التراب وفوقه

أجالهم فتولجوا الأسراباً

حتى توج الله جهاد المنصور - الملك البر التقي - بآيات نصره على أعدائه الهالكين:

آيات نصرٍ بيناتٍ كلها

بهرت بما جاءت به الألباباً

وسعادة عجب تهدقوى العدا

هداً وتقصم منهم الأصلاباً

خصت إماماً للبرية مجتبي

براً تقياً خاشعاً أواباً⁽¹⁾

ومن بين الشعراء الذين شاركوا في تخليد هذه الانتصارات أبو بكر بن مجبر،
الذي أنشد في فتح يوم «الجمعة» بتونس (فتح القيروان) مشيداً ببلاء جيوش
المنصور وكتائبه البلاء الحسن بقيادة إمامها وقائدها:

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 168 - 169 (ط: تطوان).

أسألكم لمن جيش لهام
طلأعه ملائكة كرام
أتت كتب البشائر عنه تترى
كما يتحمل الزهر الكمام
كأن النصر أضحكها ثغوراً
فلأيام عنهن ابتسام
ويا للناس يرغب عن أناس
لهم بالدين والدنيا قوام
أمامهم إذا سلكوا سبيلاً
كتاب الله يتبعه الإمام
فسل ما حل بالأعداء منه
وكيف استوصل الداء العقام
لقد برزت إلى هون المنايا
وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسي العز عنها
فليست تدفع القدر السهام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص
وأمسوا بالصعيد وهم رمام⁽¹⁾

وقال أيضاً نفس الشاعر من قصيدة أخرى يهنئ المنصور بفوزه على الأغزاز
(الأتراك) الموجودين بطرابلس وبرقة، وعلى قائدهم علي بن إسحاق الميورقي سنة
583هـ (السالف الذكر) لما دعا للعباسيين بقفصة على رأس عرب هلال، ومن انضم
إليهم وقد اجتمعوا على خلع طاعة الموحدين، يقول في مطلعها:

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 164 - 165 (ط: تطوان).

عدوكم بخطوب الدهر مقصود
وأمركم باتصال النصر موعود
وملككم مستمر ماله أمد
موقت دونه يوم الحشر محدود
ألقي على كل جبار كلاكه
كأنه وهو في الأحياء مفقود

ثم يتحدث الشاعر عن التأثير وعقبى عداوته للخليفة الموحدى:

رأى الشقاء ابن إسحاق أحق بد
من السعادة والمجد ومجدود
أما درى - لا درى - عقبى عداوتكم
كلُّ بحدّ حسام الحق محصود
ألقي السلاح وولّى يبتغي أمدًا
ينجي وهو مروع القلب مفقود

ويصف كيف تمت هزيمة الأغزاز أمام قوات المنصور:

أنهى الزمان على الأغزاز واجتهدت
في قطع دابرهم أحداثه السود
ونازعتهم سيوف الهند أنفسهم
فلم يفدهم عن الهيحاء تغريد
فهم على الترب صرعى مثله عددًا
إن كان يقضى بأن الترب معدود
إذا حمى الأسد الغضبان رابية
لم يفترس ثعلب فيها ولا سيد

أنتم سليمان في الملك العظيم وفي
طول التهجد في المحراب داوود
قد أبهج الدين والدنيا مقامكم
وكيف لا وهو عند الله محمود⁽¹⁾

ولما رحل الأسطول الموحي إلى الغرب، بعث ابن غانية غزي الصنهاجي
بجملة من جنده لحصار مدينة «أشير»، فتغلب عليها وقتل أهلها، فتوجه أبو حفص
عمر بجماعة من الموحدين والتقى بغزي الصنهاجي وأصحابه ودار بينهم قتال
عنيف، وأوقع بهم وبعث برأس غزي إلى بجاية.

فقال الجراوي مهناً المنصور:

بجد عزمك نال الدين ما طلبا
وأحجم الشرك عن إقدامه وهبا
وأيقننت ملة الإسلام أن لها
بكل الظهور على الأعداء والغلبا
وأن أمرك مستول على أمد
من السعادة فات العجم والعربا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله
وكل عصر له ما زال مرتقبا⁽²⁾

ولما انتهى المنصور من محاربة ابن غانية وتشتيت جموعه اتجه للقضاء على
العرب (عرب الرياح من بني هلال بن عامر)⁽³⁾، الذين كانوا يؤيدون ثورة الميورقيين

(1) ابن سعيد. الغصون الياقة، ص 102.

(2) ابن عذاري: البيان 3، ص 153 - 154 - 155 (ط: تطوان).

(3) لا شك أن هجرة القبائل من بني هلال وبني سليم كانت أهم حدث تاريخي في المغرب طوال عهود
الإسلام فيه ذلك أنه كان لها الفضل في إعادة تعمير البلاد المغربية بشرياً بعد أن كان سكانها
الأصليون قد استنزفهم الحروب والفتن وخاصة في عهد الرومان والوندال. وساهمت في توحيد

على الموحيدين وشردهم في الصحاري. ولما أتوه طائعين تائبين نقلهم إلى المغرب سنة 584هـ⁽¹⁾، فاستقروا في السهول المغربية المحاذية للمحيط ما بين ملوية وتافلاالت⁽²⁾.

الأقطار المغربية ترابياً وسياسياً، ودافعت عن المسلمين في الأندلس، وتحملت قسطاً كبيراً من الخسائر البشرية تحت قيادة الموحيدين لحماية المسلمين من الهجمات المسيحية. وحمت البلاد المغربية والمدن الساحلية بالخصوص من الغارات الصليبية. كما كانت العامل الأساسي لازدهار وانتعاش الكثير من المدن - بعد ضعفها وانهارها كقفصة وقابس وبجاية وتونس - وإحياء الزراعة والتشجير المثمر في تونس والمغرب وخاصة في عهد الموحيدين، وأخيراً فإن ما أحدثته هذه القبائل العربية هو تعريب السكان جماعياً ونهائياً عن طريق المخالطة والمصاهرة والمعايشة المشتركة في الحياة والأرض كما أكد ذلك ابن خلدون.

أبو القاسم محمد كرر: «دراسات في التاريخ والتراث» (تعمير إفريقية وتعريبها) (بتصرف).

(1) من قول يعقوب المنصور الموحيدي، (قيل إنه من نظم السرخشي، وقيل أيضاً من نظم ابن عمه أبي الربيع سليمان الموحيدي) الذي كتب به إلى هؤلاء العرب «لما لفوا لفهم مع ابن غانية وقراقوش الأرمني مولى بني أيوب - الذي أوقد نار الحرب من طرابلس إلى تونس - في الثورة عليه بإفريقية، يدعوهم فيها إلى السلم وإلى الاعتصام بعري الإيمان وبالتنقل»:

يا أيها الراكب المزجي مطيته	على غدافرة تشقى بها الأكم
بلغ سليمى على بعد الديار بها	بيني وبينكم الرحمن والرحم
يا قوم لا تشبوا الحرب إن خمدت	واستمسكوا بعري الإيمان واعتصموا
كم جرب الحرب من كان قبلكم	من القرون فبادت دونها الأمم
حاشا الأعراب أن ترضى بمنقصة	يا ليت شعري هل تراهم علموا
يقودهم أرمني لا خلاق له	كأنه بينهم من جهلهم علم
الله يعلم أني ما دعوتكم	دعاء ذي قوة يوماً فينتقم
ولا لجأت لأمر يستعان به	من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزى رسول الله عن نسب	ينمى إليه وترعى تلکم الذمم
فإن أتيتم فحبل الوصل متصل	وإن أبيتم فعند السيف نحتكم

(المقري: نفع الطيب، ج 4، ص 100 و101).

(2) سبق للعبيديين أن دعوا هؤلاء العرب من بني سليم وبني هلال إلى النزوح إلى المغرب ليناوئوا الصنهاجيين من بني المعز، «وحين عبر عبدالمؤمن الموحيدي إلى الأندلس نفر إليها منهم جمع ضخم وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا» (المراكشي: المعجب ص 205، 225، 226). وقيل إن عبدالمؤمن ندم على ذلك. وقد لعب هؤلاء العرب دوراً خطيراً في عزل وتولية عدد من ملوك الدول المتعاقبة على المغرب منذ الموحيدين. من ذلك أنه لما دب الخلاف بين يحيى بن الناصر الموحيدي وعمه المأمون الذي دعا لخلافته بالأندلس حتى قام هؤلاء العرب وشقوا الطاعة على الأمير الموحيدي يحيى بن الناصر بن المنصور وقدموا بيعتهم إلى المأمون الموحيدي بإشبيلية، فكتب المأمون على لسان أبي زيد الفازاوي قصيدة إلى زعيمهم هلال بن المقدم يشكره على فعله، ومطلعها:

ومن غرر قصائد الجراوي قصيدة يذكر فيها مزايا هؤلاء العرب العسكرية في
الحروب ويستميلهم إلى خدمة المنصور الموحي - بكل لباقة ولطف - وإلى تلبية
دعوته لمناصرته ضد الكفار في غزواته بالأندلس، حتى يأمن جانبهم ويتقي شرهم.

فمن مزاياهم الحربية ومآثرهم في الحروب قوله:

أحاطت بغايات العلا والمفاخرُ

على قدم الدنيا هلال بني عامرٍ

وزانوا سماء المجد بدءاً وعودةً

بسحر القنا والمرهفات البواتر

هم المضرّيون الذين سيوفهم

صواعقُ نصرٍ تنتحي كل كافر

هم أطلعوا في ليلٍ كل عجاجةٍ

كواكب أطراف الرماح الخواطر

هم مرّقوا بالببيض كل ممزق

ممالك شاهدتها ملوك الأكاسر

مآثر أسلافٍ تلاها بنوهم

وبأمثالها أكرم بها من مآثر

ثم يتخلص الشاعر للإشادة بالمزايا الحربية للخليفة الموحي:

الطعنُ والضربُ منسوبان للعرب	بالمسهرية والهندية القضب
والحرب تبعثُ منها كل معترك	حفائظاً تترك الأعداء في حرب
(انظر ص 300) ولما توصل الناصر بهذه القصيدة أمر أبا عبدالله ابن الصفار أن يجيب عنها ويعيد الحقائق إلى نصابها فنظم:	
نسبت شر عبيد العجم للعرب	جهلاً بفضل رسول الله والنسب
أصخ لتسمع أنساب الذين هم	شعاركم في الخطوب السود والنوب
(الفستالي: المناهل، ص 119، 121، ت: كنون).	

هَزَبْرُ عَلَيْهِ لَبْدَةٌ مِنْ مَفَاضَةٍ
وَنَابٍ وَظْفَرٍ مِنْ سَنَانٍ وَبَاتِرٍ
إِذَا صَالَ يَوْمَ الرُّوْعِ أُوْرِدَ قَرْنَهُ
مَوَارِدَ مَوْتٍ مَا لَهَا مِنْ مَصَادِرِ
تَعَايِنَ مِنْهُ مِثْلَ بَازٍ مُصْرِصِرٍ
عَلَى مِثْلِ فَتَخَاءِ الْجَنَاحِينَ كَاسِرِ
إِذَا شَبَبَتْ الْهَيْجَاءُ أَوَّلَ وَارِدٍ
وَإِنْ خَفَتِ الْأَبْطَالُ آخِرَ صَادِرِ
ثُمَّ يَتَوَجَّهْ بِالْخُطَابِ إِلَى عَرَبِ بَنِي عَامِرٍ مُوجَّهًا إِلَيْهِمْ «نَدَاءُ الْجِهَادِ» وَدَاعِيًا
إِيَّاهُمْ لِلدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْإِمَامِ الْمُوَحِّدِي - حَامِي الدِّيَارِ وَرَاعِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا -
وَلِلْجِهَادِ مَعَهُ ضِدَّ الْكُفَّارِ:

بَنِي عَامِرٍ وَأَنْتُمْ صَمِيمٌ فَصَمِّمُوا
إِلَى الْمَوْتِ تَصْمِيمَ اللَّيْثِ الْخَوَادِرِ
وَلَا تَتَوَانَوْا فِي حِظْوِظِ نَفُوسِكُمْ
فَإِنَّكُمْ أَهْلُ النُّهْيِ وَالْبَصَائِرِ
وَلَا بَدَّ مِنْ يَوْمٍ عَلَى الْكُفْرِ أَيُّومٍ
تَعُمُّ بِهِ الدُّنْيَا وَفُودُ الْبَشَائِرِ
دَعَاكُمْ لِمَا يَحْيِيكُمْ وَارِثُ الْهَدْيِ
وَجَامِعُ أَشْتَاتِ الْعُلَى وَالْمَفَاخِرِ
وَأَحْزَمُ مِنْ سَاسِ السِّيَاسَةِ وَالدُّنَا
وَأَكْرَمُ مَأْمُولٍ وَأَحْلَمُ قَادِرِ

فلا برح الإسلامُ منه مؤيدًا

بمنصور راياتٍ على الكفر ناصر⁽¹⁾

ولما عاد المنصور أبو يوسف يعقوب إلى مراكش وفد عليه كثير من المهنيين من جملتهم الشاعر أبو بكر بن مجبر⁽²⁾ «الشاعر المحسن» الذي هنأه بإحيائه للدين في ربوع المغرب وإفريقية وبالقضاء على «رؤوس الفتنة والتمرد والعصيان»، وبالنصر الذي أحرزه وقد «خط في الكتب»:

أيها المنصورُ إنَّ الدين قد
حلَّ من عزك أعلى الرتب
هو أمرُ الله في أيديكم
فاجذبوا الأرض به تنجذب
يقتضون الوعد بالنصر لكم
وهو قد خطَّ لكم في الكتب

(1) ابن سعيد الأندلسي: الفصول الياضعة ص 203.

عندما بعث الأمير عمر بن عبد المؤمن إلى أخيه السلطان يوسف قصيدة ووصف له فيها غزوة جبل الكوكب بشمال المغرب، مدح هو أيضًا هؤلاء الأعراب الذين حققوا للأمير نصرًا على التأثير سبع بن منخفاذ، وهي من نظم أبي عمرو بن حربون:

جنبناها بيمينكم كراما	على صهواتها عرب كرام
إذا انتاشوا رماحهم تدلى	أحم النقع وانحط الحمام
أباة الضيم إن أمروا بأمرٍ	فكل عزيز كفر مستضام
لهاميم العطايا لم يزالوا	يلف عليهم الجيش اللهام
ألا لله منهم كل ذميرٍ	يقبل سيفه الموت الزؤام
يهش إلى لقاء القرن حتى	كأن الطعن بينهما دمام

(ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 337).

(2) من شعر ابن مجبر في وصف خيول المنصور قوله:

تهب على الأعداء منها عواصف	ستسفف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمتري	أظلياً ترى تحت العجاجة أم طرفاً؟
وقد كان في البیداء يألف سربه	فربته مهراً وهي تحسبه خشفاً
تناوله لفظ الجواد لأنه	إذا ما أردت الجري أعطاكه ضعفاً

(ابن الخطيب: الإحاطة، ج 4، ص 420).

غَيْرَ أَنَّ السَّعْيَ مَحْمُودٌ وَلَا
يَقْطَعُ السَّيْفُ إِذَا لَمْ يَضْرِبْ
قَدْ تَلَا فَيَ اللّٰهَ إِفْرِيقِيَّةَ
وَهِيَ تَنْهَبُ فِي يَدِ مَنْتَهَبٍ
أَنْتُمْ أَحْيَيْتُمُ الدِّينَ وَقَدْ
مَاتَ فِيهَا مَوْتٌ مَنْ لَمْ يَعْقِبْ
أَحْجَمَ الْأَعْدَاءَ عَنْكُمْ رَهْبَةً
مَنْ رَأَى الْمَوْتَ عَيَانًا يَرْهَبُ⁽¹⁾

ونظم الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي⁽²⁾، قصيدة يهنئ الخليفة بمقدمه من إفريقية فاتحاً منتصراً، ويردد ما قام به على رأس جيشه في غزواته الظافرة من نصرة لدينه وقهر لأعدائه، مطلعها:

ضَاءَتْ بَنُورُ إِيَابِكَ الظُّلُمَاءُ
وَتَبَاشَرْتُ بِمَقْدَمِكَ الْأَرْجَاءُ

ثم يقول:

أَخْلِيفَةُ لِلّٰهِ الرِّضَى وَلِلّٰهِ
مَا ضَاعَ عِنْدَكَ لِلثَّغُورِ رَجَاءُ

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 173 - 174 (ط: تطوان).

(2) لم يبرز الأمير الشاعر في البلاط الموحدي إلا في عهد المنصور - كما نشاهد - وقد أنشأ فيه عدة قصائد يصف فيها مواقفه البطولية وتحركاته العسكرية ويمدحه بالشجاعة وقوة الجأش ونصرة الدين (لم تخرج عن المألوف فيما أنشد في الموحدين) (د. عباس الجراري: الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي ص 108 - 202).

وقال هذا الأمير الشاعر يوماً على لسان السيف:

أَنَا عَزٌّ وَهَيْبَةٌ وَجَمَالُ	وحسام تهزه الأبطالُ
فَإِذَا مَا انتَضَيْتَهُ فِي يَوْمِ حَرْبٍ	ظهر اليمن فيه والإقبال
(ابن الخطيب: الإحاطة، ج 4، ص 134).	

أنت الذي نذر الإله لوقتته
في الفتح ما وعدت به الخلفاء
فمضيتَ تنصر دينه متوكلاً
ومع التوكل عزيمة ومضاء
وأخذتَ للأعداء كل ثنيةٍ
فأريت كيف تقتل الأعداء
وبعدما يصف بلاء «عقبانه» وبلاء سيوفه في أعدائه:
جيشٌ من العقبان إلا أنه
ضراء قومٍ عنده سراء
لم يبق سيفك منهم من ينبئن
بقتلهم ولبيست الأنبياء
يهنئه بالفتح الذي طبقت الآفاق أصداءه:
يهنيك يا خير الخلائف غزوةً
كشفت عن الدين بها اللأواء
وارتجَ بغدادُ وماجَ بغزوه
أرض الشام ومصر والبلقاء⁽¹⁾

وبعدما تمت بيعة خلف المنصور أبي عبدالله الناصر لدين الله محمد ابن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن بعد أسبوع من وفاة والده⁽²⁾، ثار بإفريقية عبدالله

(1) سليمان الموحدي: الديوان ص 23 - 25.

(2) بعد وفاة يعقوب المنصور ظهر ثائر آخر يدعى علي عبدالرحيم بن عبدالرحمن ابن الفرس (من طبقة علماء الأندلس) في بلاد جزولة وانتحل الإمامة والمهدوية. ومما ينسب إليه:

بن إسحاق بن محمد بن غانية المسوفي، وضم إليه القيروان وصفاقص وقابس وطرابلس ودعا للعباسيين. فتحركت الجيوش الموحدية بقيادة الناصر ودخلت إلى إفريقية سنة 600هـ وحاصرت المهديّة (المعقل السامي المنيف). ولما دخل ابن إسحاق إلى صقلية وحاصر جزيرة ميورقة بعث الموحدون إليه أسطولاً من سبّعة فبطش بالمعتدين، وقتل أثناء هذا الهجوم أميرها عبدالله بن إسحاق وتم بذلك فتح ميورقة. وفي هذا الفتح نظم الجراوي قصيدة طويلة يهنئ فيها الناصر - الذي كان لا يفارقه حضراً وسفراً - بعدما استرد ميورقة ورجعت إلى حظيرة الموحدين.

مطلعها:

لك النصرُ حزبٌ والمقاديرُ أعوانُ
فحسبك أعاديك انقياد وإذعانُ

ثم يقول:

أنابت إلى أمر الإله ميورقة
فليس عليها للشقاوة سلطان
هنيئاً لك الإعلان بالحق بعدما
تمادى لها بالزور والإفك إعلان
ثم يهجو الشاعر ابن إسحاق الثائر والمتآمر العاصي لدعوة المهدي:
فبعداً وسحقاً لابن إسحاق أنه
مطيعٌ لأحلام الكرى وهو يقظان

قولوا لأبناء عبدالمؤمن بن علي	تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها	ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوعاً وعصاه وهو سائقهم	بالأمر والنهي بحر العلم والعمل
تبادروا أمره الله ناصره	والله خاذل أهل الزيغ والملل

فبيعت الناصر إليه بجيوشه فهزمته وقتلته ونصبت رأسه في مراكش (الناصري: الاستقصا ج 2، ص 218).

فمن حيثُ رام العزَّ جاءتَه ذلة
ومن حيثُ رام الحظ لاقاه حرمان
وهل هو إلا من أناسٍ تهافتوا
فراشًا على أسنانكم وهي نيران
عصوا دعوة المهدي وهي سفينةٌ
فأغرقهم طغيانهم وهو طوفان⁽¹⁾

ويشيد الجراوي في قصيدة أخرى بشهامة الناصر - حامي الإسلام وناصر
دين محمد - وبعبابته القوية التي استرد بها الجزيرة المذكورة من أيدي ابن غانية:
شاء الإله حماية الإسلام
فأعزَّ نصرته بخير إمام

إلى أن يقول:

واعترَّ دينُ محمدٍ بمؤيدٍ
ماضي العزائم للشريعة حامٍ
نخرُ الزمان من الفتوح غرائبًا
لزمانه المتهلل البسام
لا مثل فتح ميورقة فهو الذي
أهدى السرور لمنجدٍ وتهام
وبعزيمة منصورة وعصابةٍ
مشهورة التصميم والإقدام
جمع ابن غانية فكفَّ جماعه
يوم أدارَ عليه كأس حمام

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 216 (ط: تطوان).

ناهيك من يومٍ أغرٍ محجلٍ
متميزٍ عن سائر الأيام
وعظت بمصرعه الحوادث عنوةً
ناهيك من وعظٍ بغير كلام

ثم يقول في مدح الخليفة الناصر:
فليهنئ الدنيا وجود خليفةٍ
جزل المواهب سابغ الإنعام
ورث الخلافة عن خلائف كلهم
علم الهدى الهادي إلى العلام
ظهرت شمائلهم عليه ولم تزل
في الشبل تظهر شيمة الضرغام⁽¹⁾

وبعد ذلك قف الناصر راجعاً إلى مراكش ماراً من تلمسان وفاس ومكناسة
ورباط الفتح «وافر الصحة شديد القوة».

ولكن ابن غانية أعاد الكرة وحارب الموحدين بتلمسان وإفريقية، فجمع
صاحب إفريقية - بعد انهزام صاحب تلمسان - الشيخ أبو محمد ابن أبي حفص

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 216 - 217 (ط: تطوان).

وللشاعر الجراوي قصيدة أخرى في مدح الناصر لما فتح ميورقة، يقول منها:

أطاعك صرف الدهر في مهج العدا	وأصدر عما شئت فيهم وأوردا
بعثت إمام الجيش جيش مهابة	أقامهم في كل أرض وأقعدا
سعودك نبيل لو قصدت بها السهى	لكان على بعد المسافة مقصدا
تركت بقايا السيف خلف حصاره	رماداً تهادته العواصف أمددا
جرى بهم الإهمال شأوا مغربا	وأعمتهم عن رشدهم فسحة المدى
هو الفتح أعبى من أطال مرجزاً	وفات مداه من أطال مقصدا
قضى الله أن يحظى به أسعد الورى	فكان أمير المؤمنين محمدا

(المصدر السابق ص 217 - 218).

أما الأبيات الخمسة الأخيرة فقد رواها محمد الفاسي في محاضراته عن الجراوي ص 27.

فرسان الجبال وجابه ابن غانية وجيشه، وفتك بهم «وأوقع فيهم السيف وحده»
واستولى الموحدون على جميع «محلّه الضالين». ووصل الخبر إلى الحضرة
المراكشية بهذه البشارة. فجلس الناصر للتهنئة. فقال الشاعر أبو عبدالله بن
يخلفن الفازازي من قصيدته مخاطباً الناصر ومشيداً بجهاده⁽¹⁾ وداعياً له
بإطراد النصر على يديه، مطلعها:

هذي فتوحٌ تفتحتُ أزهارها
وتدفقتُ مائلاً الملاء أنهارها

يقول منها:

ما زلت تعنى بالديانة جاهداً
ومجاهداً حتى استقل منارها
واعتز جانبها وأيد ركنها
واشتد ساعدها وأدرك ثارها

ثم يهجو الشاعر:

عصفت رياحُ جنودكم برياحه
فهفت جوارحها وخف مطارها

ويدعو لممدوحه:

لا زال للإسلام يمينك باقياً
وعداك باقٍ شؤمها وبوارها⁽²⁾

(1) قد يقول بعض النقاد إن محاربة الموحدين لابن غانية لا يصلح أن يطلق عليها جهاداً، لأن ابن غانية كان أيضاً «مجاهداً»، فمحاربة المسلم للمسلم لا يمكن أن نعتبره جهاداً، فأرد على هذا القول: بأنني مع الشاعر ومع روح شعره. فإذا كان شاعر الموحدين مثلاً يعتبر أن مقاومة الموحدين للشوار الذين ثاروا ضد مشروعية دولتهم ووحدة أمتهم يعد ضرباً من الجهاد من أجل المشروعية، فأنا أدين بمذهبه، لأنه ليس من اختصاص هذه الرسالة الجامعية الحكم على أحداث التاريخ وعلى أقطابها، أو إعطاء الحق للغالب أو للمغلوب.

(2) ابن عذاري: البيان 3، ص 232 - 233 (ط: تطوان).

ولما تولى أبو يعقوب يوسف المريني الحكم بالمغرب ووطد أركان ملكه وقضى على الثوار كبني معقل وأبي عامر، حاصر مدينة تلمسان مدة طويلة⁽¹⁾.

ودخلت بذلك عدة مدن جزائرية تحت طاعته، ثم توالى الحصارات المرينية على مدينة تلمسان⁽²⁾.

فقد نازل السلطان أبو الحسن المريني أميرها أبا تاشفين بن يغمراسن سنة 735هـ، «وضيق عليه الحرب» ونصب عليها المجانيق حتى دخلها عنوة وقتله. وانطلق الجيش المريني خاضعاً لمنطقة الزاب وبجاية وقسطنطينية، ثم دخل تونس بقيادة أبي الحسن سنة 748هـ في موكب رسمي قال عنه ابن خلدون: «وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه»⁽³⁾. ولما وصل أبو الحسن إلى مهدية وقف على ساحل البحر

(1) قد أصاب تلمسان بلاء كبير من هذا الحصار يصفه الشاعر أبو عبدالله بن خميس التلمساني في قصيدة بعث بها إلى ابن الخطيب يمدح فيها ذا الوزارتين بن الحكيم من أهل روندة، بقوله:

فيا منزلاً نال الردى منه ما انتهى	نرى هل لعمر الإنس بعدك إنساء
وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي	إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لي زمان أرتجي فيه عودة	إليك ووجه البشر أزهر وضاء
ويا داري الأولى بدرب مغيلة	وقد جد عيث في بلاها وإرداء
أما أن أن يحمي حماك كمعهده	ويجتال أحماش عليه وأحماء
أما أن أن يعيشو لنارك طارق	جنيب له رفع إليك ودئاء

(المقري: أزهار الرياض، ج 2، ص 338).

(2) كان أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق المريني (الملك السادس من ملوك الدولة المرينية) حاصر أيضاً مدينة تلمسان ثلاثة أشهر دون افتتاحها. وكان يحزر رسائله إلى ملوك تلمسان من بني زيان، ومما ورد في رسالة وجهها إلى يغمراسن بن زيان يدعوه فيها إلى التعاون على الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، قوله شعراً من وزن الرجز وبدون أن صنعة شعرية:

واعمل على الجهاد والرباط	وكن بغزو الروم ذا اغتباط
حتى متى لا ترعوي حتى متى	لا بد من كأس الحمام للفتى
فإن أبيت السير للجهاد	وحدت عن مناهج الرشاد
فلتترك الناس إلى جهادهم	مؤمنين في حمى بلادهم
واقعد ولا تنهض إلى تجين	فإنهم في العهد مع مرين

(ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص 335 - 336).

(3) ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 562.

ثم رجع إلى تونس فاتسعت بذلك ممالكه «ما بين مسترارة والسوس الأقصى من هذه العدو إلى رودة من عدو الأندلس». وقد أبدت - حسب ابن خلدون - ممالك مصر قلقها بعد اقتراب السلطان المريني من ديارهم. فوفد عليه شعراء تونس يهنؤونه بالفتح، وكان سابقهم في ذلك الشاعر التونسي أبو القاسم الرحوي «من ناشئة أهل الأدب»، حيث مدحه ومدح ملوك دولته وأشاد بتحريره لإفريقية من يد الحفصيين، مطلعها:

أجابهك شرق إذا دعوت ومغرب
بمكة هشت للقاء ويثرب
وناداك مصر والعراق وشامه
بدارا فصعد الدين عندك يشغب
وحيتك أو كادت تحيي منابر
عليها دعاة الحق باسمك تخطب

إلى أن تطرق لهجاء الحفصيين أهل تونس:
وما أهلها إلا بغاة لصائد
وبالعز منك استنسروا وتقبوا
وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم
فها أنت كهف للجميع ومهرب
ثم أشاد بجهاد أبي الحسن ونضاله ضد الكفار وبدفاعه عن الدين الإسلامي وإنقاذه من يد الغزاة:

تملكت شطر الأرض كسباً وشطرها
تراثاً فطاب الملك إرثاً ومكسباً
بجيش على الألواح والماء يمتطي
وجيش على الضمر الصوافن يركب

وجيشٍ من الإحسان والعدل والتقى
 وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
 ولما أراد الله إتمام منةٍ
 تقلدها منا مطيعٌ ومذنب
 أتى بك للدين الحنيفي آيةً
 تعرى بها عن لامع الحق غيب
 وقممتُ بأمر الله حق قيامه
 يناضلُ عنه منك نصل مدرب
 وجاهدت في الرحمن حق جهاده
 فراهب أهل الكفر بأسك يرهب
 وأنقذت من أيدي الإغارة أمة
 وأولى جهاد كان بل هو أوجب⁽¹⁾

وخلال النكبات التي توالى على أبي الحسن بإفريقية والتي التجأ على إثرها
 إلى القيروان⁽²⁾ بادر أبو عنان المريني⁽³⁾ فارس بن علي (729 - 759هـ) الذي

(1) ابن خلدون العبر، ج 7، ص 563 - 565.

(2) خاطب الأمير أبو علي الحسن ابن أبي عثمان شقيقه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد
 أيقن بزوال أمره بقوله شعراً:

أباد من كان قلبي يا أبا الحسن	فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم
لا بد من فرح فيه ومن حزن	الدهر من كان لا يبقي على صفة
أسد العرين ثووا في اللحد والكفن	أين الملوك التي كانت تهابهم

إلى أن يقول:

واستغن بالله في سر وفي علن	فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمرا
كأنني لم أكن يوماً ولم تكن	واختر لنفسك أمراً أنت أمره

(الناصرى: الاستقصا ج 3، ص 121).

(3) نظم أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي أرجوزة رفعها إلى أبي عنان، قال منها فيه:
 خليفة الله أبا عنان
 لا زال في يمن وفي أمان
 ملكه الله من البلاد
 من سوس الأقصى إلى بغداد

ببيع بتلمسان سنة 749هـ في حياة أبيه - إلى إخضاع إفريقية وتلمسان مرة أخرى بعدما استرد بنو عبدالوادي والحفصيون ملكهم. فقداد بنفسه حملة على تلمسان سنة 753هـ⁽¹⁾ واصطدمت جيوشه بجيوش أبي سعيد عثمان سلطان بني عبدالوادي فوقع هذا السلطان أسيراً وأعدمه أبو عنان في سجنه.

فأنشد القاضي الكاتب علي بن محمد بن عبدالحق بن الصباغ العقيلي أبا عنان قصيدة، يهنئه بهذا الانتصار وينوه بشجاعته وبلائه في الحروب وإخماد الفتن:

يا خيرَ منتصرٍ بالله معتصمٍ
عليه معتمدٌ في الأمر متكلٍ
كم فتنةٍ أخدمت نيرانها يدُّه
بما راقى عليها من دمٍ هطل

ويسر الحجاز والجهاداً
وجعل الكل له مهاداً
(محمد بن غازي العثماني: الروض الهتون، ص 36).

(1) لم يحاصر هذه المدينة العتيقة في تاريخها الموحدون والمرينيون - كما رأينا - فقد بل حصارها أيضاً الحفصيون. ففي سنة 640هـ فتحها أبو زكرياء الحفصي وأجبر يغمراسن على الفرار منها. وفي ذلك أنشد أبو عبدالله محمد بن الأبار القضاعي قصيدة يمدح أبا زكرياء، مطلعها:

غزو على النصر والتمكين منشؤه
الفتح غايته والنجح مبدؤه
ومنها:

حن الإمام إلى أوطانه كرمًا
خيمه الأرضى وضئضئه
فيمم المغرب الأقصى يملكه
واستقبل المنزل الأعلى يبوؤه
سما إلى «مطلع المهدي» يصدع ما
غشاه ظلمًا وإظلامًا تالؤه
ويقصد الشاعر «مطلع المهدي» مدينة مراكش، ثم يخاطبه بقوله:

جاوز تلمسان فتحًا لاحقًا بسلا
يكف من كفر النعمى ويكفؤه
وانهد لمراكش تسعد بها نفلا
ما كان ملكه ينسأه وينشؤه

(ابن الأبار: الديوان ص 41 - 42 - 44). وهذا تحريض من الشاعر للحفصيين باحتلال المغرب! ومما يؤيد قوله من قصيدة أخرى يهنؤه فيها يفتح تلمسان ويمدح جحافله:

وهل سكنت فاس وسبته بعده
أم اصطكتا كالخافقين له خفقا
سلا عن «سلا» من ظلها العارض الذي
أطل على مراكش يحمل الصعقا
(المصدر السابق، ص 383).

ومن جيوش أزيلت عن مواقفها
حتى رآته فلاذت منه بالجبل
كم ثبت الله من جأشٍ بموقفه
وخلص الله من هَوُلٍ ومن وهَلٍ
ثم يصف الشاعر هزيمة بني عبدالواد وما أصابهم من جراء عتوهم ومكرهم
على يد الجيش المريني:

وسل بني عابدي الواد غداة عتوا
وقد أتوا بعظيم المكرفي الأصلِ
هم جادلوا الحق بغياً واعتدوا فتووا
والسيفُ يذهب رسم البغي والجدل
لاقتهم من أكف العزِّ معلمة
غرارى الغضب لا توتي من الملل
فللكمأة - ولا عيب بهم - نهم
إذا جدَّ جدهم في الموقف الجلل
ترميهم ببروقٍ من أسنتها
رمي الملائك هذا الجن بالشعل
فالسمرُ تهتز في الأشلاء من قرمٍ
والبيضُ تحمر في الأعناق من خجل
حتى ارتدوا بجلابيب الظلام وكم
أبقوا بمعترك الأقران من ظلل
تقطعوا أمرهم عذلاً فما انتفعوا
والسيفُ عند التلاقي سابقُ العذل

وسهمٌ عزمك لم يترك بهم رمقاً
بالضرب للهام في القيعان والقلل
إلى أن نصره الله عليهم وعزز ملكه، وهل:
من كان تخدمه الأقدار مسعدة
فهل يعارضه مستعشر الزلل⁽¹⁾

ولما قام أبو عنان بحصار قسنطينة ونهضت إليها عساكره تصب على
«الأعداء» من أهلها سوط العذاب طلب أميرها «أبو العباس» الأمان، فأمنه ودخل
إلى قسنطينة واستولى عليها استيلاءً. ولما كمل هذا الفتح «الذي راق بشراً» نظم
أحمد بن يحيى بن عبد المنان قصيدة واصفاً فيها هذا الفتح العظيم، منها:

هي الأسعد اللاتي علاك لها قطب
هو النصر سام شهبه الدهر لا تخبو
هو الفتح سنته السعود فلم يكن
ليشرع فيها السمر أو تشهر القضب
وسل بلطيف الصنع في أمر فتحها
قسنطينة لما تسامى به العجب
سموت إليها في جيوشك دارعا
كأنك بدر التم تكنفه الشهب

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 271 - 274.
ونجد صدى لاسترجاع أبي عنان لمدينة تلمسان في قصيدة لابن الخطيب مادحاً فيها أبا عنان
ومحرضاً إياه على محاربة أعداء الإسلام، منها:
والنصر يضحك كل مبسم غرة والفتح معقود بكل سيب
والروم فارم بكل نجم ثاقب يذكر بأربعها شواطئ لهيب
بذوابل السلب التي تركت بني زيان بين مجدل وسليب
(المقري: نفح الطيب، ج 9، ص 163) (انظر فصل: التحريض على الجهاد).

رأى منه حزب البغي ما جمع الهدى
وأبصرَ منه الشرقُ ما أنجب الغرب
وقد قدمت عيس القباب يحفها
أسود وغي عاداتها الطعن والضرب
فأذعننت الأعداء ذلاً أويقنوا
بأنك قد تدنو له العجم والعرب⁽¹⁾
وفي نفس الفتح نظم أبو العباس بن النعمان قصيدة أولها:
هو الفتحُ إلا ما تسنى أو النصرُ
تجد له الأقدار تخدم والدهر؟
إلى أن يقول:

ولما أتى مولى الملوك بأسرهم
وذخرهم ما إن سواك لهم ذخِرُ
واقبلت الأبطال من كل جانبٍ
ودار بها من حينه العسكر المجر
توقع من فيها باللحوق برسمه
وحلَّ بهم خوف وداخلهم زعر
واقبل في يومِ النزال أميرها
على قدم يسعى وقد خانه الصبر
فأوسعهُ المولى الخليفة فارسٍ
إمام الهدى عفواً وإن عظم الوزر
فهذي بلاد الشرق أعطت قيادها
وما بقيت إلا بلادٌ بها الكفر

(1) ابن الحاج: فيض العباب، ص 138 - 140 .

فیهنیک أن الله آتاك نصره
وملك الدنيا امتناناً له الشكر
بقيت مكين القدر منظوم أسعد
مسوغ نعى كلما طلع الفجر⁽¹⁾

وللشاعر المريني قصيدة أخرى في تهنئة أبي عنان، وقد وفدت عليه «أسارى
النصارى، ووفود البشائر التي أقبلت تتبارى» منقادة إلى حكمه وطاعته بعد أن من
الله عليه بفتح قسطنطينة:

أتاك بسامي الفتح سعد ملازم
أفاعيله لاما ادعته الصوارم
وجاءك نصرٌ بالنصارى أذلة
ومثلك من ذلت إليه الأعاجم
ودمت عزيزاً حظك النصر دائماً
وحظُ العداة المارقين الهزائم
إذا عزَّ هذا الملك عزَّ به العلى
وعزَّ به دين الهدى والمكارم⁽²⁾

(1) ابن الحاج: فيض العباب، ص 141.

(2) فيض العباب ص 187.

وفي نفس الفتح نظم أبو علي عمر الزناتي قصيدة منها:

أمولاي دامت لك التهنئة	بعز الفتوح الوسام الشيه
هنيئاً بفتح قسطنطينة	وفي فتحها للمنى توطيه
وقال إبراهيم بن الحاج بنفس المناسبة من قصيدة طويلة:	
ويا حسن فتح عم تصحيفه العدا	ومقلوبه وافى لهم مزعج الوفد
هم العرب العرياء لادر درهم	ولا حوموا بالعيس إلا على ثمد
سلبتهم بالسيف أم قراهم	فما ظفروا منها بغور ولا نجد
أتتها جيوش زاحفات كأنها	مع النصر قد كانت هناك على وعد
ومن كان جيش الرعب يفني عداته	فذاك غني في الحروب عن الجند
(المصدر السابق ص 141 - 144).	

وعندما دخلت جيوش أبي عنان إلى تونس بحرًا وأوسعت «التأثر الشقي» «ابن
تفراجين» نكالاً، فر منها، وباع أهل تونس الملك المريني ووصل الخبر إلى «المخيم
السعيد بالفتح الحميد». ففاضت قريحة الشاعر أحمد بن عبد المنان الخزرجي
بمقطوعة شعرية يهنئ فيها أبا عنان بهذا الفتح الجديد:

هنيئاً لك التأييد في البر والبحر
وفتحٌ على فتحٍ ونصرٌ على نصرٍ
عنّتْ تونسٌ طوعاً لأمرِك إذ رأّتْ
بنياتها ألقت إليك عرى الأمر
كذلك تقفو أثرها أخواتها
جميعاً على حكم السعود التي تدري
فلا زال ذاك العزم يطلع دائماً
على الدين والدنيا بشائر كالزهر⁽¹⁾

ويقول أبو محمد البرطال - الفقيه الأديب - في أبي عنان بعد فتحه لتونس:

هنيئاً أيا مولاي ملكك تونس
وإثباتها في سلك ملكك قد حقا
لقد كسيت عزاً بكم وسعادةٍ
وقد سابقت بالفخر أمثالها سبقا
كذاك بلاد الكفر تفتح عاجلا
وتمحق عباد الضلال بها محقا
وتبقى لحفظ الدين والعدل خالداً
بقدره من يرضى الأمانة والصدقا⁽²⁾

(1) المصدر السابق، ص 186 - 187.

(2) ابن الحاج: فيض العباب، ص 187.

كما نظم الكاتب أبو عبدالله بن جابر قصيدة يشيد فيها بهذا الفتح وبرجاله:

بشراك بالفتح مولانا فقد نفحت
به عليك صباه أو جنائبه
وحولك الجيش قد سال به
سيلاً تضيق به ذرعاً مذهبه
فلم تدع معقلاً في أرضهم أشباً
إلا تضعضع وانهدت جوانبه
وهل على الأرض حصن لا تنازله
أو في البسيطة جيش لا تحاربه⁽¹⁾

ولما بويغ بتلمسان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبدالرحمن بن يحيى بن
يغمراسن وقعت له وقائع كثيرة مع بني مرين: فقد فر يوماً أمام جيش السعيد ابن
أبي عنان إلى الصحراء ثم عاد إلى تلمسان فأخرجه منها أبو سالم المريني إلى
الصحراء حين زحف إليه من فاس سنة 761هـ⁽²⁾.

وإثر هذا الفتح بعث الوزير لسان الدين بن الخطيب⁽³⁾ رسالة تهنئة إلى أبي سالم

(1) المصدر السابق، ص 188 - 189. ويلاحظ أمام هذه الحركة الجهادية لأبي عنان المريني في المغرب
وتلمسان وتونس وفي الأندلس من بعد، لإعلاء كلمة الله ولنصرة الحق نعتة ابن بطوطة في رحلته
(التي أمر أبو عنان ابن جزي لتدوينها) بالمجاهد كلما تعرض لذكره: «المجاهد في سبيل الله»، «ناصر
الدين»، «المجاهد في سبيل رب العالمين».

(2) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص 52 - 55.

(3) تولى ابن الخطيب (713 - 776هـ) منصب وزارة الإنشاء الأولى للسلطان أبي الحجاج يوسف بن
إسماعيل النصري أمير المسلمين بالأندلس ولولده الغني بالله وإسماعيل. ولما شك هذا الأخير في
إخلاصه سجنه حتى تشفع له أبو سالم المريني ممدوحه، فالتحق بفاس واستقر بسلا. وكانت أول
زيارة لابن الخطيب للمغرب لما ترأس وفدًا أندلسيًا لتقديم التعازي في وفاة أبي الحسن إلى أبي
عنان، وقدم مرة ثانية على رأس وفد لما بعثه الغني بالله إلى المغرب لطلب النجدة والمعونة. والتجأ
مرة ثالثة للمغرب مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف ابن نصر سنة 760هـ بعدما أطلق سراحه.
ولما استقر بسلا مدة سنتين اختلى للعبادة والتأليف، فألف كتاب: «رقم الحل في نظم الدول» وأهداه
إلى أبي سالم، ثم ألف كتاب «معيان الاختيار في أحوال المعاهد والديار» في وصف بعض حواضر

الأندلس والمغرب حققه د. محمد كمال شبانة سنة 1976، كما ألف كتاب «أعلام الأعلام لمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلال» للسلطان محمد بن عبدالعزيز بن أبي الحسن المريني، و«اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية» وأرجوزة في الطب وغيرها من المؤلفات «كأوصاف الناس في التواريخ والصلات» الذي حققه د. كمال شبانة سنة 1977. كما تزخر «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» برسائل سلطانية كتبها على لسان ملوك المغرب والأندلس نعتها ابن خلدون «بالغرائب». ولما رحل إلى مراكش كان كتاب: «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» جمع فيه مذكراته وأرخ فيه لحوادث سياسية واجتماعية عاشها بالأندلس والمغرب. وهكذا أثناء مدة نفيه لم يقبع بمدينة سلا بل تجول وعكف على زيارة البلاد المغربية لمشاهدة آثارها ولقاء علمائها وصلحائها. ثم رجع إلى سلا وطلب من أبي سالم أن يشفع له لدى الأمير الأندلسي. فلما عاد محمد الغني بالله إلى عرشه أرجع ابن الخطيب وعاد إلى عرش الوزارة بغرناطة. ولما بدأت المناورات ضده فر إلى سلا للمرة الرابعة، واتهم بأنه نصح ملك المغرب بضم الأندلس إليه، فتوجه إلى تلمسان ووطد علاقته مع أميرها أبي فارس عبدالعزيز لما استولى عليها، ولما رجع إلى فاس قبض عليه السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم المريني الذي كان «ولياً» على المغرب من قبل بني الأحمر، وآواه السجن في مقابل استرجاع جبل طارق من بني الأحمر، فبعث إليه ابن الأحمر وزيره ابن زمرك «تلميذ ابن الخطيب» ليجمع مجلساً للعلماء ليحاسب ابن الخطيب على الأخطاء التي وردت في مؤلفاته، وبعد ذلك أعيد إلى محسبه وقتل فيه خنقاً سنة 776هـ رحمه الله. وبعدما دفن بفاس أخرج من قبره، وأحرق، وبذلك تعرف الباب التي أحرق إزاءها (بباب محروق). وقد نظم قصيدة بسجنه لما شعر بشدة محنته وقرب أجله، منها:

وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فها نحن قوت

ولابن الخطيب أشعار كثيرة جهادية وقصائد مدحية في ملوك المغرب والأندلس، جمعها محمد مفتاح في رسالة جامعية سماها: «شعر ابن الخطيب». وطبعها تحت عنوان: ديوان ابن الخطيب، ومن شعر ابن الجهاد قوله في السلطان أبي الحجاج يوسف وجهاده في الأعداء، وقد خص هذا السلطان بكثير من القصائد في وصف شجاعته وبلاء جيوشه في الحروب:

ولما أبى الأعداء إلا لجاجة نهضت بأمر الله أحسن ما نهض
مقيماً بما استرعاك فرض جهادهم ولم تأل في نذب إليه وفي حض
وأعددت من غر الجياد صوافنا مطهمة من كل أجرد منقض
يشف حجاب النقع عن قسماتها كما شفَّ جهم السحب عن بارق الومض
وما راع ملك الروم إلا طلوعها سوابح تزجيها رياح من الركض
ونادى لسان الفتح في عرصاتهم كذلك مكناً ليوسف في الأرض

(ابن الخطيب: الصيب والجهام - محمد مفتاح - ديوان ابن الخطيب ج 2، ص 637 - 638) لقد عاش ابن الخطيب في عصر الجهاد، وكتب كثيراً في الجهاد شعراً ونثراً حتى لقب «بابن الجهاد»، وما فتأ يحض على الجهاد في شعره ونثره، كقوله مخاطباً أحد أمراء الأندلس لما فتح حصن «سبته»: أزمعت في الله الجهاد وطالما

أرضى الإله جهادك المقبول

(مفتاح: الديوان، ص 487) فكان بحق شاعر الجهاد.

(انظر عن شعر الجهاد عند لسان الدين ابن الخطيب: رسالة نعيمة لعلاوي لنيل الإجازة في الأدب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - 1977).

المريني افتتحها بقوله: «مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولي الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار...». وأصبح ابن الخطيب رسالته بقصيدة رائعة، بديعة مطلعها:

أطاعَ لساني في مديحك إحساني

ولقد لهجتُ نفسي بفتح تلمسان

ويهنئ الشاعر - الذي لا يبارى - الفارس - الذي لا يجارى - بهذا الفتح العظيم:

تهنيك بالفتح الذي معجزاته

خوارق لم تدخر سواك لإنسان

ويشيد بقيادته الحكيمة لجيوشه الطافرة:

وقدت إلى الأعداء فيها مبادراً

ليوثُ رجالٍ في مناكب عقبان

تمد بنود النصر منهم ظلالها

على كل مطعام العشيات مطعان

حاجحةً غرَّ الوجوه كأنما

عمائمهم فيها معاقد تيجان

وقد لقب ابن الخطيب «بذي الوزارتين»، لأنه جمع بين وزارة السيف والسياسة ووزارة القلم؛ و«بذي العمرين» لأنه كان يقضي نهاره في مهامه الوزارية والسياسية، وليله في البحث والتأليف وقول الشعر، فترك ابن الخطيب بذلك تراثاً ضخماً، في التاريخ والتصوف والطب والشعر والترسل والفكر السياسي، وغير ذلك من العلوم والفنون.

كما لقب «بذي اللسانين» لأنه كان يجري في كلامه بعض الألفاظ الأجنبية فيتولى شرح معانيها، و«بذي القبرين» لأنه بعد ما دفن، نبش قبره وأحرق، ثم أعيد إليه.

أنظر عن ابن الخطيب: المقرئ: نفح الطيب ج 6 ب: 1 ابتداء من ص 310، وكتاب «لسان الدين ابن الخطيب في آثار الدارسين».

دراسة وبليوغرافية للدكتور حسن الوراكلي. وهذا الكتاب يضم جميع عناوين المؤلفات والبحوث والدراسات التي أنجزت عن ابن الخطيب في المشرق والمغرب (منشورات عكاظ - 1990).

أمدك فيها الله بالملأ العلا
فجيشك مهما حقق الأمر جيشان
لقد كست الإسلام بيعتك الرضى
وكانت على أهله بيعة الرضوان
ثم يصف شاعرنا عظمة جيش ممدوحه الذي لا يماثله جيش في قوته
وشجاعته وحدة أسلحته:

وجيشاً كقطع الليل للخيّل تحته
إذا صهلت مفتنة برجع الحان
فيومض من بيض الظبا ببوارق
ويقذف من سمر الرماح بشهبان
ويمطر من ودق السهام بحاصب
سحائبه من كل عوجاء مرانان
وجردا إذ ما ضمرت يوم غارة
تعجبت من ريح تقاد بأرسان
كأن الوغى نادت بهاء لوليمة
قد احتفلت أوضاعها منذ أزمان

ويخاطب ممدوحه في ختام قصيدته بقوله:
فسيفك للفتح المبين مصاحب
وعزمك والنصر المؤزر إلفان
وكن واثقاً بالله مستنصرًا به
فلسلطانه يعلو على كل سلطان⁽¹⁾

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج 6، ص 336 - 337.

ولما خرق أبو حمد موسى من أبناء يغمراسن بن زيان الهدنة التي عقدها مع أبي سالم زاحقاً بجيشه إلى دبدو سنة 766هـ بتحالف مع عرب معقل، تقدمت طلائع أبي فارس عبدالعزيز المريني إلى تلمسان بقيادة الوزير أبي بكر بن غازي، وتمكنت من احتلالها قبل التحاق أبي حمو يغمراسن بها.

فلم يبق أمام أبي حمو إلا الفرار إلى صحراء الجزائر، وبقي بها شريداً طريداً (772هـ)⁽¹⁾.

وبهذه المناسبة أنشد أبو يحيى محمد بن محمد العزفي السبتي أبا الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر قصيدة، يهنئ فيها عبدالعزيز بن أبي الحسن المريني باسترجاع تلمسان والقضاء على «الأعور الأشقي» الفار إلى الصحراء، وحماية «دين الهدى» وإعزازه، داعياً ومتوسلاً بعد مقدمة استهلها بمدح الرسول الأكرم ﷺ:

وأمدً بالنصر العزيز إمامن
عبدالعزيز المرتضى من أمته
ملك حمى دين الهدى سلطانه
وأذل ديون الكفر قاهر عزته
فهو الكريم الماجد الشهم
تعنو الملوك له فخامة سطوته
قد حاز أمر الملك عن آبائه
وهو الكفيل له برعي أزمته

(1) إسماعيل بن الأحمر: روضة النسين ص 56.

ولما دخل عبدالعزيز المريني إلى تلمسان وجد في حائط قصرها مكتوباً بعض الأبيات الشعرية منها:
فلما أن جلانا الدهر عنها تركناها لقوم آخرينا
فبدله الملك المريني بيت آخر:
فلما أن جلانا السيف عنها تركناها لقوم غالبينا
(المصدر السابق).

إلى أن يقول هاجباً ومتوعداً الشاعر الفار:
والأعورُ الأشقى إليك يساق كي
يُسقى بكأس حمامه ومنيته
إن كان للصحراء وجه وجهه
لا بارك الله له في وجهته
ويختم الشاعر قائلًا:
الأمر أمرٌ لا يخالفُ حكمه
والقطرُ قطرٌ قد دعاك لنصرته⁽¹⁾

هكذا حاول يعقوب بن عبدالحق المريني الذي تلقب بالمنصور استرجاع «الإمبراطورية الموحدية»، واستمر في نفس المحاولة السلطان أبو الحسن المريني واستطاع أن يضم المغرب الكبير من طرابلس (بلييا) إلى سوس بالمغرب. إلا أنه بلي ببني هلال الذين عاقوه في إفريقية عن بناء هذه الوحدة المغربية والمحافظة عليها. ثم جاء الطاعون الجارف واختلت الأمور، فأعلن ابنه أبو عنان الملك بفاس. ولما كان السلطان قادمًا من تونس بحرًا لاسترجاع ملكه طوحت به العاصفة البحرية - المشؤومة على المغرب وحركته الثقافية - بأسطوله الضخم⁽²⁾. ولكن الموج قذف به

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 123 - 124.

ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق 1، ص 307 - 308.

(2) لقد طوحت هذه العاصفة البحرية حتى بخزانة السلطان المريني العامرة التي كان ينقلها معه والتي كانت تحتوي على مئات المجلدات. فضاعت بذلك ذخائر لا تقدر بثمن. ولم تصب الخزانة المرينية وحدها بهذه الكارثة بل أصيبت كذلك الخزانة السعدية بكارثة من نوع آخر إذ أصابها التلف والضياع على إثر تغلب ابن محلى على الأمير زيدان السعدي في مراكش واستيلاء القراصنة الإسبان عليها عندما عزم الأمير السعدي نقلها من آسفي إلى أكادير بحرًا (محمد حجي: الحركة الفكرية في العهد السعدي، ج 1، ص 183).

ويقول محمد عبدالله عنان في هذه الكارثة، بأن الأسطول الإسباني استولى على هذه الخزانة السعدية بعرض البحر سنة 1021هـ/ 1612م وحملت هذه المكتبة الثمينة غنيمة لتودع في المكتبة الملكية بقصر الأسكوريال، وارتفع بذلك عدد المخطوطات بالخزانة الملكية إلى نحو عشرة آلاف مخطوط، واستمرت هذه المخطوطات بقصر الأسكوريال حتى وقع به الحريق الكبير في سنة

إلى الشواطئ المغربية. فتقاتل مع ابنه على ضفاف وادي أم الربيع (751هـ) حتى اشتد عليه المرض وتوفي⁽¹⁾.

وسرعان ما انفصلت الإمارات الأخرى عن المغرب بعد وقوع هذه الكارثة الكبرى، وصار أبو عنان ملكاً على المغرب القائم بنفسه. وبعد مقتله، عصفت تهافت الأمراء الصبيان من بني مرين على الملك بوحدة المغرب الأقصى.

1671م، وامتد هذا الحريق إلى المكتبة فأتى على معظم الكتب العربية، ولم يبق منها سوى نحو ألفي مخطوط، منها: مائة مخطوط من كتب المكتبة الزيدانية السعدية. وما زالت هذه المجموعة العربية بالرغم مما نزل بها من النكبة الفادحة تجذب أنظار الباحثين في الشرق والمغرب، وما زالت تتوي إلى اليوم «بدير الأسكوريال».

وقد أرسل المولى إسماعيل سفيره الوزير محمد بن عبدالوهاب الغساني إلى كرلوس الثاني ملك إسبانيا سنة 1690م في شأن استرداد الكتب المغصوبة والاتفاق على تبادل الأسرى، وكذلك فعل سيدي محمد بن عبدالله بعد ثمانين عاماً حيث بعث بكاتبه أحمد بن المهدي الغزال سفيراً لدى كرلوس الثالث ملك إسبانيا سنة 1766م في نفس المهمة، ولكن الإسبان أخفوا عن السفيرين المغربيين حقيقة الأمر وادعوا على أن الحريق أتى على سائر الكتب المغربية.

محمد عبدالله عنان: أنلسيات - كتاب العربي - (عدد 20) ص 171 و 213.

(1) انظر تفاصيل هذه المعركة في ابن خلدون: العبر، ص 286 - 287.

2 - شعر فتوح الأندلس

لقد ظلت إسبانيا تحت حكم الرومان إلى أن أغار عليها الوندال في القرن الخامس الميلادي، فأطلق عليها «فاندلوسيا»، وسماها العرب بلاد الأندلس. ثم تسلط عليها الحكم القوطي الجائر. ولم يخلصها منه إلا الحكم العربي.

فقد ولي عبد الملك بن مروان موسى بن نصير (الحجازي المنبت الدمشقي النشأة) إفريقية وما وراءها من بلاد المغرب سنة 88هـ 712م. فخرج من مصر فاتحاً حتى وصل إلى القيروان واستقر بها، ثم أخذ موسى بن نصير (الحجازي المنبت الدمشقي النشأة)، ييسط نفوذ الأمويين وينشر الرسالة الإسلامية في أرجاء بلاد المغرب حتى وصل إلى طنجة وفتحها بجيش من البرابرة، جعل في مقدمته طارق بن زياد الذي أسلم على يده، فقلده ولايتها⁽¹⁾.

ثم أرسل طريف بن مالك البربري - الذي تنسب إليه جزيرة طريف على المجاز - على رأس جيش لغزو بعض الثغور الأندلسية. وقد شجعه نجاح طريف في هذه الغزوة على فتح الأندلس. فندب لهذا الفتح مولاة طارق بن زياد⁽²⁾ قائد جيشه

(1) كانت حملة عسكرية عربية ثانية على الأندلس بقيادة بلج بن بشر القائد الدمشقي وذلك سنة 740هـ.
(2) نظم سيدي المدني بن الحسن سنة 1341هـ قصيدة «بني قومي» في عظماء وفضائل المغرب عبر تاريخه. ومما أنشده في طارق بن زياد قوله:

إذا استبق الجميع إلى السهام
بحد سنانه وظلها الحسام
بفضل من مآثره الجسام
أساطيل العباد على الدوام

وجاز الغرب بالقدر المعلى
فطارق قد بدا علماً تسامى
قد اعترفت شعوب الأرض طراً
ألست تراه يعرض كل حين
(ابن زيدان: الإتحاف، ج 2، ص 6 - 7).

لصدق عزيمته وقوة شكيمته وشدة بأسه وصلابة عوده وإخلاصه في جهاده، وأمره بغزو الأندلس على رأس جيش لجب من العرب والبرابرة، فعبر المضيق المنسوب إليه بين المغرب والأندلس⁽¹⁾، وأحرق سفنه وخطب في جنوده الخطاب الشهير: «أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم...»⁽²⁾. ثم شرع في مهاجمة

عبدالله الجراري: الحافظ الواعية محمد المدني بن الحسني ص 119 - 122 وعن هذا الفاتح المغربي انظر: بطل الأندلس طارق بن زياد، لمحمد عبدالرزاق مناع.
ونظم الشاعر عبدالكريم أبو ياسر الفيلاي قصيدة في وصف معركة طارق بن زياد عند فتحه للأندلس منها:

واللهُ كان معينه حتى انتصرُ	قدَرُ يخطُّه طارقُ بعزيمة
زادتْ فقلَّتْ في عيون من كفر	معك ابن زياد جنودُ قلَّة
أحرقُ سُفُونك ولتخاطبِ النفر	أملتْ عليك الحكمةُ الرِّبانيةُ
وكماردٍ دخانِ فلكك قد بهر	فجعلتْ من بحر الزقاق مُدَاخناً

إلى أن يقول:

الله أكبر يا جنودَ المسلمين لتجاهدوا بالفتح موسى قد أمرُ
(عبدالكريم أبو ياسر الفيلاي، ديوان: «صحون هي سطوح فاس»، قصيدة فتح الأندلس، ص 61) (1997).
وتبقى شخصية طارق بن زياد رمزاً لامتزاج البربر مع العرب وتماسكهم لأجل نشر رسالة الإسلام فعندما اهتدى البربر إلى عمق رسالة الإسلام ونبل تشريعاته ومبادئه وأسس له يقتصر دخولهم للإسلام على قبول العرب المسلمين كفاتحين ودعاة للحضارة بل راحوا يحتلون مواقع قيادته وريادته في عمليات الجهاد ونشر رسالة الإسلام.
(أحمد بوكاري: «مفهوم الجهاد في تاريخ المغرب». ندوة المقاومة المسلحة المغربية 1900 - 1934، نشر المندوبية السامية للمقاومة وجيش التحرير 1990).
(1) تعرض ابن الخطيب - في قصيدة له خاطب بها أبا القاسم بن عيسى من أدباء مالقة - لجبل طارق قائلاً:

لم تنأ عنه طوارق الحدثان	جبلًا لطارق مذ أقل ركابه
جمع وكم باعدت بعد تداني	يا مجمع البحرين كم مزقت من

(محمد مفتاح: شعر ابن الخطيب ص 451).

(2) انظرها كاملة في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج 4، ص 404 - 405. وكانت هذه الخطة مصدر نقاش حاد بين المؤرخين ورجال الأدب، شك بعضهم في نسبتها إلى طارق بن زياد البربري - الذي «قضى حياته في المعسكرات الحربية» - لما هي عليه من روعة وبيان. انظر جميع الآراء الواردة في هذا الموضوع في بحث د. عباس الجراري: «نشأة الأدب العربي في المغرب»، مجلة المناهل (عدد 2). وانظر كذلك حسن جلاب: «الدولة المرابطية» من ص 72 إلى 84. فقد حل المؤلف مختلف نصوص هذه الخطبة التي وردت في عدة مصادر مختلفة «بألفاظ مختلفة وبمعان متقاربة». كما ينسب إليه قوله شعرًا وهو ضعيف في معناه ومبناه:

الجيش الإسباني مستولياً على المعقل والحصون كإشبيلية وماردة وقرمونة وقرطبة وطليلة (عاصمة القوط آنذاك)⁽¹⁾. ثم لحق به موسى بن نصير لما أخذته الغيرة وعزله، ولكن الوليد بن عبد الملك أصلح ذات البين بينهما وفتحاً معاً أقاليم أرغونة وقشتالة وسرقسطة وبرشلونة.. حتى بلغا جبال البرانس⁽²⁾. وعزم موسى بن نصير على مواصلة الفتوح في جنوب بلاد الغال من قبل الأمويين على أن يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها. ولكن ذلك الفتح سيسند إلى عبد الرحمن الغافقي (الداخل الفاتح) الذي لم يكتب له الفوز المرتقب. وهكذا انتقل الإسلام إلى الأندلس على يد عرب المشرق وبربر المغرب، وعمت أطرافها حضارة عربية إسلامية طبعت بالطابع المحلي المتميز بالذوق الرفيع. وقد اندمج سكانها الأصليون مع الوافدين إليها من أطراف المشرق أو من أطراف المغرب واعتنقوا الإسلام. وقد استكملت الحضارة الأندلسية معالمها مدى عدة قرون وتمازجت فيها الشجاعة العربية والصرامة البربرية والذوق الإسباني سواء في ميدان العلم أو الآداب أو الفنون.

ركبنا سفيناً بالمجاز معبراً	عسى أن يكون الله منا اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة	إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا	إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

(1) كانت أكبر معركة خاضها الجيشان المغربي والعربي والإسباني هي معركة «وادي لكة» أو معركة «فتح الأندلس» أو معركة «شريش» سنة 92هـ - 711م التي دامت ثمانية أيام سقط فيها لذريق ملك إسبانيا القوطي صريعاً في ساحة المعركة. قد وصف العديد من الشعراء العرب والإسبان معركة لكة الشهيرة نذكر منها على سبيل المثال قصيدة ابن وضاح المرسى التي يقول منها:

عقرتهم بسيوف الهند مصلته	كأنما شربوا منها بغدران
هون عليك سوى نفس قتلهم	من يكسر النبع لم يعجز عن البان
أودى الصميم وعافت عن هيئتهم	مقدار أغمدت أسياف شجعان
وقفت والجيش عقد منتثراً	إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تتحط من وقع الرماح بها	كأن تصهالها ترجيع ألحان

(محمد عبدالرازق مناع: بطل الأندلس طارق بن زياد، ص 30 - دون ذكر للمصدر الأصلي).

(2) المقرئ: نفح الطيب، ج 1، ص 214 - 215 - 224 - 225 - 252. هذا وقد أنشأ حول «فتح الأندلس» الشاعر علي الصقلي مسرحية شعرية سماها الفتح الأكبر وأهداها إلى «من اسمه في ذاكرة التاريخ راسخ فما له من ناسخ طارق بن زياد»، مطبعة النجاح الحديثة - الدار البيضاء 1986.

إلا أن التعصب الديني الذي بليت به أوروبا في القرون الوسطى دفع بالمسيحيين إلى محاولة استرجاع الأندلس، وإلى محاولة طرد العرب والمسلمين ومحو آثار الحضارة العربية - المغربية الإسلامية بها. وخاض العرب عدة معارك ضد المسيحيين وأنصار الصليب كانوا فيها من المنتصرين بفضل مساعدة المغرب الذي كان يمددهم بالمال والسلاح والجند. وعندما قتل المغرب من هذا المدد ليحافظ على وحدته الترابية، شن الإسبان حرب الإبادة ضد المسلمين الأندلسيين وصارت الأندلس مسرحاً لمآسي مروعة أطلقت ألسنة الشعراء وهزت مشاعرهم وأوحت إليهم بالجيد الرائع من فنون القريض، مستصرخين ملوك المغرب، مستغيثين بجندهم وجيوشهم، طالبين العون والنجدة متباكين على ما أصابهم من هول الكارثة⁽¹⁾.

ولم يكن استصراخهم واستعطافهم في الحقيقة إلا دعوة لمقاومة السيل المسيحي الجارف، واستفزازاً لهمم المغاربة وحتى للعرب والمسلمين، لينجدوهم ويعيدوا الحق المغصوب والشرف المنكوب.

(1) لم يشعر ملوك الطوائف بشدة وطأة الجيوش الإسبانية عليهم وبوشك وقوع الكارثة إلا بعد سقوط طليطلة سنة (478هـ/ 1085م) باستجدوا حينئذ بالمرابطين ملوك المغرب، وعند سقوط طليطلة قال شاعرهم ابن أغسال متنبئاً بالمصير المشؤوم:

يا أهل أندلس شدوا رحالكم فما المقام بها إلا من الغلظ

(أو حثوا رحالكم يا أهل أندلس)

من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفت

(المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص 46)، ولما أحرق النصارى مدينة بلنسية، بعدما انسحبوا منها سنة

495هـ يتأسى ابن خفاجة بدوره على هذه المدينة قائلاً:

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

(ديوان ابن خفاجة، ط 2، ص 354).

وهذا محمد بن عبد الكريم القيسي الأندلسي البسطي يتفجع لمصاب الأندلس بأسرها:

لمصاب الأندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيها تذوب الأضلع

فلها من الأعداء حال تفرع نقضي بحسرة من يرى أو يسمع

(البسطي آخر شعراء الأندلس - تقديم محمد ابن شريفة ص 172).

وقد نظم شاعر أندلسي مجهول قصيدة رائعة أبدع وأجاد في وصف هذه
المأساة الأندلسية. ومن هذا الوصف تخلص إلى استفزاز الشعور الوطني والدعوة
إلى الكفاح والجهد، منها:

معاشرَ أهلَ الدين هبوا لصعقةٍ
وصاعقةٍ وارى الجسوم ظهورها
ألا فاعدوا للجهد عزائمًا
يلوحُ على ليل الوغى مستنيرها

وقد ازداد الوضع في الأندلس في أوائل العهد المرابطي سوءاً، وتدهور تدهوراً
خطيراً. فلقد شرع الإسبان في «حرب الاسترداد» بكل قواهم واستخفوا بملوك
الطوائف الضعاف واثري خلافة قرطبة وأخضعوهم لسلطتهم.

ولقد وصل ألفونسو السادس (أو الأدفونش) ملك قشتالة - في نفس السنة
التي وصل فيها أحد ملوك الطوائف: المعتمد بن عباد⁽¹⁾ للاستنجاد بيوسف بن

(1) كان المعتمد بن عباد ملكاً وشاعراً، تولى الملك بالأندلس سنة 461هـ وخلع سنة 484هـ، وتوفي
بأغمت سجيناً سنة 488هـ. للمعتمد ديوان شعري جمعه أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد
بالقاهرة سنة 1951. يضم أشعاراً تدور حول اللهو ومجالس الأنس قبل نكبته، وأشعاراً شاكية قالها
في محنته وفي أسره بالمغرب منها الرائية المشهورة:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فجاءك العيد في أغمت مأسورا
(الديوان ص 100).

ولما سجنه ابن تاشفين بأغمت كتب إليه الشاعر عبدالجبار بن حمديس الصقلي قصيدة منها:

أباد حياتي الموت إن كنت ساليا وأنت مقيم في قيودك عانيا
حسام كفاح بات في السجن مغمداً وأصبح من حلي الرياسة عاريا
وليث حروب فيه أعدوا برقه وقد كان مقدماً على الليث عاريا
وكم من طغاة قد أخذتهم نفوسهم وأبقيت منهم في الصدور العوالي
بمعترك بالضرب والطعن جرده تمر على صرعى العوادي عواليا

(ديوان ابن حمديس، ط: بيروت، ص 531 - 532).

ولما زار ابن الخطيب أغمت سنة 761هـ ووقف على قبر المعتمد الذي أصر أن يكتب على قبره قبل
وفاته:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد

تاشفين⁽¹⁾ إلى جزيرة طريف (آخر الأندلس)، بعد أن تم استيلائه على طليطلة ومملكة ذي النون سنة 487هـ (1085م) - ولما علم باستدعاء ملوك الطوائف وخصوصاً بين الأفطس - للأمير المغربي كتب إليه يتوعده ويهدده، فأجابه يوسف بن تاشفين بقولته التاريخية المشهورة: «الجواب ما ترى لا ما تسمع!» وأنشد قول المتنبّي:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل إلا الخميس العرمم⁽²⁾

أنشد رثائته فيه، مطلعها:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمار
رأيت ذلك من أولى المهمات
(المقري: نفح الطيب، ج 5، ص 237).

وقد سبق لابن الخطيب أن أشار في قصيدة عن ابن تاشفين وخلد للملك الطوائف إلى محنة ابن عباد بقوله:

وفي مجال الخيل كان يعرب
والمات في أغمار لما غربا
والجود من بحر يديه يغرب
من بعد خلع واعتقال وسبا

(1) لما استجاب يوسف بن تاشفين لنداء المعتمد بن عباد وجاز إلى الأندلس في آلاف من المجاهدين كتب إليه ابن عباد هذه الأبيات:

غزوّ عليك مبارك
لله سيفك رائد
في طيه الفتح القريب
سخط على دين الصليب

لا بد من يوم يكون مؤاخياً يوم القلب

(المراكشي: المعجب، ص 296 - 297).

وحين التقى بالمعتمد قال له: «إنما جئت ناويا جهاد العدو، فحيثما كان توجهت» (المصدر السابق ص 131 - 132). «وقد استحسن العلماء والشعراء عبور المعتمد إلى العدو لاستقدام المرابطين، فنظموا قصائد في الثناء على شجاعته... منها قصيدة عبدالله بن عبدالعزيز البكري:

فجزت أجاج البحر تبغي زلاله
وذقت جنى الأهوال تبغي جنى الشهد
وقصيدة عبدالجليل بن وهبون:

عزمٌ تجدد فيه النصر والظفر
وفكرةٌ خمدت من تحتها الفكر

(د. حسن جلاب: الدولة المرابطية، ص 292 - 293) نقلاً عن «الحلل السيرة» (187/186/2).

(2) كثيراً ما يتردد على لسان ملوك المغرب هذا البيت الشعري، من ذلك أن المولى محمد بن الشريف العلوي - محمد الأول - ذكره في آخر رسالة وجهها إلى الدلائيين وضمناها قصيدة للشاعر أحمد الدغوفي في هجائهم.

(د. محمد بن شريفة: ملامح من شخصية محمد الأول ص 329) المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر.

حقاً لقد انقسم أمراء الطوائف بالأندلس على أنفسهم «وأصبحوا في غمرتهم ساهين وعن عواقب الاستسلام لاهين». فقام أبو الحسن بن الجد يمدح الأمير يوسف بن تاشفين في قصيدة له، ويعير ملوك الطوائف باستهتارهم «وينومهم العميق»، وبإعراضهم عن الجهاد وبانشغالهم بالسمر واللهو والاستهتار، وخوضهم في النزاعات والانقسامات والفتن، في الوقت الذي تصلهم أخبار خروج أمير مغربي - استقر أمره في المغرب الأقصى وضم المغرب الأوسط - «في أمة جديدة الإسلام شديدة الاعتزام مظهرة للقيام بالحق ومجاهدة من زاع عن الشريعة»⁽¹⁾. يقول في مطلعها:

في كل يومٍ غريبٍ فيه معتبرٌ
نلقاه أو يتلقانا به خبرٌ

إلى أن يقول:

فقل لمن نام أصبحت انتبه فلقد
مضى بك الليل نحبا وانقضى السحر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك
في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ
كما رعاها بطرف ساهر عمر

(1) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ق 3، ص 245.

ويصف أبو موسى هارون بن هارون في قصيدته الميمية «الأحقاد والضغائن التي أمعن الأعداء في إثارتها» لتفريق صف أمراء الطوائف قوله:

لما تفرقت الأهواء واضطربت	نار البغاة فقامت للردى علما
ونوزع الأمر أهله وقام بهم	من لم يجد قدماً فيه ولا قدما
ثارت حفاظ للتثليث فابتدروا	وأيقظوا من سبات الغفلة الهمما
وأنشروا ميت الأحقاد بينهم	ولو أطاقوا لعمري أنشروا الرمما

(ابن عذاري: البيان ص 382).

ردوا مواردَ قد أوردتهم حنقاً
بها الأنام ولكن ما لكم صدرُ
كأنني بكم قد صرتم سمرًا
وما لكم في الورى عينٌ ولا أثرُ
أماكم قبل الموت سوء فعلكم
وكيف بالذكر إن لم تحسن السير⁽¹⁾

وللشاعر الأندلسي عبد الجبار ابن حمديس الصقلي (447هـ - 527هـ)⁽²⁾.
شاعر المعتمد بن عباد في سرائه وضرائه - قصيدة أخرى يحرض فيها الأندلسيين
أهل بلده على الجهاد والخوض في معارك النضال التي ستجري بين الجيوش
المغربية - الأندلسية والجيوش الإسبانية لحماية الأهل والبلد من الغزو المسيحي
المنتظر منها:

بني الثغر لستم في الوغى من بني أُمي
إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا القوم إني خائفٌ أن تدوسكم
دواه وأنتم في الأمانى مع الحلم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهةٍ
مصرحةٍ في الروم بالثكل واليتم
وصولوا بببيض في العجاج كأنها
بروق بضرب الهام محمرة السجم

(1) المصدر السابق ص 242.

(2) ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة وعاش في الأندلس على عهد المعتمد ابن عباد وتتنقل بين
المهدية وبجاية وقابس وصفاقص وتوفي بعد أن عمر ثمانين سنة. (انظر دراسة عن شاعريته
ومقومات فنه الشعري في كتاب: «أبو حمديس الصقلي.. شاعرًا» لسعد شلبي - دار الفكر العربي
بالقاهرة) وكان ابن حمديس شاعر البحر كابن خفاجة (انظر: البحر في شعر الأندلس والمغرب في
عصري الطوائف والمرابطين لمنجد مصطفى - حويلات كلية الآداب بجامعة الكويت).

وقرع الحسام الرأس من كل كافر
أحب إلى سمعي من النقر في اليم
ولله منكم كل ماض كفضية
يسيل إلى الهيجاء متقد العزم
عن أرضكم يغنيكم أرض غيركم
وكم خالة جداء لم تغن عن أم⁽¹⁾

وإثر نداء الاستجداء وطلب النصر والعون الذي تقدم به الشعراء الأندلسيون وفقهاء الأندلس - وخصوصاً بعد ظهور الحروب الصليبية بالشرق - أقام يوسف بمدينة فاس ينظر في أمر الجهاد ويخطط له، وقد اشترأت نفسه إليه، ويستنفر قبائل المغرب ورجالاتها، بعدما شعر بالمسؤولية التي وقعت على كاهله لإنقاذ الأندلس. وأمر المرابطين بأن يبعثوا لإخوانهم المسلمين بالأندلس رسائل تدعوهم للتكثف والثبات والصبر على الأذى، والمرابطة والاستعداد للجهاد. ولما لحقت به العساكر والجنود جاز إلى الأندلس ونزل بالجزيرة الخضراء (1086م)⁽²⁾ وكانت

(1) عبد الجبار بن حمديس: تكملة الديوان م. خ. ح (6366) ورقة 56. البم: العود الغليظ الأوتار. عبد الجبار بن حمديس: الديوان، ط: بيروت، ص 416 - 417.
ويستنتج من هذه القصيدة أن ابن حمديس لم يكن بعيداً عن الحروب وعن تحمسه لها عكس شعراء الأندلس وخصوصاً شعراء ملوك الطوائف الذين اقتصر شعرهم الحماسي على مدح الملوك ووصف المعارك الحربية لا معاناة وإنما تخيلاً لها. فقد كان يأمل أن تنفخ غارات الأعداء على بلادهم روح الحماسة في نفوسهم، لكنهم خلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء. ولعل ذلك راجع لنفسية الشاعر الأندلسي الوديعة المستسلمة لأحلام الطبيعة التي تزخر بها بلادهم. (د. جودت الركافي: في الأدب الأندلسي، ص 119).

(2) وأثناء جوازه دعا ربه قائلاً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيراً للمسلمين فسهل علينا جواز البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه». (القرطاس، ص 145). هذا ولم يقدم القائد المرابطي على الجواز إلى الأندلس إلا بعد أن صدرت فتاوى شرعية من فقهاء الأندلس والمغرب (وبعد استشارات مع الإمامين الغزالي والطرطوشي مثلاً) التي تؤكد «شرعية الجهاد» للحركة المرابطية للأندلس، ودعمهم لعزل ملوك الطوائف «لظلمهم للرعية ومداخلتهم مع النصارى»، ولرفع «المكوس والظلمات» عن هذه الرعية، وكذا لمنازلة جنوده لهؤلاء الملوك والاستيلاء على مدنها كقرطبة وإشبيلية وبطليوس، وغرناطة وغيرها.

وجهته بطليوس، وفي مروره بإشبيلية انضم إليه المعتمد بن عباد بقواته، والتحق به المتوكل بن الأفطس، وتكاملت أعداد المسلمين وصدقت نيتهم على الجهاد تحت قيادة الأمير المرابطي. فاتصل خبره بالفونس، وكان محاصراً لمدينة سرقسطة، فارتحل عنها وشرع في اتخاذ الأهبة وجمع الحشود لمواجهة الجيش المرابطي الزاحف. ولما كان على بعد فرسخ من بلنسية⁽¹⁾ هم الروم بإخلائها إلا زعيمهم «الكبيطور» كأنه «لم يرعه في ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عباً به» فتصدى له أحد شعراء بلنسية وصدع له بالحقيقة والخبر اليقين:

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا

أو أنقذوه إذا ما طيره زجرا

سيوف صنهاجة في كل معترك

تأبى لأطيّاره أن تصدق الخبرا⁽²⁾

وتقدم جيش الأندلس (الذي يضم جميع ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد) يتبعه الجيش اللمتوني (بقيادة ابن تاشفين وداوود ابن عائشة ويسر بن أبي بكر وغيرهم) حتى حلاًّ معاً على قرب من مدينة «بطليوس» في بسيط فسيح يعرف بالزلاقة (sagro-Jas Bada-Jos)⁽³⁾. ودارت رحى الحرب (التي أنست ذكرها

(1) سبق للأمير المرابطي: ميمون بن ياسين المجاهد المقدم أن شارك في غزو الأندلس وحاصر بلنسية بعساكر مرابطية صحراوية وأندلسية. وكان «ممن برقت له في الخير بوارق وسبق منه في الغزو سوابق». وشكك أحد المؤرخين هل ابن ياسين هذا هو أم غيره يحمل نفس الاسم. رغم أنه كان صاحب فكرة الحصون لمحاربة المهدي بن تومرت. وكان الأمير المرابطي مهتماً أيضاً بالحديث وروايته. وكان أول أمير مرابطي يقوم بمناسك الحج. ولما توفي بني على قبره ضريح بمراكش سنة 530هـ. (انظر عن كتاب: «الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته وحجه» للدكتور محمد بن شريفة (كتاب دعوة الحق، عدد 10، 2002).

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 4، ص 35 (ط: دار الثقافة).

(3) عن هذه المعركة انظر: د. محمد بن عبود: معركة الزلاقة والواقع الأندلسي - البحث العلمي - ع 33، ص 1982، ص 49.

وانظر وصفاً دقيقاً لهذا الانتصار المرابطي والخذلان الإسباني في رسالة بعث بها يوسف بن تاشفين إلى من «بالعدوة المراكشية» بكتاب: «دول الطوائف» لعبدالله عنان ص 451 - 452، «وبالوثائق

حروب داحس والغبراء مع بني إسرائيل) - أبلت فيها جيوش المعتمد البلاء الحسن، وكان يوسف يحرض المجاهدين ويقوي عزمهم، وصدق الجنود المغاربة الحملة على الألفونسو السادس وأصحابه وتراجع العدو ووقع الخلل في صفوفه وانهزم انهزاماً (رجب سنة 479هـ - أكتوبر 1086م أو 1087م). «وأمد الله بسبب هذه المعركة - التي تكسرت فيها شوكة الإسبان - في حياة الأندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف»⁽¹⁾. وقد أعدها «بابا روما» من الحروب الدينية الحاسمة في التاريخ.

وأنشد ابن حمديس قصيدة يهنئ فيها المعتمد بن عباد بعودته إلى إشبيلية من وقعة الزلاقة⁽²⁾، ومشيداً ببلاء الجيش المرابطي في هذه المعركة الحاسمة التي هزم فيها ألفونسو وجيشه العتيد أمام ضراوة أبطالها الذين رضعوا من «ثدي» الحرب والنزال، مما يدل على سريان روح القوة والبطولة والرجولة التي تجلت في هذا العصر من العصور الإسلامية⁽³⁾ مطلع القصيدة:

السياسية والإدارية» لمحمد ماهر حمادة، ص 265. ومن الرسائل التي أتت بوصف دقيق لهذه المعركة أيضاً رسالة ذي الوزارتين أبي محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الكلاعي التي كتبها عن المعتمد بن عباد - بصفته وزيره وكتابه - إلى ابنه الرشيد بإشبيلية، وبصفته شاهد عيان للمعركة. وجاءت رسالته كلوحة مرسومة للمعركة: اختيار مكان المعركة، وصف العدو وعدده وعدته، إتقان المسلمين للكر والفر، هزيمة الأعداء، النصر العزيز والفتح المبين للمسلمين. (انظر الذخيرة، وكتاب آسية الهاشمي للبلغيثي عن ابن القصيرة حياته وأدبه).

(1) بعد هذه المعركة انقلب المرابطون من «مغيثين» إلى «فاتحين» واستولوا على الأندلس لأنفسهم، وحكموها نحو ستين عاماً». ولما انهارت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة الموحدين «استولوا بدورهم على الأندلس وحكموها نحو قرن آخر» إلى أن خلفهم المرينيون.

(2) لقد شغل موضوع بلاء المعتمد بن عباد وصبره في هذه المعركة حيزاً كبيراً من القصائد التي نظمها شعراء بلاطه بعد وقوع المعركة، من ذلك: قول عبد الجليل بن وهبون:

وقفت بحيث تلحظك العوالي وهن إلى مواردها هياماً
ولم يلبث مت الأشياء إلا شقيقك وهو صارمك الحسام

وأشار محمد بن عباد الفزاز إلى الجروح التي أصيبت بها المعتمد خلال المعركة:

وقالوا كفه جرحت فقلنا أعاديده توافقها الجراح

(«قلائد العقبان» 253 - 256، حسن جلاب: «الدولة المرابطية»، ص 295 - 296).

(3) يقول علال الفاسي من عرشية له احتفاء بالبطولة المغربية التاريخية في هذه الواقعة:

ليهنئ نبي الإسلام أن أبت سالمًا
وغادرت أنف الكفر بالذل راغما

ومنها:

صبرت لحر الطعن والضرب رائدًا
عن الدين واستصغرت فيه العظائم
رحمناك من وقع الصوارم والقنا
فكان لنا في حفظك الله راحما
أجبت الهدى لما دعاك لنصره
وجردت عزماً إذ تقلدت صارما
بجيشٍ تثير الجرد فيه قساطلا
تريك به وجه الغزاة قاتما
بنو الحرب غذتهم لبانٌ ثديها
ولم يستطيبوا منه إلا العلاقما
يحثون للهيحاء جرّداً سلاهما
وينضون في البيداء بزلا صلاما
إذا طعنوا بالسهمية خلتهم
ضراغم تغري بالقلوب أراقما
وإن كُرّ منهم ذو لثام مصمم
غدا لقم الهيحاء بالسيف لائما
ولمّا التقى بالروم طارت قلوبهم
كأن لم تكن أوكارهن الحيازما

قد استضعفوا أهل الممالك واغثروا
وكيف يسوس الناس من قدره القدر

تقهقر في زلافة عند معشر
فعلمهم معنى الرجولة والعلا
(ديوان علاّ الفاسي، ج 1 ص 101).

إلى أن يقول في انهزام ألفونسو هو وصليبه أمام راية الإسلام:
أرى ألفونس ولى يوم لاقى فوارسا
مغافرهم لاثوا عليهم العمائم
يلوم صليب العود وهو يلومه
ومن يغو لا دعم على الغي لائما
نوى خدعة في الحرب والحرب خدعة
فأدبر مهزوماً وقد كان هازماً⁽¹⁾

وجاز الملك المرابطي الذي (لقب بأمير المسلمين) إلى الأندلس مرة ثانية سنة 481هـ برسم الجهاد تلبية لدعوة ابن عباد، ونازل حصن «ليبط» قرب المرية، ولكنه تعذر فتحه في أول وهلة لتقايس أمراء الطوائف عن متابعة الجهاد، إلى أن فك عنه الحصار، فنظم ابن حمديس قصيدة - أنشدها أمام المعتمد بإشبيلية - في هذا الحصار الذي ضربه الروم على الحصن. منها:
والفتح من فضل الإله ويومه
متقدم بالنصر أو متأخر
لولا اقتراب الوقت عن قدر لما
فتحت على حال لأحمد خيبر

(1) عبد الجبار بن حمديس: تكملة الديوان م. خ. ج، ورقة 10 و 11.
عبد الجبار بن حمديس: الديوان، ط: بيروت، ص 425 - 427.
ووصف عبد الجليل بن وهبون أيضاً معركة الزلاقة في قصيدة مطلعها:
منها:

عزم تجد فيه النصر والظفر	وفكرة خمدت من تحتها الفكر
أتكر العجم أن العرب سادتها	وتشهد البيض والخطية والسمر
فليقبلوها ألوفاً من أسود وغى	تزكو على السبك لا حين ولا خور
وليرقبوا من أمير المسلمين ومن	مؤيد الدين ليلاً ماله سحر

(الذخيرة ق 2 م 255/1).

ثم يشير الشاعر إلى ما امتاز به الجيش المرابطي من خصال عسكرية
نادرة منشداً:

وفوارسٌ يحمر من ضرب الطلا
بأكفهم ورق الحديد الأخضر
ومن الرجال مروغٌ ومشجعٌ
ومن السيوف مؤنثٌ ومذكر
ألفت قلوبهم الخضوع لربهم
والبأس في أسيافهم متكبر
يرمون أغراض الحتوف بأنفس
ووجوهها لعيونهم تتنمر
وثغور في هام العلوج جداول
للضرب من أغمادهم تتفجر
من كل وحشي الطباع كأنه
بين القنا الخطي ليث مخدر
ويل لحصنٍ لبيطٍ من يومٍ على
جنباته يجري النجيع الأحمر
والرعو تشتل بالردى ساعاته
وتخف بالأبطال فيه الضمر
إلى أن يقول في الكفر وزعيمهم ألفنش:
هلاً أطاق الكفر جرقناتهم
لما تركت كعوبها تتكسر
والفنش يحصب ناظريه وقلبه
بقوارع الأحزان يوم معور

ثم يخاطب المعتمد:

جاهدت في الرحمن حق جهاده

وجرى الملوك كما جريت فقصروا⁽¹⁾

(1) عبد الجبار بن حمديس: الديوان، ص 194 - 197. والورقة 12 من التكملة.
ولابن حمديس قصيدة أخرى يمدح فيها المعتمد ويذكره بوقعة الزلاقة وجواز يوسف بن تاشفين مع
أجناده إلى الأندلس من مدينة سبته وانهزام الفونشو وفراره في سرية قليلة تحت جناح الظلام منها:
وأحرم في يمينك مشرفي
ومعترك تلقى الفونشو فيه
تستتر بالظلام وفر خوفًا
ودان بيوسف ذي البأس بؤسًا
وقد نهشته حيات العوالي
(ابن حمديس: الديوان ص 437).
ومن الشعراء الأندلسيين الذين أنشدوا قصائدهم في أعقاب هذه المعركة التاريخية عبد الجليل بن
وهبون من أهل مدينة مرسية. فقد نظم قصيدة في مدح المعتمد يهجو فيها الأدفنش ويعيره بضعفه
وخذلانه وعجرفته:

فأين العجيب يا أدفنش هلا	تجنبت المشيخة يا غلام
ستسألك النساء ولا الرجال	فخبر ما وراءك يا عصام
وراقبها بأرضك طالعات	كما تهدي صواعقها الغمام
أقمت لدى الوغى سوقًا فخذها	مناجزة وهون ما يسام
فإن شئت اللجين فثم سام	وإن شئت النضار فثم حام
رأيت الضرب تصليًا فصلب	فأنت على صليبك لا تلام

ثم تعرض الشاعر إلى الإشادة بشجاعة يوسف بن تاشفين «حليف الصديق والحق» وبيبولة جنوده
وعساكره الذين قاوموا بقوة وثبات جيش الأدفنش حتى لاذ بالفرار:

فتار إلى الطعان «حليف صديق»	تثور به الحفيظة والذمام
فهيل به كثيب الكفر هيلًا	وكل رفيقة منها ركام
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضًا	كأن وهادها منهم أكام
عديد لا يشاربه حساب	ولا يحوي جماعته زمام
تألقت الوحوش عليه شتى	فما نقص الشراب ولا الطعام

إلى أن يقول مستهزئًا ومشبهًا الفارين بالثمام:
وإن ينح اللعين فلا كحر
ولكن مثلما ينجو اللئام
(لسان الدين بن الخطيب: إعلام الأعلام - ق 3، ص 247 - 248).
(الفتح بن خاقان: قلائد العقبان، ص 41). وهذا ما عبرت عنه شعراً الشاعرة المراكشية حبيبة
الصوفي من قصيدة:

وجاز ابن تاشفين إلى الأندلس جوازه الثالث سنة 483هـ، ونازل طليطلة وحاصرها، ثم سار إلى غرناطة وشرع في خلع ملوك الطوائف⁽¹⁾، وسقطت إمارتهم في يد المرابطين (أهمها إمارة إشبيلية لصاحبها المعتمد بن عباد)، متخذاً من فتاوى الفقهاء ضد المعتمد وغيره مبرراً لذلك⁽²⁾.

وتولى الجهاد في العدو حتى خلصت البلاد الأندلسية كلها للملك المرابطي وخضعت له جل قواعدها من رندة وقرطبة وقرمونة وغيرها. ولما دانت له الأندلس

الدين لله في الزلافة انتصرت	للفتح ألوية الإسلام والعرب
نصرتحدى جيوش الطامعينوقد	لاذ العدو بخزي العار بالهرب

ولابن وهبون قصيدة أخرى «يذكر فيها ثبات ابن عباد يوم الوقعة، وأمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبعض أصحاب ملك الروم وما تعادوا عليه من الثبات» الخريدة 99/2. كما لعبدالله بن العزيز البكري قصيدة يستحسن فيها عبوره للعدوة لاستقدام المرابطين إرضاءً للأندلسيين. (وردت هذه القصيدة في الحلل السيرة، 186/2 - 187).

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 246.

خلع الملك المرابطي ملوك الطوائف لأن فقهاء الأندلس أفتوا بخلعهم وألصقوا بهم تهمة التعامل مع الجيوش المسيحية التي أرادت «ابتلاع الإسلام بالأندلس» والاستهتار بأمور الدين والدولة والخلود إلى الملامي والملاذات. ويعبر عن ذلك شاعرهم بقوله:

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	إذ بالنصارى قتمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبي شققتم

(إبراهيم الجمل: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، ص 146 دون ذكر للمصدر الأصلي). وقد أشار ابن الخطيب في حله إلى هذه الوضعية المزرية للملوك الطوائف. في قوله:

وحكم الفئس فصار الحكم له	وذهبت من أجل ذا طليطلة
والدين في أثناء هذا ينتهب	والروم تستقصي النفوس والذهب
إذ صدفت كلمة مقترفة	وحملة بماد لقهاها شرقة
وخامر العدو بها الطمع	وآلت الحالة إلى ما تسمع

(2) ذلك أن المعتمد بن عباد استغاث بالملك القشتالي كيلا يتم استيلاء المرابطين على إمارته إشبيلية، وبعد سقوط إشبيلية في أيدي يوسف بن تاشفين لقي جزاء موقفه المشين من اعتقال ونفي بأغمات، وترك لنا أشعاراً يصف فيها هذه الفترة الرهيبة القاسية من حياته.

واستتب له بها الأمر جاز إليها الجواز الرابع والأخير متفقاً أحوالها ومتعهداً لمصالحها رغم قيام بعض التأثيرين عليه بها⁽¹⁾.

هكذا وهب يوسف بن تاشفين حياته كلها للجهاد، لم يدع يوماً من غير جهاد أو استعداد للجهاد. لقد كان موقناً أنه بعدما صفا له الأمر بالمغرب أنه سيقف في وجه الصليبيين وسيجيب «صرخة الإسلام بالأندلس»، وسيرد للأندلس مجدها⁽²⁾. فأعد عدته وفتح سبته وطنجة واتخذهما قاعدة لأسطوله ليحمي القوات المرابطية التي ستعبر يوماً ما الأندلس مجاهدة في سبيل الله. كان يوسف بن تاشفين يقف على البحر ويتجه إلى الله أن يوفيه ويمنحه النصر: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر إلا أنا بنفسي». وقد نصره الله وأعز الإسلام بديار الأندلس، واستمر بها بفضل جهاده خمسة قرون أخرى. ولو عاش يوسف أكثر مما عاش لحقق الله أمنيته: «لئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأها عليهم خيلاً»⁽³⁾.

(1) من أول التأثيرين على اللمتونيين بالأندلس: أحمد بن الحسين بن قسي أبو القاسم الذي قال شعراً:

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى	ولا الحرب تطفئ بالرقى والتمايم
ولكن ببيض مرهفاتٍ وذبل	مواردها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتى نطعن الخيل بالقنا	ونضرب البيض الرقاق الصوارم
ونحن أناس قد حممتنا سيوفنا	عن الظلم لما جرتم بالمظالم

(ابن الأبار: الحلة السيرة، ج 2 ص 200).

(2) مما ضمنه ابن الخطيب نفسه في رقم الحل، عن ابن تاشفين وجهاده بالأندلس:

فعبر البحر إلى المثلثة	لينصر الدين وتعلوا الكلمة
واستصرخ الناس إلى الجهاد	فاهطعوا من حاضر وبادي
ونصر الدين ابن تاشفين	بمن لديه من حماة الدين
وبهرت آثاره المشكورة	وأوقع الزلافة المشهورة
يا لك من يوم على الكفر عصيب	فأزاله الإسلام بالسهم المصيب

(ابن الخطيب: رقم الحل، ص 50 - 51).

(3) عبدالحق حمدوش: «ابن تاشفين» ص 72.

ولقد شهد الفقهاء بحرصه على الجهاد ووقف عزمته على نصرة الدعوة الإسلامية. فمما كتب إليه: «وقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزوة الشرك أقدر قادر ووجب أن تستدعي لما عضل من الداء وتستغاث.. وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا أحرصكم على الشرع وبما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى»⁽¹⁾.

ولقد أهاج شاعرية المعتمد بن عباد ما حققه يوسف ابن تاشفين «أمير المسلمين» من انتصار باهر لصد عدوان المسيحيين، وخصوصاً في موقعة الزلاقة بسبب بأسه وقوته وشجاعته وعبقريته العسكرية⁽²⁾.

فلولا حمايته. للأندلس لأصبحت دار كفر وإلحاد. يقول المعتمد منشداً في ابن تاشفين: «رابطاً فيها نتائج المعركة ومستقبل العروبة والإسلام ومصيرهما»، ومعدداً يوم الزلاقة يوماً من أيام العرب»⁽³⁾.

ويوم العروبة ذدت العدا

نصرت الهدى وأبيت القرارا

ولولا يوسف المتقي

رأينا الجزية للكفر دارا

رأينا السيوف ضحى كالنجوم

وكالليل ذاك الغبار المثار

(1) إبراهيم الجمل: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، ص 107.

(2) ذكر ابن أبي زرع في «روض القرطاس»، وابن الأثير في «الكامل»، وابن خلدون في «المقدمة»، والناصرى في «الاستقصا» أن يوسف ابن تاشفين لم يلقب بأمير المسلمين و«ناصر الدين» إلا بعد انتصاره في موقعة الزلاقة. وذكر صاحب «الحلل الموشية في الأخبار المراكشية» أنه رفض أن يلقب بأمير المؤمنين «لكونه ينحدر من قبيلة أمازيغية صحراوية ولا تربطه أي علاقة بالبيت النبوي»، فلقب ب«أمير المسلمين».

(3) اعتبر جل الشعراء أن الانتصار في يوم الزلاقة هو انتصار للإسلام على الصليبية، فأضافوه إلى «أيام العرب» بدليل قول الشاعر ابن جوهري:

ألم تعلم الروم إذا جاءت مصممة يوم العروبة أن اليوم للعرب
(القرطاس 151).

فلله درك في هوله
لقد زاد بأسك فيه اشتهارا
تزيد اجترأ إذا ما الرماح
عند التناجر زدن استنجارا
إذا نار حربك ضرمتها
حسبنا الأسنة فيها شرارا
ستلقى فعالك يوم الحسا
ب تنثر بالمسك منك انتشارا
وللشهداء ثناء عليك
بحسن مقامك ذاك النهارا
وأنهم بك يستبشرون
ألا تحاف وألا تضارا⁽¹⁾

ولما حمَّ القضاء «وطوى الدهر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وهو على أوله في الحزم والعزم لنص الدين». امتدحه الشعراء في حركاته وغزواته وصدوره

(1) علي أدهم: المعتمد بن عباد، ص 297. (نقلًا عن القرطاس ص 151).

وقال أبو محمد عبدالعزيز بن الإمام أحد خواص المعتمد لما كان في عسكره متوجهاً مع يوسف بن تاشفين إلى لقاء أدفنش ملك قشتالة في غزوة الزلاقة، قال بعد أن تعجب من قوة الملك المرابطي:

غزو عليك مبارك	في طيه الفتح القريب
لله سيفك إنه	سخط على دين الصليب
لا بد من يوم يكون	له أخ يوم القليب

(الحلل الموشية ص 39 - 40).

وبلاحظ كما لاحظ كثير من الباحثين (مثل حسن جلاب) غياب الشعر المغربي في هذه المعركة التاريخية، ذلك «لأن الشعر المغربي ما زال آنذاك في طور النضج في الأندلس، وهذا ما سيكرس بتبعية المغرب للأندلس ثقافياً خلال فترة غير قصيرة من هذا العصر». وكان من تأثير المعركة على الشعر الأندلسي في هذه الفترة هو «كثرة وصف المعارك ورسم الصور والمشاهد الحربية بعد ما كان لذلك نادراً عند (شعراء) الأندلس».

ووروده⁽¹⁾، ورثاه جماعة منهم مثل أبي بكر بن سوار الأشبوني، الذي أنشد مرثيته على قبره معدداً فيها مناقبه ومساعيه التي قدمها من أجل نصرة الدين وإعلاء كلمة الله:

يوسف ما أنت إلا يوسف
والكل يعقوب بما نطويه
اسمع أمير المسلمين وناصر الد
ين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيته التي
لم ترض فيها غير ما يرضيه

(1) تطرق من بين هؤلاء الشعراء أصحاب الأراجيز التاريخية - وهي من نظم الرجز تيسيراً لحفظها وتسهيلاً لاستحضارها - إلى الإشادة بيوسف بن تاشفين وبجهاده بالأندلس. من ذلك أرجوزة عبدالعزيز الملزوزي: نظم السلوك السلافة الذكر (ص 50 - 52) التي تحدث فيها عن الجوازين: الأول والثاني، منها:

اشتهرت فرسانه بالنجدة	في كل أرض وبحسن العدة
وأرجوزة ابن الخطيب رقم الحل في نظم الدول (السابقة الذكر) ص 51 منها:	
واستصرخ الناس إلى الجهاد	فاهطعوا من حاضر وبادي
ونصر الدين ابن تاشفين	بمن لديه من حماة الدين
وأرجوزة الفقيه أبي طالب عبد الجبار من جزيرة شقر، مطلعها:	
إذا أراد الله نص الدين	استصرخ الناس ابن تاشفين
منها في وصف غزوة الزلاقة:	

وافى أبو يعقوب كالعقاب	فجرد السيف عن القراب
واصل السير إلى الزلاقة	وساقه ليومها ما ساقه
لله در مثلها من وقعة	قامت بنصر الدين يوم الجمعة

(انظر هذه الأراجيز (التاريخ المنظوم) في الذخيرة لابن بسام، ق 1، م 2، من ص 401 إلى ص 431). وكثيراً ما تناول شعراء الحرب والجهاد في صدر الإسلام وزن الرجز لأنه أسهل البحور على ألسنتهم فاستعملوه في مبارزاتهم ومناجزاتهم ومفاخراتهم. ومن ذلك أيضاً رائية أبي الحسن بن الجد في مدح يوسف بن الجد في مدح يوسف بن تاشفين بمناسبة نجده للوك الطوائف، مطلعها:

في كل يوم غريب معتبر	نلقاه أو يلقانا به خير

(أعمال الأعلام ص 242).

أما مساعيك الكرام فإنها
خرجت عن التكييف والتشبيه
في كل عام غزوة مبرورة
تردي عديد الروم أو تفنيه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً
حتم القضاء بكل ما تقضيه
متواضعاً لله تظهراً دينه
في كل ما تبديه أو تخفيه
لو رامت الأيام أن تحمي الذي
فعلت سيوفك لم تكن تحصيه
وإذا سمعت حمامة في أريكة
تبكي الهذيل فإنها ترثيه⁽¹⁾

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 4، ص 47 (ط: دار الثقافة). الذخيرة ج 2، ص 2.
ومن نافلة القول أن للشعر المغربي الحديث نصيب من الإشارة لمعركة الزلاقة، ذلك أن شاعر الحمراء
محمد بن إبراهيم المراكشي نظم قصيدة - بعد أن شاهد مسرحية «أميرة الأندلس» - لأحمد شوقي
سنة 1933م، وتعرض فيها لبطولة يوسف بن تاشفين المجاهد المرابطي ووصفه بـ«فاروق إفريقيا» قائلاً:
«أفاروق إفريقيا»، امتشقت مهنداً وقبلته شوقاً، وطوحت بالغمد
ورحت بدر كفا لأندلس بها تصد ذوي الأغراض عن سئ القصد
فأبقيت للإسلام باذخ مجده ولولاك أضحى الدين مفتقد المجد
وددت عن الإسلام من رام كيده وأطفأت نيراننا مؤججة الوقد
لك استنجدوا فكنت لصوتهم صدى شيمة الأسد الضواري مع الأسد
(محمد بن إبراهيم: «ديوان روض الزيتون»، ص 109 - 110).

ويقول الشاعر المراكشي أحمد الدباغ على لسان بطل الزلاقة في قصيدة له:
لنصرة دين الله سرت مناصراً أدود وأحمي من تأوّه من قصر
فكانت لنا زلاقة هي فيصل وسد منيع دام للصدّ والزجر
وعدنا بحمد الله نحو ديارنا نعدد أفضال الإله بلا حصر
وينشد الشاعر الهاشمي الهواري (من مراكش):
فناداه أهل الحل والعقد والنهي فأبلى بلاء حدّ من صولة الجور
وأرقب مدّ الغاصبين بعزمه عن الغي والإضرار والبغي والضير

وتولى الأمر في المغرب بعد يوسف بن تاشفين علي بن يوسف الذي أبلى البلاء
الحسن أيضاً في بلاد الأندلس، ولم يكدر صفو ملكه إلا ظهور «المهدي الموحي»⁽¹⁾.

وقد ولي علي بن تاشفين إمارة غرناطة وألمرية وقرطبة.

ووصف أبو جعفر أحمد الأعمى التطيلي بلاءه في رده لكيد المعتدين عن
الحصون الإسلامية في نونيته المشهورة التي مطلعها:

طليعة جيشك الروح الأمين

وظل لولائك الفتح المبين

ومنها:

سل الأدفونش أين الحرب منه

وربما أجاب المستمعين

أعدّها الحصون مشيدات

وما تغني المعازل والحصون

ولا ردّ الجيوش ولا كفاها

كسيف لا يحار ولا يخون

ورد إلى الريبوع مهابة	تمززت بالجيش المظفر والثغر
يرى دين الله فرضاً وواجباً	حماية من كل المزالق والضرر

(ندوة يوسف بن تاشفين، مؤسسة البشر، 2000).

(1) «كانت فترة علي بن يوسف بن تاشفين فترة تألق سياسي وعسكري للمرابطين بالأندلس، فترة حضور
معزز بسعة الاقتدار وقوة الحول، مما قلب فعلاً كلا الموازين في معادلات القوى بشبه الجزيرة لصالح
الوجود العربي الإسلامي وعلى حساب التجمعات الإفرنجية المعادية له» المهدي البرجالي: «الجهاد
المرابطي في العدو لابن أبي الخصال».

وهذا النص هو عبارة عن رسالة مرفوعة إلى علي بن يوسف كتبها الأديب الأندلسي ابن أبي الخصال
على لسان بعض القادة المرابطين في الأندلس تشرح وضعية القوات المرابطية بالأندلس وحالة
خصومهم المعنوية (انظر دعوة الحق عدد: 259 أكتوبر 1986م، ص 108 - 112).

إلا أن بعد حصار الأراكونيين لسرقسطة وقرمونة وقلعة أيوب واحتلالها رغم مقاومة الجيوش
المرابطية انتهت هذه المواجهة المرابطية بهزيمة المسلمين في موقعة «قتتة».

إذا صدقَ الحسامُ ومنتضيه
فكلَّ قـرارة حـصنِ حصين
وما أسد العرين بذئ امتناعٍ
إذا لم يحمه إلا العرين
إلى أن يقول في وصف جيوشه:

وجيشٌ لا يضيء الصبح منه
مخافة أن تنوره العيون
يسيل على البسيطة منه سيلٌ
عباباه الحوادث والشؤون
سماءً علا تلوح بها المعالي
نجومًا نوعها الحربُ الزبون
وقد هبت عتاق الخيل فيها
عواصفٌ لا يتاح لها السكون
وأنشأت الحتوف به سحابًا
فنقعُ راكـدٍ ودمٌ هتون

وبعد ذلك تخلص الشاعر إلى وصف دفاع الأمير المرابطي عن مدينة طليطلة:

وكيفَ رأت طليطلة العوالي
بحيثُ تغيث باسمك أو تعين
نسقت حبالها بحبال موتٍ
تدورُ بها رحى الحرب الطحون
سيشكر سيفك الإسلام عنها
وإن أبت الغلاصم والشؤون

فإن يمن الصليب وناصبوه
فإن غرار سيفك لا يمين
لأمر ما رددت الخيل عنهم
وقد جعلت محايينهم تحين⁽¹⁾

وكان خلف الأمير علي بن تاشفين بن علي بطلاً شجاعاً، حمل على الخيل
وقلد الأسلحة واستكثر من الرماة وأركبهم، وقوى الحصون وسد الثغور وعنى
بالغزو والحروب، وخاض عدة معارك ضد القشتاليين، وظهرت له بارقة النصر
عليهم، فكان يهزمهم في أكثر الأحيان، فأحبه أهل الأندلس⁽²⁾.

ومن بين المعارك الظافرة التي خاضها تاشفين بن علي معركة دارت بينه
وبين جيوش «غشتون» أمام بلنسية، وعلى إثر هذه المعركة أنشد أبو بكر محمد بن
يوسف - الأمير تاشفين - شعراً ارتجالاً يهنؤه بالنصر. منه:

فلقد أنجز الرحمن بالنصر وعده
وسهل أمراً كان في غاية الصعب
فخيلك قد ألقى بأيلان بركبها
وأضت على «غشتون» بالطعن والضرب⁽³⁾

وقيل كذلك في ما أصاب «الروم» (أي جيش الإسبان) من فزع وهول في هذه
المعركة وما نزل عليهم من ذلك ومسكنة وهم وجلون:

يا تاشفين وقضب الحرب عاطشةً
وليس إلا دُمُ الأعداء يرويها
قد راسلتك ملوك الروم صاغرةً

في السلم إذا كانت الهيجاء تفنيها

(1) الأعمى التطيلي - ديوان تح: إحسان عباس، ص 200.

(2) المصدر السابق، ص 79 - 80.

(3) المصدر السابق، ص 81 (في بقية أبيات القصيدة بتر).

فخيلها الكمت ملقى البيد وادعة
وكمتك الخيل تعدو في مغانيها
تخشى عقابك في أقصى منازلها
وتطلب العفو من أعلى صياصيتها
إذا أتتك رسلها جاءتك مقبلة
والسيف من غمده سرا يناجيه⁽¹⁾

وقد غزا تاشفين بن علي أيضاً «القشتاليين» بعدما تجمعوا بأحواز بطليوس قرب موقعة الزلاقة. وكان أثناء هذه الغزوة في «قلب» الجيش المرابطي ومع القائد الأمير وجوه المرابطين يحملون «البند البيض الباسقات مكتبة بالآيات» وفي الجانبين: كفاة الدولة وحماة الدعوة من الأندلسيين، وفي الجناحين: أهل الثغر والجلادة والصبر، وفي المقدمة: مشاهير زناتة.. ولما التقى الجمعان واشتد الضرب والطعان انتصر الأمير المرابطي وقتل من الأعداء «جملة كبيرة»، وأنقذ الأسرى وأخذ الغنيمة، وصدر إلى قرطبة ثم إلى غرناطة عزيزاً ظافراً سنة 528هـ.

فأنشد بعض الشعراء قصائد يشيدون فيها بموقف الأمير المرابطي الرائع أمام أعدائه «بعدما تجلد للوقوف وصبر للمدافعة»، ويصفون كيف خاضت جيوشه من رماة وفرسان هذه المعركة بكل شجاعة وإباء، وكيف فرت فلول الروم أمامها لا تلوي على شيء، ويهنؤونه بهذا الفتح الذي يعدونه من أيام «العروبة الخالدة». من ذلك قصيدة لشاعر مجهول أوردها ابن عذاري منها:

أما وبيضُ الهند عنك خصوصُ
فالروم تبذل ما ظباك ترومُ
تمضي سيوفك في العدا ويردها
عن نفسه حيث الكلامُ رحيم

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 4، ص 83. (لم يورد ابن عذاري اسم الشاعر).

دارُ جعلتَ بيوتها قطباً لها
أبدًا على قمم الملوك تحومُ
وكأنما الفرسانُ قد غرقت بها
فطفت وغاصت أروُسُ وجسوم
جاست خلال ديارهم وحماتها
في كلِّ وادٍ بالفرار تهيم
لله ما يوم العروبة إنه
يومٌ على الدين الكريم كريم
فتحٌ عظيمُ القدر يمن بشره
فتحٌ يقل لقدره التعظيم⁽¹⁾

وأنشد الشاعر أبو زكرياء يحيى بن الصيرفي الغرناطي⁽²⁾ قصيدة - للأمير
تاشفين - في هلال الفونسو ملك «أراكون» وفي انتصار الأمير على أعداء الإسلام
بالأندلس على رأس جيوش الملتزمين الأبطال منها:
سيفٌ به ثل عرش الروم وانطادات
قواعدُ الملك واستولى به الظفر
ثم نوه الشاعر بالكتائب المرابطية وبدورها الفعال في ميدان النضال والغزو والجهاد:
لَكَ الكَتَائِبُ ملءُ البِيد غَازِيَةٌ
إذا أَتَتْ زَمْرٌ مِنْهَا مَضَتْ زَمْرٌ
على سَنَابِكهَا للنَّقْعِ أَرْدِيَةٌ مِنْ
تَحْتِهَا حَلَقٌ مِنْ تَحْتِهَا زَبَرٌ

(1) المصدر السابق، ص 88 - 89.

(2) ورد اسم هذا الشاعر «في الحلل الموشية» (ص 90) هكذا: أبو زكرياء بن الصيرفي وسمى ابن خلدون
الشاعر في مقدمته بأبي بكر الصيرفي (ص 275) وابن الخطيب في الإحاطة يحيى بن محمد بن
يوسف الأنصاري المعروف بابن الصيرفي (ج 4، ص 407).

تدبُّ منها إلى الأعداء سابلةً
عقاربُ مالها إلا القنا ابر
إلى أن يقول معدداً خصال المثلثين في الحروب:
ملثمون حياءً كلما سفرت
لهم وجوه المنايا في الوغى سفروا
حادوا بطغنٍ كأسماع المحاص إلى
ضرب كما فغرت أفواهها الحمر
فرت إلى حتفها من حتفها فمضت
والموت يطردها والموت ينتظر⁽¹⁾

وبمناسبة فتح الأمير أبي العز تاشفين لقرطبة نظم شاعرنا ابن الصيرفي
«شاعر لمتونة وأهل الأندلس» قصيدة، يمدح فيها الأمير المرابطي تاشفين بن علي
ويذكره فيها بحسن ثبات بني صنهاجة وشجاعتهم في حرب شهد غمارها، ويحذر
قائدها من خدع الحرب وينبهه في جوهر القصيدة لأحكامها وأمورها. وهي قصيدة
قال عنها ابن الخطيب: إنها من «القصائد المفيدة المبدية في الإحسان المعبدة». منها:

أنى فزعتم يا بني صنهاجة
وإليكم في الروع كان المفزع
وصددتم عن تاشفين وأنه
لعقباؤه لو شاء فيكم موضع
ما أنتم إلا أسودٌ خفيةً
كلُّ لكلٍّ كريهةٍ مستطلع
يقتحمون على الرماح كأنهم
إبل عطاشٌ والأسنةُ تكرع

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 4، ص 408 - 410.

يا تاشفين أقم لجيشك عذره
بالليل والقدر الذي لا يدفع
يا أشجع الأبطال ليلة أمسه
اليوم أنت مع التجارب أشجع⁽¹⁾

ويقول الشاعر محمد بن مسعود بن خالصة يخاطب تاشفين بن علي بعد انتصاره على أعدائه الروم في موقعة تدعى «كركي» - نسبة إلى المدينة الأندلسية على نهر وادي يانه - سنة 531هـ - 1136م.

وفي هذه القصيدة يهنيء الفاتح بالنصر والظفر وينشر راية الإسلام في ربوع عبث بها المشركون الضالون، ويشجعه في التعجيل على رأس «جنود الله» المجاهدين بالقضاء عليهم وإبادتهم. منها:

الله أعطاك فتحًا غير مشترك
ورد عزمك من فوتٍ إلى درك
أرسل عنان جوادٍ أنت راكبه
واضمم يديك ودعه في يد الملك

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 275.
ابن الخطيب: الإحاطة، ج 4، ص 411 - 415.
الحلل الموشية، ط: تونس، ص 93 - 96.
الحلل الموشية، ط: دار البيضاء، ص 124 - 127 (فيها اختلاف عن الأخرى). (انظر أبياتاً أخرى من هذه القصيدة في فصل الفتوحات الداخلية) ولابن الصيرفي قصيدة أخرى في الإشادة بالكتائب المرابطية وبلائها في الحروب عندما اصطدمت بجيوش الروم. منها:

يا لسنهاجة وحولك منهم	خير جيش عليهم خير وال
ملك ليس يركب الدهر إلا	كل عالي الركاب عالي القذال
مسترق النفوس خوفاً وحسناً	إنما السيف هيبة في جمال
والذي فر من سيوفك أودى	بقنا الرعب في ثنايا الجبال
وهنيئاً بأن نهضت وأقبل	ست عزيز النهوض والإقبال
وعلى الكفر منك حر مجير	وعلى الدين منك برد ظلال

ابن الخطيب: الإحاطة، ج 4، ص 410 - 411.

إلى أن يقول:

فصباحتهم جنود الله باطشةً
والصبحُ من عبرات الفجر في مسك
فطاعنوك بأرماحٍ وما طعنت
وضاربوك بأسيافٍ ولم تحك
وفيت للصفر حتى قيل قد غدروا
سموتَ تطلب نصر الله بالدرك
فأسلمتهم إلى الإسلام غدوتهم
وأذهب السيف ما بالذن من حنك
بيضت وجه أمير المؤمنين بها
والأرض من ظلمة الإلحاد في حلك
فَعُدْ وَقُدْ واعتمد واحمد وسد وأبدُ
وقل وصل واستطل واستول وانتك⁽¹⁾

هكذا كانت حياة هذا البطل اللمتوني - الذي توفي عند وهران سنة 539هـ -
كلها حلقات متواصلة من الكفاح والجهاد في أعداء الملة والدين بالربوع الأندلسية،
حتى تكون كلمة الله هي العليا، وحتى يسترجع المسلمون مجدهم الغابر. فجاهد
بنفسه وذويه وأصحابه وأنصاره جهاداً مستميتاً، ولم يعرف الكل والملل حتى قضى
الله أمره:

فقامَ بالأمرُ وقاسى الحربا
طعنًا على طول المدى وضربا
وال أمره إلى الحصار
من غير أعوانٍ ولا أنصار⁽²⁾

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 2، ص 393 - 394.

(2) ابن الخطيب: رقم الحل، ص 51.

ولم يفث الشاعر الأندلسي أبا إسحاق ابن خفاجة أيضاً أن ينشد في الأمير أبي
إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين قصيدة يصف فيها دفاعه
عن مدينة «شاطبة» الأندلسية سنة 510هـ، وحدة وقع «سيفه» في صدور الأعداء.
منها:

وما السيفُ في كف الكمي مجرداً
بأسطى وراء النقع منه وأسطعا
دعا باسمه داعي الحفيظة والندا
فلبى على شرخ الشباب وأهطعا
وهبَّ كما هبَّ الحسامُ استماتة
وعبَّ كما عبَّ الخضم تبرعا
وداسَ العدا ركضاً وأجرى الوغى دماً
بأطوع من يمناه فعلاً وأطبعاً⁽¹⁾
كما أنشد قصيدة يهنئه بفتح له «قورية» وتكيله بابن «رودمير»، منها:
ويلزمه النصر حباله
فإن سار سار وإن حلَّ حلَّ
فما يطرقُ الطيف نما باله
ولو كان أغفى به أو غفل
بمثل تصديه دون الهدى
تصدُّ العدا ويسد الخلل

(1) الفتح بن خاقان: القلائد، ص 241، والجدير بالذكر أن الفتح بن خاقان ألف كتابه قلائد العقيان
برسم أبي إسحاق إبراهيم المرابطي ذي «قوة وعزيمة ورباطة جأش وسواقف شجاعة حازمة». ومن
جملة ما ورد فيه في مدح هذا الأمير قول ابن رحييم (أبو بكر محمد الأندلسي):
يطارد بالضحي خيل الأعادي ويأوي كل وفد بالعشي
وتعلم أنه السيف المحلى لدفع الخطيب أو قرع الكمي
(المصدر السابق، ص 124 - 125).

وتدمي الشفار وتجنني القنى
وتحمي الذمار وترعى الهمل
وتمادُ رعباً صدور العدا
وترعف بأساً أنوف الأسل
ألم تر ما كان من بأسه
بـ«قورية» يوم خام البطل
وخار الأبي وخر الكمي
وجدد الجلال وقل الجدل
ورام النصارى بها نصرة
فلم ينجد الروم روم الحيل
وصد ابن رديمير عن نصرها
تلظي حرابٍ دوامي المقل
فما التمسوا الغوث إلا التوى
ولا استنجزوا الوعد إلا مطل
ولا أم يقبل حتى انثنى
حذاراً ولا غام حتى اضمحل
بل خاب من جور سيف عدا
مضاد بكف إمام عدل⁽¹⁾

(1) ابن خفاجة: الديوان، ص 102 .

ومن أشعار هذا الشاعر ابن خفاجة في مدح الأمير «أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين» وجنوده
بمناسبة توليه حكم مرسية وازدراثة بأعدائه:

وقد غنى الحسام يصل قرعاً	وأفضى بالعدو إلى النحيب
فأضحك من نجاة الثغر ثغراً	ونفس من حماء عن كئيب
فقمر وكان أخفق من جناح	ونام وكان أرعى من رقيب
وهل جمع العدى إلا هشيم	وهل بيض السيوف سوى لهيب

ولقد أشاد غير ما مرة الشعراء الأندلسيون العاطفون على الحركة المرابطية بالأندلس، إشادة خاصة في قصائدهم بالمزايا الحربية والعسكرية لرجال متونة، ضمن مدائحهم التي قدموها للملك الطوائف الذين كانوا يستجدون باللمتونيين وغيرهم ضد المسيحيين أو ضد المتحالفين معهم. من ذلك قول للوزير الفقيه القاضي⁽¹⁾ أبي الحسن بن أضحي في بطولة رجال متونة وزناتة ولمطة «الغطارفة»

فقل للخيـل والأبطال شوش	ألا كـري وقل للشمس غيبي
وبدد شمل آمال الأعادي	وطأ تيجان أرباب الصليب
وسمهم أن يغضوا أو يعضوا	بعقب الحرب أنملة الحريب
فإنك والرباط إلى اغتباط	كفيل السعد بالفتح القريب

(الديوان، ص 91).

(1) من شعر القضاة في مدح المرابطين المجاهدين قول قاضي طنجة «أبو الحسن بن زنباع الطنجي» من رجال القرن الخامس الهجري من قصيدة تشتمل على وصف لمعركة دارت بين المرابطين والروم بقيادة أحد وزراء الدولة المرابطية - ولهزيمة الإسبان الذين أصابهم من جرائها الوجـل والخجل مستعملاً فيها تشبيهات عرفها الشعر الجاهلي وشعر صدم الإسلام. منها:

كذا تصان السيوف في الخلـل	ويـفخر الخط بالقنا الذبل
وتكرم الخيل في مرابطها	بر الفتاة المعروف بالرجل
ويعطف النبع كالحواجب أو	أحنى وتمهى السهام كالـمقل
ويؤثر الشرة الكمي إذا	خير بين الدروع والحـلل
فتح أنارت له البلاد كما	أشرفت المقربات للنهل
هددت له الروم هدة ملأت	قلوب أبطالهم من الوجـل
فما أطلقوا الولوج في نفق	ولا أطلقوا الصعود في جبل

إلى أن يقول:

تغامسوا في الدروع زاخرة	كي يـسلموا من حرارة الأسـل
فما أفادتهم الدروع سوى النـد	قلـة من خفة إلى ثقل
كأنهم والرمـاح تحفزهم	جري فصال سلكن في الوحـل
جاءوا بها سبقاً مضاعفة	قد أخلصت بالحديد والعمل
مثل عيون الدبى فصيرها	دم وطعن كأعين الحـجل

(الفتح بن خاقان: القلائد، ص 103).

ولشاعرنا القاضي قصيدة أخرى في وصف حرب جهادية خاضها بعض الأمراء المرابطين، منها:

سل الحرب عنه والسيوف جداول	تدفق والأرماح رقط تـضنض
وبالأرض من وقع الجياد تمدد	ولكنه فيما تروم تقبـض

(المصدر السابق، ص 229).

من قصيدة قدمها للأمير عبدالله بن الأمير المرابطي مزدلي بن بولكان من أقرباء
يوسف بن تاشفين وأحد قواده⁽¹⁾ لما حرر «سرقسطة» ودمر «ابن رذمير»:

يا أيها الملك مضمون لك الظفرُ
أبشر فمن جندك التأييدُ والقدْرُ
وقد طلعت على البيضاء من كُثْبِ
كما تطلع في جنح الدجى القمر

ثم يأتي بيت القصيد :

وحولك الصيد من لمتونة وهم
أبطال يوم الوغى الأنجمُ الزهر
والعُربُ ترفل فوق الغرب سابحةً
كالأسد ليس له إلا القنا ظفر
من كل أروع وضاح عمامته
كالبدر نحو لقاء الجيش يبتدر
شعاره البرُّ والتقوى ومؤنسه
في ليلة رمحه والصارم الذكر
ومن زناة أبطال غطارفةً
ذوو تجارب في يوم الوغى صبر
ولمطة وهم أهل الطعان لدى
الهيحاء في زمرٍ تقتادها زمر

(1) من أشعار القاضي الحافظ أبي محمد عبدالحق بن عطية في جهاد هذا الأمير المرابطي قوله :

بادرت أجرك في الصيام مجاهدًا	ما ضاع عندك للثغور ذمام
وصمدت معتزماً وسعدك منهض	نحو العدا ودليلك الإقدام
كم صدمة لك فيهم مشهورة	غص العراق بذكرها والشام

(الفتح: القلائد، ص 210).

كانهم في جبين المجد إذ ركبوا

مصممين إلى أعدائهم غرر⁽¹⁾

ونشير أيضاً إلى قول الشاعر عالم اللغة والنحو أبو محمد بن صارة الشنتريني
في مدح رجال أبي بكر بن إبراهيم المسوفي المرباطي المكنى أبا يحيى والمعروف
بابن تيفلويت، وجهادهم في الكفار من قصيدة طويلة:

ضربوا سرادق بأسهم من دونها

وقد اشرب الكفر يهدم دارها

فوقوا بخرصان الرماح جنابها

وحموا بقضبان الصفاح ذمارها

لبسوا القلوب على الدروع فدوخو

أرض العدا واستأصلوا كفارها

شهباً إذا أوفت على أفق الوغى

جعلت أبا يحيى الأمير مدارها

إلى أن يقول مخاطباً الأمير أبا يحيى محرضاً إياه على النزال والطعان:

واقذف نحور المشركين بجحفلٍ

يمحو معالم أرضها ومنارها

(1) الفتح: القلائد، ص 219.

وفي نفس المعنى أنشد أبو عامر بن أرقم - أحد وزراء المعتصم صاحب المرية - مخاطباً الأمير ابن
مزدلي في يوم عيده:

وأنت تنشد أهل اللهو والغزل
سناك تحت الدجى والعارض الهطل
ليس الصبابة والصهباء من شغلي
وظل رمحك في عل وفي نهل
من كل أوب وضمتها يد الأجل
وكم سددت بهذا الفتحة من خلل
وللمعارك يحميها وللدول

كم ضم ذا العيد من لاه به غزل
وسرت في جحفل يهدي فوارسه
في الخيل والخافقات البيض لي شغل
ظللت يومك لم تنقع به ظمأ
وكلما رامت الروم الفرار أتت
فكم فككت من الأغلال عن عنق
أنت الأمير الذي للمجد همته
(الفتح: قلائد العقيان، ص 320).

لا ترضَ منهم بالنفوس تحوزها
سمُرُ القنا حتى تحوز ديارها
وترى بها عيناك ليل ضلالها
ويد الهدى فيها تشقُ زرارها
صمتتُ سيوفك في الغمود وجردت
يوم النزال فحدثت أخبارها⁽¹⁾

وهكذا ظل المرابطون قائمين بالدفاع عن الإسلام في الجزيرة الأندلسية على الرغم من مسؤوليتهم الجسيمة في المغربين: الأقصى والأوسط، فإن الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم الرئيسي، ففيه أنفقوا معظم أموالهم، وفيه جاهدوا، وفيه استشهد خيرة رجالهم. وما فتئ شعراؤهم يساهمون بقصائدهم - ولو كانت قليلة - في التحريض على الدفاع عن الإسلام والتتويه بالجهاد والخصال العسكرية لقادة «المجاهدين».

ولما انتهى عبدالمؤمن الموحي من القضاء على النفوذ المرابطي سنة 541هـ، وتمهيد الشمال الإفريقي وتوحيده إلى قفصه وطرابلس سنة 555هـ، ولى وجهه نحو الأندلس بعدما ورث عن المرابطين أعباء الجهاد بها. تلك الأندلس التي انبثق فيها عهد جديد للملوك الطوائف تميز ببروز أمراء جدد، وبتزحزح المرابطين عن قلاع ومدن هامة كإشبيلية وغرناطة، وبظهور أهل «ابن مردنيش» - الذين عاثوا في الأرض فساداً وتحالفوا مع النصاري ضد الموحدين - أو بقيام الفتن بإشبيلية. وقد استتجد أبو يعقوب والي إشبيلية بأبيه عبدالمؤمن في سالة واصفاً له فيها حالة الفتنة وضمنها قصيدة دالية رائعة من نظم الشاعر أبي العباس ابن السيد

(1) انظر الإشارة إلى هذا التحريض في فصل التحريض على الجهاد:

وسرت في جحفل يهدي فوارسه
سناك تحت الدجى والعارض الهطل
(الفتح: قلائد العقيان، ص 637).

الجرأوي المألقي - أأء شعراء البلاد الموحدي - يتأسر على أأوال الأندلس وما آلت إليه من آأالف مع المسيأيين وآقهقر، ويستغيث بالخليفة الموحدي لينقذ ما يمكن إنقاذه، منها:

وهذي رياأ ريهه عصفأ بهم
فعادوا كعادٍ آين آللها الرمدُ
ولم ينجهم حصنُ حصينُ إذا انزوا
ولم يغنهم ذاك العديء ولا العءُ
ولم يجدوا النصرَ العتيدَ بزعمهم
من اللآ بل ردوا آديئًا كما أردوا
ولكنهم مالوا إلى الكفر ميلاء
فصالت بهم منكم يدٌ ولها الأيد
إليك أمير المؤمنين آوجهت
بنا الرغباءُ آئمٌ يآآتها آهد
فقد عضهم نابٌ من الكفر معصلُ
وكانوا بكم دهرًا وأنيا به درد
بكم يعصم الله العلي آميعهم
بكم تعظم الآمال بل يآثر الرفء
بكم يعتلي الإسلام شرقًا ومغربًا
فلله فيها دائبًا ولك الحمد⁽¹⁾

وقء أآابه والءه عبء المؤمن من محلته المنصورة قرب مءينة قسنطينة برسالة أخرى (مؤرخة ب555هـ - 1160م)، أكء فيها أن النصر المهيأ لأولياء الله الموحدين

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 127 - 128 .

سيتحقق لا محالة، «إذ خصهم الله بالفتح بين الأنام وأجراه عادة لهم في مأثور كلام نبيه ﷺ»⁽¹⁾.

وقد وردت ضمن هذا الجواب قصيدة لا يعرف هل هي من نظم عبدالمؤمن أو من نظم محرر الكتاب، بشر فيها الموحدين بانتصار جيش المجاهدين على «الروم» بإفريقية، وبأن جيوش النصر منهم ستغزو بلاد الروم في الأندلس، وبأن الله على نصرهم لقدير كما وعد بذلك عباده المؤمنين المجاهدين. منها:

فيا معشرَ الأشياخ من كل طالب
ومن حافظٍ للذكر ألفاظه سرُّدُ
نبشركم أنا اهتمامنا بأمركم
فلبتكم منّا المسومة الجرد
ويصحبنا من خالص العرب معشر
أنابوا فما ردوا وتابوا فما ارتدوا
فسار بأمر الله جيشٌ عرمرمٌ
يقود به سعدٌ ويحدو به سعد
سروا ورياحُ النصر تحرد بينهم
فأضحت رباحُ مالها منهم حرد

(1) لاشك أن الخليفة الموحدي يشير إلى الحديث الشريف: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» (صحيح البخاري 149/8). أو: «ما يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله» (البخاري 189/8). أو «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». وقد روي أيضاً عن الرسول ﷺ أنه قال: «ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولا يبقى إلا ببلاد إفريقية..». وقد اختلف المحدثون في صحة هذين الحديثين الأخيرين. ومهما يكن من أمر فإنها تجتمع كلها على الإشادة بشهامة أهل المغرب الإسلامي وإقدامهم وجهادهم في سبيل الله. (انظر في هذا الصدد تعليق د. عبدالهادي التازي رقم 1 في ص 132 بكتاب «تاريخ المن بِلِامة»). هذا ولما عزم عبدالمؤمن على الدخول إلى الأندلس وغزو «رومها» أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد وتملى على الموحدين ليدرسوها..

وطهرت الآفاق من كل كافرٍ
فحصص حق الله واستحكم العقد
وقد مُرّقوا في الأرض كل ممزقٍ
فمن فاته قد أحاط به قدٌ
وهذا هو الفتح الذي بكماله
تكامل أمرُ الله وانتجز الوعد
ستلقى بلاد الروم منه حتوفها
ويغشى أولي الإلحاد من ذكره جهد
وقد صرفت نحو المغارب عزيمةً
يبين لها في كل ناحية وقد
وحاجاتهم بالشرق قد قضيت لهم
فأمالهم نحو المغارب تمتد
ستغزو بلاد الروم منهم عصائبُ
وتحمي حمى التوحيد من خيلهم جند
فطوبى لأهل الغرب ماذا يرونها
لقد جلّ قدرًا أن يحيط به حد
جيوشُ بنصر الله تهمني عليكم
يروقُ بها وهْدٌ ويزهى بها نجد
ستعلم أرض الروم أي فوارسٍ
على ظهرها منهم إذا وفد الوفد
وأي رجالٍ للحروب إذا بدت
أسود شرى يخشى ترابيهما الأسد

وإنّا وإياهم لحتم غلابنا

لهم وكلام الوحي ليس له رد⁽¹⁾

ولما جاز الخليفة الموحي إلى جبل طارق - الذي سماه بجبل الفتح عن طريق سبّعة سنة 556هـ - برّاً بوعدة، حصنه واستقدم إلى الحصن القواد وأشياخ إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة ورندة وأنصار الموحدين من الأندلسيين للتشاور معهم في تنظيم حملة عارمة بالأندلس. وأوفد لأجل ذلك آلاف الفرسان من جنده ليستعان بها على رد ما سلب وغصب. فاسترد مثلاً أبو حفص الهنتاتي⁽²⁾ باجه وباطليوس، والأمير أبو يعقوب قرمونة إلخ..⁽³⁾

وقد وفد على الخليفة الموحي أثناء مقامه بجبل الفتح - «في مسرة متصلة ومبرة مشتملة» - كبار الشعراء والخطباء وألقوا بين يديه قصائدهم الغر الطوال، وخطبهم الرنانة (في ندوة الجبل لسنة 555هـ) مرحبين بمقدمه ومنوهين بعظمة عهده ومستغيثين بقواده وجنوده ومهنئين إياه «باتصال المسرات والأمانى». من ذلك قول الوزير أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي من قصيدته الرائية التي يناشده فيها أن يتمم ملاحم الفاتحين، طارق بن زياد وموسى بن نصير:

تكلّم فقد أصغى إلفى قولك الدهرُ

وما لسواك اليوم نهْي ولا أمرُ

ورم كل ما شئتَه فهو كائنُ

وحاول فلا برُّ يفوت ولا بحر

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 132 - 133.

ولما وصلت هذه القصيدة إلى الموحدين بإشبيلية حفظوها وصانوها ودونوها ورددوها. واستقبل الأمير الموحي ما ورد فيها من البشائر بكل اعتزاز.

(2) كان مشهوراً بقدرته الحربية في خوض المعارك الضارية، وهو جد الحفصيين ملوك إفريقية، ينتسب إلى هنتاتة وهي من القبائل الموحدية المعروفة.

(3) ابن عذاري: البيان ج 3، ص 45 - 46 (ط: دار الثقافة).

وحسبك هذا البحر فاه فإنه
يقبلُ تربًا داسه جيشك الغمر
وما صوته إلا سلامٌ مردد
عليك وعن بشر بقربك يفتر
بجيشٍ لكي يلقي أمامك من غدا
يعاندُ أمرًا لا يقوم له أمر
أطلَّ على أرض الجزيرة سعدا
وجددَ فيها ذلك الخبر الخبر
فما طارقٌ إلا لذاك مطرقٌ
ولا ابن نصير لم يكن ذلك النصر
هما مهدها كي تحلَّ بأرضها
كما حلَّ عند التم بالهالة البدر⁽¹⁾

وقول أبي عمرو بن حربون⁽²⁾ يهنئ الأندلسيين بخيبة الغاوي وفوز المنتصر
الموحي الذي وعدهم الله به:

قد حصص الحق الذي لا ريب ولا فند
هذي الفتوح التي كانوا بها وعدوا
خذوا بحظكم يا أهل أندلس
فما لغاؤنا من بعدها رشد
واستمسكوا بعري الأمر الذي بهرت
آياته كل من يعلو ويقتصد

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 1، ص 223 - 224. (والحلل الموشية 155 - 156هـ) ط 1.

(2) أورد ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لهذا الشاعر كثيرا من قصائده التي أنشدها في عدة مناسبات يشيد فيها بالأمراء الموحدين.

اليوم صم صدى الغاوي بأرضكم
 والكلب ينبحُ ما لم يزأر الأسد
 هو الذي وعدَ الله العباد به
 قد أنجز الوعدَ حقاً وانتهى الأمد⁽¹⁾
 وأنشد عبدالمؤمن الموحي الوزير الكاتب والشاعر الأندلسي أبو عبدالله
 محمد بن غالب البُلنسي المعروف بالرصافي قصيدته الرائية المشهورة:
 لو جئتَ نار الهدى من جانب الطور
 قبست ما شئت من علمٍ ومن نور
 يصف فيه الأسطول المغربي⁽²⁾ الذي اجتاز به الخليفة مضيق جبل طارق:
 تسنمَ الفلكُ من سخط المرار وقد
 تؤدين يا خير أفلاك العلى سيري
 فسرَنَ يحملن أمر الله من ملك
 بالله مستنصرٍ في الله منصور
 كأنَّه سالكَ منه على وشلٍ
 في الأرض من مهج الأسياف مقطور
 وبعدهما تعبر سفن هذا الأسطول الطائفة المضيق وتصل إلى جبل الفتح حتى
 يهتز الشاعر لهذا الجبل:
 لله ما جبل الفتحين من جبل
 معظم القدر في الأجيال مذكور

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 61 (ط - ت)، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص 253 - 254.
 (2) كان الأسطول الموحي يتولى الدفاع عن السواحل المغربية والأندلسية، ويتصدى لأي غزو مسيحي
 عن طريق البحر، ويقمع حركات القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد شارك في حركة
 الجهاد ضد الصليبيين، ورابطت بعض سفنه في سواحل مصر والشام.

أَخْلَقَ بِهِ وَجِبَالَ الْأَرْضِ رَاجِفَةً
أَنْ يَظْمَأْنَ غَدًا مِنْ كُلِّ مَحْذُورٍ
ثُمَّ يَذْكُرُ الشَّاعِرُ الْمَفَاخِرَ الْحَرْبِيَّةَ لِلْقَائِدِ الْمُوَحِّدِيِّ وَلِجَيْشِهِ الْعَتِيدِ:
إِذَا صَدَعْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ مَجْتَهِدًا
ضَرَبْتَ وَحْدَكَ أَعْنَاقَ الْجُمَاهِيرِ
فَالْبَحْرُ قَدْ عَادَ مِنْ ضَرْبِ الْعَصَا يَبَسًا
وَالْأَرْضُ قَدْ غَرِقَتْ مِنْ فُورِ تَنْوَرٍ
وَإِنَّمَا هُوَ سَيْفُ اللَّهِ قَلْدُهُ
أَقْوَى الْهَدَاةِ يَدًا فِي دَفْعِ مَحْذُورٍ
فَإِنْ يَكُنْ بِيَدِ الْمَهْدِيِّ قَائِمُهُ
فَمَوْضِعُ الْحَدِّ مِنْهُ حَدٌّ مَشْهُورٌ⁽¹⁾

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُنْشِدِينَ بِنَفْسِ الْمُنَاسِبَةِ أَبُو بَكْرُ بْنُ الْمَنْخَلِ الشُّلْبِيُّ (أَوْ الْإِشْبِيلِيُّ)،
وَقِيلَ الشُّلْبِيُّ (مَنْ أَهْلُ شُلْبٍ بِالْبَرْتَغَالِ) - «هُوَ مِنْ الْأَدْبَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالشُّعْرَاءِ
الْمُجَدِّدِينَ وَالْمُشَارِكِينَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ» - فَقَدْ أَنْشَدَ قَصِيدَةً طَوِيلَةً بِأَتِيَّةٍ عَارِضٍ فِيهَا
قَصِيدَةُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيِّ:

(فَدِينَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبًا
فَإِنْ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا)⁽²⁾

مطلعها:

فَتَحْتَمُ بِلَادَ الشَّرْقِ فَاعْتَمَدُوا الْغَرْبَا
فَإِنْ نَسِيمَ النُّصْرِ بِالْفَتْحِ قَدْ هَبَا

(1) المراكشي: المعجب، ص 129 - 132 (ط: سلا).

(2) شرح ديوان المتنبّي لعبد الرحمن البرقوقي، ج 1، ص 40، المطبعة الرحمانية بمصر 1930م.

يصف فيها معركة الفتح وكيف تم انتصار الجنود الموحدية على جنود النصارى الذين لاذوا بالفرار، بعدما طارت قلوبهم رعباً وهولاً وتساقوا «كؤوس الصهباء»:

أصرتم إليه الخيل وهي أجادل
فسالت بكم بحرًا وطارت بكم ركبا
ودستم بها هاماتٍ كلّ مضللٍ
ولم تتركوا عجمًا هناك ولا غربا
أضلتهم البيض الصوارم والقنا
فكانت لهم رفعاً وكانت لهم نصبا
وقادتهم تلك السيوف إلى الردى
وما غادرت سهلُ القياد ولا صعبا
وراموا فرارًا والرماح تنوشهم
فما قطعوا فجًا ولا سكنوا شعبا
وخرّوا جميعًا هامدين كأنهم
ندامى تساقوا بينهم أكؤس الصهباء

ثم يتخلص الشاعر إلى الإشادة ببطولة وحنكة القائد الموحدي العسكرية:

يلوذون في الهيجا بأروع ما جدّ
إذا دارت الهيجاء كان لها قطبا
وإن عصفت ريحُ الوغى أحدقوا به
فكانوا له جسمًا وكان لهم قلبا
رأوا بك دينَ الله كيف اعتزازه
وأنتم له حربٌ فكانوا له حربا⁽¹⁾

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 150 - 155 .

ويتوجه الشاعر في قصيدته أيضاً بالخطاب إلى «ريمند» المعروف باسم
ألفونس الثامن صاحب مدينة سلبا (سلفيس)، يهدده ويحذره من سوء مصيره أمام
الجيش الموحي وخيوله الزاحفة التي «تتحدى» الهضاب والبحار:

فقل لابن رميند تأهب لغزوة
يسدّ عليكم جيشها الأفيح السهبا
إذا جردت فيها السيوف حسبتها
جداول روض والرماح منه قضبا⁽¹⁾

وأنشد كذلك أبو العباس أحمد بن سيد الإشبيلي المعروف «باللص»
قصيدة مطلعها:

غمض عن الشمس واستنصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسي على الجبل
يشيد فيها بجحافل الخليفة الموحي وببلائه في الحروب «الجهادية»
وبنصرته للإسلام في غرب البلاد الإسلامية:
والملك ليس بمرساة قواعده
ما لم يقم بين أيدي الخيل والإبل
وجحفل لجب سدّ الفجاج به
وأعثر الطير منه في نرى الأسل
وكم له وقعة في كل طاغية
علت على وقعات الأعصر الأول
ولا تمنع جيش أن يدين له
إلا توزع بين القتل والنفل

(1) المصدر السابق، ص 154.

حتى إذا استوسق الأمرُ العلي له
بالشرق كَرَّ لنصرِ الغرب في عجل
أضحى بكرته الإسلام في جدل
والمشركون وأهلُ الكفر في جدل
كل يولي صريح العدل صاحبه
والسيفُ يسبق ما يأتي من العذل
ويرجو الشاعر في الأخير أن يبلغ الأعداء أن لهم من جنود دولة التوحيد من
قبل وما عليهم إلا أن يستسلموا للإسلام والمسلمين:
أبلغ ذوي الإلحاد والشرك قاطبةً
أنَّ ما لهم من جنود الله من قبل
أتاكم الجيش محفوفًا جوانبه
بالمشرفية والخطية الذبل
ريعوا إلى السلم والإسلام ويحكمُ
لا تحسبوا دولة التوحيد كالدول
فإن أتيتم حقتُم من دماكم
وإن أبيتهم فخافوا فجاء الأجل⁽¹⁾
ولم يفث الشيخ أبا الحسين عبيدالله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي أن
يلقي بدلوه بين الدلاء، منشداً قصيدته القافية:
تألاً من نور الخلافة بارقُ
أضاءت به الأفاق والليل غاسقُ
في الموضوع ومبتهجاً بقدم الفاتح إلى جبل الفتح ومعدداً المزايا الحربية
لكتائب رماته وخيوله ومخلداً الدور الذي قام به الخليفة وجيشه الباسل في
جزيرة الأندلس:

(1) المصدر السابق، ص 156 - 159. يقصد الشاعر بالمشرفية: السيوف وبالخطية: الرماح.

تقسم أجسام العداة سيوفه
ولدن بأيدي الطاعنين بواسق
وخيلٌ تسوق الأسد فوق متونها
وتسبقُ لمح البرق والبرقُ خافق
تخيرها التوفيق من كل ضامرٍ
وأركبها الأبطال سعد مطابق
رجال ولكن في الحروب ضراغمُ
وخيلٌ ولكن في السباق شوائق
إلى أن يقول:

فطاف بأرض الكفر حتى أعادها
إلى الحق وإنقاد الأبي المشاقق
وكرَّ إلى نصر الجزيرة بعدما
أتاهُ مع الركبان ناعٍ وناعق
بجيشٍ تضيق الأرض عنه بطولها
وترهبه لو عاينته العمالق
تنام عنه عيون الروم وإنما
تنام وسعد للخليفة طارق

ويختم الشاعر داعياً:

ولا زال أمر الله للدين هاديا
وأنتَ لدين الكفر ماحٍ وماحق⁽¹⁾

ومن الشعراء الذين تغنوا بشهامة الفاتح الموحي وبجوازه إلى جبل الفتح
لإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله، الشاعر القرطبي القرشي الأصم المرواني المعروف
«بالطليق» في قصيدته التي عارض بها قصيدة أبي تمام:

(1) المصدر السابق، ص 164 - 167.

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعبِ

والتي مطلعها :

ما للعدا جنةٌ أوقى من الهرب

فقال عبدالمؤمن: إلى أين؟، فأجاب الشاعر:

أين المفرُّ وخيلُ الله في الطلب⁽¹⁾

ويصف شاعرنا في قصيدته ضعف الأعداء وخذلانهم وجبنهم في الحروب
أمام الجيوش الموحدية وما امتازت به هذه الجيوش من قوة وبأس وشدة، ويختتمها
بتبليغ شكر أشياخ قرطة لإجلائه عن الأندلس كل مظلمة، وما أولى الله به من نعم
هذه الجزيرة بسبب فتحها . فيقول:

وأيّن يذهب من في رأس شاهقةٍ

إذا رمته سماء الله بالشهبِ

يرمي بهم ظهر طرفِ بطن سابحةٍ

فالبَرِّ في شغلٍ والبحرِّ في صخبِ

حدث عن الروم في أقطار أندلسِ

والبحر قد ملأ العبرين بالعربِ

وتطرق الشاعر لنزول الفاتح الموحدي بجبل طارق ولمدحه بنفس الخصال
على غرار الشعراء السابقين:

وطود طارق قد حلَّ الإمام به

كالطور كان لموسى أيمن الرتب⁽²⁾

(1) المراكشي: المعجب، ص 140 (طبعة القاهرة 1949).

(2) هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه تليماً .

لم يعرف الطود ما غشاه من كره
لم يبسط الغور فيه الكف للحسب
ولو تيقن بأساً حلّ ذروته
لعاد كالعهن من خوفٍ ومن هرب
منه يعاود هذا الفتحة ثانيةً
أضعاف ما حدثوا في سالفِ الحقب
ويلبس الدين غصّاً ثوب عزته
كان أيام بدرٍ عنه لم تغب

ثم يذكرنا الشاعر بالفوز الذي أحرزه الجيش الموحي في معاركه
السائلة بالقيروان وصقلية وضد «العرب العرباء»، وقد ترأسها زياد المتمرد
على الموحدين بإفريقية:

فكان سيفك نقاداً له بصر
نفى الزيوف وأبقى خالص الذهب
ولم يبق للعدو إلا مهانة الاستسلام ومذلة الاستئثار:
ألقنت إليك بأيدي الذل طائعةً
ومكنتك من المسلوب والسلب⁽¹⁾

فلما أتم الشاعر قصيدته قال عبد المؤمن: بمثل هذا يمدح الخلفاء!.

ولم ينفصل عبد المؤمن عن الأندلس حتى مهدها ورفق برعيته، «ونقل قاعدة
الحكم إلى قرطبة بعد إصلاحها»، فاستقامت بذلك الأمور للموحدين وقمع الله
المعتدين. فانتظم الدين وأصبح الكفر أشتاتاً.

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 159 - 163.

وفي ذلك أنشد أبو العباس الجراوي قصيدته التي خلد فيها مآثر عبدالمؤمن
بجبل الفتح - من تحصين له ونصر لدين الله وانتقام للمسلمين من الكفار - مشيداً
بدور العرب في ذلك ومعارضاً بها قصيدة أبي تمام:
الحقُّ أبْلَجُ والسيوف عِوَارُ
فحذارٍ من أسد العرين حذارٍ⁽¹⁾

يقول فيها:

أعليتَ دينَ الواحدِ القهارِ
بالمشرفيةِ والقنا الخطارِ
ورأى بك الإسلامَ قرّةَ عينه
وغدت بك الغراءُ دارَ قرارِ
وحللتُم جبل الهدى فحللتُم
منه عقودَ عزائم الكفارِ
جبلُ الهدى والفتح والنصر الذي
سبقَت بشائره إلى الأمصارِ
لو رأى موسى ما فعلتَ وطارقِ
زريّاً بما لهما من الآثارِ
وافيتَ أندلساً فأمنَ خائفٍ
وسما لأخذ الثأرَ ربُّ النارِ
أتممتَ ما قد أملوه ففاتهم
من نصرِ دينِ الواحدِ القهارِ

(1) محمد بن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، ص 61 - 62.

بعرب خيلٍ فوقهن أعارب
 من كلِّ مقتحمٍ على الأخطار⁽¹⁾
 أكرم بهن قبائلاً إقلالها
 في الحرب يغنيها عن الإكثار
 وانظر إذا اصطفت كتائبها إلى
 ما تحمد الكتاب في الأسطار
 ثم يستغيث بالخليفة الموحي ويهيب به للدفاع عن حوزة الإسلام:
 ملكُ الملوك لقد أنفتَ إلى العلا
 ونظرتُ من فوق إلى الأقدارِ
 أخليفةُ المهدي دمتَ مؤيداً
 بالله منتقماً من الكفار
 ترمي شياطين الأعادي في الوغى
 برجوم خيلٍ من سما وغبار
 أنتَ السبيلُ إلى النجاة فكلنا
 وَلِوَاكَ كان على شفير هار
 وجريتَ في نصر الإله إلى مدى
 يكبو وراءك فيه كل مجار
 لا غرو إن كنت الأخير زمانه
 فالفضلُ لأصال والأسحار⁽²⁾

(1) يقصد الجراوي بعرب الخيل أي الخيول التركية ويقول بعد هذا البيت:

لو أنها نصرت علياً لم ترد خيلُ ابن حربٍ ساحة الأنبار
 يروي بعض المؤرخين أن خيول ابن حرب (وهي كنية معاوية) وردت على الأنبار (وهي مدينة على شاطئ الفرات بالعراق). وقتلت عامل علي بن أبي طالب. فخرج علي غاضباً وخطب في الناس وقال: «اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم في عمر دارهم إلا ذلوا».

(2) ابن عذاري: البيان، 3، ص 45 - 47 (ط: ت).

ولما رجع الخليفة الموحي إلى مراكش منصورًا تلقاه الأمير أبو يعقوب سنة 560هـ. وأنشد الشعراء مدائحهم فأجادوا وأحسنوا. فقال أبو الوليد النواش الشبلي مهنئًا الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون من قصيدة له:

وضحتُ بأنوار الهدى نسماته
وأبانت الهدى القديم سماته
ملكُ الملوك مؤيدٌ لكنه
غلبتُ عليه من التقوى ملكاته
دانثُ له الدنيا وكافة أهلها
فعفا وعفَّ وما محت عطفاته
يا خيرَ من ملك الورى ورعاهم
لله فابتدرت له دعواته
جوزيتَ بالحسنى إذا ما محسنٍ
في فعله جزيثُ له فعلاته⁽¹⁾

ولكن بعودة الخليفة عبدالمؤمن إلى مراكش - بعدما ملأ الجزيرة خيالاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند، وبعدهما ملك من طرابلس إلى سوس ومن قرطبة إلى سجلماسة - استعاد الإسبان غرناطة وتراجع الموحدون إلى مالقة. فأصدر من جديد الأمر بالتجمع العسكري الضخم بسلا، وتهيأ الأسطول الموحي للعبور والاستعداد للجواز الثاني إلى الأندلس.

وهنا أنشد الشاعر المخضرم محمد بن حسين بن حبوس الفاسي قصيدته الرائعة في هذا التجمع الذي قام من أجله عبدالمؤمن وخر ساجدًا لله شاكرًا على ما منحه من قوة وبأس. وقد وزن الشاعر بين ممدوحه والبحر موازنة عجيبة، واستوحى من هذا الموقف قصيدته هاته:

(1) المصدر السابق، ص 61 - 62.

ألا أيها ذا البحر جاورك البحرُ
وخيم في أرجائك النفع والضرُ
وجاش على مواهك الحلم والحجا
وفاض على أعطافك النهي والأمر
وسال عليك البر خيالاً كماتها
إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحه
ولكنه إن وافق الخبر الخبر
فأنت خديم الشمس والبدر عنوة
وتخدمه في أمره الشمس والبدر
هنيئاً لأهل الغرب إن حلّها امرؤ
به تصلح الأيام إن فسد الدهر
وبشرى لهذا السيف ما لحدّه
لقد بهرت فيه السماحة والبشر
ويحويك شطر الأرض تعمر بعضه
وفي صدره الأفلاك والبحر والبر
وقد وسع الأيام جوداً ونجدةً
وليس لما تأتي به عنده قدره⁽¹⁾
فسر عبدالمؤمن وطرب لمعاني هذه القصيدة الفخمة العصماء.

(1) صفوان بن ادريس: زاد المسافر، ص 2 - 3.

وتشبه هذه القصيدة وزنًا وقافية قصيدة أحمد عبدالملك بن سعيد السالفة الذكر التي أنشدها أمام الخليفة عبدالمؤمن الموحي لما حل لأول مرة بجبل الفتح.

ولما وصل الخليفة الموحي إلى الرباط اختار أهل الشهامة والنجدة من كل قبيلة وأرسلهم إلى غرناطة ليفكوا الحصار عن «إخوانهم الموحدين الصابرين المحصورين بقصبة غرناطة». وأمر عليكم ابنه الأمير أبا يعقوب يوسف وأصحابه أبا يعقوب يوسف بن سليمان زعيم الموحدين «لتجربته بالحروب ودهيه في الخطوب». ونزل الأمير الموحي بعشرين ألف من الرجال والفرسان في الجبل المتصل بقصبة غرناطة، وجمع أبو يعقوب يوسف بن سليمان أشياخ العرب والموحدين والأجناد والأنجاد، ووعظهم بمالهم من الأجر عند الله في جهاد الكفرة.

«فجددوا في الجهاد النية وأخلصوا لله الطوية»، وصعدوا جميعاً إلى الجبل المتصل بجبل «السبيكة» حيث النصارى القشتاليون بقيادة ابن مردنيش وصاحبهم ابن همشك. ودارت بين الطرفين معركة «السبيكة» أو «السبكة»، ولكن النصارى ولوا الأدبار لهذا الهجوم المباغت ولم يلحقوا أن يركبوا خيولهم.. فهزمهم الله ونصر أولياءه الموحدين ودخلوا غرناطة «على أتم النصر والإظهار».

وخرج الموحدون المحصورون من القصبة وفر ابن مردنيش. ولما أخبر الخليفة الموحي بهذا الفتح الثاني دعا للمجاهدين بالثواب على جهادهم وأمر أن تملأ خزائن قرطبة بالعتاد الحربي - «إذ هي موسطة الأندلس» - وتعمر بأهل إشبيلية وتتخذ عاصمة له بعد أن كانت إشبيلية عاصمة المرابطين⁽¹⁾.

ثم انصرف الأمير أبو يعقوب بمن أمر له من العساكر من الموحدين والمجاهدين إلى حضرة أمير المؤمنين «لشرح الفتح والظفر» المكيين، فوفد الشعراء على عبدالمؤمن لتهنئته بهذا الفتح الذي «أحيا جزيرة الأندلس» (558هـ). فقال في ذلك الشاعر الكاتب أبو الوليد إسماعيل المعروف بالنواش الشبلي منشداً قصيدته البائية التي مطلعها:

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، من ص 190 إلى ص 208.

عزّمتِ منصورِ العزائمِ غالب
ضمّنت فتوح مشارقٍ ومغارب
يصف فيها مراحل المعركة الفاصلة ودور أجناده فيها:
أمنت كتائبه مكيدات العدا
واستصحبَت للنصر ألزم صاحب
طلعت على الأعداء سحباً للردى
سالت دماً بأباطحٍ ومذائب
ويشيد بشجاعة القائد الموحدي وشهامته في المعركة:
نصرت كتائبه بمنصور اللوا
غلاب كل قريع جيشٍ غالب
تلقاه أساد الوغى وكماتها
فكانما يلقاه سرب كواعب
أمضى إلى الشرق القصي عزيمة
نالت قياد أعاجمٍ وأعارب⁽¹⁾

وأنشد الشاعر أبو عمرو بن حربون قصيدة أخرى في هذا النصر - الذي حققه الموحدون في موقعة جبل السبكة - مطلعها:
لكم بعد حمد الله تهدي المحامدُ
وفي وصف علياكم تصاف القلائدُ
يصف فيها السمر الطوال والرماح والخيول التي استعملها الموحدون في هذه الحرب وانهايار كتائب العدو أمام قوة سلاح الموحدين وإيمانهم.
وللشاعر قصيدة ثانية في نفس الفتح، مطلعها:

(1) المصدر السابق، ص 208 - 210.

بأمرك أسمع الواهي المهيّب
وسعدك يسرّ الفتح القريب

منها :

تفادت من سماحتك العطايا
وعادت من بسالتك الحروب⁽¹⁾

يصف فيها السمر الطوال الرماح والخيول التي استعملها الموحدون في هذه
الحرب وانهايار كتائب العدو أمام قوة سلاح الموحدين :

فجاؤوا كما جاءت أسودّ بواسلُ
وولوا كما ولت نعام شواردُ
كتائبُ كالخامات خاموا فأصبحوا
وهم للسيوف المرففاتِ حصائد
نزلت عجاج الموت ثم تكشفت

وقد فاز بالنصر الجليل المجالد⁽²⁾

وكان الخليفة الموحي ينيوي الجواز بنفسه مرة أخرى، ولكن المنية عاجلته بسلا
وحالت بينه وبين تحقيق ملحمة أخرى من ملاحم الجهاد والنضال. وصدق الشاعر:

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسل
مثل الخيفة عبدالمؤمن بن علي⁽³⁾

حقاً لقد قضى عبدالمؤمن حياته مجاهداً ومناضلاً وشجاعاً مقداماً في
ساحات للوغى متعددة، وضد عدة خصوم لا يستهان بمقاومتهم:

(1) المصدر السابق، ص 211 - 213.

(2) المصدر السابق، ص 245 - 249.

(3) لما أنشد أبو عبدالله محمد أبي العباس السمعاني أمام عبدالمؤمن هذا المطلع من قصيدته أشار عليه
بأن يقتصر عليه (ع. كنون: النبوع المغربي ج 1، ص 41).

ففتح الأقصى له والأدنى
واستحكم الأس وقام المبنى
وأعمل الجهاد في الكفار
يبغي به الزلفى وعقبى الدار⁽¹⁾

ويتساءل الشاعر أبو مروان بن خالد في قصيدة يرثي بها الخليفة عبدالمؤمن:
أحقاً مضى المنصور واختار ربه
فليس مدى الأيام منه قفولٌ
مضى بعدما أحيا الأنعام بهديه
وقام بأمر الله وهو كفيل
وطهر دين الله من دنس به
وأظهر هدياً جاء فيه رسول⁽²⁾

ولما خرج أبو سعيد أخو الخليفة أبي يعقوب - الذي كان منهمكاً في صد
التأثرين بالمغرب - بالعسكر الميمون إلى مدينة غرناطة لدفع المهاجمين عليها من
جديد التقى بعسكر ابن مردنيش المعزز بجيوش الأفرنج، فكانت بينهما «مدافعات
وكرات» في معركة «ظهر فيها من العسكر ما لم يظهر إلا في زمان الأبرار المجاهدين
الأخيار». فأرسل أبو سعيد وأبو عبدالله إلى الخليفة الموحي يستغيثان. فخرج أبو
حفص من مراكش فأمر من أخيه الخليفة صحبة أبي سعيد عثمان أمراً بالنفير

(1) ابن الخطيب: رقم الحل، ص 54.

وقد وجد مكتوباً على كتاب «الحماسة» بيتان من الشعر بخط الخليفة عبدالمؤمن - لا يعرف هل هما
من نظمه أم لا - يدلان على روح الجهاد التي تمسك بها الخليفة الموحي طول حياته:

وحكم السيف لا تعباً بعاقبةٍ وخلها سيرة تبقى على الحقبِ
فما تنال بغير السيف منزلةً ولا تردّ صدور الخيل بالكتبِ

(المراكشي: المعجب، ص 136 - 137، ط: سلا).

وكان كذلك شعاره طول حياته حتى توفاه الله.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب 3، ص 121 - 122 (ط. ت).

إليهم. فخرج الموحدون «غازين عازمين» إلى بلاد مردنيش (560هـ). ولما وصل أبو حفص إلى مدينة إشبيلية تهيأ للغزوة «بنية صافية وعساكر بالنصر ضافية وأجناد من الله متلاقية»، وتوجه إلى «مرسية» لمقابلة محمد بن سعد بن مردنيش. ولما كان الموحدون على قرب من المدينة «عبأوا عساكرهم الموفرة ورفعوا آياتهم المنصورة». ودفع ابن مردنيش فيهم بأصحابه وجنوده وعظم الضرب والطعان إلى أن فتح الله للمسلمين في هذه الوقعة - وقعة الجلاب -، وولى الكفرة أدبارهم وفر ابن مردنيش مهزوماً مدحوراً. فدخل الموحدون المدينة ونزلوا بساحتها، ووجه أبو حفص رسالة إلى شقيقه الخليفة - حملها فرسان وبأيديهم «علامات» ابن مردنيش منكوسة - وأصحابها بقصيدة شعرية طويلة يهنئه فيها بالفتح العظيم «وبنيل النجح الجسيم»، ويبشره بالنصر والظفر، ويبارك له في رجاله الأفذاذ، فرسان دولته الأنجاد الذين نالوا ما أرادوا من أعدائهم بفضل بسالتهم وجراتهم:

لقد بلغت جيادهم مداها

ونالت ما أرادت من عداها

وها هي فاسألوا الأصباح عنها

بحمد الله قد حمدت سراها

تعد رضاكم عزاً وجاها

فما تشكو على حالٍ وجاها

ويقول في سيوفه:

فقد نهلت سيوفكم وعلت

فما تشكو أبداً ظباها

ولو فانت وميض البرق عدواً

لخطاها ولم يحمد خطاها

رماهم أمركم ببني حروب
إذا انتدبوا لها حسوا لظاها
وبعد هذه الصورة الشعرية الرائعة يقول شاعرنا مباركاً:
فبورك للخليفة في رجال
أطاعوا الله فيمن قد عصاها
هو النور الذي بهرت ولاحث
به شمس الهداية في ضحاها
حياء به الخليفة عن إمام
قد انتاش البرية من عماها⁽¹⁾

وعناية من أبي يعقوب بغرب الأندلس كذلك لنصرتها وحمائيتها «بنية الجهاد لله عز وجل»، وتنفيذاً لما عقد عليه العزم، وإشفافاً منه على المسلمين المحاصرين، ودفاعاً عن الدين الإسلامي، اختار جيشاً من الموحدين - لانشغاله بأمور المغرب - ووجهه بقيادة شقيقه أبي حفص عمر إلى مدينة «بطلْيوس» الأندلسية ليفك الحصار المضروب على الموحدين القاطنين بقصبتها⁽²⁾.

وقامت معركة صاخبة بين الموحدين والنصارى بقيادة «ابن الرنك» سنة 564هـ. وأنزل الله «بابن الرنك» نقتك فولى أدباره، وتيمن أهل الأندلس بهذا

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: من ص 270 إلى ص 284.

(2) انظر الرسالة التي بعث بها أبو يعقوب يوسف إلى أشياخ الموحدين والتي قطع فيها الوعد على نفسه بالجواز إلى الأندلس بجيش ضخم للجهاد (المن بالإمامة، ص 376 - 379). وانظر رسالة مماثلة بعث بها أبو يعقوب يوسف إلى أبي عبد الله بن إبراهيم واليه على غرناطة يخبره بما عقد عليه العزم من الجهاد بالأندلس. منها: «... وهذه كلها مقدمات بين يدي ما ينوي من الغزو الأعم والجهاد الأتم الذي يحق لله به الباطل ويعفي أثره ويعدم عينه على ما وعد به أنه لا يخلف الميعاد....».

(الوثائق السياسية والإدارية لمحمد ماهر حمادة، ص 293 - 294) وبما أن أبا يعقوب يوسف يتميز بهذه الروح الجهادية العالية فقد أمر بجمع الأحاديث النبوية في الجهاد، لكي تملئ على الموحدين فيدرسوها ويتدبروها.

الفتح الإلهي والنصر المتناهي. ولما وصلت البشرية إلى أمير المؤمنين بمراكش امتدحه الشعراء وهنؤوه. فقال أبو العباس الجراوي من قصيدة نونية يتحدث فيها عن مهابته وعزماته في الحرب، مطلعها:

نصرٌ بكل سعادة مقرونٌ
نالت به الدنيا المنى والدينُ

ثم يقول:

تغزو المهابة عند كل معاندٍ
ولو أنه اشتملت عليه الصين
وتشنُّ حيث توجهت عزماته
حرباً كما وصفت لنا صفين
إن أصبحت وهي للبرامك أمة
في ظلمها فحسامه هرون
من قيس عيلان الذين سيوفهم
أبدًا تصول ظبباتها وتصون
وكفاهم أن كان منهم مفخرًا
معنى الوجود وسرّها المكنون
ملكٌ إذا اضطرب الزمانُ مخافةً
لم يغنه التسكينُ والتأمين
ألقي على أهل الضلالة كل كلا
فلهم عويلٌ تحته وأنين⁽¹⁾

وقال بان حربون أيضًا بنفس المناسبة قصيدة رائعة يصف فيها كيف تم انهزام «ابن الونك»، ويحمد للخليفة هذا النصر الذي تحقق بفضل جيوش الموحدين الذين

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 79 - 81 (ط: ت).

يبلون البلاء الحسن في كل حرب خاضوها لإعلاء كلمة الله، ولتشبيد أركان دينه،
ولإحباط مناورات أعداء الإسلام بالأندلس. مطلعها:

بسعدك أضحى الدينُ جذلانَ باسمَا
وباسمكُ أمسى الشركُ للشركِ هادما
ألا إنها فيما وعدت لآيةٍ
يدين بها من كان لله عالما

ويقول عن وثبة الخليفة الموحي التي هزمت الأعداء:

وبادرها للحين وثبة هاجمٍ
فصادق وثابا لمبناه هاجما
وكم من عدوٍ ردّه يمن أمركم
على عقبية صاغرُ القدر راغما

ثم يوجه الشاعر نداءً للأمير الموحي كي يعيد الكرة ويرد للأندلس
عهدها الزاهر:

وإنني لأرجو للجزيرة كربةً
تعيدُ عليها عهدَها المتقادما
ببطشةٍ غيران الحفيظة مغضب
إن انتهك الأعداء منها المحارما
ولو أسعف المقدار منكم بزورة
لأحييتم تلك العظام الرمايما
وجليتم عن أفقها بسناكم
غواشي كفر قد أكبت غواشما
وأنت أمينُ الله تجبر صدعها
وإن قال قومٌ إنه قد تقادما

وتحيي رسومَ التابعين بأرضها

فها هي تستدعيك غبرا طواسما⁽¹⁾

وفي سنة 566هـ تحرك أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف نفسه من مراکش متوجهاً إلى جزيرة الأندلس للقيام بغزوته الأولى «لدفع النصارى عن جهاتها». ومحاربة ابن مردنيش. ولما وصل أمير المؤمنين إلى إشبيلية أنشد الشاعر ابن سيد الإشبيلي قصيدة يهنئه بالقدوم ويشيد بجيشه الذي يحبه وتحققت به فتوحات النصر:

السعد يقدم والعزائم تصدق

والنصرُ بينهما يخب ويعنق

وأمامها ملكٌ أغرَّ يحفه

جيش تغص به البلاد وتشرق

وبعدما يصف الشاعر حالة سعد بن مردنيش وما أصيب به من جنون وطغيان

يعود فينشد مادحاً ومرحباً:

ملكٌ أفاض على الجزيرة رحمةً

أحيا الرجاء بها حياة المغرق

وافى ليرتق فتقها لما رأى

أن لا سواهُ يسده أو يرتق

ولقد تيقن أن ستفتح فارس

بجنوده قسراً وتفتح جلق⁽²⁾

ولعل الشاعر في هذا البيت الأخير يعبر عن رغبة الموحدين في فتح المشرق

وفارس بعد فتح المغرب والأندلس. وقد راودت هذه الفكرة أيضاً الشاعر أبا العباس

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 384 - 387.

(2) المصدر السابق، ص 453 - 455.

وجلق: اسم أعجمي لمدينة دمشق.

الجرأوي لما كان يمدح المنصور الموحي، وقد وجه الراحة بعد اعتلاله وشفى من
سقمه لما عالجه الأطباء الأندلسيون:

ستملك أرض مصر والعراقا
وتجري نحوك الأمم استباقا
تبادرت الفتوح إليك تجري
غرائبها وتستبق استباقا⁽¹⁾

كما عبر الجراوي عن نفس الفكرة في إحدى قصائده التي يهنيء فيها ولده
يعقوب بانتصار من انتصاراته العديدة على أهل الكفر والشرك:

بجد عزمك نال الدين ما طلبا
وأحجم الشرك عن إقدامه رهبا
وأيقنت ملّة الإسلام أنّ لها
بك الظهور على الأعداء والغلبا
سينظم السعد مصرا في ممالكه
حتى تدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى
أقصى خراسان يلقي جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله
وكل عصر له ما زال مرتقبا⁽²⁾

(1) ابن عذاري: البيان، 3، ص 125.

(2) (المصدر السابق، 3، ص 154 - 155).

ونجد نفس الفكرة كذلك عند الأمير الشاعر أبي الربيع سليمان الموحي عندما يقول مخاطباً ابن
عمه المنصور من قصيدة يطلب منه فيها أن يعفو عنه ويقله من عشرته:

بقيت أمير المؤمنين وأمركم	مؤتى له يستخدم الشرق والغربا
فلما قريباً ينجز الله وعده	لأمرك حتى تفتح الشرق والغربا

ولما تم دخول الخليفة الموحي إلى إشبيلية «على الهيئة المعلومة من السرور والتبريز الذي لم ير الناس مثله بالأندلس في الحديث والقديم» امتدحه الشعراء وكان منهم شاعره أبو العباس الجراوي الذي أنشد:

حللت من العلى أسمى ذراها
وجاريت النجوم إلى مداها
وصلت وصلت فالأمواه تجري
وغلب الأسد تحذر في سراها
تنال المارقين بكل أرض
ولا طارت ولا نقلت خطاها
لقد أخنى الزمان على النصارى
بوطئ مؤيد صدعت صفاها
وأنصف بعضها الإسلام منها
وأدرك في العقوبة منتهاها⁽¹⁾

(د. ع. الجراوي: الأمير أبو الربيع سليمان الموحي، ص 219) ويقول في نفس المعنى أبو أمية إسماعيل بن سعد السعوي قصيدة يمدح المأمون الموحي:

حسب الإمامة أنك المأمون لا قاك طالع سعدك الميمون
إلى أن يقول:

يهنيك بل يهني الأنعام بشائر يصغي العراق لذكرها والصين
(ابن عذاري: البيان 3، ص 259).

ويقول أيضاً أبو عمرو وزير بن خالد اللخمي لما كان يمدح الناصر لدين الله بعد القضاء على الهنتاتي:

كف بمصر والعراق وعندها حديث من استيلائكم غير مظنون
وما هو إلا أن تعين موقف يقدم ما أخرتموه إلى حين
وتطوى بأيديكم بلاد عريضة غدت نشرًا ما بين غاو ومفتون
(المصدر السابق، ص 222).

وقد سبق لشاعر من بجاية أن عبر عن نية المهدي بن تومرت في هذا الصدد:

ويفتح الأمصار شرقًا ومغربًا ويملك عربًا من مغير ومنجد

(1) ابن عذاري، البيان 3، ص 93 - 94 (ط: ت).

وفي سنة 569هـ أمر يعقوب يوسف بغزو ابن «أدفونش»: «البيبوج» في عقر داره بمدينة السبباط بالأندلس «ومنازلة جهاته وأنظاره»، وذلك بعدما نقض عهد الصلح وكفر بنعمة الموحدين الذين ساعدوه بعساكرهم على التغلب على خصمه صاحب طليطلة. «فقام المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس». فلم يعبأ بتنبؤاتهم. فأنشد أبو حفص ابن عمر الأغماتي⁽¹⁾ قصيدته الميمية التي تذكرنا بقصيدة أبي تمام في فتح عمورية الشهري: «السيف أصدق أنباء من الكتب»، يفند فيها ادعاءات المنجمين ويشجعه على المضي في زحفه. منها:

اللهُ حسبكُ والسبعُ الحواميمُ
تغزو به سبعة وهي الأقاليمُ
سبع المثاني التي لله قمتَ بها
عليك من نصرها نصٌّ وتقديم
وانتَ بالسور السبع الطوال على
كل الورى حاكم بالله محكوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقةٌ
بوعد ربك هيهات التناجيم
تسمو بنفس على السبع الشداد سمتُ
فيينا وثمَّ لها زلفى وتكريم

ويقول الجراوي من قصيدة أخرى في الإشادة بشهامة الخليفة الموحي:

الأمر أمر الله ليس يضره	ما حاولت من كيد الأعداء
والحقُّ أبلج والمعاند عينه	عمياء عنه أذنه صماء
لو كانت الجوزاء من أعدائه	لم تنج عن غاراته الجوزاء

(المصدر السابق، ص 94).

(1) هو القاضي الأديب الخطيب الشاعر أبو حفص بن عمر السلمي الأغماتي (530هـ - 603هـ) ولد بأغمات وسكن بمدينة فاس وتولى بها القضاء والخطابة في عهد الموحدين. كما ولي القضاء بتلمسان وإشبيلية حيث توفي بها. (المقري: أزهار الرياض ج 2 / ص 361) وانظر: عبدالله كنون: أبو حفص بن عمر - ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 30.

أعلى بك الله أعلاماً هديت بها
فأنت فيهن إكمال وتتميم
عليك أهل الهدى والحق متفق
وحبل من فارق الإجماع مصروم
ويخاطب الشاعر مسلمي الأندلس ينصحهم باتباع الأمير في خطة جهاده:
إنّ الخليفة سرُّ الله ظاهرة
آياته وهو عند الله معلوم
فسلموا واخلعوا الأراء واتبعوا
حكم الإمام فما في الدين تحكيم
الشرق والغرب من عرب ومن عجم
في كفه عودهم بالقبض معجوم
والبحر والبر من سهل ومن جبل
جميعها بزمام الرأي مخطوم
ثم يتوجه الشاعر بالخطاب للخليفة الموحي مؤيداً رأيه المحمود وسعيه
المنشود:

العلم والدين والدنيا وساكنها
في سلك رأيك يا وسطاه منظوم
جزاء سعيك عند الله مدخر
هذا كتابك في الأسرار مرقوم⁽¹⁾

(1) المقرئ: أزهار الرياض، ج 2، ص 362 - 363.
وللأغماتى قصيدة أخرى في مدح أبي يعقوب يوسف الموحي أورد منها المقرئ مطلعها:
ألا هكذا تبنى العلا والمآثر وتسمو إلى الأمر الكبير الأكابر
تؤم لبيعات الرضى مطلع الهدى وحيث الهدايا تعلى والأوامر
(المصدر السابق، ص 365).

ثم أمر أبو يعقوب يوسف الأعراب والأجناد بالتجمع في إشبيلية والتأهب للغزو والجهاد . فخرج أبو حفص على رأس هؤلاء الأجناد، وغزا الثائر في قاعدته وانتصر عليه، فأنشد الشعراء في هذا الانتصار الموحي وأطنبوا فيه . من هؤلاء أبو العباس الجراوي الذي أشاد بجهاد الموحدين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، والذين كتب الله لهم «فتوحًا» في الأعداء:

عن أمركم يتصرف الثقلان
وبنصركم يتعاقب الملوان
وبما يسود عدوكم ويسركم
تتحرك الأفلاك في الدوران
جاهدتم في الله حق جهاده
ونهضتم بحماية الإيمان
وتركتهم أرض العدا وقلوبهم
في غاية الرجفان والخفقان
وغزاهم الدين الحنيفي الذي
كتب الظهور له على الأديان
كتب الإله لكم فتوحًا في العدا
هذا لها وسواه كالعنوان
هذا مقام المصطفى يا فوز من
حاز النياحة فيه عن حسان
من يعرف الرحمن حقًا يعترف
بحقوقه لخليفة الرحمن⁽¹⁾

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 103 - 104 (ط: ت).

ويوجد بمجموعة تضم أشعارًا أندلسية مجهول صاحبها، ومخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 4958 (بدون ترقيم لصفحاتها التي أصابها بعض الخروم) قصائد في مدح الخليفة الموحدي

ثم رجع الخليفة إلى المغرب وترك الموحدين في صراع من النصارى. ولما كان البرتغال أشد قسوة في حروبهم على المسلمين من أهل قشتالة وأراغون فكر الخليفة الموحي في مهاجمتهم وصددهم عن عدوانهم. فجمع جيشاً بسبته وأرسله إلى إشبيلية وانضافت إليه بهذه المدينة قوات أندلسية. ثم أمره - بإمرة ولده إسحاق - أن يقوم بالهجوم على لشبونة، ولكن الغلبة كانت للبرتغاليين، وكان أبو يعقوب يوسف حاضراً في المعركة وأصيب بطعنات نقل على إثرها صريعاً إلى الجزيرة الخضراء حيث توفاه الله شهيداً سنة 580هـ وصدق شاعره الجراوي:

بسيفه صال الدين في الشرق والغرب

ودارت على الأعداء دائرة الحرب⁽¹⁾

ولم تمر سنة على الزحف الأول الذي قام به أبو يوسف يعقوب المنصور الموحي على إفريقية حتى أجاز المنصور من رباط الفتح سنة 586هـ ماراً من قصر مصمودة (القصر الصغير) إلى الجزيرة الخضراء لصد المسيحيين من البرتغال. ولما كان يتهيأ بالجزيرة للغزو «ويأخذ في مهمات الجهاد وما يليق بالحال الحاضرة والاجتهاد»، قال الشاعر أبو بكر ابن مجبر مبشراً بالنصر:

وبلائه بالأندلس، وتهنئته بالانتصار على أدفونش والد (البيروج) الإسباني. منها قول الشاعر مخاطباً الأمير الموحي:

هنيئاً لك للرقبال واليمن والنجح
قضى الله أن تسعى لإحياء دينه
ثم يتوجه إلى أدفونش بالخطاب:

غراك أمير المؤمنين بعسكر
ويقول نفس الشاعر من قصيدة أخرى:

يا خيل محيي ملة الإسلام
لله جيش خليفة راياته
مشحودة عزماته معصومة
آراؤه في النقص والإبرام

(1) ابن عذاري: البيان، ج 3، ص 104 (ط: ت).

بشرأي هذا لواء قلّ ما عقدا
إلا ومدّ له الروح الأمين يدا
إمام جيشٍ أراد الله نصرته
فأرسل الملائة الأعلى له مددا
إنني لأحكم بالنصر العزيز له
وإن حكمت فإنّ الوحي قد شهدا⁽¹⁾

ثم نازل المنصور الموحي النصرى في غارات متلاحقة، فقتل منهم الكثير وأسر منهم الكثير، وأمر جيشه بفتح أربع مدن كانت بيد الأفرنج. «فأظهر (بذلك) أبهة ملك الموحدين (بالأندلس)، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل». فامتدحه الشعراء. منهم أبو بكر بن مجبر الذي قال من قصيدة طويلة يتحدث عن الذعر الذي أصاب الروم في ميدان المعركة واستسلامهم للمنصور:

أتتك أساري الروم وهي أقلها
فمن فضلات القتل ينتجع الأسرُ
وما كان قبل اليوم سهلاً مرامها
ولكن على الإسلام ما يصنع الكفر
وما زلت ترنو كل يوم مسافة
إليهم ويهوي في نفوسهم الذعر⁽²⁾

ولما أكمل المنصور «غزواته بالأندلس» وألقت له ملوك الروم بيد الاستسلام، عاد إلى حضرة مراکش فحمد له الشعراء أويته المبروكة «وما أظهرن الله تعالى من نصره، والظفر بمطلوبه». وقال أبو العباس الجراوي يفتخر بفتوحات خليفة الموحدين من قصيدة طويلة مطلعها:

(1) المصدر السابق، ص 179.
(2) المصدر السابق، ص 177 - 178.

إِيَابَ الإِمَامِ حَيَاةَ الأُمَمِ
تَوَالِي السَّرُورِ بِهِ وَانْتَظِمِ
إِذَا حُلَّ فِي بِلْدَةِ أُمْرَعَتْ
فَطَابَ جَنَاهَا وَفَاحَ المِشْمِ
وَمِنْهَا فِي وَصْفِ بَطْشِهِ بِالْأَعْدَاءِ:
إِذَا الخُطْبُ جِيْشٌ نَحْوَ الوَرَى
تَصْدَى لَهُ عِزْمُهُ فَانْهَزْمِ
سَلِ الدَّهْرَ عَنِ بَطْشِهِ بِالْعِدَا
تَجِبْ مِنْ وَرَاءِ الدَّرُوبِ الْعِجْمِ
فَتَوْخُ عِظَامُ حِبَاهَا الزَّمَانِ
لِذِي هَمِّ دُونَهُنَّ الِهَمِّ
ثُمَّ يَخَاطَبُ مَلُوكَ الزَّمَانِ:
نَصِيحَتَكُمْ يَا مَلُوكَ الزَّمَانِ
نَصِيحَةٌ مِنْ لَيْسَ بِالمُتَهَمِ
أَنْيَبُوا إِلَيْهِ وَلِوَدَّوَا بِهِ
تَفُوزُوا وَأَلْقُوا إِلَيْهِ السَّلْمُ⁽¹⁾

ولم تحل سنة 591هـ حتى كانت إجازة المنصور الموحيدي البحر إلى الأندلس للمرة الثانية، ونزل بإشبيلية برسم غزوة الأرك⁽²⁾، (نقطة حدود بين قشتالة والأندلس). وقد هياً له عبور المضيق انتصار القائد عبدالله بن جامع على الأسطول البرتغالي وقهره له في حملته الثانية لغزو مدينة سبتة سنة 1181م.

(1) المصدر السابق، ص 186 - 187.

(2) عن هذه المعركة، انظر وصفاً مدققاً لها في نفح الطيب للمقري، ج 4، ص 382 «ويوم الأرك» لفاضل السباعي - المناهل - عدد 17، ص 192.

فخاطب أبو الربيع سليمان الموحي فيما خاطب به المنصور مهيباً به أن يغزو
أرض الأعداء ويتصدى لهم لنصرة دين الله:
جيشُ الضلال بجيش الحق مهزومٌ
فنفذ العزم إنَّ الفتح محتومٌ
وجس بعسكرك المنصور محتكما
أرض العدا فالذي عدت معلوم
صمم لفتح يرى في الدهر نادرةً
فكم أذاك به عزٌ وتصميم
من ذا يرى جنود الله يقدمها
حيث انتحيت بها للنصر «حيزوم»
جيشٌ تصدى لدين الله ينصره
من يحرم الغزو فيه محروم⁽¹⁾

«وخرج المنصور وأمر بالتبريز فركب جميع العساكر وركب المنصور وطاق
عليهم - مع الوزراء والكتاب - في مواضعهم صفاً صفاً... وقد شكر استيفادهم
واستعدادهم»⁽²⁾.

- (1) أبو الربيع سليمان الموحي: الديوان ص 32.
وذكر أبو القاسم الزياني في كتابه: «الترجمة الكبرى» (بخلاف باقي المؤرخين) أن أبا الربيع سليمان
الموحي هنا أيضاً ابن عمه المنصور الموحي بانتصاره في «غزوة الأرك» بقصيدته التي مطلعها:
هبت بنصركم الرياح الأربع وجرت بعسكم النجوم الطلع
(انظر فصل فتوح المغرب الأوسط وإفريقية).
- (2) لما تهدد ملك الأفرنج «ألفونشو» المنصور الموحي، قال المنصور لرسوله: «ارجع إليهم فنأتيهم بجنود
لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون. ثم قال للكاتب: اكتب هذه القطعة من كتاب
ألفونشو» (الذي مزقه)، الجواب ما ترى لا ما تسمع.
فلا كتب إلى المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم
(المقري: نفح الطيب، ج 4، ص 100).
وقد قال يوسف بن تاشفين نفس القولة لألفونسو السادس لما توعده وهدده (انظر قبله). وإلى هذا
يشير العلامة سيدي المدني بن الحسن في قصيدته الميمية «بني قومي»:
ويعقوب ذو رباط الفتح لما تمادى المعتدون في الانتقام

ولما نادى بالنفير العام خرج لغزو الأرك يوم «الفتح المشهور»⁽¹⁾ بعد أن استعد جنوده ولبسوا أسلحتهم ورتبوا الصفوف ووقفوا كالبنيان المرصوص، وخطب عليهم أبو علي القاضي ابن الحجاج خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله والتبويه على مكانته وقدره.

والتقى الجمعان بحصن الأرك بين قرطبة وقلعة رباح سنة 591هـ - 1195م، واعترك الفريقان وحمى الوطيس حتى «ركب السيف» الأعداء «وتقسمهم النهب والحيف»، وأسفرت الحرب عن حصيد من القتلى «كالزرع المحصود والصخر المنضود». وفر «ألفونسو» الثامن ملك قشتالة لا يلوي على شيء نحو طليطلة، ومن ثم لقب أبو يوسف يعقوب الموحي بالمنصور⁽²⁾.

فكان جوابه ما قد رأوه	من البطش القوي المستدام
وقد سالت بطاح الأرض طراً	بنبال وسياف ورام
وصب على الأعادي في البوادي	سياطاً من عذاب كالضرام

(عبدالله الجارري - الحافظ الداعية - محمد المدني ابن الحسني، ص 120).

(1) بات المنصور الموحي ليلة معركة الأرك راکعاً ساجداً ومبتهلاً وراغباً إلى الله سبحانه في تأييده على الكافرين. فلما غلبته عيناه نام في مصلاه قليلاً ثم انتبه فرحاً إذ رأى في منامه أن باباً فتح من السماء ونزل منه فارس أبيض وبيده راية خضراء منصوراً فسلم عليه وقال من أنت يرحمك الله؟ قال أنا ملك من ملائكة اسماء جئت لك لأبشرك بالفتح المبين لك ولعصابتك المجاهدين، ثم أشد هذه الأبيات:

بشائر نصر الله جاءتك سافرة	لتعلم أن الله ينصر ناصره
فأبشّر بنصر الله والفتح إنه	قريب وخيل الله لا شك ظافرة
فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا	وتخلى بلاد لا ترى بعد عامرة

فأيقن المنصور بالفتح والظفر (العلمي: الأنيس المطرب، ص 224 - 225).

(2) يشير ابن الونان في «الشمقمقية» إلى هذا الفتح وإلى «الكتاب الممزق» بقوله:

وكن إذا استنجدت مثل من غزا	أرض العدا بكل طرف أبلق
وسم عدو الدين بالخسف وكن	مثل أبي يوسف ذي التخيق
رد كتاب من دعاه للوغى	منهم ممزقاً لفرط الحنق
وقال إنني لا أجيب بسوى	جيش عرمرم وخيل ذلق
وضرب القسطاط في الحين وقد	أحاط جيشهم به كالشودق (المعصم)
وكان ما قد أبصروا من بأسه	أبلغ من جوابه المشبرق (الممزق)

(ابن الونان: الشمقمقية، ص 88).

وكانت وقعة الأرك الظافرة النموذج المكرر لموقعة الزلاقة في مقدماتها وظروفها ونتائجها⁽¹⁾. وجعلت المنصور رمزاً خالداً للجهاد الإسلامي.

ولما كان الفتح «الجلل» هذا رجع المنصور إلى إشبيلية⁽²⁾ - التي شيد فيها مئذنة الخيرالدة - «والنصر يتהלل فوق جبينه والظفر يضحك مع شماله ويمينه»، وجلس إلى الوفود في قبة من قببات القصر المشرف على نهر إشبيلة، في «حصر الفرج»، وأذن لوفود الشعراء فدخلت عليه مهنئة مباركة، وأنشده كثير منهم قصائدهم الرنانة:

فممن أنشده الشاعر المجيد أبو العباس الجراوي الذي أنشد قصيدة رائعة طويلة أشاد فيها بهذا الفتح العظيم الذي يشابهه في أهميته وعظمته الفتح

(1) جاءت وقعة الأرك بعد وقعة حطين الشهيرة بسبع سنوات، فبينما كان المسلمون في المشرق يحققون انتصاراتهم الحاسمة على الفرنج الصليبيين كان إخوانهم في المغرب يحققون انتصارات مماثلة على أرض الأندلس وبقية الموحدية هذه المرة.

(بسام العسلي: وقعة العقاب - مجلة البحث العلمي - عدد 35، ص 103 - 104) ونجد صدى لهذه المعركة في شعر ابن الخطيب حيث قال من قصيدة يمدح فيها عامر بن محمد بن علي (كبير الوطن المراكشي):

أليس من القوم الذين علاهم	مخلدة واستشهد الكتب تشهد
خلائف عبدالمؤمن الملك الذي	بسر من المهدي قد كان يهتدي
فسل إن أردت الأرك إذ غصت الربي	بكل عميد بالرغام موسد
فمن ذا له كالقوم إن شئت في ندى	وبأس وفي فضل وفي صدق مشهد

(ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ج 3 (مخطوط) لوحة 51 - 52).

(قامت السعدية فاغية بتحقيقه لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب من جامعة مدريد 1988).

(2) في يوم عودته أمر أمير المؤمنين باستعراض جنده في «السلام التام». «فلما انتشر بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هيأتهم»، قام فصلى ركعتين شكرًا لله عز وجل. ولما لم ينته من صلاته حتى أمطرت السماء. فقال في ذلك محمد بن عبد ربه (من الجزيرة الخضراء) كاتب أبي الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن الموحي:

بادي الكرامة بل بادي المكرمات	قد شفّع الله آيات بآيات
يا ليت شعري ما شيء دعوت به	قبل السلام ومن بعد التحيات
شيء تأثر عنه الجو فأتصلت	من السحاب رايات برايات
من كل وطفاء لفاء الرباب همت	ماء نقيًا على زعف نقيات
قل كيف يفتح الله البلاد وقد	تفتحت لك أبواب السموات

(المراكشي: المعجب، ص 182 - 183، ص سلا).

الذي كللت به غزوة «الزلاقة» - (إذ لولا انتصار المنصور في هذه المعركة لاستولى المسيحيون على إشبيلية ومرسية وغرناطة)⁽¹⁾ - وأتى بوصف لهزيمة جيش «الأدفنش» (ملك الإسبان) وختم قصيدته بتهنئة الخليفة المنصور بهذا الفوز المبين مطلعها:

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا
وعمت جميع المسلمين به البشرى
ومن وصفه لهزيمة جيش الأعداء وانتصار قوة الحق قوله:
تميز بالأحجال والغرر التي
أقل سناها يبهر الشمس والبدر
لقد أورد الأدفنش شيعته الردى
وساقهم جهلاً إلى البطشة الكبرى
وقد أوردته الموت طعنة ثائر
وإن لم يفارق من شقاوته العمرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا
وأمسّت خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا
هشيمًا طحينًا في مهب الصبا يذرا
ويقول في الأدفنش المهزوم في يوم الأربعاء:
وكان يرى أقطار أندلس له
متى يرم لم يخطئ بأسهمه قطرا

(1) يقول ابن الخطيب في رقم الحل من قصيدته الرجزية التي ذكر فيها ملوك الموحدين بالمغرب والأندلس:
أوقع بالأعداء يوم الأرك فلم يمل من بعدها لترك
فلقي الروم به شداًداً ومات فيها صادراً وواردا
(ص 54 - 55).

فسلاله يوم الأربعاء عن المنى
فما يرتجى مما تملكه شبرا
فكيف رأى المغتر عقبى اغتراره
وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
أما عن الإمام القائد وسيفه الباتر فقد أنشد قائلاً:
بيمن الإمام الصالح المصلح الرضى
نضا سيفه الإسلام فاستأصل الكفرا
فلا زال بالنصر الإلهي يقتضي
بشائر تحصى قبل إحصائها القطرا
وسهلت المرقى إليه صوارم
كثير بها القتل قليل بها الأسرى
وأما في الإشادة بعسكر المنصور ودوره في هذه المعركة يقول الجراوي:
له عسكر مجر من الصبر والتقوى
يرد على أعقابه العسكرا، المجرا
أغاث به الله البلاد وأهلها
وصير غايات الفتوح له ذخرا
تعوذ بالركض الحثيث من الردى
فلو سابق الأرواح غادرها حسرا
وأثمره الصبر الذي لم تزل به
حماة الهدى والدين تستنزل النصر⁽¹⁾

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 192 - 197 (ط: ت).
وانظر: محمد الفاسي: ملحق محاضرة عن الجراوي، ص 3.

ولشاعرنا قصيدة أخرى في وصف هزيمة «الأفونش» يقول فيها بعد مطلعها :

(فتحُ مبيّنٌ جلّ أن يتخيلا
جاء الزمانُ به أغرّ محجلا)
دهت النصارى بالجزيرة وطأة
راع الجزيرة ذكرها والموصلا
بكرت مصارعها العداة سريعة
كالطير ظامئة تبادر منها
وشقوا بيومٍ أوحِدٍ في جنسه
فأتت مناقبه الزمان الأول
عدد المصارع منهم عدد الحصى
هيهات أن يحصى وأن يتحصلا
جاؤوا أسوداً لا تهابه فاثنوا
يحكون في الحرب النعام المجفلا
نهض الإمام إليهم في ساعة
عزّ المحق بها فبز المبطلا
في جحفلٍ لجبٍ كأن جموعه
هضبات رضوى أو شواهق تذبلا
سلبت أكفهم السيوف غمودها
وكسا مجالهم السماء القسطلا
جمع ابن ريمند فكف جماعه
عزم لو اعتمد الرواسي زللا
طاحت به هفواته والماء لا
بدله من أن يفيض إذا غلا

وتفرقت أيدي سبأ أشياعه
لا يعرفون من البسيطة مؤثلاً
إلى أن يقول مخاطباً المنصور الموحي في ختام قصيدته:
يا موردَ الأموال بحر نواله
عذب الموارد سلسبيلاً سلسلاً
ومجرد الأفهام من صدا العمى
ومفتحاً ما كان منها مقفلاً
لما رجوت الله بلغك المنى
وأثابك الفتح الهني الأعجلاً⁽¹⁾

ومن الشعراء الذين أنشدوا المنصور في إشبيلية شاعر أندلسي من مرسية اسمه علي بن حزمون⁽²⁾، أنشده قصيدة سينية من وزن الخبب - وقعت من أمير المؤمنين موقع استحسان - لم يخرج فيها عن «الإطار التقليدي» من وصف للغزوة واندحار للعدو وتمجيد لفرسان وخيول الخليفة، ولدورهم البطولي في ميدان المعركة ومن تهنئة للمنصور وتشجيعه للمضي في طريق الفتوحات لأن الله لا يخلف وعده: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

فيقول شاعرنا مخاطباً المنصور بعد المطلع:
(حيتك معطرة النفس)
نفحات الفتح باندلس)
فذر الكفار ومائتهم
إنَّ الإسلامَ لفي عرس
إمام الحق وناصره
طهرت الأرض من الدنس

(1) محمد الفاسي: ملحق محاضرة عن الجراوي، ص 8 و9 (نقلاً عن مخطوطة بخزانة، محمد المنوني).
(2) للشاعر أبي حفص الأغماتي قصيدة في وصف موقعة الأرك.

ورفعت منار الدين على
عمد شمم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما
صدع الديجور سناقبس
فأولئك حزب الكفار ألا
إن الكفار لفي نكس
حكمت أسيافك سيدنا
في كل مصر الكفر مسي
ومضت في الروم مضاربها
وكذلك تجعل في الفرس
لا يخلف ربك وعده
دوخ أقطارهم ودس
أجزيرة أندلس اعتصمي
بإمام الأمة واحترسي
أرعاك حرساته ملك
جبريل له أحد الحرس⁽¹⁾

ومن شعر الأمير أبي الربيع سليمان الموحي في هذه المقابلة التاريخية بين
عمه المنصور و«ألفونشو» في موقعة الأرك قوله مشيداً ببطولة الموحدين:
والسيف أعدل حاكم فقضى له
بذي أن تصان وهذه أن تسفكا
قدت الهدى مثل الصباح تبليجا
وحملت ليلا للردى محلولكا

(1) المراكشي: المعجب، ص 180 - 181 (ط: سلا).

بموحدين مصممين عدوهم
جعلوا دليل الفتح فيه عزمكما

ويقول مهناً خليفة الموحدين:

اهناً أمير المؤمنين بغزوة
قالت لك الأقدار فيها هل لك
إن الفتوح عظيمها وجسيمها
لم تدخر لخليفة إلا لك
هذي الشام برسلها وبكتبها
نفرت إليك تيمناً وتبركا⁽¹⁾
لم يثنها بعد الديار عن التي
جعلتك حلاً للحجيج ومنسكا⁽²⁾

ولأبي حفص بن عمر قصيدة يمدح بها يعقوب المنصور ويهنئه بانتصاره في
«معركته» الخالدة:

أطاعتك الذوابل والشفار
ولبى أمرك الفلك المدار
ببشرى مثلما ابتهجت رياض
وسعد مثلما وضح النهار

(1) لعل الشاعر يقصد بذلك الرسول ابن منقذ الذي أرسله صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور يستجد به ضد الصليبيين الذين أغاروا على ساحل البلاد المقدسة سنة 587هـ. وقد مدح ابن منقذ المنصور بقصيدة منها:

إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
بأن نذاك الغمر بالنجح كافل

إليك أمير المؤمنين ولم تزل
قطعت إليك البر والبحر موقناً
(المقري نفح الطيب، ج 1، ص 419).

(2) سليمان الموحدي: الديوان، ص 28 - 29.

وفتحٌ مثلما انفتحت كمام
وشقت عن صدورِها صدر
وأعلام بنصرِكَ خافقات
لها في كل جَوٍّ مستطار
ثم يصف جموع العدو المخذولة:

وكم راموا الفرار من الرزايا
ولكن أين من أجل الفرار
تدارُّ عليهم حمر المنايا
بكأسٍ فيها عقر لا عقار
إذا ما الليث أصبح في محل
فما لطريدةٍ فيها قرار⁽¹⁾

ولأبي بكر بن يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر وصف رائع
لانهزام الأعداء ولانتصار الخليفة الموحي في هذه الواقعة الكبرى والوقائع
التي تلتها:

قضى حقوق الله في أعدائه
ثم انثنى والنصرُ تحت لوائه
بحرٌ طما والباس من أمواجه
صبغٌ بدا والحقُّ من أضوائه
عمد أمام به المهيمن حقه
والحق عمدة أرضه وسمائه
وأباحه مهجُ العدا فكأنما
قد نصلت أرماحه بقضائه

(1) عبدالله كنون: أبو حفص بن عمر - ذكريات مشاهير رجال المغرب - رقم 30، ص 31.

أغزى بهم جيشاً تضيق الأرض عن
أفواجه والوهم عن إحصائه
كالعارض الثجاج ملء هوائه
لكن دم الأبطال من أنوائه
لما رأى للشرك رسماً مائلاً
أوهى قواه وجد في أقوائه
أنهى عليه بالصوارم والقنا
حتى إذا لم يبق غير زمائه
أبقاه والذعر المخيف يبيده
فكأنه سبغ على أشلائه
مستأصلاً شيئاً فشيئاً أمرهم
كر الزمان بصبحه ومساءه⁽¹⁾

وبعد انتصار المنصور الموحي في معركة الأرك تابع غزو «بلاد النصارى»
ماراً بجنوده ورجاله «كالسيل الجاري والبحر الزخر»، حتى حل بساحة طليطلة،
وتلاقى مرة أخرى مع الأدفونش في موقعة طليطلة بعد حصارها سنة 592هـ
(سنة طليطلة). فاضطر ملك قشتالة أن يطالب بعقد هدنة، فأجابه المنصور لذلك.
فكانت معركة طليطلة آخر معركة تم فيها للموحدين - ومن ورائهم أهل الأندلس
- انتصارهم على المسيحيين.

ولما:

عبر البحر بها مرارا
مجاهداً بنفسه اختيارا

(1) الشريف الغرناطي السبتي: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» م. خ. ح (792). بدون
ترقيم لصفحاته.

ولما - «وفي حقوق الجهاد حقها وادخارها» - أخذ ناصر الإسلام في الإياب
منصور الأعلام، فقال أبو العباس الجراوي في فتوحات المنصور بالأندلس:

قد أصليت نارهـا العداة
وأنجـزت فيهم العداة
وعمهم بالدمار يوم
تقصر عن وصفه الرواة
ومشهد لا تزال تتلى
آيـاتـه وهي بينات
ردت حمى الفونشو مستباحـا
بيض من الهند مرهفات
ذلوا لأمر الإله قسراً
وهم أولو نجدة أباة
وغرقت جمعهم بحار
أما واجها الخيل والكمأة
رأوا لحزب الإله صبراً
والموت حقت به الجهات
فحاولوا منهم انفلتاً
وليس للخائن انفلات
فلا تسل عن بنات ماء
إن صرصرت حولها البزاة⁽¹⁾

فكان المنصور الخليفة المجاهد الذي جاهد في الله حق جهاده - للمحافظة
على حدة بلاده ضد ثورات أصحاب الفتن والتفرقة، ولإعلاء كلمة الله بالأندلس

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 198 - 200 (ط: ت).

- والعارف بشؤون الملك وسياسة الدول والخبير بشؤون الحرب والجهاد . وقد عبر عن ذلك شاعر الموحدين الجراوي أحسن تعبير حيث قال مخاطباً المنصور:

أدركتْ أمانتُ الشريعة في العدا
وتركتْ نظم جموعهم متبددا
وكففتْ من دون المدى جمحاتهم
من بعد ما راموا المزيد على المدى
وتضخضتْ فرقاً بحار جويشهم
لما أتاهم بحر جيشك مزيدا
واستسلموا إذ لم يروا تحت الثرى
نفقاً ولا فوق الثريا مصعدا
ما جاءت الدنيا بمثلِكَ ناصراً
للدين منصور اللواء على العدا
لا يعدم الإسلام منك حيابة
ورعاية وحماية وتفقد⁽¹⁾

وفي سنة 607هـ أعد الناصر الموحدي جيشاً عظيماً لمحاربة النصارى الذين خرقوا عهد الهدنة - بعد أن اشتغل الموحدون بحوادث إفريقية - واستطالوا على ثغور المسلمين بالأندلس (إغارة الفونسو الثامن على بعض القلاع الأندلس مثلاً). فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود، اجتاز الأندلس، فاجتمعت جيوش قشتالة وأرغون والمتطوعين من النصارى الصليبيين وخرجت من طليطلة، وخرج الناصر بجيوشه الأندلسية والمغربية من إشبيلية وكانت المواجهة في حصن العقاب ودارت رحى معركة «العقاب»⁽²⁾ (أو لاس نافاس ذي تولوسيا كما يسميها

(1) محمد الفاسي: أبو العباس الجراوي (محاضرة عن الجراوي) - الملحق، ص 5 - 6.

(2) عن هذه الواقعة يقول المقرئ في نفح الطيب: «هذه الواقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً. وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الأفرنج، استخف بهم الناصر

الإسبان) بين الجيشين (14 صفر 609هـ 16 يوليو 1212م) ولكن الدائرة دارت على جيوش المسلمين وانهزم الناصر أمام جيوش مسيحية متحالفة⁽¹⁾. (الجيوش الكاثوليكية تحت طفرة ملوك قشتالة، وليون ونبرة وأرغون، ومن ورائهم البابا يمنحهم البركات).

وقد تابعت الجيوش النصرانية قتال المسلمين المنهزمين حتى ردهم أبو زكرياء ابن أبي حفص قرب إشبيلية. وبقيت إشبيلية المدينة المجاهدة قاعدة تخرج منها الجيوش الإسلامية لصد العدوان. ولكن لما اشتعلت الحروب بين أمراء الموحدين في المغرب وبين المهيجين للفتن وانقسموا فيما بينهم أحس النصارى بضعف

ووزيره، فشنى بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الأفرنج.. ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد» (ج 4، ص 383) وفي هذه الوقعة يقول ابن الخطيب في أرجوزته «رقم الحل» (ص 55):

حتى إذا استقل بالأمور	وبادر اللجة بالعبور
كانت عليه وقعة العقاب	حكم فيها السيف في الرقاب
وعظمت من أجلها المعرة	ولم يكن من بعدها من كبره
ثم أتاه الحين في الآثار	وكان يسعى في طلاب الثأر

ويقول عبدالعزيز الملزوي في أرجوزته «نظم السلوك» واصفاً المعركة (ص 59):

حتى إذا ما التقت الجمعان	فرت حماتهم عن الميدان
وانهزمت جيوش أهل الدين	ومات كل من أتى في الحين
وحكمت فيهم سيوف الروم	في صالح على الهوى مشؤوم
أضحى لها العقاب كالعقاب	وهو قضى للدين بالذهاب
من هذه الهزيمة المذكورة	لم تر أعلام الهدى منصورة

وقد عبر عن هذه «المأساة» الشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي بمرارة في قوله:

وقائلة أراك تطير فكرا	كأنك قد وقفت لذي الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب	غدا سبباً في معركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام	وقد وصل البلا من كل باب

(المقري: النفح: ج 4، ص 464).

(1) في هذه السنة توفي شاعر الموحدين أبو العباس الجراوي بإشبيلية ونقل جثمانه إلى مراكش حيث دفن بها. وبعد سنة منها 610 توفي الناصر بعد الصدمة التي تلقاها بالأندلس وبعد أن كان ينوي الأخذ بثأر الأندلس والأندلسيين.

الموحدين، فحاصروا مدينة إشبيلية⁽¹⁾، واستشهد ألوف المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس والمغرب. وأصبح الإسبانيون يشرفون على بلنسية وقرطبة وإشبيلية (التي أصبحت قاعدة لقشتالة) ومرسية وغيرها من مدن خط الوادي الكبير. وبدأت تصفية ما بقي بأيدي المسلمين. ولم تتج إلا مملكة غرناطة⁽²⁾ ثم كان أقول الدولة الموحدية بالأندلس، وتقلص ظلها فيها واعتبرت هذه الهزيمة «الموحدية» المرة ابتداءً للنهاية الحقيقية للقوات المغربية - الأندلسية المربطة في الأندلس المسلمة.

أجل لقد جاهد الموحدون ما استطاعوا للجهاد سبيلاً ورفعوا راية الإسلام خفاقة في ربوع العدوتين، ودافعوا عن «إمبراطوريتهم» أجل الدفاع ضد حركات العصيان والتمرد حفاظاً على وحدة البلاد وسلامتها:

أما كفتهم بسمار وتادلة

وما وراءهما تلك الأفاعيل

(1) ولقد سجل الشعر الأندلسي هول «الوقائع المروعة» التي جرت بالمدن الأندلسية بعد سقوطها في أيدي النصارى، فهذا أبو موسى هارون بن هارون «يصف محنة مدينة إشبيلية» (الشهيدة) قائلاً متحسراً في قصيدته الميمية:

فكم أسارى غدت في القيد موثقة	تشكو من الذل أقداماً لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفاً	عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل	عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والهأ فيهم ووالهة	لا يرجع الطرف إن حاوته الكلمة
في كل حين ترى صرعى مجدلة	وأخرين أسارى خطبهم عظما

(ابن عذاري: البيان، ص 383).

(2) اعتبر معظم الأندلسيين بعد هذه الهزائم أن الموحدين أصبحوا مسؤولين عن ضياع الأندلس، فاتجهوا نحو الحفصيين بتونس مؤملين أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه. وقد عبر عن فكرتهم هذه ابن عميرة في قصيدته لما شكا لهم حال الأندلس:

ولأرض أندلس إليك بحالها	شكوى الهشيم إلى السحاب الممطر
سقمت بعباد المسيح وإنها	في أن تكون مسيحها لا تمتري
رحماك فيها من أخيدة أذؤب	يزري بقسوتها زئير القصور

(ابن عميرة: رسائل ابن عميرة. م. خ. ع، ك 232، ص 3).

أما أتتهم أحاديثٌ باندلس
وفي الأحاديث تجميلٌ وتفصيل
سائلٌ بغرناطة عنهم ومرسية
فعنهم خبرٌ في الناس منقول
يجبك هام وأشلاء ممزقة
في كلِّ قاعٍ ومفؤود ومشكول
كان أنصارهم أنصار أبرهة
ومن رجالكم طيرٌ أبابيل
لا تشغلن بهم بالاً فإنهم
لجائع الموت مشروب ومأكول
والملك ليس بشيء يستقل به
إلا ذووه الصناديد البهاليل⁽¹⁾

وكان حقاً للملك الموحي صناديده ورجالاته وأبطاله لم يخافوا في الله لومة
لائم ولم يتأخروا عن تلبية النداء المقدس:
دراري من نور الهدى تتوقد
مطالعها فوق المجرة أسعد
وأساد حرب غابها شجر القنى
ولا لبد إلا العجاج الملبد
مساعير في الهيجا مساريع للندى
بأيديهم يحمى الهجير ويبرد

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 426 - 427. والقصيدة هي من نظم الشاعر الأندلسي أبي الحكم بن رضي البنسي من أهل سرقسطة أنشأها أمام يعقوب المنصور بمراكش ذاكراً فيها بعض الفتوحات الموحية (المصدر السابق، ص 421).

تشبُّ بهم ناران للحرب والقرى
ويجري بهم سيلان جيشٍ وعسجد
ويستمطرون البرق والبرق عندهم
سيوف على أفق العداة تجرد⁽¹⁾
ومن تجرؤ نفسه على طمس ملوك الموحدين الخالدة بخلود الزمان؟
مآثرهم في الدين غير خفيةٍ
فهم كالنجوم الزاهرات لمهدي
خلائفُ عبدالمؤمن الملك الذي
بسر من المهدي قد كان يهتدي
ودوخ أكناف البسيطة بعده
وأعلن بالتوحيد في كل مسجد
وأبناؤه من بعده أعملوا الظبا
وأمضوا سيوفَ الله في كل ملحد⁽²⁾

ويذكرنا الشاعر أبو عمرو بن حربون «في قصيدته الحسنة»⁽³⁾ السالفة الذكر،
بالمواقف البطولية الرائعة التي وقفها الموحدون بإزاء الأندلس، التي استنجدت بهم
وبأشباههم وجنودهم وكماتهم لرد المغتصبين:

(1) المقري: نفح الطيب، ج 2، ص 138. هذه الأبيات من قصيدة نظمها الشاعر الموحي لما وصل
المصحف العثماني إلى الخليفة عبدالمؤمن الموحي واجتمع عليه جمع من الموحدين بمراكش.
(2) من قصيدة لابن الخطيب يمدح فيها عامر بن محمد بن علي لما تزوج بنت السلطان صاحب تونس:
(السالفة الذكر):

أهاجتك ذكرى من خليطٍ ومعهد
سمحت لها بالدمع في كل مشهدٍ

(ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهم، ص 440 - 441).

(3) أنشد الشاعر قصيدته هذه في مجمع أهل إشبيلية وقرطبة، اجتمع للتهنئة «باتصال
البشارات والأمانى»، وذلك بعد أن قصد أبو حفص (الملقب بالسيد الأعلى) - قادمًا من مراكش -
جبل الفتح عبر سبتة للاتقاء بشقيقه أبي سعيد الذي قدم إليه من إشبيلية لأجل «التعامل والتعامل
والتواصل» (المن بالإمامة، ص 250 - 253).

لما اعتضده تم به مستصرخين سرى
إليكم وهو بالرحمن معتضد
وجاء في سرعان الجيش يقدمه
جبريل والملا الأعلى له مدد
تحته من جنود الله طائفة
لا ينهد النصر إلا آية نهدها
فالدين جذلان قد عزت جوانبه
والكفر خزيان ما ينفك يضطهد..⁽¹⁾

ويخاطب شاعرنا ابن حربون⁽²⁾ مرة أخرى ممدوحيه مشيداً باستعدادهم
الدائم لصد المعتدين والملحدين على الأندلس المستغيثة:
جهزتم نحو الأعادي فيلقا
سحاب أذيال القنا جرارها
جاؤوا تقدمها السعود طلائعاً
وترى ملائكة العلا أنصارها
فكأن أرض الملحدين لبأسكم
تكلى تمرق صدرها وصرارها..⁽³⁾

وبعد، لقد استطاع الموحدون بشهادة شعرائهم - الذين ربطوا شعرهم
بفتوحات الموحدين وسجلوا وقائعها بأمانة كمؤرخين مدققين - أن يجمعوا طائفة
هائلة من الرجال الأفذاذ وخيرات الأجناد ليسخروها في معارك ضارية: معارك

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 253 - 256.

(2) نظم ابن حربون هذه القصيدة في مدح أبي حفص عند عودته من جيل الفتح وقد أصبح كاتباً له. مطلعها:

حثوا المطية فقد قضت أوطارها واحدوا إلى باب الأمير قطارها

(المصدر السابق، ص 264 - 265).

(3) المصدر السابق، ص 266.

الجهاد والإنقاذ بالأندلس ويدافعوا بها عن راية الإسلام في هذه الديار. وبعد أن دب الضعف في دولة الموحدين وتكسر عودها في غزوة «العقاب - المأساة» لم تتم دولة واحدة قوية مكانها بل ظهرت دول متعددة اقتسمت «الإمبراطورية الموحدية» فيما بينها. فجلا القرن السابع الهجري عن المرينيين بالمغرب، وبني الأحمر (وبني نصر) بالأندلس، وبني عبدالواد بتلمسان وبني حفص بتونس وبجاية⁽¹⁾.

(1) بنو الأحمر أو دولة بني نصر أسسها أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله. ملكه أهل غرناطة عليهم سنة 635هـ. وانقرضت هذه الدولة لما سلم آخر ملوكها أبو عبدالله الصغير مفاتيح غرناطة إلى الإسبان سنة 897هـ. وعاشت الدولة النصرية أحداثاً كثيرة بين هذين التاريخين وكان أحد ملوكها الغني بالله يحرض بني عبدالواد علي عصيان بني مرين والتحالف مع الحفصيين ومعهم ضدهم. ولما دخل المرينيون إلى الأندلس انتقموا منهم بالتشويش عليهم وبث النزعات بين أمرائهم وانتزاع مواقعهم بالأندلس. ومن أكبر أمراء بني نصر: أبو الحجاج يوسف الثالث الملقب بالناصر وهو الملك الثالث عشر في ترتيب ملوك غرناطة النصريين. له ديوان شعري نشره عبدالله كنون، وكتاب: «البقية والمدرک من كلام ابن زمرك» جمع فيه شعر ابن زمرك (تلميذ ابن الخطيب)، أدرج المقرئ معظمه في الجزء الثاني من «أزهار الرياض» وفي الجزء السابع من نفح الطيب. وقد تراوحت سياسته تجاه قشتالة وأركون بين المجاهدة والمهادنة. وقد عبر عن حركة جهاده السراج الرندي بقوله من قصيدة له:

خففت بميدان الجهاد بنوده واسترسلت فيه سوابق خيله
وبيت شمل الكفر سيف جهاده حسماً لكثير فريقه ولقله

(انظر ديوان ابن فركون: تحقيق، د. محمد بن شريفة، ص 8 - 61 - 62). كما تراوحت سياسته مع المرينيين بين الخداع والسلم: فقد دفع محمد بن عبدالعزيز بن أبي الحسن المريني المعروف «بالسعيد» إلى منازعة أبي سعيد عثمان على الملك انتقاماً منه في استرجاع جبل طارق من النصريين. وكان جوازه في أجفان أندلسية أمره بها يوسف الثالث ونزل ببر العدو بفرسانه ورماته قاصداً المدينة البيضاء (فاس المرينية) يقول ابن فركون:

وكم من يدٍ بيضاء طوقتها فتى إلى منزل البيضاء قد أعمل الرجعا
رمى «داره البيضاء» أخذاً بثأره بما قد رمى سيف بن ذي يزن صنعا
دراأت به في صدر كل معاند سهام المنايا نحوه أحكمت وقعا
ونظم يوسف الثالث قصيدة في مخاطبة أوليائه من بني مرين وغيرهم يدعوهم إلى تأييد «السعيد» ونصره:

قوموا إلى نصر «السعيد» حماية فالدین إن لم تجمعوه يبدد
وتمكنوا في فاس من «عثمانها» واستبصروا بسنى الحقيقة واهتدوا
وهو يزعم أن القصد هو العودة إلى إحياء اتحاد العدوتين من أجل جهاد العدو:
إن النصارى قد تجمع شملها فعسى ببأس سيوفكم تتبدد

وقد برزت دولة بني مرين من بين هذه الدول أشد قوة وغلبة، فأبليت البلاء الحسن في القضاء على المناوئين لحكمها وفي رأي صدع الدولة المغربية وفي الجهاد بأرض الأندلس، محاولة استرجاع «الإمبراطورية الموحدية» الواسعة الأطراف.

فما هو موقف المرينيين بالأندلس؟ لقد كان مخالفاً لموقفهم اتجاه تلمسان (مع بني عبدالواد) وإفريقية (مع بني حفص)، الذي كان يهدف إلى الغزو والفتح

وتروعه منكم سيوف حماية
أخوان قد قاما بنصرة دينه
انظر ديوان ابن فركون تحقيق د. محمد بن شريفة، ص 79 - 80 نقلاً عن ديوان يوسف الثالث).
ولما توفي السعيد وعاد جبل طارق إلى مملكة غرناطة قام يوسف الثالث مادحاً أبا سعيد عثمان وجده
أبا سالم وبني مرين بعد أن كان هجاهم:

هكذا الفخر يا أعز قبيل
جد سلطانكم أفاد العوالي
وعلينا لسيطه حفظ عهد
إذ نحى أبا سعيد بأزكى
فاتحتنا يمينه بكتاب
محرز للسباق خصل الجياد
فظفرتم بذخره المستفاد
مستقل مصحح الإسناد
ما تحيا به صدور النوادي
فأرانا كتيبة استعداد

(المصدر السابق، ص 83).

- ودولة بني عبدالواد أو بني زيان أسسها بتلمسان يغمراسن بن زيان بعد موقعة العقاب واستقلالهم عن الموحدين. وهم من زناتة مثل بني مرين. عاشت هذه الدولة من ق. 7 إلى ق. 10 في نزاع مستمر مع جيرانها: بني مرين بالمغرب وبني حفص بإفريقية. ويعرف مؤسسها أيضاً باسم يغمور. وهو من أكبر فرسان زناتة وصفه لسان الدين بن الخطيب في منظومته رقم الحل بقوله:

أول ملاكهم يغمور
تثني عليه حومة الميدان
لاقى الجموع من بني مرين
ليث الثرى والبطل المشهور
ما لامرئ ببأسه يدان
كالليث يحمي جانب العرين

- وبنو حفص أصلهم من هنتاتة وهي من أعظم قبائل المصامدة وهم متشعبون من الموحدين وكان أبو حفص من أوائل القائمين بدعوة المهدي ابن تومرت وتداول أبنائه من بعده الإمارة بالأندلس والمغرب وإفريقية. من أشهر أمرائهم: أبو زكرياء يحيى الذي استتجد به أهل بلنسية. استمرت دولتهم إلى حوالي القرن العاشر.

- أما بنو مرين فأصلهم من قبيلة زناتة برزت دولتهم بعد بداية نهاية الموحدين بموقعة العقاب سنة 609هـ. استولوا على المغرب بانتهاء محاولات فلول الموحدين بعد مقتل أبي دبوس على يد يعقوب المريني. واستمرت الدولة المرينية إلى أواسط القرن التاسع الهجري حيث خلفهم بنو وطاس. وكانت بين دول المغرب الثلاثة المرينية والحفصية والزنااتية (زناتة قبيلة كبيرة من المغرب وجد أكثر عناصرها بالمغرب الأوسط حتى سمي ببلاد زناتة) علاقات متشابكة في حالتها السلم والحرب.

والقضاء على «الثوار المتمردين». إذ أنهم كانوا يكتفون بالدفاع عما تبقى في يد المسلمين بالأندلس وصد تحرشات واعتداءات الممالك المسيحية عليهم، ومساعدة بني الأحمر من بني نصر (ملوك غرناطة) وبني اشقيلولة على الوقوف في وجه الغزو الإسباني محاولة منهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من عدوة الأندلس، حتى تبقى بمثابة خط دفاعي عن عدوة المغرب ضد الغزو الصليبي.

لقد كانت تبعة الجهاد بالأندلس ملقاة في الواقع على كاهل بني نصر⁽¹⁾ - في حدود مملكة غرناطة - وعلى كاهل المسلمين اللاجئين إليها من أطراف الجزيرة. إلا أن الأمور كانت تسير على غير ما يرام. فقد حاولت هذه الدولة أن تناوش عدوًّا لا قبل لها به لا عدوًّا ولا عدوًّا حتى لو انضافت إليها القوة المرينية من «بر العدو»، أو زكتها الروح الجهادية التي كان ييثرها العلماء والفقهاء والأمراء من المغرب والأندلس⁽²⁾.

ولقد كان المرينيون - الذين كانوا يجيشون بنزعة الجهاد - يدافعون عن الأندلس كلما استتجد بهم ويجاهدون من أجلها خالصة نياتهم، فكل ما كانوا يستردونه من الحصون من يد الإسبان يسلمونه لأهلها من أصحاب الأندلس ولم

(1) مدح الشاعر ميمون بن علي بن خبازة الخطابي - من قصيدة رثائية في أحد وزراء إشبيلية - بني نصر ووزرائهم بقوله:

أسد تنادي بعقبان الخيول إلى	تمزيق لحم الأعداء بالقناطر
مشمريين إلى ورد الكريهة ما	نالوا العلاء الذي نالوا بتقصير
بنو الكرام أولوا الرايات قاد بهم	إلى الوغى ابن نصير كل منصور
ساقتهم غيرة الإيمان فانتدبوا	لنصرة الدين كالأسد المهاصير
بعزم كل معدي يسايره	فتح الجزيرة بين السرح والكور

(ابن القاضي: الجذوة: 2، ص 355).

(2) في سنة 663هـ بعث - مثلاً - الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبته رسالة مطولة إلى قبائل المغرب وصلحاتهم يستفترهم إلى الجهاد، كتب منها نسخًا وبعثها إلى سائر بلاد المغرب وبلاد المصامدة. يقول في افتتاحها: أما بعد حمداً لله مفترض الجهاد وجاعل الجنة تحت ظلال السيوف الحداد.. (الذخيرة، ص 102).

يبتقوا في أيديهم إلا جبل طارق⁽¹⁾، والجزيرة الخضراء⁽²⁾ (معسكر الجهاد)، جزيرة طريف كصلة الوصل بين العدوتين، لأنهم كانوا يرون أن قوة الإسلام بالأندلس هي قوة لدولتهم وتعزيز لمكانتهم بالمغرب.

وقد جاز الجيش المريني إلى الأندلس - في عهد أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق المنصور المريني - أربع مرات⁽³⁾، كلما «تكالب النصارى على بلاد المسلمين بالغارات والسبي وأبادوا أكثرها وأهلكوا قواعدها».

فبعد ما رجع المنصور من فتح سجلماسة استقر بحضرة مراکش وسمت همته إلى الجهاد بعدما تواردت عليه الرسائل⁽⁴⁾ من بني الأحمر وبني اشقيلولة يدعونه

(1) سبق للغني بالله من بني نصر أن استولى على هذا الجبل وأغلق بذلك الباب في وجه المجاهدين المغاربة، ذلك لما عاد من منفاه بالمغرب إلى الأندلس وتكرّر لبني مرين الذين آووه وساعدوه على العودة إلى عرشه، استغل ظروف الفوضى التي عمت المغرب بعد مقتل أبي سالم المريني فاستولى على الجبل ومنه استولى أيضاً على سبتة. ولطالما حض ابن الخطيب المرينيين سواء في شعره أو في نثره على التمسك بهذا الجبل والمحافظة عليه.

(2) لقد ساهمت الخطابة مساهمة فعالة في حملات الدفاع عن الأندلس وخصوصاً عند موقعة الجزيرة الخضراء سنة 678هـ، حيث أبدى بعض خطباء سبتة خدمات مشكورة في تحريض المجاهدين وإلهاب حماسهم.

(3) مما وصف به صاحب الذخيرة السنية إحدى هذه الجوازات وكانت سنة 674هـ قوله: ارتحل أمير المسلمين يعقوب إلى قصر المجاز (أو قصر الجواز أو قصر مصمودة وهو ما يسمى اليوم بالقصر الكبير) وأخذ في تجاوز أجناده. فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج.. فكانت المراكب والسفن غاديات رائحات آناء الليل وأطراف النهار من قصر المجاز إلى طريف يزدهمون في ذلك المعبر... الذخيرة السنية، ص 145). (قد تنازل بنو الأحمر أيضاً عن رندة وطريف لتكونا للمنصور المريني بمثابة جسر لإنزال جنوده بالأندلس). وكان المرينيون يعلنون جهادهم حسب بعض المؤرخين من «باب المريسة».

(4) من هذه الرسائل، رسالة الأمير أبي عبد الله بن الأحمر يخبره فيها بحال المسلمين بالأندلس، وما هم عليه من الخوف والقتل والأسر ويستتجد به وبجيوشه مستهلاً كتابه بقوله:

مرين جنود الله أكبر عصابة فهم في بني أعصارهم كالمواسم

مشنفة أسماعهم بمدائح مسورة أيمانهم بالصوارم

ومما ورد في كتابه أيضاً: وقد وطأ الله لك ملكاً عظيماً، شكرك الله على جهادك في سبيله وقيامك بحقه واجتهادك في نصر دينه وتكميله.. فإن شئت الدنيا فالأندلس قلوبها دانية.. وإن أردت الآخرة فهذا جهاد لا يفتر وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم..

(الذخيرة السنية، ص 140 - 141).

للجواز، بعدما أوصاهم آبائهم بالاستتجاد ببني مرين، وأن يعطوهم ما يريدونه لقاء الجهاد ضد أطماع ألفونسو العاشر ملك قشتالة.

وكانت ردوده إليهم تعدهم بهذا الجواز الذي سيكون مصحوباً فيه «بقوم يعملون في مرضاته الأسنة والسيوف القواضب ويصبون على الكفار العذاب الواصب، ويركبون البحر عازمين على الجهاد وحر الجلال، لا ظل لهم في الهواجر إلا ظل القنا وورود الثماد»⁽¹⁾، «لما عرف عنهم من شدة المراس لفنون الحرب وطول التجربة في ميادين القتال» وكيف وهو الذي قيل فيه:

هو الملك المنصور أما زمانه

فروح وأما بطشه فسموم

يطارد جيش النصر قبل طراذه

ويسكن جيش الدهر حين يقوم

وتعنوا له الأملاك شرقاً وغرباً

وكل على جدوى يديه يحوم⁽²⁾

ولما شن النصارى على بلاد الأندلس غاراتهم العدوانية ووجه ملك غرناطة نداء النجدة، خرج الملك المريني من فاس ليلبي نداء الجهاد على سنة أسلافه الملوك المرابطين والموحدين، وكتب إلى أبي القاسم العزفي بسببة يأمره بإعداد المراكب البحرية لتجويز المجاهدين من قبائل غمارة وزناتة ومصمودة وصنهاجة والعرب، وعقد لولده أبي زيان على جيش من أنجاد بني مرين وعقد له رايته المنصورة، ونزل بمدينة طريف ووصل إلى شريس. ولم تنتشر - بعد وقعة العقاب - للمسلمين راية حتى جاءت راية يعقوب المنصور المريني. وبعث أمير المسلمين حفيده إلى يغمراسن بن زيان ينشده الصلح والألفة. فتم له الصلح توحيداً للكلمة وتعصيда للجهاد،

(1) الذخيرة السنية، ص 142.

(2) المصدر السابق، ص 85.

وارتحل آمناً إلى قصر المجاز⁽¹⁾، وكانت المراكب والسفن غاديات رائحات من قصر
المجاز إلى طريف:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى
غزو العدة وتجويز صباح مسا
كأنما البحر أضحى للجياذ مدى
وكل شعبة ماء حولت فرسا
كأنما اقترب البران واتصلا
فصار ذاك طريقاً للورى يبسا⁽²⁾

وعندما تتوقف هذه المراكب بجبل طارق يقوم بعض الفقهاء والصلحاء بإلقاء
خطب نضالية مؤثرة تسكب لها دموع المجاهدين وتثير همهم لمواجهة الأعداء.

ثم جاز أمير المؤمنين إلى الأندلس بجميع جيوشه المجاهدة والتحقت به
جيوش ابن الأحمر وابن اشقيلولة، وخطب فيهم أبو يوسف قبل مواجهة القوات
الإسبانية، فعدد مزايا الجهاد ورغب المجاهدين في الشهادة والتضحية دفاعاً
عن الإسلام⁽³⁾، ولكي يبرهن المجاهدون عن استجابتهم لهذا النداء هتفوا جميعاً
بالشهادتين، وفي هذا يقول الملزوزي على لسان المنصور المريني:

من مات منكم شهيداً
أو عاش عاش غانماً سعيداً

(1) عن تاريخ قصر المجاز انظر: عبدالعزيز بن عبدالله: «القصر الكبير أول حاضرة في المغرب». مجلة
المناهل - عدد 1، ص 1، ص 43.

(2) الذخيرة السنية، ص 145.

(3) ومما جاء في خطابه الذي استهله بدعاء النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها
على جهاد عدوك وعدوها» قوله: «يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين: إن هذا يوم عظيم ومشهد
جسيم، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت أترابها، فخذوا في طلبها، فإن الله اشترى
من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. فشمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين في جهاد
المشركين، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً، فاصبروا وصابروا
ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (الذخيرة ص 149).

ألا اصبروا وصابروا ورابطوا

فخيركم مجاهدٌ مرابطٌ⁽¹⁾

ولما وصل المنصور إلى الوادي الكبير جعل ولده يوسف في المقدمة على رأس الفرسان من أنجاد بني مرين والعرب ثم وصل إلى أحواز قرطبة وفتح الطريق نحو إشبيلية وخرج زعيم النصارى «دون نونيو» «في جيوش عظيمة وجنود جسيمة»، فالتقى الجمعان «والتحم القتال واشتد النزاع وعظمت الأهوال» «فلا ترى إلا السمر تهوي في الروم كأنها الشهب الثواقب، والبيض تفعل في أعداء الله فعل العذاب الواصب، والسيوف بالدماء ترعف، ورؤوس الكفرة عن الأجساد تقط وتقطف».

ما دب للإسلام منهم دارجٌ

إلا وصب عليه منه عقابٌ

أو جاء مسترقاً إليه مارد

إلا وأحرقه هناك شهاب

أو فارق المعمود منهم صفه

يوماً فكان له إليه إياب⁽²⁾

وجاهد أمير المسلمين يعقوب في هذه الغزوة حق جهاده، ودارت على عصابة الكفرة فرسان بني مرين كالأسود الضارية، وقد صبروا لجهادهم صبر الكرام في حرب اللثام. وانتصرت جيوش المجاهدين وأنصار الدين على عصابة الكافرين المتظلمين (674هـ)⁽³⁾. فرفع الله بهذه الغزوة للإسلام مناراً وأطفأ بها للكفار ناراً.

(1) الملزوزي: نظم السلوك، ص 99.

(2) الذخيرة السننية، ص 149 - 150.

(3) المرجع السابق، ص 151. وقد نشرت أعلام الكفر منكسة في أعلى منار جامعي القرويين والكتيبة «ليشاهدها الحاضر والبادي والرائح والغادي».

وصف ابن الخطيب في «رقم الحل في نظم الدول (ص 79) هذه المعركة الحاسمة بقوله:

منتصراً لدينه الحنيف

فعبر البحر إلى طريف

من قبل أني سبق للروم النذير

وعجل السير إلى الوادي الكبير

وعاجل الأنعام باكتساحها

فقتل الكفار في بطاحها

وتلقى المنصور رسائل التهاني والتبريك من صاحب إفريقية وبنى الأحمر وبنى اشقيلولة. وكان كتاب ابن اشقيلولة مصحوبا بقصيدة فريدة⁽¹⁾ - تمثل بها - يهنئه فيها بالنصر ويصف فيها انهزام أعدائه:

هبت بنصركم الرياح الأربع
وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأنت لنصركم الملائك سبقا
حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
وأمدك الرحمن بالفتح الذي
مأ البسيطة نوره المتشعشع
وأيت تنصر دينه متوكلا
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
ولقد كسوت للدين عزاً شامخاً
ولبست أنت منه مالا يخلع
وكتائب منصوره يحدو بها
عزم إذا أمضيته لا يرجع

ويقول الملزوزي أيضاً في «نظم السلوك» (ص 99) في هذه المعركة:

فأحدقت جيوشه بالروم	واعتصموا بالملك القيوم
والسمر تهوي كالشهاب الثاقب	على النصارى بالعذاب الواصب
حفت بهم مرين كالأساد	جاءت إلى أصاغر النقاد
ولم يكن إلا كلمح البصر حتى:	
فما بقي بالسيف منهم بقية	ولم تق الجميع منهم واقية

(1) تنسب هذه القصيدة إلى أبي الربيع سليمان الموحي (الديوان، ص 20) (انظر فصل فتوح المغرب الأوسط وإفريقية). وقد قيل أنها من نظم عبدالله بن عمر بن أحمد يس السرخسي. ولهذا الشاعر المشرقي رحلة كتبها وذكر فيها عجائب شاهدها بالمغرب، ومشايخ من المغرب لقيهم، وقد دخل إلى مراكش أيام أبي يوسف يعقوب الموحي واتصل به كما اتصل بأبي الربيع سليمان الموحي.

لله جيشك والصوارم تنتضي
والخيلُ تردأ والأسنة تشرع
من كل من تقوى الإله سلاحه
ما إن له إلا التوكل مفزع
لا يسلمون إلى النوائب جارهم
يومًا إذا أضحى الجوار يضيع
أخليفة الله العظيم هنئته
فتحٌ يمد بما سواه ويشفع
وليهن ذاك الفتحُ إنَّكَ فتحه
وبحسبه منك النعيم المقنع

وجاز يعقوب المريني جوازه الثاني إلى الأندلس سنة 676هـ، واصطدم جيشه بالقشتاليين على ضفاف الوادي الكبير (وقد فر الكفرة كالحمر المستنفرة أمام قسورة)، وعاد إلى الجزيرة الخضراء، ثم حاصر قرطبة وقام بالإغارة على إشبيلية عاصمة ألفونسو العاشر. وبعد عودته عرض عليه محمد بن اشقيلولة مالقة فقبلها وولى عليها ولده عمر بن يحيى الذي أعادها إلى بني الأحمر. وتحالف ابن الأحمر مع يغمراسن لمحاربة يعقوب. فقصده يعقوب الأندلس بأسطول بحري ضخم، ودارت معركة صاخبة بين الأسطولين المريني والإسباني. وتقدم يعقوب إلى الأندلس وعقد هدنة مع ألفونسو كان يهدف من ورائها إلى إتاحة الفرصة لألفونسو لمنازلة غرناطة انتقامًا من ابن الأحمر الذي أسرع إلى مهادنته هو الآخر متنازلًا عن كثير من حصونه لعدوه.

ولعل هذه السياسة التي اتبعها ابن الأحمر مع المرينيين كان سببها الجزع الذي أصابه من الانتصار الأول الذي أحرزه يعقوب على «دون نونيو»، وتذكر ما وقع للمعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين المرابطي.

وجاز يعقوب المريني إلى الأندلس للمرة الثالثة سنة 681هـ لأجل قمع ثورة «سانشو» الذي تحالف مع بني الأحمر وكذلك لحصار مالقة.

وعبر يعقوب إلى الأندلس مرة رابعة سنة 684هـ. وعبأ جيشاً عظيماً لمحاربة «سانشو ابن ألفونسو العاشر»، والتحقت به إمدادات عسكرية بقيادة ولي عهده أبي يعقوب. وتمكن بها يعقوب من اقتحام إشبيلية وقرمونة ومحاصرة «شريش». فحاصر «سانشو» جبل طارق - (الزقاق قديماً) أو جبل الفتح - حتى يمنع انسحاب يعقوب إلى المغرب، فاستتجد السلطان المريني بأسطوله الذي استطاع به أن يرد أساطيل العدو مما مكّنه من العودة إلى الجزيرة الخضراء، ثم عقد صلحاً مع «سانشو»⁽¹⁾.

وهكذا بالإضافة إلى الثورات الداخلية التي كان يعانيها يعقوب المريني وإلى خطر يغمراسن الذي كان يهدده من حين لآخر، فإنه استطاع أن يتدخل بالأندلس أربع مرات تدخلاً مشرفاً في وقت كان فيه بنو الأحمر تحت رحمة ملوك قشتالة، وأن يصد عن المدن الأندلسية وقواعدها غارات المسيحيين من دون أن يتلقى أي عون جدي من بني الأحمر أو من غيرهم من الأندلسيين.

(1) يقول الملوّزي في أجوزته عن هذه المعركة البحرية بين الأسطولين:

وجعل الأمير في أسطوله	عصابة بالسمر من قبيله
وكل ذي نجدة من عبدانه	وكل من عين من فرسانه
ساروا على اسم الله والرسول	وأعلنوا بالذكر في الأسطول
وكان ذلك في شهر ربيع الأول:	
شهر عظيم عود الإسلام	نصرًا عزيزًا والعدا آلاما
شهر به دين النبي ينصر	وسعده وفضله لا يحصر
فأقبلت قطائع المنصور	مصطبة إليهم كالسور
وبعد وصف المعركة والخسائر التي تكبدها أسطول الروم، قال الراجز:	
ولم يزل أسطولنا الميمون	له على أسطولهم تمكين
وفاز بالجهاد والرياط	وصار بالحصار ذا اغتباط
يا غزوة أنست لنا دمياطا	وزادت الدين بها اغتباطا
هي التي قد أعلت الإسلاما	وزادت الروم بها استسلاما
(نظم السلوك، ص 113 - 118).	

ونظم بهذه المناسبة شاعر المرينيين عبدالعزيز الملزوزي ملحمة شعرية رائعة ذكر فيها غزوات أمير المسلمين وغزوات بنيه ومعاركهم مع القبائل العربية، وامتدح فيها قبائل بني مرين وفضائلهم وقيامهم بالجهاد، وأمور الدين، وأنشدها أمام ملكهم بمناسبة عيد الفطر⁽¹⁾.

مطلعها:

بحمد الله أفتتح الخطاب
وأبدأ في النظام به الكتاب
وبعد أن افتتح قصيدته بنصيحة الرسول ﷺ لقتل الأعادي والجهاد في الكافرين:
هو المبعوثُ بشرنا ببشرى
من المولى وأنذرنا العقاب
وحرصنا على قتل الأعادي
تضييق بهم تلالاً أو شعاب
ونبذلُ في جهاد الكفر نفساً
وما لآ قد جمعناه اكتساب
يقول شاعرنا عن جهاد يعقوب وجوازه للأندلس:
وصار بغربنا الأقصى غريباً
فيا للدين يغترب اغتراباً
ولم يعلم جهاداً للأعادي
بهذي الأرض يحتسب احتساباً
إلى أن فتح الرحمن فيه
ليعقوب بن عبدالحق باباً

(1) هي غير ملحمة: «نظم السلوك» التي ضمنها جميع غزوات المرينيين بالمغرب والأندلس والتي نستشهد ببعض أبياتها في الهوامش.

فجاز البحر مجتهدًا مرارًا
يقود إلى العدا الخيل العربا
فألبس ملكهم ذلاً فصارت
به الأملاك ترتهب ارتهابا
ثم يأتي الشاعر بسرد جميع غزوات يعقوب بالأندلس - التي أتينا على ذكرها
- البرية والبحرية منها، مثل معركة طريف البحرية التي ينشد فيها:
فلما حلّ ربّع طريفٍ والى
إلى أجفانه الغرّ الكتابا
فيأمر أن تجهز للأعادي
أساطيله فأسرعت الجوابا
فجهزها ووافقت باحتفالٍ
وبأسٍ منها رأس الكفر شابا
فلما برز الأسطول فرت
جيوشُ الكفر في البحر انسرابا
ويختم قصيدته بمدح حزب بني مرين والتتويه بحمايته للإسلام والمسلمين
وبشجاعة جيشه وبطولة جنده عند الخطوب:
فحزبُ بني مرين حزب الله يحمي
حمى الإسلام لا يخشى عقابا
إذا سلّوا السيوف ترى الأعادي
وقد حلّ الربا مدت رقابا
وهم أساد حربٍ من يوازي
مقامهم إذا ما الخطب نابا

سموا قدرًا وعزبهم حماهم

فجارهم عزيزٌ لن يصاباً⁽¹⁾

ولما تولى الملك أبو يعقوب يوسف الناصر - بعد وفاة أبيه أبي يوسف يعقوب - جاهد ضد «سانشو» الذي ثار على الثغور المرينية، وزود الملك الناصر بأربعمائة جواد من عناق الخيل برسم الجهاد، وهاجم القشتاليين بأسطوله في بحر الزقاق (البحر الأبيض المتوسط)، واستولى على أسطولهم، ونزل بطريف. وقد حاصر هذه المدينة الجيش القشتالي بمساعدة ابن الأحمر حتى استسلمت المدينة واستولى عليها «بن شانجة».

وقد قدم ابن الأحمر عند السلطان أبي يعقوب يوسف بمدينة طنجة ليساعده على استرداد طريف⁽²⁾. وقد وجه السلطان معه جيشاً لمنازلة طريف، ولكنه أخفق في استرجاعها⁽³⁾.

ولما هلك ابن الأحمر خلفه ولده محمد (المعروف بالملخوع)، ولم يكتف بإثارة متاعب جديدة بالأندلس بعد أن وقع معاهدة مع «هراندة بن شانجة»، بل أمر عامله في مالقة أبا سعيد فرج بالاستيلاء على سبتة ونقل بني العزفي⁽⁴⁾ إلى الأندلس.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب من ص 364 إلى ص 369.

(2) نسبة إلى طريف بن مالك الذي كان أول من اجتاز المضيق من قواد المسلمين.

(3) عبر ابن الخطيب في قصيدة له عن هذه النكبة بقوله:

لا كان يومك يا طريف فظالماً	أطلعت للأمال برقاً خلباً
ورميت دين الله منك بفداح	عم البسيطة مشرقاً أو مغرباً
وخصصتني بالرزء والثكل الذي	أوهى القوى مني وهماً المنكباً

(المقري: النفع، ج 5، ص 13 - 14).

(4) هي أسرة مشهورة من أعيان مدينة سبتة وعلماؤها. بقيت مدينة سبتة تحت حكم هذه الأسرة إلى أن احتلها صاحب مالقة من بني الأحمر ونقل آل العزفي إلى غرناطة وضم سبتة إلى دولة بني الأحمر، وذلك بعد الخلاف الناشئ بين الدولتين: بني الأحمر وبني مرين. وقد عادت سبتة إلى المغرب في عهد يوسف خليفة يعقوب المنصور وعاد العزفيون إليها بعد انتهاء الخلافات المرينية - الغرناطية،

وقد فشل الجيش المريني بقيادة أبي سالم في استردادها من يد بني الأحمر حتى سنة 709هـ.

ولما حل الوزير ابن الخطيب بسببة بعد نكبتها تأسف «شعراً» على ما أصابها ورثاها بقصيدة كتبها في حائط القصر الذي نزل فيه، يقول منها:

يا سبتة العزفيين الأولى درجوا
وقد تضيع من أخبارهم أرج
أين المجالس أين الفهارس أم أيـ
من المدارس لا تنبو به الحجج
أين الصدور إذا ما المعضلات دجت
هدّت إلى القصد من آرائهم حجج
يصرفون من الخطي عاسلة
سمراً تسيل على أعطافهم المهج
قالت تخونني صرف الزمان فلم
يدخل لي الأنس قلباً من لدن خرجوا
وكل ذي جدة يبلى إذا لعبت
به الليالي وسارت دونه اللجج
لعل فارساً تحييني مكارمه
أنّ الشدائد يأتي إثرها الفرج⁽¹⁾

وعقد أبو سعيد المريني لأبي زكرياء يحيى بن أبي طالب عبدالله العزفي على سببة. وقد انتشر بنو العزفي في فاس وسببة وغرناطة. وبقي لهم ذكر في علوم الشريعة واللغة.
(ابن الأحمر: نثر الجمان، ص 119).
(الناصري: الاستقصا، ج 3، ص 113 - 115).
(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهم، ص 55، ويعني بالفارس: أبا عنان.

ولما استولى القشتاليون على جبل طارق وهددوا مدينة غرناطة ناقضين «العهد» بذلك طلب ابن الأحمر⁽¹⁾ تدخل أبي الحسن المريني، أمدّه بجيش تحت قيادة ابنه أبي مالك «أمير الثغور الأندلسية»⁽²⁾ الذي تمكن من استرجاع جبل طارق سنة 733هـ⁽³⁾. «وزحف إلى أراضي النصارى واجتاح سهل بجاية، ووصل إلى أراضي قشتاله»، ولكنه فاجأه العدو وقتله في مضجعه قبل امتطاء صهوة

(1) من القصائد التي مدح ابن الخطيب أبا الوليد بن نصر عند قدومه من بلاد المغرب مستصرخاً سلطانه على عونه توجد هذه القصيدة التي أنشدّها أمام قصره سنة 732هـ منها:

ملك أعدته الخلافة ناشئاً	والذعر يبرق تحت حد ظبايتها
فغدا أحق بها وقام بعبئها	وسما بأقربها إلى غاياتها
وأناح أندلساً بحد حسامه	نصرًا فأحيا الأرض بعد مماتها
لا غرو أن الروم خامر قلبها	فالأسد تخشى وهي في أجماتها
هذي الجزيرة لا تزال عزيزة	محفوظة بك يا إمام ولاتها
إن طاف شيطان العدا بسمائها	رجمته شهب صلاتها وزكاتها
لما دعيت لنصرها لبيتها	ورضيت بذل النفس في مرضاتها

(ابن الخطيب: الصيب والجهم، ص 327 - 328).

كما مدح السلطان أبا عبدالله محمد بن يوسف بن نصر وآل بني نصر، عبدالله بن لسان الدين ابن الخطيب من مدينة فاس، وكان في صحبة السلطان أحمد المريني، بقصيدة منها:

ملك آتاه الله في الملك عزمة	يروع الأعادي بأسها ويهول
هو الملك المنصور والبطل الذي	يهون عليه الخطب وهو جليل

إلى أن يقول:

بهم عز دين الله شرقاً ومغرباً	وأصبح دين الكفر وهو ذليل
هم السادة الأنصار والعرب الأولى	حمى الدين حي منهم وقتيل

(المقري: نفح الطيب، ج 10، ص 153 - 154).

(2) أبو مالك عبدالواحد المريني، ملك أديب وعالم بأسباب بني مرين وأيامهم وحروبهم. (عبدالله كنون: أمراؤنا الشعراء، ص 38).

(3) كان الملوك المرينيون يعينون الأمراء من البيت المالكة - كحكام عسكريين - على جبل طارق (أو جبل الفتح) وعلى باقي الثغور الأندلسية. والشاهد على ذلك هذه الوقعة والرسالة التي وجهها السلطان محمد الخامس الغني بالله سلطان غرناطة إلى الأمير السعيد أبي بكر بن السلطان أبي عنان بن السلطان أبي الحسن المريني لما عينه والده أميراً على جبل الفتح، وهي من إنشاء لسان الدين بن الخطيب. منها: «فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء وركبت إلى الجهاد في سبيل الله تعالى جياذ الخيل والماء وأصبحت على حال الشيبية جشا في حلق الأعداء ونحن أحق بهذا الهناء».. (المقري: النفح، ج، ص 168 - 172).

جواده سنة 740هـ ولما وصل الخبر إلى أبي الحسن المريني فجع لهلاك ابنه، فجهز الأساطيل بسبته ثأراً له ووافت عليه أساطيل الحفصيين بقيادة زيد بن فرحون. واجتمع بميناء سبته أسطول ضخم. فعقد السلطان عليه لمحمد بن علي العزفي صاحب سبته وأمره «بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق»، ودارت معركة بحرية بين الأسطولين سنة 740هـ «أظفر الله المسلمين بعدوهم» وأساطيلهم، فكان فتحاً عظيماً، وجلس السلطان المريني للتهنئة⁽¹⁾. فأنشد ابن الخطيب قصيدة يصف فيها المعركة البحرية وفيالق الجيش المريني ويخاطب الملك المريني:

فتحت سعودك كل باب مبهم
وجلا يقينك كل خطب مظلم
فانهذ بسعدك قبل جندك للعدا
وابعث برعبك قبل جيشك تهزم
واحفظ بحزمك كل سرب غافل
واكلاً بسهدك جفن كل مهدم
يا عصمة الثغر الذي دارت به
أعداؤك دور السوار بمعصم
يا قائد الخيل المغيرة بالضحى
ومزير ربع الكفر كل مطهم
قطعت سيوفك كل حكم قاطع
وقضت سعودك قبل كل منجم
كم فتكة لك في العدا مشهورة
يزري حديث تليدها بالأقدم
وكتيبة قرأت ظباك كتابها
فعلمت منها كل ما لم يعلم

(1) الناصري: الاستقصا، ج 3، ص 135).

ولك الجوّاري المنشآت سوابحاً
في اليم أمثال الصقور الحوّم
ييمتها والماء موجود لها
نحر العدو فكان خير تيمم
حملت رجلاً كالليوث مصاعباً
صرا على لفح المصاع المضرم
قصدت بهم بحر الزقاق عزيمة
قد جرّدت أسيافها لم تكهم
نادى لسان النصر يفصح ناطقاً
يا أسرة الدين الحنيف تحكمي
كم راية للفتح فوق رؤوسهم
خفقت وكم ملكٍ هناك مسوّم⁽¹⁾

وبعد ذلك جاز أبو الحسن المريني إلى الأندلس في أسطول ضخّم لمتابعة حركة الجهاد في الأندلس، وحاصر طريف براً وبحراً بمساعدة جيش أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر الذي وافاه بغزة من بني مرين وحامي الثغور، فاستعان القشتاليون بقوات برتغالية، وجهزو أسطولاً «اعترضوا به الزقاق لقطع المرافق على المعسكر»، وتسربت فرقة من القوات المتحالفة ليلاً إلى فلسطين، ولما التحم القتال بينهم عملت الفرقة المتسربة على تخريب الفسطاط، فأثر ذلك في معنوية الجيش المريني الذي اضطربت صفوفه وارتد على أعقابهِ، وتمت هزيمته سنة 741هـ (1341م) فخرج السلطان إلى الجزيرة ثم إلى جبل طارق حيث جاز إلى المغرب، في أسطوله «مفلولا، وأضحى حسام الهزيمة عليه

(1) ابن الخطيب: الديوان، ج 2، ص 537 - 538.

مسلولا»، فانتهزها القشتاليون فرصة سانحة، واستولوا على الجزيرة الخضراء سنة 742هـ، بعث أبو الحسن بأسطوله لحمايتها وتعزيز أسطول أبي الحجاج، ولكن الأسطول المسيحي كان له بالمرصاد مرة أخرى⁽¹⁾، ولم يبق بيد المسلمين إلا جبل طارق كصلة الوصل بين العدوتين.

وفي وصف أسطول المسلمين - الذي خاض المعركة - يقول ابن الخطيب:

فلله عيناً من رآها صوافنا
أفاضَ عليها القار سحم جلاله
إذا ساعدتها هبة الريح أسرع
كما انساب أيم الروض غب انساله
جوار غذاها الغزو در لبانه
وحجبها الإسلام تحت حجاله
هواف إلى حرب العدو وإنما
وثقن بنصر الله يوم قتاله

ثم يخاطب ابن الخطيب الملك المريني:

ملكك عقبى النصر فارقب طلوعها
فقد أن للإسلام أن اقتباله
هو الله يملي للعدا ويد الهدى
ببرهانها تجلو ظلام محاله
وهل يستوي مستبصرٌ في يقينه
ومستبصرٌ في غيه وضلاله⁽²⁾

(1) المقرئ: النفح، ج 6، ص 317 - الناصري: الاستقصا، ج 3، ص 136. وفي هذا الصدد بعث السلطان أبو الحسن المريني رسالة إلى الصالح بن الناصر الملك المملوكي سلطان مصر يخبره بمعاركه في الأندلس وهزيمته في الجزيرة الخضراء (انظرها في النفح للمقرئ، ج 6، ص 120 - 129).

(2) ابن الخطيب: الديوان، ج 2، ص 485.

ويأبى ابن الخطيب إلا أن يوجه نداء للسلطان المريني في قصيدة «رثائية»
طويلة ليأخذ بثأر المسلمين «بأسد غضاب»:

لعمري لئن هاجت عزائمك العدا
كما بحثت عن حتفها ربة الظلف
وغرتهم الحرب السجال وقلما
يدل غرور القوم إلا على الحتف
فقد أن أخذ الدين منهم بثأره
وما كان جفن الدهر في مثلها يغفي
ودون مهب العزم كل مهندٍ
وخطية سمر وفضفاضة زعف
وأسد غضاب إن تذكرن يومها
غضضن بأطراف البنان من اللهف⁽¹⁾

كما أنشد ابن الخطيب قصيدة أخرى يتحسر فيها على ما أصاب المسلمين
من هزيمة نكراء في هذه الواقعة التي تذكرنا بهزيمة الموحدين في غزوة العقاب
«أجبر الله منها عشرة الإسلام» ويتمنى على الله نصراً قريباً وفتحاً مبيناً يعيد المجد
لجيش المسلمين آجلاً أم عاجلاً:

إنَّ الحروبَ سجالٌ طالما وهبت
في اليوم فرصتها واسترجعت لغدٍ
لا يغرر الروم ما نالوا وما فعلوا
فإن ذلك إملاءٌ إلى أمد

(1) ابن الخطيب: الصيب والجهم، ص 627. ومفتاح: ديوان لسان الدين ابن الخطيب، ج 2، ص 675 - 676.

فللقلوب من الغمء منصرفُ
بما تقدم في «بدر» وفي «أحد»
وإن دون طلاب الثأر أسدٌ وغى
من قومك الغر أو أباك النجد
والعزم بادٍ وصنعُ الله مرتقبُ
والفتحُ منتظرٌ إن لم يحد فقد
وعادةُ النصر لا تستبط مقدمها
إن لم توافك في سبتٍ ففي أحد⁽¹⁾

وبعد هذه الهزيمة المرة اتفق المرينيون والنصريون على إبقاء حامية من الجنود المغاربة برسم الجهاد في الأندلس، وأسندت قيادتها لعثمان بن أبي العلاء⁽²⁾.

وهكذا كان تدخل المرينيين بالأندلس غير مستقر وثابت تتخلله مناوشات واصطدامات⁽³⁾، وحملات عسكرية «ووقائع في العدو مذكرة ومواقف مشكورة» أتت ببعض النتائج المرجوة من ورائها. وكان جوازهم إلى الأندلس يتقد دائماً بالرغبة في النضال والجهاد - من أجل رفع الضيم والدفاع عن المسلمين وإمدادهم بالعتاد والرجال - ويتم بعد نداءات الفقهاء والخطباء والعلماء؛ وخصوصاً الشعراء منهم

(1) ابن الخطيب: الديوان، ج 1، ص 277 - 278.

(2) ابن الأحمر: نثر الجمان، ص 6.

(3) من بين هذه الاصطدامات أنه لما اعتدى التجار «الأراكونيون» (نسبة إلى ملك أركون) على الشواطئ المغربية بعد الهزيمة - واستولوا على قرقرورة اعترض طريقهم «الرئيس ابن الخطيب» بأمر البحر بعد أن أظهروا عزمهم على القتال والاعتداء. ولم يقف اعتداء المسيحيين عند هذا الحد بل استغل البرتغاليون ضعف الأسطول المغربي فاستطالوا على الشواطئ المغربية، فوجه أبو عنان أسطوله إلى سلا، وقام بالاستيلاء على الأجفان البرتغالية، وأمر بقتل من فيها وتحطيم نواقيسها وأصلاب صلبانها مما أدى بملك البرتغال الفرنسي إلى طلب الصلح والمهادنة. (انظر تفاصيل هذه الأحداث في: «فيض العباب» لابن الحاج - م. خ. ح (3267) من ص 18 إلى ص 43). وفي هذه الظروف التي كانت فيها البرتغال تحاول احتلال المغرب، عملت مملكة قشتالة على المشاركة في الحملة العسكرية لنصارى شبه الجزيرة الإيبيرية على المغرب مستهدفة الاستيلاء على أرضه واستيلاء خيراته.

- وقد تزعم حركتهم لسان الدين بن الخطيب⁽¹⁾ - الذين كانوا يرغبون أجناد بني مرين في جهاد الكفار، ويحضونهم على تلبية نداء المستجدين من أهل الأندلس لنصرة الدين وإعلاء كلمة الإسلام واسترداد ما غصبه الأعداء، وكانت قصائدهم «النضالية» صادرة عن نفوس كليمة ومشبعة بالروح الإسلامية والغيرة الدينية⁽²⁾.

ولكن نداءات الشعراء إلى المرينيين منذ هزيمة وقعة طريف، لم تجد آذاناً صاغية لانشغال بني مرين بالحروب في عدة واجهات داخل تلمسان وإفريقية⁽³⁾،

(1) كان ابن الخطيب القطب الذي يدور في فلكه كثير من أدباء المغرب لعهد، ذكر معظمهم في كتبه العديدة وعلى رأسها «الإحاطة في تاريخ غرناطة» وكان اتصاله بهم بغرناطة وهو ذو الوزارتين وبالمغرب أيضاً وافداً ثم لاجئاً. فكان في المغرب عاملاً من عوامل تنشيط الحركة الأدبية بين رجاله بالإضافة إلى المؤلفات التي ألفها وهو مقيم به. (انظر التعليق السابق عن ابن الخطيب). وكان بينه وبين أدباء المغرب كثير من الخطابات النثرية والشعرية مما كان له أثر كبير في «تأريث» شعلة الأدب بالمغرب (ابن تاويت: الوافي، ج 2، ص 473). كما كانت لابن الخطيب مكانة مرموقة في تأريخ الفكر الأندلسي حيث ترك بها تراثاً ضخماً - رغم مسؤولياته المتعددة - في التاريخ والتصوف والنقد والطب والشعر والترسل والفكر السياسي.. إلى غير ذلك من الفنون والعلوم. (انظر: النفع للمقري، ج 8، «مكتابات لسان الدين ابن الخطيب» بالباب الرابع ابتداء من ص 117).

وكان ابن الخطيب يكون مع ابن خلدون «الموسوعة العلمية» الغزيرة الإنتاج والتدوين ومع ابن زمرك وابن فركون وغيرهما «فرسان الشعر خلال القرن الثامن الهجري في الأندلس (الرابع عشر الميلادي) وقد ألفوا جميعاً مدرسة مشتركة السمات، إذ كانوا رجال دولة وشعراء بلاط وشيوخ علم».

(2) لقد بلورت الحروب التي عاشتها الدولة المرينية وصاحبت تاريخها، شمر الجهاد في عصرها، وقد كانت الأندلس - كما شاهدنا - أهم وجهات هذه الحروب طوال قرنين من الزمن - وهي الفترة التي تضاهي عمر هذه الدولة - ولقد كان الجهاد بالأندلس أيضاً من الدوافع لبعض «الرحلات» التي قام بها الرحالة في العهد المريني، فابن بطوطة لم يرحل إلى الأندلس إلا ليكون له «حظ من الجهاد والرباط» ولم تكن رحلة عبدالعزيز الملزوزي الجهادية بعنوان: «طرفة الطريف في أهل الجزيرة وطريف» إلا ثمرة من ثمار جواز من جوازات أبي يوسف يعقوب المريني إلى الأندلس برسم الجهاد في سبيل الله.

وقد اقتضت الرحلة في الفترة الأخيرة من العهد المريني على السعي إلى الجهاد ومقاومة الأعداء في شمال المغرب والأندلس استجابة للواجب الديني ورغبة في الاستشهاد. (انظر الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج 1، ص 75 - 76، نقلاً عن الذخيرة السنينة، ودوحة الناشر، ودرة الحجال).

(3) هذا سبب من الأسباب التي حالت دون جهاد أبي عنان بالأندلس، بالإضافة إلى الفتن الداخلية التي كانت تذكى من الخارج، مما عاق السلطان المريني على الوقوف في وجه «عباد الأصنام» الذين يضمنون إليهم البلاد الإسلامية بعد إفناء أهلها». ورغم ذلك فإن شاعره أحمد ابن عبد المنان لم يفتأ يشجع ملكه على أخذ الثأر واسترداد ما ضاع من الأندلس:

ولتوالي النكبات والغارات على الأندلس من كل صوب، وحتى لو انضمت القوات الأندلسية - التي لم تصمد طويلاً أمام أعدائها - إلى القوات المرينية القليلة العدد - إذا قيسست بالقوات الموحدية - لم يكن باستطاعة هذه القوات أن تكتسح الأندلس في معركة فاصلة حاسمة لاسترجاع ما فقد من القواعد والحصون والعواصم أمام قوات إسبانية تتلى الإمدادات البحرية والبرية من حليفاتها البرتغالية.

وبذلك كان سقوط غرناطة⁽¹⁾ وجبل طارق بيد الإسبان سنة 897هـ، وسبته بيد البرتغال، وتم سقوط الأندلس⁽²⁾. وطرد الإسبان آخر ملوك بني الأحمر أبا عبدالله من الأندلس 897هـ - 1492م، وانقرضت بذلك دولة الإسلام بها بعد أن

أغرق بطوفان الكتائب عصابة	غادت بمعصم الجبال من العدا
أشف صدور السمر واردة دما	تلك الصدور وسم هوانا من عتا
انهد لأرض الروم واربم غواتهم	بالشهد من أطراف مباد القنا
(نثر الجمان: ص 351 - 352).	

(1) بعد سقوط غرناطة نظم شاعر أندلسي مجهول الاسم قصيدة رثائية طويلة رائعة. مطلعها:

أحقاً خبا من جو رندة نورها	وقد كسفت بعد الشمس بدورها

منها:

ويامله الإسلام هل لك عودة	لأرجائها يشفي الصدور صدورها
وهل تسمع الأذان صوت الأذان في	معالمها تعلو بذاك عقيرها
ولا شك أن الشاعر يوجه الخطاب لأهل المغرب الذين كان من عادتهم أن يلبوا نداء استغاثة أهل الأندلس لهم.	
ويقول الشاعر أيضاً مخاطباً مسلمي الأندلس:	

ألا واستعدوا للجهاد عزائماً	يلوح على ليل الوغى مستيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق	يدع الأعادي سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها	إلى الله من تحت السيوف مصيرها

(انظر القصيدة بتمامها في مجلة المناهل رقم 28، ص 10 - دجنبر 1983، ص 342، وقد نشر هذه القصيدة لأول مرة المرحوم الشاعر عبدالرحمن حجي السلاوي في مجلة الرسالة بالقاهرة سنة 1936م).

(2) بعد هذه الكارثة قامت جماعات مغربية واجتازت إلى الأندلس بإمرة محمد صالح لمتابعة الجهاد والدفاع عن الأندلس. كما ظهرت جماعات أخرى برئاسة أبي عثمان سعيد الرندي الأندلسي (مستوطن فاس)، وأبي الحسن علي الشريف الحسني السجلماسي (المتوفي سنة 842هـ)، اللذين كانت لهما جولات في الدفاع عن الفردوس المفقود لما استنجد بأهل المغرب للجواز إليه. كما كانت لهذا «الشريف» جولة للدفاع عن مدينة طنجة ضد الغارات الأجنبية.

استطاع بنو مرين أن يوقفوا مسلسل التراجع والتخاذل ويؤجلوا أفعال الأندلس بنحو قرنين من الزمن⁽¹⁾ ولكن بقي المد الحضاري متواصلًا بين المغرب والأندلس بعد هذه النكبة كما كان قبلها بفعل حركات الهجرة الأندلسية إلى المغرب.

ومهما يكن فإن هذه الصفحات الشعرية خير دليل على امتزاج صراع الأندلس - تحت راية دولة المرابطين والموحدين والمرينيين⁽²⁾ - بصراع المغرب ضد أعداء الإسلام والوحدة الإسلامية - وقاية للمغرب والأندلس معًا (الإمبراطورية المغربية الكبرى) من كل هجوم صليبي سافر، (إسباني - برتغالي) ومحافظة على قوة

(1) نلاحظ إن نهاية القرن الثامن وعامة القرن التاسع الهجري كانتا عصر محنة على أقطار المغرب والأندلس. فقد تداعت دولة بني مرين في المغرب سنة 869هـ على يد الوطاسيين، ودولة بني عبدالواد في المغرب الأوسط سنة 932هـ، ودولة الحفصيين في تونس سنة 940هـ على يد الأتراك. ولما لجأ العرب المطرودون من إسبانيا إلى دولة المغرب واستنجد بعضهم بالأتراك - كما فعل ملوك غرناطة - أغار الإسبان على الجزائر وتونس، فرثى المغاربة لما آلت إليه دولة تونس وأهلها. وقد فر إلى فاس أبو الطيب الظريف واعظ جامع الزيتونة، فخطبه قاضي الجماعة بفاس أبو الحسن علي بن هارون بقصيدة هذا فيها حذو ابن الخطيب في موشحته التي عارض بها موشحة ابن سهل الأندلسي. يقول ابن سهل - شاعر إشبيلية وسبته - في مستهل موشحه:

هل درى ظلي الحمى أن قد حمى	قلب صب حله عن مكنس
ويقول لسان الدين بن الخطيب معارضًا:	
جادك الغيث إذا الغيث هما	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلمًا	في الكرى أو خلصة المختلس
ويقول أبو الحسن علي بن هارون معارضًا أيضًا:	
يا لها من فجعة زيد الخبر	أنها شقيقة الأندلس
أصبحوا أسرى بأيدي من كفر	ملكك رقابهم بالأفلس
إلى أن يقول:	

وارغبوا الله مساء وبكر	فعسى فتح من الله عسى
وأرى الكافر مقبوضًا يجر	بارتفاع البيض فوق الأروى
رب بشرني بنصر وظفر	عاجلاً قبل حلول الرمس

(المقري: أزهار الرياض، ج 2، ص 213، الأفراني: نزهة الأحادي، ص 60، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج 2، ص 477، ابن تاويت: الأدب المغربي، ص 301).

(2) تولى المرينيون - إبان الجهاد بالأندلس - «مشيخة الغزاة» وخطة «رئاسة الجهاد» درءاً لأي خطر عدواني على العدوتين.

الإسلام بالأندلس والمغرب - وأعظم برهان على أن الإسلام بقي راسخاً بالأندلس مدة ثمانية قرون لا يزحزحه مزحزح ولا يرده راد رغم قوة وشدة وبأس الممالك المسيحية التي كانت تحكم المناطق المجاورة للأندلس.

وقد كان دور هذه الأشعار بارزاً في متابعة مراحل النكبة والدعوة إلى نصره الأندلس ونجدة الأندلسيين، وواكب منشودها - سواء من المغرب أو الأندلس⁽¹⁾ - الملاحم الجهادية المغربية وعائشوها كشهود عيان، وكانوا اللسان المعبر عن خلجات ضمائر ومكامن مشاعر معاصريهم من أهل المغرب والأندلس⁽²⁾.

(1) ... «لقد تضافرت قرائح هؤلاء الأدباء، - وكانوا في غالب أمرهم كتاباً رسميين في البلاط المرابطي أو الموحيدي أو المريني - على وصف ما كان يجري في الساحة الأندلسية من معامع الجهاد والخطوات المتخذة بشأنها، وما أسفرت عنه من نتائج وما ينفث في مضمونها من آفاق، مستنهضين الهمم بحماسي اللفظ ومستقطبين إرادة «المجاهدين»». ومن هذا النبع نشأ فن من فنون التعبير - نثرية وشعرية - يستحق أن يطلق عليها: «الأدب الجهادي بالأندلس».

(المهدي البرجالي: أدب الجهاد في العدوتين - نموذج الجهاد المرابطي في الدعوة لابن الخصال - مجلة دعوة الحق - عدد 259، أكتوبر 1986، ص 110 بتصرف).

(2) قد يخالغ في بعض الأحيان - بعض الشعراء المحدثين - الحنين إلى الفردوس المفقود. فيخاطب مثلاً الشاعر إبراهيم طوقان بعثة الطلبة المغاربة الذين كانوا يدرسون بنابلس في الأربعينات:

فتية المغرب هيا للجهاد	نحن أولى الناس بالأندلس
نحن أبطلال فتاها ابن زياد	ولها نرخص غالي الأنفس
قف على الشاطئ وانظر هل ترى	لهب النار وأثار السفين
يوم لا «طارق» عاد القهقري	لا ولا آباؤنا أسد العرين

(أكرم زعيتر: في رحاب الأندلس - جريدة الشرق الأوسط 4 - 10 87).

3 - شعر فتوح السودان

لما استعاد الإسبان بلاد الأندلس واستولى الأتراك على تلمسان بعد ما كانت الدولة المغربية تتوسع فيهما سياسياً وعسكرياً وتجارياً، ولى المنصور السعدي وجهته نحو الأقاليم الصحراوية وإلى أقصى الجنوب وأراد أن يفتح منفذاً عسكرياً واقتصادياً وإسلامياً نحو إفريقيا السوداء. فشجّد عزائمه على غزو هذه «الممالك السودانية» (غانا وغينيا الحاليّتين)⁽¹⁾ وإدخالها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى أنها «أعز نفعاً وأجدى مغبة وأرحب جمالاً وأوسع عمراناً وأوفر نشباً وأقوى بمعادنها وكثرة المستاق من رقيقها». فجمع العساكر والجيوش وجهزها بالابل وال سلاح والأنفاض «المعدة لإرسال الصواعق»، وعقد عليها لجوّد باشا. وتحركت «الحركة» من مراكش فتهيأ

(1) سبق للأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني - رفيق عبدالله بن ياسين في رباطه - أن وجه وجهته نحو التوسع في بلاد السودان ونشر الإسلام بها. (قيل أيضاً هي السنغال ومالي حالياً). وكان معظم بلاد السودان تحكمه امبراطورية غانا، فخرج على رأس جيش من المرابطين، وكان ابنه أبو يحيى على رأس جيش آخر، وكانت وجهة الجيشين الاستيلاء على إمبراطورية غانا، وتم لهما ذلك سنة: 469هـ - 1076م بعد أن اعتنق أهلها الإسلام، فقام الأمير المرابطي أبو بكر ببناء الرباطات والمساجد بعد أن كثر عدد الداخلين في الإسلام، وترك لابنه أبي يحيى متابعة تركيز دعائم الإسلام بغانا، كما ذكر صاحب الحلل الموشية: «وأسلم أهل غانة وحسن إسلامهم عند خروج الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني إليهم»، ص 7.

(دكتورة عصمت عبداللطيف دندش: «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا»، ص 112 - 114). ولما استشهد الأمير أبو بكر بن عمر اضطربت الجيوش المرابطية فأعلنت غانا استقلالها وانفصالها عن الدولة المرابطية. فعاد يوسف بن تاشفين من الأندلس للقضاء على هذا الانفصال، فنجحت جيوشه في إخماد هذه الثورة، ورجعت غانا لتبعية المرابطين. (المرجع السابق، ص 122 - 123). ولما دب الخلاف بين قبائل الدولة المرابطية في الصحراء استقلت مملكة غانا مرة أخرى، ولكن بقي فقهاء صنهاجة يقومون بتدريس العلوم الفقهية والعربية، واستعان بهم ملوك السودان في وظائف القضاء والإفتاء. (المرجع السابق، ص 224).

صاحب «الممالك السودانية» لصد الجيش السعودي. فلما تراءى الجمعان التحم القتال وهجم الجيش السعودي برمته على الجيش السوداني فولى الأدبار واحتلت الأجناد المنصورية - مدينة كاغو - قاعدة ملك السودانين وحضرة سلطانهم⁽¹⁾.

ولما شاع خبر النصر والفتح «صكت هذه الوقعة مسامع أقطار السودان وذلت شواهقها وصياصيتها وقذفت الرعب في آذان أدانيها وأقاصيها»، عمت البشرى وفاضت قرائح الشعراء وسارعوا إلى رفع قصائد التهنة والتبريك إلى أمير المؤمنين أحمد المنصور السعودي الذي أدخل نور دين الإسلام إلى «بلاد السودان»، وجاهد بجيشه الباسل في هذه الربوع لتكون كلمة الله هي العليا، وانطلقوا منشدين أشعارهم مشيدين بحلاوة الانتصار الذي أحرزه الجنود السعوديون. وكان عبدالعزيز الفشتالي شاعر السعوديين من أول المنشدين كعادته:

جيش الصباح على الدجى متدفقُ
فبياض ذا لسواد ذاك ممحقُ
وكانه رايات عسكري التي
طلعت على السودان بيضاً تخفق

وقد وصف شاعرنا في قصيدته كيف تم دخول كتائب الجيش السعودي إلى السودان، وكيف تم له النصر المرتقب بقيادة المنصور الذهبي القائد المنتصر:

أرسلتهن جوائحاً وجوارحاً
في كل مخلصها غراب ينعقُ

(1) الفشتالي: المناهل، ص 63 وما بعدها (ت: كتون).

بعد فتح السودان وجه المنصور رسالة إلى الجهات والأقطار يصف فيها فتح السودان وكيف انتقى له «العساكر والأجناد وأسود الحرب الذين دربوا على الطعن والجلاد ومعانقة السيوف والصعاد»، وكيف صرفت العزائم «إلى جهاد العدو الكافر وأن تدور عليه من سطو الإسلام بحول الله الدوائر» إلى أن تحققت البشرى وعمت المسرة الكبرى (الفشتالي: المناهل، ص 143 - 146، تحقيق: ع. كريم). (وتوجد هذه الرسالة أيضاً بمخطوط بالخزانة الحسنية رقم 7248، ص 1 - 6).

وسرت فكان دليلهن إليهم
مشحودٌ عزمك والسنان الأزرق
صعق بهن رعود نارك صعقةً
رجت لصيحتها العراق وجلق
ثم يدعو على «إسحاق السوداني» بالسحق والهلاك، الذي أصبح لا مفر له
من التقهقر والاندحار، أمام قوة فيلق المنصور، الذي طوقه من كل جانب:
سحقاً لإسحاق الغبي وحزبه
فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه
من جيش جودرك الغضنفر فيلق
جيش أوآخره ببابك سيئه
عزم وأولاه بكأغو محقق
لم يشعروا إلا وأسداد الردى
ضربت عليهم من قنك وخذق
كتب الإله على عداتك أنهم
قنص لسيفك غربوا أو شرقوا
بشر ملوك الأرض أنك فاتح
بالمشرفي على الولا ما أغلقوا⁽¹⁾

وينشد الفشتالي قصيدة أخرى في تهنة المنصور يرجوع القائد جودر (أحد فتيان
ال خليفة) من مملكة السود سنة 1007هـ، بعد أن أخضعها للدولة السعدية. مطلعها:
علم انتصارك للعلى متمكن
والفتح من حركاته متعين

(1) الفشتالي: المناهل، ص 72 (ت: كنون).

منها :

هذي ممالك قادها لك عنوة
وهي الشمووس الشوس فتح بيئ
يسمو بها لك جؤدر بل ضيغم
بدم الأعادي منه يدمى البرثن
لم تدخر أرض الجنوب ذخيرة
عنكم وما كانت لغيرك تدعن
واتتك أنباء الملوك ممالك
قامت ببابك وهي دجن أدكن
سكنوا بعنوة عزمهم فاستنزلوا
بالسيف: سيفك ذي الفقار فاذعنوا
فتح أتاك يقودُ حسنًا بعده
فتح يؤمك بالتي هي أحسن⁽¹⁾

وينشد الأديب البليغ والشاعر الشهير «أبو عبدالله محمد بن علي الفشتالي»⁽²⁾
قصيدة أخرى يهنئ المنصور: بهذا الفتح التاريخي:
(المالك المنصور من بسعوده
لو شاء طعن رامج بالأعزل)

ويشيد ببلاء عسكريه وجحفله في معركة السودان الضارية:

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 128 - 129 (ط: المطبعة الملكية).
(2) كان الفشتالي هذا وزير القلم الأعلى ببلاط المنصور الذهبي، وكان من الذين تصدروا مجالسه العلمية والأدبية، وشاركوا في «المطارحات والمساجلات» ومجالس الاحتفال بعيد المولد النبوي. عرف بتعاطيه الشعر والتاريخ، له أرجوزه سماها: «الوفيات». وكان قد سحب في أول أمره الشيخ علي التمكروتي سفير المنصور إلى الخليفة العثماني (بروفنصال: مؤخو الشرفاء ص 82، ابن القاضي، درة الحجال، ج 2، ص 190). كان بارعاً في كتابة الرسائل والظواهر وفنون الكتابة والإنشاء الأخرى. وهو غير أبي عبدالله محمد بن أحمد الفشتالي الذي تولى القضاء بفاس في عهد أبي عنان المريني.

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْعَدَا
 (لا يسألون عن السواد المقبل)
 يصبون للحرب الزبون كما صبا «الضد»
 ليل «في يوم بدارة جلال»
 قرعت ظباً بيت الجنوب بجحفل
 جهزتموه في سحاب القسطل
 فرماهم بصواهل ونواهل
 وصواعق عن فعلة لا تسال
 قد ولت الأدبار مثل حنادس
 يزيحها نور الصباح المجتلي
 تلك العساكر مدها من ربها
 والرأي عند عميدها لم يهمل
 لا تعجبوا من نصر كل جيوشه
 فالرعب بعض جيوشه في جحفل⁽¹⁾

(1) ابن القاضي: درة الحجال، ج 2، ص 191 - 195.
 ولما عاد السفير الشاعر من سفارته بتركيا نظم قصيدة أخرى حاثية في نفس الموضوع:
 هذا اعتذاري في الصباح لاح
 لما تبدت طلعة كالصباح
 ابن القاضي: درة الحجال، ج 2، ص 196 - 200.
 والجدير بالذكر أن المقرئ أورد في روض الأس (275 - 276) وكذا الفشتالي في مناهله (ص 91)
 قصيدة من نفس القافية والوزن لأبي العباس أحمد بن القاضي منها:

بشارك بالنصر المبين المتاح	قطفته بين القنا والصفاح
فتح مبين هو تاريخه	ينمو على الأرض مديد الجناح
قد دوخ الأرض وأقطارها	وعم بالصيت بسيط البطاح
فليهنك النصر الذي حرزه	دون الملوك في مغاني الكفاح
الملك المنصور طود العلى	واسطة العقد وبحر السماح
رجت بلاد السود من جنده	فافتحت بالسيف أي افتتاح

ويأتي دور صاحب «القريض الجزيل» أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي،
يهنئ المنصور بدخول الممالك السودانية تحت طاعته وصولته ويذكره بما قامت به
فرسانه «في أرض السود» مطلعها :

ألمت وقد ألوى على وصلها الهجرُ
كما افتر إثر الليل عن شعره الفجرُ
منها :

صوافنُ ينموها وجيه ولاحقٍ
مطهمة دهم ومقورة شقر
غدت تحمل الموت الزؤام يحوطها
ويكنفها يمن يشيعه نصر
فحلت بأرض السود لم يثن عزمها
مهالك صدعن مسالكها الذعر
ورامت بنو حام لجهل بقدرها
دفاعاً فباتت فوق أنافها العفر
هنيئاً أمير المؤمنين فقد قضى
على كل من ناواك أسياfk الدهر
و«يشوق» الشاعر ممدوحه في ختام قصيدته لغزو مصر والعراق:
لئن أسلمت أرض الجنوب مقادها
فعن كذب تلقي مقاليدها مصرُ
وتزورُ زوراء العراق فتهتدي
إليكم وأعناق العدا خضع صغر
وتخفق بالوادي المقدس راية
عليك وتهوي فيه ألوية حمر

فدم لفتوحٍ يستحثُّ لذيها

إلى كلِّ قطرٍ منك ذو لجبٍ مجر⁽¹⁾

ولمحمد بن علي الفشتالي قصيدة أخرى أنشدها في المنصور وكتائبه التي غزت مملكة السودان لم تخرج عن المؤلف:

أنت الذي بكر الخلافة حزتها

في مأزقٍ فيه القنا تتحطمُ

ولبوسٍ بأسك في المخازين ارتدى

وسطَ المخازنِ بستيانِ الأشياءِ

جهزتَ جيشًا وهو عذبٌ كوثرُ

عدلاً ونارٌ بالشهامة تضرم

فأرفق على القوم الذين تريدهم

فهم السوام وأنت فيهم ضيغم

وطويت في السودان مملكةً لها

بين المشارق والمغارب مجثم

فغزوتهم بصواملٍ وبـوازلٍ

يدري عتاقتها الوجيه وشدقم

بخلائق..

وعواسل..

(1) الفشتالي: المناهل، ص 76 - 77 (ت: ع. كنون).

وللكاتب الشاعر أبي علي الحسن بن أحمد المسفيوي رائية أخرى في نفس الموضوع:

تحلى بسعد الجد مقتبل النصر	كذا غاية العليا كذا غاية الفخر
فمن همم أضحى الثريا لها الثرى	ومن عسكرٍ يقتاده رائد النصر
فمن لم ينله فيلق من كماته	أحل به من قبله فيلق الذعر
فهل خاب سعي السود أو قال رأيها	وهل قاومت في زعمها قاصف القسر
فما راعهم إلا طلائع عسكرٍ	تزجي بأسد الغاب دامية الظفر

(المصدر السابق، ص 74 - 75).

وقواضب..

وكتائب..

أيم القناة يغوص في يم الدر
وع كائنه بدم القلوب متيم
أو ما ترى سمر الرماح بسودها
كالبيض في الأفرنج دأباً تحطم
فاجتحت من سنغاي إسحاقاً وقد
حفا بجيش السود وهو عرمرم
ظننتُ حصاتك في الوجود فكل من
ناواك فهو بالمهابة يقصم⁽¹⁾

وكانت الحملة السعدية الثانية بالسودان سنة 1000هـ، وذلك لما أعلن جؤدر انسحاب الجيش المغربي والإفراج عن «سكية» الملك السوداني، «فجرد المنصور جيشاً من أبطاله وكماة أجناده ورجاله» وعقد عليه لمحمود باشا شقيق جؤدر الذي عزله من منصب قيادته⁽²⁾. فلما شاهد «سكية» عظمة الجيش السعدي نكص على عقبيه «وتصاعد محمود باشا مع النيل في بقية العساكر» مقتفياً آثار «سكية» لاستئصاله وقطع دابره، وكذلك كان حتى قضى نحبه. ولما استعد شقيق «سكية» أسطوله للإغارة به طوقه الأجناد السعديون وحكموا سيوفهم في عنقه وأعناق أتباعه. وبذلك انتهى عهد سكية بالسودان، ورفع الشعراء التهنئة لملك «المغرب والسودان» بتمام الفتح وموفور الانتصار⁽³⁾.

(1) الفشتالي: المناهل، ص 77 - 78.

(2) من سوء تصرف رجال جؤدر بعد الفتح أن حولوا «تمبكتو» من مركز حضاري وثقافي وديني هام وهمزة وصل بين شمالي إفريقيا وغربيها إلى مركز فساد وظلم، الأمر الذي جعل الحركة العلمية والثقافية بهذه المدينة تنردى وتندنى، حيث إن عزله من طرف المنصور صادف محله حسب المؤرخين.

(3) الفشتالي: المناهل، ص 79 - 87.

من ذلك قصيدة القائد أبي الحسن علي بن منصور الشيزمي، الذي أتى
في قصيدته الطويلة بوصف رائع لمراحل الفتوح السعدي بالسودان، وبشرح شاف
لأسباب غزو الجيش السعدي «لمملكة السود» وذلك لما اتصف به أهلها من غي وزيف
وجهل وبغي:

واستبدلوا الغي بالرشد ففاتهم
ربحٌ ونجحٌ وتوفيقٌ وترشيحٌ
وطالما عبدوا الأهواء وزاغ بهم
عن اتباع الهدى جهلاً وتقليد
فقام لهم المنصور بالمرصاد يفتح بلادهم ويبدد شمل الضالين:
رام الخليفة غزوا والمجاز بها
للجيش فاجتاز عنها وهو معمود
فقام بالجد لا يلوي على أحدٍ
وكان منه لشمل البغي تبديد
ممهداً بالقنا والبيض ما عجزت
عنه الأئمة والشمّ الصناديد
مفتح من بلاد السود ما بعدت
ديارَه وتبدت دونه بيد
وحيثما تمادوا في غيهم وعصيانهم رماهم بوابل من النيران:
وحيث صموا عن الإنذار أسمعهم
صواعقٌ بنداهها الموت معقود

مدافعُ أبطلت للسود حكمتها
فلم يفدُ معها نفثٌ وتعقيد
وما استقاموا إلى أن جُرِّدت لهم
بيضٌ وأشرعت السمر الأماليد
وجاستُ أيضاً على رغم أنوفهم
خلال ما سكنوه ضمير قود
قد ركبتهأ كماء إن لقيتهم
في الحرب تلقاك أبطالُ مناجيد
والأمرُ لله لا ينجو محاربه
ولو يكون له للشهب تصعيد
ويختم شاعرنا قصيدته مشجعاً المنصور بالضرب على أيدي الثوار والأعداء:
واضربْ بسيفك من ناواك إن لكم
على العداة بحول الله تأييد
ودمتَ تجني ثمارَ الفتح يانعةً
من أرضِ كلِّ عدوٍ وهو مصفود⁽¹⁾

وفي هذا الفتح الذي أشاد به جلة من شعراء الدولة السعودية أكثر مما أشادوا
بالانتصار الهائل في معركة وادي المخازن، ينشد أيضاً أبو الحسن علي بن أحمد
المسفيوي بالإضافة إلى رائيته الأولى قصيدة رائية أخرى حماسية يهنئ فيها

(1) الفشتالي: المناهل، ص 87 - 89.

المنصور بهذا الفوز، ويمنيه باسترجاع الأندلس وبأخذ الثأر للمسلمين، وبغزو ما

بين دجلة والفرات والإحلال بالحرمين:

فملكْتَ أقطار الجنوب وما سمت

لمنازلِ ذلك همة الأسكندرِ

وتنالُ أندلسًا يجود ربوعها

ببرد المنية من غمام العثير

فقد الجياد إلى الضلال تسومها

حكم الردى وتدوس معطس قيصر

أدركَ بها الثأرَ المنيم فطالما

ألوى به للدين رهطُ الأصفر

فما دون درب الشام غير التفاتة

وما دون بغداد العراق سوى فتر

فلسوف يطوي مغربًا ومشارقًا

ويزور دجلة والفرات بعسكر

وتحلّ بالحرمين ربعةً زاكياً

مأوى لجدك ذي السجايا الطهر⁽¹⁾

(1) يتضح من هذه الأبيات للمسفيوي ومن أبيات الهوزالي السالفة الذكر:

لئن أسلمت أرض الجنوب مقادها	فمن كذب تلقى مقاليدها مصرُ
وتزور زوراء العراق فتتهدي	إليكم وأعناق العدا خضع صغر
(المناهل، ص 77).	
ومن أبيات الفشتالي:	

فادرك مصر والعراق ويمم	حرم الحي آلكم خير آل
إن شرق البلاد يرجوك شوقاً	مثل ما يرتجى طلوع الهلالِ
(الفشتالي: المناهل، ص 41). ومن قوله أيضاً:	

ثم يدعو له:

لا زال ينتابُ العدا لك عسكرُ

يسري وتتبعه عوافي الأنسرِ

وتنالُ ما أملت تملك كل ما

دارت به في الأرض سبعةً أبحر⁽¹⁾

ولشاعرنا المسفيوي قصيدة أخرى حماسية يفتخر فيها بما حققه الأجناد
السعديون - أجناد الله - على «الأحابيش»، الذين سكروا بكأس الحتوف ولاذوا
بالفرار، وبذلك توحدت البلاد: شمالها وجنوبها:

فإن وردوا الحرب ورد اختيار

فقد وردوا الحتف ورد اضطرار

وأضحوا سكارى بكأس الحتوف

وليسوا سكارى بكأس العقار

وراموا الفرار وأنى النجاة

من قدر معجز للفرار

يُدُّ لأمير المؤمنين بكفها
(روضة الآس، ص 139).

ومن قول محمد الوجدي الغماد:

ترجو لقاءك مصرها وعراقها
(روضة الآس، ص 74).

إن الشعراء السعديين قد عسكوا تطلعات المنصور السعدي في تأسيس خلافة عربية موحدة بعد أن
ضم السودان، تضم بلاد الكنانة وغيرها من البلدان العربية. (انظر عن هذه الفكرة: «وحدة حركة
تاريخ الوطن العربي بين مغربه ومشرقه في التاريخ الحديث لمحمد مظفر الأدهمي» حوليات كلية
الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، عدد 1، ص 32 - 33).

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 169 - 170 (ط: المطبعة الملكية)، الفشتالي: المناهل، ص 90 (ت: كنون).

فدان الجنوب وهذا الشمال
ستنظمه بعد في قطار
وقد كنت أعثرت بعد الصليب
سنعثره ضعف ذاك العثار⁽¹⁾

وقد أنشد القاضي أبو العباس ابن أبي العافية المقرئ قصيدة - سبق له أن
أنشدها نيابة عنه بين يدي أمير المؤمنين الفقيه النحوي أحمد بن علي الزموري
- لما وطأت أقدام أول «ملك أبيض» وأقدام جيوشه بلاد السودان. يحمد شاعرنا
فيها أن قطع المنصور رؤوس المعتدين بالجنوب وفتح بلادهم بفضل همته وحزمه
وعزمه وقوته التي لا تقهر:

حمداً من المسلك المفتق أعطر
عن غرة النصر المبارك يسفر
يا أيها المنصور أبشر بالمنى
النصر حقاً من لوائك ينشر
جنداً رمت نحو الجنوب خيامها
فارتج مصر والعراق وزنجر (أو نزر)
قطعت رؤوس المعتدين سيوفهم
من مات منهم في الحواصل يقبر (أو في الحباري)
قادوا من الأبطال كل غضنفر
أسد هصور في الكريهة أكثر
ملئت بهم عين الزمان وقلبه
وأسود وجه الكفر فهو الأغبر

(1) الفشتالي: المناهل، ص 91 - 92 (ت: كنون).

أما الجنوب فإن جندك لم يدع
شخصاً بها ينوي الشقاق فيعذر
وأخيراً استسلم الأعداء والثوار وقدموا بيعة الطاعة والولاء:
تركوا لك الأوطان دون منازع
تالله إن الترك موتٌ أحمرٌ
لا زلت بالسيف المهندِ بانيئاً
شرفاً به نحن الموالي نفخر⁽¹⁾

وبعد هذه الحركة الجهادية السعدية في جنبات بلاد السودان والسود، دخلت
هذه المنطقة من إفريقيا في عداد البلاد الإسلامية، وأصبحت لها روابط روحية
ومادية أيضاً بين أهلها والمغرب المسلم المجاهد.

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 33.
وقد أورد ابن القاضي في درة الحجال (ج 1، ص 234) مطالع لقصائد - أنشدت بالمناسبة - دون
إثبات نصها الكامل.
من ذلك قصيدة محمد التورغي التي مطلعها:
هنيئاً لسلطان المغارب قد أتى بشيرٌ توالى بالسرور بشائره
وقصيدة أبي عبدالله بن الحجال (وقيل عجال) المروزي:
أتى البشير لمن جلت مواهبه مستحبٌ النصر من تسري كتائبه

الباب الثاني : شعر المقاومة

- الفصل الأول: شعر التحريض على الجهاد والاستنجاد بالمجاهدين.
- الفصل الثاني: شعر الدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي.

جهادك حكم الله من ذا يرده

وعزمك أمر الله من ذا يصده

(ابن دراج القسطلبي الأندلسي)

الفصل الأول

شعر التحريض على الجهاد والاستنجد بالمجاهدين

عندما عظم هول العصاة المتمردين على سلاطين المغرب ودولهم، وتعدد حصارات الإسبان للمسلمين في الأندلس، وتكالت القوات الأجنبية على شواطئ المغرب وثغوره، برز في الشعر المغربي عنصر «التحريض على الجهاد» والحض عليه والترغيب فيه - تجاوباً مع الشعور الوطني - للضرب على أيدي المضلين والثوار، وإخماد فتنتهم، ولصد أعداء الإسلام والمسلمين في العدوتين: المغرب والأندلس، ولاسترجاع العزة والكرامة لأهل المغرب الآمنين.

ذلك لما أراد عبدالمؤمن الموحي العبور إلى جزيرة الأندلس - بعدما غمرت الموحيين «موجة التفجع» لواقع الأندلسيين - واستجابة للذين استنجدوا به وتنافسوا في الهجرة إليه، استنفر قبائل المغرب عامة ومن بينهم قبائل بني هلال بن عامر - الذين أدخلهم أبو يعقوب يوسف في جيش الموحيين - بعدما عاثوا في القيروان فساداً «ودوخوا» مملكة بني زيري بن مناد⁽¹⁾. فكتب إليهم زيري رسالة يستنفرهم إلى الغزو والجهاد وصد أعداء البلاد وتعزيز الطاقة الجهادية، وأمر أن تذيل بقصيدة استنهازية قالها في نفس المعنى⁽²⁾.

(1) هكذا كان عبدالمؤمن الموحي هو أول من جلب العرب من إفريقية - وقلده حفيده يعقوب المنصور الموحي في ذلك أيضاً - ليكونوا من جملة أجنادها وأعوانها لما أملاه ممأ من «غزو الكفر وكسر صلبانه». وقد جلبهم عبدالمؤمن ليفل شوكتهم بعدما نكثوا عهودهم (انظر فصل فتوح إفريقية والمغرب الأوسط).

(2) ذكر ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة أن هذه القصيدة هي للشاعر المعاصر له ابن عياش (كاتب عبدالمؤمن وخلفه أبي يعقوب)، خاطب بها أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن العرب لما تأخروا عن تلبية

**أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل
وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة نائر
وشدوا على الأعداء شدة صائل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح
يفوت الصبا في شدة المتواصل**

نداء الجهاد. وقد أضاف ابن صاحب الصلاة أبياتاً أخرى لم ترد في رواية المراكشي «بمعجبه» تأتي بعد البيت: بها تفتح الدنيا...
منها هذان البيتان:

فطيروا إليها يا هلال ابن عامر	ثقالاً خفافاً بين حاف وناعل
ولا تخدعوا عن حظكم من إجابة	تبوؤكم في المجد أسنى المنازل
(المن بالرمامة، ص 415 - 416).	

وذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذاري أيضاً أن أول «نداء شعري للجهاد» يوجه من أبي يعقوب يوسف لهؤلاء العرب - لقمع الكافرين ودفع المارقين بالأندلس - كان بواسطة شقيقه أبا حفص. وكان من نظم أبي بكر بن طفيل صاحب الحكمة والزهد والطب، منه قوله من قصيدة حماسية «تفيض بلاغة وروعة»:

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب	لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
فلا تقتني الآمال إلا من القنا	ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهون ركاب ظهور المصائب
ألا فابعثوها همة عربية	تحف بأطراف القنا والقواضب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
وقوموا لنصر الدين قومة نائر	وفيثوا إلى التحقيق فيئة راغب
بكم نصر الإسلام بدءاً بنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

(ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 410 - 411، ابن عذاري: البيان، ص 88 - 89)، (ط. ت).
ولما تأخر عرب بني هلال عن تلبية النداء خاطبهم باللامية المذكورة «ليستعجلهم ويذكر لهم نيته العازمة على الجهاد، ويسترحلهم...» ضمن تأهبه للحملة التي ينهيا لها لإنقاذ مسلمي العدوة الأندلسية.
وللشاعر أبي العباس الجراوي قصيدة أنشدتها بمجلس الخلافة وبمحضر الجماعات العربية ينحو فيها نفس المنحى يقول منها:

أحاطت بغايات العلا والمفاخر	على قدم الدنيا هلال بن عامر
وزانوا سماء المجد بدءاً وعودة	بزهرة خصال كالنجوم الزواهر
أجيببت بهم في آل ساسان دعوة	لخير عباد الله باد وحاضر
مآثر أسلاف تلاها بنوهم	لأمثالها أكرم بها من مآثر

(محمد بن شريفة - ابن عبد ربه الحفيد، ص 95 - 96).

وأبيض ماثور كأنَّ فرنده

على الماء منسوجٍ وليس بسائلٍ

ثم يناديهم للخوض في معركة إنقاذ الأندلس، مريدًا أن يجعل منهم أداة
إصلاح بعدما كانوا أداة تخريب وخراب، وأن يشركهم في أجر الجهاد وثوابه:

بني العم من عليا هلال بن عامرٍ

وما جمعت من باسل وابن باسلٍ

وصاح بلسان قومه:

تعالوا فقد شدت إلى الغزونية

عواقبها منصورة بالأوائِل

هي الغزوة الغراء والموعِد الذي

تنجز من بعد المدى المتطاوِل

بها تفتَح الدنيا بها يبلغ المنى

بها ينصف التحقيق من كل باطل

أهَبنا بكم للخير والله حسبنا

وحسبكم والله أعدل عادل

فلا تتوانوا فالبدار غنيمَةٌ

وللمدلج الساري صفاء المناهل⁽¹⁾

ولا يخفى ما في هذه القصيدة من متانة ورصانة، وحسن السبك والصيغة،
وما تحلى بها صاحبها من قوة نفس وشدة بأس، كان لهما أكبر الوقع وأعظم الأثر
في نفوس العرب الموجودين بنواحي القيروان والزاب. فتتأشدها وهزتهم الأريحية
الإسلامية والحمية العربية لتلبية النداء المقدس، والدخول إلى المغرب للانخراط

(1) المراكشي: المعجب، ص 134 - 135 (ط. سلا).

في جيش الجهاد، وهم متسلحون بحسن النية وخلوص السريرة وصدق العزيمة، لخدمة الدولة الموحدية ومجاهدة أعداء الإسلام والمسلمين بالمغرب والأندلس⁽¹⁾.

ولما كان أبو يعقوب يوسف - خلف عبدالمؤمن - منهمكاً في الضرب على يد الثائرين بالمغرب عمت القلاقل بلاد الأندلس من جديد، وتحالفت قوى بلنسية⁽²⁾ وقشتالية وأرغونية بقيادة الثائر «ابن مردنيش» ضد الموحدين، وتنافس الأمراء المسيحيون على السلطة فيما تبقى من بلاد الأندلس. فاستغاث أدباء الأندلس - وهم أصدق معبر عما يخالج سكان الفردوس المفقود - بالخليفة الموحي أبي يعقوب يوسف، وبعثوا بالشاعر أحمد بن عبدالرحمن الوقشي الكناني البلنسي إلى مراكش، لينشد أمام الخليفة قصيدة طويلة يصف فيها الأندلس ويرثي لحالها ويثير فيها حمية الملك الموحي «للقيام إلى الجهاد» والدفاع عن المسلمين، منها:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى

فأبصر شمل المشركين طريقاً

(1) انظر في هذا الصدد:

- محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ص 61.
- المهدي البرجالي: «من أدب الجهاد في الأندلس: أبو الحسن بن عياش» دعوة الحق، عدد 266، غشت 1987، ص 51 - 52.

(2) عندما كان النصراني يغصبون ديار الأندلس استهزأ أهلها كذلك عزائم الحفصيين ملوك إفريقية لأخذ الثأر. من ذلك قول ابن الأبار لما ضاعت بلنسية سنة 635هـ، يخاطب صاحب إفريقية أبا زكرياء بن عبدالواحد الحفصي، مطلعها:

نادتك أندلس فلب ندائها واجعل طواغيت الصليب فداها
ويتحسر الشاعر على بلنسية وعلى ما أصابها من مكر ودمار ويستتهز الهمم ويبعث على الجهاد، لاسترجاعها:

أولوا الجزيرة نصرة أن العدا	تبغي على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها	فاستحفظوا بالمؤمنين بقاءها
حاشاكموا أن تضمروا إلغائها	في أزمة أو تضمروا إقصاءها
خوضوا إليها بحرهما يصبح لكم	رهوا وجوبوا نحوها بيدائها
وافى الصريخ مثوباً يدعو لها	فلتجملوا قصد الثواب ثوابها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة	سارت بها أحيائها شهداءها

(ابن الأبار: الديوان، ص 33 وما بعدها، المقرئ: النفح، ج 6، ص 223 - 225).

وهل بعد يقضي في النصارى بنصرة
تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنة ياقبٍ
يعيد عميد الكافرين عميدا
ويلقي على افرنجهم عبء كلل
فيتركهم فوق الصعيد هجودا
يغادرهم جرحى وقتلى مبرحاً
ركوعاً على وجه الفلا وسجودا
ويفتك من أيدي الطغاة نواعماً
تبدلن من نظم الحبول قيوداً⁽¹⁾

إلى آخر القصيدة...

ويشكو ابن منخل الشلبي إلى الخليفة الموحي «حال شلب وغارات ابن الريق
(ألفونسو هنريكس) على جهاتها» قائلاً:

إن الأعادي لا تزال كعهدها
توري بشلب مغرها وكفاحها
قد غيضت أنهارها وتحرقت
أشجارها وتكفأت أقداحها
كلفت بها أعداؤها حتى لقد
أخذوا عليها نجدها وبطاحها
ما ضرنا إن غلّقوا ما حولها
إن كان سيفك بعدها مفتاحها

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج 6، ص 221 - 222.

وانا الزعيم إذا أشرت بلحظةٍ

أن تستردَّ عداها وطماحها⁽¹⁾

وقد سبق ابن منخل الشلبي أن حرض الخليفة السابق عبدالمؤمن على البداية
بفتح الغرب الأندلسي وتوجيه خيله إلى ابن الريق أولاً:

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا

فإن نسيم النصر بالفتح قد هبّا

أقيموا إلى ابن الريق بعد صدورها

وليس عليكم أن تُرى ضُمُّرا قَبّا

فإن تبدأوا بالغرب فالفتح واضح

وإن نجوم الدين طالعة غربا⁽²⁾

وحينما نزل الخليفة الموحي أبو يعقوب يوسف بقرطبة، جمع جيشاً من
البربر والعرب وتقدم به للجهاد ضد ابن مردنيش. وعند حلول عيد الأضحى
وكان الخليفة مقيماً بقرطبة جلس في اليوم الثاني من العيد للتهاني، وتقدم إليه
الشعراء، وقام من بينهم الشاعر محمد بن إبراهيم بن المنخل الشلبي منشداً
قصيدة، استهلها بالاستعطاف والاستجداء بالخليفة وبجيوشه لاسترداد الحق
المسلوب من يد المعتدين:

شرف الخلافة أن ملكت زمامها

وغدوت من عبدالإمام أمامها

وافتك تبتر الرضى إذ رمتها

ولشد ما امتنعت على من رامها

طبع الإله لها حساماً صارماً

يحمي جوانبها فكنت حسامها

(1) المن بالإمامة، ص 174.

(2) المن بالإمامة، ص 95 - 96.

فعلى رماحك أن تشق جيوبها
وعلى سيوفك أن تفلق هامها
وعلى جيوشك أن تدوخ أرضها
وتدوس في عرصاتها أصنامها

وبعد ذلك ينطلق الشاعر في وصف بأس الأمير الموحي وبسالته، مخلصاً
تدخله العسكري في الأندلس - بخيله وقسيه ورماحه - «لما أظلم جو الدين بها»،
ومهدداً ابن مردنيش بسوء المصير:

لما رأيت الدين أظلم جوه
والحرب قد سدلت عليه قتامها
أقبلتها شعث النواصي شزباً
جرداً تباري في الفلاة سماتها
تسري بخير عصابة قيسية
تسري الفتوح مشيخة قدامها
قل للاقاصرة الذين تمردوا
وافى مشم الماردين رغامها
أخذ الشعاب على الشعوب فإن عدت
سبل الهدى سد الشعاب أمامها
ورأى الشقي بن الشقي تغره
فئة أضل ضالها إسلامها
أنى يفوتك خائف ولو اعتلى
دار المجرة وارتقى أعلامها⁽¹⁾

ولأبي محمد بن سارة الشنتريني الشاعر اللغوي قصيدة مشابهة لقصيدة
الشلبي يحض فيها الأمير أبا يحيى المرابطي على الجهاد:

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 458 - 460.

واقذف نحور المشركين بجحفل
يمحو معالم أرضها ومنازها
لجب تظن السابغات به أضى
زرقة ونقع السابحات بحارها
واحلل عرى تلك الجماجم إنها
عقدت على بعض الهدى زناها
لا ترض منهم بالنفوس تحوزها
سمر القنا حتى تحوز ديارها
وترى بها عيناك ليل ضالها
ويد الهدى فيها تنشق زارها⁽¹⁾

ويمجيء المأمون الموحد⁽²⁾ إلى الخلافة، بدأ أفول الدولة الموحدية بالمغرب،
وظهر بنو الأحمر بالأندلس واستولى أبو زكرياء على بلاد إفريقية وبدأت القبائل
تحاصر مدن المغرب⁽³⁾.

(1) «قلائد العقبان»، ص 637.

(2) تمت بيعة المأمون بالأندلس. ثم بدأت بيعات أهل المغرب تتوارد عليه، منها بيعة عرب بني هلال
وخصوصاً بعد انتصاره على ابن هود. فكتب أبو زيد الفازاني عن إذن المأمون لرئيسهم هلال ابن
مقدم الخلطي يشكره فيه على صنعه الجميل ويشيد بشجاعة العرب:

الطعن والضرب منسوبان للعرب	بالسمهرية والهندية القضب
والحرب تبعث منها كل معترك	حفائظا تترك الأعداء في حرب
حازوا الوفاء إلى الإقدام وانتسبوا	إلى جلال المعاني كل منتسب
خفوا إلى نصر حزب الله واحتفلوا	في عسكر صخب أو جحفل لجب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها	في ظل ألوية منشورة العذب
فمن صوارم مثل النار في صعد	ومن سوابق مثل الماء في صيب
بحر على البر مرتجع غواربه	من فوقه قطع الرايات كالسحب
تذكروا ممن المنصور فاعترفوا	لنجله بعد كرات من الحقب..

(ابن عذاري: البيان 3، ص 260 - 261، ط: ت).

(3) من ذلك أن بعض القبائل حاصرت مكناسة فاستغاث أهلها بالمأمون على لسان ابن عبدون:

ولما أحس النصارى بضعف الموحدين بالمغرب والأندلس، أحرقوا بمدينة
إشبيلية وحاصروها براً وبحراً وأذاقوا أهلها الشر والعذاب.

فخاطب أهلها المعتضد بالله⁽¹⁾ و«كافة المسلمين من أهل عدوة المغرب»⁽²⁾
يستصرخونهم لنصرتهم ويحضونهم على الجهاد: جهاد أعداء الله. من ذلك قصيدة
مطلعها:

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى

لم يرعَ فيك الردى إلا ولا ذمما

«يرقُّ لها القلب القاسي، وتأتמר لها الجبال الرواسي»، وهي من نظم أبي
موسى هارون بن هارون يرثي أهل إشبيلية ويصف ما نالهم من الكروب الشداد:

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها

أصخ لتسمع أمراً يورث الصمما

ثوى بين هلاك رهين هلاك	إمام الهدى سمعاً لدعوة شاك
وتبكي على من تحويه بواكي	وأوشك أن يفتال مكناسة الردى
فقد قعدت منها بكل شراك	أحاطت بها الأعداء من كل جانب
وبثوا لها التطليق بعد ملاك	وقد زارها من أهل زرهون هونها
فها هي تشكو كل أروع شاك	وأبناء «فزاز» لها مستفزة

(المصدر السابق، ص 280).

(1) من جملة الشعراء الذين استجدوا بالمعتضد بالله أمير إشبيلية أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي -
الذي عاش ببلاط الناصر الموحي بمراكش وعاد إلى الأندلس) - في قصيدة فريدة، منها:

وقد أعزوا بكم وعداً وقد نصروا	وأفاكم وفد حمص المستجير بكم
حتى لفلوا فمذ أمرتم كثروا	صال العدو عليهم في جوارهم
فالفتح مرتقبٌ والنصر منتظر	وأيقنوا أن نصر الله نصركم
وأنت «معتضد بالله» منتصر	رمى بك الله أهل الكفر تسحقهم
والقوس طائفة التوحيد والوتر	فالله رام وأنت السهم في يده

(ابن ابراهيم: الإعلام، ج 2، ص 181 - 182).

(2) ستتوالى نداءات الاستتصار - كما سنرى - على بني مريّ لحماية الدين وأهله بعدوة الأندلس لأنهم
«أصحاب شجاعة وبطولة وإقدام منذ أن كانوا قوماً رحلاً». والدليل على ذلك ما قاله أبو القاسم
العزفي في حقهم: «وأرجو الله تعالى أن ينصر هذا الدين بسيوف العصابة المباركة بني مريّ، إذ هم
الليوث الظافرة ولهم الأعداد الوافرة والجموع المتكاثرة والعساكر تسيل بالفضاء منها البحور الزخرة
من كل أسد هائج للكفاح...».

وقد أحاطت بنا الأعداءُ فاغرة
أفواهها تبتغي أرواحنا طعما
سطا بها الكفر إذ قلّ النصيرُ بها
فمن معزُّ بها الإسلام ما سلما؟
ثم يحرض الشاعر المسلمين على القتال والجهاد ويخاطب أهل المغرب
ويستجدهم:

يا أهل وادي الحمى بالعدوة انتعشوا
هذا الذماء فقد أشفى به سقما
ماذا يبطئكم عنّا وحولكم
إن تبصروا دارَ قومٍ أصبحت رمما
وحقنا واجِبٌ فالدين يجمعنا
مع الجوار الذي ما زال منتظما
وقد دعونا فأسمعنا على كثبٍ
بما قد استنفذ القرطاس والقلما

ثم يذكر شاعرنا الأندلسي - المغرب «بالسنة الحميدة»:
فتحُ الجزيرة مما سن أولكم
فلتثبتوا للهدى في أرضنا قدما
لا عذرَ في تركها للكفر مسلمة
أنَّ الزمان وأنتم فيه ما عكما
ويتوجه بالخطاب إلى الأمير المغربي:
فالمفزع الله والذخر العماد أُميد
ر المؤمنين وحسبي في النجاة هما

فاصدغُ بحقك إنَّ الدهرَ ممثِّلُ

فربُّ دهرٍ غيورٍ عاد مبتسماً⁽¹⁾

ونظم محمد بن أبي يعقوب يوسف الشبوكي السالف الذكر قصيدة مطلعها:

أبان في حبه ما قال عاذله

دمعُ جرى فوق صفح الخد هامله

يمدح فيها أبا فارس عبدالعزيز بن الحسن المريني⁽²⁾، ويحرضه على قتال
الثائرين - الذين خدعتهم زينة الحياة الدنيا - والنهوض إليهم بجيشه الباسل
(صاحب القوة والحنكة) ليفرق شملهم ويبيد صفوفهم ويذيقهم أشد العذاب،
وخصوصاً منهم عامر بن محمد بن علي الهنتاتي صاحب جبل هنتاة (من أحواز
مراكش) لما خرج على طاعته:

عبدالعزیز الذي عزت بدولته

مراتبُ الحق والتاحت دلائلهُ

وأصبح الملك في أمن وفي دعةٍ

من بعد ما كان نالته غوائله

(1) ابن عذاري: البيان 3، ص 383 - 384 (ط: ت). وتذكرنا هذه القصيدة بقصيدة عصماء للشاعر

صالح بن شريف الرندي (الآتية الذكر) في رثاء الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصانٌ فلا يغرَّ بطيب العيش إنسانٌ

(2) مما أنشده عبدالعزيز المريني - الذي باسمه ألف ابن خلدون كتابه العبر - في ذيل كتابه لوالده أبي

الحسن، قوله مفتخرًا ومتوسلاً:

وأحمي العرض من دنس ارتياب

وأضرب السيوف طلا الرقاب

وأطلب حلمه يوم العقاب

على الأعداء محروس الجنب

أرضي الله في سري وجهري

وأعطي الوفر من مالي اختيارا

وأرغب خالقي في العفو عني

وأرجو العون في عز ونصر

(المقري: أزهار الرياض، ج 1، ص 54).

وقد نسب ابن الأحمر في «نثير الجمان» هذه الأبيات لأبي الحسن المريني ص 68.

قل للذي عنه أقصته جرائمه
وعقلته عن العليا معاقله
وأبلغ جميع العدا أن سوف يشملهم
من الظبا كل ماضي الحد فاصله
هذا المليك أتاهم في كتائبه
لنسخ أجالهم تنضي رواحله
بكل خرق طويل الباع متئد
مقصر عمر من تلقى مناصله
وجحفل فيه سمر الخط مشرعة
قد حجبت أنجم الشعري قساطله
سيعلم الغمر عقبى ما جناه إذا
كلت مواضيه وانفضت كلاله
وحاط بالجبل البحر المحيط ولا
حت فوق رؤسهم منه جداوله
فانهض إليهم أمير المسلمين فقد
أعطيت كل المنى فيما تحاوله
من ذا ينازل جيشاً أنت قائده
يوم الكريهة أو من ذا يناضله
ألا ترى المائق الرعيد حين عتا
وأضمر المكر صادته حباله
إن سار جيشك فالتأييد يقدمه
والنصر عاجله يقفوه أجله

فليهن دين الهدى من بعد مدته

أَنْ أَنْتِ يَا ذَا الْحَيَا الطَّلِقِ كَافِلُهُ⁽¹⁾

ولما تكالب النصارى على بلاد الأندلس بالغارات والسبي وأبادوا أهلها
وحاصروا قواعدها - كقرطبة وإشبيلية⁽²⁾ وبلنسية - جهز أمير المسلمين يعقوب
المريني جيشاً من الرماة والفرسان وأمره بالجواز إلى الأندلس برسم الجهاد .

فنظم شاعر المرينيين مالك بن المرحل في هذه الظروف الحامية الداعية
إلى الجهاد قصيدة رائعة - في بحر الرجز - يحرض فيها بني مرين على جهاد

(1) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمال، ص 374 - 375. المقري: أزهار الرياض، ج 1، ص 291 - 294.
وتعد هذه القصيدة نموذجاً لقصائد شعراء بني مرين التي تتشد في المناسبات المختلفة وأخصها
الأعياد الإسلامية. ويشم من خلال أبياتها نسيم من قصيدة غيلان في مدح عبد الملك، ومطلعها:

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي حوله وأخاطبه

ويعتبر محمد ابن تاووت هذه القصيدة في كتابه الوافي (ج 2، ص 566) أنها في فنّها تمثل مرحلة
انتقال من المرينيين إلى الوطاسيين أي بين عهدين متباينين في الأدب والدولة على السواء .

(2) لما اشتد الحصار على مدينة إشبيلية من قبل الروم سنة 645هـ، أي في عهد الأمير أبي بكر بن
عبدالحق المريني، رحل عنها إلى سبتة شاعر الغزل إبراهيم بن سهل الإشبيلي الإسرائيلي (605 -
649هـ) ونظم قصيدة يستنفر فيها الغزاة من العدو ويستنصر بالعرب لإنقاذ (حمص الأندلس) من
السقوط في يد النصارى:

هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يبدو لكم بين القنا والضمر
غبر العجاج إلى النعيم الأخضر
سبب به تردون نهر الكوثر
ظلُّ لكم يوم المقام الأكبر
شيم الحمية كابرًا عن كابر
ويكم تمهد في قديم الأعصر
لهزمت منها العدو بعسكر
بيعوا ويهنؤكم وفاء المشتري
غوث الصريخ وبغية المستنصر
أين العزائم ما لها لا تنبري
سيفًا ودين محمد لم ينصر
ما خاب قصد مشمر ومسمر

وردا فمضمون نجاح المصدر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا
وتجشموا البحر الأجاج فإنه
وتحملوا حر الهجير فإنه
يا معشر العرب الذين توارثوا
أنتم أحق بنصر دين نبيكم
لو أنكم جهزتم عزماكم
إن الإله قد اشتري أرواحكم
الدين ناداكم وفوق سروجكم
أين الحفاظ ما لها لم تتبعث
أيهزمنكم فارس في كفه
جدوا وتمموا بالجهاد أجوركم

(الذخيرة السنية، ص 69 - 70).

الكافرين ونصرة من في بلاد الأندلس من المسلمين، وبعث بها إلى الأمير أبي مالك بن يعقوب. وقرئت هذه القصيدة البطولية بحصن جامع القرويين من فاس بعد أداء صلاة الجمعة فبكى المصلون عند سماعها، وانتدب كثير منهم للجهاد، منها:

استنصرَ الدينُ بكم فأقدموا

فإنه أن تسلموه يسلمُ

لاذت بكم أندلس ناشدة

برحم الدين ونعم الرحم

واسترحمتكم فارحموها إنه

لا يرحم الرحمن من لا يرحم

ما هي إلا قطعة من أرضكم

وأهلها منكم وأنتم منهم

لكنها حدت بكل كافرٍ

بالبحر من حدودها والعجم

لهفًا على أندلسٍ من جهة

دارت بها من العدا جهنم

وبعدما يتحسر الناظم - متشبعًا بالعاطفة الإسلامية - على ما أصاب الأندلس من تقتيل وتفكك وانهيار وعدوان:

قرطبة هي التي تبكي لها

مكة حزنًا والصفاء وزمزم

وحمص وهي أخت بغداد وما

أيامها إلا الصبا والحلم

استخلصوها موضعًا فموضعًا

واقْتَدَرُوا واحتكموا وانتقموا

وقتلوا ومثلّوا وأسروا
وأشكلوا وأيتموا وأيموا
ظنوا وكان الظن منهم كاذباً
أن ليس لله جنود تقدم
ما صدقوا أن وراء البحر من
يغضب للإسلام حين يظلم
يعود فيثير الهمم ويهز العواطف ويحرك السواكن ويوجه نداءه الصريح لأهل
الغيرة الإسلامية ليتصدوا للمعتدين:
يا أهل هذي الأرض ما أخركم
عنهم وأنتم في الأمور أحزم
فانتصفوا للدين من أعدائه
واقرعوا عليهم واقتسموا
حدّوا السلاح وانفروا وسارعوا
إلى الذي من ربكم وعدتم
إنّ أمام البحر من إخوانكم
خلقاً لهم تلفت إليكم
أين المفرّ لا مفرّ إنما
هو الغياث أو إسار أو دم
يا رب وانصرنا على أعدائنا
يارب واعصمنا فأنت تعصم⁽¹⁾

(1) المصدر السابق، ص 98 – 100 .

نلاحظ أن الشاعر - كما ذهب إلى ذلك ابن تاويت - استعمل في هذه القصيدة أسلوباً مبسطاً دون أسلوبه الذي عرف به، لأنه نظمها «للعامة وأشبه العامة من المجاهدين الذين يحملون السلاح ولا يحملون الأقلام» فراعى في تبسطه مقام المخاطبين الذين ينتمون إلى القاعدة، وليس إلى القمة، (انظر الواهي، ج 1، ص 343).

وتتقاطر على ملك الغرب قصائد الاستتجاد والاستعطاف ليجوز بنفسه ويغيث
المستغيثين بالأندلس ويخلصهم من «الفونشو» الذي ضيق ببلادهم، واستولى على
مدنهم، وليجمع كلمة المسلمين على التقوى والجهاد لنصرة الدين وإعانة المجاهدين.
يقول الشاعر عبدالعزيز الملووزي من قصيدة (أتينا بالقسم الأول منها في
تحريض الشاعر يعقوب المريني على غزو يغمراسن بن زيان الذي لم يستجب
لدعوة الصلح والأمان)، يحث فيها بني مرين على تحقيق العبور لشبه الجزيرة:

أبا يوسف أنت الغياث لديننا
أولوا العلم في أخبارهم بك بشروا
طليطلة تغزى ويفنى مليكها
وإشبيلية عما قريب تذكر
مرين: ألا قودوا الجياد لنهبها
وللغزوى أسد الفوارس فانفروا
ومن يك ذا بأس كي يعقوب والندى
فيظفر بالكفار فهو المظفر
لقد سكن الأعداء مساجد ربنا
وكان بها قبل المهيمن يذكر
أما علموا أن الإله يبيدهم
بجيشٍ مليك نصره متيسر
هو الملك المنصور ذو المجد والعلا
أبو يوسف غيث المقام المظفر
فلو قيل للإسلام من كنت ترتجي
لقال لنا يعقوب ذاك الغضنفر⁽¹⁾

(1) المصدر السابق، ص 127 - 128.

ولما صالح ابن الأحمر «الفونشو» وتنازل له عن حصون ومدن أندلسية، واستعان به على قتال ابن اشقيلولة الثائر عليه بمالقة، بدأ أفول الأندلس يظهر في أفقها الحالكة. فقال خاتمة أدباء الأندلس أبو الطيب صالح بن شريف الرندي قصيدته النونية الخالدة، يندب فيها بلاد الأندلس ويبعث العزائم ويوقظ الهمم من المسلمين لنصرة الدين وإنقاذ الأندلس من يد «الفكارين»، ويتحسر عليها وعلى ما أصابها، ثم يتوجه بالخطاب - بقلب كئيب ومكلم - إلى بني مرين وأميرهم ليستدركوا ما يمكن استدراكه - رغبة في الجهاد وذبحاً عن بيضة الإسلام - وليعودوا إلى «التضامن» المغربي - الأندلسي الإسلامي⁽¹⁾:

يا أيها الملك البيضاء رايته
أدرك بسيفك أهل الكفر ما كانوا
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان

(1) يقول المرحوم عبدالله كنون أنه كلما استولى المرينيون على حصن من الحصون الأندلسية كانوا يسلمونه لابن الأحمر، وقد أبقوا بأيديهم جبل طارق والجزيرة الخضراء وجزيرة طريف لربط خيط المواصلات بين العدوتين وإنزال المقاتلين وادخار المؤونة (النبوغ، ص 191).

أما نفوس أبيات لها هممٌ أما على الخير أنصارٌ وأعوان

ويختتم شاعرنا قصيدته بقوله:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب إسلام وإيمان⁽¹⁾

أفلا تدل هذه القصيدة على إثارة العاطفة الكامنة عن طريق المشاعر الإنسانية والدينية؟.

(1) المقرئ: أزهار الرياض، ج 1، ص 47 - 50.

ومن غرر القصائد التي تماثل قصيدة الرندي في رثاء دولة الإسلام بالأندلس سينية أبي عبدالله القضاعي البلسي المعروف بابن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وهو مؤلف كتابي «التكملة والحلة السيرة». وسبب نظمها هو أنه لما زحف الطاغية على مدينة بلنسية ونازلها، بعث أميرها زيان إلى الأمير أبي زكرياء يحيى الحفصي وإلى إفريقية بوفد من بلنسية وبكاتبه ابن الأبار ليطلبوا منه العون والمدد. فاستصرخه ابن الأبار بهذه السينية المشهورة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لنا من عزيز النصر ما التمس	فلم يزل منك عز النصر ملتصا
ثم يقص عليه «قصة الجزيرة» وما أصابها من هول ونكد وضياح:	
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدها تعسا
إلى أن توجه إليه ببناء الاستعطاف والنجدة:	
يا أيها الملك المنصور أنت لها	علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من	يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم أنهم نجس	ولا طهارة ما لم يغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم	حتى يطأطي رأسا كل من رأسا
واضرب لهم موعداً بالفتح ترقبه	لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

(وردت هذه القصيدة في ديوان ابن الأبار ص 395 وما بعدها، وفي أوراق من ديوانه م. خ. ح. 4602) دون ترقيم لهذه الأوراق، وفي أزهار الرياض للمقرئ، ج 3، من ص 207 إلى 210). ومن المعلوم تاريخياً أن بعض مدن الأندلس ومدينة سبتة المغربية سبق لأهلها أن بايعوا أبا زكرياء الحفصي سنة 640هـ بدليل قول شاعره ابن الأبار من قصيدة يمدحه فيها:

سلطانه خرق العادات فانتلفت	على المرشد أغيار وأضداد
لا مرية أن إهطاع المرية في	أعقاب سبتة للإجماع ميعاد
لئن أهابت به مراکش ودعت	لما عدت قصدها مصر وبغداد

(ابن الأبار: الديوان، ص 139 - 141).

وعندما لم تحدث «التدخلات» العسكرية المرينية أثرها المنشود في الأوساط الأندلسية، جنح محمد بن الأحمر إلى الارتياح في نيات الملك المريني وخصوصاً لما «أسدل» حمايته على بني اشقيلولة - أصهار بني الأحمر - وعلى غيرهم من الخوارج على بلاط غرناطة، فتكدر الجو بين ملك المغرب وملك غرناطة وانقبض محمد بن الأحمر عن لقاء يعقوب المنصور المريني عند جوازه الثاني. ودارت بينهما مخاطبة شعرية في معنى العتاب على السنة شعرائهما:

من ذلك قصيدة بعث بها حاكم غرناطة ابن الأحمر إلى الملك المريني قبيل مغادرته للجزيرة الخضراء، يحذره فيها من غائلة الأعداء وينحو فيها منحى الاستعطاف ويستصره على أعدائه، وهي من نظم كاتبه وشاعره أبي عمرو بن المرابط، مطلعها:

هل من معين في الهدى أو منجدي

من متهم في الأرض أو من منجدٍ

يا أمل النصر العزيز على العدا

أجب الهدى تسعد به وتؤيد

ثم ينشد في الجهاد والتشجيع عليه، محبباً للأمير المغربي والمغاربة الجهاد في سبيل الله والاستشهاد في سبيله أيضاً:

هذا الجهاد رئيس أعمال التقى

خذ منه زادك لارتحالك تسعد

هذا الرباط بأرض أندلس فرح

منه لما يرضي إلهك واغتنم

وبعد ذلك يوجه نداءه لبني مرين - جيران الأندلس - للجهاد والنضال ولنصرة الحنفية السمحاء:

أبني مرين أنتم جيراننا
وأحق من في صرخة بهم ابتدي
أبني مرين والقبائل كلها
في المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتبَ الجهادُ عليكم فتبادروا
منه إلى فرض الأحق الأوكد
لله في نصر الخليفة موعداً
صدق فثوروا بانتجاز الموعد
هذي الثغور بكم وإيكم تشتكي
شكوى العديم إلى الغني الأوجد
ما بال شمل المسلمين مبدداً
فيها وشمل الكفر غير مبدد..⁽¹⁾

وقد رد عليه يعقوب المنصور المريني بقصيدة من نفس القافية للشاعر ابن
المرحل يشهده فيها - مفتخراً - على ما قام به بالأندلس من حسن الجهاد وصادق
النضال، منها:

شهد الإله وأنتِ يا أرض اشهدي
أنا أجبنا صرخة المستنجدِ
نسري له بأسنة قد جردت
من غصبتها والفتح لم يتجرد

(1) ابن خلدون: العبر، م 7، ص 408 - 414 (ط: لبنان). وذكر ابن خلدون (ص 414) أن الملوذي أجابه
بقصيدة: «لبيك لا تخشى اعتداء المعتدي».
ولما أجاز يعقوب المريني إلى الأندلس ولقي ابن الأحمر أنشده كاتبه ابن المرباط قصيدة: «بشرى
لحزب الله والإيمان»، فرد عليه الملوذي بأمر من سلطانه وبمحضر ابن الأحمر: «اليوم كن في غبطة
وأمان». ولكن ابن خلدون اكتفى بذكر المطالع فقط.

لولا الأسنان والسنايك ما درى
أحدٌ بسير خيولنا في الفرقد
نسري بأجنحة البزاة إلى العدا
مثل الحمام الحائمت الورد
فاستبشروا في أفقهم بطلوعنا
كالشمس يوم طلوعها للأسد
حتى بغتنا القوم في أوطانهم
إن الحوادث لا تجيء بموعد
ثم التقينا بالذين استصرخوا
منا بكل مؤيد ومسد
حتى إذا جئنا وجأؤوا نحونا
ودنا المزارُ وقيل للبعد ابعد

إلى أن يقول مفتخرًا بالفتح الذي اندحرت فيه جموع الكافرين، وبالمجاهدين
من بني مرين الذين كتبوا بأسنتهم أروع الوقائع في سجل تاريخهم:
لما دعا الداعي وردّ صوته
قمنا لنصرته ولم نتردّد
الله يعلم أننا لم نعتقد
إلا الجهاد ونصر دين محمد
ثم اعترضنا البحر وهو كانه
ملكٌ تقدم بالجيش لمصد
أو ما علمتم أننا أيّد لكم
دون العدا والله خير مؤيد

لولا رجالٌ من مرين قاتلوا

عنكم لكنتم كالنساء الخرد⁽¹⁾

كما أشد الشاعر ابن أبي حجلة التلمساني أبا فارس عبدالعزيز المريني قصيدة يمدحه فيها، ويحرضه على الجهاد والوقوف بجانب بني نصر والصمود في وجه الأعداء، والأخذ بثأر واقعة طريف التي جعلت حدًّا للوجود المريني «بوطن الجهاد».

أبا فارس أطلق عنانك نحوهم

فكم لكم وعد صادقٍ ووعيد

أبا فارس قد شاع أنك فارس

وجيشك إن عد الجيوش عديد

ومهدت أرض الغرب حتى كأنما

سروج جياذ الخيل فيه مهود

وكم خيمة للدين فيه أقمتها

لها فلقُ الصبح المنير عمود

فبادرْ بكسر الباب في أرضه التي

بها الكند لا يفتك وهو كنود

أبا فارس عمر طراديك التي

يبيت بها الشيطان وهو طريد

(1) ابن القاضي: درة الحجال، ج 3، ص 21 - 24.

وأجابه مرة أخرى ابن الأحمر على لسان شاعره وكاتبه أبي عمرو بن المرابط مكفراً عما صدر عنه من عتاب طالباً العفو والصفح:

يعقوب والدنا مكان محمد
والدين واخى بين أمة أحمد
من ثغر أندلسٍ فلم يتردد
متن الفلاة ولج بحر مزبد
لوجوهم وسط السعير الموقد..

قل للعداة وللبلغاة الحسد
وبنو مرين كلهم إخواننا
يعقوب نادينا من مراکش
وأجاب داعينا وجاء لنصرنا
وغزا بلاد الروم غزواً كبهم
(المصدر السابق، ص 25).

**وعد جِيَادَ الخيل للعدوة التي
يبيتُ بها التوحيد وهو وحيد
ولا تنس ثارًا من طريف ففيها
لجيشك منه طارقٌ وتليد⁽¹⁾**

وفي عهد المتوكل على الله أبي عنان ابن أبي الحسن المريني، لم تحدث أي اشتباكات حربية حاسمة بين المرينيين والنصارى - في الأندلس -، ذلك لأن القشتاليين كانوا منشقين على أنفسهم بسبب الخلافات حول العرش. وكانت العلاقة مع بني الأحمر حسنة في جملتها. وقد لعب ابن الخطيب دورًا هامًا في توطيد هذه العلاقات بين أبي عنان وابن الحجاج ثم ابنه الغني بالله. وقد عبر ابن الخطيب غير ما مرة لأبي عنان⁽²⁾، ولمن أتى بعده من الملوك باسم ابن الأحمر عن

(1) ابن أبي حجلة التلمساني: منطق الطير (مخطوط) ص 11. وقال ابن أبي حجلة أيضًا في وصف أسطول أبي فارس المريني:

أبو فارس أمست طرائد سفنه	لأعدائها في حربها العكس والطرده
وغريانه لو صور الموت بينها	لأمسى وفي جوف النسور له لحد

(منطق الطير)

(2) من ذلك أنه لما قدم للمرة الثانية إلى المغرب كسفير يحمل رسالة من الغني بالله يطلب العون والمساعدة ويستتصره على مقابلة طاغية قشتالة ويجدد عهد المودة التقليدية بين البلاطين الغرناطي والفاشي، ارتجل أبياتاً في مدح أبي عنان قدمها له بين يدي نجواه، منها:

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته	ما ليس يستطيع دفعه البشر
ليس لنا ملجأ نؤمله	سواك أنت الشمال والوزر
والناس ظرًا بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجمعه في الأمر أنه وطن	في غير عليك ماله وطر
ومن به مد وصلت حبلهم	ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم نفوسهم	فوجهوني إليك وانتظروا

(ابن خلدون: العبر، م 7، ص 691). الناصري: الاستقصاء، ج 3، ص 195.

فاهتر أبو عنان لهذه القصيدة ووعدته بتحقيق مطلبه قائلاً: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم». وقد حضر هذا المجلس وفد من وزراء الأندلس وفقهائها الذي كان في رفقة ابن الخطيب السفير.

شديد رغبتهم لعودة ملوك بني مرين للأندلس، لإحياء المجد الغابر وإرجاع العزة للإسلام والمسلمين. فينشد - مثلاً - أبا عنان من قصيدة طويلة مطلعها:

أبدى لداعي الفوز وجه منيبٍ

وأفأق من عذل ومن تأنيبٍ

وجهها إليه مع رسول «محملاً بمصالح البلاد والعباد»، يناشد فيها نصره الحق في الأندلس وإغاثة أهلها وذلك لما رأى:

(رأيت سيف الله مطرور الشبا

يمضي القضاء بحده المرهوب)

يقول ابن الخطيب:

يا ناصر الحق الغريب وأهله

أنضاء مسغبةٍ وفل خطوبٍ

حقوق ظنون بنيك فإنهم

يتعللون بوعدك المرقوب

ضاقّت مذاهب نصرهم فتعلقوا

بجناب عزٍّ من علاك رحيب

ودجا ظلام الكفر في أفاقهم

أو ليس صبحك منهم بقريب

فانظر بعين العزٍّ من ثغرٍ غدا

حذر العدا يرنو بطرفٍ غريب

نادتك أندلس ومجدك ضامنٌ

أن لا تخيب لديك في مطلوب

غصب العدو بلادها وحسامك الـ

ماضي الشبا مسترجع المغصوب

أرها السوابح في المجاز حقيقة
من كل قعدة مجرب وجنيب
والروم فارم بكل رجم ثاقب
يذكي بأربعها بكل شواظ لهيب
بذوابل السلب التي تركت بني
زيان بين مجدل وسليب
وأضف إلى لام الوغى ألف القنا
تظهر لديك علامة التغليب
والنصرُ يضحك كل مبسم غرة
والفتحُ معقودٌ بكل سبيب
ويختم قائلاً:

جعل الإله البيت منك مثابة
للعاكفين وأنت خير مثيب⁽¹⁾

وغداة وفاة أبي عنان، أصبح المغرب محط الأطماع والأوهام، وغدت أبوابه مفتوحة أمام الصليبيين الذين لم يجدوا أمامهم تلك الجيوش والأساطيل المعتادة.

(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام، ص 288 - 289. وفي هذا الصدد يقول أيضاً أحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجي المكتاسي الدار الأندلسي الأصل من قصيدة يستغيث بأبي عنان:

يا أيها الملك الذي أضحى به	دين الإله قرير عين والعللا
أغرق بطوفان الكتائب عصابة	عادت بمعتصم الجبال من العدى
انهض لأرض الروم وارم غواتهم	بالشهب من أطراف مياد القنا

وقد نظم شاعرنا قصيدته هذه لما حضر مع أبي عنان قتل أسد بين يديه. لأن السلطان المريني كان مولعاً بقتل الأسد وهو جالس بأعلى القصر بالمدينة البيضاء. وكان مطلعها:

ولكم يرى يوم الوغى من فارس	وك«فارس» يوم الوغى ما إن يرى
ذلت لبطشه الأسود وإنها	لتذل لولا عز بطشته الطلا..

(ابن الأحمر: نثر فرائد الجمال، ص 355 - 356، ابن الأحمر: نثر الجمال، ص 343 و346).

فهاجموا على تطوان سنة 1399م واحتلوها ثم اغتصبوا مدينة سبتة (باب الأندلس) سنة 818هـ 1415م⁽¹⁾. وكان أبو سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم المريني في شغل شاغل عن إمداد المجاهدين بسبتة بالسلاح والعتاد. ولكن البرتغاليين واجهوا مقاومة عنيفة من قبل المجاهدين المتطوعين، لما تقدموا غرباً نحو «قصر مصمودة» وطنجة.

وبعد وفاة الملك المريني تقدم أهل رباط سبتة بكتاب إلى السلطان الجديد عبدالحق ابن أبي سعيد المريني⁽²⁾ - آخر ملوك بني مرين وأطولهم عهداً - سنة

(1) انظر وصفاً لهذا الاحتلال في الناصري 92/4 - 95.

وقد كان لهذا الاغتصاب صدى في الأندلس: ذلك أن ابن فركون أتى بوصف شعري عن رجوع العمارة البرتغالية عن جبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله. كما ردد في عدد من قصائده أن سلطان قرطبة سيهب إلى غزو سبتة وطرد البرتغاليين منها استجابة لنداء أهلها (ديوان ابن فركون، ص 88 - 90).

وقد أنشد أمام يوسف الثالث ملك غرناطة بمناسبة عيد الفطر لسنة 818هـ قصيدة يحرض فيها على الجهاد لتحرير سبتة منها:

هَذَا عَدُو الدِّينِ حُلْ بِسَبْتَةِ	لِيَنَالَ شَأْوَ فِي الضَّلَالِ بَعِيدَا
أَلْقَى لَدَيْهَا رَحْلَةً إِنْ لَمْ يَكُنْ	عَنْ مُورِدِ الدِّينِ الْحَنِيفِ مَذُودَا
وَالْآنَ لَمَّا أَنْ دَعَتِكَ لِنَصْرِهَا	جَعَلْتَ مَقَامَكَ عِدَّةً وَعَدِيدَا
فَأَخْفَضْتَ عِبَادَ الصَّلِيبِ وَقَدْ	صَلَبْتَ عَلَى رَيْبِ الْحَوَادِثِ عُودَا
قَصْدًا إِلَيْهَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الرُّضِي	لَتَرَى الْقَنَا بِصُدُورِهَا مَقْصُودَا
سَتَعِيدُهَا وَتَنْبِيلُ كُلَّ مُوَحَّدٍ	أُمْنًا وَتُوسِعُ قَطْرَهَا تَمْهِيدَا

(ابن فركون: الديوان، ص 365).

ومن قول ابن فركون في الإشادة بجهاد يوسف الثالث الناصري:

وَمَنْ شَأْنُهُ يَوْمَ الْوَعَى أَنْ يَطْشَهُ	بِمَنْزِلَةِ الْحَتَفِ الْمَقْدَرِ نَازِلَهُ
بِيُوسُفٍ ارْتَاحَتْ خِيُولُ جِهَادِهِ	إِلَى أَمَدٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ مَخَايِلُهُ
سَوَابِقَ لِلْأَبْطَالِ بِالْعَمَلِ الَّذِي	تَحْكُمُ فِي حَزْبِ الصَّلِيبِ عَوَامِلُهُ
وَتَطْمَحُ لِلْأَفْقِ الْمُنِيرِ كَأَنَّهَا	تَنَازَعُهُ عَلَيْهِاءُ وَتَنَازَلُهُ

(عبد الوهاب بمنصور: أعلام المغرب العربي: ترجمة أحمد بن سليمان ابن فركون القرشي نقلًا عن ديوان ابن الشاعر دون ذكر اسم المصدر).

(2) كما أرسلوا قصيدة يستجدون فيها أهل الإسلام من أهل مصر وغيرها، مطلعها:

حِمَاةُ الْهَدْيِ سَبْقًا وَإِنْ بَعْدَ الْمَدَى	فَقَدْ سَأَلْتُمْ نَصْرَهَا مَلَّةَ الْهَدَى

(ديوان ابن فركون تقديم: د. محمد بن شريفة، ص 91، نقلًا عن شذرات الذهب: 124/7).

823هـ، ذيلوه بهذه الأبيات الشعرية يستجدونه ويدعونه للجهاد موجّهين إليه
«النداء المقدس»:

يا مالكا قد صانَ بيضةً مغرباً
بضوارمٍ وصوارمٍ وجنودٍ
هتك النصرى علينا حرمة سبتة
غدرًا بنقض موثّق وعهود
غدرونا فجر عروبة بصناديق
حطت صناديد صرعة كقرود
ألفان في ألفين من أبطالهم
عظماء أجسام طوال قدود
فقصدنا بابك ضارعين لبوسنا
أخمار من شعر ونعل سود
فعساك تجبر صدع قوم خانهم
دهرٌ كسا لكل ثوب يهود⁽¹⁾

(1) ولكن الملك الضعيف أمر نديمه عبدالرحمن بن عبدالعزيز البجائي بكتاب، تضمن عجزه عن تلبية
نجدتهم وذيله بأبيات شعرية:

فلقد عجزت عن الدفاع كمن مضى	من غر آباء وأسمى جدود
هل صبت صولة من تأخر في المدى	كالسابق السامي لأنهي جدود
إذ لولا سر الباري في أحكامه	ساوت ضباع مقابر لأسود

فجاء شعره سقيماً وخائراً كصاحبه الخامل المتفاني، الذي ينبئ عهده بانقراض دولته. وقد ينسب
لأبي عنان:

وإذا تصدر للرئاسة خاملٌ
جرت الأمور على الطريق الأعوج
انظر: محمد بن القاسم السبتي: اختصار الأخبار، ص 76 - 78.
- مجموعة رسائل سعدية وعلوية م. خ. ح (12598) ص 127 - 128.
- محمد بن تاووت: سبتة الأسيرة (نقلاً عن وثيقة تاريخية نشرها محمد إبراهيم الكتاني) - مجلة
البحث العلمي عدد: 27، ص 139 - 140.

ويظل أهل غرناطة⁽¹⁾ يتطلعون دائماً إلى استرجاع ما سلب منهم عزيز قواعدهم وجلال ملكهم، ويسلون أنفسهم بالتمني والترجي والاستجداء، لعل الله يبذل عسرهم يسراً وفتنتهم هدنة وسلاماً⁽²⁾.

(1) لما صمم ألفونسو العاشر على استئصال مملكة غرناطة وقرر حصارها سنة 663هـ، أصدر أبو القاسم محمد العزفي أمير سبتة رسالة وجهها إلى الحكام والقبائل المغربية يستنفرهم بها للجهاد بالأندلس. يقول في مستهلها: «أما بعد حمداً لله مفترض فرض الجهاد، وجاعل الجنة تحت ظلال السيوف الحداد» ثم يتساءل: «أفي حق عباد الله، أن تزهدوا في الجهاد وتناموا عن الكفرة وأعينهم منكم في سهاد وتسلموا من بالأندلس من المسلمين إخواناً في الله.. وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، والتهلكة هي ترك الجهاد». وبعدما يشرح مغزى الجهاد يقول: «فالبدار لا بدار، ولم لا نرسل في الجهاد الأئمة ونعمل في النيات الصوارم والأسنة ونستوهب من الله النصر». قال رسول الله ﷺ: «من لم يغز أو يجهز غازياً أو يجلب غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة يوم القيامة». ثم يسوق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الجهاد. ويعدها يحرض الناس على الجهاد ويلهب حماسهم قائلاً: «إن في الحق عباد الله ألا تزهدوا في الجهاد وتناموا عن الكفرة وأعينهم منكم في سهاد وتسلموا من بالأندلس من المسلمين إخواناً توالونهم ويوالونكم.. فانفضوا رحمكم الله إليهم متقدمين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين... فقوموا لله مقاماً محموداً وحرضوا على الجهاد عن أرجائكم وقدموا إلى الله تعالى صدق التجائكم وأرجو الله أن ينصر هذا الدين بسيوف العصابة من بني مريـن الليوث الظافرة ولهم الأعداد الوافرة والجموع المتكاثرة...». «والملة الحنيفة تنادي بلسان حالها: أيها المؤمن هل من عزم من الله تمضيه وغضب لجهاد أعدائه تنزيهه وموطن بغياط الكفار يتقبله الله ويرتضيه».. (محمد المنوني: الحياة الأدبية في العصر المريني الأول: الأدب البطولي (نقلاً عن الرسالة العزفية المثبتة في «المصدر» ص 102 - 108).

- دعوة الحق عدد: 256 - ماي 1986 - ص 50، - عبدالله كنون: النبوغ المغربي، ج 2، ص 154 - 164).

(2) من الأصوات الأندلسية التي ارتفعت للحض على الجهاد صوت الصوفي الشاعر ابن عبيدس النفزي. فقد وجه قصيدة إلى ابن هود يعدد فيها الحصون التي حاصرتها الجيوش الإسبانية ويشكو إليه حالها ويدعوه للدفاع عنها. مطلعها:

أمر المسلمين إليك تشكو
بلاد قد أضربهن شرك

إلى أن يقول:

أمر المسلمين غياث نصر
لأنـدلس فقد هتكت بضر
وقد نادتك فاسمعها مجيباً
لتنصرها بنصر أي نصر
فبادر بالخروج إلى عدو
لتحظى بالسعادة بعد ظفر

(د. محمد بن شريفة: من أعلام التصوف في القرن السابع: ابن عبيدس النفزي - كتاب في النهضة والتراكم، ص 232 - 233 نقلاً عن نزهة الألباب، ص 71).

وكان الناطق باسمهم هو ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب. ذلك أنه لما توفي يوسف أبو الحجاج سنة 755هـ زادت منزلة ابن الخطيب عند ابنه الغني بالله محمد بن يوسف. ولما قام شقيقه الأمير إسماعيل عليه وخلعه، دارت الدائرة على ابن الخطيب فتشفع له السلطان أبو سالم المريني لإطلاق سراحه والسماح له بمرافقة الغني بالله⁽¹⁾، الذي طلب استقدامه للمغرب. ولما وصل إلى أم القرى (فاس) صحبة «الملك المخلوع»، وصحبه أنشد ابن الخطيب أمام أبي سالم إبراهيم بن الحسن المريني «صاحب المغرب» قصيدة في محفل مشهود وجمع محمود من أشياخ بني مرين وأعلامهم، «يستصرخه لمولاه» ويدعوه لنصرته ويستحثه لمظاهرة على أمره، مستعطفاً مسترجعاً ومستفجعاً ومتألماً ابتغاءاً للهدنة ورفعاً للفتنة، حتى يسترجع سلطان قوته وشدته، ويعود لينقذ «الفردوس المفقود» مما أصابه. مطلعها:

كما رفع ابن عبيدس قصيدة أخرى في نفس المعنى إلى أبي عبدالله محمد بن نصر - يستجده فيها - وكلها تفيض مرارة وحزناً على ما حل بالأندلس، مطلعها:

أمير المسلمين ألا تعود فأندلس بها مرض شديد
إلى أن يقول:

فهل من يقظة تحيي نياماً فأيقاظ الجهالة هم رقود
وما الكفار إلا في عذاب وقد كشف الغطاء فلا محيد
وما الإسلام إلا في نعيم توارثه الأكابر والوليد

(المصدر السابق، ص 235 - 236، نقلاً عن مخطوط بخزانة القرويين).

وقد نشر عبدالقادر زمامة هذه المخطوطة مع دراسة حولها في مجلة المناهل عدد 26، ص 291 - 298. (1) كانت تربط السلطان المخلوع بأبي سالم علائق ود وصداقة، إذ سبق لأبي سالم أن لجأ إليه لما تغلب عليه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم محمد الغني بالله مثواه. ولما وقع له ما وقع رعى له أبو سالم عهد الصداقة واستقدمه إلى المغرب صحبة وزيره ابن الخطيب وأكرم وفادتهما. (د. عبدالله عنان: نهاية الأندلس، ص 106).

وفي هذا اللقاء توطدت أيضاً العلاقة بين ابن خلدون - كاتب السر والإنشاء لأبي سالم - وابن الخطيب «شاعر الدنيا».

لقد عاش كلاهما في نفس القصر، وخاضا كلاهما غمار السياسة، وتقلب في حياة القصور، وتبوأ ذروة السلطان، وذاق محنة الاعتقال والنفي، وجمعت بينهما الصداقة والتقدير المتبادل، وتخللت صداقتها عوامل الغيرة والنفرة في بعض الأحيان (انظر محمد عبدالله عنان أندلسيات - كتاب العربي عدد 20، ص 59).

سلا هل لديها من مخبرة ذكر
وهل أعشب الوادي ونم به الزهر⁽¹⁾

إلى أن يقول:

زجرنا بإبراهيم براء همومنا
فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخبٍ من آل يعقوب كلما
دجا الخطب لم يكذب لعزيمته فجر
قصداً يا خيرَ الملوك على النوى
لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه
مهيض ومن عليك يلتمس الجبر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
بيالمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره
ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر
وانت لها يا ناصر الحق فلتقم
بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
يكف بك العادي ويحيى بك الهدى
ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر

(1) يقول الدكتور عبد الهادي التازي في تعليقه عن الاستجداد بمدينة سلا: «ينبغي أن نتساءل عن اختيار سلا كمدينة لهذا الاستجداد مع أن الشاعر كان يقول شعره بمدينة فاس حيث بلاط بني مرين. هل أن الأمر يتعلق بوزن الشعر، أم أن هناك سرّاً يكمن وراء اختيار هذا الثغر...» (ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، ص 67، مجلة كلية الآداب بتطوان عدد: 2 خاص بندوق ابن الخطيب - 1987م).

وهم يرقبون الفعل منك وصفقة
 تحاولها يمينك ما بعدها خسر
 ومن دون ما تبغيه ما ملك الهدى
 جياذ المذاكي والمحجلة الغر
 وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة
 مطهمة غات بها الأنجم الزهر
 وأسد رجال من مرين مخيفة
 عمائمها بيض وآسالها سمر.⁽¹⁾

وقد صدرت لابن الخطيب في هذا المضمار - لما كان مستجيرًا بالمغرب - رسالة شعرية لكافة المغاربة في الاستنفار للجهاد عنوانها: «كلب العدو الكفور وظهوره على بعض الثغور»، مستعملًا العاطفة الدينية التي تربط بين المسلمين. منها:

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا
 فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفأ

(1) المقرئ: أزهار الرياض، ج 1، ص 196 - 200.

هذا ولما عاد الغني بالله إلى الأندلس نظم ابن الخطيب بسلا لاميته الرائعة الجامعة: «المنح الغريب في الفتح القريب» وجهها إلى ابن الأحمر برندة لما طالب بحقه في الأندلس قبل الفتح، وأنشدها بين يدي أبي سالم بعد الفتح. ولما تمكن من الالتحاق بالأندلس أنشدها من جديد أمام العاهل الغرناطي مطلعها:

الحق يعلو والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل
 وإذا اغمدك الإله بنصره وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل؟

ومنها في مدح بني مرين وأبي سالم إبراهيم المريني:

مثنى بني يعقوب أسباط الهدى وسحائب الرحمن التي تستنزل
 ودعائم الدين الحنيف إذا وهت منه القوى واختل منه الكلكل
 وكفى بإبراهيم بدر خلافة تعنو لغرته البذور الكمّل
 وكفى بإبراهيم ليث كريمة يعنو لغرته الهزير المشبل
 أغنى وأقنى واعتنى وكفى العنا وأعان فهو المنعم المتفضل

(ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 287 - 297).

وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (ج 6، ص 478) بعضها وفي أزهار الرياض (ج 1، ص 262 - 264) البعض الآخر منها.

وقد بلغ الماء الزبى فتداركوا
فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان أندلس العدا
فلهفًا على الإسلام ما بينهم لهفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب
فلا وزرًا عنهم وجدنا ولا كهفا
فهل ناصر مستنصر في يقينه
يجير من استعدى ويكفي من استكفى
ومستنجز فينا من الله وعده
فلا نكت في وعد الإله ولا خلفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا
قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
وهل بائع فينا من الله نفسه
فلا مشترٍ أولى من الله أو أوفى
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا
وهبوا لنصر الدين فيها فقد أشفى
وها نحن قد لذنا بعز حماكم
ونرجو من الله الإدالة واللفا
وسيلتنا الإسلام وهو أخوة
من الملائ الأعلى تقربنا زلفى⁽¹⁾

(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام، ص 628 - 630. د. مفتاح، ديوان ابن الخطيب، ص 677 - 678.

وهكذا كان يعتمد ابن الخطيب الشعر وسيلة للدفاع عن سلطانه ابن الأحمر، والاستجداء بالبلاط المريني لاسترجاع ملكه، ولما يتخلص لمدرح سلطان المغرب في قصيدته، فإنه كان يركز «مدحه على معاني النجدة والغوث والوفاء ورعاية العهد»⁽¹⁾.

ويستنجد يوسف الثالث ملك غرناطة نفسه أولياء بني مرين (في عهد أبي سعيد عثمان)، ويوجه إلى «أمة المحراب والحرب» نداء المغلوب على أمره:

إلى الله أشكوها نوى قذفت به
تعودُ على الشاني بكف عناده
حياطةً هذا الثغر أضحت ملاذه
وتمهيده ما قد عصى من بلاده
ففي المغرب الأقصى أقامت جنوده
تضمن نصر الله غر جياده
فيا راكبَ الوجناء في طلب العلى
سيكفيك ردلاجي وحث اجتهاده
ويا أمةَ المحراب والحرب أخلصوا
لسامع نجوى حيه وجماده
وكونوا لفتح المبهمات وسيلة
يدين لها حزب العدا بانقياده
فما خاب من كان الإله نصيره
على قربيه أو موحش من بعاده⁽²⁾

(1) د. جمعة شبيخة: «القيمة الوثائقية للنص الشعري من خلال شعر الوزير ابن الخطيب» مجلة كلية الآداب بتطوان، ع 2، ص 298. ولم يكتف ابن الخطيب بتوجيه النداءات الشعرية لبني مرين، بل كان من حين لآخر يوجه إليهم الخطابات النثرية لمدوا إخوانهم الأندلسيين بالمعونة والنجدة (انظر مثلاً الرسالة التي أنشأها على لسان سلطانه إلى بعض العلماء «حاثاً إياهم على الجهاد الذي يعتبر أفضل من الحج» (انظرها في المقرئ: النفح، ج 1، ص 186 - 190).

(2) يوسف الثالث (ملك غرناطة) الديوان، ص 62 - 63 (تحقيق: ع. كنون).

ويوجه يوسف الثالث نداء الاستغاثة مرة أخرى للملك بني مرين حماة المقيمين
ليغيثوهم «بسيوف الجهاد»:

أبني مرين والحماية شأنكم
وبكفكم سيف الجهاد يجرّد
إنَّ «السعيد» إذا تمهّد ملكه
عدتم لنا والعود منكم أحمد
أوطانكم إخوانكم وبلادكم
عودوا ووعدكم القديم فجددوا
قوموا إلى نصر السعيد حماية
فالدين إن لم يجمعوه يبدد
جدوا فإننا ناظرون إليكم
والله يعلم والملائك تشهد
إنَّ النصراري قد تجمع شملها
فعسى ببأس سيوفكم تتبدد
وتروعه منكم سيوف حماية
يجلو دجاها يوسف ومحمد
أخوين قد قاما بنصرة دينه
فالدهر يبلو والثناء يخلد⁽¹⁾

وحتى في الوقت الذي كانت الأندلس تلفظ نفسها الأخير، جاء آخر ملوكها
من بني الأحمر الأمير الغرناطي المذكور أبو عبدالله محمد إلى المغرب مع جمهرة

(1) المصدر السابق، ص 64 - 66. ولم يكن ملك غرناطة مستقرًا في موقفه إزاء أبي سعيد عثمان
المريني (الملك الصغير)، فتارة يمدحه ويستجده به وتارة يفتخر عليه بعبارات نابية «خوفًا منه على
مملكته شأن أسلافه من قبله في خوفهم من أسلاف أبي سعيد الذين جرت بينهم منافسات على
جبل طارق» (ع: كنون: ديوان ملك غرناطة، ص: غ - ف).

من أقطاب العلم والأدب والفكر بعدما أخذت منه مدينة غرناطة قهراً، فنزل بمدينة امليلية، ثم بمدينة فاس «معتذراً عما أسلفه متلهفاً على ما خلفه»، وبعث برسالة مؤثرة إلى سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي سماها: «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» (كانت بمثابة الدفاع الصريح والبيان الفصيح) «مستظلاً فيها بلوائه ورعايته، ومعتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يده، ومتهرباً مما نسب إليه من ظروف التفريط والخيانة».

وقد افتتح رسالته بقصيدة من نظم وإنشاء وزيره وكاتبه محمد بن عبدالله العربي العقيلي متوسلاً فيها أن يجيره ويعينه على رفع الضيم الذي أصابه بعدما شعر بثقل مسؤولية سقوط الأندلس على عاتقه، وبفداحة التبعة التي يتحملها أمام التاريخ الإسلامي:

مولى الملوك ملوك العُربِ والعجم
رعيًا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
جار الزمان عليه جور منتقم
حكم من الله حَتْمٌ لا مردَّ له
وهل مردُّ لحكم منه منتحم
ثم يقدم «شبه اعتذار» للإمام الوطاسي ويبرر له موقفه وخذلانه:
كنا ملوكًا لنا في أرضنا دولٌ
نمنا به تحت أفنان من النعم
فلا تنم نحن ظل الملك نومتنا
وأي ملك بظل الملك لم ينم
فأيقظتنا سهام الردى صيب
يرمي بأفجع حتف من بهن رمي

فما أطقنا دفاعاً للقضاء ولا

أرادت أنفسنا ما حلّ من نقم

ويتقدم بنصائح للملك الوطاسي، متمثلاً بأمثلة من تاريخ الملوك السابقين:

ولا تعاتبْ على أشياء قد قدرت

وخطّ مسطورها في اللوح بالقلم

إلى أن يستعطفه ويستغيث به:

رحماك يا راحماً ينمى إلى رحماً

في النفس والأهل والأتباع والحشم

إيه حنانيك يا ابن الأكرمين على

ضيفِ ألم بفاس غير محتشم

فكم مواقف صدق في الجهاد لنا

والخيلُ عاكّةُ الأشدّاق للجم

والسيفُ يخضب بالمحمر من علق

ما ابيضّ من سبل واسودّ من لم⁽¹⁾

ثم يعطف بمديح ملوك فاس والإشادة بعلاقاتهم القديمة مع بني الأحمر

ملوك غرناطة، ويوجه نداء إلى أهل المغرب ليلتفوا حول سلطانهم:

فشيعوه ووالوه تروا عجباً

وتظفروا معه بالأجر والغنم

وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت

بحبله بوثيق غير منفصم

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج 6، ص 281 - 283.

دامت ودام لها سعد يساعدها
في كل مبتدأ منها ومختتم
ولكن هيهات! هيهات!.

وقد بقي بعض الشعراء يوصون ملوك المغرب بالأندلسيين النازحين خيراً. من
ذلك قصيدة الشاعر أبي العباس أحمد الصنهاجي الأندلسي المعروف «بالدقون»
(المتوفى سنة 921هـ) خطيب جامع القرويين، وقد أطلق عليها اسم: «الموعظة
الغراء بأخذ الحمراء»⁽¹⁾ مطلعها:

أمنت من عكس آمال وأحوال
وعشت ما بين أعمام وأحوال
وكيف لا وبقاع الدين خالية
من أرض أندلس من أجل أهوال
يوصي فيها أهل فاس بالأندلسيين النازحين من الفردوس، الذي أصبح في
حكم المفقود. فبعد ما وصف الشاعر كارثة ضياع الأندلس:
تالله ما زال في القلب من أسف
ولو أكون حليف المنزل الخالي
أو يفتح الله في نصر يمن به
فالله باق يقي من كل محتال
سطا بجيش كموج البحر في عدد
نعم وفي عدد من رهط أبطال

(1) اعتبر الشاعر حمدون بن الحاج أخذ «الحمراء» أي الأندلس بمثابة مصيبة لا أعظم منها إلا وفاة
الرسول ﷺ. «وقد كثرت فيها المراثي وتنافس في شجوها القرائح وبكاها الغادي والرائح» (محمد
الطالب (حمدون) بلحاج: رياض الورد، م. خ. ح (12415) ص 97).

والمسلمون من الأضغان قد ملئت
قلوبهم وأَبَوْا تسديد أخلالٍ
سدوا مسالك أرزاق ومنفعة
كدودة القز في نسج لسريال
ثم استغاثوا: ألا فرسان عادية
قال الصدى: لست ذا رمح ونبال
«والصيف ضيعت» ما أملت من لبنٍ
ففارق الجبح من تدخين نحال
واحتل غرناطة الغراء قد عدمت
حب الصيد ونصر الله والال
فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم
كمثل عادٍ وما عاد بأشكال
ثم ينشد متأوهاً ومستعطفاً أن يعنى بهم:
أه على الدين والدنيا وما نفعت
أه إذا صدرت من قلب بطل
إننا إلى الله والرجعي له وبه
تعلق القلب في «تصحيح اعلال»
فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا
فالدهر ذو دول فاسمع لأمثال
إذ ولا قدرة تدني المنى فلهم
حق الجوار ولا توصف بإهمال

نلقاهم ولنا بشر ومعدرة
ورحمة يا حماة العمّ والخال
إخوانكم رفعوا أيدي الضراعة مع
كسر القلوب فلا يلقوا بإخمال
ثم ينيه الشاعر إلى هذا النذير الذي لا يبشر بالخير:
هذا النذير جهاراً جاء يندرنا
والأذن في صممٍ عن قيلٍ أو قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا
نمشي على مهلة من طول إمهال
يا أهل فاسّ أما في الغير موعظةٌ
إن السعيد لمعوّظ بأمثال
فقل تعالوا إلى نصيحٍ وتذكرةٍ
فالأمر جدٌ فلا تصحب لمكسال
كيف الحياة إذا الحيات قد نفحت
على السواحل أو همت بإرسال
وينصح الشاعر مسلمي الأندلس بالهجرة إلى المغرب هروباً من الذل والهوان:
واربأ بنفسك عن أرض تُهان بها
فحيثما كنت لا تخشى من إقلال
والهجرة الآن قد عادت كما سبقت
فافهم تفاصيل أقوال وإجمال
فالموت عندي خيرٌ من حياة فتى
قد اكتسى بعد عزٍّ ثوبَ إذلال

وأخيراً يفوض الشاعر أمره إلى الله:

ليقضني الله أمراً كان قدره

والأمر لله في قول وأفعال⁽¹⁾

ولما عقد محمد الشيخ الوطاسي في عهد دولته هدنة مع البرتغال في عهد ألفونشو الخامس، تمزقت الوحدة السياسية بالمغرب أمام مهادنة الوطاسيين للعدو البرتغالي تارة ومقاومتهم تارة أخرى. فقام زعماء الجهاد والعلماء ينتقدون هذه السياسة ويضايقون الجيش البرتغالي في عدة أماكن من المغرب. وقد نظم أبو عبدالله محمد الكراسي منظومة رائعة جامعة سماها: «عروسة المسائل فيما

(1) المقرئ: أزهار الرياض، من ص 104 إلى ص 108.

هذا ومن نافذة القول أن أهل الجزيرة لما ضاق بهم الحال ولم يهدأ لهم بال وجهوا رسالة إلى مركز من مراكز القوة الإسلامية الأخرى في ذلك التاريخ لينظر في أمرهم ويساعدهم على شد الرحال إلى «الغرب الإسلامي» والهجرة إليه، كما نصحهم بذلك شاعرهم «الدقون». ذلك أنهم وجهوا رسالة شعرية إلى أبي زيد (أو با يزيد) خان العثماني «سلطان الإسلام والمسلمين وحامي الديار وقامع الكفار»، لا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد مجردة على أعداء الدين، من بأسها ما يروي صدور السمر والصفاح وألسنة السلاح.. وبعدما يصفون في رسالتهم الشعرية للسلطان التركي مصابهم العظيم بعد استيلاء الكفار على بلادهم، يقدمون له شكواهم على ما أصابهم من «الضرر والبلوى وعظم الرزية»، ومن جراء جهادهم فيهم:

ونلقى أمورا في الجهاد عظيمة
وبقتل وأسر ثم جوع وقلة
وما يكابدونه من أهوال: تنصير وإحراق للمصاحف وتحويل المساجد إلى كنائس ومعاقل حتى يجبروا على الفرار إلى «العدوة الأخرى» (أي المغرب):

ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا

بما شاء من مال إلى أرض عدوة

ومع ذلك:

ودين رسول الله ما زال عندنا

وتوحيدنا لله في كل لحظة

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا

ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة

ثم يقدمون شكواهم ورغبتهم في الجلاء عن ديار عمها الكفر إلى «دار الأحبة».

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم

فهذا الذي نلقاه من شر فرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا

كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيجلونا جميعا من أرضهم

بأموالنا للغرب دار الأحبة

فإجلأونا خير لنا من مقامنا

على الكفر في عز على غير ملة

(المغرب)

(المقرئ: أزهار الرياض، ج 1، ص من 109 - 114).

لبنى وطاس من الفضائل»، وصف فيها حالة المغرب الخطيرة والسيئة وتحدث فيها عن الصراع القائم بين المجاهدين والحملات البرتغالية وعن المنافسة الطويلة على السلطة بين بعض الثوار والأمراء الوطاسيين، وصد هؤلاء للحكام البرتغاليين وهجوماتهم المتكررة على مصب الأنهار المغربية والموانيء، والوقوف في وجه الحركة السعدية⁽¹⁾.

(1) من ذلك صراع محمد الشيخ وحاكم أصيلة البرتغالي حول مصب وادي لكوس (عروسة المسائل، ص 15 - 16) وثورة حفيد الصوفي الكبير مولاي عبدالسلام بن مشيش (دفين جبل العلم 876هـ) (وكان ضريحه موقع اجتماع قادة الجهاد) الذي حصن مدينة شفشاون - رباط المجاهدين - (ص 18 - 19). ومن المعلوم أن المختطين لهذه المدينة هم الشرفاء الراشدين وعلى رأسهم المولى علي ابن راشد الذين قاموا بحركة الجهاد في الشمال الغربي من المغرب عند انهيار دولة بني مرين ونشوء دولة الوطاسيين، وقد جعلوها مركزاً يتحصن فيه المسلمون لمهاجمة العدو وشن الغارات عليه (ص 14) بعدما خرب البرتغاليون مدينة تطوان، ولما أعيد بناء مدينة تطوان حدث تنسيق في الحملات الجهادية، وأسس ميناء ترغة (مركز للجهاد) بناحية غمارة لتتطلق منه الحملات البحرية الجهادية لحصار الأسطول البرتغالي.

ومن ذلك أيضاً هجوم أبي الحسن المنظري - (أحد قواد بني الأحمر ملوك غرناطة ومؤسس مدينة تطوان - معقل الجهاد - بعدما هاجر إلى المغرب) على حاكم مدينة أصيلة البرتغالي (ص 21)، والصراع على السلطة الذي قام بين محمد بن محمد بن محمد الشيخ المشهور بالبرتغالي (لأنه أقام بالبرتغال سبع سنوات كرهينة بعدما أسره البرتغاليون عند احتلال أصيلة 876هـ) الذي أبدى رغبة كبيرة في الجهاد ضد النصارى المغيرين على بلاده، وبين مؤسس الدولة السعدية القائم بأمر الله (ص 22). ولقد أجاد الراجز في وصف وقعة وادي العبيد التي حدثت بين الوطاسيين والسعديين والتي على إثرها قامت دولة السعديين. وقد نظمت حول هذه الواقعة قصص ومنظومات شعبية (ص 32 - 36). وقد أشار الناظم إلى تخوف السعديين من أن ينقض عليهم البرتغاليون كما فعل الإسبان لما احتد الصراع بين أمراء تلمسان الزيانيين والأتراك الغازيين ودخلوا إلى تلمسان، لأن الملك الوطاسي كا نفي شغل شاغل لمواجهة البرتغاليين من جهة وقيام دولة سعدية جديدة من جهة أخرى. لذا:

وعاد فرض المسلمين في الجهاد ليرهب الأعداء في كل البلاد
من لم يروع كافرا في داره يروعه الكافر في قراره (ص 37)

وأتى الناظم أخيراً على ذكر ثورة أبي حسون الوطاسي على ابن أخيه أبي العباس أحمد بن محمد البرتغالي بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي حيث ثار ببإداس في الساحل الريفي، ودخل أبو حسون إلى فاس سنة 961هـ بمساعدة الأتراك. ولكن محمد الشيخ السعدي كان له بالمرصاد فهزمه وقتله. وبذلك انتهى ملك بني وطاس:

هذا مراد الله أمر سابق من قلد الملك فلا يسابق (ص 42 - 43)

(انظر الكراسي: عروسة المسائل - تحقيق عبد الوهاب ابن منصور (1963).

فكان المغرب في العهد الوطاسي⁽¹⁾ عرضة للفتن والثورات الداخلية وطعمة سائغة لأعدائه البرتغاليين، الإسبان والأتراك، الذين أحاطوا به من كل جانب، وأصبح واقفاً موقف الدفاع عن النفس والأهل والوطن لا حول له ولا قوة - وكان ذلك أضعف الإيمان - حتى شبه حال المغرب في هذا الظرف بحال الأندلس في عهد ملوك الطوائف وبحال إفريقية في عهد الموحدين والصنهاجة.

وقد انقسم مفكرو المغرب في هذا العهد إلى فئتين: فئة أثارت اللجوء إلى الاستغاثة والرتاء والبكاء على ما فات متوسلة، مبتهلة إلى الله أن يفرج الكربة ويزيل الغمة، وفئة قامت تدعو وتحرض على الجهاد وتحرير البلاد ورمي الكفار في البحر⁽²⁾. وكانت هذه الفئة مؤلفة من العلماء والفقهاء الذين شاركوا في حركة الجهاد بالخطب والدروس والتأليف في أحكام الجهاد وفضائله، وفي جمع الأموال لصرفها على شؤون الجهاد والإفتاء في كل متعاس عن الجهاد بالكفر والخيانة⁽³⁾، وكذلك من الشعراء الذين نظموا قصائدهم الزجلية في التحريض على خوض معارك التحرير والإنقاذ.

وقد برز من بين هؤلاء الناضمين الذين فتحوا «باب أدب خاص»، خاطبوا به أفراد الشعب: الإمام محمد بن غازي المكناسي الذي كان يحارب ويرابط، ويجاهد بنغور المغرب التي دهمها العدو في آخر عهد الدولة المرينية كإغارته على «الكفرة» بأصيلا؛ وشيخه أبو محمد عبدالله الوريانلي، الذي كان يربط بالثغور صيفاً وخريفاً (حيث شارك مع السلطان «محمد البرتغالي» في الإغارة

(1) بنو وطاس فرقة من قبيلة بني مريـن الزناتية، تولوا الملك بالمغرب مدة ثلاثة قرون. (انظر الاستقصا للناصري، ج 4، ابتداء من ص 96).

(2) البوخصيبي: أعضاء على ابن يجيش، ص 12.

(3) كآبي محمد عبدالله الوريانلي الذي كان قاصدا الحج، فلما علم أن النصاري تغلبوا على أصيلا وطنجة لازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله. (الناصري: الاستقصا، ج 4، ص 111 - 114). وكالشيخ أبو عبدالله محمد بن عسكر الذي أشاد في «دوحته» بكثير من العلماء والصلحاء والمجاهدين كابن يجيش، وعلي بن عثمان الشاوي الذي استشهد في معركة ضد البرتغاليين قرب أصيلا وهو يردد بردة البوصيري (ابن عسكر: الدوحة، ص 28).

محمد ابن سليمان الجزولي (م سنة 870هـ) الذي حمل لواء الجهاد وتصدى للغزاة الإيبيريين، صاحب «ولائل الخيرات» وواحد من سبعة رجال مراكش. ولما حث على الجهاد والمواجهة الدخيل الأجنبي، كثر أتباعه وكان يردد: «دولتنا دولة المجتهدين» (د. حسن جلاب: «سبعة رجال مراكش» - بتصرف).

على نصارى أصيلاً)، وكان يشتغل بالتدريس فصلي: الشتاء والربيع⁽¹⁾؛ ومحمد ابن يحيى البهلولي الذي كرس حياته للجهاد ونظم القصائد الفصيحة والزجلية للتحريض عليه والترغيب فيه.

من ذلك قوله يخاطب أبا عبدالله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي (المعروف بالبرتغالي) - والذي ببيع سنة 910هـ جاعلاً من نكبة الأندلس موعظة لمن يتعظ:

قم للجهاد رعاك الله منتهجاً
نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتدماً
لو كان يمكنني في الليل احتزم⁽²⁾

وله من قصيدة أخرى يخاطب بها نفس السلطان السعدي:

قل للأُمير محمد
يا طلعة الهلال
لويالة في السواحل
من أفضل الليالي

ومن بينهم أيضاً الشيخ الإمام عبدالله الهبطي⁽³⁾ الذي كان يدعو إلى الجهاد وتلبية نداء الواجب منبهاً إلى ما كان عليه السلف الصالح من تسابق للاستشهاد في

(1) عبدالله كتون: مشاهير رجالات المغرب، عدد 12.

(2) الناصري: الاستقصا، ج 4، ص 112 - 113 (نقلا عن الدوحة لابن عسكر).

(3) كان الشيخ عبدالله الهبطي متضلعا في التصوف وعلوم الشريعة وأصول العقيدة وكان ركنا من أركان الطريقة الجزولية. كان يطوف بنفسه في القبائل أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ومحاربا البدع والمنكرات، وقد تحمل الأذى في سبيل دعوته من طرف الحكام. للهبطي منظومات تشنح بالعوائد الضالة (أهمها الألفية السنية). ورسائل كان يبعث بها لمختلف الجهات يحث فيها على جهاد الصليبيين المحتلين. (انظر: عبدالقادر العافية: الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص 373). وقد نظم ابنه محمد الصغير الهبطي المتوفي سنة 1001هـ. والذي تولى القضاء في عهد المنصور السعدي منظومة في ترجمة والده سماها: «المعرب الفصيح». وهي غنية بالمعلومات، وتصور جوانب عدة من الحياة الاجتماعية المغربية في القرن العاشر الهجري. وتوجد في ملكية أحد الباحثين بمكناس. (انظر: عبدالقادر العافية: مخطوطة «المعرب الفصيح» - مجلة دار النيابة، س 3، عدد 10، ص 18 - 20، ربيع 1986).

معارك الجهاد، وما آل إليه الأمر في المغرب من تقاعس وتخاذل واستسلام. ففي باب «ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغيير الإيمان» قوله في ألفيته السنية:

إن الجهاد أكبر المعين
عليه تنبني أمور الدين
لذات ربنا العظيم الخالق
الواحد الحميد نعم الرازق
كانت تباع النفس دون ريب
بالذة عظيمة في القلب
وعندما مال إلى الزوال
دين الهدى ذو العزّ والمعال
انتثر الإيمان قل من عقده
شيئاً فشيئاً بانقضاء ذره⁽¹⁾

وكان من أبرز هؤلاء الشعراء «العروضي النحوي الفقيه الصوفي الثائر» أبو عبدالله محمد بن عبدالرحيم المعروف بابن يجيش التازي⁽²⁾. فقد شارك هذا الناظم في معركة الجهاد بتأنيته المشهورة: (تنبية الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزكية، وقمع الشرذمة الطاغية).

أبى القلب سلوانا ومن لي بسلو
ونومي جفا من أجل ما في مقلتي

(1) عبدالله الهبطي: «الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية» - «باب ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغيير الإيمان» - م. خ. ح (2808)، ص 10.
(2) كان ابن يجيش عروضيا وفقهيا مجاهدا وصوفيا ثائرا. توفي مكلوما سنة 960هـ لما احتل البرتغاليون المعمورة (المهدية) - (انظر: «أضواء على ابن يجيش»). وكان من أشهر علماء تازة (معقل المجاهدين)، ولا يضاهيه في شهرته إلا علي بن بري من العصر المريني. له تأليف حرض فيه على الاستشهاد «لإبقاء أرض المغاربة للمغاربة، وقد كتبه شعرا ونثرا». ولما قرأه المجاهدون المغاربة كان النصر حليفهم في موقعة وادي المخازن. (محمد العلوي الباهي: علماء تازة ومجالسهم العلمية، 2004).

ولم أستطع صبرًا وكيف يصح لي
وقد هتكت من ديننا كل حرمة
وشاركنا الأعداء في قطر غربنا
وقد أخذوا كل البلاد البهية

ويشرح الشاعر الناظم في قصيدته أسباب تأسيه وحسرتة التي مردها
انشغال المسلمين بالتعلل والتمني والغروق في اللذات. ثم يستغيث بأهل الجد
والعزم لنصرة دينه ورد هجوم الطامعين والمغتصبين بكل حزم وإباء:

واندب أهل الجد والعزم قائلًا
عليكم بنصر الدين يا خير أمة
وقوموا بجد للعلا فلقد طغوا
عليهم من القهار أعظم لعنة
وقد جمعوا ما لا يقدر وصفه
وراموا لكم إخفاء كل خديعة
فكيف يكون الأمر من حال مكرهم
وقد طمعوا فيكم بإدراك فرصة
ولم يقنعوا مما سبوا من بلادكم
وإخوانكم في حين تلك القضية

ويظهر من هذا البيت الأخير ما كان يشغل بال الناظم مما آلت إليه الدولة
الإسلامية بعد سقوط بغداد والأندلس والسواحل المغربية في يد أعداء الإسلام
والمسلمين. ثم يسوق الناظم وصفًا لما آلت إليه أوصيلا بعدما فعل البرتغاليون بها

ما فعلوا - كما فعل الإسبان بالأندلس⁽¹⁾ - متخوفاً من استئساد البرتغاليين وتواكل المغاربة، مقلداً في ذلك الرندي في نونيته المشهورة قائلاً:

فقصة أصيلاً عرفتكم جميعاً
وما فعل الأعداء من شر عدوة
وأضحت على الإسلام تبكي رسومها
كذي سكن قد صار في دار غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلها
كأن لم يكن فيها مررد سورة
صوامعها قد عطلت عن أذانها
كأن لم يكن فيها أذان مصوت
فما العيش بعد الذل إلا سفاهة
وضعف يقين عند أهل البصيرة
فبالأمس كانوا كالملوك بأرضهم
وقد أصبحوا مثل العبيد الأذلة

ثم يستغيث مرة أخرى ويتوسل بأولياء النصر، ويتساءل عن مصير ذوي البأس والشدة ماذا أقعسهم عن النجدة؟.

أيأ أولياء النصر يا آل غربنا
بكم تضرب الأمثال في كل بلدة

(1) يربط دائماً شعراء الجهاد بين كارثة احتلال أصيلاً من طرف البرتغال واحتلال الأندلس الإسلامية من طرف الإسبان. وعندما يسترجع أمير مغربي حصناً من الحصون المغربية يتمنون أن يسترد أيضاً الأندلس. من ذلك أن شاعر السعديين الفشتالي لما هنا المنصور السعدي باسترجاع أصيلة من يد البرتغاليين استجده به ليعيد فتح الأندلس:

أوطي جيوشك أرض أندلس فقد	نذرت تطيعك كي يوفي نذرها
واحصد رؤوس المشركين بها فقد	آن الحصاد لها وأرطب بسرها
واملك جميع الأرض وهي وراثة	واليكم بالفتح يسند أمرها
(الفشتالي: مناهل الصفا، ت: كنون، ص 52 - 53). (المقري: روضة الآس، ص 133).	

وأنتم هم الشجعان في شدة الوغى
وأنتم هم الأبطال عند الحقيقة
فكيف يضيع المستجير بجاهكم
وأنتم ملاذ الخائف المتشبت
وأسلافكم لم تأل عن مستغيثها
على نهجهم فامضوا بصدق عزيمة
وكم من جيوش أوردوها حتوفها
وكم فرقوا في دهرهم من كتيبة
وأين أسود الغرب أين رجاله
وأين ذوو الخيل العتاق الأعزّة
وأين ذوو البأس الشديد الذين هم
لهم في مجال الحرب أعظم نجدة

ثم يخاطب النازم «معشر الإخوان» بأسلوب يحرضهم على استرجاع العزة والكرامة، وتحدي المكر السيء بالإرادة القادرة والعزيمة المتوقدة:

وقل معشر الإخوان هذا عدوكم
طغى واعتدى والقلب في حال كربة
ألا من له في الدين عزم وقوة
ويذهب عنا ما بنا من معرّة
ألا من يبيع النفس في طلب العلا
ويرغب في نيل الأمور السنيّة

ويطلب النازم أخيراً من معشر المجاهدين أن يعدوا لذلك العدة الوافرة الوافية:

أعدوا لهم من قوّة كل عدّة
وصولوا عليهم باجتهاد وفرقة

ولا تدبروا عند القتال فمن يمت
شهيداً ينل من كل خيرٍ ونعمة
وقد وعد المولى بنصر عباده
إذا نصروا الدين المتين بقوة
فهذا لسان الحال يدعو مخاطباً
لمن فيه من أهل الوفا بعض همة⁽¹⁾

فجاءت هذه القصيدة الفريدة مرآة لما يخالغ نفس شاعرنا من تدمر وغضب
وأسى وتفجع، لما أصاب مدينة أصيلا والشواطئ المغربية من اختلال وغصب وما
سيعقب هذا الاحتلال من مصائب وأهوال كانت الأندلس - والأمر ليس ببعيد -
مسرّحاً لها. فقام يستنهض الهمم بكل قواه، ويوقظ العزائم، ويدعو إلى الجهاد
لرد الصاع صاعين وللإستشهاد في سبيل الله - بدلاً من فناء الوقت في الترجي

(1) توجد هذه القصيدة في مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 1296 دون ترقيم لصفحاتها. وفي
كتاب البوخصيبي: أضواء على ابن يجيش التازي من ص 145 إلى ص 152. وهي تذكرنا بقصيدة
أهل الجزيرة الأندلسية الموجهة للسلطان التركي السالفة الذكر مضموناً ووزناً وقافية.
ومن قصائد شاعرنا الصوفية في الجهاد والحث عليه قوله:

وجل إلينا قاصداً متجرداً	وعاملنا بالصدق واطرح الكونا
وجاهد فينا للعدو وحزبه	وخالف حظ النفس واستجد العونا

وقوله:

على رغم أنف الحاسدين من العدى	وكل عدو من شأن الدهر ماكر
فمن رب العرش تبديد شملهم	وعكس الذي راموه فالله قادر

(عبد العزيز غوردو، المثقف «العضوي» بالمغرب الحديث - منطقة تازة نموذجاً، مجلة أمل عدد 28 -
29، 2003).

ولشاعرنا ابن يجيش كتاب اسمه «تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزكية» تطرق فيه
لباب «الجهاد» وساق فيه جملة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مستفراً بذلك الناس للدخول
في معركة الجهاد ومشعراً بالخطر الداهم الذي يهدد دولة المغرب ومعطياً صوراً محسوسة لذلك،
ومتفجعاً عن سوء أحوال المسلمين وما يلاقونه من مذلة وهوان على يد المسيحيين بالمغرب والأندلس،
ومتختماً بالدعاء بالنصر المبين لجيوش المسلمين. فكان أديبنا «يجاهد» بشعره ونثره ويحرض على
الجهاد لاسترجاع الثغور المحتلة لعل الله يفرج كربة المغرب ويجعل له من همه مخرجاً. (انظر عرضاً
عن هذا الكتاب في كتاب البوخصيبي: أضواء على ابن يجيش من ص 87 إلى ص 91).

والتمني - حتى يبذل الله العسر يسراً، ويقهر الظالمين وينصر المجاهدين. فأصبح ابن يجيش بدعوته لحركة الجهاد - في هذه الظروف الحالكة من العهد الوطاسي - يتزعم طبقة أهل التقى والصلاح الداعين إلى التطوع والاستشهاد، والتخلي عن الركون والاستسلام⁽¹⁾، حتى تدارك الله أمر هذه البلاد بالشرفاء السعديين الذين جاهدوا في الله ما وسعهم الجهاد.

بإزاء هؤلاء الدعاة كثر دعاة آخرون بالجنوب المغربي للجهاد ومقاومة أعداء الله كالشيخ العالم الحسن بن عثمان، والإمام محمد مبارك والشيخ علي ابن محمد الأديب⁽²⁾.

وبذلك لم يكن للمغاربة من الشمال أو من الجنوب من الشرق أو من الغرب إلا مقاومة التدخل الأجنبي، الذي قويت شوكته بالمغرب⁽³⁾، بواسطة المتطوعين من المجاهدين والجماعات من المسلمين في غياب جيش منظم وسلطة مركزية.

وفي غمرة الصراع بين الأمراء السعديين على حكم البلاد، ولما «كثر أمراء الوقت» وغابت السلطة التشريعية وتقاعست عن الدفاع عن حوزة الوطن، نظم

(1) بالإضافة إلى تائيته نظم ابن يجيش منظومة أخرى عارض بها منفرجة أبي الفضل يوسف بن محمد الأنصاري المعروف بابن النحوي التي استهلها بالحديث الشريف:

«أشددى أزممة تنفرج»	قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة	فاصبر فعسى التفريج يجي
(البوخصبي: أضواء على ابن يجيش ص 63 - 64).	
ومطلع قصيدة ابن النحوي هو:	
اشتددى أزممة تنفرج	قد آذن ليلىك بالبلج

(2) المختار السوسي: سوس العامة، ص 156.

(3) ذكر ابن عسكر في كتابه: «دوحة الناشر لما كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» أكثر من خمسين شيخاً كانت لهم صلة بالمقاومة، وأسماء الشخصيات التي شاركت بقلمها وسلاحها للدفاع عن حوزة الوطن ودين الإسلام في هذه الحقبة من تاريخ المغرب (القرن السادس عشر الميلادي). (انظر محمد مزين: «المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن السادس عشر الميلادي» - مجلة المناهل، عدد 27، ص 207).

الفقيه الثائر ابن أبي محلي⁽¹⁾ قصيدة رائية يحث فيها رجال القبائل وكذلك الأتراك
على الجهاد ضد الإسبان، وموقفًا «همما هامة وقرائح جامدة» مطلعها:

فمن مبلغ عني قبائل عامر
ولا سيما من قد توى تحت كافر
يقول منها مستغيثًا ومناشدًا المسلمين في كل مكان وأخذًا عليهم تقاعسهم
في الدفاع عن حوزة الإسلام:

ويا معشر الإسلام في كل موطن
وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم
وغيرهم بالله ما صبر صابر
ويا معشر الأتراك يا كل عالم
وكل ولي حافظ للأوامر

(1) هو أحمد بن عبدالله بن القاضي التاساوتي المشهور بابن أبي محلي السجلماسي، عاش في نهاية القرن السادس عشر، ومطلع القرن السابع عشر الميلادي. (وقيل مات مقتولا سنة 1022هـ - 1613م) عاصر معركة وادي المخازن وحملة السودان. ترك عدة مؤلفات تهم تاريخ أفريقيا كرحلة «إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت» مخطوط بالخزانة الحسنية، حققها عبدالمجيد قدوري بعنوان: «ابن محلي الفقيه الثائر ورحلة الإصليت» أتى فيها بوصف لمعركة وادي المخازن وبالرسائل التي بعث بها إلى شيوخ قبائل بني عامر وسلطين الأتراك والقصائد التي نظمها في نفس المعنى، يحضهم فيها على محاربة الإسبان ويحثهم على الجهاد. و«السلسيل» و«المنجنيق لرمي البدعي الزنديق» و«السيف البارق مع السهم الراشق». (عبدالمجيد القدوري: مؤلفات ابن أبي محلي مصدر لتاريخ أفريقيا. مجلة دار النيابة - س 4، عدد 15 - 16 (1987)).

ومن بين المخطوطات التي عثر عليها المرحوم محمد المختار السوسي في خزانات ومعاهد الأطلس الصغير، وذكر عناوينها في رحلته «خلال جزولة» ديوان «نقائض يحيى الحاحي وأحمد ابن أبي محلي» على غرار نقائض الفرزدق وجريير في الأدب العربي، ويعد هذا المخطوط من المخطوطات الضائعة في خضم الهجرات التي عرفتها منطقة تافراوت، «ويمثل هذا الديوان لونا أدبيا مغربيا وطريفا متفردا لم يسمع بمثله في تاريخ الأدب العربي بالمغرب طوال العهد الإسلامي» (د. محمد حجي: محمد إبراهيم الكتاني ومزايده في التعريف بالمخطوطات المغربية. «العلامة المجاهد محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني حياة علم وجهاد»، ص 104).

أناشدكم بالله ما عذر كلكم
 لدى الله في وهران أم الخنازير
 أنلكم الجبار كيف رضيتم
 بسبي العذارى من بنات الأكابر
 فصرتن من جور البغاة كأنكن
 يهود الجزى تعطونها في الأصاغر
 فلا همّة تعلو بكم عن دنية
 ولا غيرة تدعوكم للمآثر
 إلى أن يقول متشفعاً برسول الله ﷺ:
 فيا رسول الله يا خيرَ وافدٍ
 أتى بالهدى للناس من عند قاهر
 أميمتك الغراء أصبح وجهها
 عليه سواد الخزي من ظلم جائر
 وقام صليب الشرك يزهى بنخوة
 وقام خطيب الإفك فوق المنابر
 أترضى رسول الله لو كنت شاهداً
 وربك حتى عزة المتصاغر
 وذلك من يقفوك حاشاك هذه
 إلى كم تنام عن إغاثة ضاجر..⁽¹⁾

(1) عبدالمجيد قدوري: ابن محلي الفقيه التائر، ص 86 - 87. الأصلية: م. خ. ح، رقم 4442، ص 24 - 26.

ومن القصيدة التي حرص فيها الأتراك على طرد الإسبان من وهران، قوله واصفا الجيش العثماني:
 وجند بني عثمان في كل قائد جيوشا كموج البحر عند التلاطم
 يخوضون لجا في سفائن رائس مراد لدين الله عز الأعاجم

وعندما سقطت العرائش في يد الإسبان - في عهد زيدان بن المنصور - أنشد
ابن أبي محلي قصيدة حماسية تفجع فيها على سقوط هذه المدينة، مستهزئاً
الهمم للجهاد ولتخليصها من المحتلين الغاصبين:

لئن صح ما قد قيل ما عاش عائش
إذا أخذ الكفار مرسى العرائش
فيا معشر الإسلام من بعد عزكم
عليكم أكان الذل لا من مناوش
فأين ملوك الغرب في كل ضاربٍ
بسيفٍ ورامٍ في جيوش الأبارش
فيا معشر الإسلام عار عليكم
تذلون بعد العز خوف الخشائش
لعل صليب الكفر يلقي جزاءه
وفاقاً بيوم الفصل عند التناقش
فلله يوم أخذ كل ثاره
به الأندلوس من حمير الفواش
ومن بجنود الله يسعى إليهم
كسيل قحاف بالخيول الهواش⁽¹⁾

فاستجد القائد الناظم ابن أبي محلي في قصيدته هذه بجميع عناصر
سكان المغرب، لينهضوا نهضة واحدة لتحطيم صليب الكفر، وإعلاء كلمة الله،

وحرز بنات العرب من كل فاتك	بأبكارها كالحور في قصر ظالم
يسوسهم المرتاد كل ثنية	من الحرب بالتجريب في حد صارم
فما لبني عثمان في سنة الونا	ووهران تزهى نخوة بالمرأع
ويا معشر الأتراك ما بال سعيكم	وكلكم أعماله بالخواتم

المرجع السابق، ص 21 - 22.

(1) ابن أبي محلي: «سلسبيل» (مخطوط)، ص 182 - 183.

وإعادة العرائش إلى حظيرة الوطن بجنود الله طلباً لرضى الله ورسوله، وقد قدمها إلى المغاربة كافة «ليتحلى بمنظومها كل ذي همّة من أهل الدين والمجادة»، وذلك غاية جهده وعناية ما عنده. فاستجاب لندائه عدد وافر من المجاهدين، وقام في ثورة عارمة ضد السعديين في أول «حركته» وقادها إلى مراكش⁽¹⁾، فتصدى له ابن زيدان السعدي بجيوشه، وجيوش يحيى الحاحي التي استغاث بها.

فانهزم ابن أبي محلي، وقتل دون التوصل إلى منازل الإسبان أو تحرير ثغر العرائش الذي سبب سقوطه وجه نداء الجهاد. ودخل زيدان مدينة مراكش «وتراجع عن تنفيذ ما اتفق عليه مع يحيى الحاحي من شروط الإصلاح والإنقاذ التي يراها يحيى أنها كفيّلة بإنقاذ البلاد مما تتردى فيها من ضعف وانحطاط. وكان هذا هو السبب المباشر ليحيى الحاحي في الخروج على السلطان ابن زيدان بتارودانت، ونصب نفسه أميراً بها» وعلى قبائلها السوسية.

ثم قام بوجه الرسائل الشعرية والنثرية إلى الفقهاء والعلماء والشيوخ والطلبة ورؤساء العشائر السوسية لجمع الكلمة والتجمع بتارودانت والاستعداد للجهاد في سبيل الله.

من ذلك قوله في قصيدة نظمها في هذا المعنى:

هلموا إلينا بادروا وتسارعوا

لنغنم من رضوان ذي الفضل مظهرا

(1) كلمة «الحركة» في تاريخ المغرب تدل على عدة معاني. وقد وردت في هذه الرسالة عدة مرات. فهي بمعنى الفتوحات كالفتوحات المرابطية والموحدية والمرينية في الداخل والخارج، وقد تأتي بمعنى إخماد الفتن الداخلية والقضاء على الثورات «المحلية» وعلى أصحابها كما ورد في فصل «الفتوحات الداخلية». وقد يكون للحركة طابع هجومي وليس دفاعياً كما هو الشأن في مقاومة السعديين ورؤساء فرق الجهاد للبرتغاليين والإسبان.

وقد يكون من أغراضها جعل حد للتأخر بين قبيلتين أو إخضاع قبيلة أو أكثر إلى سلطة المخزن وجعل حد لعصيانها أو رفضها لأداء ما في ذمتها للدولة، كما كان الشأن في عهد الدولة العلوية إلى عهد الحسن الأول. وأخيراً قد تأتي بمعنى تنقل المخزن ورجالاته عبر البلاد دون أن يكتسي هذا التنقل أي صبغة عسكرية أو حربية وإنما يكون الهدف منه هو الاطلاع على أحوال الرعية كما كان الشأن في عصر الحسن الأول العلوي.

ويظهر دين الله جل بأمره
ولو كره الذي طغى وتجبّرا
فإني بإذن الله ربي دعوتكم
إلى الله والتوفيق من تيسرا
ألا فافهموا المقصود سرّاً وجهرةً
وعزماً ولا تبغوا له متغيرا
وذلك دين الله أرجو مخلصاً
بقولي وفعلي أن يعزّ وينصرا
كذاك جهاد الكافرين وغزوهم
وإخراجهم من غربنا كي يُطهّرا
وليس لنا إلا جهاد ونية
وعزم إلى الدين القويم تشمر⁽¹⁾

وأمام ضعف المقاومة المغربية وتخاذلها احتل الإسبان ميناء المهدية (المعمورة)
على مصب نهر سبو. ولكنهم وجدوا مقاومة عنيفة من أسطول السلاويين المعزز
بالمجاهدين الأندلسيين حاملي لواء الجهاد الشعبي في ساحل المغرب.

وحينما لم يلق السلاويون أي مساعدة من زيدان السعدي - المغلوب على أمره
- لمواجهة الهجمات، وجهوا اهتمامهم إلى الأمير «يحيى الحاحي» بتارودانت. فوجه
قاضي الجماعة عبدالرحمن بن محمد التمنارتي باسم الأمير رسالة إلى جميع
الجهات الخاضعة لنفوذه داعية إلى الجهاد وإلى إغاثة السلاويين المجاهدين.

وقد أنشأ التمنارتي خطبة حماسية لتلقى في جموع المجاهدين المتوافدين،
وعززها بقصيدة تاريخية تذكر بأمجاد دول المغرب المتعاقبة منذ الأدارسة إلى

(1) أحمد بوزيد: محمد بن سليمان الروداني، ص 10 و 11. وقد عثر المؤلف على هذه القصيدة الطويلة
في إحدى خزانات تارودانت منسوبة إلى الأمير يحيى.

السعديين، وبالأدوار الحاسمة لعظماء ملوك المغرب في الدفاع عن حوزة البلاد ونصرة المسلمين بالأندلس. وقد عبرت الرسالة - فيما عبرت عنه - عن الهدف الذي تتوخاه - وهو إعلان «النفير الشعبي» - قائلة:

«ولتعلموا أن مولانا الإمام أيده الله قد أذاع النفير بالجهاد في سائر البلاد، واستتهض من جميع الجهات أهل الكفاح والجلاد، وهو أيده الله جاد في أخذ الأهبة لهذا القصد الأسنى مؤكداً العزيمة في رفع قناع الذل عن وجه الحنيفية البيضاء..⁽¹⁾».

ثم ترد قصيدة التمنارتي:

تحاموا بلاد العدوتين من العدا

وقام بنصر الدين منهم أسود

لتركز على جانب الجهاد في سيرة ملوك المغرب السابقين وقيامهم بهذه الفريضة خير قيام «بالعدوتين»، قبل أن تفصل القول في واقع البلاد، وتستشير حمية النفوس لتغيير هذا الواقع المظلم⁽²⁾.

(1) عبدالرحمن التمنارتي: الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة (مخطوط بكلية الآداب بالرباط) ص 204، محمد حجي: الحركة الفكرية في عهد السعديين، ج 1، ص 209 - 210.

(2) يقول التمنارتي في بطولة للمتونيين:

ومن بعدهم لمتونة المجد أضرمو	على الكفر نارا جرعتها كبود
حماة كماء للهيحاء صدورهم	وللفر أوفار العدالة تعود
تحاموا بلاد العدوتين من العدا	وقام بنصر الله منهم أسود
ويقول في شهامة الموحدين:	
وأضحت كماء الكومي تعدو على العدا	وينصب عزما للوغى ويكيد
وما زال يرمي الرم في شقوة الردى	ويقطع أوداج الطلى ويجيد
وبالأرك المنصور أعقب عزة	لها خضعت أذقانهم وخدود
وفي بطولة المرينيين:	
وأسد العرين من مرين سمت بهم	لتلك المعالي همة لا تبيد
لهم في بلاد الشرك من كل شارع	مشارع بيض والوقائع سود

ومما جاء في هذه القصيدة من الأبيات التي سلمت من البتر والخروم والتي يخاطب بها همة الملوك السعديين والمجاهدين منهم، ويشير همهم للدفاع عن البلاد بعد ما آل إليه المغرب من ضعف وهوان:

فيا لأسود المغربين تنبهوا
فقد طال ما أنتم في الغي رقود
خفافاً ثقلاً فانفروا وتجهزوا
أمامكم النصر العزيز يقود
لئن أخذت منا نفوس إلى الثرى
فإننا لنا دار النعيم خلود
وإن نكصت عن الجهاد لخفية
عساكرنا يخشى علينا وعيد
وكيف ووعد الله بالنصر صادق
لنا به تعلق الكافرين هنود
ثم يخاطب الناضم قومه السوسيين مستصرخاً:
أيجمل بالأبطال من سوسنا التي
لها الفخر قدماً في الهيجاء قعود

ويقول في جهاد السعديين في معركة وادي المخازن:

كذلك أمير المؤمنين محمد	حمى المغربين بالحسام يذود
حمى كل ثغر من ثغور بلاده	بأسد الشرى تغشاهم وتصيد
وبالملك المنصور شيد منزل	من العز بالمغربين ليس يبيد
وفي بطولة السعديين:	
فدون سبستيان ألقى حشوده	بوادي المخازن إذ خزته قرود
فعاد صريعاً بينهن تنوشه	هنالك ذؤبان القلا وخلود
فلم يترك الحسام للشرك هامة	هناك ولم تندب للسلم عقود
كأن مثار النقع فوق رؤوسهم	سحائب لكن قطرهن حديد
فكم من ديون قضتها سيوفهم	على الكفر لم تمطل بهن عهد

وبالضاربين الهام من كل فاتك
من الغرب ذي العز الوثيق ركود
بلى نحن كنا أهلها سنشدها
ونحسم يوماً ما بنته قرود
فلله من وفى الجهاد مصدقاً
بما قال في البراد لبيد⁽¹⁾

كما يقول من قصيدة أخرى يحرض فيها - كما يبدو - المنصور الذهبي
للجهاد بالأندلس الذي سبق له أن أعرب عن رغبته في عتق الأندلس من قبضة
المسيحيين في رسالة بعث بها إلى سلطان مكة والمدينة والحجاز (أبي المحاسن
حسن)، داعياً الله أن ييسر له أسباب فتحها وطرده الكفار منها:
دعتك بلاد الأندلس التي لها
من القدم في الإسلام مارس الكتب
بعهد وليد الشام كان افتتاحها
وانتم على الإضعاف من ملكه الرحب
فدام بها الإسلام وهي عزيزة
ودام وئام الغرب فيها على الحرب
يطهر أرجاء البلاد من الردى
ويعمي عيون الشرك فيها عن الصوب
إلى أن جرت بالغرب كل قليلة
وعوض منها الجد بالهزل والصخب

(1) عبدالرحمن التمنارتي: الديوان (م.خ.ح)، ص 49 - 51. البدائل الجمّة. مخطوط كلية الآداب بالرباط.
ص 156 - 157 ويشير الناظم بالشطر الأخير من القصيدة إلى بيت من معلقة لبيد بن ربيعة العامري:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
ديوان لبيد، ص 132 (دار صادر بيروت 1966م).

ودال عليها الوهن دهرًا وجرعت
بكأس الهوان جرعة الهم والكرب
فجادتك جزءًا تستغيث فكن لها
وليًّا يفكّ ظبيها من ناب الكلب⁽¹⁾

وقد نحا الناظم أحمد الدغوشي منحى التمنارتي حيث نظم قصيدًا يشجع
فيه محمد العياشي حامل لواء الجهاد البحري لمحاربة أهل البغي والفساد داعيًا
له بالنصر المبين على أعداء الله المتربصين بشواطئنا ووحدة بلادنا:

صلِّ واغلظن في الله واسقط جاهدًا
فحسامٌ عرضك ذي الذباب الحاسم
واقطع حبال خبال كل معارضٍ
ومعانِدٍ للحق غير ملائم
وإلام تمرح في الفلاة قبائل
من عرب مغربنا سدى وأعاجم؟
وتروم روم الشرك فرصة ماكر
بالمسلمين الغرّ غير مسالم
وإلى سياستك السنّية ينتهي
فصح الورى ولأنت أعلم عالم⁽²⁾

ونظم الناظم - الناثر - محمد بن أبي لقاسم المانوزي اللكوسي قصيدة، مدح
فيها جيش الأمير «علي بن محمد بودميعة» الذي توطدت إمارته وطالت أيامه وعلا
شأنه، حتى كان أعظم رجل من «ملوك الطوائف» بالمغرب بعد العهد السعدي على
غرار ابن أبي محلي بسجلماسة، ومحمد العياشي بالسواحل المغربية والدلائين بتادلة.

(1) انظر الرسالة في الاستقصا ج 5، ص 150 - 151. والقصيدة في ديوان التمنارتي المخطوط (لوحه 17).

(2) عبداللطيف الشاذلي: «الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في ق 17»، ص 207 - 209. -
انظر أبو املاق: الخبر عن ظهور العياشي.

وقد طلب الناضم في آخر قصيدته من «الأمير» أن ينهض لمحاربة أعداء
البلاد ووحدتها، بعد أن دانت له إيليج:

قم يا إمام الدين وانهض نهضةً
جماعة تذر العدا في مفزع
وقد الجيوش وقدمن ما بينهم
من كان حلف جرأة وتذرع
وَجُسِ البلادَ بفتحها جمعاء وأنْ
ظُم في يدك الأمر وحدك واجمع
إن الهوينا غيرُ نافعةٍ إذا
لين المقالة في الورى لم ينفع
ما دام هذا الأمر أمرك فاصرخنْ
سَنَ به على رأس المخالف واصدع⁽¹⁾

هكذا نرى أنه أمام موجة الخمول والركود التي دبت في صفوف المغاربة
في أواخر عهد الملوك السعديين⁽²⁾ بعد عجزهم عن صد العدوان على ثغورهم

(1) المختار السوسي: إلج قديما وحديثا، ص 84.

(2) وصل الأمر بآخر الأمراء السعديين أن وضعوا السلاح واكتفوا بالتوسلات، من ذلك أن الوليد بن
زيدان السعدي طلب من أبي العباس أحمد بن عبد الحميد المريد الأنصاري أن يتوسل على لسانه إلى
الرسول ﷺ ليشفع له عند الله كي يحرسه وينصره:

وبث له شكواي من كل ثائر	ومن كل باغ مارد ومحارب
ليشفع لي عند الإله فإنه	لديه عن المامول ليس بناكب
وينصرني النصر العزيز على العدا	ويحمي حماي من طروق النوائب
ولا يبغي في أقطار ملكي منازعا	ولا راكبا منهم متون السلاهب
ولا نافخا للحرب جذوة بأسه	سوى هالك أو هارب مني راهب
ويحرسني في كل ورد ومصدر	ويكفني دون القنا والقواضب
ويدفع عني كل خطب وحادث	ملم ويكفيني شرور العواقب
وبارك لنا يا رب فيما وهبته	وحظي من الأعداء سار وسارب
فأنت عمادي واعتمادي وناصري	وأنت ملاذي في اقتضاء مآرب

(رسائل سعدية: تحقيق ع. كنون، ص 13 - 16).

وسواحلهم، وإيقاف سلسلة الثورات والنزعات القبلية قام العلماء والفقهاء وشيوخ الزوايا والخطباء والمؤلفون والمفكرون والناظمون والشعراء⁽¹⁾ بحركة تدعو إلى

(1) إن مسألة الجهاد لم تشغل فقط بال الشعراء - في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب وما بعدها - بل بال كثير من الكتاب والخطباء والمفكرين والفهاء والرحالة، وأصحاب الفتاوي والمراسلات. فقد تحدثت الكتب الفقهية - مثل رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل وغيرهما - عن مسألة الجهاد. وفصلت كتب كثيرة في مسألة الجهاد وحرضت عليه وحببته للنفوس. منها: كتاب «الجهاد» لابن يجيش السالف الذكر، وكتاب «لباب مراقي الجنة فيما ورد في الجهاد والسنة» لعبدالله بن علي بن طاهر الحسني (م. خ. ع - 2993)، وكتاب «فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة» (م. خ. ع - 2992) (مخطوط من القرن 17م يدعو لتحرير المناطق المغتصبة من المغرب) لعبدالهادي ابن طاهر الحسني السجلماسي الذي كان يمارس الجهاد برفقة المجاهد العياشي، وكتاب «الجواهر المختارة» لعبدالعزیز الزياتي الذي أتى في كتابه بنماذج لكتابة الفقهاء وحوارهم في مسائل الجهاد، (محمد حجي: الحركة الفكرية، ج 1، ص 199 - 202 - 203 - 214).

وما كتاب «دلال الخيرات» لمحمد بن سليمان الجزولي الاشعار للمقاومة والتحرير «ونداء صوفي» لتعبئة الناس للدفاع عن البلاد ضد الغزو الإيبيري.

ومن المفكرين الذين دعوا إلى الجهاد لمقاومة «المد الاستعماري» داخل التراب المغربي: محمد العربي ابن محمد الهاشمي الحسني العلوي المدغري الذي وزع منشورا مطولا لتحريض على الجهاد لما تهاقت الأجانب على السكنى في المدن الساحلية وندب المغاربة للقيام بالدفاع عن حوزة الوطن حين زحف الأجنبي يهدد صحراء تافالالت. (انظر باقي أسماء الكتاب ومؤلفاتهم في الجزء 2 من المظاهر لمحمد المنوني، ص 427 - 279، ص 1).

ومن المؤلفين الذين تحدثوا في مؤلفاتهم عن الحروب وآدابها وآلاتها الحربية، وطالبوا فيها بتنظيم الجيش المغربي على الطريقة الحديثة لما لاحظوا أن «أسباب الجهاد قد أهملت وآلاته قد أغفلت»: الكردودي، مؤلف كتاب «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة» (م. خ. ح، 112) والحكيم عبدالله بن عزوز القرشي مؤلف «رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف» (يعني به المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي)... الخ (انظر محمد المنوني: أدب المغرب البطولي - آفاق - س 3، عدد 1، ص 28).

ومن الفقهاء الذين ساهموا أيضا بكتاباتهم ورسائلهم (في العهد العلوي) للتحمس للجهاد والأخذ بالتنظيمات العسكرية الحديثة حتى تصبح جيوشنا الجهادية قوية وقادرة على رد العدوان: الغالي العمراني المعروف بالجلاني مؤلف كتاب: «مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد في حرب النظام».

وأبو الحسن علي بن عبدالسلام التسولي الذي ضمن جوابه: «البسيط» كيفية تنظيم الجهاد والدفاع عن الوطن (بعدما اجتاحت الجيش الفرنسي الجزائر) كقوله: «فحرضوا أنفسكم وأشياعكم (على الجهاد) بقلب وقال وجازم الاعتقاد، وأكثروا من الأهبة والنفر إليه وبادروا له بغاية الاستعداد فإن لم تشغلوهم شغلوكم وإن لم تقاثلوهم قاتلوكم، كيف وهم لكم بالمرصاد»..

نفذ غبار الذل والمسكنة، والنهوض إلى الدفاع والنضال، والخروج إلى حياة العمل والجهاد واستعداد للحرب والجلاد دفاعاً عن العزة والسلطان وحماية للدين والإسلام.

وكان لشعر الجهاد في هذه الحركة دور أساسي حيث أشاع في وسط المغاربة - وبلغة جزلة ومبسطة - أن العودة للجهاد والبدار به⁽¹⁾ أمر لا مناص منه، وأن الحرب سجال، وأن الدفاع عن المغرب ضد عبّاد الصليب والغاصبين من أقدس المقدسات...

وأحمد بن الهاشمي الإدريسي الفيلاي صاحب: «تحفة الراغب في السعادة في الترغيب لطلب الشهادة»، ومحمد بن إدريس القادري مؤلف «سبيل المحسنين إلى فضل الجهاد في سبيل رب العالمين» (انظر: المنوني المظاهر، ج 1 (ط 2) ص 335 - 338 - 341 - 347 - 348 - 349. وط 1، ص 18) وقد قام بعض الشعراء بتقريض هذه الرسائل الجهادية، كقول بعضهم في تقريض «غنية الأنجاد»:

لله دره من فقيه ناصر	من صار للأعداء بالمرصاد
ظنوا الجهاد تعذرت أسبابه	وتمشّدقوا بأقاويل الإفساد
أو كقول ابن الحاج المرداسي في تقريض «سبيل المحسنين»:	

وأرى سبيل المحسنين رحابها	قد عمرت بنفائس الأعمار
ما الحسن والإحسان إلا أن ترى	في دين أحمد ناشر الآثار
يا معشر الإسلام دونكم الوغى	تلك الحياة ومنية الأخيار
صفوا الصفوف إلى العدو ولا تروا	قواهم فالله ذو الأقدار
(المظاهر، ج 2، ص 389 و391).	

وشرح بعض الناضمين استعمال أسلحة الجهاد وأدواته نظماً حتى يسهلوا حفظ القواعد الحربية ويتمكن المهتمون - والمجاهدون منهم من إدراكها إدراكاً تاماً. من ذلك: منظومة «نزهة المجالس في علم أحكام المدافع والمهاريس» لعبد النبي بعلباس الشديدي المصباحي الرباطي (التي نظمها في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام سنة 1266هـ). وقد نظمها إجابة لسائل عن علم المدافع:

يا سائلاً مختصراً يكون في	علم المدافع والمهاريس الطرف
(م. خ. ح رقم 1043 من ص 1 إلى ص 30).	

(1) قال الشاعر علال الفاسي في قصيدة له أنشدها سنة 1971:

بدارا يا بني وطني بدارا	فما أحلى الجهاد مع البدار
وأن الله يضمن فوز قوم	تداعوا للجهاد والانتصار

ولابد للتاريخ أن يعيد نفسه!

وكان المولى علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل أول مؤسس للدولة العلوية بسجلماسة. وقد أقام بفاس مدة طويلة ودخل إلى الأندلس عدة مرات برسم الجهاد، كما جاهد في ناحية أكدرج من بلاد السودان. وكان أهل الجزيرة يكتوبونه ويرادونه على أن يبايعوه ملكاً عليهم للاعتناء بأمور جهادهم - لما كانت عليه الجزيرة الأندلسية من الفوضى والضعف - ولاستنفار المجاهدين في المغرب لحماية بيضة الإسلام في تلك الديار⁽¹⁾.

وكان علماء فاس يوجهون إليه الرسائل⁽²⁾ يحثونه فيها أيضاً على الإسراع في إغاثة مسلمي الجزيرة ويذكرون له فيها فضل الجهاد. وقد اعتذر مرة أنه كان متوجهاً إلى الحج⁽³⁾. فأجابه علماء فاس: «بأن الجهاد عند أهل المغرب أفضل من الحج».

(1) محمد أكسوس: الجيش العرمم، ج 1، ص 48 - 50.

وتقول بعض هذه الرسائل الواردة عليه من علماء غرناطة في تحليلتها (وهي من إنشاء أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الأندلسي الغرناطي): «إلى الضرغام الهمام وقطب دائرة فرسان الإسلام الشجاع المقدم... طليعة جيش الجهاد وعين أعيان الأنجاد المؤيد بالفتح في هذه البلاد المسارع إلى مرضاة رب العباد مولانا أبي الحسن علي الشريف...». ثم يبين له الكتاب ما هي لوازم الأخوة الدينية، وأنه يتعين على من له من المسلمين الاستطاعة والقدرة أن يسعى لدفع المضار عن المسلمين سيما وأن العدو استطال عليهم بالأندلس، ويرجو منه أن يكسر شوكة عدو الدين الطامع في الاستيلاء على جميع بلاد المغرب، ويذكره بأن أهل المغرب أحبوا الغزو في سبيل الله، وهم أقرب الناس لتلبية دعاء الجهاد، ثم أورد له الكتاب جل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في فضيلة الجهاد والترغيب فيه. كما يطلب الكتاب في الختام من علماء فاس أن يحضوه على العبور إلى العدو لإعانتهم والأخذ بيدهم. (أحمد العلوي: الأنوار الحسنية، ص 32 وما بعدها). وقد وقف محمد الصغير اليفرنى صاحب «روضة التعريف بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف» على رسائل عديدة من هذا القبيل من علماء غرناطة (انظر: التعريف، ص 19). كما أورد ابن الحاج في «الدر المنتخب المستحسن» رسائل مماثلة محررة من طرف الغرناطي وابن ملال والسراج.. (انظرها في ج 5، م. خ. ح (12184) ص 217 - 219).

(2) انظر رسائل أهل فاس مع رسائل علماء الأندلس إلى المولى علي الشريف في «الدرة المكنونة الغالية في وصف الدولة العلوية العالية» جمع العربي بن عبدالسلام الفركلي العلوي. م. خ. ح رقم 12238.

(3) كان المولى علي الشريف يلبي دعوة الجهاد مرة ودعوة الحج مرة أخرى.

وقد تضمنت بعض الرسائل الغرناطية (المؤرخة ب 841هـ - 1437م) قصيدة شعرية طنانة من نظم أبي فارس عبدالعزیز بن الربیع الغرناطي في مدح المولى علي الشريف «الصقر الضرغام» و«قطب دائرة الإسلام»، وفي خله المجاهد أبي عبدالله محمد بن إبراهيم العمري - الذي أوقع بالكفار، لما استغاث به أهل طنجة - وفي تحريضهما على الجهاد بالأندلس ليستأصلا بها دابر الكفر، وينجدا أهلها من ويلات المذلة والهوان، وينقذاهم من الطاغية ألفونشو الخامس ملك أراغون وصقلية. مطلعها:

أيا راحلاً يطوي المفاوِزَ والقفرا
رشدتْ ولقيتْ السلامة والخيرا
منها في مدح المولى علي الشريف:
أبا الحسن المولى الشريف الذي به
على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا
ولاحت بأفاق القلوب عجائبُ
بها سلب الأبواب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كلُّ مجلجلٍ
هزبر إذا ما أنشب الناب والظفرا
هو الغوث إن دارت رحى الحرب للقا
وغيثٌ إذا ما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الأعلاج فاجتاح جمعهم
وجدلهم قتلا وشدهم أسرا
ثم يتعرض الشاعر لتحرير مدينة البوغاز:
بطنجةً قد طاب المماتُ لزمرةٍ
بنصرتها ترجو من الملك اجرا

دعاها بأقصى السوس قومٌ فأسرجوا
من الصّافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبّت ركابُ القوم والشمسُ أشرقت
وأرهب ق جيشُ الله أعداءه خسرا
ولا عجب أن الأولى هو منهم
ليوث الشرى قد أوسعوا مرجا شرا
ثم يستجير ويستغيث لأهل الأندلس ويطلب قدوم خله للجهاد بالأندلس:
أَجِرْ جَارَكَ الْهَفَانِ مِنْ غَمَرَاتِهِ
أبا حسن انظر جزيرتك الخضرا
ونادِ أبا عبد الله خليلكم
به تجلب السراء في حادث الضرا
سليل أبي إسحاق أكرم به أبا
لقد خلف الزكي الرضى البرا
أليس الذي لبي ندا أهل طنجة
وجمع أهل الغرب من حينه طُرا
وأوقع بالكفار أي وقية
فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا
وأصبح ثغر الدين أشنب باسمًا
وأرهب وجه الكفر من حزن قترا
ونال من الله السعادة والرضى
وجنات عدن في المعاد له ذخرا
وقل أيها العدل الذي اتخذ التقى
شعارًا وسامًا في منازلها الشعرا

أرى كل ما في الغرب أصبح قانطاً
لأندلس يرجو من طلعتكم نصراً
وغرناطة الغراء نادتكما أقبالاً
والراية البيضاء كي تنصر الحمراء
فساكنها وقف عليكم رجاؤه
كبيرهم والطفل والكاعب العذرا
فجئنا بمن في أرضكم حامياً لهم
رجالاً وفرساناً غطارفة غرا
حماة أباة الضيم من كل ماجدٍ
كريم يباري الغيث والسيل والبحرا
فدونكما الكفار تعني طغاتها
وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا
لقد طمع الكفار ملك رقابنا
وأهلكهم في أرضنا الحرث والثمرا
منازلنا من كل حصن وقريبةٍ
تناديكما غوثاً لخطب أتى أمرا

إلى أن يقول وهو يحث على الإنقاذ السريع ويستعجل الخروج إلى الجهاد
شارحاً عواقبه وفضائله:

تناديكما غوثاً من الله سرعة
فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا
فحثوا لنا بالسير بعداً وقربةً
أجيراننا من كيد من أضمر الجؤرا

وعزماً بأخرى مثل تلك التي مضت
ليبصرَ هنا ألفنش مثلكم كبرا
وأنتم بحمد الله تدرّون ما أتى
عن المصطفى في الغزو من خبر خبرا
فلله ما أسنى وددت لو أنني
قتلت فأحيا ثم أقتل مزمرا
وما في كتاب الله من آيات أتت
كشمس الضحى في الصحو سافرة غرا
خذاها بحمد الله عذراً جبينها
يضوع شذا تهدي لمغناهما عطرا
وتبلغ مني للكرام تحيةً
من اندلس للغرب قد عبروا البحرا
فعوناً رجالَ الله عوناً لعدوةٍ
أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا
فأنتم لنا الجند القوي ونحوكم
يشوفنا فاستعجلوا نحونا السيرا
ونثني على خير البرية ذي الهدى
محمد المبعوث بالمة اليسرا
وإلٍ وصحبٍ ثم تالٍ لنهجهم
ومن لذوي الإسلام قد قصد النصرا⁽¹⁾

(1) ابن الحاج: الدر المنتخب المستحسن. ج 5، م. خ. ح. 12184، ص 105 - 106. محمد أكتسوس:
الجيش العرمرم، ج 1، ص 51 - 53.

ولما كان عليه المولى إسماعيل من حزم وإقدام عند اعتلائه للعرش المغربي لم يكتف بالسيطرة على ثواره الذين طمعوا في حكم المغرب بل تابع حركته الجهادية لتحرير المرافئ المحاصرة والمغتصبة. فأنشد شعراء الدولة العلوية الفتية يستصرخون السلطان المولى إسماعيل ويستغيثون به لتحرير هذه المرافئ والشواطئ المغربية - التي انقضت عليها قوى الأعداء - ولاستخلاصها من قبضتهم، وللذب عن حمى الدين والوطن والمسلمين.

فكان أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي⁽¹⁾ - أعظم معبر عن مخاوف الأمة وقلقها في العهد الإسماعيلي وعمما يحاك لها في الخفاء من مؤامرات ودسائس: أراضي عروفاً بالزمان فمن يكن

كمثلي لم يصبح على الدهر ذا نقد⁽²⁾

- (1) أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040 - 1102هـ) اتصل منذ نشأته البزاوية الدلائية ودرس على شيوخها ثم درس بها. كانت حياته حافلة بالرحلات والتقلبات والمناهي. ترك اليوسي: «الرسائل» جمعتها وحققها د. فاطمة خليل في رسالة جامعية تحت إشراف د. عباس الجراري، و«المحاضرات» حققها د. محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» حققه: د. محمد الأخضر، ومؤلفات أخرى. كما ترك ديوان شعر وأشعاراً أخرى متفرقة في «رسائله ومحاضراته». أعد محمد اجواهري دراسة تحليلية لهذا الشعر تحت عنوان «اليوسي الشاعر». وهي رسالة جامعية أشرف عليها د. عباس الجراري. وكان أغلب شعره متمحوراً حول الشعر الديني والصوفي. كتب عنه د. عباس الجراري كتاب: «عبقريّة اليوسي» درس فيه الجوانب الأدبية والفكرية والعلمية لليوسي «كرمز من رموز الوحدة الفكرية والثقافية لهذه الأمة العتيقة». كما خصصت مجلة المناهل عدداً خاصاً عن عالمنا الموسوعي يحمل رقم 15. وكتب عبدالكبير العلوي المذغري كتاب: «الفقيه أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية». مطبعة فضالة 1989م.
- (2) هذا بيت من قصيدة لليوسي يدعو فيها ويتوسل إلى العلي القدير أن يدفع عن هذا البلد الأمين ظلم المعتدين وكيد الكائدين، منها:

ما رمانا ذو محال معتد
على الطفلة وأنجاد وإسعاد

بك نرجو الدفع والنصر إذا
فاعجل علينا بنصر منك تشهده
(اليوسي: الديوان م. خ. ع، ص 71 وما بعدها).
ويقول من قصيدة أخرى في نفس المعنى:

تضعع عنا والعدو المراهق
تألب بغيا من صدور الفياق

ويا رب يا ذا البطش يا قاهر المن
ويا من أباد الماردين وكل من

يقول من قصيدة له ينبه فيها «رعاة الحمى» إلى مقاومة أعداء البلاد
وأصحاب الفتنة والعناد، ويستغيث ويستنصر بأهل البلاد:

يا رعاة الحماة إغاثة ملهوف
تداعى عليه خيل الأعادي
فانهضوا نهضة الكرام واصلوا
صولة الذائدين يوم الطراد
مثل إدريس وابنه وأبي يع
زى وعبد السلام في الزهاد
يا لأبطال درعة وسجلما
سنة والراكعين والسجاد
ورجال السودان والسوس والحو
ز ومن براكش من جواد
ورجال الجبال والغرب طراً
وخصوصاً من فيه من أوتاد
يا لغوثاه جاشت بالبالا
يا جموع أهل العناد
شتت الله شملهم عن قريب
إنه سامع نداء المنادي
أنت سيفي وأنت جندي إذا ما
جاء أهل السيوف والأجناد⁽¹⁾

إغاثة ملهوف وبالود راهق
مهنة تفري ونبل رواشق

فبالله قوموا مسرعين وأعجلوا
فيا رب صبح سربه بصوارم
(المصدر السابق، م. خ. ج، ص 132 - 134).
(1) المصدر السابق (م. خ. ع، ص 65 - 67).

هذا وعندما مر اليوسي بمدينة تطوان سنة 1033هـ طلب منها أهلها (ذو الأصل الأندلسي) أن ينظم قصيدة ترغب في الجهاد والذود عن الوطن وعزة الإسلام به، فنظم قصيدة عدد في أولها مزايا الجهاد:

طوبى لعبدٍ خاشعٍ يتقلَّبُ
في طاعة المولى وفيها يدأبُ

(السالفة الذكر في مدخل هذه الرسالة) - ثم يحرضهم على الجهاد ضد الإِسبانيّين المحتلين للثغور المغربية:

يا أمةَ المختار أحمدَ شَمَّروا
لقتال من هو بالنبى مكذبُ
واجروا كما جرتِ الأوائل منكمُ
أهل البصائر والليوث الغلب
لقتال عباد الصليب وعصبة
عن كل خيرهم قديما غيب
كم دوخوا من مشركين ودمروا
قوما وكم من قرية قد خرَّبوا
كم قتلوا وذللوا وقتلوا
وتغلبوا وسلبوا أو صلبوا
يا أهلَ أندلس أَلَمْ تستخرجوا
من دياركم وأرضكم وتنكبوا
هَلْ انتصرتُم مثل ما انتصر العدا
هَلْ تحزبتُم غداة تحزَّبوا
هَلْ جعلتُم في نحورهم القنا
ودعوتم ربَّ العباد لتغلبوا

أين الشجاعة والحفاظ وأنتم
 عرب وللعرب الحفائظ تنسب
 إن الشجاعة زينة لا سيما
 في الحق حيث رضى المهيمن يكسب⁽¹⁾
 وليوسي قصيدة أخرى يستنهض فيها همم «السادة» المغاربة ذوي «المجد
 والقدر» الذين تقاعسوا عن نصرته إخوانهم المتورطين في حرب (لم يكشف عنها)
 ويعاتبهم عن هذا «التماطل». يقول منها:
 فما شأنكم لا تفرزعون لصارخ
 ولا تلبسون اللام إن رهق الذعر
 وما لكم لا تنهضون لجاركم
 إذا سيم خسفاً أو أتيح له عسر
 فما لحماكم يستباح وحوضكم
 يهدّ ولا عرفٌ لديكم ولا نكر
 دعوناكم سرّاً وجهراً وغيبةً
 ومرأى وطال السر في ذاك والجهر
 وقد بلغ السيل الزبى وتذامرت
 علينا العدا واستحكم البأس والضررُ
 فلم نرَ منكم سافعاً لجواده
 ولا ملجأ يعدو به نحونا مُهر
 وطالت بنا استصراخه واستغاثة
 فلم يأتنا غوث ولم يأتنا نصر⁽²⁾

(1) اليوسي: الديوان، م. خ. ع. ص 6 - 7.

(2) محمد اجواهري: شعر اليوسي، ص 163.

ولما بوبيع المولى إسماعيل بفاس⁽¹⁾ أنشد الشاعر أحمد بن عبدالعزيز العلوي
 قصيدة يقول منها بعد أن رثى سابقه المولى رشيد:
 لولا الخليفة المنصور أدركنا
 لقوضت لرسوم الملك آثار
 هو المظفر إسماعيل يقهرهم
 إذا طغى كفرهم والبغي والعار
 ثم يستنجد الشاعر بالمولى إسماعيل ويحرضه على الجهاد في الكفار
 الكائدين وعداة الدين:

(1) لما تمت هذه البيعة بعث أبو علي اليوسي برسالة إلى المولى إسماعيل «تدعي براءة اليوسي» في موضوع العدل والجهاد وشحن الثغور بالمجاهدين. قال فيها: «فعلى (سيدنا) أن يتفقد السواحل كلها من قلعية إلى ذرعية ماسة ويحرضهم على الجهاد والحراسة... ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه... فهم حماة بيضة الإسلام.. ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيره على الإسلام وأهله، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والالتقاء على أريكته والله الموفق».

(رسائل أبي علي الحسن اليوسي: تحقيق فاطمة خليل القبلي، ج 2، ص 240). ومن الرسائل الموجهة من علماء فاس إلى المجاهدين المحاصرين لسبته في العهد الإسماعيلي رسالة محمد بن عبدالرحمن البكري الدلائي يقول فيها: «الصبر الصبر أيها الناس في مواطن الحب والبأس والعزم والإقدام وثبات الأقدام والتقدم إلى الأمام والاستنصار بالملك العلام»... ثم يشير صاحب الرسالة إلى ضرورة تخليص سبته من الاحتلال بإعلاء كلمة الله وقتال من كفر به.. (راجع «رسائل علماء فاس إلى المجاهدين المحاصرين سبته» لمحمد بن إبراهيم الكتاني - مجلة الثقافة المغربية، ع 4، ص 66 - 67).

ومن نافلة القول أنه لما استتب الأمر للمولى إسماعيل عين القائد أبا علي اليوسي عاملا على فاس بعث الناظم عبدالسلام جسوس للعامل الجديد قصيدة ضمنها رسالة شعرية للمولى إسماعيل:

يا ناصر الإسلام يا من دأبه	كسب المعالي وارتفاع الشان
بلغ أمير المؤمنين رسالة	فيها الهدى والرشد منتظمان
فانهض لدين الله وانصر حربه	تنل الرضى من ربنا المنان
فلمثلها سيف الغنيمة ينتضى	وبها تنال مراتب الغفران
إن تلق فيها الخير حزت مزية	واقترنت كل فضائل بعنان
أو كانت الأخرى فنعم وحبذا	بذل النفوس لنصرة الرحمن
هذا وفي المنصور بالله العلي	كل الهدى والخير والإحسان

(مخطوطة بالخرانة الحسنية رقم 11071 دون ترقيم لصفحاتها).

فاصرهم أمولاي إسماعيل حبل العدا
 إذ قد طغى كفرهم والبغي والدار
 افتح قرى للنصارى واسب سبيهم
 وأقن طعمتهم فالله قهار
 بادر وزاحم عداة الدين في عدد
 لهم من الله أنداد وأظهار
 وألق من جيشك المنصور كل فتى
 كأنه في غمار الحرب إعصار
 انصر حمى الدين واكفف من يكايده
 لقد سما قدركم واعتز مقدار
 هذا هو العز والدين القويم فقد
 لاحت به من كتاب الله أنوار⁽¹⁾

وبعدما طال حصار المسلمين لمدينة العرائش، أنشد محمد بن قاسم ابن
 زاكور⁽²⁾ قصيدة - وكان اليوم يوم عيد الأضحى - يحرض فيها المولى إسماعيل
 على اقتحامها والقضاء على محتليها:

(1) محمد اليفرنى: التعريف، ص 21 - 23.

أحمد العلوي: الأنوار الحسنية، ص 82. يقول محقق الكتاب عبد الكريم الفيلاي أنه تصرف في هذه
 القصيدة - التي وصفت «بالمشهور» وفق ما يقتضيه تقويمها وزنا ومعنى (ص 83)، وقد وردت هذه
 القصيدة بالمنزع اللطيف (النسخة المطبوعة، ص 417) مع كثير من التغييرات في مفرداتها وتعابيرها
 الشعرية مثل البيت الآتي:

احم حمى الدين وامح من يعانده لقد سمى قدركم وعز آثار

(2) نشأ ابن زاكور بفاس وتوفي سنة 1120هـ، كان جوالاً ورحالة. وكانت رحلاته من العوامل التي كونت
 شخصيته. كان عالماً لغوياً، شرح ديوان الحماسة ولامية العرب، اتصل بأبي علي اليوسي وبرز في
 الأدب والشعر. خلف كثيراً من المؤلفات ما زالت مخطوطة طبع منها شرحه للامية العرب، كما ترك
 ديوان شعر سماه: «الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتهى القريض»، قام محمد بن الصغير
 بدراسته وتحقيقه في رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط (1989).
 وقد طبع عبدالله كنون بعضاً من شعره سماه: «المنتخب من شعر ابن زاكور، (سلسلة ذخائر العرب عدد
 39) انظر مقدمة الكتاب. وانظر عبدالله كنون: ابن زاكور ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 13.

إذا العرش: إن تبسمْ ثغورُ العرائشِ
تجدني لسهم الدين أولَ رائشٍ
سأعطيك عهدًا لا أخونك بعدما
تطهرها من رجزِ أهل الفواحشِ
ويضحي بها ناب الهدى ينهش الهوى
ويمسي بها ظفر الهدى غير خادش
ويُصلتُ فيها الرشد عُضْب هدايةٍ
يُصيب ضَلالات العدا في الرّواهشِ
ويعدو على آل الصليب وبالهم
فيلقون في بحر من الهول جائش
فسدّد إلى من حل فيه من العدا
من الرعب سهمًا مصمياً غير طائش
وأسبل عليهم من رداك سحائبًا
تسحُ بسيل من بلائك حافش
وملّك أسود المسلمين ذيابهم
لكي ينشبووا فيهم مخالب باطش
فثم يقول الدين قولة شاكرٍ
لك الحمد ربي في افتتاح العرائش⁽¹⁾

وأنشد الفقيه أبو محمد عبدالسلام جسوس الفاسي قصيدة - يحرض فيها
المولى إسماعيل على استرجاع سبّة (بصرة علوم اللسان كما سماها ابن الخطيب)
بعد حصار دام ستاً وعشرين سنة وقيل ثلاثاً وثلاثين سنة - وبادس والجديدة، كما
خلص غيرها من الثغور كطنجة والعرائش وذلك بأهل الحرب والشجاعة والإقدام.

(1) محمد ابن زاكور: ديوان «الروض الأريض» م. خ. ح (1503) ورقة: 113، لم ترد هذه القصيدة في
«المنتخب من شعر ابن زاكور»، وص 716 من الديوان تحقيق محمد بن الصغير.

رفعت منازل سبقة أصواتها
تشكو إليكم بالذي قد هالها
مع باديس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسمعوا تسألها
فلقد قضيتم للعرائش حاجةً
مع طنجة فاقضوا الذي أمالها
عارٌ عليكم أن تكون أسيرةً
بجواركم وجنودكم تعزى لها
إن لم تكونوا آخذين بثأرها
من ذا يفكّ من الوثاق حبالها
إن الذين تقدموا قد جاهدوا
بنفوسهم وبمالهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها
وتقاسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلاً
حتى تراهم نازلين جبالها
وأمدّهم بمؤونة ومعونةٍ
كيما تقطع بالعدا أوصالها
وارفع لهذا الغرب رأساً إنه
في الضعف ما دام العدا نزالها⁽¹⁾

(1) ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص 429.

أحمد بن الحاج: الدر المنتخب المستحسن، ج 6، ص 285 - 286.

ولما أنشد الشاعر عبدالواحد البوعناني (توفي سنة 1106هـ) - «الخطيب
البليغ وأديب فاس ومفتيها» - قصيدته يهنئ فيها المولى إسماعيل بفتح العرائش
حرضه على الاستمرار في الجهاد حتى يحرر المرافئ الأخرى كسبته، وينهض
لتلبية نداء الجهاد الذي يهتف من وهران لخلاصها، ومن أهل الأندلس «الشهيدة»
لفك «قيدها»:

ألا يا أهل سبتة قد أتاكم
بسيف الله سلطان وقور
إذا ما جاء سبتة في عشي
تناديه إذا كان البكور
متى يأتي ويفتحها قريباً
ويلحق أهلها منه ثبور⁽¹⁾
ووهـران تنادي كل يوم
متى يأتي الإمام متى يزور⁽²⁾

(1) وبمثل هذه الحمية يحرك ابن زاكور أهل تطوان أيضاً لاسترجاع سبتة:

ولاحت الشم من أطواد أندلس	تشكو دراها النصرارى وهي في لهفة
وقد بدت سبتة منه منادية	يا أهل دين الهدى هل عندكم عطفه
هل عزمة تذر الصليب منكسرا	حتى يظل الرشاد لامحا عطفه
هل غيرة تقتضي طهري من نجس الـ	شرك بمطلق دين الملة الصرفه

(حركات: التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، ص 236).

ولم يخل أي ديوان شاعر مغربي من الحض على استخلاص سبتة وخوض معركة الحق من أجل سبتة
(انظر بعض القصائد في هذا المضممار في ملاحق كتاب اختصار الأخبار - تحقيق: ع. بنمنصور، ط
2 (1983).

(2) لما انهارت البرتغال أمام الصمود المغربي قام مقامها الإسبان فاحتلوا سبتة ومليلية، وشنوا حملاتهم
على الجزائر وتونس فكانت حرب الثلاثمائة سنة (1492 - 1792م). وكان سقوط وهران سنة 1511م.
وعندما تم فتح وهران على يد الأتراك سنة 1119هـ (1708م)، (وقيل إنها لم تحرر نهائيا إلا في
سنة 1206هـ) (قبل الحملة الإسماعيلية)، أشاد الشاعر عبدالرحمن الجامعي الفاسي بهذا الفتح
في قصيدة منها:

فيهزمهم ويقتلهم ويسبي
وسيف الحق من يده يثور
أيا مولاي قم وانهض وشمر
لأندلس فأنت لها الأمير
وجاهدكم وحاربهم وفرّق
جموعهم فربكم النصير

وقل وهران يهنيك افتكاك
لك البشرى وللإسلام أخرى
جزى جيش الجزائر كل خير
كما تغنى به وبنوده في قصيدة أخرى:

جنود بها الإسلام عز مثاله
حموا بالصفح البيض من كل عائب
(عن مقال محمد المنوني عن الشاعر بمجلة دعوة الحق، ص 78 - 1974، نقلا عن التحفة المرضية)
(ص 260)، كما نظم أحد أدباء العصر عبدالله محمد بن أحمد الحلفاوي أرجوزة وصف فيها المعركة
النهائية التي شنّها الجيش التركي بمعية الجيوش المتطوعة من «العرب» لتخليص وهران من الاحتلال
الإسباني، يقول فيها في قائد الجيش التركي:

إذا جمع الناس بعزم حازم
على الجهاد لم يقعد جازم
(في البيت خلل)

جهاز جيشا لحمى الدين فساد
إذ ظهرت به البقاع من فساد
(ابن الأعرج السليمانى - «زبدة التاريخ وزهر الشماريخ» م. خ. ح، ص 131 - 135).
وذكر الشاعر والأديب عبدالرحمن الجامعي الفاسي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي في فتح مدينة
وهران ما نصه: «إن الكثير من أهل زمانه يرى هذا الفتح إنما يكون على يد هذا العاهل المغربي
(المولى اسماعيل) لما عاينوه من حرصه - أول دولته - على إخلاء الثغور من الكافرين وتعميرها
بالمسلمين». محمد المنوني: (مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية - مجلة دعوة الحق عدد 3 س
13 فبراير - مارس 1970).

وعندما تطاول الإسبان على تونس وساءت أحوالها في القرن العاشر الهجري، ارتفع صوت الشاعر
المغربي وقاضي الجماعة بفاس أبي الحسن علي بن هارون مخاطب أحد الأعلام التونسيين المهاجرين
(أبا الطيب التونسي، كما أسلفنا)، ومعارضاً موشحه ابن سهل:

جادك الغيث إذا الغيث انهمر
حاضرة الأنس البديع المؤنس
لم يكن إلا كلمح للبصر
أو بريق لاح من تونس
انظر: محمد ابن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، وعبدالجواد السقاط: الحضور
المغربي في الشعر المغربي - دعوة الحق (يوليوز 1989) ص 155 - 156م.

بقرطبة تنال المجد طُرًا
ويأتي العز والملك الكبير
لسان الحال ينشد كل يوم
ومعنى الحال تفهمه الصدور⁽¹⁾

وعندما ورد الخبر بانصراف النصارى الغاصبين - بعد «أن قتلوا وسلبوا ونهبوا» - من ثغر سبّطة سنة 1134هـ، وبعدما كف الله إذايتهم عن أهلها المسلمين - عقب حروب عديدة دارت بينهم استجابة لنداء الجهاد الذي وجهه السلطان إليهم - أنشد الشيخ أبو عبدالله المدعو «بالصالح الشرقي» - (شيخ الزاوية الشرفاوية في أواخر: ق 11هـ ومطلع ق 12هـ) - قصيدة يحرض فيها المغاربة المجاهدين على مواصلة الجهاد وحراسة ثغورهم من هجومات الأعداء، (مؤكدًا لأصحابه: لا يخرج النصارى للغرب وأنا فيه)، منها:

عسعس الليلُ فانهضوا
سادتي لحراسةٍ
واحرسوا الغرب باشرُوا
أرضه كل ساعة
وانشدوا لآخرائه
في سلوك السلامة
وسدداد ثغوره
راية إثـر راية
في حماكم جعلته
فهو تحت الرماية

(1) النصاري: الاستقصا، ج 7، ص 75، ابن زيدان: المنزع اللطيف (مخطوط، ص 493 - 494).

إلى أن يقول مثيراً همم الأبطال المجاهدين من رجال القبائل لإغاثة المستغيثين
من إخوانهم المقهورين:

يا لأبطال طال درعة
وسجلماس سادة
وبزاة مقرها
شامخات التوابت
وكممة محالهم
أرض سوس وحاحة
ورجال بتادلا
خير قوم وقادة
بلغ السيل الزبى
فاسرعوا للإغاثة
فانهضوا بجموعكم
سادتي لاستجابتي
بالنبي محمد
خير تال لاية⁽¹⁾

ولما رجع أهل الريف عن غيهم وأبانوا عن عزمهم الصادقة للجهاد في
سبيل الله لحماية شواطئهم ولنصرة دينهم، قدموا عند المولى سليمان - خليفة
المولى إسماعيل - «برؤوس من أهل الكفر» يحرضونه على الجهاد في سبيل الله
ضد الغاصبين.

(1) الحسن بن محمد المعداني التادلي: «الروض اليناع الفائح في مناقب سيدنا ومولانا أبي عبدالله
المدعو بالصالح الشرقي» م. خ. ح (رقم 61)، ج 1، ص 255 - 256 - 257.
- أحمد بوكاري: «الزاوية الشرقاوية»، ج 1، ص 283.

فنظم الشاعر حمدون بلحاج السلمي المرداسي في ذلك قصيدة يحرض فيها المولى سليمان على تحصين ثغوره وحراسة بره وبحره وتجديد عزيمة المغاربة المجاهدين لمواصلة حركة النضال والجهاد ضد طغاة «الروم»:

إذا جاك نصر الله أرخ نصرك
وشيد فيه جد جذك قصرك
وفتحاً أقرّ الله أعيننا به
واقرا ألم نشرح بسؤله صدرك
أتاك طغاة الروم في قيد ذلة
قصيرة عمر طول الله عمرك
وأول ما أبدت رؤوسا جنتهم
سيوف جنود الله تظهر أمرك
لك الله عدة وفيه كفاية
تريك الذي أضرمهم وأسرك
ولكن أمير المؤمنين اجتهد وقم
على ساق جد برك احرس وبحرك
وجدد لثغر المسلمين عزيمة
لتحصينه كي يضحك الله ثغرك
فأنت أحق الناس بالحفظ منهم
وإن لم تنم عيناك عنهم دهرك⁽¹⁾

ثم عاد السلطان المولى سليمان إلى الجنوب المغربي لاستئصال شأفة عناصر الفوضى بمراكش والحوز والصحراء. فتصدى له الشاعر سليمان الحوات

(1) بلحاج السلمي المرداسي: النوافح الغالية (مخطوط) ص 225 - 226. النوافح الغالية ت: العراقي، ص 416.

بقصيدته محرّضاً السلطان العلوي على مقاتلة الثوار في مراكش والإغارة عليهم
بجيش لجب، منها:

فاركب جواد الجد وارجع ساحباً
في الغرب ذيل النصر والإيواء
في عسكر غطى السماء عجابه
إذ جسم الهواء بالغبراء
ودويه كالرعد لحكم ربك في الأولى
قد حاربوا بالفعل والإيماء
يا آل جالتوت واخبث بربر
ذوقوا عذاب الهون باستيفاء
واحمل عليهم غارة في غارة
تظفر بهم في الغارة الشعواء
واقذف سهامك في كنانة صدرهم
وأكثر التمزيق في الأشلاء
صل يا أمير المؤمنين وافتخر
بالنصر دائماً على الأعداء⁽¹⁾

ولما عاث أهل الأودايا فساداً في حارة اليهود بفاس قام محمد اليازغي
يحرّض المولى سليمان على النهوض إليهم والقضاء على شيعتهم:
أنت الذي مهد الدنيا وزينتها
والدين منهله عزّ ومفتخر
ولم تزل ملة الإسلام ظاهرة
بكم وأربابها بعزكم ظهوروا

(1) الحوات: الديوان ص 14 .

فانهضْ بصدقٍ وعزمٍ ليس ينفَعُها
كمثل ما نهض الصديقُ أو عمرُ
واستخلص من يد الأعداء شيعتكم
فقد بدت منهم الأنبياء والظفر
وعندكم من تُقى الإله صاعقةٌ
سيوفها عندما تشاؤه القدر
فوجهنها لأمة عتَوْا وبَغَوْا
ولم يكن لهم في رأيهم نظر
واستنجدن نصرة الدين فقد عقدوا
دين الإلاه في أثوابه غبر⁽¹⁾

وقد وجه الشاعر سليمان الحوات - في مولدية له - «نداء شعرياً» يطلب فيها من المولى سليمان أن يرغب الناس في الجهاد ويحضهم عليه حتى يكونوا على أتم استعداد، وعلى حذر أيضاً للوقوف في وجه الزاحفين من الكفار الذين يتربصون بالمغرب وتغوره وحصونه الدوائر، بعد أن انتصر على «أرباب الفجور وأرباب الضلالة»، وبعد أن توارثت الأخبار بأن النصارى عازمون على غزو المغرب (1223هـ - 1808هـ)⁽²⁾. فقال من قصيدته:

فأرباب الهداية في ظلال
وأرباب الضلالة في الهجير
وفي الحالين للأعمى دليل
على السر المصون للبصير

(1) من مجموعة قصائد شعرية مخطوطة بالخرانة الحسنية تحت رقم 11067 (دون ترقيم لصفحاتها).

(2) في أول محرم 1223هـ شاع أن نصارى فرنسا يريدون الهجوم على المغرب فأمر المولى سليمان بالاستعداد للجهاد لرد العدوان.

ستجتيه بارقة انتصار
 بقطع رقاب أرباب الفجور
 ثم يتوجه بالخطاب إلى السلطان العلوي:
 فَسَدَّ سَهِمَ رَأْيِكَ مُسْتَعِدًّا
 وخذ بالحزم في سد الثغور
 وحض المسلمين على جهادٍ
 فقد قاموا بوارفة الغرور
 وذكرنا بأيام المغازي
 وسيرة الصحابة الصدور
 وَأَمَدَّنْ عَسْكَرَ الْإِسْلَامِ جُنْدًا
 مجندًا كالليوث أو الصقور
 وقم قيام ذي بأس شديدٍ
 يصول كصول الأسد الهصور
 وكن حذرًا من الكفار كلا
 وبعضًا في عواقب ذي الأمور
 أما علموا بأنك مستعينٌ
 بربك جل من رب نصير
 يقلدك اقتدارًا في انتصارٍ
 يكسر الصوارم في الجفير⁽¹⁾

ويعتبر الحوات - شاعر العلويين - بالحق «شاعر الجهاد»، إذ لم يفتأ من حين
 لآخر يحرض على الجهاد ويرغب فيه ويحبه للناس ويعلي رأيه في وسط الكتائب

(1) الحوات: المدائح السلিমانيّة (م. خ. ع) ص 25 - 26.
 وتمثل هذه القصيدة قصيدة عبدالواحد البوعناني في المولى إسماعيل التي استهلها بقوله:
 ألا أبشرك فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزمكم الأمور

العلوية وأجنادها، لتضرب على أيدي الثوار وتحمي الديار وتدافع عن ثغور البلاد
وحصونها المنيعه. فقال أيضاً يحرض المولى سليمان لإغاثة أهل وهران والزاب
- عندما دخلوا في طاعته بعدما فتك بهم الأتراك - ولكي يبعث إليهم بصناديد
جيوشه لترد عنهم الجور وتتجدهم:

هذه إيالة أترك الجزائر قد
أودى بها جورهم فليس تحمله
فقد الله أن تفنى عساكرهم
وكل من أبصر التركي يقتله
فأجمعت أمرها بدواً وحاضرة
على سليمان في الذي تؤمله
فبايعته وأرسلت سيارتها
إليه تسأله ما ليس يسأله
وكم دعت له هذا الأمر أزمناً
فلم يكد قبل وقته يعجله⁽¹⁾
فانهض بها ما لها سواك من ملك
والمُلك لله حيث شاء يجعله
وابعث لها من صناديد جيوشك من
تعرف نجدته ممن تعلمه
حتى الجزائر تأتيك ولا عجب
فالفتح ينمو إذا سهل أوله

(1) يشير الشاعر في هذا البيت إلى بيعة أهل تلمسان ووهران الأولى للمولى سليمان سنة 1220هـ وقد
رفض هذه البيعة وصالح بينهم وبين باي الجزائر (انظر الروضة السليمانية، ص 408 والاستقصا
للناصري، ج 8، ص 109 - 111) والحيمر: «شعر الأمداح السليمانية»، ص 194.

يا أهل وهران والزاب الهناء لكم
فالجور سد هناك مدخله⁽¹⁾
هذا الإمام الذي ترجون طاعته
يحمي الذمار ولا يفل منصله
جيوشه في الوغى كالأسد ما برزت
على كثير العدا إلا تقلله⁽²⁾

وقد أصاب شاعرنا الحوات الهلع لما داهمت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون
بونابرت بلاد الكنانة وخاف من أن تمتد هذه الحملة إلى «غرب الإسلام». فقام
بشير انتباه الغافلين إلى خطورتها وإلى دنو طارق الكفر من هذه البلاد الإسلامية
متوسلاً بالرسول الأكرم ﷺ ومتسشفاً بالإدريسين الأكبر والأزهر، بأن يدفع الله
عن المغرب كل ضرر وبلاء، ويحفظه من كل شر مستطير:

أيّا ربّ، هذا الغرب منذ فتحته
لإدريس لم يطرق بساحته كفرٌ
وقويت بالإسلام شوكة أهله
فكان لهم على النصارى به النصر
فكم مرة ساموه بالغدر خدعةً،
فأهلكتهم، ولم يتم لهم غدر
فحل بيننا، وبينهم طول عمرنا
وماذا عسى يغني مع الفتنة العمر

(1) للحوات بيتان آخران يحرض بهما المولى سليمان على النهوض لمساعدة أهل الزاب:
نادتك أرض الزاب تملك رقها وتذيقها من عدلك الذي فشا
فانهض إليها نهضة علوية فالله يؤتي ملكه لمن يشا
(الأمداح السلیمانیة م.خ.ع. ص 217).
(2) المدائح السلیمانیة (م.خ.ع)، ص 156 - 158.

وإن عبروا بحرًا إلى قاب أرضنا
لأودى بهم من جيشنا القتل والأسر
وأيد أمير المؤمنين، فأينما
توجه عمته السعادة، والخير
ومن يعتصم بالله من كيد مكرٍ
فحاشا تصيبه المكيدة والمكر
فيا معشر الإسلام مدوا أكفكم
إلى الله بالشكوى، عسى يسهل الوعر
ولا تغفلوا، بل استعدوا بقوةٍ
وهل أخذت إلا بغفلتها مصر
وهذا عدوكم دنا متمردًا
وقد ضاق من أجناده البر والبحر
فقولوا: إلهي، ادفع عن الغرب شره
وهل يدفع الله إلا بك الشر
وسيلتنا إليك أكرم مرسلٍ
وأصحابه مع آله الأنجم الزهر
وفاتح أرض الغرب إدريس وابنه
فإن بهم يدعو الذي مسه الضرُّ
وصلوا على من كنتم خير أمةٍ
له سيما إن كان أحزنكم أمر
فعمّا قريب تنجلي كلُّ كربَةٍ
ويعقب ما تخشون من عسركم يسر⁽¹⁾

(1) محمد بن جعفر الكتاني: الأزهار العاطرة الأنفاس، ص 248.
عبدالحق الحيمر: «شعر الأمداح»، ق 2، ص 89 - 90. وتعد هذه القصيدة أول شعر ردد أصداء
احتلال نابليون لمصر في بلاد المغرب.

ونظم شاعرنا الحوات قصيدة أخرى يحذر فيها المولى سليمان من وصول
«الفرنصيص» (الكفار) الذين احتلوا جزءاً من التراب الإسباني آنذاك ويحض على
الجهاد فيهم وسد الثغور في وجههم:

يا أيها الملك الذي عظمت به
وبملكه شعائر الإسلام
هذا الفرنصيص اللعين لقد دنا
منّا ونحن عنه كالنُوم
ومكيدة الكفار أخفى حيلة
كم زلّ فيها ثابت الأقدام
فلتوقظن الناس من غفلاتهم
ليصح باعثهم على الإقدام
واذكر لهم يسر الجهاد وفضله
بل حضهم عليه بالإلزام
واخصص ولاتك في السواحل أنهم
أولى بها من سائر الأقوام
وأعد ما استطعته من قوة
عزماً لترهب عابد الأصنام
سدّ الثغور وقوّ جندك بالعطا
فالحزم نيط بكثرة الإنعام
وانهض بنا فانت روح ذواتنا
والذات لولا الروح في الإعدام
ثم يدعو متضرعاً ومتوسلاً:

يا رب هذا الغرب أنت كسوته
خلل الهنا في هذه الأعوام

بوجود مولانا سليمان الذي
 عمَّ الورى بالعدل والإكرام
 فلتكفه شرَّ النصارى دائما
 واجعله مثوى السادات الأعلام
 وأعنَّ أمير المؤمنين على الذي
 يعنيه من نقضٍ ومن إبرام
 فهو الذي أربت به أيامنا
 في الدين والدنيا على الأيام
 وهو الذي تخشى النصارى أمره
 بالطبع حتى وهي في الأرحام
 فيه رجونا الأمير من مكر العدا
 ونراه خطَّ بسابق الأقالام⁽¹⁾

(1) الحوات: الأمداح السليمانية، (م. خ. ح)، ص 160 - 162. وتوجد هذه القصيدة أيضًا منفردة في كناشة مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 12244 (بدون ترقيم لصفحاتها)، في اسم ابن يحيى. وللحوات قصيدة أخرى يخاطب بها المولى عبدالسلام شقيق المولى سليمان ووزيره يحذره فيها من مغبة هجوم «الفرنصيص» على طنجة بعدما هاجم مصر بقيادة نابليون راجيا منه أن يزود شقيقه السلطان بالنصح والنصيحة لمواجهة الأخطار المحدثة بالبلاد، وقد نقلناها من المخطوطة السالفة الذكر ولم نعثر لها على أثر في «الأمداح السليمانية»:

يذكرنا فعل الفرنصيص ما جرى	بأندلس فكيف نأمن مكره
فهذا لعمر الله خطب أهمنا	إذا كان يرد حول طنجة جمره
وأعدا العدا للمسلمين هوانه	تراه لهم يهون اليوم أمره
أليس الذي قد ضيع الحزم لم يكن	إذا ناب خطب يقبل الله عذره
على أن برهان التمانع لا يفي	لحجته لو كان يعرف سره
فيا معشر الإسلام هذا عدوكم	دنا بالخبير منه يأخذ حذره
فمصر كما ترون أعظم بلدة	تملكه من حيث لم تخش ضره
ونحن اعتصمنا عندما ضاق ذرعنا	بعبد السلام عظم الله قدره
فإن له علما وصدق فراسة	إلى حكمة تكاد تملأ صدره
يحب جميل النصح دينا لصنوه	أجل الملوك أبد الله نصره

ولم يفتر شاعرنا الحوات عن «دق ناقوس الخطر» كلما حلت مناسبة من المناسبات: ففي مولدية له ينبه الشاعر من بيدهم الحل والعقد إلى ضرورة حراسة الثغور المغربية والاستعداد لمواجهة الأعداء، الذين يتربصون بها الدوائر، يقول منها مشيراً إلى اقتراب سفن النصارى من السواحل المغربية الشمالية سنة 1798م، وقد كتب أهل تطوان وطنجة والعرائش وسبتة إلى المولى سليمان ليمدهم بالأسلحة للدفاع عن حوزة الوطن⁽¹⁾:

كان العدو دنا لنا بإذاية
أقصاه عنا القادر المتفضل
ربي أعزّ المسلمين بيئمنكم
وأذلّ أهل الكفر أين تسللوا
وأعد عامل الثغور بحزمه
ما أزهب الأعداء حتى أجفلوا
وخلالكم «حجر النكور» وأبشروا
بخلاء سبتة بعده سيحصل
وأذاك من بعض الحصون بعسكر
يرجو لديك الأمن مما ينزل
ثم يتوجه للمولى جل وعلا أن يقي المغاربة كيد المعتدين على ثغورهم وسواحلهم:
يا ربنا إن النصارى جملة
أعداؤنا لا خير عنهم ينقل
فاردد إلهي كيدهم في نحرهم
وأطل عليهم فتنةً تتأصل

أمولاي بالغ في التأمل منتجا
فمثلك ممن ليس يهمل فكره
وان أمير المؤمنين لمنصف
حاشا، أن يكدر النصح بحره

(1) انظر تاريخ الضعيف الرباطي، ص 328 و«شعر الأمداح السلیمانیة» للحمير، ق 2، ص 154.

وانصر أمير المؤمنين على العدا
وأدم قضية حزمه لا تهمل
واسدّد به كل الثغور حراسةً
إذ ما له إلا عليك توكل
وأطل لهذا المسلمين عمره
والحق يعلو والأباطل تسفل⁽¹⁾

وبقي الشاعر يستشعر دائماً خطر المسيحيين على المغرب ويعبر في جل شعره
عن مكرهم وأطماعهم، مما كان يدفعه إلى تذكير المولى سليمان بخطرهم، وحثه
على مقاومتهم وملء الثغور بالعساكر والأسلحة⁽²⁾.

وعندما استولى الفرنسيون على الجزائر ووهران وتلمسان⁽³⁾ أنشد الشاعر
محمد ابن إدريس العمرابي قصيدة حماسية رائعة، يدعو فيها المغاربة إلى الجهاد
في الكفر وأشياعه، مستنهِضاً أهل الحمية والدين من المجاهدين لإنقاذ الجزائر،
مشجعاً إياهم على الاستشهاد في سبيل الله، وموصيهم بالتقوى وبالرجوع إلى
الدين القويم والاستمسك بحبل الله المتين، حتى ينصروا على أعدائهم. وقد
أمر السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام - الذي كان يمد «الأمير الجزائري»
بالإمدادات الواجرة - أن تقرأ عند كل صلاة في المساجد وعلى كراسي الوعظ في
أدنى البلاد وأقصاها. ومن أبياتها:

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد

(1) الأمداح السليمانية م. خ. ح، ص 125 - 130.

(2) عبدالحق الحيمر: «شعر الأمداح السليمانية»، ص 1، ص 92.

(3) كان الفقيه التسولي يرى في احتلال فرنسا للجزائر مقدمة احتلال المغرب، لذلك نادى بالجهاد
واعتبره «فرض عين في حالة نزول عدو الدين بأرض الإسلام»، واشترط أن يعين من كل قبيلة مائة
«مجاهد» من الذين لا يولون الأدبار ويحسنون احترام مهنة «الجهاد والنضال». (الحرب) (انظر
التسولي: «خطبة وأجوبة»، م. خ. ع. بتطوان ص 54).

قوموا لنصر دينكم قومة
 تحطم أهل الشرك حطم الجراد
 فأين ما أعـددتم لهم
 من قوة الرمي وسبق الجياد
 موتوا كراماً في جهاد العدا
 فالموت في الله حياة تـراد
 وجاهدوا الكفر وأشـياعه
 واستخلصوا منهم بلاداً بلاد
 إخوانكم ديناً وجيرانكم
 أضحوا رعايا الشرك بين أعاد
 تذكروا وقعة أندلس
 وأبصروا منها سبيل الرشاد⁽¹⁾
 يا معشر الإسلام هل غيرة
 لدينكم أو غارة تستجاد
 ويا عباد الله ماذا الونى
 وعدو الدين لكم في اجتهاد
 صولوا وطولوا واقتلوا واتبعوا
 فلهم ولو لبرك الغمام
 فالنصر مضمون لكم والعلـا
 وعزة لدينكم وامتداد

(1) يعتبر الشاعر في هذا البيت وأمثاله:

واسطة الغرب قد حازها والأمر جد والبلا في ازدياد
 حوى الجزائر ووهرانها وراع حاضرا بذاك وبـاد
 أن احتلال الجزائر ووهرانها يعد مأساة أخرى بعد مأساة الأندلس وأن عاقبتها على المغرب ستكون
 أشد وأقوى.

وانتم والله في دولة
أبدى بها النصر الهدى وأعاد
ويمضي الشاعر متفجعا على ما أصاب الدين الإسلامي وأهله مطالبا
بالجهاد في الله حق جهاده:
إِهْ عَلَى الْإِسْلَامِ قَدْ ضَعُفْتُ
أَنْصَارَهُ بَعْدَ قُوَى وَاشْتِدَادِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ الْجِهَادِ
وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا
بِحَبْلِ تَقْوَاهُ فَنَعَمَ الْعَمَادُ
ثم يتخلص الشاعر لذكر بلاء المولى عبدالرحمن في الجهاد لرفعة الدين ونصرته:
إِمَامَهَا إِمَامَ أَهْلِ الْهَدَى
وَمَلِكُهُ مَلِكَ عُلا وَسَدَادِ
هَمَّتْهُ لِلدِّينِ مَعْرُوفَةٌ
وَهَمَّهُ فِي قَمْعِ أَهْلِ الْعِنَادِ
قَدْ نَصَرَ الدِّينَ عَلَى غَرْبَةٍ
فِي الْغَرْبِ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَلِهَادِ⁽¹⁾

وأنشد الشاعر الوزير محمد بن محمد بن عبدالله غريط المكناسي قصيدة
ممثلة، استنكر فيها تباطؤ المغرب في إعانة الجزائر على مواجهة المعتدين على

(1) محمد ابن إدريس العمراوي: الديوان، ص 180 - 186، شهيد: ديوان العمراوي، ص 656 - 661.
وللعمراوي ثلاث أبيات منفردة في الحث على الجهاد، ومن نفس القافية:

دعا داعي الشريعة للجهاد	فلبوا مهطعين إلى الجهاد
فما هذا التثاقل والتواني	وحزب الشرك يضرب في البلاد
ولم هذا التغافل والتعامي	وقد حفت بكم زمر الأعادي

(ديوان العمراوي، ص 629).

تلمسان ويشجع المجاهدين للاستشهاد في سبيل الله ونصرة ملته بعدما هزته
واقعة تلمسان:

ما لي أرى جفن أهل الغرب وشنانا
من بعدما أخذ الكفار تلمسانا
لا عذر للمسلمين في التكاثر عن
جهاده حسبةً منهم وإيماننا
يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا
من العدا حذرکم سرًّا وإعلانا
فجدوا عزمكم على قتالهم
واستخلصوا منهم قرى وبلداننا
فالدين أوجب أن تسعى لنصرتهم
بالنفس والمال أشيأًا وشباننا
والله منا اشترى نفوسنا كرمًا
بجنة جمعت حُورا وولدانا
موتوا كرامًا فإن الحُر يأنف من
معيشة تدع الحليم حيرانا
لا موتَ أفضل من موت الجهاد لمن
يرجو من الله رحمة ورضوانا
كونوا صلابا على أهل الصليب فلا
دين لمن لعدو دينه لانا
بيعوا نفوسكم واغزوا عدوكم
كفى بصفقة من لم يغز خسراننا

وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى

جلادة إخوة كونوا وأعوانا⁽¹⁾

ولما أخذ السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام في الاستعداد لمواجهة الجيش الفرنسي في حرب قاسية، ونصرة الأمير عبدالقادر الجزائري حين اضطلع بأمر الجهاد، ونصرة الدين حين لا ناصر له، ومده بالخيـل والسلاح والمال، المرة بعد المرة⁽²⁾. أنشد الوزير ابن إدريس العمرابي أشعاراً يستفز بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وإيقاظ العزائم، «بعد أن صارت تدب إليهم عقارب عدوهم وتدانِيهم دواهيهِ»⁽³⁾. من ذلك قوله:

يا أهل مغربنا حقُّ النفير لَكُمْ

إلى الجهاد فما في الحقِّ من غلطٍ

فالشركُ في جنبات الشرق جاوركم

من بعد ما سام أهل الدين بالشططِ

(1) الكردودي: كشف الغمة (مخطوط)، ص 79 - 80.

والكردودي هذا هو أبو عبدالله محمد بن عبدالقادر أحمد الكلالي مؤلف كتاب «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام واجب على هذه الأمة» السالف الذكر وقد قدمه للمولى عبدالرحمن ابن هشام.

(2) الناصري: الاستقصا، ج 2، ص 193.

(3) نجد عنصر التحريض على الجهاد مثبتاً لا في القصائد الشعرية وحدها بل حتى في الرسائل التي يتوصل بها المولى عبدالرحمن بن هشام من الشيوخ والقادة. ذلك ما نقرؤه في آخر رسالة كتبها للسلطان الشيخ المختار بن محمد المختار الكنتي جواباً على وفد بعثه إليه: «السلام على من بالحضرة الشريفة عموماً وخصوصاً العلماء ورؤساء الأجناد، وأوصيهم بتقوى الله وطاعة أميرهم ونصحه وتذكيره وإعانتته بالأنفس والأموال والإخلاص في الجهاد وإخلاص النية فيه بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا والثقة بوعده الله عليه». (الرسالة مخطوطة بالخرانة الحسنية تحت رقم 2114، ص 14). وذلك ما نقرؤه أيضاً في رسالة بعث بها محمد عبدالله بن عزوز أحد المقربين من شيوخ الزوايا إلى السلطان العلوي: «اعلم أيها المنصور بعمون الله المجاهد في سبيل الله المخلص الأعمال لله أن النصارى ملكو الجزائر سبوا نساءها... وتجاسروا على القريب منهم والبعيد عنهم، وطمعوا في هذا المغرب وفي الوصول إلى مدينة فاس، هي دار ملكك ومحل حكمك وورايتك موجب عليك - نصرك الله - التهيؤ لهم وجمع العساكر للقائهم.. (ثريا برادة: الجيش المغربي وتطوره في ق 19، ص 153 - 154) (رسالة جامعية) دون ذكر للمصدر الأصلي.

فلا يغرنكم من لين جانبه
ما عاد قبل على الإسلام بالسُّخْطِ
فعنده من ضروب المكر ما عجزت
عن دركه فكرة الشبان والشمط
فوائحُ المكر تبدو من خواتمه
فعنده المكر والمكروه في نمط
وانتم القصد لا تبقن في دعة
إن السكون إلى الأعدا من السُّقْطِ
«من جاور الشرك لا يعدم بوائقه»
كيف الحياة مع الحيات في سَفْطِ⁽¹⁾

وقوله أيضا من قصيدة نونية سماها «سرية النصر لأهل هذا العصر»، تشتمل
على 220 بيتاً، يحض فيها المغاربة على أداء فريضة الجهاد وحمل السلاح في وجه
الأعداء، إذ بفضل الجهاد انتصر المسلمون الأولون وانتشر الدين الإسلامي منها:
فرضُ على كل مسكين وسلطان
حمل السلاح على عُباد أوثان
فحمله شرف عال ومفخرة
خصَّ الإله بها أعزَّ عبادان
لا شيء أحسن من صوت السلاح على
الأعناق في طاعة المولى ورضوان

(1) العمروي: الديوان، ص 402 - 403، شهيد: ديوان العمراوي، ص 663، والبيت الأخير هو مقتبس من
قصيدة أنشدها الشاعر الأندلسي عبدالله بن فرج اليحصبي لما سقطت طليطلة في يدي الرسبان
سنة 478هـ، ومطلع قصيدته هو:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
(انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشي).

فهو الوسيلة في نصر الإله لكم
ونصرة المصطفى أجلّ عدنان
وليس يجحد فضل حمله ملك
وليس يأنف عند كل خاقان
به نبيكم الإله شرفه
بحمله لامثال أمر الرحمن
به أزيلت لهذا الدين غربته
وطار صيئاً به بكل بلدان
والانتهاء كالابتداء قاعدة
في الفقه مقروؤه في كل ديوان⁽¹⁾

وكقوله - مرة أخرى - من قصيدة أنشدها يثبت فيها عزيمة أهل المغرب
ويؤيدهم ويقلل من قيمة عدو الدين، ويمنيهم بالنصر والتمكين إذا ما استيقظوا
وأخذوا أهبتهم للنضال والجهاد، ولبوا نداء الشرع والإسلام، وأنزلوا بأهل الشرك
والكفر كل محنة وبلاء وطهروا منهم البلاد والعباد:
الله أكبر نصر الله قد نزلا
وصارم الحق للإشراك قد خذلا
والله أعلى على الأديان ملته
وأدحض الكفر بالإسلام والمللا
فأمسى الكفور بأهل الشرق مغربنا
وظنّ صابهم من جهله عسلا
يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا
للحرب أهبتكم فالنصر قد نزلا

(1) المشرفي: «الحلل البهية في تاريخ الدولة العلوية» (مخطوط)، ص 211 - 212.

وشمروا لجهاد الشرك واتّزروا
فقد أزاح الهدى عن قلبنا العلا
وكنتم تتمنون الجهاد وأن
ياتيكم إذنه فالله قد فعلا
ماذا التّاني وهذا الكفر جاهركم
بالحرب وازدلفت أشياعه قبل
دعاكم الشرع والإسلام فابتدروا
دفاعاً وانفروا لحرمة الجعلا
وناجزوا الكفر واجتثوا دعائمه
وأنزلوا به كل محنة وبّلا
وطهروا الأرض من أنجاسه ودعوا
أشياعه بدداً وجيشه هملا
إن تنصروا الله ينصركم بشارتها
تهدي اليقين وتهدي خلق من وهلا
فجاهدوا جالدوا ورابطوا اغتبطوا
إن الجهاد شعار السادة الفضلا
ولا يغرنكم لين ببهرجة
فأكثر الشم ليلا شد ما قتلا
والموت أت وأعمال الفتى فرط
فبادروا الموت ذخراً خيرها عملا
أنتم بنو الحرب والهيحاء فازدلفوا
لشرك ووزّوا البيض والأسلا

وقاتلوهم على دين الهدى وصلوا

رواحلكم بالغدو فاز من وصلا⁽¹⁾

ولما دب الوهن والضعف في صفوف الجيش المغربي بعد هزيمته النكراء في
موقعة إيسلي، وعجز عن رد أي عدوان جديد على حدوده، كتب المشرفي «نصيحة»
سماها: «إيقاط أهل الغفلة والمنام والنيابة عمن استيقظ ولم يقدر على الكلام»،
وجهها لرجال الدولة المغربية. وقد تأسف فيها على ما أصاب الأمة المغربية، وذيلها
بأرجوزة نظمها من أجل تحريك الغيرة الإسلامية و«نفخ» روح الجهاد من جديد في
نفوس المغاربة، وإثارة حميتهم لعدم الإذعان مرة أخرى للقوات الأجنبية الزاحفة،
ووجه مرة أخرى الملامة للذين تقاعسوا عن الدفاع عن حوزة الوطن. مطلعها:

دع عنك داعي السرور والمزاح

واسلك سبيل من بكى وناح

ومنها:

وقم على ساقٍ مُحْرَضًا وقل

دون قتالٍ وطنُ الإسلامِ جاخ

كيف؟ وقد خيم أرضنا العدو

وباض فيه طيرُه قهراً وصاح

مال علينا ميلاً واحدة

حيث غفلنا جملةً عن السلاح

فكم من الأبطال في العُرب وكم

من الليوث في البرابر صحاح

وكم من الخيل السوابق العتاق

على العدا بها يضيق الانفساح

(1) العمراوي: الديوان بدون ترقيم لصفحاتها، م.خ. ح (1968).

شهيد: ديوان العمراوي، ص 664.

وكم رجال صابرين صادقين
في الزحف يخشى بأسهم يوم الكفاح
لو كان منهم عسكر لخفضت
له الرقاب وخشاه ذو الوقاح
والأمر سهل لو نصرتكم ربكم
نصركم بوعد جاء كالصباح
فشمروا لأخذ ثأركم عسى
تهب بالنصر عليكم الرياح⁽¹⁾

ويتوالى الاحتلال أطراف المغرب من لدن أعدائه ومغتصبيه، وتتوالى القصائد الشعرية الطنانة تنادى بنصرة الدين وإعلان الجهاد في سبيل الله والبلاد، منبهة أهل المغرب إلى شرور المعتدين وما يبيتونه للإسلام في هذا البلد الأمين، ومستتهضة فيها همهمهم للدفاع عن مقوماتهم ومقدساتهم⁽²⁾.

(1) المشرفي: الحلل البهية (مخطوط) ص 403 و408 - 410. وقد نسب هذه القصيدة صاحب الحلل البهية لنفسه كما ذكرنا. وقد سمع محمد المنوني قائلًا نسب هذه القصيدة للشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني «لأن نفسه لا يتجاوب مع سياق المؤلف».

(المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج 2، ص 29).

نشر عبدالقادر زمامة هذه القصيدة وعلق عليها في مجلة المناهل عدد 21، ص 279 - 286.

وبعد هذه الهزيمة النكراء رفع أيضا «ابن عزوز» رسالة إلى السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام في موضوع قضية الجهاد وجعل منها قضية تهم جميع فئات الأمة.

(انظر: ابن عزوز: «رسالة من عشر ورقات»، م. خ. ع. الرباط).

(2) انظر بعض هذه القصائد والمنظومات والمقطوعات الزجلية التي كان لها دور كبير في سياق المعارك وتحريض المجاهدين والمكافحين والمناضلين والإشادة ببطولاتهم والاستخفاف بالمعتدين الآثمين على بلادهم وعلى دينهم - من عهد المولى عبدالرحمن بن هشام حتى عهد الحماية - في: «الجيش العرمزم لأكنسوس»، ج 2، ص 90، و«الدرر البهية للمشرفي» (م. خ. ح 1020)، ص 409 - 410، و«الوسيط في أدب شنكيط» للشنكيطي، ص 248، و«أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» لعبدالله كتون، ص 26 - 27، و«اللسان المعرب» لمحمد السليمان، ص 151، و«انتهاض همم العشائر لقطع دابر الغادر الثائر» قصيدة للحاج علي زنيبر (مجلة دار النبابة، عدد 11، ص 3، 1986)، و«ثورة الريف» قصيدة لأبي بكر بناني (مذكرة الوزاني، ج 3، ص 456) الخ.. وقصيدة محمد بن الشيخ

وكيفما كان الحال فقد تمسكت هذه المنظومات - التي تعد قطعة من «أدب النكبات» - بالروح الإسلامية العالية، ووقفت من وراء رجال المغرب وجنوده ومجاهديه تشد أزهرهم «وتقرع لهم الأجراس» عند قعودهم عن الجهاد، وتهيب بهم للنضال والدفاع، وتشد من عضدهم وتلهب جذوة الحماس في صدورهم، وتوقظ عزائمهم من «منابر الجوامع وشرفات الصوامع وساحات المعامع»، مؤنية المتخاذلين والمتعاسين، ممجدة المجاهدين - الذين يبلون البلاء الحسن ويسترخصون أرواحهم دفاعاً عن الحق والمجد والعزة، واعدة إياهم بالنصر المبين، ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ - إيماناً من هؤلاء الناضحين بأن الجهاد هو أعظم وسيلة وأكثرها نجعاً لتثبيت قوائم الحضور الإسلامي في هذه الديار المغربية - لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة «الشیطان» هي السفلى، وأنه «شعار السادة الفضلاء» من أهلها.

وإن كانت هذه المنظومات «الشيقة الملتهبة»، لا تترك للمخاطبين فرصة التراضي والانزواء على النفس، بل توجج فيها عاطفتهم - كما أثبتنا - وتذكي حماسهم وتلهب غيرتهم⁽¹⁾ على بلادهم ودينهم، فإنها لا ترتفع من ناحية اللغة أو

سيدي بن المختار بن الهبة الصحراوي (1284هـ) التي يحث فيها الصحراويين على الانتفاضة لمحاربة المستعمر الفرنسي - الإسباني. منها:

حملة الدين إن الدين صار	أسيرا للصوص وللنصارى
فإن بادرتموا تداركوا	وإلا يسبق السيف البدارا
(عبدالعزیز بن عبدالله: «العلانية والوجدان في شعر المغرب الأقصى» - دون ذكر للمصدر الأصلي - مجلة التاريخ العربي، عدد 4، 1997.	
وقصيدة شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم:	

وجب الجهاد بني بلادي فانهضوا	اليوم يعذب للحمام مذاق
وجب الجهاد بني بلادي فليكن	منكم لميدان الجهاد سباق
وإذا أريقت في الجهاد دماؤكم	فكذا دماء المسلمين تراق

(مختارات من ديوان شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم).

(1) لقد انتبه ابن خلدون - سابقا - إلى دور الشعر المغربي في تحريك النفوس والدفع بها إلى الجهاد والنضال عندما ذكر في مقدمته أن «زناة» كذلك من أمم المغرب كان يتقدم الشاعر عندهم أمام

الأسلوب الشعري الفني أو الملكة الإبداعية، لابتذال معانيها، ولأن معظم ناظميها لم يكونوا «شعراء أصلاء» وإنما كانوا فقهاء وعلماء تعاطوا هذا الفن من القول - دون تكلف لإتقان «ماهية الإبداع الشعري»⁽¹⁾، وتعاطوه تلقائياً عن إحساس عارم بالألم والأسى، وبنفوس مكلومة حزينة⁽²⁾. ورغم ذلك فإن هذه المنظومات ترتفع من ناحية هدفها الأسمى - لما تحتوي عليه من معاني تترجم الأفكار والمضامين - وتجعل من أصحابها مؤمنين مجاهدين أيضاً مصداقاً للحديث الشريف: «المؤمن من يجاهد بنفسه ولسانه».

الصفوف ويتغنى فيحرك بفنائها الجبال الرواسي، ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها.. وأصله (أي الشعر) فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة، كما ينبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها الفرح...» (المقدمة، ج 2، ص 43) وانظر محمد الشامي: حرب الريف والمأثور الشفوي - شعر المقاومة والجهاد - ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب، ص 411.

(1) عن هذه الفكرة انظر: أحمد الطريسي أعراب: «الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب»، ص 15.

(2) لقب بعضهم الشعر المغربي - القريب من شعر الزهد - في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب «بشعر الفقه والفقهاء».

الفصل الثاني

شعرالدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي

الحقيقة أن العدوان الخارجي على المغرب - لاسيما الإسباني منه والبرتغالي، جاء كرد فعل انتقامي للوجود المغربي في الأندلس بصفة خاصة وللوجود الإسلامي بصفة عامة. فالإسلام كان في المغرب دائماً القوة الدافعة وراء كل الحركات السياسية والدينية والجهادية. وقد بدأ رد الفعل هذا مباشرة بعد انتهاء ذلك الوجود. وكان العدوان موجهاً مباشرة بالدرجة الأولى للمغرب الذي كان يحمي الأندلس ويجاهد في سبيل الله لأجل إبقاء إسلامها راسخاً على أرضها وبين أهلها والذي كان موجوداً بثقله لا يزحزحه مزحزح.

فلما ضعفت دولة بني مرين عسكرياً وأصاب أسطولها ما أصابه من التلف والضياع⁽¹⁾ لما كان عائداً من تونس، اتجهت أنظار البرتغاليين إلى الشواطئ المغربية للسيطرة على موانئها بفضل أساطيلهم القوية. فاستولى البرتغال على سبتة سنة 818هـ أيام أبي سعيد ابن أبي العباس ابن أبي سالم المريني⁽²⁾ ولم يكن «فضل

(1) قال ابن خلدون: «وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخريين إلى أن استوفوا ما قدر من أجلهم...» (التعريف، ص 44 - 45).

(2) كان سبب استلائهم عليها هو تنازل أحمد بن أبي سالم المريني عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة سنة 816هـ، وبعد الفتنة التي قامت بين المرينيين «السعيد» وقريبه أبي السعيد عثمان أرسل إليها أبو السعيد صالح بن صالح الذي ظلم أهلها. ولما بلغ ذلك إلى الفرنج (البرتغال) هاجموها بمراكبهم ونازلوا أهلها ودخلوها.

وفي هذا يقول أبو الحسن ابن فركون الشاعر الأندلسي:

السبق» للبرتغال بل سبقهم الإسبان حيث هاجموا تطوان سنة 803هـ انتقاماً من المجاهدين الأندلسيين الذين كانوا استقروا بها منذ عهد أبي ثابت المريني.

فلو لم تقو حركة الجهاد - بعد العهد المريني - لقام الإسبان والبرتغال باحتلال بلاد المغرب كلها، ولكن حركة الدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي التي شنتها دول الوطاسيين والسعديين والعلويين كانت لهم بالمرصاد.

وهكذا لما بدأ انهيار دولة بني مرين - بعد قتل أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني سنة 762هـ - قامت على أنقاضها دولة بني وطاس - التي كانت امتداداً للمرينيين - لإنقاذ البلاد مما يتهددها من ويلات الحروب الداخلية، وللوقوف في وجه الاحتلال البرتغالي والإسباني لشواطئها، وزحف الأتراك المنتظر، لما تمكنوا من الاستيلاء على المغرب الأوسط في نهاية عهد بني مرين.

وقد اتخذ أول أمرائها محمد الشيخ الوطاسي - بعدما أفلت من فتك السلطان عبدالحق المريني - مدينة أصيلا شبه عاصمة له حتى انتشلها من قبضة البرتغاليين الذين عزموا على احتلالها، ثم دعا لدولته الجديدة وتمكن من احتلال فاس واتخذها عاصمة له، وبرهن بذلك على شجاعته وميله إلى الجهاد.

هذا وإن وليّ الكفر أرسلها	سفنا لنار الوغى في مائها وهج
هذا العدو الذي وافق مواكبه	للحرب يرفعها من بحرها ثج
أقام في صدر مرسى لا حراك له	كأنه الصدر منه ضيق حرج
أتاهم بقوم قد استهواهم أمل	يعتادهم هوس يقتادهم هوج

وفي قصيدة أخرى هجا ابن فركون أبا سعيد ونعمته بأنه «ولي الضلال والبغي وأهل الكفر»، ويعني بهم فرناندو الأول ملك أراغون:

وهذا ولي الكفر أخفق سعيه	وخاب وأعلام الجهاد خوفاق

ولما خرب البرتغاليون سيطة وأخذوا ما كان بها من الأموال والذخائر والكتب العلمية رفع أهلها المحاصرون قصيدة إلى أهل الإسلام من بلاد مصر، مطلعها:

حماة الهدى سبقا وإن بعد المدى	فقد سألتكم نصرها ملة الهدى

وقد توالى الحصار على سيطة لتحريرها وفك أسرها من ذلك أن أبا سعيد أرسل جيشاً لتحريرها ولكنه هزم. ولما انعقد الصلح بين البلاطين: بلاط فاس وبلاط غرناطة، تم على أثره حصار مشترك لسيطة سنة 822هـ ولكنه كان بدون جدوى.

(انظر ديوان ابن فركون، تحقيق محمد ابن شريفة، ص 88 - 92).

وقد استغل البرتغاليون ضعف الدولة المغربية وفوضى الحكم التي ضربت أطنابها في خضم الصراع الحاد بين الوطاسيين ووزراء بني مرين، فقاموا بالهجوم على السواحل المغربية الأطلسية⁽¹⁾. وفي هذه الظروف الحرجة تأسس رباط

(1) كآنفا (876هـ - 1465م)، والجديدة (907هـ - 1514م)، والعرائش وأكادير (910هـ - 1505م)، وآسفي (913هـ - 1508م)، وأزمور (914هـ - 1513م)، والمعمورة (المهدية) وأصيلا (920هـ - 1515م)، كما سبق لهم أن احتلوا سبتة سنة 1818هـ وطنجة سنة 869هـ. (الناصري: الاستقصا، ج 6، ص 172) وانظر تفاصيل بعض هذه الاحتلالات البرتغالية ونتائجها في كتاب: أحمد بوشرب: «دكالة والاستعمار البرتغالي» ابتداء من ص 186، وفي نزول «الطاغية» البرتغالي المعمورة يقول محمد بن عبدالرحمن الكراسي الريفي في أرجوزته: «عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل»، ص 23:

في مركب في البحر والأسطول	أرسى بواد سبو لكي يصول
فيه أقاموا بلدا متينا	مدورا من بعد أربعينا
وعمره بالرجال والعدد	وكل ما يحتاجه أهل البلد
وأهل فاس مع مكناس بها	تجار بالعون لها لربها
يا ناصر الإسلام تدعو كل حين	أنصر جيوش المسلمين الصالحين

وفيما يخص مدينتي سبتة وطنجة فقد قام الملك البرتغالي «جوان الأول» في آخر عهد بني مرين بحملة بحرية سنة 1415م احتل بها مدينة سبتة التي كانت تحت قيادة صالح بن صالح العزفي. كما توجه خلفه لاحتلال مدينة طنجة سنة 1437م. ولكن القوات المغربية استطاعت أن تهزم هذه الحملة وتطوق الجيش البرتغالي (د. عباس الجراري: البرتغال بصمات تاريخ مشترك - مجلة المناهل، عدد 12 - ص 5، ص 13).

ثم أعاد البرتغاليون الكرة على طنجة سنة 1464م بقيادة ألفونشو الخامس ولكنه لقي نفس المصير. ولما شعر البرتغاليون بأن المغاربة بدأوا يخططون في «الداخل» لاسترجاع مدينتي طنجة وأصيلا بدأوا في تشييد قلعة حصينة عسكرية لتهديد العرائش والقصر الكبير قرب مصب نهر وادي المخازن. فقام المغاربة بقطع الوادي على البرتغاليين المغيرين وجهز المولى محمد الشيخ الوطاسي جيشا انقض به على القلعة وبنى سدا في الوادي بالأحجار والأعشاب لقطع الإمدادات والمواصلات عن البرتغاليين، وشرع المجاهدون في ضربهم بالمجانيق. وبذلك تم جلاء البرتغاليين عن الحصن. وقد أطلق د. عبدالهادي التازي على هذه المعركة اسم معركة «وادي المخازن الصغرى».

(مجلة المناهل، عدد 33، ص 1985، ص 126). عثر أحمد بوشرب على وثيقة برتغالية تتعلق بهذه الواقعة التي أطلق عليها «واقعة الجزيرة» وذكر أن البرتغاليين انهزموا فيها سنة 1489م. (مجلة كلية الآداب بفاس ع 2، 1979 - 1980م، ص 376 - 386 وانظر لنفس المؤلف: «وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائج» ص 105 وما بعدها).

وفي هذه المعركة يقول الكراسي:

جيش أهل الغرب طراودنا	وكان للغرب نصيرا ما ونا
جاهد بالمال وبالنفوس	قطع طمع الكافر البئيس

للجهاد في شفشاون واستطاع أهل الرباط من المجاهدين أن يصدوا منه - بقيادة بني راشد - التوسع البرتغالي الذي كان يهدف إلى الوصول إلى فاس مقر دار الملك وكعبة العلم والفكر. وقد تعززت هذه الحركة الجهادية بفلول الأندلسيين النازحين إلى العدو المغربية (1018هـ - 1609م).

وقام الإسبان بنفس الهجوم على سواحل «الأبيض المتوسط» حسب الاتفاق المبرم بين البرتغال والإسبان، ولتحديد مناطق الغزو المسيحي بإفريقيا سنة 894هـ - 1494م⁽¹⁾. وكان لغزو السواحل المغربية من لدن البرتغال والإسبان⁽²⁾، وعجز

ولم يزل مع المجاهدين	من فاس والانجاد أجمعينا
إلى أن يقول:	
غلب أن بلغ قصدا واعتلا	وأجفل الكفار عنه جفلا
وغلب الإسلام بعد الترح	وكان ذاك باكتمال الفرح
أخلى جميع ما النصرى عمروا	وجهة الهبط فكلما دمروا
وعاد للإسلام كل مسلم	وصار جيش الكفر غير مسلم
(عروسة المسائل، ص 15 - 17).	

ومما يحسن ملاحظته أن هذه المنظومة «عروسة المسائل» تعد سجلا مدققا للأحداث التاريخية التي عاشها مجاهدو المغرب في صراعهم المستميت مع البرتغاليين في العهد الوطاسي والتي عاصرها محمد الكراسي صاحب «العروسة»، إلا أن مستواها اللغوي والشعري قد يوصف بالضعيف، وأسلوبها بالجاف (رغم أنه قصصي).

(1) الكراسي: عروسة المسائل، (تعليق عبد الوهاب بن منصور) ص 21.

(2) ذكر د. أحمد بوشرب في كتابه: «دكالة والاستعمار البرتغالي» أن القرصنة الإسلامية والمغربية (الجهاد البحري) كان له دور كبير في دفع الأيبيريين إلى العمل على احتلال الموانئ المغربية. فلقد كان هذا العامل سبب هجوم القشتاليين على تطوان، وعلل الإسبان احتلالهم للمليبة وبادس لكون هذه المراكز كانت مراكز تجمع للقرصنة الذين كانوا يعرضون سواحلهم للنهب. وكان نفس العامل سبب تحطيم أنفا على يد البرتغاليين (واحتلال سبتة والعرائش والقصر الصغير وطنجة وأصيلا)، بالإضافة إلى أن البرتغاليين كانوا يهدفون إلى احتلال هذه الثغور المغربية لحماية استقلالهم ومنع كل محاولة للعبور إلى العدو الأندلسية لحماية الإسلام المهدهد بها. أما أسباب احتلالهم لموانئ دكالة (الثغور الأطلسية) فهو تأمين شواطئهم وأراضيهم من هجوم الأساطيل الإسلامية وضمان سلامة سفنهم وتوفير الموانئ لها على طول طريقها إلى سواحل غرب إفريقيا أولا ثم إلى الهند والبرازيل منذ بداية القرن السادس عشر. (انظر أحمد بوشرب): «دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور»، ص 153 - 154 و360). وذكر بعض المؤرخين أن استيلاء المسيحيين على الشواطئ المتوسطية والأطلسية المغربية كان غرضه الأساسي هو الانتقام من المغرب الذي ساعد الجيوش الإسلامية على فتح الأندلس. وقد رفع فقهاء دكالة وعلماءها راية الجهاد ضد الغزو

الدولة الوطاسية عن تحريرها ومقاومة الغزاة المعتدين عليها - لضعف أمرها وتناحر أمرائها - رد فعل قوي في نفوس المغاربة الذين انتفضوا للجهاد في معارك عنيفة. وقد قاد فورته علماء وصلحاء ومتصوفة شرفاء متطوعون في سبيل الله - كأشراف بني راشد في جبل العلم بالشمال المغربي⁽¹⁾ والأشراف الجزوليين بجنوبه في سوس - ولما كان الشرفاء السعديون يحتلون في نفوس هؤلاء المجاهدين مكانة مرموقة - لشرف نسبهم - لجأوا إلى إقناعهم بقبول تولي الملك عليهم لتنظيم مقاومة حربية جديدة ضد النصارى الذين احتلوا معظم الموانئ المغربية، ولتأسيس دولة سعدية محكمة وقوية تتبنى شؤون الدولة المغربية المدنية منها والحربية⁽²⁾.

البرتغالي واستشهد منهم عدد كبير (انظر بعض أسماء هؤلاء في مخطوطة الفقيه الكانوني العبدى: «جواهر الكمال في تراجم الرجال» الموجودة بخزانة محمد المنوني). وقد عانى البرتغاليون الأمرين من هذه المقاومة البطولية بالإضافة إلى المقاومة الرسمية المتمثلة في عصيان قبائل المنطقة ومقاومة الهناتيين والوطاسيين والشرفاء السعديين لخطة توسعهم.

(انظر تفاصيل ذلك في الفصل الثاني: «المقاومة الرسمية» من كتاب بوشرب: «دكالة والاستعمار البرتغالي» ابتداء من ص 377).

وانظر كذلك: «مقدمة تاريخية حول الحملات الصليبية البرتغالية المنظمة ضد المغرب» في كتاب: «مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن» لمحمد بن عزوز حكيم، وقد حصر عدد الحملات البرتغالية على المغرب في سبع عشرة حملة تبعتها حملة الاسترداد المغربية. (ص 19 - 28)، وبحث عبدالرحيم الجباري: «مع البرتغال من احتلال سبتة إلى معركة وادي المخازن (1415هـ - 1578م)». ذكر فيه أن الحملة الصليبية البرتغالية على المغرب استغرقت 163 سنة، عرف المغرب خلالها 18 هجوما على ترابه وسقوط عشر مدن شاطئية في يد البرتغال، كما أصدرت أثناءها حاضرة الفاتكان 67 صكا كلها تتعلق بحملات البرتغال على المغرب (العلم 5 - 8 - 91). وألف محمد بن أحمد الشراط مخطوطا بعنوان: «مختصر لأهم الأخبار عن حروب المجاهدين الأبرار من أجل استرداد المدن والأمصار من يد أعداء الله النصارى الكفار». (حققه ونشره بتطوان سنة 1979 تحت عنوان: «لماذا نطالب باسترجاع سبتة ومليلية».

(1) وقامت السيدة الحرة بنت أمير شفشاون (أول رباط للجهاد) مولاي علي بن راشد (من أكبر مجاهدي أفراد بن راشد) حكم تطوان ورئاسة الجهاد.

وقد ورثت عن زوجها المجاهد أبو الحسن علي المنصري الأندلسي الذي نزل بمدينة تطوان القديمة كرئيس للمجاهدين بها وقائد حربي لجيوش الأندلس أسطولا جهاديا قويا تعاون مع الأسطول التركي لممارسة الجهاد البحري ضد الإيبيريين ابتداء من أواخر سنة 1530م. انظر تفاصيل عن الحركات الجهادية لهذه المجاهدة بمقال عن «السيدة الحرة الأميرة المجاهدة» لعبدالرحيم الوهابي بمجلة دعوة الحق (مارس - أبريل 2004).

(2) قال الإمام عبدالله الهبطي الذي عاصر العهد السعدي منذ أوله في هذا المعنى:

وفي هذا «الخضم العارم» انبرى الأشراف السعديون - من قلب الجنوب المغربي لوصول حاضرة مراكش بحاضرة فاس - ولقيادة ثورة مسلحة وحركة جهادية منظمة ضد البرتغاليين بقيادة محمد القائم السعدي سنة 910هـ.

ولما لم يتمكن القائم بأمر الله من بعده ولا أبو العباس أحمد الأعرج من مطاولة البرتغال وطردهم من حصن فونتي (أكادير)، استطاع محمد الشيخ المهدي بواسطة مدفعيته أن يجلي البرتغال عن أكادير سنة 948هـ، ويحرر كثيراً من المرافئ المغربية⁽¹⁾. فكان نموذجاً للملك السعدي الذي يتحدى الصعاب ويقود حركة الجهاد لتحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي. وقد اتخذ مراكش عاصمة له حتى يبقى قريباً من أنصاره أهل سوس الذين ناصروه وساعدوه في تأسيس دولته السعدية. ثم توجه إلى الشمال المغربي حيث دخل مدينة فاس سنة 959هـ، وفر أبو حسون علي بن محمد الشيخ الوطاسي عند الأتراك ليستجد بهم. فكان التجاء أبي حسون إلى الأتراك حافزاً للملك السعدي أن يغزوهم في قعر دارهم: تلمسان، محاولاً بذلك الغزو أن يضم المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، ولكنه لم يستطع الصمود أمام مجابهة الأتراك وحماتهم الإسبان والوطاسيين، وبقياء البرتغاليين بالشواطئ المغربية، دعاة الشعوذة.

فرحم الله أميراً قد سلك	نهج الهدى وما سواه ترك
كما به أخذ الحدود والحقوق	والأمر في حرز الديار والطرق
والصون للثغور حيث الكفار	دمرهم ربي سبوا للأبكار
فإن رأى أمراً يضر بالمسلمين	سدده ولم يكن في الغافلين
حنانه أيضاً على الرعية	مثل الأب المهموم بالذرية
وما أحوج الورى لدى شر الزمان	إلى إمام قائم بالقرآن

(منظومة الإمام الهبطي - مخطوطة غير مرقمة الصفحات).

وانظر عن نشأة هذه الدولة: الفشتالي: مناهل الصفا، ج 2 من ص 249 إلى ص 253 (ت: عبدالله كنون)... والناصرى: الاستقصا ج 5، ابتداء من صفحاته الأولى.

(1) «لقد سجلت المدة التي قضاها البرتغاليون بأكادير (37 سنة) منعطفاً جديداً في تاريخ سوس والأقاليم المحيطة به وذلك بأن ساهم الاستعمار البرتغالي بطريقة غير مباشرة في جمع شتات القبائل السوسية وتوحيد صفها وكلمتها في الجهاد ضد النصارى» - أحمد صابر في مقدمة: «تاريخ سانتكروز أكادير» (سلسلة وثائق جامعة ابن زهر بأكادير «رقم 1»).

ولقد حاول الملك السعودي التحالف مع الإسبان ضد الأتراك للتوصل إلى احتلال تلمسان ولكن جهوده باءت بالفشل، ولم يرضخ أمام الأتراك لمبايعة الخليفة العثماني إلا أنه استطاع أن يسترد فاس مرة ثانية من الوطاسيين - الذين استعانوا بالأتراك على احتلالها سنة 961هـ - واحتفظ بمراكش عاصمة له لصلاته الوثيقة بأهل الجنوب، لكن الأتراك دسوا للملك السعودي دسياسة أودت بحياته، ليتمكنوا من الاستيلاء بعدها - وبدون جدوى - على مدينة فاس⁽¹⁾، واعتمد خلفاؤه السعوديون بعد ذلك على الجنوب المغربي فقط، وعلى رجاله وشعرائه وأدبائه، وانعكس الوضع في المغرب، وتغير الاتجاه السياسي رأساً على عقب، ولم يبق أي اتصال بالأندلس ورجالها، واقتصرت المغرب السعودي على الدفاع عن الوطن وحمايته ومحاربة المتحالفين مع أعدائه ومقاومة المغيّرين على سواحله. وأصيب الأدب السعودي بشيء من الخمول والركود لاضطرار أهله من علماء وفقهاء وكتاب وخطباء وشعراء إلى المشاركة في حركات الجهاد ورفع بنودها.

وبعد أبي محمد عبدالله الغالب الذي حارب دخول الأتراك إلى المغرب وألحق بهم هزيمة نكراء بوادي اللين - تولى الملك أبو عبدالله محمد المتوكل، الذي لما دخل

(1) ما زالت خزانة اسطنبول محتفظة برسائل الخلفاء العثمانيين إلى حكامهم بالجزائر، يلحون عليهم فيها بدراسة أحوال المغرب تمهيدا للاستيلاء عليه، وكانت هذه الفكرة تراود الخلفاء العثمانيين وخصوصا لما كان الأمراء السعوديون يستغيثون بهم لاسترداد عرشهم من المتربعين عليه، ولكن الأتراك كانوا يصطدمون دائما في جميع محاولاتهم، بتمسك المغاربة باستقلال وطنهم وبحريتهم، ولم يمنع هذا الاصطدام من أن يبرم المغاربة معهم أو مع حكامهم بالجزائر عدة معاهدات تتعلق بتخطيط الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر العثمانية، كما تبادل معهم ملوك المغرب السفراء والبعثات الدبلوماسية، وخاصة في عهد الدولتين السعودية والعلوية.

(انظر مقالا في هذا الصدد لعللي الريوسني بمجلة «الوحدة الكبرى» تحت عنوان: «وضع الحكومة التركية الوثائق التاريخية أمام المؤرخين» (دجنبر 1989م).

ورغم المناوشات التي كانت بين السعوديين والأتراك، فقد كانت لديهم رغبة مشتركة للقضاء على الغزو الإيبيري، بدليل حضور الأتراك في معركة وادي المخازن ضد هؤلاء المسيحيين، وحضور المغاربة في معركة: «حلق الوادي» التي شنّها العثمانيون لنفس الغاية (د. محمد مزين: «في كتاب تاريخ للجهاد المغربي المشترك ضد الغزو الإيبيري» - الجامعة الشتوية الكتاب الأول - ص 254).

إلى طنجة تقرب من البرتغاليين، وفر عند «الطاغية» سبستيان البرتغالي واستجد به ضد عمه أبي مروان عبدالمملك المعتصم. فاشتراط عليه الملك البرتغالي أن يكون للبرتغاليين سائر السواحل المغربية وللملك السعدي ما وراءها. فلما علم المغاربة بهذا الاتفاق بايعوا عمه عبدالمملك المعتصم بفاس⁽¹⁾. فأمر الملك الجديد أخاه أحمد أن يخرج من فاس بالجيش، ولما نزل «سبستيان» البرتغالي بوادي المخازن قرب قصر كتامة وقطع الوادي أمر عبدالمملك بتهديم القنطرة ونادى: «أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله». وزحف إليه في جنود وخيل الله المسومة يوم 30 جمادى الأولى سنة 986هـ 4 غشت 1578م. «ولم يكن عندهم أحلى من الاستشهاد». فالتقت الفئتان، توفي عبدالمملك المعتصم في الصدمة الأولى⁽²⁾، وكنم أخوه أحمد وفاته، واستمر القتال على أشده حتى ولى المشركون الأدبار، وهب ربح النصر، ودارت على البرتغاليين وحلفائهم من الجنود الإسبان والطلليان دائرة البوار وتقهقروا إلى الوادي وغرقوا فيه، وكان من بين الغرقى محمد المتوكل «المسلوخ»، (لأن المنصور أمر بسلخ جلده وحشوه بعد موته).

فتوفي في هذه المعركة ملوك ثلاثة: الشهيد عبدالمملك وابن أخيه «المسلوخ» والمملك «سبستيان» البرتغالي⁽³⁾. وبعد أن أذن الله بالنصر على الغزاة بويغ أبو العباس

(1) لما استغاث محمد المتوكل بالنصارى نقض العلماء بيعتهم له، فوجه رسالة إلى علماء المغرب وشرفائه يعيهم على ذلك فأجابه كافة أهل المغرب من شرفاء وعلماء وصلحاء وأجناد ورؤساء برسالة مطولة «دافعة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله». (ابن إبراهيم: الإعلام، ج 5، ص 159).

ويذكر بعض المؤرخين أن عبدالمملك اعتلى العرش هو الآخر بمساعدة الأتراك العثمانيين، ثم تكرر لهم رغبة في التحالف مع الإسبان (انظر: محمد العربي الخطابي: «أمير سعدي في خدمة البلاط الإسباني» - المناهل - رقم 13، ص 5، ص 80 وما بعدها).

(2) عاش عبدالمملك طول حياته مجاهدا ومات في ساحة القتال شهيدا، كان مثال الملك المكافح من أجل عزة بلاده وحماية ملته ودينه.

(انظر وصفا كاملا لبلائه في هذه المعركة، ما كتبه عبدالله كتون بعنوان: «عبدالمملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن»، - مجلة المناهل - عدد 13، ص 5، ص 7).

(3) مما جاء في «درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك» لأحمد بن القاضي سنة 1025هـ، في هذا الموضوع قوله: (ص 14):

أحمد الناصر ملكاً على المغرب وبعث إلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب وإلى الخليفة العثماني - يخبرهم بأن «الله أنعم عليه بإظهار الدين وإهلاك عبدة الصليب»⁽¹⁾. فكانت هذه المعركة بمثابة وقعة حاسمة في تاريخ الصراع بين الإسلام والمسيحية - حتى شبّهت بغزوة بدر الكبرى، أنزلت ضربة قاضية بالقوة البرتغالية، ووضعت حداً لوجودها بالمغرب، وجعلت دول الأتراك والإسبان والبرتغال أنفسهم تعدل عن ساستها التوسعية بالمغرب.

وابن أخيه بالنصارى اعتصما	وصار يستنجدهم لمن سما
أجابهُ اللعين بسبتيان	بجيشه ومعه الوثان
وعدد الجيش الذي قد جمعا	ينيف عن مائه ألف سمعا
فقيض الله له المنصورا	ملكا شجاعا أسدا هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين	بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير	في ساعة من الزمان ذا شهر
مات بها سبستيان اللعين	فما له على الردى معين
ثم محمد الذي أتى به	مات غريقا يومه فانتبه
لحكمة الله العظيم القاهر	أفادهم رزيّن المنابر
بذكر عمه أبي العباس	الحازم الرأي شديد الياس
نجل المصطفى المختار	به زها المغرب على الأقطار

(من أرجوزة عن تاريخ المغرب تشتمل على وصف وقعة وادي المخازن وهي مخطوطة بالخزانة العامة 1428 د) وقد شرحها ناظمها تحت عنوان: «الدر الحلوك المشرق بدرة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك» (م. خ. ع رقم 52 د).

(1) انظر تفاصيل هذه الوقعة في نزهة الحادي: لليفرني وفي مناهل الصفا للفشتالي، وفي المنتقى المقصور لابن القاضي، وفي مرآة المحاسن للفاسي، وفي الترجمان المغرب للزياني، وفي نشر المثاني للقادري، وفي الاستقصا للناصر ج 5، ص 69. وقد أطلق هؤلاء المؤرخين كلهم على هذه المعركة اسم معركة وادي المخازن لأنها جرت على الضفة اليسرى للوادي، وقد كان يطلق الجيل الذي عاش عصرها اسم: معركة «تامدة» وهو تحريف للفظ ثمد (جمع ثمد) لأن مكان المعركة كان يتحول خلال فصل الشتاء إلى شبه مستنقع للماء، أما الأجانب المعاصرون للمعركة فقد أطلقوا عليها اسم معركة القصر الكبير لأنها وقعت قرب هذه المدينة ثم صارت تعرف عندهم بمعركة الملوك الثلاثة. محمد بن عزوز حكيم: «مساهمة رباط تازورت في معركة وادي المخازن» ص 15 - 16. وأورد د. أحمد بوشرب في كتابه «وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائج» وصفا لهذه المعركة من خلال كتاب: «حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا» لمؤلف برتغالي مجهول (ص 115 - 129).

وهكذا خاض الجيش السعودي هذه المعركة - بعد فترة من مرارة الاحتلال والحروب - بخطة عسكرية محكمة واستعداد تام من جهة، وبحماس كبير ومعنوية عالية وتصميم أكيد على النصر من جهة أخرى. وكانت القيادة الملكية السعودية في مستوى الشعور الوطني والعزيمة القوية لتقويض الغزو البرتغالي وخوض معركة فاصلة مصيرية، «حالت دون وقوع المغرب في شرك التبعية والانقراض للقوى المسيحية المتمثلة في الدولتين الإسبانية والبرتغالية أو للإمبراطورية العثمانية». وكانت معركتها معركة إسلامية بروح الجهاد التي كانت تطغى عليها «ربما أفضى بالمعركة إلى نتائج لم تكن في صالح المغرب فحسب، ولكنها قوت جانب العالم الإسلامي»، وعززت مكانته وأبعدت عنه كثيرًا من الأخطار الصليبية التي كانت محدقة به⁽¹⁾.

فكانت بذلك معركة غرة في جبين تاريخ الجهاد بالمغرب، وخلفت للمغرب ذكرًا خالدًا في المعالمين.

وقد سجل أصداء هذه المعركة الخالدة كثير من الشعراء، إلا أننا لم نطلع إلا على نزر قليل منها، وعلى «صبابة لا تروي غليلا». وربما توجد آثار شعرية أخرى مدفونة في «بطون الدفاتر وخبايا الخزائن»⁽²⁾.

ومن الشعراء الذين عاصروا الواقعة وأثارت شاعريتهم وكانت مصدر وحي لهم: الشيخ داوود بن عبد المنعم الدغدوغي الدجاني التانوتي الذي عاش في أواخر القرن العاشر. وقد وصف المعركة وصفًا دقيقًا - لا يكتبه إلا شاهد عيان - وصور شهامة الجندي المغربي وبسالته في جحيم المعركة تصويرًا رائعًا، وهو يستشهد

(1) د. عباس الجارري: «معركة وادي المخازن وملاحمها في الأدب المغربي»، ص 12 - 13.
(2) ومما يؤيد قول عبدالله كنون ما قاله محمد بن تاويت أيضا: «لا شك أن شعراء قد قالوا في هذا النصر العظيم وفي هذه الوقعة التي خرج منها المغرب شامخ الأنف، ولكننا ليس بأيدينا من تلك القصائد إلا هذه القصيدة لأحد أفراد بيت الدغدوغي.. هذا البيت الذي عرف من أفراد من كانت تهزه هذه المواقف الجهادية...»: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 3، ص 670.

بقلب ثابت الانتصار، وكيف أظهر الله المغاربة على أعدائهم حتى خلاص لهم وجه
المغرب وأعادوا الأمور إلى نصابها في بأس وشجاعة وحزم. مطلعها:

جنى النصر ما بين الظبا والكنائن

على سابقات المذكيات الصوافن

ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى

لحوزته دون العدا خير صائن

فبعدما وصف شاعرنا هجوم الجيش البرتغالي على المغرب وسواحله بقوله:

وماذا يفيد الجيش إن كان ربه

كسبستيان عند وادي المخازن

يسرب نحو المغربين جنوده

كمثل الدبا عن ماخرات السفائن

وما قصده إلا انتهاك حريمه

ودك صياصيه وبعث الدفائن

وقود أساري المسلمين لأرضه

يقدمهم للصلب مثل القرائن

فذا مكره والله يمكر مكره

به إذا ما حدها نحو تلك الأماكن

تعرض إلى مقاومة الجيش المغربي ووقوفه في وجه هذا الزحف المسيحي

بجنود من جند الله مفتخرًا بكتائبه التي «تضرب الهامات ويهوي فيها الفرسان
بأسلحتهم على الخصوم كالبزة الكواسر»:

تجمع جند الله من كل وجهة

وقد غض من مدينة كل دائن

وتلوهم الأجناد والناس كلهم
تضل بهم أبصار كل معاين
ثم عاد الشاعر يصف المعركة وانهزام سبستيان فيها وصفاً دقيقاً وعميقاً
«تضمن صوراً وملامح تدخل في صلب الحقائق التاريخية»⁽¹⁾:
فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها
سوى أنفيس الشجعان وسط الميادن
قد انقضت الفرسان منا عليهم اذ
قضاض صقور الجو فوق الوراثن
إذا أرعدت تلك المدافع أبرقت
صقيلات بيض الهند فوق اليمائن
فلولا البروق الخاطفات من الظبا
لما أبصرت عين خلال المداخن
وصابر كل قرنه فمجنل الث
رى وجريح ساحب للمصارن
وسبستيان كفنته مياهاه
هزيمًا وماء النهر أفضع كافن
وحين قضى التيار في الكفر ما قضى
وأشـلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت ألوفًا من رؤوس جمعت
ويا ليتها أيضًا جدار الماذن

(1) «وأود هنا أن ألفت الانتباه - يقول د. عباس الجراري إلى أن مثل هذه القصائد تعتبر وثائق يمكن الاعتماد عليها في التاريخ للمعركة، بما تتضمنه من بعض الصور والملامح التي تدخل في صلب الحقائق التاريخية والتي قد تكون مدونات التاريخ أغفلت ذكرها والإشارة إليها». (د. عباس الجراري: معركة وادي المخازن في الأدب المغربي، ص 16، ط 2).

بغوا فجنوا جني البغاة فأصبحوا
سماد الفيافي لا سماد الفدادن
إلى أن حقق الله النصر للمؤمنين على ذوي الكفر:
هنالك نصر المؤمنين مؤزراً
على كل ذي كفر تهجم الميامن
لقد ذاق فيه «البردقيز» من الردى
جزاء مناحيس خزايها ملاعن
وقيل: الحمد لله:

فنحمد رب العرش إذ كان ديننا
لأهل الوغى والبأس خير المعادن⁽¹⁾

«وتمتاز هذه القصيدة - كما شاهدنا - بحسن السبك وجزالة التعبير وقوة النفس البطولي مع الضلالة في اللغة والضلالة في الثقافة الإسلامية، زيادة على أن صاحبها كان يمتاز بذوق موسيقي جذاب يستطيع أن يربط به بين الوزن

(1) وقف الأستاذ عبدالله كنون على هذه القصيدة مخطوطة عند المرحوم محمد المختار السوسي (دون الإشارة إلى المصدر الأصلي) حول معركة وادي المخازن: دعوة الحق - عدد 8، ص 19، ص 19 - 20 (1978).

- وتوجد أبيات من هذه القصيدة في كتاب «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية» لمحمد الأخضر - ص 58 - دون ذكر للمصدر الأصلي.
- وقد نسج على منوالها سنة 1946 - بعد أن اطلع عليها الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين الصحراوي قصيدة في نفس البحر والقافية:

خليلي عوجا بوادي المخازن نجدد شكرا بين تلك المواطن
مواطن كانت للجهاد مشاهدا بهن مياه العز غير أواسن
مقارنا فيها بين أولئك المغاربة الذين صنعوا النصر في وادي المخازن والذين يقاومون الاحتلال الإسباني (دعوة الحق عدد: 8، ص 19، ص 19) انظر كذلك: عبدالله كنون: «خل وبقل» من ص 105 إلى ص 108.

والمعنى. فهو قد اختار لها «البحر الطويل» لتكون الإيقاعات منسجمة مع ركض الخيل ومع دقات حوافر المذكيات الصوافن التي جعلها للنصر سبيلاً⁽¹⁾. وكثيراً من شعراء الجهاد اختاروا هذا «البحر الطويل» كوزن من أوزان أشعارهم «باعتباره البحر الأصلح لوصف المعركة في نفس ملحمي».

ولما جلس المنصور الذهبي⁽²⁾ على عرش المغرب في يوم النصر قام شاعره أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي - الذي بارى لسان الدين بن الخطيب في قصيدته التي مدح بها أبا سالم المريني:

أطاع لساني في مديحك إحساني

ولقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

فأنشد نونيته العصماء - ليلة عيد المولد النبوي الشريف⁽³⁾ في تهنئة المنصور بهذا النصر واصفاً بلاءه وبلاء جنوده في هذه المعركة التاريخية التي لم يواكبها الشاعر في وقتها، ومطلعها:

(1) محمد عبدالعزيز الدباغ: موقعة وادي المخازن وملامحها في الأدب، من كتاب حول معركة وادي المخازن في سياقها التاريخي وملامحها في الفكر والأدب (ص 79) - سلسلة ندوات وزارة الثقافة، رقم 2.
(2) هو أبو العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي. تمت بيعته بعد واقعة وادي المخازن وأذعن كل حواضر المغرب وبواديه لطاعته. كان يتعاطى للعلم ويتعاطف مع أهله. امتاز عهده بكثير من الفتوحات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها في هذه الرسالة.
(انظر المناهل للفشتالي (ت: ع. كنون) ص 17 وما بعدها)، والاستقصا للناصر (ج 5، ص 89 وما بعدها)، والمنتهى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور لأبي العباس أحمد بن القاضي (حققه محمد رزوق في رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ سنة 1978) وخاصة الباب 23: «في غزوته السعيدة التي طن صيتها في الآفاق البعيدة» أورد فيه المؤلف عدة قطع شعرية في فضل الجهاد والتحريض عليه. كقول بعضهم:

فالخير كله حازه الأبطال

جاهد عدوك أيها البطل

وهم الرجال وكلهم أبدال

فهم الحماة لأهل دين محمد

(المرجع السابق، ص 670).

(3) كان من المفروض أن ندرج هذه القصيدة في الباب الثالث من هذه الرسالة (فصل المولدات) ولكن تعمدنا إثباتها في هذا الفصل لأننا نعتبرها أعظم قصيدة أنشدتها الفشتالي في هذا الباب، معارضا بها قصيدة ابن الخطيب الرائعة. ومع ذلك فقد أتينا على ذكر بعض أبياتها الأخرى في فصل المولدات.

هم سلبوني الصبر، والصبر من شأني
وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني
وبعد أن يشيد بحنكة كتائبه العسكرية في المعركة وبالانتصار الوطني الضخم:
وإن أطلعت غيم القتام جيوشه
وأرزم في مركومه رعد نيران
صبين على أرض العداة صواعقا
أسلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لو يعلنون رضوى لصدعت
صفاء الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصى من كل أروع معلم
وكل كمي بالرديني طعان
من اللائي جرعن العدا غصص الردى
وعفرن في وجه الثرى وجه بستيان
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت
تؤدي الخراج الجزل أملاك السودان
يخاطب ممدوحه المنصور مباركا له الفتح المبين ويمنيه بفتح ما بين
السودان وبغداد:

أيا ناظر الإسلام شم بارق المنى
وبارك لروض في ذرا المجد فينان
قضى الله في عليك أن تملك الدنيا
وتفتحها ما بين سوس وسودان
وأنتك تطوي الأرض غير مدافع
فمن أرض سودان إلى أرض بغدان

فكم هنأت أرض العراق بك العلا
ووافت بك البشرى لأطراف عمان⁽¹⁾
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم
أتاك استلاباً تاج كسرى وخاقان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها
وللدين تحميه بملك سليمان
فما المجد إلا ما رفعت سماكه
على عمد السمر الطوال ومران⁽²⁾
وأشار شاعر المنصور الذهبي أيضاً في قصيدة مدحية أخرى إلى هذه
المعركة بقوله:

تأثل جمعها لك من فتوح
قد أطعمها سيوفك في قراها
دنا لك قطفها من بستان
وطاب لديك من جني جناها⁽³⁾

محاولاً أن يعطي صورة واضحة للحركة الجهادية ونتائجها من خلال معركة
وادي المخازن⁽⁴⁾.

(1) يشير الشاعر هنا لأثر الوقعة في نفوس المغلوبين على أمرهم على شط الفرات أو على شط خليج عمان (د. عبد الهادي التازي: ابن ماجد والبرتغال - مجلة البحث العلمي، عدد: 36 (1986) - ص 17).

(2) اليفراني: نزهة الحادي، ص 155 - 157، الفشتالي: المناهل (301 - 302)، ت: كنون.

(3) المقرري: روضة الآس، ص 130 - 131 (م. الملكية).

(4) اعتبر عبد الله كنون أن شعر الفشتالي أشار وحده في عصره إلى هذه الوقعة وردد صداها. (ع. كنون: «حول وقعة وادي المخازن» - المصدر السابق، ص 17. ومجلة الأنوار عدد 30 (يوليوز - غشت 1952) لكننا نجد أيضاً صدى لهذه الوقعة في بعض قصائد الهوزالي ومحمد بن علي الفشتالي كما وقفنا عليه.

ويقول أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي من قصيدة في مدح «السلطان المشهور والأسد الهصور» أبي العباس أحمد المنصور، مسجلاً فيها هول وشدة معركة وادي المخازن التي قضى فيها على الشرك والكفر:

حروب طوت ذكر البغاة وملهم
وماتت لها ذكر البسوس وداحس
لعمرك لا أنساه يوماً شهادته
وقد سمرت بين الكماة المداعس
وحسبك في وادي المخازن وقعة
بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس
بيمن أبي العباس صالت سيوفنا
على الشرك حتى ليس للشرك حارس
فدانوا له حتى توقع بطشه
برمتهم صلبانها والكنائس
وضاقت ببستياني كل عويصة
وذلت لنا منه الأنوف الغطارس
فجهز ما تحوي ذخائر ملكه
يذود بها عن نفسه ويداعس
(فلا زال سيف الحد في كف أحمد
يذود بها عن دينه ويداعس)⁽¹⁾

(1) الفشتالي: المناهل، ص 301 - 302 (ت: كنون).

ابن القاضي: درة الحجال، ج 2، ص 233.

ابن القاضي: المنتقى المقصور، ج 2، ص 674، (ت: رزوق).

وللهوزالي قصيدة أخرى في وصف هذه المعركة:

بعضا وليس للردى من مدفع

حتى إذا الجمعان عاين بعضهم

هطلا ولكن بالسوموم النقع

صبت على الكفار صبا عارضا

وظل صدى هذه المعركة يرن في العصر السعودي وخصوصاً في عهد المنصور الذي كان مزدحمًا بالفتوحات. فكلما هنا الشعراء المنصور بالفتوح أو بحلول عيد المولد النبوي كانوا يشيرون إلى معركة وادي المخازن التي غدت «معلمة ومناراً»⁽¹⁾. وكانت تلك الإشارة من الشعراء السعوديين ضرورية في هذا الظرف بالذات، وذلك لتعويد المغاربة على الاستمرارية في الجهاد وتحريضهم على تحدي الوجود البرتغالي في الثغور المغربية، وإذكاء روح المقاومة في نفوسهم الأبية⁽²⁾، من ذلك قول الشاعر عبدالرحمن التمارتي:

فتركن عباد المسيح كأنهم	أعجاز نخل بالسيول مقلع
وأراد «بستين» النجاة بنفسه	فزعا بحيث لات حين مفزع
هيهات هيهات النجاة وخلفه	عقبان تهوي كالبروق للمع

ابن القاضي: المنتقى المقصور، ج 2، ص 675 - 676.

ويقول أبو الحسن بن منصور الشيطمي في هذه المعركة مشيراً لمدينة القصر الكبير الذي كان: «قصر البرتغال» ينوي احتلالها بعد المعركة.

فالقصر جرجر «لقيصر» الحتف الذي	أبقاه منقطع العرى بعراء
«والنيل» نال به الخليفة فتح ما	قد كان قبل أصم في عمياء

(النيل أي النيجر) (د. عبدالهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب) ج 2، ص 264 دون ذكر للمصدر الأصلي.

(1) د. عباس الجباري: «معركة وادي المخازن وملاحمها في الأدب المغربي»، ص 22.

(2) ذكر محمد عبدالعزيز الدباغ أن الشعراء السعوديين في هذه الحقبة (وبهذه المناسبة) اقتبسوا كثيراً من الصور الأدبية الرائعة من أدب المتنبي وأبي تمام والشريف الرضي وأبي فراس الحمداني، «معركة وادي المخازن في سياقها التاريخي وملاحمها في الفكر والأدب»، ص 71. هذا وكلما حلت ذكرى هذه المعركة الخالدة إلا وأثارت مشاعر شعرائنا المحدثين، فأنشدوا وأشادوا، مما يدل على أن معركة وادي المخازن لم تكن حدثاً عابراً بل بقيت حافزاً على إثارة الشعور الوطني سياسياً وأدبياً.

انظر في هذا الصدد على سبيل المثال قصيدة عصماء للمرحوم علال الفاسي «ذكرى موقعة وادي المخازن» في مجلة كلية الشريعة (ع 4 نونبر 1978) وقصيدته «العرش المغربي» بديوان علال الفاسي (ج 1، ص 102)، (وهو عدد خاص بذكرى معركة وادي المخازن)، و«الملحمة الخالدة» لعبد الواحد أخريف (بكتاب بعنوان «ملحمة النصر» معركة وادي المخازن في سياقها التاريخي ص 121) و«معركة المخازن خير ذكرى» لمصطفى الطرييق، (وله أيضاً: «ملحمة النصر») و«الوادي المقدس» لعبد الواحد السلمي (بالعلم 7 - 8 - 1975)، و«على وادي المخازن» لمحمد الخمار الكتوني، و«المجد اليتيم» لعلي الصقلي، (بدعوة الحق - عدد 10، ص 5، 1962)، و«قراءات في كتاب الملحمة الربانية لمحمد المنتصر الريسوني (بدعوة الحق - عدد 8، ص 19 غشت 1978)، وقصيدة «أهم في واديك» لمحمد غربي (العلم - 23 - 8 - 77) وقصيدة عبدالكريم الطبال بديوانه: الأشياء المنكسرة (ص 95)، والمسرحيتين الشعريتين: «وادي المخازن» لحسن محمد الطرييق (1974) و«المعركة الكبرى» لعلي

فدون سبستيان القى حشوده
بوادي المخازن إذ خزته قرود
فعاد صريعاً بينهن تنوشه
هنالك نؤبان الفلا وخلود
فلم يترك الحسام للشرك هامة
هناك ولم تندب للمسلم عقود
كان مثار النقع فوق رؤوسهم
سحائب لكن قطرهن حديد
فكم من ديون قد قضتها سيوفهم
على الكفر لم تمطل بهن عهد⁽¹⁾

وكان بعض العلماء مثل رضوان الجنوي (صاحب تحفة الإخوان ومواهب الامتتان في مناقب سيدي رضوان) يوجهون الرسائل للمنصور السعدي يؤيدون فيها نداءات هؤلاء الشعراء ويحثونه على الجهاد وعدم التخاذل وانتهاز فرصة «دهش وخزي وخذلان» الكفار بعد معركة وادي المخازن لاسترجاع الثغور المحتلة الباقية⁽²⁾. وفي سنة 997هـ جرد المنصور صارم عزمه على استخلاص مدينة أصيلة - من حاكميها البرتغاليين الذين احتلوها منذ عهد محمد الشيخ على حين غفلة من أهلها سنة 876هـ. وقد حاصرها المنصور حتى ضاق ذرع المشركين، فركبوا البحر

الصقلي (1982).. وقصائد أخرى في «معركة وادي المخازن في الأدب المغربي»، لعباس الجراري. (فصل: استرجاع ذكرى المعركة ابتداء من ص 35، ط 2). وفي قصائد عدد 77 من مجلة الإيمان - (وهو عدد خاص صدر بمناسبة مرور أربعة قرون على واقعة وادي المخازن - يوليو 1978)، وقصيدة محمد الصادق الشاوي بعنوان «نحن شعب خلقنا للتحدي».

(1) مخطوط الفوائد الجمة، ص 157.

كما كتب الأستاذ المرحوم عبدالمجيد بنجلون قصة نثرية بلغة شعرية رائعة عن هذه المعركة، بعنوان: «معركة الوادي» (1978).

(2) المرابي: التحفة، ص 422 - 424 صورة عالم من القرن 10هـ. 16م، رضوان الجنوي من خلال تحفة الأخوان للطنفي بوشنتوف - مجلة أمل - عدد 4 س 2، 1993م، ص 24 - 52.

مذعورين وطاروا إلى منجاتهم، «ودخل الحزب السعدي» - حزب الفلاح والهدى -
مدينة أصيلة «التي هي في الإسلام كاسمها أصيلة»، وأقيمت بها شعائر الإسلام⁽¹⁾.
وفي هذا الفتح يقول الفشتالي مخاطباً ملكه المنصور، مهنتاً إياه باسترجاع
هذه المدينة التي «كانت ليالي الكفر فيها ذملاً»:

بكر الفتوح لكم تهلل بشرها
وافتر عن شنب المسرة ثغرها
وعقيلة الأمصار وهي أصيلة
أنت العزيز لذا أطاعك مصرها
وافى بهذا الفتح المبين يزفها
لكم وليس سوى قبورك مهرها
شغفت ببدرك واستباك حنينها
فجمعت بكما حنين وبدرها
كانت ليالي الكفر فيها ذملاً
وبعصرك الأقوى تبين فجرها
خضعت لكم بخضوعها الدنيا وقد
لباك من بطحاء مكة جحرها⁽²⁾

(1) ألف «أدولفو خيفارا» - وهو برتغالي ولد ونشأ وعاش بأصيلة - كتاباً عن الاحتلال البرتغالي لهذه
المدينة في القرنين: 15 و16م، وعن صراع الجيش البرتغالي ضد حملات الوطاسيين لاستردادها.
قام السيد الحاج بن عيسى عبدالكبير العيساوي بترجمة بعض فصوله في كتابه عن: «أصيلة الماضي
والحاضر» (ابتداء من ص 67) نشر جمعية المحيط الثقافية (1989).

ومن باب الاستطراد، فقد كتب برتغالي أيضاً، ولكنه مجهول الاسم كتاباً عن حصن أكادير وتحركات
البرتغاليين به سماه: Chronique de Santa - Gruz du cap de Gué (Agadir). وذلك
خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر بعد أن مكث به خمس سنوات، كتب السيد صدقي علي
ازايكو عرضاً عنه بكتاب: «أعمال ندوة مدينة أكادير الكبرى - المحور التاريخي - ص 109 (نصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير 1990). وقد اعتمد في دراسته للمؤلف البرتغالي عن ترجمته
للفرنسية التي قام بها: Pierre Genival سنة 1934م.

(2) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 52 - 53 (ت: كنون).

وفي نفس الموضوع نظم أحمد بن القاضي الكناسي (960هـ - 1025م) -
إمام أهل الفرائض والحساب - قصيدة يبشر فيها المنصور بأن الله بلغه مأموله
في الكفار بعد فتحه لمدينة أصيلا بدون قتال سنة 979هـ.

يا أيها المنصور أبشر بالعلی
الله بلغك في العدى المأمولا
أنضاكم سيفاً لحتف عداته
وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتكم الشرك المتين بعزمكم
من غير ما سيف يرى مسلولا
وأذبتكم كيد الخبيث مهابة
وفتحتم أرامه أصيلا
وغدت من الناقوس صفراً بلقاً
يتلى بها فرقاننا ترتيلا
أبشر لواء الفتح معقود لكم
فاشكر إلهك بكرة وأصيلا
أكرم به من مالك بل صالح
(أضحى لنيران العداة خليلاً)⁽¹⁾

القادري: نشر المثنائي، ج 1، ص 142 .

المقري: روضة الآس، ص 133 .

ويخامر شاعرنا في آخر هذه القصيدة الحنين إلى «استعداد الفردوس المفقود» (انظر فصل التحريض على الجهاد). وقد قارن بعض النقاد لهذه القصيدة بقصيدة أبي تمام في مدح المعتصم بالله العباسي ببغداد:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

(1) المقري: روضة الآس، ص 246 .

ابن القاضي: المنتقى المقصور، م. خ. ح (1135) ص 169 .

ابن القاضي: المنتقى المقصور، تحقيق رزوق، ج 2، ص 848 .

وبعد وفاة المنصور الذهبي سنة 1012هـ⁽¹⁾، مرت البلاد المغربية بفترات ضعف أحياناً وفترات قوة أحياناً أخرى. وكان مصدر الضعف التنازع على العرش المغربي بين الأمراء السعديين مما أدى إلى احتلال العرائش والمهدية من طرف الإسبان⁽²⁾.

ولما تقلصت سلطة السعديين تقاسم المغرب ثلاث قوى سياسية: أبو حسون السملالي في الجنوب المغربي والدلائيون في وسط وشرق البلاد، والعياشي في الشمال الغربي وفي الغرب، وقد تحالف الدلائيون⁽³⁾ والعياشيون لإنقاذ البلاد،

(1) ذكر الفشتالي أنه سبق للمنصور أن مرض مرضاً خطيراً كاد أن يؤدي بحياته سنة 987هـ وكادت الأمور أن تختل بالمغرب. ولما شفي نظم محمد الهوزالي قصيدة قال منها:

وصار بك الإسلام في كل بلدة	يهنا ويدعو أن يطول لك العمر
بقيت لهذا الدين تحمي ذماره	ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

(الفشتالي: المناهل، ص 27 و28).

(2) (انظر فصل التحريض على الجهاد).

فلما مكن محمد الشيخ السعدي العرائش للإسبانيين هجا محمد بن عبدالله الملك السعدي ورثى حصن العرائش قائلاً من قصيدة:

ولم ينته عن عيبه وضلاله	وقد ملك الكفار حصناً بخدعة
عن الغرب لا تسأل وسل عن حديث	حديث شنيع قد خفاه بجملته

(القادري: نشر المثاني ج 1، ص 218).

وقد عرفت هذه الفترة من العهد السعدي احتدام الصراع بين المقاومة المغربية وأعداء المغرب حيث شن المجاهدون المغاربة أكثر من عشرين هجوماً لتحرير الثغور المغربية. محمد مزين: «المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية ق 16» - مجلة المناهل، عدد 27، ص 223، وقد وصلت هذه المقاومة إلى حصن أكادير حيث استنفر المولى أحمد بن عبدالرحمن السعدي الناس للرباط بأكادير، والقيام بأعمال الجهاد والمرابطة (الزياني: المغرب في دول المشرق والمغرب).

(3) كان أهل زاوية دلاء في أول حركتهم أهل إصلاح ودعوة. ولما طرأ الضعف على الدولة السعدية تشوقوا الملك. فاستولى محمد الحاج الدلائي على فاس طالبا الملك. وكانت له حروب مع العياشي وعبدالكبير الشباني.. فلما ظهرت الدولة العلوية قبض عليهم المولى رشيد وهدم زاويتهم وحملهم إلى فاس ثم إلى تلمسان. (اليفرنى: روضة التعريف - تعليق عبد الوهاب بن منصور ص 30). ولكن هذا لم يمنع من القول بأن الزاوية الدلائية كانت من أبرز العوامل التي ساعدت على حفظ كيان المغرب في ق 11هـ. كما ان ازدهارها بين في ميدان الثقافة والأدب. ولما قضى عليها المولى رشيد سنة 1078هـ نظم أبو علي اليوسفي مرثيته المشهورة في هذه الزاوية، كلها لوعة صادقة وتفجع أليم وعاطفة دينية متأججة. مطلعها:

ولكن سرعان ما تخالفوا وتحابوا، فانتشرت القلاقل والفتن وعمت الفوضى، وكانت لهم صراعات مع الأندلسيين النازحين عن العدو.

وقد توقف السعديون عن حركة الجهاد لافتقارهم إلى الأموال اللازمة لتنظيم أي عملية عسكرية، ولضيق كثير من قدرات المغرب العسكرية في حروب داخلية لا طائل من ورائها أذكى أوارها دعاة إصلاح، أخلص بعضهم في دعوتهم وغلب على البعض الآخر الشذوذ والشعوذة. وقد عوض السعديون حقاً في جهادهم آل النقيس (الذين اشتهروا بحصار البرتغاليين في قلاعهم)، وآل غيلان (الذين مارسوا علميات عسكرية أكسبتهم كثيراً من التجربة القتالية التي أهلتهم للجهاد)، وآل أبي الليف (الذين اشتهروا بالشجاعة والنجدة في عهد المنصور الذهبي). كما تشكلت قوات صوفية (الحاحي في جنوب البلاد والدلائي في وسطها والأغصاوي في شمالها وعبدالله بن حسون في غربها)، نددت كلها بتخاذل السعديين عن مواجهة الغزو الأجنبي، ودعت إلى اكتناف أسباب تدهور البلاد وإلى استنهاض الهمم لإصلاحها.

وإلى جانب هؤلاء المجاهدين كان هناك مجاهدون آخرون اعتقدوا أنهم أحق بالسلطة من هؤلاء السعديين المتناحرين مثل الفقيه ابن أبي محلي - (الفقيه الثائر السالف الذكر) - وأبو الحسن السملالي⁽¹⁾ حيث تبارى في الجهاد في سبيل الله

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا
فيأبى ويعتاض العقيق بها جمرا
(ابن تاووت: الأدب المغربي، ص 455).

وعن صراعات أمراء الدلاء مع الإنسان والانجليز والاندلسيين والعلويين انظر «الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي» للدكتور محمد حجي.
(1) كان ديوان أبي الحسن السملالي طافحا بالكتاب والشعراء. من ذلك أن كاتبه محمد أمحالوا الأنيسي مدحه بقصيدة منها:

النصر طوع يديك والتمكين	فانهض فإنك طالع ميمون
فالسعد يخدم والجحافل والقنا	والسابغات وصارم مسنون
فالمغرب الأقصى جميعا ناظر	يوما تجول عليه منك يمين
فيرى العدالة كيف كانت والهدى	والعز بالإسلام كيف يكون

(ابن تاووت: الوافي، ج 3، ص 737 - 738).

وقتل عدو الدين، الذي كابدت الثغور المغربية من غلبته، وأعمال الخيول والرجال في مقارعته ونزاله احتساباً لله⁽¹⁾.

وكانت مواقف هؤلاء وأولئك المجاهدين والصوفية ورجال الزوايا⁽²⁾ بمثابة رد فعلي وطني، إزاء وضعية الاحتلال الأجنبي الإسباني والبرتغالي، خلقت أدباً صاخباً وحلفت كثيراً من الخطب والرسائل والقصائد والأشعار الجدلية المثيرة⁽³⁾.

وكان على رأس هؤلاء المجاهدين محمد بن أحمد المالكي الزياتي المشهور بالعيشاشي⁽⁴⁾، نظم عمليات جهادية كثيرة وقاوم المجموعات المناوئة لحركة الجهاد،

(1) الناصري: الاستقصا، ج 4، ص 111.

عبد اللطيف الشاذلي: الحركة العياشية (من ص 45 إلى ص 69) - ابن تاويت: الوافي، ج 3، ص 727 - 728.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه «ابتداء من أواسط القرن الخامس عشر للميلاد ظهرت حركة إصلاحية قوية تزعّمها الجزولي وانتشرت انتشاراً واسعاً» ودعت إلى الجهاد بعدما احتل الأجانب سواحل الغرب الإسلامي، وبعد انتشار البدع والمظالم.

(2) إن إطلاق كلمة زاوية بالمغرب جاء بديلاً لكلمة «رباط» الذي يعني منشأة دينية للعبادة، وقلمة كفاح يتصل نظامها بالجهاد وتوابعه وما يترتب عنه من تهئ المجاهدين وحراسة الثغور من الهجمات البحرية المباغطة والدفاع عن العقيدة الإسلامية وحماية أطفال ونساء المجاهدين، ودعت رباطاً في عهد المرابطين والموحدين. ومن الرباطات التاريخية المشهورة: (رباط شاكور، ورباط محمد الصالح، ورباط ماسة، ورباط مدينة بادس) للعلماء والزهاد الذين وهبوا أنفسهم للجهاد بالسيف والقلم لإعلاء كلمة الله، والدفاع عن حوزة الوطن، والإرشاد الديني والثقافي، ومن بينهم أبو يعقوب يوسف (البادسي..). ثم صار الرباط يدعى زاوية في عهد المرينيين والسعديين والعلويين (كالزاوية المتوكلية لأبي عنان المريني المتوكل على الله)، (انظر في هذا الصدد: محمد مفتاح: التيار الصوفي، ص 23 - 117)، وعبد اللطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع فصل 3 الزاوية، ص 167 وما بعدها). ويحتفظ لنا التاريخ بأسماء عديدة من الزوايا والمتصوفة والأولياء والذين شاركوا في عمليات الجهاد المسلح (وخاصة بدكالة) وفي معارك شتى مع البرتغاليين بأزمور و«مزغان» وآسفي وحول أسوارها. (انظر أسماء هؤلاء المجاهدين وزواياهم. يبحث أحمد عبد الوارث عن «التيار الصوفي ومقاومة الاستعمار البرتغالي بدكالة». «دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب»، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، فبراير 1994). ونخص منهم بالذكر شيوخ زاوية محمد بن سلمان الجزولي الذين كانوا من المساندين الأوائل للحركة الجهادية للشرفاء السعديين في معاركهم ضد البرتغاليين وخاصة في منطقة آسفي حيث تأثرت هذه الجهة كثيراً بالغزو البرتغالي لسواحلها.

(3) انظر نماذج لهذه الأشعار في كتاب عبد الجواد السقاط: «الشعر الدلائي».

(4) «هو المجاهد في سبيل الله المرابط في الثغور لحياطة المسلمين، وصاحب المكرمات العديدة والفتوحات العظيمة». كان من تلامذة سيدي عبدالله بن حسون دفين سلا، اغتيل سنة 1051هـ ودفن قرب

وتعددت رسائله إلى المدن والقبائل يشرح لهم فيها فضيلة الجهاد بعد أن نزل الأعداء بالثغور، وامتدت أيديهم إلى أواسط المعمور، مستحثاً الهمم، ومستوجباً الجهاد في سبيل الله، ومتمثلاً بخطب الخلفاء الراشدين⁽¹⁾.

ولما ورد هذا «المجاهد في سبيل رب العالمين» إلى سلا (رباط المجاهدين)⁽²⁾ قادماً من البريجة⁽³⁾ - حيث كان عاملاً للسلطان زيدان السعدي - وبعد أن ضيق

ضريح «بوشة الخمار». خصص له أبو إملاق كتاباً سماه: «الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد» (ق 13هـ)، (م. خ. ع تحت رقم 380) ترجم له الإفرائي في نزهة الحادي (ص 260)، والقادري في نشر المثاني، والحوات في البذور الضاوية. (انظر عنه: د. شوقي عطا الله الجمل: «محمد العياشي وجهاده ضد الإسباني والبرتغال» 1051هـ - 1641م) مجلة المناهل، عدد 9، ص 112.

يقول الفقيه عبدالواحد بن عاشر صاحب «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» في المجاهد محمد العياشي من قصيدة له:

لله سيف صارم وقاطع وقاصم	ظهر السعدا كبيرهم والناشي
كم غصة جرعها صدورهم	حار لها واقفهم والماشي
يتركهم عند اللقا رهن الشقا	صرعى على الأرضين كما الفراش
تهنيكم حياتكم يا مسلمين	ما دام فيكم سيدي العياشي
(محمد الصغير الأفرائي: «نزهة الحادي»).	

(1) أبو املاق: الخبر عن ظهور العياشي، ص 22، 26 و 33.

(2) يقول ابن علي الدكالي السلاوي في أرجوزته: «إتحاف أشراف الملا» عن مدينة سلا:

دامت سلا ثغرا حصينا مانعا	مصلحة البر كبحر جامعا
اشتهرت في عهدها القديم	بمربط الجهاد في الإقليم
(م. خ. ح 227، ص 24).	

(3) تغنى الشاعر محمد بن أحمد المكلاطي بالمنصر الذي حققه المجاهد العياشي ضد الإسباني «نصارى الجديدة» بقوله:

حديث العلا عنكم يسير به الركب	وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم	تنال به الزلفى من الله والقرب
إلى أن يقول:	

سمي رسول الله ناصر دينه	تجلى بكم عن أفته الشك والريب
ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم	تجود لمستجد أنامله السحب
وما يستوي البحران عندي فإن ذا	أجاج لعمري في المذاق وذا عذب
(الناصرى: الاستقصا، ج 6، ص 89).	

على البرتغاليين أشد تضيق في وقائع ضدهم ما بين الغرب ووادي المخازن - بايعه أهل سلا وعلمائها على مقاتلة الأعداء ومحاربة القبائل التي لا تريد العيش إلا في جو من الاضطرابات - وضم «الموريسكيين» (العرب الأصاغر باللغة الإسبانية) لمقاومة الهجومات البحرية⁽¹⁾.

ولما علم فيليب الرابع بذلك عزم على مهاجمة المغرب، وجهاز حملة بحرية كبرى للقضاء على المجاهدين السلاويين⁽²⁾.

وحينما علم التطوانيون بأخبار الحملة بعثوا برسالة إلى أهل سلا ليطلعوا أجناد القبائل وأنجادها على الخطة البرتغالية، ويبلغوا مبلغ الجد في استنفارها واستتجادها، علماً بأن مثلهم لا يحتاجون إلى «تحريض على الجهاد وحض على الجد فيه والاجتهاد».

(1) لإضفاء هالة من الروحانية والتمجيد على أعمال المجاهد العياشي ذكر أبو املاق في كتابه عن ظهور العياشي (ص 1 - 2) أن بعض المشايخ أهدوا إلى شيخه أبي محمد سيدي عبدالله بن حسون فرساً، فأمر ابن حسون بإسراجه، وطلب من العياشي أن يمتطيه ويرتل به إلى أزمور لافتتاح جهاده الطويل في سبيل الله ولحراسة الثغور المغربية، داعياً له بالخير والنصر.

(2) كان المجاهدون السلاويون مؤلفين من المغاربة والأندلسيين (الموريسكيين) النازحين من الأندلس والذين أسسوا ما أطلق عليها «جمهورية أبي رقراق» بعدما أعلنوا استقلالهم عن حكم مولاي الزين السعدي الموجود بمراكش، وقد كونوا أسطولاً بحرياً من السفن الصغيرة السريعة الحركة للإغارة على السفن الأوروبية البرتغالية والفرنسية والإنجليزية والنمساوية، وخصوصاً الإسبانية منها، (في بحر الظلمات) لتأمين حياة المسلمين النازحين من الأندلس وحمايتهم من السفن المسيحية المتعقبة لهم وكانوا يعتبرون ذلك نوعاً من الجهاد البحري ضد الكفار، وبذلك كان «الأندلسيون يطمحون إلى الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ونكلوا بهم، والمغاربة كانوا يقصدون بذلك الدفاع عن بلدهم. وبذلك يختلف هذا المفهوم كلية عن المفهوم الأوروبي بالمتداول (قراصنة سلا) الذي يدخل هذه العمليات في إطار أعمال اللصوصية البحرية» (انظر: د. محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 - 17 ص 210. فالقرصنة تهدف إلى الاستيلاء على البوارج ومحتوياتها من ذخيرة سواء كانت صديقة أم عدوة ولو أدى ذلك إلى صدام بحري قاتل، والحقيقة أن هذه العمليات البحرية ليست في مفهوم الجهاد إلا امتداداً للجهاد المغربي من الأرض إلى البحر رداً على اعتداءات القوى المعادية للمغرب والمغاربة، وعلى التكتيل بالمسلمين «المتصرين» بالأندلس.

وتلقى أهل فاس نفس الرسالة، وقد تكفل بالجواب عن أهل عدوة القرويين محمد بن القاسم ابن القاضي ملمحاً في جوابه إلى فضل الجهاد والإشادة بالمجاهدين التطوانيين. وأجاب عن أهل عدوة الأندلس محمد بن أحمد المكلاتي⁽¹⁾ الذي استهل جوابه بمطلع قصيدة بن المرحل التي قالها على لسان المنصور المريني:

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي

أنا أجبنا صرخة المستنجد

أما دعا الداعي وردد صوته

قمنا لنصرته ولم نتردد⁽²⁾

فجرت بين العياشي والنصارى عدة غزوات قرب المعمورة. ثم وصل إلى العرائش وغزاها سنة 1040هـ. وفي هذه الغزوة التي سارت بها الرفاق، وشاعر خبرها في النواحي والآفاق، أحاط العياشي بالإسبان وهم ما زالوا في الوادي، ولم ينج منهم إلا القليل. فكتب إليه أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدلائي رسالة يهنئه فيها بانتصاره في غزوة العرائش. وكتب إليه أيضاً أبو عبدالله محمد بن أحمد المكلاتي رسالة مطولة يهنئه فيها بفتوحاته مبدئاً إعجابه بثبات المسلمين - في الزحف والضرب والطعن - من أهل فاس وسلا، الرباط وجميع الطوائف، وبتحكم سيوفهم في أعناق الكفار، واستئصالهم لشأفة الأعداء، وختم رسالته بصيدة كرر فيها نفس المعاني، منها:

طلائع البشرية بجيش الصباح

على الدجا سارت تباري الرياح

-
- (1) عن هذا الشاعر انظر: عبد الجواد السقاط: «أبو عبدالله محمد بن أحمد المكلاتي» - مجلة دعوة الحق (عدد 262 - فبراير 1987) ص 59 وما بعدها. فقد أورد السقاط جميع المصادر المطبوعة والمخطوطة التي تحدثت عن حياة المكلاتي وأوردت ثلة من أشعاره التي خلد فيها الشاعر بعض الأحداث الهامة التي شهدها عصره وخصوصاً منها مقاومة العياشي للنصارى.
- (2) ابن القاضي: أدبيات (مخطوط) ص 5. محمد حجي: الحركة الفكرية على عهد السعديين، ج 1، ص 212 - 213.

فسرت الإسلام لما سرت
وهزت الإيمان هز الرياح
فيا له من (معرك) مسجد
قد ركعت فيه طول الرماح
وفي محارب ضلوع العدا
قد سجدت لله بيض الصفاح⁽¹⁾

ويقول المكلاطي من قصيدة أخرى يشيد فيها بجهاد العياشي «الغضنفر»
وبرجاله «جند الله» بغثر العرائش، متغنياً بما أحرزه العياشي من نصر وما بذله
من جهد جاهد:

ثغر العرائش ضاحك مستبشر
جذلان عن هذي الوقائع مخبر
غاب الرماح تشبكت أغصانها
روض المنايا بالجماجم مثمر
هي مجمع البحرين هذا أحمر
ومن الحديد نسيج آخر أخضر
جند الإله وحزبه أنصاره
تقتادهم يوم النزال غضنفر
جادت به أم الشجاعة واحداً
يفنى به ذاك العديد الأكثر
فإذا رآه المسلمون تهللوا
وإذا بدا جنح العجاجة كبروا

(1) أبو إملأق: الخبر عن ظهور العياشي، ص 14 - 15.
لم نورد هذه القصيدة بتمامها لأخطائها الكثيرة ولتعايرها الركيكة ولما أصابها من خلل في وزنها.

فله من النصر العزيز قلادة

مسرودة ومن الملائك عسكر⁽¹⁾

ولم يزل العياشي «مثابراً على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفاً بوجود المكائد الحربية مقدماً في مواطن الإحجام، ذا بطش شديد وتضييق على العدو الكافر»، منادياً للجهاد في كل مكان⁽²⁾. فاشتبك مرة أخرى مع برتغالي البريجة وقتل حاكمها البرتغالي حوالي سنة 1640م. وكانت آخر غزواته ضد الأعداء بطنجة سنة 1051هـ - 1641م.

ولم تزل هكذا عنايته مصروفة للجهاد وهمته موجهة لحشر الجنود والأجناد. فمدحه الفقيه المجاهد عبدالواحد بن عاشر - صاحب المنظومات - والذي حمل السلاح بجانبه - مشيداً بخصاله العسكرية وببراعته في ميدان العراك والنزال في قريض تغلب عليه علامات الصنعة والتكلف، وزادته قافيته الشينية «شنشنة تعجب المتصوفة»:

يا حادي الأظعان في الرياشي

أبلغ سلامي فخرنا العياشي

لله سيف صارم وقاصم

ظهر العدا كبيرهم والناشي

(1) المصدر السابق، ص 17.

ويشير الشاعر بقوله ومن الملائكة عسكر إلى الآية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: 9 - 10) (انظر فصل الخصائص الفنية - في الاقتباس والتضمين).

(2) كلما نادى العياشي للجهاد كان المغربية يلبون نداءه ويقدمون له كامل العون والمعونة. وقد خاطب أهل مكناس في إحدى رسائله سنة 1632م بقوله: «... ولكم من ذلك مزيد المصلحة في جميع أعشار الزرع والزيتون وحياطتها في المكان المأمون المصون: أنكم متى توجهت عزائمكم للجهاد والتأهب له والاستعداد، وجدتم من ذلك عوناً حاضراً موجوداً وورداً من التيسير موروداً، ومتى اجتاز بكم جيوش المجاهدين وكان قد طلعت عليكم طلائعها ناهضين فحلوا بناديكم تلقيتهمهم بأموال الله في أيديكم...».

(عبد اللطيف الشاذلي: الحركة العياشية، ص 250).

كم غصة جرعها صدورهم
جاربها واقفهم والماشي
يتركهم عند اللقاء رهن الشقا
صرعى على الأرضين كالبواشي
تهنيكم حياتكم يا مسلمين
ما دام فيكم سيدي العياشي⁽¹⁾

وفي طريق عودة العياشي إلى سلا اشتبك مع «الموريسكيين» في حرب متواصلة إلى أن انهزم وقتل من طرف جماعة من الدلائيين سنة 1051هـ (1641م) بقبيلة الخلوط. وقد رثى كثير من الشعراء المجاهد العياشي. وكان من بينهم أبو العباس أحمد⁽²⁾ الدغوشي الذي أشاد بخصال شهيدنا - حامي الثغور وقاهر البغاة - وبكفاحه المستميت لحماية شواطئنا وصد الأعداء عنها في قصيدة أصابها بعض من الإسفاف:

كم شادكم سادكم سد الثغور وكم
أذى وأوعى غياث الغيث مقتصدا
وكم أباد جموع الروم قهراً وكم
أردى العدا وعن الإسلام ذاد ردا
وقرة العين قاهر البغاة غدا
وعصمة الدين والدنيا معاً لجدا
يرجو ويرهب إذا يدعو ويرغب أن
يدنو من الشهداء الصفوة السعدا

(1) الافراني: نزهة الحادي، ص 262.

(2) سبق للمجاهد العياشي معززا بأسلحة انجليزية أن فرض حصارا برياً على «جمهورية سلا» سنة 1637 - 1638، دون أن يتمكن من اقتحام سورها الأندلسي.

حتى استجاب له رب وصاب له
قرب وقابله أرب فكم جهدا
فوق المنى نال لكن حسن مقتله
في الله يؤثر من أمثاله عددا
كأنه لم يصل في الله «مستأصلا»
لله منتصرًا بالله «من جدا»

وأخيرًا يتحسر الشاعر عن غيابه:
من لي ولا من بحام للثغور من
لي به لا من بأن أحظى به أبدا
من لي ومن لا من بحام بعده بطل
لا في الوغى عددًا يخشى ولا عددا⁽¹⁾

وهكذا طبعت حملة الجهاد العصر السعدي كله - من بدايته إلى نهايته - حيث
ناهض السعديون البرتغاليين في سواحل المغرب الجنوبية والوطاسيون في ثغوره
الشمالية. ولما تقاسم رؤساء الزوايا سلطة الدولة بعد نهاية السعديين تناقصوا
بدورهم في متابعة حركة الجهاد وغامروا في ميدانها بدافع الإيمان والغيرة على
أمتهم ودينهم. وتميز من بينهم - كما شاهدنا - المجاهد العياشي. وكان عضده
الأيمن في جهاده ولده ورسوله إلى الدلائيين الفقيه عبدالله العياشي. وقد تطوع
بعض الفقهاء في هذه الحركة، وشاركوا فعليًا في حراسة الثغور مثل الرمام
ابن غازي، وأبي المحاسن الفاسي، ومحمد ابن ريسون، وعبدالرحمن التمنارتي،
وعبدالواحد بن عاشر. فكانوا بذلك حاملين للسيوف والأقلام⁽²⁾.

(1) الإفرائي: نزهة الحادي، ص 271 - 273.

(2) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص 198.
ذكرت بعض المصادر أن سيدي عبدالله بن حسون كان أيضا يرعى السفن والبحارة المجاهدين. كما
كان أحمد الخضر غيلان من زاوية أولاد غيلان من أكبر مساعدي المجاهد العياشي.

وبعد هذه الفتن والثورات والخصومات، وبعد موت أبطال الجهاد من أبناء المغرب برزت دولة جديدة وهي الدولة العلوية (1075هـ)، فتهاافت عليها جموع الناس لما أصابها من تشتت وتفرقة، والتفت حول الدولة الجديدة - التي قامت على السيف والقلم - تتقاذها وتتخذ البلاد من شر الفتن والانحلال. واستطاع المولى إسماعيل أعظم ملوكها وأشدهم بأساً إذ كان عهده عهد قوة ومناعة - أن يسترد الشواطئ المغربية من الإسبان، ويقاقل الأتراك في محاولة لتحرير المغرب الأوسط بعد طردهم من بني يزناسن وتلمسان، ويصل بفتوحاته إلى الصحراء والسودان.

وبعدما تغلب المولى إسماعيل على كل ثائر ودانت له أطراف البلاد وغزا بجيشه الجرار الأطلس الثائر، تفرغ إلى منازل المحتلين للشواطئ المغربية، وآلى على نفسه أن يحرر من ربة البرتغال والإسبان جميع الثغور والمراكز التي يرابطون بها، ويبني القصبات دعماً منه للحركات الجهادية الأخرى ضد الوجود الأجنبي. إذ لما اعتلى العرش العلوي وجد البريجة (الجديدة) وآنفا⁽¹⁾ في قبضة البرتغال، ومدينة طنجة⁽²⁾ في

(1) عن تاريخ آنفا انظر: عبدالعزيز بن عبدالله: «بين آنفا والدار البيضاء» - مجلة المناهل، عدد 30، ص 11، ص 88. وإبراهيم حركات: «آنفا وما حولها في العصر الوسيط» - أعمال ندوة الدار البيضاء ص 19 - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة (1983). «وجوانب من تاريخ آنفا خلال نهاية العصر الوسيط» لمحمد فتحة - أعمال الندوة الثانية للدار البيضاء - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 4 - 1987م.

(2) كانت طنجة من أهم المراكز التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط أيام الفينيقيين والقرطاجيين، وقد تعرضت لغزو الرومان والوندال والبنزطيين. وبعد الفتح الإسلامي كانت القاعدة التي عبرت منها الجيوش المغربية البحر إلى الأندلس وقد قام صراع عسكري حولها بين الراسبان والبرتغال حتى سلمها البرتغال إلى الإنجليز. واستردها منهم المولى إسماعيل بعد أن استبدلها بجبل طارق سنة 1704م. (انظر: عبدالمجيد بنجلون: «طنجة في جو العواصف» - الباحث س 4 م 3 (1974)، ومجلة «دار النياحة» - عدد ممتاز عن هذه المدينة العريقة ع 10، ص 3 (1986). وقد أعدها الشاعر أحمد بن سلام الحميدي - من شعراء طنجة في العهد العلوي - أرضاً للجهاد في قوله من قصيدة:

مقيم بأرض للجهاد أعدها
على رغم أهل الشرك فيها مناقب
(مجموعة شعري بخزانة المسجد الأعظم بطنجة).

يد الإنجليز ومدائن المعمورة⁽¹⁾ والعرائش⁽²⁾ وأصيلة⁽³⁾ وسبتة⁽⁴⁾ ومليلية⁽⁵⁾

(1) كان يطلق عليها المهدية نسبة إلى المهدي بن تومرت الموحد، وكانت مأوى للسفن الحربية. وقد دارت معركة في شأنها بين الوطاسيين بقيادة محمد الوطاسي (البرتغالي) والبرتغاليين أدت إلى إغراق كثير من جنود الطرفين. وقد بقيت المعمورة موضوع نزاع حربي بين المغاربة من جهة والبرتغاليين والإسبانيين من جهة أخرى إلى أن انتشلها المولى إسماعيل من يد الإسبان (1681م) (عن مصادر تاريخية مختلفة).

(2) يرجع تأسيس هذه المدينة إلى عهد تأسيس جارتها ليكوس الفينيقية، جلا عنها أهلها لما احتل البرتغاليون طنجة وأصيلا. وأعاد إليها الحياة الملك الوطاسي محمد بن الشيخ الوطاسي وجدد حصونها. ثم أعاد البرتغاليون احتلالها سنة 1504م. وأدى تنافس الأمراء الوطاسيين على احتلالها إلى سقوطها بين الإسبان إلى أن وصل إليها الجيش الإسماعيلي وحررها سنة 1610م. (انظر: عبدالله العمراني: مولاى إسماعيل بن الشريف، ص 78 - 81).

(3) يرجع تاريخ هذه المدينة إلى العهد الروماني وربما إلى العهد القرطاجني، ازدهرت في عهد الأدارسة، وجعل منها محمد الشيخ الوطاسي عاصمة مؤقتة له وقد احتلها البرتغال سنة 1471م بعد نهاية دولة بني مرين. وقد شن الأمير الوطاسي هجوما عليها وحطم أسوارها، وصعب استردادها بعد أن حصنها البرتغاليون تحصينا محكما إلى أن حاصرها المولى إسماعيل، وفر عنها البرتغاليون سنة 1691م. (انظر: عبدالوهاب بن منصور: أصيلة عبر التاريخ - المناهل عدد 16، ص 6، ص 76، عبدالعزيز بن عبدالله: أصيلا - المصدر السابق ص 215).

(4) كانت سبتة تابعة للنفوذ الإدريسي والأموي والمرابطي والموحد والمريني. احتلها البرتغاليون سنة 1415م - في الوقت الذي كانت فيه تحت إمرة صالح بن صالح ليتخذها منطلقا لغزو المغرب كله - وبعد معركة وادي المخازن وما آلت إليه احتلها الإسبان إلى أن حاصرها الجيش الإسماعيلي سنة 1689م. وقد حاول استردادها من الإسبان المولى محمد بن عبدالله والمولى يزيد العلويان. ولكن الإنجليز احتلوها سنة 1801م ثم جلوا عنها لصالح الإسبان. وقد وجه بعض علماء فاس «رسائل جهادية» إلى المجاهدين المحاصرين لمدينة سبتة سنة 1720م بإذن من المولى إسماعيل يستثيرون فيها حمية المجاهدين ويشجعونهم على الصمود في وجه عدوهم ومواصلة الحصار، مشيدين بماضي سبتة العلمي والديني والحضاري. (مجلة الثقافة المغربية - عدد 4 سنة 1971، ص 61).

(5) يبتدأ تاريخ مدينة امليلية حوالي القرن 10م. حل بها الأمويون والأدارسة والمرابطون والموحدون والمرينيون. كانت بمثابة ميناء لمدينتي فاس وتازة. احتلها الإسبان سنة 1497م بعد سقوط غرناطة. حاول الأتراك الاستيلاء عليها سنة 1558م. هاجمها المغاربة عدة مرات وحاصرها المولى إسماعيل سنة 1715م حاول من أتلى بعده من الملوك أن يستردوها بعد حصارها، ولكنهم فشلوا في ذلك. (عن مصادر تاريخية مختلفة)، من ذلك حصار سيدي محمد بن عبدالله ما بين سنتي 1769 و1774م. انظر: تقاييد مغربية بالخزانة الحسنية رقم 2873 متعلقة بأعمال الجهاد حول حصن امليلية بين سنة 1079هـ وسنة 1090هـ (1668 - 1684م) وقائمة الكتب التي ألقت عن سبتة ومليلية - المخطوطة المطبوعة - في العصر الحديث بكتاب: «سبتة ومليلية في عهد الحماية» - وثائق تاريخية - محمد ابن عزوز حكيم (1988). ويوميات إسباني عن حصار مليلية عربها حسن الفكيكي بالمناهل عدد 37. كما أنشأ الشاعر علي الصقلي روايتين شعريتين عن هاتين المدينتين وعنوانهما ب: «مع الأسيرتين في مسرحيتين» (مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1987).

وبادس⁽¹⁾ والجزر (المعطوفة عليها) من طرف الإسبان⁽²⁾.

فقام المولى إسماعيل بتحرير مرسى المعمورة (المهدية) سنة 1012هـ (1681م) بعد أن دام احتلالها من طرف الإسبان نحو من سبعين سنة (بعد احتلالها من طرف البرتغال سنة 951هـ - 1515م)، ليتخذها قاعدة أساسية للجهاد البحري. وقد أنشد في هذا الفتح عبدالواحد البوعناني الأبيات الآتية:

لمولاي إسماعيل عز ورفعة
وأثارها عند الخليفة فاشية
بدا صبح الإسلام يعلو منارة
ومعمورة الكفار بالسيف خالية
فلم يك ذا قبل وإنما له
الله قد أعطى الفتوح علانية
وتلك من الرحمن جل جلاله
مواهب لا تفنى ولا متناهية⁽³⁾

(1) كانت هذه الجزيرة محل صراع طويل بين قراصنة الأتراك وقراصنة الإسبان حيث كانت صلة ربط بين الأندلس وقاس. وقد بقيت الجزيرة موضع احتلال وجلاء بين الجيشين الإسباني والتركي من جهة والجيش الوطاسي من جهة أخرى، حتى حل العهد الإسماعيلي وحاصرها بجيش من رجال الريف. ولكن الإسبان أعادوا الكرة واستولوا عليها استيلاء. (انظر: أحمد البوعياشي: «بحث تاريخي عن احتلال جزيرة بادس» - دعوة الحق عدد 4، نونبر 1975، ص 167). وعن تفاصيل هذه الحصارات انظر: عبدالحق المريني: «الجيش المغربي عبر التاريخ» (1966).

(2) عن الجيوب المغربية وتواريخ احتلالها من طرف الإسبان انظر محمد ابن عزوز حكيم «سبته ومليلية في عهد الحماية وثائق تاريخية» (ص 19). وعن تحريرها من طرف المولى إسماعيل انظر: المنزع اللطيف لابن زيدان (الباب السابع في فتوحاته) (1092هـ - 1681م) ص 134.

(3) من مجموعة قصائد مخطوطة بالخرزانة العامة تحت رقم 1030، ص 68. وإلى هذا الفتح أشار ابن علي الدكالي السلاوي في أرجوزته «اتحاف الملا»:

وفتح الثغور والمعاقلا وابتهجت بملكه أرض سلا
إذ طهر الثغر الذي يليها من برتغال طال مكثاً فيها
(م. خ. ح 227، ص 25).

وبعد ذلك توجه الجيش الإسماعيلي بقيادة علي بن عبدالله الريفي لفتح مدينة طنجة⁽¹⁾ فحاصرها وضيق عليها حتى اضطر الإنجليز للجلء عنها والفرار في البحر سنة 1095هـ - 1684م، بعد أن خربوا المدينة وأتلفوا معالمها. وقد أنشد الفقيه الشاعر سيدي أبو عسرية محمد بن أحمد بن الشيخ سيدي يوسف الفاسي⁽²⁾ قصيدة في هذا الفتح، مشيداً بملوك المغرب وكماته الذين كافحوا من أجل تطهير الشواطئ المغربية وبالسلاطان المولى إسماعيل الذي حرر معاقل الكفر المنيع بالمغرب، وأتى بوصف دقيق لحصار الجيش الإسماعيلي لمدينة ملتقى البحرين، ولبلائه في الدفاع عنها إلى آخر رمق، ولفرار العدو منها: يقول شاعرنا في أبطال الجيش الإسماعيلي ومن بينهم آل القائد الذي حاصر مدينة سبتة عبدالله بن علي الريفي الحمامي:

كمأة في رضا الرحمن صالوا

على الأعداء بالببيض الرقاق

(1) نظم أبو مروان عبدالملك التجموعتي قصيدة في ثغر طنجة لما خلصت من الاحتلال البرتغالي (1464هـ) سابقا والإنجليزي (1684هـ)، أشاد فيها ببطولة محريها هجا هجاء مرأ الأُمراء الوطاسيين الذين تخاذلوا في الدفاع عنها للهوهم وعتوهم حتى احتلت المدينة منها:

بثغرك الأشنب يا طنجة	فيهنك أن زدت الهدى بهجة
كنت بأيدي الشرك كالعجلة	وانفك أسرك وقد طالما
أسلم قبل مسلم زوجة	سحقا لقوم أسلموك وهل
وَأَثَرْتِ اثْرَتَهُ بِنَجَّة	وطاس عن الوطيس ونى
فكم أباد الشرك من مهجة	نشوان أن لا يلوي على أحد
	إلى أن يقول:

أسرح فيك أهله سرجة	يا طنجة الإسلام بشراك قد
فيك الرباط يعدل الحجة	وأنت للرباط تبقيين إذ
	(المصدر السابق، ص 69 - 70).

(2) من رجال الأدب المغربي الكبار كانت له شهرة عظيمة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري. قال عن السلطان المولى سليمان في كتابه: «عناية أولى المجد» أنه له في الأدب اليد الطولى، فينظم وينثر... (المغرب الجديد، س 1، ع 7، ص 13).

وساروا لا يرون الحرب صعباً
حياتهم الوقاية خيرُ واق
وكلهم إذا نهضوا للأمر
ترى الأعداء منهم في اصطفاق
فكم من معقل للكفر هدوا
منيع لا يساوم بالحقاق
(كمرشان) الشهير وما يليه
من الإبراج والأطمم الغماق
و«المعمورة» السماء لما
أتوها في اجتماع واتفاق
فبادر فتحها رهباً إليهم
وجرع أهلها أدهى المذاق
وقال الناس: ما أسناه فتحاً
وما علموا بأن الخير باق
فلو جاء المبشر قبل هذا
بطنجة والخواطر في اشتياق
لجادوا بالنفوس لذاك رغباً
وبالعلق النفيس وبالحداق
ثم يصف شاعرنا حصار الجيوش الإسماعيلية لشغل طنجة المنيع:
على أرجائها الغارات شنوا
وشددوا للوغى عقد النطاق
وقالوا لا برحنا عن ذراها
إلى أن تبلغ الروح التراق

فصَبَّ عَلَى قُلُوبِ الْكَفَرِ رَعْبٌ
وَحَنُّوا لِّلشَّتَاتِ وَلِلْفِرَاقِ
رَأَوْا أَنَّ الْفِرَارَ أَقْلَ خُطْبًا
مِّنَ الْمَوْتِ الْمَبْرَحِ وَالْوَثَاقِ
وَبَعْدَمَا يَصِفُ فِرَارَ الْمَهْزُومِينَ:
فَأَعْطَوْا حَصَنَهُمْ رَغْمًا وَسَارَوْا
حِيَارَى فِي انْتِحَابِ وَانْدِلَاقِ
يَتَطَرَّقُ إِلَى تَهْنِئَةٍ وَمَدْحِ الْمُؤَلَّى إِسْمَاعِيلَ بِهَذَا النِّصْرِ مُعَدِّدًا مَنَاقِبَهُ «الْجِهَادِيَّةَ»:
وَأَرْضُ اللَّهِ قَدْ مَلَأَتْ ثَنَاءً
مِّنَ السُّوسِ الْبَعِيدِ إِلَى الْعِرَاقِ
عَلَى مُؤَلَّيِّ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَدْ
تَسَنَّمَ قُدْرَهُ أَعْلَى الْمِرَاقِي
هَزَبِرَ الْبَسِ الْإِسْلَامَ عِزًّا
وَالْبَسَ ضِدَّهُ ثَوْبَ الْمَحَاقِ
وَجَدَلَ عَصْبَةَ الْإِلْحَادِ قَهْرًا
وَعَمَرَ بِالْهَدَى أَرْضَ النِّفَاقِ
بِهِ نَصَرَ الْإِلَّهَ عَلَى أَعَادِي
جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ لَدَى الْخِنَاقِ
وَهَلْ بِالْغَرْبِ أَوْ بِالْشَرْقِ ثَغَرِ
كَطَنَجَةٍ فِي عِنَادٍ أَوْ شِقَاقِ
وَحَاوَلَ فَتْحَهَا قَدْمًا أَنْسَا
فَفَرَّقَ سَوْقَهُمْ قَبْلَ النِّفَاقِ

ولم تخلفر بها إلا أسود

أجمتها من الأسل الرشاق⁽¹⁾

وأنشد الفقيه محمد بن علي الرافي من مدينة تطوان⁽²⁾ - مركز المقاوم
وتجيش الجيوش - قصيدة في فتح مدينة «البوغاز»، راجياً أن تفتح جميع المعقل
الباقية ومنادياً الغزاة المغاربة بأن يتأهبوا للجهاد ولنصرة ملة الإسلام. منها:

سمت ملة الإسلام لما تضعضعت

معقل الكفر بالصواعق والصفاح

وجاشت جيوش في أباطح طنجة

ونادى منادي الجيش حي على الفلاح

ثم يرسلها صيحة مدوية لإنقاذ ما تبقى من المعقل في قبضة المحتلين الغاصبين:

هلموا هلموا يا غزاة وبادروا

لجنة عدن ما عليكم من جناح

فخطر الجهاد في الأناقة شامخ

على كل فعل من فرائض أو مباح

فيا أهل غرب أبشروا وتنسموا

نسيماً له عرف تعطر بالفواح

نمت ملة الإسلام والكفر قد غدا

وهيناً فليلا حيث طنجة في افتتاح

(1) مجلة «المغرب الجديد»، ع 7، س 1 (1935) ص 14 - 15 (تطوان) ذكر ناشر القصيدة: ع. ف أنه
عثر على هذه القصيدة بين أوراق منسية أكلت الأرض كثيراً من أطرافها. وقد تفضل المرحوم الشيخ
محمد المكي الناصري رئيس تحرير مجلة «المغرب الجديد» وأفصح لي عن الشخصية التي كانت
ترمز إلى اسمها بحرفي: ع. ف في كتاباتها بالمجلة، وهي شخصية الأستاذ علال الفاسي رحمه الله.

(2) قال الشاعر عبدالواحد أخريف من قصيدة له عن تطوان:

تطوان والتاريخ يشهد أنها	ما كان فيها الجين يوماً ثاوباً
قامت على أسس الجهاد وصورحها	وغدت بها الأمجاد زواهيها

كذاك الرجاء في المعاقل كلها
 يكون له فتح قريب فنجم لاح
 ثم يفتخر شاعرنا بقدرة جنود المغرب على الجهاد والطعان:
 لقد أصبح الإسلام باليمن مسفرا
 يقوم حماة بل كفاة لدى الكفاح
 لهم همة في الضرب والطعن بالقنا
 لهم رغبة في الحرب إن قعقع السلاح
 لهم رهبة في الحرب والحرزم دأبهم
 ليوث لهم فخر سراة وهم صباح
 وسار لنا الفتح السعيد لطنجة
 فيا له من فتح ويا له من نجاح⁽¹⁾

ولما أرسل المولى إسماعيل جماعة من المجاهدين لحصار العرائش⁽²⁾، التي

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان، م 1، ص 398 (نقلا عن ديوان الشاعر المخطوط بخزانته).
 وقد نظم شيخ الجماعة محمد بن قاسم كسوس قصيدة على نفس الوزن والقافية مشتملة على نفس المعاني - ولكن نظمها مهلهل - في تهنئة المولى إسماعيل بفتح العرائش وتعداد غزواته وفتوحاته، ويرجو فيها أن يلبي نداء مستغيثة من أهل وهران وسبتة والبريجة والأندلس. منها:

رياح النصر هبت بانشرح	ونور الحق لاح مع الصباح
وباز عرائش الأفنان غنى	بفتح عرائش بغنى صراح
وحيث فتوحات له تجلت	كشمس ذات صحو واتضاح
فهي مهدية عجب عجاب	وطنجة دون رمح أو سلاح
نعم ولسبتة شكوى وترجو	فكاكا من وثائق بالسراح
ووهران تنادي: واشجوني	واغو شاه واروحى وراح!
وداء بريجة يرجو دواء	من السلطان في رفع اجتراح
وبافيهم مع جزر عوان	بأندلس يصحن بالانفتاح

(ابن الحاج: الدر المنتخب المستحسن - مخطوط - ص 209 - 211).

(2) ظلت العرائش تقض مضاجع الدولتين الإسبانية والبرتغالية المتزعمتين للحملات المسيحية في الجبهة الغربية ضد الإسلام لنصرة الصليب، وكانت نهاية مساعي البرتغال في هذا السبيل مسطورة في معركة وادي المخازن. أما إسبانيا فقد ظلت تحاول أن تحل محل البرتغال للحصول على قاعدة

بقيت بين يدي الإسبان - منذ أن انتزعوها من السلطان الوطاسي محمد الشيخ - خرج غزاة تطوان ونواحيها قاصدين المدينة للمساهمة في استرجاعها من الإسبان، فأنشأ الرافعي قصيدة متوسلا إلى المولى جل وعلا أن يسهل أمر فتحها وأن يحفظ غزاتها من نقم الكافرين وأن يقطع دابرهم بمغربنا ويمن على المغاربة وجيوشهم بالنصر المبين والفتح القريب:

يا ربنا امنح لنا فتح العرائش يا
رب العباد ومسدي الخير والنعم
وافتح بلادًا غدت بالشرك جاحدة
لديننا وغدا التوحيد في الخرم
يسر لدى المسلمين فتحها عاجلا
واحفظ غزاتك من سوء ومن نقم
أخسى إلهي حماة الشرك قاطبة
واجعلهم نكلا لحما على وضم
وفل جمع العدا وعمهم نكدا
وامنح رقابهم لكل شهم كمي
وأنزل الرعب ربي في قلوبهم
وزلزل الأرض واخز كل مجترم
ولا تذر منهم بغربنا أحدا
بحق خير الورى وسيد الأمم⁽¹⁾

العرائش البحرية، إذ «العرائش وحدها كانت تساوي افريقيا كلها» باعتبار موقعها الممتاز كما قال الملك الإسباني فيليب الثاني. وكانت اسبانيا قد استهدفت من وراء امتلاك العرائش ضمان أمنها أمام أطماع الأتراك والهولنديين. ولكن أملها خاب بإحداث مرفأ المعمورة الذي أصبح مركزا للقراصنة وتهافتت هولندا وانكلترا على امتلاكه لموقعه الاستراتيجي. (د. أمينة اللوه: «قضية العرائش» - مجلة البحث العلمي، عدد 27، ص 14، ص 189 و 197 - 891).

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان م 1، ص 399.

وقد تم حصار العرائش بالجيش الإسماعيلي مدة شهور عدة معزراً بالغزاة
المجاهدين بإمرة القائد علي بن عبدالله الريفي. (وقيل أحمد بن حدو البطوتي)
وبعد مقاتلات اقتحمها الجيش بعد أن هدم أسوارها بواسطة البارود سنة 1101هـ.
وقد نظم الفقيه أبو المحاسن يوسف بن محمد الشودري التطواني منظومة رجزية
وخريدة أدبية، سلسلة العبارة ولطيفة الإشارة أسماها: «ورد الشهي العاطش،
وصولة الإسلام بالعرائش»⁽¹⁾، استوعبت جميع حوادث فتح المغاربة لمدينة العرائش
وأخبار غزوها وبيان ذخائرها مطلعها:

الحمد لله الذي قد أظهر
عصابة الدين على من كفر
ونصر الإسلام والحق بدا
وضل من دين الصليب عبدا
ومنها في مدح المولى إسماعيل:
أبو الفدا الليث الهزبر المرتضى
سل على الكفار سيفاً منتضى
ومهد البلاد والأقطارا
حتى قضى من عزمه الأوطارا
وهو أركان النصارى وسطا
عليهم وصال مجداً وامتنى
وفتح العرائش الممتنعة
وفي فضا الجو غدت مرتفعة

ومنها في وصف هذه المعركة التاريخية وهذا الفتح الجليل:

(1) الأرجوزة مخطوطة بالخرانة العامة تحت رقم: ق 330.
وأوردها محمد داوود في تاريخ تطوان، ج 2، ص 13 - 21.

فبعث البعوث والأجنادا
وللجهاد جيشه قد نادى
وجاء بالعدة من خزائنه
والفضة جل من ندا معانده
وبعث البارود والأنفاضا
وسال بحر جوده وفاضا

إلى أن يقول:

نهض الجيش بعزم للدخول
وكل صادق اللقا رام الوصول
واشتدت الحرب عليها والقتال
والتقت الأبطال فيها بالرجال
وأكرم الله الرجال الشهدا
فأزوا بما فضلا به قد وعدا
وهلك الكفار تسعون قضت
ولمهاوي النار والخزي مضت
والمسلمون نهضوا من حينهم
والكافرون نهضوا لحينهم
وحمي الوطيس واشتد القتال
لم يعهد الناس لذي اليوم مثال
وصال دين الله والحق ظهر
وخمد الكفر وذل وانبهر
فأخرجوا وتركوا العرائشا
وكلهم مما رآه دهشا

فشئت الله العظيم شملهم
وخاب رأيهم وضل فعلهم

ثم يدعو ناظرنا في ختام أرجوزته:
والله أرجو أن يديم نصره
ومجده وفخره وأمره⁽¹⁾

وفي هذا الفتح العظيم⁽²⁾ الذي حققه المولى إسماعيل أنشد أيضاً مفتي فاس
وأديبها أبو محمد عبدالواحد البوعناني قصيدة يهنئه بفتح العرائش. مطلعها:
ألا أبشر فهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزمكم الأمور
ومنها:

(1) المصدر السابق: من ص 1 إلى ص 10.

محمد داوود: تاريخ تطوان، م 2، من ص 13 إلى ص 18.
ولما اطلع علي بن محمد بركة على أرجوزة الشودري هذه: «نيس حينئذ نسبة في فهاة ونفت نفثة
من أنضب العي من فيه ميايه بهذا القريض السمج المهلهل النسج»، ومن هذا القريض:
فتح العرائش الذي قد قرضت عرائش الكفر به ونقضت
وانفض ركن الشرك من وقعته وانفض جمع الروم من نفعته
(المصدر السابق: ص 19).
كما قام بتقريض هذه القصيدة الفريدة أبو إسحاق سيدي إبراهيم ابن أبي بكر السوسي بقوله من
مطلع قصيدته:

أبرزتها من بنات الفكر غانية بحسنها من غواني الحل والحلل
تروي حديث أسود الدين إذ هجموا على ذوي وثن بالبيض والأسل
(المصدر السابق: ص 20).

(2) قال وزير المولى إسماعيل الشاعر أبو حفص عمر الحراق، قصيدة في هذا الفتح ضمنها بيتا من
الشعر العربي. منها:

ومن عجب تروم الروم حربا بسهل أو حزون أو جبال
وقد شهدوا العرائش يوم جاءت بها الأجناد تزحف للقتال
(وجريت الأمور وجريتني كأنني كنت في الأمم الخوالي)
(ابن زيدان: الإتحاف، ج 5، ص 485 والدر المنتخب لابن الحاج الباب السابع).

حميتم بيضة الإسلام لما
بثغر الخلق قد حدث الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فأنتم
لدين الله أقمار بدور
وأطعمتم صوارمكم لحوما
لدى الهيجاء صاحبها كفور
وفي ثغر العرائش قد تبدى
لقدركم على الشعري الطهور⁽¹⁾
فلما جئتها نادى وقالت
إليك بحق مولانا المصير
قهركم بأبطال عظام
على الهيجاء كلهم جسور
ألا يا معشر الكفار هذا
يبدكم وليس له فتور

إلى أن يختم:

يعم جنابكم ما قال صب
ألا أبشر فهذا الفتح نور⁽²⁾

كما أنشد في فتح العرائش محمد بن عبد السلام بن الطيب القادري (جد صاحب «نشر المثاني») قصيدته المشهورة التي يصف فيها اندحار الكفار أمام أبطال الجيش الإسماعيلي ويمدح السلطان العلوي «ناصر الدين»، ويهنئه بالفتح

(1) الشعري الطهور: كوكب عال.

(2) الناصري: الاستقصا، ج 7، ص 74 - 75 - 76.

ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص 419 - 421.

الذي جاء على يديه، ويذكر فيها جميع فتوحاته المتقدمة ويشجعه على تحرير باقي
الثغور المحتلة الأخرى، مطلعها:

علا عرش دين الله كل العرائش
وهـد بنصر الله حصن العرائش
ومنها:

وأسلم للإسلام من بعد كفره
بوقع سيوف لا برشوة رائش
أتاهم من الإيمان جيش مؤيد
فناجزهم ما بين رام ورائش
علوهم بأسياف أسالت رؤوسهم
فساروا سريعاً بين طاوٍ وطائش
وحاشوهم حوش البزاة بغاتها
وقد أثخنوهم فيه إثنان فانش
فما لبثوا أن طالبوا الأمن في الوغى
وذلوا لدين الله ذلة داهش
هنيئاً بنصر الله أمة أحمد
وامدادهم منه بجند مباطش
هنيئاً بعز المسلمين وجمعهم
وإذلال أهل الكفر أهل الفواحش
لنا النصر والبشرى لنا بإمامنا
هزبر الوغى غيظ العدو المناقش
أبي النصر إسماعيل ناصر ديننا
وحامي الحمى بالمرهفات البواطش

أباد حصون الكفر بالسيف والقنا
وما أذعنت من قبله لمباشش
فسل عامري معمورة عن فتوحه
وسل طنجة من قبل هذي العرائش
لك الفتح ممدود فجاهد عدونا
وحشهم وما أوفى لهم كل حائش
فلا تخش حيا ما حييت فإنه
لك النصر عند الملتقى والتهاش⁽¹⁾

ويقول محمد بن علي الرفاعي متحدثاً عن غزاة العرائش في غزوتهم:
وداروا عليهم بجيشهم
كمثل السواري لهم منذرين
وانفاضهم شمرورا جملة
لهدم البلاد وقتل البنين
بدار العرائش قد أحرقوا
وخدوا خدوداً بها معلنين
وشبوا لها النار في قعرها
فكانت وبالا على المجرمين

(1) القادري: نشر المثنائي، ج 2، ص 139 - 140.

ولنفس الشاعر قصيدة أخرى مهلهلة النظم يشيد فيها ببلاء المولى إسماعيل في الكفار. منها:

يا خير من ولى أمر العباد	فأعدم الغدر وأبقى الرشد
أيدت بالنصر العزيز وكم	رعت العدا بالصفات الجيا
لما أبى الكفار أن يهتدوا	واستكبروا حتى طغوا في البلاد
أذقتهم وسط بيوتهم	صاعقة مثل ثمود وعاد
حتى غدوا قتل دماؤهم	أودية يجري بها كل واد

(الكردودي: «المنضد الفاخر» م. خ. ح (11676) دون ترقيم لصفحاته).

ومالت عليهم أسود الوغى
فغاروا وحلوا بها مسرعين
وأمسى الغزاة ببلدتهم
فنعم العرائش للمؤمنين
فحمد ربي ونشكره
فدين الإله علا كل دين⁽¹⁾

وبعد المهديّة والعرائش هاجمت الجيوش الإسماعيلية مدينة أصيلة - التي احتلها الإسبان بعد البرتغال - ونازلتها وضربت الحصار حولها. وقد ضاق بها الإسبان فولوا الأدبار وانسحبوا منها عن طريق البحر، ودخلها الجيش المغربي وملكها سنة 1102هـ.

ولما أنجز المغاربة هذا الفتح وأصبح موقع الإسبان بسبّية مهدداً، تطلّعوا إلى تخليص ثغور سبّية ومليلية والحسيمة وبّادس من الاحتلال الإسباني.

وانطلق الشعراء والخطباء - يحرضون على استرجاعها بعد استرجاع طنجة والعرائش. وقد ثار شعور شاعر تطوان: الرافي لما رأى أمامه مدينة سبّية، وقد

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان، م 1، ق 3، ص 399.

أثارت فتوح المولى إسماعيل لطنجة والعرائش قريحة كثير من الشعراء المغاربة. من ذلك قول قاضي رباط الفتح محمد بن محمد مورينو (الأندلسي الأصل الرباطي الدار) من قصيدة في مدح المولى إسماعيل وأبطال جيوشه:

فكم له من فتوحات وغزو	مشاهد نصره أوفت غناها
كطنجة والعرائش في افتتاح	ومهدية أجابت إذ دعاها
وها غير ذي المواطن مذعنات	وإرهاب لسطوته عراها
بأبطال كأطواد رواس	تبارك ربنا ظفرا حباها
جيوش أيدت بالنصر مما	من الله العظيم لقد أتاها
تراع الروم والأتراك مما	رأوا أن بلغوا حربا دهاها
ولا عجب لأن كانت جيوشا	له وهذي أوائله افتفاها

(المنزع اللطيف، النسخة المطبوعة، ص 341).

سيطر عليها الأجانب وأجلوا عنها سكانها وطمسوا معالمها الإسلامية. وأنشد
قصيدتين تكتسيان صبغة الدعوات وسمة التوسلات:

يا ربَّ سلم ونجَّ كلَّ منتدبٍ
إلى الجهاد وحثَّ فيه واجتهدا
وصار بالحزم يبغى نصرَ ملتهِ
وعزمه في الجهاد دائماً أبدا
«داروا» بسبِّة أهل الصدق وابتدروا
شقَّوا أخايدَ لاستئصال من جدا
فكم وقائع في الحرب لهم شهدت
بأنهم في رهان السبق خير هدى
وكم مدافع في البيداء قد وضعوا
ترمي البلاد فينسي صعقها الرعدا
فارددهم بسلام بعد فتحهم
ما أملوا من بلاد الشرك دار عدا
مرادهم سبِّة البيضا ومينتها
سهل لهم فتحها يا خير من قصدا
فأبدل الكفرَ بالإسلام ربَّ بها
واجعلها فيئاً ولا تبقي بها أحدا⁽¹⁾

وتمضي الأيام ولم يتم بعد فتح سبِّة المنيعه. فنظم الرافعي قصيدته الثانية:

إلهي إلهي أَنلْنَا المنى
وسهَّلْ لنا كلَّ أمرٍ عسيرا

(1) المصدر السابق (نقلاً عن ديوان الرافعي المخطوط بخزانته).

وَمَنْ عَلَيْنَا بَفَتْحٍ وَكُنْ
مُعِينًا يَا رَبَّ لَنَا وَنَصِيرًا
وَسَلِّمْ وَنَجِّ جِيوشَ الْهَدَى
وَصَاحِبِهِمْ كُلَّ وَقْتٍ حَبُورًا
وَأَيِّدْ غَزَاةَكَ بِالنَّصْرِ يَا
لَطِيفًا بِكُلِّ الْوَرَى وَخَبِيرًا
هَمَّ الْأَسَدُ فِي الْحَرْبِ مَا لَهُمْ
إِذَا هَاجَتِ الْحَرْبُ دَأْبًا نَظِيرًا
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنَّهُمْ
لِيُوثُ الْوَعَى قَدْ أَبَادُوا الْكَفُورًا
وَسَلِّ عَنْهُمْ أَهْلَ مَعْمُورَةٍ
وَسَلِّ عَنْهُمْ طَنْجَةَ يَا بَصِيرًا
وَحَصِّنِ الْعِرَائِشَ سَلِّ عَنْهُمْ
يَفِدَكَ مَقَالًا صَرِيحًا لَا زُورًا
وَالآنَ إِلَى سَبْتَةِ سَارِعُوا
لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهَا مِنْ ذَهَابٍ
وَأَنْجِزْ لَهُمْ وَعْدَكَ الْمُرْتَضَى
وَبَلِّغْ مِنْهُمْ وَسْطَ عَسِيرًا⁽¹⁾

فكان الشاعر الرافعي الناطق باسم المجاهدين، يسخر كل قصائده «للحماس والتحميس» لإنقاذ ما يمكن إنقاذه⁽²⁾.

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان، م 1، ص 400.

(2) لشاعرنا الرافعي أيضا رسائل عديدة في فضل الجهاد، خاطب بها المجاهدين - وضمنها بعض الأشعار - وأوصاهم فيها بالثبات والتدرع بدروع الصبر والأناة لينتزعوا حصونهم من يد الكفار. ففي الرسالة التي كان يتحدث فيها عن حصار سبتة من لدن جماعة من المجاهدين قال شعرا:

فتوجهت همة المولى إسماعيل لحصار مدينة سبتة وفتحها وشن الغارات تلو الغارات عليها سنة 1106هـ - 1694م. ودام حصارها أزيد من ثلاثين سنة، تخللتها مناوشات متتابة، وبقي المجاهدون مرابطين حولها ولم يستطيعوا اكتساحها إلى أن انصرفوا عنها خائبين⁽¹⁾.

جيوش أبطال تسارع للعدا	أسود لهم في الحرب أشهى مرام
يصولون بالسيف المهند والقنا	وطعن سنان وامتشاق حسام
وحيث أغاروا في أباطح سبتة	كساهم قتاما من خيول سوام
تراهم والبشرى تعم جميعهم	تخالف نشوى بشرب مدام

وختم رسالته قائلا بأن نصارى سبتة - بعد قتال المسلمين لهم - ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار، وعلوا الأسوار ذاهلين لما اعتراهم من البؤس والدمار:

فولوا خزيا يهرعون ومكنت
سيوف الإله من رقاب لئام
وللرافعي رسالة أخرى تحدث فيها عن الجهاد وعما وقع لتطوان ونواحيها عندما رسا بها الأسطول الفرنسي سنة 1085هـ. وكتب الرافعي رسالة أخرى عن حصار المغاربة الغزاة لطنجة وكان هو من بين المحاصرين. (داوود: تاريخ تطوان، م 1، ص 406 - 407).

(1) في مدة هذا الحصار كتبت جماعة من فقهاء فاس رسائل إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة - أعادها الله دار إسلام - يحرضونهم فيها على الاستماتة في تحرير المدينة - ذات المجد الأثيل - ويعرفونهم فيها بفضل الجهاد وجزائه عند الله، وهؤلاء هم: محمد بن عبد الرحمن البكري الدلائي الفاسي (بعث برسالة إلى جيش الإسلام سنة 1132هـ عن إذن السلطان المولى إسماعيل)، وأحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي (توجد الرسالتان مخطوطتين بالخزانة الحسنية تحت رقم: 6929 علق عليهما إبراهيم الكتاني ونشرهما بمجلة الثقافة المغربية عدد 4 إبريل 1979 من ص 61 إلى ص 85). أما باقي الرسائل فهي لمحمد بن أحمد المسناوي الدلائي ثم الفاسي، ولمحمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي، وللشيخ محمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي، وللطيب بن مسعود المريني (انظر رسالته في المخطوط المذكور أعلاه وقد أصابها الخروم).

وكل هذه الرسائل تشتمل على وعظ ورشاد وترغيب وترهيب وتشجيع وآيات وأحاديث وأشعار ومعلومات تاريخية عن هذا الحصار الطويل، مضيئة بذلك صفحة أخرى إلى آداب الجهاد والكفاح النثري. وهذا يدل دلالة واضحة على اهتمام الفقهاء والعلماء بالمعركة الدائمة لتحرير سبتة والشعور الأليم بنكية احتلالها. وقد بعث المولى إسماعيل رسالة إلى السلطان العثماني جوابا عن رسالة يصفه فيها «بكثره الجهاد»، وبأن جهاده لتحرير المهديّة والعراش وطنجة «جهاد على قدر حاله وعلى قدر رجاله وقدر البلاد»، أما جهاد سبتة فهو يشبه جهاد العثمانيين فيمن والاهم من الكفار.. (إبراهيم الكتاني: حول رسائل علماء فاس إلى المجاهدين المحاصرين سبتة) وهي من أدب الكفاح الوطني بالمغرب. «منوعات محمد الفاسي»، ص 59 - جامعة محمد الخامس 1967 ويوم اشتد المرض على المولى إسماعيل كتب وصية قال فيها: «واتركوا الجيش مقابل سبتة فإن فيه إرهاب الكافرين» (محمد السائح - بحث - دعوة الحق عدد 2 س 3).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن المؤرخين يذكرون في ترجمتهم لمولاي عبدالسلام بن مشيش أنه دخل إلى سبتة بقصد الجهاد في عهد الموحدين - ضد مسيحييها أكثر من مرة، ولما

وقد أمر السلطان العلوي بشن حملة لحصار حصن بادس⁽¹⁾. وقد أحاط المجاهدون به واقتحموه واستولوا عليه. كما حاصر مدينة مليلية⁽²⁾ والحسيمة. وبعد هذه الحصارات أصبح المغرب موحدًا، وامتدت رقعته إلى جحافل الصحراء والسودان. وأصبح المغرب في عهد المولى إسماعيل، في عهد خلفه سيدي محمد ابن عبدالله⁽³⁾ - وحتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي - مهيبًا عند الدول المسيحية بسبب حنكة جيوشه وقوة أساطيله، حتى قال عن دولته أحد المؤرخين المغاربة القدامى:

«من محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه».

ولما بقيت «البريجة» أو المهدومة (الجديدة) ترزح تحت احتلال البرتغال جمع المولى محمد بن عبدالله جيشًا من المجاهدين والمحاربين من أهل دكالة، وأمرهم

توفي صار ضريحه في جبل العلم ملتقى المجاهدين، وخاصة في العصر الحديث حيث كان يقصده قادة المقاومة ومؤسسوا الرباطات الجهادية الذين وقفوا في وجه الزحف الإسباني نحو جباله وبلاد الريف - يجتمعون فيه لإثارة الحماس الجهادي والتخطيط للجهاد، وجمع شمل المجاهدين من رجال القبائل (د. عبدالعزيز التسماني خلو: القطب الشهيد مولاي عبدالسلام بن مشيش - مجلة دار النيابة، ص 79، عدد 28...).

(1) انظر «باحث»: «بادس المجاهدة» - دعوة الحق، عدد 10، ص 16 (1975)، ص 98.
وقد أورد صاحب البحث قصيدة لابن الخطيب نظمها في بادس وهي سينية رائعة الأسلوب مطلعها:
عسى خطرة بالركب يا حادي العيس على الهضبة الشماء من قصر باديس

(2) نشر السيد حسن الفكيكي تقاييد لابن القاضي القلعي (والإسباني: «استرادا») المليلي، كفت عن واقع الأزمة التي عاشتها امليلية خلال عهدي المولى رشيد والمولى إسماعيل نتيجة الدعم العسكري الذي قدمه العاهلان المغربيان للمجاهدين القليعين. (حسن الفكيكي: مواقف جهادية للمولى الرشيد والمولى إسماعيل في الدفاع عن امليلية - دعوة الحق عدد 258 - غشت 1986، ص 31).

(3) كان سيدي محمد بن عبدالله الملك العلوي العالم المصلح يتميز بهمة عالية وروح جهادية من أجل حماية الإسلام بالمغرب والدفاع عن ثغوره وتحريرها كالعرائش وسبتة ومليلية. وكان لا يتورع في الإنفاق عن (الجهاد البحري) ورؤساء بحره وسفنه وآلاتها الحربية دفاعا عن السواحل المغربية من اعتداء المعتدين (انظر: الحسن العبادي: «الملك المصلح سيدي محمد بن عبدالله» - عبدالله كنون: «الملك العبقري سيدي محمد بن عبدالله» - دعوة الحق، عدد 5 ذي الحجة 1386هـ. عبدالحق المريني: «الجيش المغربي عبر التاريخ» - فصل: الجيش المغربي في عهد سيدي محمد بن عبدالله.

بحصار المدينة وإمطار النصارى وإبلاً من الكور والبونب. فلما تحقق الجلاء وتحررت المدينة دخلها السلطان العلوي منتصراً سنة 1182هـ، وغنم أموالها ومدافعها، مهاريزها ومقوماتها الحربية. ثم تواردت عليه التهاني، من ذلك قصيدة: مهلهلة لسليمان المراكشي صاحب «الحلل البهيجة» الذي «يحمد الله فيها على ما بدا من نعمة الظفر وما منحه لأmir المسلمين من فضل وعزة ونصر»⁽¹⁾..

وقصيدة للشاعر أبي العباس أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي المالقي الفاسي السفير والكاتب، أشاد فيها بهذا الفتح الذي حاق فيه المكر السيء، بأهل الشرك، الذين صاروا عبيداً من مهابة بأس السلطان سيدي محمد بن عبدالله، بعدما أمطرهم بصواعق بطشه:

إمام له في باذخ العز رتبة
تقاصر عنها الوهم والوصف والحصر
تذل له الإساد في أجامها
وترتاع في أعمادها القضب البتر
تزلزل أهل الشرك منها وأذعنوا
وعم على أفاق أجناسهم قهر
وصاروا عبيداً من مهابة بأسها
ولم ينجهم في الأرض بر ولا بحر
كما حاق «بالمهدومة» الخير جهرة
وحل بها من سوء أفعالها خسر

(1) سليمان المراكشي: الحلل البهيجة، م. خ. ع، ص 18. منها:

وجاهد في أهل الضلالة والكفر وليهنأ أمير المؤمنين بذا الظفر
فلله حمد المسلمين وشكرهم على ما بدا من نعمة النصر والظفر

تصدى لها فخر الملوك بغزوة
 تزعزع منها الجو والبر والبحر⁽¹⁾
 وصب عليها من بوارق بطشه
 صواعق حتف لا يطاق لها أسر
 ومن ذا يلاقي صولة هاشمية
 إذا انتهضت للأمر يسبقها النصر
 فيا لك من عز تكامل سعه
 ويا لك من فتح به سمح الدهر
 فأصبحت للإسلام طود حماية
 وغيثاً لأهل الأرض إن نالهم فقر⁽²⁾

وبعد أن فل المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي شوكة الضالين المضين صرف
 همته إلى الطواف على مراسي المغرب وثغوره والنظر في أمورها وإحياء مراسم
 الجهاد بها. فخرج من مكناس إلى تطوان ثم إلى طنجة ثم إلى أصيلا، ومنها إلى
 العرائش، وتبع الثغور ثغراً ثغراً حتى وصل إلى آسفي.

(1) يشير الشاعر بهذا الشطر الأخير إلى قوة الجيش المغربي في عهد سيدي محمد بن عبدالله،
 وخصوصاً إلى شدة أسطوله الذي قام فقهاء العصر بحملة لمبعثه وتقويته لمقاومة الدخلاء. وفي
 وصف هذا الأسطول الضخم الذي جاهد به سيدي محمد بن عبدالله لتحرير الثغور الساحلية
 يقول أبو عبدالله محمد بن علي الدكالي السلاوي في أرجوزته: «اتحاف أشراف الملا ببعض أخبار
 الرباط وسلا»:

وكان قصده به مبينا	وبلغت أجفانه المئينا
من الثغور مبهم التطرف	فتح بلاد الغرب مما قد بقي
على بلاده كمثّل الروم	ورد ما يعرض من هجوم
فهاجم الثغور لكن ردا	وكان بعضهم تعدى الحدا

(م.خ. ح 227. ص 27).

والجدير بالإشارة أن ابن علي الدكالي السلاوي ذكر في أرجوزته هذه جل غزوات الأسطول المغربي
 وجهاده في الأعداء من الموحدين إلى المولى الحسن الأول تحت عنوان: «المقصد السابع في ذكر
 المنعة» (من ص 24 إلى ص 30).

وختم أرجوزته بذكر جهاد بعض ملوك المغرب من الدول المرينية والسعدية والعلوية.

(2) بن زيدان: الإتحاف، ج 3، ص 340 - 341.

وكان مراده من هذه «الحركة» هو إحياء سنة الجهاد في البحر - التي كان أغفلها المولى سليمان قبله ووزع قطعة وأدواته - فأمر بإنشاء الأساطيل البحرية وتجديد قديمها وتسليحها، والخروج في «القراصين الجهادية» للطواف بسواحل المغرب. ولما غنم أسطوله مراكب نمساوية، هجم الأسطول النمساوي على العرائش سنة 1245هـ (1829م) على حين غفلة. فانهال المجاهدون من أهل الساحل على النمساويين - من كل جهة - وانكب عليهم أهل العرائش وأحوازاها - وكانوا منتشرين لحصاد زرعهم - ففتكوا بهم فتكا ذريعاً بمناجلهم وردوهم على أعقابهم خاسرين⁽¹⁾.

ولما أتى إلى المولى عبدالرحمن رسول من الإنجليز يرجو إبرام معاهدة صلح، وأتى بعده رسول من الدانمارك راجياً التخفيف من «ضريبة الأعوام»، وسفراء آخرون يطلبون وده، أنشد الشاعر الكبير محمد بن إدريس العمراوي قصيدة سجل فيها الحدث الهام، ووعد المولى عبدالرحمن بأن سفير «النبريال» (النمسا) سيأتي هو الآخر ذليلاً امقهوراً ليطلب إبرام معاهدة مماثلة. وهنا تعرض الشاعر لوصف المعركة البحرية - السالفة الذكر - بين الأجفان المغربية والنمساوية، مهتناً السلطان بهذا الانتصار الذي أحرزه في أول معركة بحرية له ضد الأجانب. مطلعها:

رفعت بملكك راية الإسلام
وبدت بعصرك بهجة الأيام
وعلا بك الدين الحنيف مراتباً
خفضت عباد الجبت والأصنام

إلى أن يقول:

وأنت لسدتك الرفيعة خضعاً
رسل الملوك وعصبة الأعجام

(1) الناصري: الاستقصا، ج 9، ص 24 وما بعدها. وفي رواية أخرى: فأنتك راغبة لنيل سلام.

هابتك حتى الروم في أقطارها
فأتتك طالبة لئلا تسلم
هذا رسول لنجليز ببابكم
متمسكاً منكم بحسن ذمام
وأتى رسول الدينمرك إثره
متطلباً للفضل والإنعام
ولسوف يأتي «نبريال» بعده
في ذلّة موصولة الإمام
ولقد كفاه من الفضيحة ما جرى
يوم العرائش بالعدا الأعتام
نزلوا بساحلها وظنوا فرصة
فغدوا حصيد مناجل وسهام
هيهات لا ينجيه من سطواتكم
غير الجزاء والقتل والإسلام
راعت جفون المشركين جفونكم
في البحر والاسياف في الأحلام
كثرت مراكبهم وقتل غناؤها
والنصر بالتوحيد لا بالأقوال
والله للإسلام كافٍ وكافلٌ
يعلي مكانته مدى الأيام
ولناصر الدين الحنيفي ناصر
عند المشاهد وعد وحق سام⁽¹⁾

(1) العمراوي: الديوان، م. خ. ح (12075) دون ترقيم لصفحاته، ص 258 - 259.
شهيد: ديوان العمراوي، ص 564 - 565.

وبعد أن كان المولى عبدالرحمن يخوض غمار الحرب والنزال ضد رؤوس الفتنة والخراب، اتصل به خبر استيلاء الفرنسيين - وهو بمراكش - على ثغر الجزائر سنة 1240هـ - 1830م.

وكان أتراك الجزائر على طرفي نقيض مع الفرنسيين، فتعددت بينهم الوقائع براً وبحراً حتى هاجمهم الجيش الفرنسي، وقام باحتلال الجزائر ووهران وتلمسان. فأدرك المولى عبدالرحمن أهمية هذا الحدث الجلل والتأثيرات الخطيرة التي ستترتب عنه آجلاً أو عاجلاً.

وكانت الجزائر قذى في أعين الأعداء: فقد حاول أخذها الإسبان لما استولوا على الشواطئ المغربية، وحاول الإنجليز الاستحواذ عليها، ولكن الفرنسيين هم الذين أجهدوا أنفسهم في الهجوم عليها بعد تقاعس أهلها في الدفاع عنها لأول وهلة⁽¹⁾.

ويذكر د. عبدالهادي التازي أن الشاعر خلد في هذه القصيدة الأزمة التي عرفها المغرب في أعقاب رفض مطالب السويد والدانمارك، الأمر الذي استدعى الإنجليز والنمسا للتدخل والتهديد بإرسال الأسطول لقصف الثغور المغربية. (التاريخ الدبلوماسي للمغرب، م 1، ص 262).

(1) توجد في ديوان شعري مخطوط بالخزانة الحسنية قصيدة - مجهول اسم ناظمها - وهي نونية طويلة يصف فيها صاحبها استيلاء الفرنسيين على الغرب الأوسط ويتحسر على هذا الاحتلال الأجنبي لبلاد إسلامية. (رقم الديوان: 10907).

ولما سمع أحد شعراء تطوان تقاعس أهل الجزائر في الدفاع عن بلادهم أنشد قائلاً:

أحقاً ما أشيع عن الجزائر	من إرهاب البواطن والظواهر
لئن ترك الهوان بها وذلت	فقد شمل البوادي والحواضر
وكيف يلذ في بلد مقام	إذا هان الهوان على الأكابر
أيأبى البائعون نفوس عز	بأفضل ما يرام إلى الذخائر
لئن ثبت المقال كما سمعنا	فقد طاب الرحيل إلى المقابر

فأجابه العلامة الأديب الشيخ أحمد بن سعيد بن إبراهيم الجزائري بفند ما سمع بقوله:

هي الأقلام تنطقها المحابر	لتسمعك اليقين عن الجزائر
أشاعوا ما سمعت من البلايا	ليهرب مؤمن ويسر كافر
أتأها ما أراد الله حيناً	فكادت تنشق منه الحرائر
ورد الله بأسهم عليهم	ودارت في ملاكهم الدوائر
فإن نزل الهوان بها قليلاً	فكم سلت لرفعته بواتر

فقام الحاج عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري على رأس كتبية من بني عامر وزحف على وهران وأوقع بالفرنسيين وقعة شنعاء. ولما سمع به أهل تلمسان - وكانوا أحوج ما يكونون إلى من يقوم بأمرهم ويقود شؤون جهادهم - طلبوا منه أن يقدم بيعتهم إلى السلطان المغربي المولى عبدالرحمن بن هشام وإدماجهم في حظيرة المملكة. فأجابهم عبدالقادر الجزائري⁽¹⁾ إلى ذلك وبعث بوفد لمكناس ليقدم البيعة ويظهر الطاعة والانقياد للسلطان المغربي، فأمدّه بالخيول والعتاد، بقيادة الأمير علي بن سليمان، ودارت معركة طاحنة بينه وبين الجيش الفرنسي كان الانتصار فيها سجلاً حول تلمسان⁽²⁾.

وبعدما استمرت المعارك بين الجانبين اتفق على انسحاب الجيش الفرنسي عن تلمسان بمقتضى معاهدة صلح «طفنة» 1253هـ - 1837م. فبعث الوزير ابن إدريس «برسالة سلطانية» (مؤرخة بـ 26 ربيع 2 - 1255هـ) إلى الأمير الجزائري جواباً على كتابه: «المفصح عن صميم المحبة بصحيح العبارة دون الإشارة، الموضح لما من الله تعالى ذو الفضل والإحسان من فتح مدينة تلمسان واسترجاعها من

وكم بذل الكرام بها نفوسا	ليبتاعوا من الله الذخائر
فقل للعالم التحرير نفسي	فداؤك لا تخف فالله ناصر
(المشرفي: الحل البهية، ص 201 - 202).	
(1) مما ينسب لهذا القائد الجزائري قوله شعرا:	
لنا في كل معركة مجال	ومن فوق السحاب لنا رجال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى	وما تبقي السماء ولا الجبال
فبالمجد القديم علت قريش	ومنا فوق ذا طابت فعال
ومنا لم يزل في كل عصر	رجال للرجال هم الرجال
(د. أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، ص 119، تونس 1976).	
(2) الناصري: الاستقصا، ج 9، ص 42.	

هذا وقد أعدت فرنسا هذه البيعة تطاولا من المولى عبدالرحمن على إيالة كانت تابعة للأتراك وخصوصا لما عين مولاي علي خليفة له بها سنة 1830م (وهي السنة التي احتل فيها الجيش الفرنسي وهران)، أما السلطان العلوي فقد كان يعتبر تدخله في تلمسان وناحياتها وتحريضه لقبائل تلك الناحية على الجهاد والتضييق على الكفار واجبا يفرضه الدين والجوار. (عكاشة برحاب: شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال، ص 96).

غير إعمال السيف ولا سنان...» يهنئه بهذا الفتح «الذي هو مقدمة الفتوح وطالعة الخير الممنوح»، ويبارك له عقد اتفاقية الصلح والسلم، لأن السلم «إذا كان عن عز لمصلحة كان داعياً لوفور القوة وانتظام الكلمة وائتلاف القلوب والتبصر بعواقب الأمور وغير ذلك مما يؤدي بالحزم والعزم في جهاد أعداء الله. قال الله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...﴾.

وقد استهل الوزير الشاعر الناثر كتابه بقصيدة يشيد فيها بهذا الفتح. منها:

بشرى بفتح كسا الإسلام إحسانا
وصار منه لعين الدين إنسانا
صُنِعَ جميلٌ سمت فضلاً صنائعه
لوحشة الدهر والأيام إنسانا
فأصبحت ووجوه السعد مشرقة
بها جهاراً كأن الكفر ما كانا
لله فتحٌ غدا للذكر فاتحة
وصار كالخط فوق الكتب عنوانا
قد شاد أركان دين الله فاتحه
وهدّ من جنبات الكفر أركانا
وكيف لا وبه ازداد العلا وسما
وطهر الله مولانا تلمسانا
وقد غدت ملّة الإسلام عاليةً
ونكّست بحمى الإشراك صلبانا
فتحٌ تفتّح أبواب السماء له
واذ تلاه لسان الدهر أحياناً

لا زال يستخلص الأقطارَ مُنتصَحًا

ثَغْرًا فَثَغْرًا وَأَوْطَانًا فَأَوْطَانًا⁽¹⁾

وقد أمر السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام ووزيره وشاعره أن يبعث مرة أخرى إلى الأمير عبدالقادر الجزائري بن محيي الدين - «الذي أظهر للدولة العلوية الوداد وأعلن بالنيابة عنها في موطن الجهاد» - قصيدة تنشطه وتشجعه ليثبت في حماية ثغر تلمسان بعد أن تم فتحه وتحريره من الكافرين، فأنشد شاعرنا قصيدة، مطلعها:

أهلا بفاتحة الفتوح المرسلّة

فضلاً وطالعة السعود الموصلة

ومنها:

لله دُرْكُ يا بن محيي الدين يا

من أنهل قلب السرور وعله

فتحت تلمسان فسر بفتحها

هذا الوجود بما أتاه وحق له

واهتزت الأقطار من فرح به

وغدا لسان الدين يفتح مقفلة

أطلعت شمس الدين في أفق غدا

في قطره الإشراك ألقى كلّله

وصرفته عنها بعزيمة قائم

بالله قد شام الحسام وأعمله

(1) ناصر الفاسي: «محمد بن إدريس العمرابي وزير المولى عبدالرحمن بن هشام وشاعره» - البحث العلمي - ع 1، ص 1، وما بعدها. (دون ذكر للمصدر الأصلي). وقد أتى بها شهيد في رسالته عن ديوان العمرابي، ص 667 دون التوصل إلى معرفة مصدرها الأصلي، وقد وردت هذه الرسالة ضمن: وثائق من وحدة المغرب عبر الكفاح، في مجلة فكر، ص 5، ع 1 - 1959.

قل للذي قد رام شأوك في الورى
سلم لفضل الله ما هذا البله؟
لا زلت تفتح الثغور مواصلا
أبكارها والعون موصول الصلة⁽¹⁾

ولما كانت سنة 1259هـ 1843م أخذت مقاومة الأمير عبدالقادر الجزائري تنتكس، وتم استيلاء الفرنسيين على جميع بلاد المغرب الأوسط استنكاراً لدخول أهل تلمسان في طاعة المولى عبدالرحمن، وفتح بلادهم للجيش السلطاني⁽²⁾.

(1) بن ادريس العمرابي: الديوان، م. خ. ح (بدون ترقيم لصفحاته). شهيد: ديوان العمرابي، ص 665.
(2) لقد برهنت الدولة المغربية، في القرن التاسع عشر - عموماً - ومن خلال قضية احتلال الجزائر - خصوصاً على تمسكها بالوحدة الجهادية «المغربية» الإسلامية، ذلك أنه لما بعث الحاج عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري إلى علماء فاس - بعد النكبة - أسئلة محرّجة حول موضوع «وجوب المسلمين وسلطتهم الدفاع عن دار الإسلام» تصدى للجواب عنها فقيهاً من أجلة فقهاء المغرب وهما: مولاي عبدالهادي العلوي وعلي التسولي. وكلاهما أجازا في جوابهما - الجهاد لهذه الغاية بنص القرآن والسنة، ونصحا الإمام السلطان بحمل الناس عليه والعمل على استنثائه، إعلان لدين الله ومحافظة على رسالة الجهاد في الغرب الإسلامي.
وذكر محيي الدين بن عبدالقادر الجزائري في كتابه: «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر» (ج 1، ص 207) أن السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام أرفق جواب التسولي عن أسئلة الأمير الجزائري «سبع أفراس من عتاق الخيل بسروجها، وبأربع مدافع صفار، وبستين فرسا وبالأدوات الحربية» ليفتح بها حركة الجهاد.
(انظر عبداللطيف حسني: التوجهات الوحدوية في الفكر والممارسة المغربية خلال القرن 19 - الجامعة الشتوية الكتاب الأول - ص 223 - 225).
وقد نظم أبو محمد العربي بن علي المشرفي الحسني أرجوزة وصف فيها احتلال الجيش الفرنسي للمدن الجزائرية وتخلص للإشادة بجهاد عبدالقادر محيي الدين ضد المحتلين واستجاده بالمولى عبدالرحمن بن هشام يقول منها:

غاب ابن محيي الدين عبدالقادر	ولات حين وارد وصادر
قد كان يحذر الفرنج وثبته	ويترقب ويخشى ضربته
منذ أقام ناصر للدين	سنة حم (48) بغية المسكين
وقف في عين الفرنج كالقذا	وطهر الأوطان من رجس الأذى
ورام ينتصر بالإمام	خر الملوك من بني هاشم
ملك فاس وبلاد المغرب	معتمداً لأمره مصوب

(ابن الأعرج السليمانى: زبدة التاريخ وزهر الشماريخ، ح. خ. ح، ص 264 - 269).
والجدير بالذكر أنه من شديد اهتمام شعرائنا بالجزائر نجد كثيراً من أصداء الانتصارات الجزائرية

ولم يقف الغزو الفرنسي عند هذا الحد بل شن غاراته على بني يزناس ووجدة، واقتحمها على حين غفلة من أهلها⁽¹⁾. فانتقضت الهدنة المبرمة بين المغرب وفرنسا. وشرع المولى عبدالرحمن في تزويد عبدالقادر الجزائري بالعتاد والمؤونة، استعداداً للجهاد المشترك، «وحضه على الجهاد وجمع كلمة المسلمين مذكراً إياه بفوز المجاهدين في معركة وادي المخازن على عدو الدين، وما وقع للفرنسيين في مصر...». ثم عزم السلطان على الوقوف في وجه الاحتلال الفرنسي وعقد لابن عمه المولى المأمون على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة، وأخذ في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل⁽²⁾، التي تحملت عبء الجهاد - بسبب متاخمتها للحدود الجزائرية - «إرضاء لله، ودفاعاً عن الأرض وانقياداً لما دعا إليه أمير المؤمنين».

في أشعارهم، مثال ذلك قول حمدون بن الحاج في إحدى «سليمانياته» لما انتصرت الجزائر على حملات الأسطول الانجليزي:

وبدد الكفر والضلال وانتشرا	حمدا لمن نصر الإسلام وانتصرا
بالنصر والفتح مسرورا ومزدهرا	نغر الجزائر أضحى اليوم مبتسما
	(ديوان النوايج الغالية، ص 492).

(1) ذكر محمد المنوني في بحث له عن «المصادر التاريخية للمغرب الشرقي في القرن التاسع عشر»، أن من بين هذه المصادر «قصيدة فصيحة» لشاعر لم يذكر اسمه قالها - على ما يحتمل - في هذا الغزو وهي:

وجد تسعر في الأحشاء والتهبا	مذ قيل ركن من الإسلام قد ذهبا
داه على وجدة قد أسلمت جزعا	من غير سيف ولا قتل ولا حربا
داه على أسر الإسلام قد فشلت	واستتصرت من بفاة الروم واعجبا
قد أصبح الدين ينعى كل ناحية	وأخر النار في لهو وقد لعبا
تتافس الناس في علو البناء وفي	مشاكل وبنا الإسلام قد خربا
دأب اليهود: على ذل ومسكنة	قد أصبحوا ملزمين الهون والغلبا
ما عيشكم وظلام الكفر عمكم	النوم غشاكم أم جبنكم غلبا
إن لم تخوضوا غمار الموت دونكم	لباس زوجاتكم والتمزوا الحجا
عهدي بأسد الشرى في الغرب شاعرة	لم يلحقها بطل إلا غدا هربا
شم الأنوف يهاب الليث صولتهم	أبت نفوسهم أن تشتكي اللغبا
ما إن لهم راحة إلا بقرع عدا	وهين عندهم أن يضربوا الرقبا

(انظر: المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر - منشورات كلية الآداب بوجدة رقم 2، ص 363 - 368).

(2) الناصري: الاستقصا، ج 9، ص 49 - 50.

وانظر كذلك: محمد بن أحمد أكنسوس: الجيش العرمرم، ج 2، ص 28.

ثم جمع جيشاً قوياً (قوامه ثلاثون ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً حسب الناصري) وعقد عليه لولي عهده سيدي محمد بن عبدالرحمن⁽¹⁾ وسار به إلى وادي إيسلي (1260هـ) 14 غشت - 1844م. فالتحم الفريقان. ونصح الأمير الجزائري السلطان المغربي بإخفاء خبائئه حتى لا يراه العدو، ولكنه لم يمتثل، فقصده العدو، وماج الناس بعضهم في بعض، وتسابق الشراردة إلى الخباء وتقاتلوا عليه لنفسه، فتشتت قوات السلطان، ومنيت بهزيمة منكرة، ولم يهزم المغاربة إلا المغاربة الانتهازيون، ولم يولوا للأدبار إلا بسبب سوء قيادتهم ورداءة تنظيمهم. فراجع السلطان إلى تازة ثم منها إلى طنجة لإمضاء معاهدة تقرر بها الحدود المغربية - الجزائرية (1844م) (كما كانت عليه في أيام الحكم التركي)، ثم إمضاء اتفاقية مغنية سنة 1261هـ - 1845م للبحث في الحدود بصفة نهائية، وتوقيف المساعدات العسكرية للأمير الجزائري، وحملات المجاهدين انطلاقاً من التراب المغربي.

وإثر هذه الواقعة⁽²⁾ التي انهزم فيها المغرب لأول مرة فوق ترابه - بعد أن كانت قوته العسكرية مرهوبة الجانب منذ ما يزيد على القرنين - إذ لم يكن جيشه فيها

(1) عاش سيدي محمد بن عبدالرحمن (محمد الرابع) في حياته هزيمتين: الهزيمة الأولى وهي هزيمة معركة إيسلي (1844م) كولي للعهد، وقد عرف مضاعفاتها وأسبابها، والهزيمة الثانية وهي هزيمة معركة تطوان (1860م) كسلطان للمغرب إذ لم تستطع جيوشه الوقوف في وجه الزحف الإسباني. وهذا ما دفعه إلى إحداث: «الجيش النظامي السعيد».

(2) عن أطوار هذه المعركة ونتائجها انظر: د. إسماعيلي مولاي عبدالحميد العلوي: تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج 1 ابتداء من ص 111. ويرجع المؤرخون المحدثون بأن متاعب الجيش المغربي في هذه المعركة ترجع إلى:

- أن حركة فرسانه عاقبتها الكثرة عن التحرك السريع، حيث كانت تتقدم ثم تتراجع ثم تدور.
- الحواجز الطبيعية المتمثلة في الأشجار الكثيفة.
- صعوبة تحكم القيادة العسكرية في الجنود المحترفين والجنود المتطوعين والتسسيق بينهم، على عكس جنود الخصم.
- إلهاب رغبة الأعداء في الحصول على الغنائم والأمتعة بسبب وجود «الخيمات» الناصعة البياض بسل انكاد.
- انتشار خبر استشهاد - خطأ - قائد المعركة الأمير سيدي محمد بن عبدالرحمن الذي كان يمتطي فرسا أبيض.
- قدم الأسلحة وصعوبة تنقل الثقيلة منها. (انظر: المرجع السابق، ص 134 - 135).

على أتم اتسعداد، وكان فيها من حكم الله ما قدر وأراد، انهارت معنويات شاعرنا
الوزير ابن ادريس وأنشد يرثي لحالة أمته وبلاده ويتحسر:

خليلي عوجا بالركاب على رسلٍ
وقصًا على قلبي الحديث الذي يسلي
ولا تعذلاني في التوله والأسى
فقد صدع الأكباد ما حل في يسلي
فقد منعت نفسي (السعادة) وقعة
تداعت لها الأجسام من شدة الثقل
وفي الهم ما يضمني الجسوم قليله
ويجلي لنفس الحر ما مرّ من قتل
ولولا الرضى بالله في كل حالة
لفاضت نفوس المسلمين من الثكل
ولكنها الأقدار تجري بحكمها
فليس سوى التسليم للحكم العدل⁽¹⁾

ولم يبق في قوس شاعرنا المكلوم بعد هذا التأسي إلا منزع التوسل والابتهال
إلى الله تعالى، أن يضمّد جروح الأمة المغربية ويخفف من شدة هولها ومصابها.
فأنشد متوسلاً ومتشفعاً للرسول الأكرم ﷺ على لسان السلطان المولى عبدالرحمن
بن هشام:

فكن يا رسول الله غوثاً لأمةٍ
تمت إلى عليك النسبة الكبرى
فما أنزلوا إلا ببابك رحلهم
ولا اتخذوا يوماً سواك لهم ذخرا

(1) ابن إدريس العمراوي: الديوان، م. خ. ح (بدون ترقيم لصفحاته).
شهيد: ديوان العمراوي، ص 665.

ولا استنصروا إلا بجاهك في الوغا
ولا قصدوا في الخلق زيذاً ولا عمرا
ولا قَصَّروا إلا عليك رجاءهم
وما قَصَّروا أو خالفوا النهي والأمر
وقد جاوروا من عصابة الكفر أمة
تريد بنصب الماكرين لها الجراً
ثم يقول داعياً ومتوسلاً للأمة المغربية:
وأظهر لها من عز جاهك نصرة
ترد على الأعقاب من سامها ذعرا
وتخل ديار المسلمين من العدا
وتكسبها من بعد نجسهم طهرا
وتتركهم صرعى بكل ثنية
وتملؤها ديناً كما ملئت كفرا
فلا جاء إلا جاء عرك يُرتجى
ولا نصر إلا من علك لهم يدري⁽¹⁾

فكان احتلال الجزائر وانهزام المغرب بمعركة إيسلي⁽²⁾ من خلال قصائد

(1) المصدر السابق، م. خ. ع، ص 206، شهيد: ديوان العمراوي، ص 213 - 214، ابن زيدان: ج 5، ص 271 - 273.

(2) من ذيول معركة إيسلي: أنه بدأ الضعف يدب في صفوف الدولة المغربية بعد تخليها عن سياسة الحرب أمام الأمر الواقع، وكثرة أطماع الدول الأجنبية للاستحواذ على الشواطئ المغربية. فاحتل مثلا الإنجليز طرهایة واستردها المولى عبدالرحمن بن هشام بعد أن اشتراها منهم وبعد أن كانت نصوص المعاهدة المبرمة بين الدولتين المغربيتين والدولة الفرنسية بعد معركة وادي إيسلي (اتفاقية طنجة في 10 شتبر 1844) تنص على أن الصحراء هي أرض موات لاحق لأحد في ملكيتها، استعمر الجيش الفرنسي توات (التي كان عليها والي مغربي ويؤدي أهلها الخراج للسلطان المغربي وتقام فيها الخطب أيام الجمعة باسم سلطان المغرب) خارقا بذلك نصوص المعاهدة السالفة الذكر. ولم يستطع الجيش المغربي أن يدافع لا عن توات ولا عن صحرائه لما أصيب به من وهن وضعف بعد معركته

الوزيرين الشاعرين غريط⁽¹⁾ وابن إدريس، تنبيهاً بيئاً للأخطار المحدقة بالمغرب وحافزاً للمغاربة لكي يشمروا عن ساعد الجد ويتأهبوا للجهاد والدفاع عن حوزة الوطن بكل ما يقتضيه هذا الدفاع من تضحيات⁽²⁾.

وعلى كل فقد تناول شعر الجاد في هذه الفترة تهنئة السلاطين العلويين بالفتوحات التي حققوها بعد نضال مرير - على أعداء المغرب الكافرين من برتغاليين وإسبانيين - لنصرة الإسلام وقهر أعداء دينه اللئام وتحرير مواقع المغرب وثغوره من قبضة الغاصبين المعتدين.

المشؤومه. وكان من ذيولها أيضا (وذبول معركة تطوان) شعور «المخزن» بضعف النواة العسكرية للجيش المغربي وبضرورة تدريبه على الحملات الدفاعية أمام هجومات الأعداء، بل اقتصراره على الحملات الهجومية - منذ الفتح الإسلامي للمغرب - والتي لا تجدي شيئا أمام أساليب عسكرية جديدة لا تعتمد أساسا على الكر والفر فقط.

ومما جاء في رد الفكر المغربي عن هذه الهزيمة تأليف طرحته واقع الهزيمة المرة وحددت وسيلة تجاوزهها في إنشاء «جيش النظام» والأخذ بالتنظيمات العسكرية الحديثة واستعمال أسلحة جديدة دقيقة كالمدفعية، منها: «بشارة تسر الناظرين على حديث لا تزال طائفة من أمتي ظافرين» لمحمد بن محمد الصنهاجي (وضعه في سنة 1886م)، م.خ. ع تحت رقم K 183، و«تاج الملك المبتكر ومداده من خراج وعسكر» لمحمد بن محمد الفلاق (م.خ. ح رقم 502 ح) - انظر عرض أحمد العماري في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في ق 19 بكلية الآداب بالرباط.

(1) لم يكن محمد بن غريط شاعرا فقط بل كان وزير للمولى عبدالرحمن وكتابا للمولى محمد بن عبدالرحمن ثم لابنه المولى الحسن الأول. ازداد بمكناس ودرس بالقرويين بفاس. له ديوان شعري ورسائل إدارية مخطوطة، توفي بفاس سنة 1863م.

(2) نهج الشيخ الناصري الدرعي صاحب الزاوية الناصرية بتمكروت نفس منهج الشاعرين السابقين، ففضل أن يسلك سبيل الوعظ والإرشاد في شعره، ويستنفر همما قاعسة وأرواحا خامدة، ويتوجه إلى المولى سبحانه وتعالى بخشوع رهيب وتضرع مهيب، أن يزيل عن المغاربة حالة الضعف والاستضعاف، ويرفع عنهم مغبة المذلة والمسكنة بعدما كانوا كراما أعزاء فيقول في «ناصريته»:

يا من إلى رحمته المفر	ومن إليه يلجأ المضطر
فالطف بنا فيما به قضيت	ورضينا بما به رضيت
واجعل لنا على البغاة الغلبة	واقصر أذى الشر على من طلبه
واقهر عدانا يا عزيز قهرا	يفصم حبلمهم ويصمي الظهرا
واعكس مرادهم وخيب سعيهم	واهزم جيوشهم وأفسد رأيهم
يا رب احفظ زرعنا وضرعنا	واحفظ تجارنا ووفر جمعنا
واجعل بلادنا بلاد الدين	وراحة المحتاج والمسكين

(انظرها بتمامها في مجمع المتون).

فأصبح جو الأطماع المستمر الذي أحاط بالمغرب شعباً مخيفاً لكافة المغاربة، وخاصة بعد أن بدأ صراع الأعداء (الإسبان والفرنسيين والبرتغاليين) يتخذ شكل السيطرة والاستحواذ. فهياً هذا الوضع المغاربة كي يظلوا حذرين يقظين، يقدمون من أبنائهم المجاهدين وقوداً للحرب التي تثيرها مطامع الطامعين⁽¹⁾، ويستقطبون الطاقات البشرية من أبناء القبائل المتطوعة للقيام بالحركات الجهادية تحت قيادة قادة أفذاذ ومجاهدين أبرار، ليس لكون الجهاد هو واجب ديني فحسب. بل لكونه أصبح واجباً وطنياً.

وكان الشاعر المغربي في هذا الميدان حاملاً لواء الدعوة لجميع مظاهر البطولة من تضحية وإقدام، ودفاع عن القيم والمقدسات، وثبات عند الشدة، وصبر على المكاره، ومطاردة للمعتدين، ووقوف في وجه المستفزين.

فكانت معارك المجاهدين في هذه الفترة الحاسمة عن تاريخ المغرب أشد هولاً وفزعاً، وكانت ساحاتها من أكبر الساحات المغربية بلاء وشرفاً وفخراً، وكان شهداؤها يزدحمون على باب الاستشهاد في سبيل الله، وكانت أشعارها تتدفق منطلقاً من عقالها، متقدماً لهيبها، تخلد بطولة مجاهديها وأمجادها شهدائها⁽²⁾.

(1) مما يجب التنبيه عليه في هذا الباب أن المغرب لم يخضع لحكم أجنبي منذ الأدارسة حتى العهد العلوي. فلم يخضع لحكم البويهيين أو السلجوقيين كما في العراق، أو لحكم الممالك في مصر أو لحكم العثمانيين كما في الجزائر وتونس، بل لم يخضع حتى ولو للنفوذ الأموي أو العباسي أو الفاطمي. فكانت دائماً دول المغرب الحاكمة من أبناء المغرب، لا دولا «دخيلة» عليه، وهذا ما يوضح الأسباب التي من أجلها كانت دول المغرب دائماً دولا مجاهدة تخوض حروباً لا تهدأ دفاعاً عن النفس وعن البلاد وعن الإسلام، ومن أجل استمرارية شرعية الكيان المغربي وشرعية مذهبه الإسلامي السني.

(2) «إلا أن الظروف السياسية والعسكرية - حسب محمد أديب السلاوي - التي أدت بالمغرب إلى الاحتلال كانت بلا شك أقوى من صوت الشعر وأقوى من الكلمة الشاعرة» (الشعر المغربي مقارنة تاريخية، ص 85)

الباب الثالث: أغراض أخرى

- الفصل الأول: شعر الجهاد في أشعار المديح.

- الفصل الثاني: شعر الجهاد في المولديات.

الفصل الأول

شعر الجهاد في أشعار المديح

المديح هو تعداد لحميد المزايا وجميل الشمائل وكريم الأوصاف، وهو الإعجاب بجليل الخصال وفاضل الفعال وإظهار للتقدير والاعتبار الرجال. فلما يتفاعل هذا الشعر مع نفس الشاعر يصبح مثيراً لقول شعر المديح.

وهو فن من فنون الأدب وأقدمها. إذا امتدح الناس الملوك وأهل الحل والعقد والعظماء والأبطال فإن ذلك المدح يكون إما إعجاباً أو تقديرًا أو سعيًا وراء مكسب وغاية أو طلباً لمجد ورفعة.

ولما كان المديح الذي صيغ في قالب شعري يجد عند الناس إقبالاً لحكمته ومحتواه وبلاغته وموسيقاه، كانت المدائح المنظومة أسهل رواية وحفظاً وتدويناً.

فماذا يعجب الشاعر المادح في ممدوحه؟ تعجبه الإشادة بصفات المجد والبأس والجود والحلم والحياء والكرم والعلا والشجاعة والبطولة والشهامة والمضاء والتسامح والحكمة والمروءة والإباء والشمم والأنفة والعدل والعفة والصبر.. ونصرة الحق⁽¹⁾.

يعد مدح أبي تمام للمعتصم بالله بالكرم أحسن ما قيل في هذا الباب:

بيمن أبي إسحاق طالت يعد العدا

وقامت من قناة الدين واشتد كاهله

(1) أحمد أبوحاقة: فن المديح، ص 12، وص 19.

هو البحر من أي النواحي أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه
أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه
لجاد بها فليثق الله سائله⁽¹⁾

كما يعد مدح كعب بن زهير للمهاجرين من قریش أعظم ما قيل في شعر
الحرب والنزال:

شم العرانيين أبطال لوبسهم
من نسج داوود في الهيجا سراويل
لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل⁽²⁾

وقد كان المديح دائماً مرتبطاً بأحداث الحياة في مختلف العصور. فهو علاوة
على ما يحتويه من تخليد لمزايا شخص أو أشخاص يعتبرون المثل الأعلى في
قومهم وديارهم، يطلعنا على أمجاد العظماء والأبطال والقادة والمجاهدين منهم،
ويؤرخ للأحداث الكبرى التي عاشوها وتحكموا في مصيرها، وللمعارك الدينية
والسياسية التي خاضوها وانتصروا فيها.

وهكذا كان شعراء الجهاد في أدبنا المغربي حين يتعرضون لمُدح الملوك والأمراء
والقادة الذين أبلوا البلاء الحسن في ميدان النضال والجهاد، كانوا يركزون ميديحهم

(1) ديوان أبي تمام، شرح الصولي، ص 192.

(2) ديوان كعب بن زهير، للسكري، ص 25.

على شهادتهم وبطولات أجنادهم الخارقة وانتصاراتهم الباهرة - على أعدائهم في الداخل والخارج - في معارك صاخبة وغزوات متلاحقة (غيرت مجرى الأحداث وأصبح لها ذكر وأي ذكر في التاريخ) خاصة عندما تتعرض الوحدة الوطنية والدينية للمخاطر والأهوال.

ف نجد أن الشاعر الأعمى التطيلي يمدح علي بن يوسف المرابطي لما كان ولياً للعهد ويصف خصاله العسكرية بقوله من قصيدة طويلة:

أهابت بك الزمان إمام عدل
فلبته بك الحرب الزبون
حساماً ما انتضاه الدهر إلا
ليعلم من يفى ممن يخون
صقيل المتن رونقه الأمانى
وماضي الحد جوهرة المنون
ومضربه جهينة كل مجد
وسل فعنده الخبر اليقين
إذا حدثت في الهيجاء عنه
فإن حديثه فيها شجون
طليعة جيشك الظفر المواتي
وظل لوائك الفتح المبين
عقاب كلما أمست بأرض
فليس سوى الصدور لها ركون⁽¹⁾

ولما صار أميراً للمسلمين مدحه الشاعر الأعمى التطيلي أيضاً بنونية أخرى أجاد فيها وأشاد ببطولة أجناده:

(1) الأعمى التطيلي، الديوان، ص 208.

فتى يزن البلاد وما عليها
وإن كانت خلائقه تزين
سما منه إلى رتب المعالي
قوي قد سمعت به أمين
بكل مموه الصفحات ماض
توقيه الحمائل والجفون
من البيض الرقاق إذا انتضاه
فكلتا راحتيه له يمين
تألفه الردى طرفي نقيض
فمشتكل عليه ومستبين
فذاك الماء رق وراق حتى
بدا ما كان منه وما يكون
وتلك النار تصلاها الأمانى
إذا شبت وتغيرها المنون⁽¹⁾

ولقد كان شعراء الدولة الموحدية يفتخرون بمناسبة حلول الأعياد أو جواز
ملوكهم إلى الأندلس ليتحفونا بقصائدهم التي يخلدون فيها خصال ملوك دولتهم
من نجدة وشهامة وبطولة وبسالة في الحروب، فهم شجعان كالليوث يكسرون
شوكة الأعداء، يحاربون ويحصدون الرؤوس حصداً.

فيقول الشاعر عبدالله بن محمد الشبيلي في مجالس المهنيين بقرطبة أمام
أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بمناسبة حلول عيد الأضحى، منوها بخصال
الأمير العسكرية وقد أعد للحرب عدتها:

(1) المصدر السابق، ص 200.

شرف الخلافة أن ملكت زمانها
وغدوت من عقب الإمام أمامها
طبع الإله «حسامًا صارمًا»
يحمي جوانبها فكنت حسامها
ورأت عداة الله أن حماتها⁽¹⁾
من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق صدورها
وعلى سيوفك أن تفلق هامها
وعلى جيوشك أن تدوخ أرضها
وتدوس في عرصات أبنامها⁽²⁾

ويقول شاعر الدولة الموحدية أبو العباس الجراوي من همزته العصماء في
مجلس آخر بإشبيلية:

ضربت عليها لواءها العليا
وتحيرت في وصفك الشعراء

إلى أن يقول مبالغاً:

ما شك ذو النظر الصحيح إلا امترى
أن الورى أرض وأنت سماء

(1) على ذكر الحسام الصارم: لما صنع الصناع للخليفة الموحد «سنان رمح بسنانين اثنين متصلين في سعة السيف» أعجب بذلك وأمر ابن حربون أن يصفه فقال:

لم يعدوه في أسنة معضب	طبع الإمام من الأسنة لهذما
رأسى شجاع أو زباني عقرب	رمح تمثل للأعادي شكله
يوماً تلقاه العدو بأغضب	إن هزت الهيجاء روقي ذابل
نحو الجهاد تشوف المتوثب	ماذان إلا ناظران تشوفا
أوفى لها سعد السعود بمرقب	أو مسمعان تحسسا من نبأة

(ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 351).

(2) ابن عذري: البيان المغرب، ج 3، ص 92-93 (ط-ت).

الأمر أمر الله ليس يضره
 ما حاولت من كيد الأعداء
 والحق أبلج والمعاند عينه
 عمياء عنه وأذنه صماء
 لو كانت الجوزاء من أعدائه
 لم تنج عن غاراته الجوزاء⁽¹⁾

ويقول أبو الوليد الشاوس الشبلي مادحاً ومهنئاً أبا يعقوب بعودة شقيقه أبي حفص من الأندلس إلى مراكش ولقائه به، مشيراً إلى صفاته البطولية التي يتحلّى بها:

صب يوكل بالوغى أو بالندى
 لا ترتجى من وجده مسلاته

(1) المصدر السابق، ص 93-94.

ولأبي العباس الجراوي قصيدة أخرى يعد فيها مناقب أبي يعقوب يوسف وعزماته البطولية، يقول منها:

أسد تنقاد له الأسد	كما تنقاد لها الفهد
تذكو نيران حفيظته	فيكاد يذوب له الزرد
فله من عزمته عدد	ولله من نجدته عدد
يلقى الأبطال فينقض ما	عقدوا ويناقض ما اعتقدوا
لم تأت بمشبك الأيام	ولا ولدته ولا تلد

(محمد الفاسي: محاضرة عن أبي العباس الجراوي، ص 3-2).

وتجدر الإشارة هنا بأن الشاعر محمد ابن إبراهيم المراكشي أنشد قصيدة في مدح يوسف بن تاشفين ولقبه «بالفاروق» لما نقص أمير الشعراء أحمد شوقي من عظمة هذا الملك المجاهد المغربي في مسرحيته النثرية: «أميرة الأندلس» منها:

أفاروق افريقيا امتشقت مهنداً	وقبلته شوقاً وطوحت بالغمد
ورُحّت به كفا لأندلس بها	تصدّوي الأغراض عن سيء القصد
فأبقيت للإسلام باذخ مجده	ولولاك أضحي الدير معتقد المجد
وذدت عن الإسلام من رام كيده	وأطفأت نيرانا مؤججة الوقود
ولم تكثرث بالغانيات وعودها	وتسوية الأوتار في نغمة الرصد

(ديوان محمد ابن إبراهيم)

ألف الحروب فلم يخل بعدها
والخل لا تأسى له حرماته
يلهيه روض والقنى دوحاته
والبيض زهر والدماء شقراته
والسابغات وارد يشفي بها
حر الصدى وظلاله راياته
ويهب من ريح الجلال نسيمها
فتشوبه وتهده هباته
تحنو عليه الحرب إن كان ابنها
ربته من حمس الوغى رباته⁽¹⁾

ولم يترك أبوعمر بن حربون فرصة تلقب الخليفة أبي يعقوب بلقب أمير
المؤمنين تمر، دون أن يشيد بهذا الحدث الجلل، اعتباراً لفتوحاته العظمى ولنصرته
لدين الله:

جاءتك تسحب ذيلها للموعد
زهراء طالعة بسعد الأسعد
يهني الخلافة أن لبست رداءها
وقعدت منها اليوم أشرف مقعد
إن الذي قد قمت تنصر دينه
أعطاك ميراث النبي محمد
اليوم نام الدين ملء جفونه
عن حزم يقظان الجفون مسهد

(1) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 260-261.

فاسلم «أمير المؤمنين»⁽¹⁾ لأمة
ما شربها إذ سستها بمصر
أمنتها أهوال كل مخوفة
شردن شرب الأمن كل مشرد
لولا الذي بسط الإله بفضله
في الأرض من سلطانكم لم يعبد⁽²⁾

وأنشد أبوالحكم البيلنسي قصيدة يذكر فيها بعض فتوح المنصور الموحي
ويمدحه:

ملك تود ملوك الأرض لو غنيت
وحظها منه في يمناء تقبيل
قاد الجيوش يغص المشرقان بها
والمغربان كما غصت خاليل
من كل معتقد سمراء لهزمها
أو وجهه في ظلام الخطب قنديل
ثبت الجنان ربيط الجأش ذو دعة
إذا تعارض تأويل وتأويل

ثم يقول في مدح الموحدين:

القائمين بأمر الله لا رهن
ولا كسالى ولا عثر مهابيل

(1) أول من تلقب بأمير المؤمنين بعد الأمويين والعباسيين هو أبو عبيد الله الأسدي أول ملوك العبيديين بإفريقية، وتبعه عبدالرحمن الناصر الأموي بالأندلس. وأول من تلقب بأمير المسلمين من المرابطين هو يوسف بن تاشفين، ولما جاء عبدالؤمن من الموحدين تلقب بأمير المؤمنين ثم تبعه ابنه يعقوب هذا.
(2) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 348 وما بعدها، انظرها كذلك في البيان المغرب، ص 74-75 (ط. تطوان).

والصابرين على البأساء ما علموا
والناصرين ودين الله مخذول
مستمسكين على هدى بطعتكم
وحبل طاعتكم بالله موصول⁽¹⁾

ولم يفت الشاعر الأمير أبو الربيع سليمان الموحي أن يخلد هو الآخر مفاخر
عمه المنصور الحربية بهذه الأبيات الشعرية، مشيداً بالدفاع المستميت للخليفة
الموحي عن الدين الإسلامي:

علام تعد المقربات المذاكيا
ومالك تختار الطب والعواليا
ومن دون ما تبغي عداتك نازل
من الله محتوم يبيد الأعاديا
ألست الذي جاهدت في نصر دينه
معيناً بما جاهدت فيه وكافيا
ولما شكت تلك الجهات أذى العدا
وقد بلغت فيه النفوس التراقيا
سبرت بأطراف السيوف جراحها
وكننت لها طباً رقيقاً وآسيا
ولم أر مثل السيف متلف أنفسي
وإن كان في بعض المواطن شافيا
ويحميك من تحمي بسيفك دينه
فلا زلت محمياً ولا زلت حامياً⁽²⁾

(1) المصدر السابق، ص 422 وما بعدها.

(2) أبو الربيع سليمان الموحي: الديوان، ص 31.

ويقول الأمير عبدالله العادل بن المنصور الموحي، مفتخرًا بشجعة أهله،
ويطولتهم وجرأتهم في الحروب وحومات الوغى:
ألسنت ابن من تخشى الليالي انتقامهم
وترجو نداهم غايات السحائب
يخطون بالخطى في حومة الوغى
سطور المنايا في نحور المناقب
كتابًا بأطراف العوالي ونقشه
دم القلب مشكولاً بنضج الترائب
وما كنت أدري قبلهم أن معشرًا
أقاموا كتابًا من نفوس الكتائب⁽¹⁾

ونظم أحد الشعراء (مجهول الاسم) من مدينة بجاية بالجزائر، قصيدة
أنشدها أمام قبر بن تومرت بتتمل، وبمحضر أبي يعقوب ووفد من الموحيين،
مطلعها:

سلامٌ على قبر الإمام المجد
سلالة خير العالمين محمد
منها في مدح الموحيين والتمجيد بنضالهم وجهادهم:
هي الثلثة المذكور في الذكر أمرها
وطائفة المهدي بالحق تهدي
ويقدمها المنصور والناصر الذي
له النصر حزب إذ يروح ويغتدي
بهم يجمع الله الجبابرة الأولى
يصدون عن حكم من الحق مرشد

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج2، ص103.

ويقطع أيام الجبابرة التي
أبادت من الإسلام كل مشيّد
فيغزون أعراب الجزيرة عُنوةً
ويعرون منها فارسًا وكان قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمةٍ
ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغدون للدجال يغزونه ضحى
يذيقونه حدّ الحسام المهند
ويقتله في باب لد وتنجلي
شكوك أمالت قلب من لم يُؤخّد⁽¹⁾

وقد حارب المرينيون في الداخل والخارج - كما شاهدنا - لإقرار الأمن والأمان وللحفاظ على الروح الإسلامية، وواجهوا المعارك في عدة واجهات، وقاموا كثيرًا من الفتن في المغربين الأوسط والأدنى، وقاموا بما كانوا يملكون من شجاعة مادية ومعنوية - في طليعة الأندلسيين - حتى أبقوا غرناطة مدة طويلة من الزمن تحت ظل بني الأحمر. وقد عايشهم شعراؤهم في بلاطهم وأنشدوا قصائدهم في ما حققوه من نصر مكين وفتح مبين:

لا زال ملكهم في رفعة وعلا
وسعدهم بمدى الأيام موصول
يفنوا العدا ويقيموا الدين من أود
وسيف نصرهم لله مسلول

فبهم أقام الله في المغرب الدين وبسيوفهم قمع المشركين، وطال بالجزيرة عهد المسلمين:

(1) المراكشي: المعجب، ص 112-114 (ط - سلا). ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 10-11.

هم نصروا دين الإله وأظهروا
على الدين والدنيا من الحق رونقا
بملكهم قد أخدم الله العدا
ومن عدلهم ضاء الزمان وأشرقوا
لا يُسَلِّمُونَ إلى النوائب جارهم
يومًا إذا أضحى الجوار يضيّع
لهم الرياسة والشجاعة والنُدا
والله يعطي ما يشاء ويمنع⁽¹⁾



وَهُمْ قَدْ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقًّا
وَسَلَّوْا فِي عِدَاتِهِمُ الذَّبَابَا
إِذَا حَضَرُوا الْحُرُوبَ تَرَى عِدَاهُمْ
بِقَاةِ الطَّيْرِ أَبْصَرْتَ الْعُقَابَا
سَيُوفُهُمْ تَدِيرُ عَلَى الْأَعْدَايِ
كُؤُوسُ رَدَى سَقُوا مِنْهَا شَرَابَا⁽²⁾

وقال شاهد حالهم ومن عاين حروبهم وشدة أهوالهم:
سل عن مواقف حربهم لما التقت
يوم الصباح كتائب بكتائب
والنَّبْلُ فِي ظِلْمِ الْعِجَاجِ كَأَنَّهُ
وَبَلُّ تَتَابَعٍ فِي خِلَالِ سَحَابِ⁽³⁾

(1) الذخيرة السنية، ص 11-13.

(2) هذه الأبيات هي من قصيدة طويلة لعبد العزيز الملوذي، السالفة الذكر امتدح فيها بني مرين وقيامهم بالجهاد. انظرها في «الأنيس المطرب» لابن أبي زرع من ص 372-634.

(3) الذخيرة السنية، ص 116.

أما دعوتهم فهي دعوة الحق والعدل في الحرب والسلم:
هي دعوة الحق التي أوضاعها
جمعت من الآثار كل غريب
هي دعوة العدل الذي شمل الورى
فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب⁽¹⁾



وحسب العلى في آل يعقوب إنهم
هم الأصل في العليا والناس إلحاق
أسود سروج أو بدور أسرة
فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا⁽²⁾

وقد عبر عن أنبل صفاتهم، أحد أفراد بيتهم الأمير أبومالك عبدالواحد ابن
يعقوب المريني، في قصيدة قرضاها مفتخرًا، بإقدامه وجهاده والإسهام في المغازي
وحماية الثغور وإلحاق الهزائم بالأعداء، وقد كان قائدًا من قواد الجيش المريني:

أجود بمالي لكل العفاة
وأقتحم الهول في المعضلات
أقود الجيوش وأضلي الحروب
وأقتطف الهام بالمرهفات
وأحمي ثغوري من أن تُنال
وأغزو وأنهب أرض العداة

وقال أيضًا:

فرقت في الميدان كل مليك
وجمعت بين جرة ونسوك

(1) ابن الخطيب: الصيب والجهام، ص 476.

(2) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، م، خ، ع، ص 25.

وجعلت للإسلام حدًّا مالكا

كيما يغيره العدا بسلوك⁽¹⁾

ويتقاطر الشعراء على بلاط ملوك بني مرين -الناصرين للدين والمجاهدين في سبيل الله ضد المعتدين - وينشدونهم القصائد تلو الأخرى، مادحين ومكبرين ومجلين - في كل مناسبة جاد بها الزمان - مطمئنين في الإشادة بجهادهم وحروبهم، مبرزين شجاعتهم وبطولتهم وتضحياتهم، من أجل إحقاق الحق وتركيز الدولة الإسلامية في ربوع العدوتين.

ففي يعقوب المنصور المريني - «أول ملك من بني مرين الذي حمى الإسلام، وكسر الأصنام، وغزا أهل الكفر والطغيان، وملك العدوتين وجاهد الروم ودوخ بلادهم، فكانت له الغزوات المشهورة والمآثر الماثورة»⁽²⁾، قال أحد شعرائه:

أقام على الأيام سنة جوده

فجادت وكانت لا يدر لها خلف

وألزم هذا الدهر سيرة عدله

فليس له خطب يجوز ولا صرف

ضحوك إذا الأبطال طال عبوسهم

وقور إذا الأبطال من وجل خفوا

يحوط جناب الثغر حوطة حازم

تجمع في تدبيره الرفق والعنف

ويرصد للخطب الملم سياسة

يذل بها عز ويقوى بها ضعف

(1) الذخيرة السنية، 123-124، الأنيس المطرب، ص 308. وقد أطلق بعض الأدباء على هذا الشعر اسم «شعر الملوك».

(2) من هنا أسندت لملوك المغرب «إمارة المؤمنين» التي تشمل أيضاً «إمارة الجهاد» أي تدبير الحروب، وقتال المشركين.

له المكرمات اللاء عن حصر بعضها

تقاصرت الأقلام والحبر والصحف⁽¹⁾

ويقول العبدري في رحلته مادحاً أبا يعقوب «سيف الإله» ومشيداً بجهاده:

فذاك الذي أفنى الطغاة بسيفه

فلم يبق منهم من يشير إلى ظلم

طغى الكفر حتى صده بجيوشه

كما صد ذو القرنين ياجوج بالرجم

إلى الملك السامي صعوداً على الورى

وليثهم في الحرب والغيث في السلم

إلى يوسف سيف الإله الذي أتى

لحسم العدا إن الحسام من الحسم⁽²⁾

وقال شاعرهم عبدالعزيز الملزوزي بمدينة سلام، وقد أخذ المنصور البيعة لولده

أبي يعقوب بن يوسف سنة 671 هـ، مادحاً «ولي العهد الجديد» ومقدمًا إليه «النصائح».

ملك به تزهى الخلافة والعالا

وبه تجدد الرياسة ما عفى

من لم يزل يسبي الفوارس في الوغى

إن سل يوماً في الكريهة مرهفا

أعطاك ربك وارتاضك لخلقه

فاقتل بسيفك مَنْ أبى وتخلفا

فاليوم لا تخشى النُعامُ ذئابها

ويعود من يسطو بها متعطفا

(1) المصدر السابق، ص 91 (لم يذكر صاحب الذخيرة اسم الشاعر).

(2) العبدري: الرحلة، ص 3-5.

فإن ملكت فكن وفيًا حازمًا

واعلم بأن الملك يصلح بالوفا⁽¹⁾

ولما دخل أبو الحسن المريني إلى تونس مدحه الشاعر التونسي أبو القاسم
الرحوي، وأتى في قصيدة بمقارنة لطيفة بين الجيشين اللذين اصطحبهما معه
السلطان المريني: جيش العساكر والأجناد، وجيش الكتاب والفقهاء والعلماء:

تملكت شطر الأرض كسبًا وشطرها

تراثًا فطاب الملك إرثًا ومكسب

بجيش على الألواح والماء يمتطي

وجيش على الضمر الصوافن يركب

وجيش من الإحسان والعدل والتقى

وذاك لعمر الله أعلى وأغلب

فلا مركب إلا يزيّن راكبا

ولا راكب إلا به ازدان مركب

ولا رمح إلا وهو أهيف خاطر

ولا سيف إلا وهو أبيض مقضب⁽²⁾

ويقول أبو عبد الله بن زمرك⁽³⁾، من قصيدة طويلة يمدحه فيها بمناسبة إعداده ولده:

وقفت على الإسلام نفسًا كريمة

تصد عدوًا عن حماه وعاديا

فرأي كما انشق الصباح وعزمه

كما صقل القين الحسام اليمانيا

(1) عبد الله كنون: عبدالعزيز الملوّزي - ذكريات مشاهير رجال المغرب، رقم 9، ص 19-20 (دون ذكر للمصدر الأصلي).

(2) ابن خلدون: العبر، ج 6، 2، 566.

(3) تلميذ ابن الخطيب ومعاصره.

وكانت رماح الخط خمصا ذوابلا
فأنهلت منها في الدماء صواديا
وأوردت صفح السيف أبيض ناصعا
فأصدرته في الروع أحمر قانيا
لك العزم تستجلي الخطوب بهديه
ويلفي إذا تنبو الصوارم ماضيا
إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله
فما الصبح وضاح المشارق عاليا⁽¹⁾

ولما بويع أبو عنان قدم له عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري (المالقي)⁽²⁾،
قصيدة يمدحه فيها ويذكره بالأعمال الخالدة التي قام بها أجداده في ساحات
الوغي، وخصوصاً منهم أبويعقوب يوسف في معاركه البحرية، منها:
كتائبه في الفتح تكتب أسطرا
تبين من الأنفال فيها المسائل
عوامله بالحذف تحكم في العدا
كما حكموا في الحرف جزم العواملا
يبدد جمع الكفر رعباً وهيبة
كما بدد الأموال جوداً ونائلا

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج 10، ص 9.

ويقول أحد شعراء الدولة المرينية - من فحول الزجالين - في مدح هذا السلطان الذي لا يفتر عن
الجهاد وفتح الأمصار:

وَقَامَ مِنْهُ بِمَفْرُوضٍ وَمَسْنُونٍ	أَمَّا الْجِهَادُ فَقَدْ أَحْيَا مَعَالِمَهُ
تَرَكْتَ بِأَفْتَدَى الْعِدَاةِ فَلَوْلَا	وَأَقَامَ مَفْرُوضَ الْجِهَادِ بِعَزَمِهِ
أَحْسَامُهُ أَمْ عَزَمَهُ مَقْصُولَا	وَاللَّهُ مَا أَدْرِي وَقَدْ حَضَرَ الْوَغَى
وَكُفَى بِسَعْدِكَ حَامِيَا لَذِمَارٍ	حَطَّتِ الْبِلَادُ وَمِنْ حَوْتِهِ ثَغُورُهَا

(عبدالعزیز بن عبدالله: تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 60. دون ذكر للمصدر الأصلي،
أو الإشارة إلى اسم الشاعر الزجال).

(2) كان كاتباً للإنشاء بباب قصر السلطان أبي الحسن المريني وكان يلقب بـ «صاحب القلم الأعلى».

ولما استقامت بالزمان أساطلُ
له واستقلت للسعود محاملا
رأها عدو الله فانفضَّ جمعهُ
وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن عندكم هَبَّت عليه عواصفُ
تدمر أدناها الصلاب الجنادلا
تفوقهم أيدي سبا وتبيدهم
فقد خلفت فيهم حسامًا وذابلا⁽¹⁾

وفي إحدى رحلاته عبر مملكته، نزل أبوعنان «بعيون الصب»، وبينما هو
مفتكر في مَنْ البغاة الذين شهروا سيوف الفتن بشرق المغرب، إذا بأحدهم يحمل
إليه كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ولما تناول أحد أسفاره وقعت عينه على
بيتين من قصيدة لأعشى همذان، فتفائل بهما، وهما:
بجند أمير المؤمنين وخيله
وسلطانه أضحى معانا مؤيدا
ليهن أمير المؤمنين ظهوره
على أمة كانت بغاة وحسدا

فتسابق من كان في حضرته من الشعراء، لتقريظ هذين البيتين، و«التوطئة»
عليهما، والتعرض لفتوحات أبي عنان وانتصاراته على أعدائه. ومن ذلك قصيدة
أبي عبدالله العزفي يقول فيها مخاطبًا أبا عنان:
سريت بحزم تنشر العدل في الوري
وتطوي بساط الجور ممن قد اعتدى
إلى وطن الأعراب في الشرق كي ترى
تصدى الذي منهم لظلم تعمدا

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس - القسم الثاني، ص 437.

وبالعسكر الجرار دوخت أرضهم
فملكته بالبأس فيهم وبالندى
إلى وطن قد كان بالجور خاليا
فأصبح معمور النواحي ممهدا
ولما أخافوا السبل يمت أرضهم
وصيرت حرب القوم فرضاً مؤكدا
فراعتهم تلك الكتائب إذ أتت
تجر قنأة أو حساماً مهئدا
وجاءوك أفواجا يرومون بيعة
فمد بعون الله للبيعة اليدا
«بجند أمير المؤمنين وخليله
وسلطانه أمسى معانا مؤيدا
ليهن أمير المومنين ظهوره
على أمة كانت بغاة وحسادا»⁽¹⁾

وقال الكاتب الشاعر في البلاط المريني، أبو العباس بن عبد المنان، في نفس
التقريض:

أفارس يا أعلى الملوك مناقبا
وأعلاهم كعباً وأطولهم يدا
ملكته فأوسعت البلاد وأهلها
أماناً وأمناً بالحماسة والندا

(1) ابن الحاج النميري: فيض العباب، ص 75.

وصلت شديد البأس لا شيء تبتغي
سوى أن تقيم الحق في الأرض مرشدا
فتأخذ بالثأر العداة وأنها
لعادة صدق منك أن تعرف العدا
وفتكة بأس منك لم يثن قصدها
لهام العدا من كل أشوس أضيءا
ومهما توخى النصر جيشك منهما
براياته أنى توجهت منجدا
فثق بالذي منه تعودت أنه
«لكل امرئ من دهره ما تعودا»
وحسب علاك اليوم فالأعلى الظبا
ضمان بأن تجلى بشائره غدا
«بجند أمير المؤمنين وخيله
وسلطانه أضحى معانا مؤيدا
ليهن أمير المومنين ظهوره
على أمة كانت بغاة وحسدا»⁽¹⁾

وممن قرظ البيتين كذلك، أبو العباس بن النعمان في قوله:

دعتك لنصر الدين عادية العدا
على أمة تدعوك مولى وسيدا
لك الفضل أن أوليتها نيل ما جرت
وأنفذت سهما للأعداء مسددا

(1) المصدر السابق، ص 76.

سَعَيْتَ لَهَا تَفْرِي الْفَلا سَعِي مَهْتَدٍ
إِلَى نَصْرِهَا وَاللَّهِ هَادٍ مَنْ اهْتَدَى
كَفَفْتَ أَكْفَ الْبَغْيِ عَنْهَا وَلَمْ تَدْعِ
لِذِي ثَوْرَةٍ مِنْهَا لِسَانًا وَلَا يَدَا
تَنَاوَلْتَ بِالْيَمْنَى الْكَرِيمَةَ دَفْتَرًا
بِهِ حَسَنٌ فَالٍ فِيهِ سَعْدٌ تَجَدَّدَا
«بَجَنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْلِهِ
وَسُلْطَانِهِ أَضْحَى مَعَانَا مُؤَيَّدَا
لِيَهْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ظَهْرُهُ
عَلَى أُمَّةٍ كَانَتْ بَغَاةً وَحَسَدًا»⁽¹⁾

وَمِنَ الَّذِينَ أَشَادُوا بِجِيُوشِ أَبِي عَنَانَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ خُمَيْسٍ الَّذِي قَالَ مِنْ
عَيْنَيْتِهِ، مَخَاطِبًا أَبَا عَنَانَ قَائِدَهَا:

اتَّبِعْ عِدَاكَ إِلَى أَقْصَى مَفَازِهِمْ
إِنْ خَلَصْتَ مِنْكَ ذَا جَرَمٍ مَفَازَعَهُ
جَيْشٌ كَثِيفٌ كَثِيرُ الْخَلْقِ مُحْتَفِلٌ
جَمُ الصَّوَاهِلِ لَا يَلُويُهُ خَازَعَهُ
إِنْ جَابَ سَهْلًا أَثَارَتِ سَوَابِغُهُ
أَوْ جَاءَ حَرْبًا أَلَانَتْهُ مَوَالِعُهُ
وَإِنْ تَيَمَّمَ أَرْضًا وَهِيَ هَادِيَةٌ
هَزَتْ هَضَابَ رَوَاسِيهَا قَعَاقِعَهُ

(1) المصدر السابق، ص 76.

فرقت شمل العدا فاجمع بمقدمك

الميمون شمل سرور أنت جامع⁽¹⁾

ومن القصيدة الطويلة التي يخاطب بها ابن الخطيب أبا عنان، لما انصرف عنه إلى الأندلس، يستجده فيها لنصرة أوليائه ابن الأحمر، ويشكره فيها على ما لقيه بديار المغرب من «عون وسند لبلاده» مشيراً إل «لقطات تاريخية مهمة» من عهد بني مرين، نسوق هذه الأبيات التي أنشدها في مدح أبي عنان ومدح آله وكتائبه المنصورة:

من آل عبدالحق حيث توشجت

شعب العلى وربت بأي كتيب

أسد الشرى سرج الورى فمقامهم

لله بين محارب وحروب

شهب ثواقب والسماء عجاجة

مأثورها قد صح بالتجريب

ما شئت من أفاقها من رامح

يبدو وكف بالنجيع خضيب

عجبت سيوفهم لشدة بأسهم

فتبسمت والجو في تقطيب

(1) المصدر السابق، ص 79.

ولابن الحاج مؤلف «فيض العباب» نفسه، قصيدة في مدح أبي عنان وصفاته الحربية، منها:

بأسعد منه في الزمان وأصعدا	إمام الهدى المرجو ما فخر العلا
بأشجع منه في الحروب وأنجدا	شديد على الأعداء ما ابن مكرم
ترى البحر فيه بالأسنة مزيدا	زحفت إلى الأعداء في عرض فيلق
تعيد كأمثال التهائم أنجدا	وقدت لهم تحت العجاج كتائبها
على كل ممسود النواشر أجردا	ووجهت جندا يزحفون إلى الوغى

(المصدر السابق، ص 77-78).

نظموا بلبات العلا واستوسقوا
كالرمح أنبوباً على أنبوب
تروي العوالي في المعالي عنهم
أثر الندى المولود والمكسوب
ثم يخاطب أبا عنان مبرزاً كفاءة كتائبه في الحروب.
ولك الكتائب كالخمايل أطلعت
زهر الأسنة فوق كل قضيب
فمرنج العطفين لا من نشوة
ومورد الخدين غير مريب
يبدو سداد الرأي في راياتها
وأورها تجري على تجريب
وهي الكتائب إن تنوسى عرضها
كانت مدونة بلا تهذيب
وإذا توسط فعل سيفك عندها
جزأي قياسك فزت بالمطلوب⁽¹⁾

ولا يفوت الفقيه الكاتب أبا عبدالله محمد بن أبي القاسم محمد بن جزي
الكلبي الغرناطي - كاتب ديوان أبي عنان ومحرر رحلة ابن بطوطة بأمر من
السلطان المريني لمتانة أسلوبه الأدبي - أن يشيد بشجاعة أبي عنان وببأس جيوشه
في ميدان المعارك والحروب والاستشهاد، مشبهاً حدة خيول «المتوكل على الله،
فارس ملك المغرب»، وفرسانه وسيوفه بحدة ذكاء قائدها المغوار، مطلعها:

إن قلبي لعهد الصبر ناكث
عن غزال في عقدة السحر نافث

(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهم، ص 285-286. المقرئ: نفح الطيب، ج9، ص 161 (انظر ص30 من هذا الجزء).

منها :

ملك البأس والندى فهو بالسيـ
ف وبالسيف عانت أو عابث
وله المقربات لا بل هي العقبان
من فوقها الليوث الدلاهث
مطلعات من كل نعل هلالا
فلهذا تجلو دجى كل حادث
إن ترافقن فالجبال الرواسي
أو تسابقن فالغيوث الحثااث
والمواضي كأنها قد أعيرت
حدة الذهن منه عند المباحث
هي نار محرقات الأعادي
وهي ماء مطهرات الخبائث
فيردن الوغى ذكورا عطاشا
ثم يصدرن ناهلات طوامث
من معانيه قد رأينا عيانا
كل فضل ينصه من يحادث
في سبيل الإله يقصي ويدني
ويوالي في ذاته ويناكث⁽¹⁾

وبذلك «عبر الشاعر (المريني) عن الشدة التي تهوي بها السيوف (المرينية) على رؤوس الأعادي، بأنها تتقدم إلى الوغى، وكأنها الذكور العطاش، ولكنها ما تلبث أن تنهل من دماء الأعداء، فتعود وكأنها نساء طوامث»⁽²⁾.

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 290. المقري: النفج، ج 8، ص 44-45 «أزهار الرياض» ج 3، ص 192-193.

(2) محمد بن عبدالعزيز الدباغ: «من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني»، ص 201.

ويوجه «صاحب القلم الأعلى» عبدالرحمن بن خلدون قصيدة من سجنه إلى أبي عنان المتوكل على الله سنة 759 هـ، يستعطفه فيها، ويصفه بأعلى الأوصاف وأسناها، ولا يفوته أيضًا أن يشيد بانتصاراته التي حققها على الأعداء العصاة، والجبابرة الجناة، بفضل أبطال جيوشه الكماة.

ودَوَّخَتْ أَرْضَ الْغَرْبِ حَتَّى تَسَابَقَتْ
لَأَمْرِكَ طَوْعًا غُبْمُهُ وَالْأَعَارِبُ
فَأَوْطَأَتْهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ مَنْزِلًا
فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا هُنَاكَ مَرَاتِبُ
فَسَمَتَهُمْ بِالرَّعْبِ قَبْلَ نَزَالِهِمْ
فَقُلْتُ جَمُوعَ مِنْهُمْ وَمُضَارِبُ
وَأَرْسَلْتَهُمْ مِنْ آلِ أَعْوَجَ غَلْبُ
عَلَيْهَا مِنَ الْأَبْطَالِ شَوْسُ أَغَالِبِ
بِأَيْدِيهِمْ سَمَرُ الرِّمَاحِ كَمَا عَلَى
عَوَاتِقِهِمْ بَيْضُ السِّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
نَدَبَتْهُمْ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثْتَهُمْ
تَقَامَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهُمْ نَوَابِ
أَثَرَتْ بِهِمْ فَوْقَ الْأَعَادِي مَصَائِبُ
مِنَ النِّقْعِ جَدَوَاهَا السَّهَامُ الصَّوَابِ
فَلَوْلَا اعْتَصَامُكَ مِنْهُمْ بِطَاعَةِ
لَأَغْرَقَهُمْ طُوفَانُكَ الْمَتْرَاكِبِ
وَلَمَّا انْتَضَى جَبَّارُ تُونِسَ عِزْمَةٌ
وَرَامَ فِرَارًا لَوْ نَجَا مِنْكَ هَارِبُ
بَعَثْتَ بِهَا غَرْبَانَ زَجْرِيحَتِهَا
لِتَفْرِيقِ شَمْلٍ مِنْ أَعَادِيكَ نَاعِبٍ..⁽¹⁾

(1) المصدر السابق، ص 304-307.

وأنشد «صاحب القلم الأعلى وكاتب الأشغال السلطانية»، علي الخزاعي يمدح
المتوكل على الله أبا عنان، ويحرضه على المضي في قتال أعداء الدين، والسير في
طريق الجهاد، مشيداً بجيوشه الطاهرة، مطلعها:
هو الدين عز اليوم بالنصر جانبه
وذل مناويه وهان مناصبه

ثم يقول:

أنقهم وبال البغي إن قتالهم
جهاد ولا عهد لديهم تراقبه
وأرسل عليهم من جيوشك عارضاً
بصائبة النشاب يمطر حاصبه
وكم لك في يوم أبدت به العدا
بالسنة الأغمام تتلى مناقبه
إذا خط رمح الخط في معرك الوغى
أتاك ظهير الفتوح والنصر كاتبه
أقام بك الله الخلافة بعدما
وهت وعماد الدين إذ هد جانبه
وناضلت عن دين الهدى غير مقصر
فعز ولولا أنت عز مغالبه
تسالم من قد أوجب الشرع سلمه
وتقطع في نصر الهدى من يناصبه
فيا سعد من سالتوه فقد نجا
ويا ويل من كانت مرين تحاربه

فدم لرجا راج وتأمين خائف
ونصرة مظلوم تضيق مذهبه
وأيدك الرحمن فيما ترومه
ويسر من قهر العدا ما تطالبه⁽¹⁾

ولما أنشد الشاعر أحمد بن عبد المنان الأنصاري، همزته الرائعة الطويلة،
يمدح فيها أبا عنان - الفارس المريني - ، بعد وصف معركة حامية وقعت بين أسد
وثور، بمحضر السلطان المريني، فقال مادحاً أبا عنان:

أَيُّرَى ضَالَلٌ وَالْخَلِيفَةُ فَارِسٌ
فِي الْأَرْضِ أَنْ يَلْفَى عَلَى الْغُبَرَاءِ
صَرَافٍ عَادِيَةٍ مَزِيحٍ ضَالَالَةٍ
فَرَّاجٍ دَاهِيَةٍ عَظِيمٍ غَنَاءِ
وَتَهْيِجٍ مِنْهُ الْحَرْبُ لَيْثٌ مَلَا حِمٍ
وَيَقْرُ مِنْهُ الْحِلْمُ طُودٌ عِلَاءِ
هَلَا سَأَلْتُ بِهِ الْغِيُوْثَ فَإِنَّهُ
مَهْمَا اسْتَهْلَتْ فَاضِحَ الْأَنْوَاءِ
وَسَلَّ الْيُوْثُ تَجَبُّكَ صَدَقًا إِنَّهَا
أَدْرَى بِفَتْكَةِ عَضْبِهِ الْمَضَاءِ

(1) المصدر السابق، ص 251-253.

وقد نظم محمد بن يحيى الفسائي البرجي الفرناطي، قصيدة من نفس الوزن والقافية في أبيه أبي
الحسن، منها:

يا خير من خلصت لله نيته	في الملك أو خطب العليا خاطبه
جردت والفتنة الشعواء ملبسه	سيفا من العزم لا تبيو مضاربه
وخضتها غير هياب ولا وكل	وقلما أدرك المطلوب هائبه
فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره	أمن يواليه أو خوف يجانبه

(المقري: النفج، ج6، ص 73).

ثم يخاطب الشاعر «أبا فارس»، ممجداً انتقامه من «الروم» في «نظم رائق»:

يا فارسَ الهيجاءِ دمت لحكمةٍ
ومكارمٍ وبسالةٍ وسخاءٍ
دوخت أرض الروم منتقمًا على
شحط المزار ومنعة الأرجاء
وبعثتها غريان زجر لم تطر
لهم بغير كريهة شنعاء
لما بدت وبنو الوغى من فوقها
والسمر نازعةً إلى الهيجاء
قالوا الربا والأسد في أجامها
تختاض عرض اللجة الخضراء
جاسوا خلال ديارهم فكأنها
لم تغن بعد مزاهر غناء

ويحمد الشاعر بعد ذلك، رشد وهداية ملوك تلمسان وإفريقية، ودعمهم
للملك المغربي:

أما بلاد الشرق نالت رشدها
بوسيلتين: إنابة ووفاء
ألقت بمقلدها إليك ولم تزلْ
من قبل ذات تمنع وإباء
والعرب تجهد في رضاك وإنما
أخذوا بحظهم من العليا⁽¹⁾

وينشد الكاتب القاضي، ابن الحاج النميري الغرناطي، في أبي عنان وجحافله
وكتبانة وفوارسه، من بني مرين بعد إبلاله من مرضه:

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 328-329، 334-335.

لك الله يا خير الملوك وخير من
تحن له حتى العتاق الشواذب
وقل لمن وافى بشيرًا نفوسنا
فما هي إلا بعض ما أنت واهب
أقول لجرد الخيل قبا بطونها
معقدة منها لحرب سباب
طوالع من تحت العجاج كأنها
نعام بكثبان الصريم خواصب
هنيئًا فقد صح الإمام الذي به
تفل السيوف المرهفات القواضب
ومن حطّم السمر الطوال كعوبها
بطعن كما امتاح الرّكية شارب
وكرّ على أرض العدا بفوارس
كأنهم في الحرب أسدّ غوالب
كان ظباهم في الهياج أكفهم
تجود وأرواح العداة مواهب
كان رماح الخط أحسابهم وما
حوت من نفوس المعتدين مناقب
هم ما هم حدث عن البحر أو بني
مرين فنهج القول أبلج لاحب⁽¹⁾

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج9، ص 325. ووردت هذه القصيدة أيضًا بتمامها في فيض العباب (تحقيق بن

شقرن)، ص 3-4. وختمت بقول الشاعر:

وسيبك فياض وسيفك غالب

بقيت بقاء الدهر ملك قاهر

وهكذا تدور هذه الأشعار حول أبي عنان بعينه، وكان هو المحرك الأساسي لهذا الفيض الشعري، الذي ساهم بنفسه في إغنائه، بحظ وافر من ثقافته ونظمه ودهائه وماله. فنال الشعراء منه التشجيعات والتقدير، وتسابقوا إلى كسب رضا ملك يتوفر على ثقافة أدبية وتجربة فنية نادرة⁽¹⁾، وحنكة عسكرية متطورة وقيادة ماهرة.

ويتسلم أبوسالم إبراهيم المريني مقاليد الخلافة، فيثور عليه وزيره الحسن ابن عمر الفودودي الذي كان عامله على مراکش، سنة 761 هـ ويخرج عن طاعته ولم يفلح في ثورته فينشد ابن الخطيب قصيدة، يهجو فيها الوزير المدفوع للخلاف والعناد، ويمدح أبا سالم بنعمة الفوز على منكري نعمته:

أَيَغْلِبُ مِنْ عَادَاكَ وَاللَّهُ غَالِبُهُ
وَيَفْلِتُ مِنْ نَاوَاكَ وَالسَّيْفُ طَالِبُهُ
وَيَخْلَصُ مِنْ فِي رَاحَتِكَ زَمَامُهُ
فَسَيْبُكَ كَاسِيَهُ وَسَيْفُكَ سَالِبُهُ
فِيَا ذَلَّ مِنْ عَادَاكَ يَا مَلِكَ الْعَلَى
لَخَابَتْ أُمَانِيهِ وَسَاعَتْ عَوَاقِبُهُ
أَبَا سَالِمَ دِينَ الْإِلَهِ بِكَ أَعْتَلَى
وَأَيَّدَ رُكْنَ مِنْهُ وَاعْتَزَّ جَانِبُهُ
دَعَا بَابَكَ الْأَعْلَى الْفَتْوحَ فَأَقْبَلَتْ
أَيْمَنْعُ حَظَّ وَالْمَهِيْمَنْ وَاهِبُهُ
وَأَظْهَرْتَ يَا مَوْلَى الْأُمَمَةِ نَصْرَهُ
فَمَلَكْتَ بِالنَّصْرِ اسْتَقْلْتَ رُكَّائِبَهُ

(1) د. محمد بن شقرون: دراسة حول «فيض العباب» لابن الحاج النميري، ص 84.

وَمَنْ عَلِمَ الرَّحْمَنُ نِيَّةَ صِدْقِهِ

أَتَتْهُ بِالطَّافِ إِلَهِ عَجَائِبُهُ⁽¹⁾

ويغتنمها فرصة سانحة، الشاعر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مصادف التجيبي الفاسي الأندلسي الأصل - «فارس البراعة والحارس اليراعة وشاعر إفصاح» - لينشد قصيدته، أمام أبي سالم إبراهيم المريني، يجيب بها الكاتب الشاعر أبا عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك، على قصيدة بعث بها لكاتب الحضرة السلطانية، ويهنئ أبا سالم بما حباه الله من عز نصر، منها:

مَلِيكَ إِذَا نَاوَاهُ غَاوٍ مَضَلُّ

يسير له من قبلٍ عسكره الرعبُ

وإن أميرَ المسلمين لجامِعُ

مناقبَ مجدٍ دونها الجمع والضرب

ففي السلم بدر شأنه الجد والندى

وفي الحرب ليث دأبه الطعن والضرب

تحفُّ به أساد حربٍ بواسل

تقوم على ساقٍ: إذا ركبوا، الحرب

(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام، ص 296، وكان ابن الخطيب ينشد أيضاً وزراء بني مرين قصائده في مدحهم، من ذلك قوله في مدح الوزير أبي بكر ابن غازي المكنى بأبي يحيى.
الله حسبك يا أبا يحيى فقد أحبيت رسم المجد بعد ذهاب
انصفت جيش المسلمين فما القنا صعب المهز وما الحسام بنابي
وأعدت سكتهم كان وجوهها زهر الرياض ربت بصوب رباب
من للطعام وللطعان وللتقى إلاك أو للحرب والمحراب
تهدى الأسئلة للكتائب هاديا بسنا الهدى من سنة وكتاب
(ابن الخطيب: أعمال الأعلام، لوحة 5-6 مخطوط خ.ع) (محمد مفتاح: شعر لسان الدين بن الخطيب، ج1، ص164).

إذا طاعنوا أو ضاربوا فسيوفهم

وخرصانهم ليست تُفْل ولا تَنْبُو⁽¹⁾

وأنشد الشاعر ابن أبي حجلة التلمساني المستنصر بالله، أبا فارس عبدالعزيز ابن أبي الحسن المريني - من قصيدته الدالية (السالفة الذكر) - واصفاً أسطوله وبلاءه في المعارك البحرية لإطفاء نار الكفر ولصد كل طغيان على المسلمين، معززاً بجيش، جنوده من ملائكة الرحمن.

أبو فارس في الغرب فارس نجدة
وفرسانه عند النهود أسود
وغربائه في البحر فيها جوارح
كانهم العقبان حين تصيد
وأن حصد الكفار قائم سيفه
ترى الأرض منهم قائم وحصيد
وإمداده في الغزو من جيشك الذي
ملائكة الرحمن فيه جنود
لطيفي نار الكفر في كل موقف
يبيت لنار الحرب فيه وقود⁽²⁾

(1) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان، ص 359 و361.

(2) ابن أبي حجلة التلمساني: منطلق الطير (مخطوط)، ص 10 خ. وللشاعر عدة أبيات أخرى في مدح أبي فارس المريني، مشيداً ببطولته وشجاعته، منها قوله:

أي السيف الهيجاء يقصر فعله	إذا لم يهز المتن منه فحول
وعبد العزيز الرمح حين يهزه	يعز على من رامه ويطول
يا عسكر الإسلام لا تجبنوا	وأوصلوا الحملة بالحملة
ففيكم عبدالعزيز الذي	أمست به الكفار في ذلة
أبوفارس أمست طرائد سفنه	لأعدائه في حربها العكس والطرده
وغربانها لو صدر الموت بينها	لأمسى وفي جوف النسور له حد

(المصدر السابق).

ويدلي الشاعر الفقيه الكاتب أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر الزناتي
التجاني بدلوه بين الدلاء، وينشد ابن الأحمر - صاحب «نثر فرائد الجمان»
قصيدة طويلة في مدح المستنصر بالله أبي العباس أحمد المريني، وذكر خصاله
العسكرية، يقول منها:

فللحرب فيما ليس يدركه الجَا
بتدبيره السهم الأريب المدْرَبُ
وللرأي فيما ليس يدركه القنا
بسطوتها الشيخ اللبيب المجْرَبُ
فدو الحرب إن لاقى عداك فإنه
بعزمك لأحد المهند يضربُ
ولم أنس سهماً في الكنانة لم تزلْ
تصيب به الأغراض تنأى وتقرب
تقلدت أعلاه من الهند ماضياً
كعزمك لا ينبو له الدهر مضرب
أيا مرسل الجيش العرمم أخذاً
بأفاقها ما للعدا منه مهرب
بخيل كرام المنتمى أعوجية
تطير بأقطار الدُّنا وتسرب
عليها من الفرسان كلَّ مصمم
لدى الحرب من طعن القنا ليس يهرب
«مِكرٌ مِفرٌّ مقبلٌ مدبرٌ معاً»
سريع لأقصى غاية الشوط منهب

لقد جئت هذا الملك أيمن جيئة

وقدمًا بدا صدعُ به وتشعبُ⁽¹⁾

وينشد الشاعر محمد بن محمد بن علي بن سودة المري من قصيدة يخاطب فيها السلطان المريني، مشيداً بإحيائه لرسوم الدين وبيبأسه وبسالته يوم الوغى:

أحيا رسوم الدين وهَي دوارسُ

ولطالما صدع الشكوك يقينه

شمس الهدى حتف العدا محيي النداء

بحر الجدا طول المدى تمكينه

ليث الشرى غوث الثرى قمر السرى

سن القرى عم القرى تأمينه

فلبأسه يوم الوغى ولعزمه

جاش الهزبر إذ الهزبر يخونه

لا تسل الهيجاء عنه إنه

يصل المراد كما تحب ظنونه⁽²⁾

وأنشد ابن زمرك السلطان أبا سالم بعدما «أطلق أعنه الجياد في ميادين الطراد»، قصيدة تدور حول المعاني السابقة:

يا ابن الأولي قد أحزوا خصل العلا

وسموا بطيب أرومةٍ ونَجَارِ

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم

ومشرف الأعصار والأمصار

(1) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان، من ص 363-370. وتشبه هذه القصيدة قصيدة الكميت بن زيد الأسدي:

طربت وماشوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

(2) ابن الخطيب: الإحاسة في أخبار غرناطة، ج3، ص 170.

جددت دون الدين عزمة أروع
جددت منها سنة الأنصار
حطت البلاد ومن حوثه ثغورها
وكفى بسعدك حاميا لذار
لله رحلتك التي نلت بها
أجر الجهاد ونزهة الأبصار
فارفع لواء الفخر غير مدافع
واسحب ذيول العسكر الجرار
واهناً بأعياد الفتوح مخولاً
ما شئت من عزٍّ ومن أنصار⁽¹⁾

ونظم إسماعيل بن الأحمر قصيدة أثبتها في «روضة النسرین»، مدح بها
عثمان بن أحمد بن أبي سالم المريني، مطلعها:
جهل الرقيب فؤادي المجروحا
فأراه خدي سطره المشروحا
ومنها:

ملك قضى الملك المهيمن ملكه
ليعيد معتل الأمور صحيحا
وإذا الخميس راه ولى مدبرا
ليرى سبيلاً للنجاة فسيحا
فكأنما قد أبصروا بيمينه
شخص المنية حاقداً مقروحا

(1) المقرئ: نفح الطيب، ج10، ص13-17.

ما حل ذروة معقل كحسامه
نصرًا ولا سد الثغور فتوحا
ساط بسيف الله دون حدوده
ماضي العزيمة لا تراه صفوحا
مستنصح في الأمر إلا أنه
لا يرتضي إلا قناه نصيحا⁽¹⁾

وينشد الكاتب الشاعر محمد العقيلي، كاتب الملك المخلوع أبي عبدالله مديحاً
- من قصيدته - في أمير فاس، الشيخ الوطاسي الذي استجد به:
أنسى الخلائف في حلم وفي شرف
وفي سخاء وفي علم وفي فهم
أفعال أعدائه معتلة أبداً
متى يرم جزمها بالحذف تنجزم
له صوارم لو ناجتك ألسنها
لبشرتك بعمر منك منصرم
هذا الأمير المريني السعيد له
سعد يؤيده في كل مصطدم
قد أقسمت أنه المنصور السنة
من نخبة الأولياء مبرورة القسم⁽²⁾

وهكذا كان يغتم شعراء بني مرين جميع المناسبات والأحداث، من انتصار في معركة ضد الثوار والمتمردين، وفوز في نزال مع المسيحيين بالأندلس إلى إبلال من مرض وإعذار للأمراء، وخروج للصيد والطراد، وحضور مصارعة بين ثور وأسد،

(1) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص 41-43.

(2) المقرئ: نفح الطيب، ج 6، ص 286-287.

وتشييد المنشآت العلمية والدينية وحلول الدينية، فيتقدمون بقصائدهم وأشعارهم إلى البلاط المريني، جاعلين بيت قصيدهم في قريضهم: الإشادة بخصال المرينيين الحربية، وبمناقبهم البطولية وغيرتهم الإسلامية، وبلائهم البلاء الحسن لحماية الدين الإسلامي، وإعلاء بنوده والدفاع عن دولته وحضارته ضد عواصف الحروب الصليبية. فهم - حسب شعرائهم - سيوف الإسلام وحماة آخر الرسائل السماوية، وهم أعلى القبائل قدرًا، وأسمى حسبًا، وأشدها في الحروب بأسًا، وأقواها في الطعن ضربًا، وأكثرها إقدامًا وعزمًا. وهم أسد الجهاد، وأبطال الحرب والنزال، ومغيثو المستجدين والمتوسلين من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، يحاربون من حاربهم ويسالمون من سالمهم، وهم حافظون للجوار، حامون الذمار، موقدون النار: نار الحرب والحصار ضد المعتدين في ساحات الوغى، ونار الندى والإكرام في ساحات القصور. وبذلك نصروا بعون الله ومنته، وثبتت أقدامهم بعد أن ناصروا الله ورسوله وعززوا دينه وملته:

بنو مرين ليوث في عرين أبوا
رؤيا قرين لهم في البأس والكرم
النازلين من البيضاء وسط حمى
أحمى من الأبلق السامي ومن إرم
والجائسين بدهم الخيل كل ذرا
والداعسين بسمر الخط كل كمي
يريك فارسهم إن هز عامله
في مارق بلظى الهيجاء مضطرم
ليثًا على أجدل عار من أجنحة
يسطو بأرقم لداغ بغير فم

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم
من عصمة الله ما يربي على العصم
هم بطائفة التثليت قد فتكوا
كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثهم يومى الوغى رهج
أنسوك ما ذكروه عند ذوي اللثم
وليس يسلم من حتف محاربهم
حتى يكون إليهم ملقي السلم⁽¹⁾

ويتضح من الشواهد الشعرية التي أتينا بها أن شعراء بني مرين كانوا يتعاملون
«مع الشعر في كافة أغراضه المختلفة» وعلى الخصوص في ميدان المديح هذا الذي

(1) المصدر السابق، ص 284 وهذه الأبيات هي من قصيدة محمد العقيلي السالف الذكر. وورد في رقم
الحلل لابن الخطيب ضمن قصيدة: «من ذكر الملوك من بني مرين رحمهم الله قوله:
بنو مرين سادة القبائل في قطرنا بواضح الدلائل
واستخلفوا المغرب بالسيوف في خبر مستطرف معروف
(ابن الخطيب: رقم الحلل، ص 76).

كما أنشد فيهم أبو علي حسين بن عبدالحكم بن حسين بن تدرارت التميمي (المولود بالأندلس من
أب قسنطيني) - و«كان بالدولة المرينية جملة الكمال ومظنه الآمال»، أنشد قصيدة يمدح فيها أحد
ملوكهم دون الإفصاح عن اسمه:

من القوم أن ركبوا الصافنات رأيت الرياح بأسد تجارى
نجوم بدت في سماء العلا فكل شهاب بها قد توارى
رأوا غاية المجد بذلا فجأؤا بأنفسهم واستقلوا النصارى
وقال في أول قصيدة يمدح أحدهم:

أطعمت الإله فلا شيء إلا أطاعك دأبا وأبدي ابتدارا
وأيدك لسعد والحزم يا حبذا فما إن تبارى وما إن تجارى
ولا نفس إلا بحبك دانت ولا قلب إلا بخوفك طارا
فلله منك حمى أو حما إذا ما أغار ومهما أجارا
ملك إذا ما دجا ليل ظلم أرانا من العدل فيه نهارا

(ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة فيما لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة م.خ.ح، ص 126-127.

يعد من «أظهر الموضوعات الشعرية المطروقة». ومن العوامل التي ساهمت في إثراء ساحته تجاوب الأمراء المرينيين أنفسهم مع شعرائهم شعراً، وتشجيعهم لهم للإبداع فيه، سيما وأن أغلب ملوك بني مرين وأمرائه كانوا من المتمكنين من الأدب وفنوه. فحسب صاحبي الاستقصا والذخيرة فقد كان مثلاً أبو عدنان كاتباً بليغاً حسن التوقيع شاعراً، وأحمد ابن أبي سالم شاعراً مفلحاً بديع التشبيه، وعبد العزيز ابن أبي سالم يحسن قرض الشعر، وأبو علي الحسن بن يعقوب ينتمي لأهل الأدب⁽¹⁾.

ولقد اعتاد الملوك المغاربة أن يخلدوا انتصاراتهم العظيمة - في المعارك الكبرى - بتشديد مبان معلمية تكون في مستوى تلك الانتصارات. وهكذا قام المنصور الموحي ببناء الجوامع الثلاثة (خير الدا) في إشبيلية، و«الكتيبة» في مراكش، و«حسان» بالرباط⁽²⁾. إثر انتصاره في موقعة الأرك بالأندلس. وعلى نحو ذلك شرع المنصور السعدي - في أعقاب انتصاره على الجيش البرتغالي بوادي المخازن ببضع شهور - في بناء قصر البديع، وذلك إشادة بمكانة آل البيت في الجهاد، وإظهاراً لمقامهم الشريف⁽³⁾. وكان قصر البديع - الذي أنفق عليه المنصور من عمره عشرين سنة، و«أفرغ فيه الصنائع الماهرون من كل جنس ما لهم من مواهب ونبوغ» - أعجوبة الزمان وحديث الأجيال، في مشارق الأرض ومغاربها. وقد أطنب كثير من شعراء الحضرة الأحمدية في وصف هذا القصر ومحاسنه، متبارين بأشعارهم - لتتقش على قبابه وأعمدته - ومشيدون فيها بخصال أحمد المنصور الذهبي الحربية، وبجهاده المتواصل للدفاع عن وحدة البلاد، ضد النصارى

(1) انظر: عبد الجواد الصقلي: قصيدة المديح في العصر المريني، دعوة الحق عدد 277، ص 84، وعدد 281، ص 90.

(2) حسب بعض الروايات التاريخية، فإن رباط الفتح بناه المنصور الموحي بعد عودته من غزوة الأرك وكان في رحابه يجهش المنصور الموحي - أيام خلافته - جيوشه قبل انتقاله إلى الأندلس للجهاد بها، وظل ملوك بني مرين على عادة أسلافهم الموحدين يقضون وقتاً طويلاً في نفس الرحاب لتجهيش جيوشهم التي ستقبل على الجهاد بالأندلس.

(3) د. عبد الهادي التازي: «قصر البديع بمراكش» من عجائب الدنيا، مجلة البحث العلمي، عدد 28، ص 163.

الفاصبين من برتغال وإسبان. فلا عجب إذن أن يكون شعر المدح والوصف غزيراً على عهد المنصور السعدي⁽¹⁾.

ومما يستجد من ذلك قول أبي عبدالله محمد الفشتالي، من قصيدة فريدة - نظمها لتتقش في «القبة الخمسينية» من قبب القصر - في مدح المنصور، وقد شبهه بالصقر، وهو ينقض ظافراً في وقعة وادي المخازن التاريخية:

ففخري بمن دان الملوك لقهره
وزفت له العلياء وهي رداح
إمام يهاب الموت حد حسامه
ويفني العدا فما يقيها سلاح
وحسبك من وادي المخازن إذا طمت
بحار الردى والخييل فيها جماح
فكان بها كالصقر ينقض ظافراً
تساعد منه مقلب وجناح
له حالتا سيف وسيب كأنما
تجمع في يمناه سم وراح⁽²⁾

ومما أنشده أيضاً عبدالعزيز الفشتالي، ليكتب منقوشاً داخل القبة الخمسينية المذكورة، قوله في «ليث الوغى» المنصور الذهبي»

(1) ومن ذلك قول ابن القاضي من قصيدته السنية في مدح السعديين وجيوشهم معارضاً بها قصيدة العسقلاني في مدح المستعين العباسي:

أغنوا وأصغوا للعدى بالباس	قوم إذا وعدوا وإن هم وعدوا
فوق الأسيرة شبه ظلي كناس	أسد إذا حضروا الحروب وإن غدوا
والقلب رعباً من عدو قاس	العين تملأ بهجة بجيوشهم

(روضه الآس، ص 247).

(2) المقرئ: روضة الآس، ص 29.

هو المنصورُ حائزُ خصلِ سبقٍ
وباني المجد بنياناً مكيّنا
وليث وغي إذا زار أمتعاً
يروع زئيره هنداً وصينا
إذا أمت كتائبه الأعادي
بعثن برعبه جيشاً كميناً
يدير عليهم من كل حربٍ
تدقهم رحي أو منجنونا⁽¹⁾

وقال وزير القلم عبدالعزيز الفشتالي، من قصيدة طويلة نقشَت خارج القصر،
مادحاً المنصور وكتائبه الجرارة، التي فتحت بها الأقطار والأمصار:
إمامٌ يسير الدهر تحت لوائه
وترسي سفانٌ للعلا حيثما خطا
وفتّاحُ أقطارِ البلاد بفيلقٍ
يُفلّقُ هاماتِ العدا بالظبي خبطا
تطلع من خرصانه الشهب فانثنت
ذوائب أرض الزنج من ضوئها شمطا
كتائب نصر إن جرت لملمة
جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا
إذا ما عقدنَ رايةً علويةً
جلعن ضمان الفتاح في عقدها شرطاً
فما للسما تلك الأهلة إنما
سنابكها أبقت مثلاً بها خطاً

(1) المصدر السابق، ص 136.

يطاوع أيدي المعلوات عنانها
فيعتاد من قبض الزمان بها بسطا
يد لأمير المؤمنين بكفها
زمام يقود الفرس والروم والقبطا
أدار جدارًا للعلا وسرادقا
يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا⁽¹⁾

ونظم الشاعر والكاتب البارع محمد بن علي الوجدي (الملقب بالغماد)،
قصيدة يمدح فيها ولي عهد المنصور أبا عبدالله المأمون - (الذي كان يحاكي أباه
في عزماته ويخشى الناس عواقب سيفه المسنون) - مهنتاً إياه بالنصر الذي أحرزه
على ابن عمه الثائر: الناصر ابن الغالب الله، وعلى الأعداء التابعين لركابه:

بشرى فقد رُفعت للنصر رايات
وأعلنت بدوام العز آيات
وأصبح الملك محفوظاً جوائبه
محروسة منه أرجاء وساحات
مستقبل السعد في ورد وفي صدر
معجل الظفر تحميه السعادات
يا حبذا أوبة المأمون مغتبطا
بالنصر تخفق عن يمينه رايات
من بعد ما عاين الأقوام منه لدى
يوم الطعان هزبر له وثبات
علا الأعادي بجيش لا يفر ولا
يهتز إن وقعت للخيال كرات

(1) المصدر السابق، ص 139.

كانهم والأعادي لا ثبات لهم

أُسْدٌ وبهم لها فيهنَّ فَتَكَاثُ⁽¹⁾

ونظم عبدالعزيز الفشتالي، قصيدة في تهنئة ولي عهد المنصور محمد المامون، بإعذار ابنه الأمير عبدالله، ضمنها ما حققته الأسرة السعدية - «حزب الإله» - في ميدان الفتوح، منها:

وببابكم تروي الفتوح صوارم

هي باسمكم للأرضين فوالح

(1) المصدر السابق، ص 73. ولنفس الشاعر قصيدة بعث بها إلى المأمون السعدي، منوها بشجاعته وإقدامه ودفاعه عن راية الإسلام في المغرب الإسلامي منها:

حامي حمى الإسلام إن طرق الردى	بسنانه وحسامه البتار
الله ملكك البسيطة وفق ما	نطقت بذلك ألسن الأجفار
ودعاك داعي النصر مسرورا وقد	حنت لذكرك سائر الأقطار
ترجو لقاءك مصرها وعراقها	وحجازها والشام دون تمار
وبنصركم قد أفصحت أدباؤها	من سوس الأقصى إلى الأنبار
أما تلمسان فقد كلفت بكم	كلف الجديب المحل بالأمطار

(المصدر السابق، ص 74).

كما للشاعر (الغماد) أبيات شعرية طريفة يفتخر فيها باسم «المدافع» السعدية:

أنا التي فُتت السلاح بأسرها	تُصمى عدى الشيخ الإمام مضاربي
مهما رنوتُ إلى الكماة بسطوتي	يلقون مني الموت ضربه لازب

☆☆☆☆☆

أن المصوغ لحتف	مهما قد دحتُ زنادي
من راحة الشيخ مولى آل	مُلوك أحمي الأعادي

☆☆☆☆☆

إني لحتف عدو لا يقيه نوى	مني وللملك الشيخ الرضي واقي
وقد فجرت على كل السلاح به	وما كمن كلمته ضربتي راقبي

☆☆☆☆☆

بديعُ شكلي في الوغى رفعا	قدري على البيض والأقواس والأسل
ولأعادي الإمام الشيخ ضعت فلا	أنفك أرميهم بالحتف من عجل

(روضة الآس، ص 77-78).

(د. نجاة المريني: «أبو عبدالله محمد بن علي الوجدي الغماد» حياته وآثاره).

نيطت بجيد الدين فهي تماء
ولفتح مقفلة البلاد مفاتح
أرضيتم حذب الإله ورضيتم
جدا جياذ الملك وهي جوامح
وورثتم عن هاشم البطحاء ما
قد وطدته أئمة وججاج⁽¹⁾

ويقول أيضاً من قصيدة في مدح الشيخ محمد المأمون ابن أبي العباس
المنصور، لما كان ينوب عن والده في قمع الثورات الداخلية:

مولى إذا نصب العوامل للعدا
جاءت له بالفتح والتمكين
يحكي عن المنصور في عزماته
وعن الوصي أبيه في صفين
إن زار أرض عداه جيش واحد
وافاهم الرعب بألف كمين
كالسيف إن لاقيته ألفيته
للطف يدمج شدة في اللين
فببابه عكف العفاة كأنهم
وفد الحجيج بأبطح وحجون
باب به لاذ الملوك فكلهم
يخشى عواقب سيفه المسنون⁽²⁾

(1) المصدر السابق، ص 132 .

(2) المصدر السابق، ص 141 .

وإذا كان الجهاد عاملاً من عوامل النهضة الشعرية في العهد السعودي، فقد ألهمت الوقائع والأحداث، وحركة الجهاد التي عاشها المغرب في عهد الدولة العلوية شعراءهم للتبوية ببطولات ملوكها، والإشادة بالانتصارات والفتوحات التي حققوها، للدفاع عن الثغور المغربية، ولإعلاء راية الإسلام في هذه الربوع.

لقد أورد ابن زيدان في مخطوطه: «المنزع اللطيف»، قصيدة لامية يجهل اسم ناظمها ذكر فيها صاحبها جل الوقائع التي خاضها المولى إسماعيل لتحرير السواحل المغربية واسترجاع موانئها، منوهاً ببطولة أجناده في ساحة العراك:

وقمت بنصر دين الحق حتى
علا والكفرُ يأنز بالزوالِ
فأصبح رهط أصفر في جديدٍ
من النذل الملم بها وبال
فما منعتهم منها حصونُ
ولا كور الصواعق من محال
سحبت على العرائش ذيل قهرٍ
غدت منه الأعاجم في وبال
وطنجة قد عادها الرعب كادت
تملك القياد بلا قتال
لما عانوا بمهدية قبيل
فلاح بها الفلاح على الضلال
وذلّ بها الصليب وآل عنه
العتاة به إلى شرّ المال
وفرّ حماته رغماً فولّت
كُماتهم منكسة العوالي

إلى أن يقول:

فريح النصر حيث سرت سار
وصبح الفتح حيث حلت جال
إذا جندت ذا لجب عظيم
يضيق له الفضاحين المجال
يسود كالأسود على عراب
مسومة هياكل كالتلال
يودون الحمام إذا تلظى
لظى الهيجا وأفرط في اشتعال⁽¹⁾

ويقول العربي بن عبد السلام الفيلاي، صاحب «الدرة المكنونة»، مشيداً
بشجاعة المولى إسماعيل وبطولته الخارقة:

كمي يرى قمع الكُماة بصارم
شجاع فيلقى القوم منكشف الصدر
إذا هزّ في الميدان كعب معسل
سقى زمرة الأعداء من مشرب مرّ
تهاب الجياد الصافنات نزاله
كما ارتعد العصفور من صولة الصقر
ملك تصدى للصليب وحزبه
فعطل أصنام الخبائث والكفر
له الفتح في كل المعازل أية
فإن رياح النصر قدامه تسري

(1) ابن زيدان: المنزع اللطيف (م.خ.ع) ص 496-497. (والنسخة المطبوعة، ص 431-432).

به زلزلت أرض الجزائر خيفةً
 كما اهتزت الأهرام بالرعب من مصر
 يجر إلى وهران جيشاً عرمرماً
 تضيق به الهيجاء من هوجل قفر
 وللبلدة الخضراء تونس يعتدي
 فيزهى له المثنوى ويسعد بالأمر⁽¹⁾
 وينشد الشاعر محمد بن الطيب العلمي⁽²⁾ قصيدتين رائيتين، تخلدان الخصال
 العسكرية الحميدة التي يتحلى بها المولى إسماعيل، وإبادته - بجنوده وكماته -
 للظالمين والعداة من جيوش الكفر.
 يقول في الأولى:
 نُصِرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا مَطْلَعَ النُّصْرِ
 فجاء الردى للطّي والدين للنشرِ
 وواصلت حبل الدين بعد انصرامه
 بصارمك الهندي والبيض والسمر
 ملك يري في الحرب بين كُماته
 كبدر وهاذي النجم تحنو على البدر
 يريك طغاة تحت حافر طرفه
 وما هي إلا الطير في مقلب الصقر

(1) المصدر السابق، ص 476، م.ج.ح 12155، ص 524. ولنفس الشاعر أرجوزة نظمها في الفتوحات الإسماعيلية، انظرها في هذا المصدر، ص 522.

(2) عاصر محمد بن الطيب العلمي المولى إسماعيل. نشأ بفاس ودرس بها. شاعر رقيق يعتني بالزخارف اللطيفة. بالإضافة إلى «الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب» (طبعة حجرية) (وهو غير الأنيس المطرب لابن أبي زرع) الذي ألفه له كتاب آخر في فضائل الخيل، توجد نسخة منه بخزانة محمد المنوني. توفي بالقاهرة في طريقه إلى الحج (1135 هـ) أورد عبدالله كنون في العدد 14 من «ذكريات مشاهير رجال المغرب» (ابن الطيب العلمي) نماذج لأشعار ورسائله.

أتاه رجال في الوغى فكأنهم
رجال أتوه من حنين ومن بدر
ففرق جمع الكافرين وهدهم
وأهلكهم بالطعن والقتل والأسر
همام يبيد الظالمين بجنده
وأبطاله كالليل والأنجم الزهر
أيا ملكاً ينهى ويأمر في الوري
نصرت بأمر الله في النهي والأمر⁽¹⁾

ويقول في الثانية:

لك العز والتأييد والفتح والنصر
أيا ملكاً يصبو له البر والبحر
هزمت جيوش الكفر في كل معرك
وشيدت ركن الدين فانتفض الكفر
وفككت أسرى المسلمين من العدا
ومنك الأعادي لا يفك لهم أسر
جنودك كالليل البهيم مهابة
ولكنما أبطالها الأنجم الزهر
تقدمها خيل عتاق إذا عدت
تكاد تجاريها الرياح أو الطير
فكم راحة بيضاء تحمر بالدماء
إذا انعقدت للحرب ألوية خضر

(1) محمد العلمي: الأنيس المطرب، ص 3.

وقائعُ إن مرّت وفات زمانها
سيبقى على مر الزمان لها ذكرُ
أمولاي أمنت البلاد وأهلها
فلله ربّ الناس ثم لك الشكرُ
فلا زلت محفوظ الجناب مؤيداً
لك العز والتأييد والفتحُ والنصر⁽¹⁾

وأنشد الشاعر أبو محمد عبدالحق السحيمي، قصيدة في مدح المولى
إسماعيل، سماها: «خاتمة أهل الأدب وسراج من تهذب وتأدب» صار فيها على
نفس النهج، مبجلاً ومعظماً ومعدداً المفاخر البطولية الإسماعيلية، وواصفاً بلاء
كتائبه التي تصدع منها القلوب، وذلك في أسلوب رقيق وتعبير متين.

مطلعها:

أمن أرضهم ريحُ الصّبا يتضوّعُ
ومن دونهم بدرُ الأسنة يلمعُ

ومنها:

وحي القصور الخضر صوت غمائم
مباركة تهمني إليها وتهمع
قصور بها المنصور يحمي حقائقاً
من الدين فيها الخير للخلق أجمع
يجهز إسماعيل منها كتائباً
تكاد قلوب الشرك منها تصدع

(1) المصدر السابق، ص 4-5. «شعر محمد بن الطيب العلمي» تحقيق عبدالرحيم الراجي، رسالة
جامعية، ص 180-181 وص 186-187. ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص 421-422.

فلله منه النفس والحرب ترتمي
بموج المنايا والأسنة شرع
وما افتتر ثغر قبل تقبيل سيفه
ولله سرّ في الخلائق مودع
وكم ليلة باتت به الخيل عومًا
بحورًا من الظماء والناس هجّع
وما سرّ منه النفس غير سرّية
يخبّ إلى الأعداء منها ويرتع
ولم تك أيام الرخا تستفزه
ولا كان يومًا في الشدائد يضرع
أعز الإله الدين بابن نبيه
وما إن يعز الدين إلا سميع

ثم يخاطب السلاطين العلويين في شخص المولى إسماعيل:
ألستم سراة المسلمين وسادة
محبتهم يوم القيامة تنفع
إذا أطعموا يوم الوليمة أشبعوا
وإن طعنوا يوم الكريهة أوجّعوا
إلى أن يقول:

بقيت لهذا الدين تُعلي منارهُ
وقدرك من بين الملوك مرفع⁽¹⁾

(1) محمد الصغير اليفرنّي: روضة التعريف، ص 64-66.

- محمد الصغير اليفرنّي: الظل الوريث في مفاخر مولانا إسماعيل الشريف ح.خ.ج (12498).
- عبدالرحمن ابن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، ص 418-419.

وقد أورد الشاعر ابن زاكور الفاسي في ديوانه قصيدة سماها: «موشح رق وراق»، يتغنى فيها ببطولة المولى إسماعيل وشجاعته في الحروب، مطلعها:

أملَى الهنا والسعدُ ردُّ
نصرٌ لمولانا مؤبَّد

منها:

مولاي إسماعيل مَنْ
جندُ الإلهِ له مؤيَّد
مولاي إسماعيل من
جمع العداة به مُبَدَّد
ولله من الرعب الذي
يُفني العدا جندُ مجند
أو ليس من أبناء خي
ر الخلق مولانا محمد
يغشى الوغى مستبشراً
والبأس منها قد توقد
والضرب أبرق ثم أرعد
والطعن أتهم ثم أنجد
والسمرُ تغرس في الكلا
والبيضُ في الأعناق تُغمَد
والأرض تُكسى حلةً
بدم المجدل والمقدد
فهناك يزهد في الدنى
إذ ليس في الإقدام يزهد

وهناك يعظم بشره
والويل منه لكل أصيد
فيفلّ جمع كُمَاتِهَا
ويحل منها ما تعقد
يثنى نِجاة من انثنى
ويقد جِلْدَة من تجلد

ثم يشبه الشاعر المولى إسماعيل، بأبطال النضال والجهاد في الإسلام،
كحمزة بن عبدالمطلب عم الرسول، وشهيد الدعوة الإسلامية بغزوة أحد، وعلي بن
أبي طالب خليفة رسول الله ﷺ، وخالد بن الوليد سيف الإسلام، وسعد بن أبي
وقاص فاتح بلاد فارس:

والليث أبطش ما يك
—ون إذا تبسم أو تأود
شبه به المققدام لي
ث الله (حمزة) ذا المهند
أو جده المولى (أبا
حسن) يدمر من تمرّد
أو فارس (اليرموك) سي
ف الله (خالد) المخلد
أو صاحب الصمصام لي
ثُ (القادسية) حين ينهد
أو جده (النفوس الزك
ية) من سنا المنصور أحمد

وقد يفوق المولى إسماعيل في بطولته وحماسته، أبطال عصر الجاهلية
«كعنترة الفوارس»، و«ربيعة بن مكرم» و«أريد بن قيس» أخي «لبيد بن ربيعة، وعامر
ابن الطفيل» به إنه:

هــذا المـلاعـب لـأسـنـة
ة إذ جـبـين الحـرب أسـود
هـذا المـصـادم والمقـة
ـاوم والمـسـدد والمؤيـد
هـذا المـضـارب والمطـة
ـاعن فضـل هـذا لـيس يجـد
هـذا المـقـوم رمـحـه
فـي ثـغـرة البـطل المـزـد
هـذا المـبـدّد مـن تـألـة
ـلب فـي الغـوايـة أو تـودّد
هـذا المـرفـع كـل أو
رـع والمـعـفر كـل أو غـد⁽¹⁾

ويقول محمد بن أبي بكر الدلائلي، «البارع في الفقه واللغة وعلم الأنساب»
من قصيدة في مدح - حامي بيضة الإسلام - بالمغرب المولى إسماعيل، مردداً
أمجاده العسكرية:

قـهر العـدا وسـقـاهم كـأس الرـدى
وسـبى رـقاب طـوائف الكـفار

(1) محمد بن قاسم بن زاكور: «ديوان الروض الأريض في بديع التورية ومنتقى القريض»، ورقة : 27
م.خ.ج 1503، وص 404-405 من الدين تحقيق محمد بن الصغير، عبدالله كنون: المنتخب من شعر
ابن زاكور، ص 38-40.

فتح المدائن والحصون بجده
وجهاده وحسامه البتار
أبقاك مولانا لنصرة دينه
ظلاً ظليلاً في سما الأمصار⁽¹⁾

ويقول محمد بن عمر الحسيني من قصيدة دالية، نظمها في مدح محرر
الثغور المغربية المولى إسماعيل، وقاهر حزب أعدائه:
بشراك ملك ثابت ممدود
تعنو لعزته الملوك الصيد
ولكم عزائم أرجفت كل العدا
لو أنهم يوم الطعان أسود
خضت المعامع والقفار مُذرَعاً
بالصبر وهو على سواك شديد
يا غالباً بالله حزب عدائته
أنت الهمام المالك المودود
الله قللك الخلافة فارعها
فحمى الأمانة حفظها مقصود
أمنت قُطر الغرب فاخضرت به
كل البقاع وأينع الجلمود
لك نية حسنى وعزم صادق
وتجلد يوم الجلال شديد

(1) محمد الضعيف: تاريخ الضعيف، ص 104 (تحقيق أحمد العماري). عبدالكريم الريفي: زهر الأكم
(محقق)، ص 207.

ثم يدعو له:

ما زال أمرك في البرية نافذاً
أبداً ويصحب رأيك التسديد
ولسان حال الفتح ينشد معلناً
بشراك ملك ثابت ممدود⁽¹⁾

ويقول أبو عبدالله محمد اليعمدي - وزير السلطان المولي إسماعيل - في
ذكر مناقب أجداد سلطانه وتضحياتهم قبل أن يتخلص إلى تعداد خصال حفيدهم
الحربية:

حمادة كماء الروع في معرك الوغى
وللدين والدنيا سيوف قواطع
هم نظموا دين الإله وحزبه
وشادوا له في العالمين صوامع
هم كشفوا عن ديننا كل غمّة
كما كشفت حكم الضلال الشرائع
هم رزقوا فتحاً ونصراً ونصرة
وحازوا خصالاً ما حوتها مسامع
لهم مهج في الله ما بخلوا بها
وأنفسهم في ذاته لا تدافع
أقاموا بأمر الدين إرثاً ونخوة
وصالوا على الدنيا ولا من ينازع
فأيديهم للفتك والطعن والسخا
وأرجلهم للصافنات تسارع

(1) عبدالله بن الحاج إبراهيم الزرهوني: رحلة الوافد. ح.خ. رقم 11875 ورقة 246، 247، 248.

أليس إسماعيل أصل فروعهم
كذلك لإسماعيل الفوارع
خلافته يمن ونصر ومأمن
وزاد ونخر في البرية شائع
أطاعته حتي العصر في قن الربا
ودان له من كان عاص وطائع
فأفنى جيوش البغي بالفتح والردى
وفاز بنصر الله والبغي راتع⁽¹⁾

ويقول أيضاً من قصيدة نونية، أشاد فيها بجهاد المولى إسماعيل ضد البغاة
الناكثين للعهد، والعداة المارقين والملحدين الكافرين:
ألا قل للبغاة المارقينا
أباد الله كل الناكثينا
وأبقى للأنام المولى حصينا
إمامهم أمير المومنيننا
أقام لنصرة الإسلام حقاً
بسيف الله يمحو الملحديننا
فيا لله من ملك جليل
أتاح النصر والفتح المبيننا
له العزمات والصولات صدقاً
من الصديق قل حقاً يقينا
وحكم للفاروق وكذا فتوح لعثمان
تـرى لـه أجمعينا

(1) أبو عبد الله محمد اليمحمدي: ديوان «مدد التأييد في ترتيب التقايد» م.خ.ج 677 ورقة 167.

أطاعته العواصمُ خوفَ قهرٍ
فجاءته تُلبّي طائعيناً
تُرجي الروم بأسه كل حينٍ
إذا سل السيوف المصلتين
لَعمر الله فهو لهم مبيدٌ
كما قالت نصوص الأقدمين
فويل للأعاجم فهي حتفٌ
قريب من جموع المشركين⁽¹⁾

ولالأديب عبدالحق بن مخلوف الحسيني يمدح المولى إسماعيل ويتغنى
بخصاله العسكرية المحدودة، من قصيدة عارض بها أحد شعراء المأمون، منها:

عدمنا جيادَ الخيل إن لم نشزُ بها
على جيِّهالِك من النفجِ أكدرا
يقدمها المنصورُ صدر كتائبٍ
تنال المني أو تترك الجو عيترا
أخو الحرب لا ينفك عند لبوسها
تجرد منه الحرب للحرب قسورا
طويل نجاد السيف مهما رأيته
ترى عسكرياً مجرّاً وجيشاً مُظفراً
تهاب ملوك الأرض منه عزيمةً
تقدّ الحِمام المشرفي المذكرا
أعرّ بني الدنيا جناباً وحورةً
وأسمى بني الأيام قدراً ومفخرا

(1) المصدر السابق، ورقة 169.

فأين ما تلقاهُ والله حافظهُ
يسدّ ثغورًا أو يجهّز عسكرا
إلى أن يختم قصيدته بالدعاء له:
ويا أشجعَ الشجعان في حومة الوغى
إذا أنجبت جرد السوابق عنترا
بقيت لدين الله تنصر حزبه
وينصرك الرحمن نصرًا مؤزرا⁽¹⁾

وقال محمد بن الطيب العلمي في المولى إسماعيل، ومفاخره العسكرية من
قصيدة لطيفة:

أيدت بالنصر العزيز وكم
رُغِيتَ العدا بالصافنات الجياد
دانست لك الخلقُ فما أحدٌ
إلا له كرهًا إليك انقياد
لما أبى الكفار أن يهتدوا
واستكبروا حتى طغَوْا في البلاد
أذقتهم وسط بيوتهم
صاعقة مثل ثمود وعاد
حتى غدّوا قتلَى دماؤهم
أوديئةٌ يجري بها كل واد
والسن العدل تنادى بهم
هذا جزا أهل الردى والفساد

(1) مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 11830 دون ترقيم لصفحاته . عبدالرحمن بن زيدان: المنزع اللطيف (مطبوع) ص 410-411.

جاءتك في الحرب ملائكة
ناصرة الحق غلاظ شداد
فأصبح الكفار أو جههم
مُغبرةً يعلو عليها أسوداد
وخرّب الله ديارهم
من بعد ما كانت كذات العماد
كأنما ملكك بين الورى
عام رخاء بعد سبع شداد⁽¹⁾

وقد أتى عبدالله بن يوسف الوادوني بصفات المولى إسماعيل البطولية من
قصيدة مدحية سلف ذكرها قائلاً:

تحو أمانى الورى فوق جوّه
كطير إذا ما سار سير الحوائم
يبين أمير المومنين أمامه
كساع بتبشير الأهالي بقدام
يصون طليعات الجيوش ببأسه
كما صين ريش مُخْتَفٍ بالقوادم⁽²⁾
خمس تضيق الفيح من جنباته
كما امتد دون السيف خضر الخضارم

ومن شعر الشاعر محمد بن الطيب الشلوشي مشيداً ببلاء الجيش الإسماعيلي

في نزاله قوله:

(1) ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص 535، شعر محمد بن الطيب العلمي، تحقيق عبدالرحيم الراجي، ص 174.

(2) محمد المختار السوسي: سوس العالمة، ص 72-74.

أمولاي إسماعيل جيشك غالب
 بنصر من المولى على من يخاذل
 تنادي الذي لبّاك طوع إجابة
 بعزم قوم أعقبتها الصواهل
 سري كمي، جامع لخصاله
 تقي، جلي كامل، يتطاول
 سليل كرام من ذوي السمر والقنا
 لقد عجزت عنهم نمير ووائل
 لقد ضربوا في المكرمات ببأسهم
 وهم حيث ذكرهم إلينا الأوائل⁽¹⁾

هذه هي الأعمال الخالدة للمولى إسماعيل في ميدان النضال والجهاد، وهذه هي صفاته البطولية التي امتاز بها عن بقية الملوك كما حبرها شعراء في دواوين⁽²⁾

(1) عن مجموع فريد يضم شعر شعراء طنجة في الحقبة الإسماعيلية، وقف عليه د. عبدالسلام شقور بخرانة المسجد الأعظم بطنجة (ورقة 12) (دعوة الحق - أبريل مايو 1995).
 (2) كان المولى إسماعيل يجالس العلماء ويقرب الشعراء وينفجهم بجوائزه وعطاياه. فبلاطه كان دائماً غاصاً بالشعراء والكتاب. وكان بلاؤه في الحروب أكبر إلهام لهم في إنشاد قصائدهم المدحية، والتغني ببطولاته، وحض الناس على طاعته وعونه على قهر الأعداء، كقول أبي عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الجزولي مثلاً:

مولاي إسماعيل يا شمس الورى	يا من جمع الكائنات فدى له
ما أنت إلا سيف حق منتضى	الله من دون البرية سلسه
من لا يرى لك طاعة فالله قد	أعماء عن طرق الهدى وأضله

(عبدالله كنون: النبوغ المغربي، ج3، ص 232).

وبقيت بطولات المولى إسماعيل تستلهم الشعراء من عهده إلى العصر الحديث من ذلك قول محمد المهدي الحجوي من قصيدة له يشيد فيها بجهود الأسرة العلوية في إرساء قواعد الدولة:

فذاك إسماعيل إذ سل سيفه	على البغي ولّى البغي وهو مبدد
وان بلادا تجمع اليوم شملنا	عليها لإسماعيل فضل مؤيد

(جريدة السعادة 20 نونبر 1934).

وأصدق تعبير عن ذلك كله ما قاله محمد ابن علي الرافعي، على لسان السلطان أبي النصر:

أنا تاج أبناء الملوك وفخرهم
كمي شجاع في الحروب وظافر
أنا الليث إسماعيل راية مجدهم
وسيفي ماضٍ في العداة وقاهر
أنا فاتح الأمصار للكفر دامغ
فسل عن ثغور الشرك ينبئك خابر
لنا المجد يعزي ولاسيادة حزننا
فناهيك فضلا أن حوتها منابر
لنا ذلت الأعاء بالسيف والقنا
وكل رئيس عند ذكرى صاغر
فمن منكر فضلي وجدي محمد
نبي رسول هاشمي وطاهر⁽¹⁾

وعلى هذا المنوال، يقول أبو حفص عمر بن علي الحراق الحسني على لسان «قصر الخيل»، الذي شيده المولى إسماعيل وأعطاه اسم الخيل لما له من اعتناء بجمع «الخيال العتاق» و«انتخاب الصافئات الجياد».

أنا قصر العتاق من الجياد
بناني الله في نحر الأعادي
على يد عبده المنصور حقاً
وصلت على القصور بكل نادي

(1) محمد داوود: تاريخ تطوان، م1، ص401.

وكيف لا أصول على المباني
وإسماعيل قد أسمى عمادي
وشيدني بتوفيقٍ ويمنٍ
وعمرني بآلات الجهاد
وروع في الصليب وعابديه
فنال العزَّ من رب العباد⁽¹⁾

ويقول أيضاً على لسان المولى إسماعيل من قصيدة طويلة لما طلب منه أن يذيل
قولة ذات بال كان يرددها عند نزول أمر هام، وهي: «جربت الأمور وجربتني»:

وجربتُ الأمورَ وجربتني
كأنني كنت في الأمم الخوالِ
وإن كنت الوفي بكل عهدٍ
فمن لي بالوفاء من الرجال
غدا معنى الوفاء فيها غريباً
ولم يخطر لهم يوماً ببال
ومن عجب تروم الروم حرباً
بسهل أو حزون أو جبال
وقد شهدوا العرائش يوم جاءت
بها الأجناد تزحف للقتال
ولكنَّ الدليل إذا تمادت
به الآمال عاد إلى المجال⁽²⁾

(1) محمد الصغير اليفرنى: روضة التعريف، ص 62.

(2) ابن الحاج: الدر المنتخب (م.خ.ج) 6، ص 32 الريفي: زهر الأكم (تحقيق آسية بنعدادة)، ص 197.

وفي خلف المولى إسماعيل⁽¹⁾ محمد بن عبدالله بن إسماعيل، أنشد الوزير

(1) ولما كان المولى إسماعيل قضى في الملك نصف قرن، ما من شاعر تعرض للإشادة بملوك المغرب إلا وخصه بالإشادة. من ذلك منظومة من وزن الرجز مجهولة الراجز والشارح في تاريخ المغرب يقول صاحبها في المولى إسماعيل عند تعرضه لتاريخ ملوك المغرب

بدولة عظيمة المآثر	مولاي إسماعيل ذو المفاخر
وقف فيه جيشه وجنده	فكان في الملك مليكا وحده
وكان في الثغور خير فاتح	وفتح الفتوح بالمفتاح
وقد أرانسا عزه ونصره	طال به الملك وشد أزره

(مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 12358 مبتورة الأول والأخير). وترك المولى إسماعيل عدة أبناء، نالوا هم أيضًا حظًا من الإشادة بخصالهم العسكرية التي ورثوها عن أبيهم منهم: أبو مروان الذي قال فيه الشاعر عبد الوهاب قصيدة، منها يخاطبه:

يعز على العقبان منها عبورها	فجست بدهم الخيل كل تنوفه
تهش إلى لحم الأعادي صدورها	ودست بجرد حاملات ضواريا
لديك سواء سهلها ووعورها	ودوخت أقطار الأرضين فاغتنى
ودلت لكم أسد الوغى ونمورها	فطاعتك حتى العصم في وكناتها

(من مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 2182 تضم قصائد في مدح الأمير العلوي دون ترقيم) وعبد المالك الذي قال فيه الطاهر الفيلاي من قصيدة له.

له اشتهرت من الحروب الوقائع	لمولاي عبد المالك الأسد الذي
وعربا وعجما تركها والججاجع	فسل عنه سهلا والجبال ووعرها
سليل علي والهزبر المدافع	شجاعة تنبي وتشهد أنه

(عن مجموعة مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 4540 دون ترقيم لصفحاتها). والمولى محمد العالم الذي كان له جهاد كبير في أعداء البلاد ووحدتها يقول فيه عبدالله العلوي الشنقيطي (ابن رازكة) من قصيدة له:

عواء لكلب الترهات ولا نبها	وليث بحق الله لم يبق رعبه
كما تبتغي الذبح في عيدها الأضحى	أمير، ملوك الأرض أضحو لسيفه
ووقفا على غزو العدا عدوها ضيجا	مواصله حبل الجهاد جباهه
إليه ولكن إنما كرهوا القرعا	ولم تذعن الأعاء محض موده

(الوسيط: ص 23-25) ابن زيدان: الإتحاف، ج 4، ص 69-72 وانظر كذلك ديوان الشاعر الشنقيطي ابن رازكة، شرح وتحقيق ودراسة محمد سعيد بن دهلة ص 82 وقد تطرق أيضًا شعراء المولى إسماعيل إلى مدح قادته المجاهدين الذين أبلوا البلاء الحسن في ساحة المعارك وذلك كقول محمد بن الطبيب العلمي في محمد بن علي بن حماسة قائد جيوشه في منطقة الشمال، وقد حقق انتصارات على النصارى المحاصرين بسبته، من قصيدة:

الكاتب أبو محمد حمود بن عبدالعزيز التونسي، قصيدة طويلة عدد فيها صفاته الحربية ونوه بها، متمنياً أن يعيد ما ضاع من مجد خالد في الغرب الإسلامي، منها:

ويعشق الحرب حتي إذا تذكرها
يحن شوقاً لها أو ينثني طرباً
فلا تراه بغير النقع مكتحلاً
ولا بغير دم الفرسان مختضباً
ولا يسقيه إلا صعده طعنت
ولا يغنيه إلا صارم ضرباً
تنويه باسمه في الجيش يوم وغى
يغنيه عن أن يقودَ الجند مُكتتباً
تسير في كل موماة طلائعه
فلا تقيم سوى عظام العدا نصباً

ثم يتساءل الشاعر:

متى أرى خيله من بعد وقعتها
بالكفر تختال في بغداد أو حلباً

وآلي الدهر لا يعصيك يوماً	فآل بك الزمان إلى سداد
وأمر المسلمين إلى صلاح	وأمر الكافرين إلى فساد
وعودت الطغاة عذاب قتل	وصحت بهم كمدن أو كعاد
أذقتهم الجهاد فنلت أجراً	وما يدريك ما أجر الجهاد
قهرت سوادهم فالبيض حزماً	فأظهرت البياض على السواد
وكم أثقلت أرجلهم حديداً	فصار لباسهم ثوب الحداد
تطارد بالهند أهل كفر	فتهزم باطراد في الطراد
(شعر محمد بن الطيب العلمي، ص 168-169) ويخاطبه في قصيدة مدحية أخرى:	
أيها القائد الكمي الذي يسـ	قي جنود العدا كؤوس الهزيمة
ذاق من الطغاة قتلاً وأسرا	واصللوا سمر السبا وجحيمه
واغتمت من بني النصارى أسارى	وتهن بخير هذي الغنية
(المرجع السابق، ص 286)	

وترتمي شهباً في أفق أندلس
تكسوه من بهجة الإسلام ما سلبا
عودتها غمرات الموت تقحمها
فلا ترتويه ماء ولا عشباً

إلى أن يقول يخاطبه:

نصرت ربك تسعى في كرامته
فكيف لا تغلب من نصر الصلبا

ثم يتعرض لمدح الملوك العلويين:

إذا استهل وليد فيهم امتلأت
له صدور العدا في دارها رعباً
لا يعرف المجد إلا ظهر سابحة
ولا التمايم إلا الرمح والقضاب
إذا مضى الفحل منهم قام يخلفه
فحل إذا صال عاد البر مضطرباً⁽¹⁾

ويأتي المولى سليمان⁽²⁾، وينشد حمدون المراسي قصيدة طويلة، معارضاً بها
قصيدة بن الخطيب في مدح أبي سالم إبراهيم المريني التي مطلعها:

(1) مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 11970 دون ترقيم لصفحاته ولحمدون بن الحاج
قصيدة في مدح سيدي محمد بن عبدالله قال فيها:

يذل يفدي لنا العلم المينا	محمد بن عبدالله من لم
له فيها حتف الكافرينا	ونصرالله وقع في سيوف
ويشفي صدور قوم مؤمنينا	ويخزيهم وينصركم عليهم

(أحمد ابن الحاج): الدر المنتخب المستحسن (ج. بدون رقم) م.خ.ح رقم 1920، ص 400-401.

(2) نسب لمولاي الحسين شقيق المولى سليمان لما بايعته قبائل عبدة ودكالة قوله مفتخراً:

نحن الكماة فإن تهتز رايتنا	جاءت تظللنا في الحر عقبان
متى دعيت إلى وليمتنا	لأكل لحم العدا والأرض عقبان
كأنما دعيت إلى وليمتنا	فالحرب عرس لنا والفتك سلوان

(الضعيف: تاريخ الضعيف، ص 283)

وقال عنه الضعيف إنه كان «بطلاً شهماً شجاعاً عارفاً بالسياسة أديباً شاعراً ومؤرخاً»، ص 382.

نعم عندها من طيب أخبارها ذكر
وليس على أمثالنا يقع النكر
(جواباً على سؤال ابن الخطيب في قصيدته:
سلا هل لديها من مخبرة ذكر
وهل أعشب الوادي ونم بها الزهر
يصف فيها شاعرنا المرداسي فزع أعداء السلطان العلوي وخذلانهم أمام قوة
بأسه وشدة شكيمة منها:
وتنتفض الأساد منه مهابةً
«كما انتفض العصفور بلله القطر»
أعاديهِ موتى والقبور سروجهم
لقارعة السيوف والأسل الحشر
تولوا إلى وعروهم يحجمون من
جللته والقلب مزقه الذر
قتاله إياهم مبيد جموعهم
أيادي سبأ وإنما يومه بدر
وتنشب أظفار المنية فيهم
ولم ينجهم من بأس وقفته وعرو
ولله جيش من عبيد يجره
غرابيب سود لا يُبل له ظفر
ولولاه بدرًا طالعًا بينهم لما
أضاعت دياجيهم ولم يعدهم شر
سيعلم عقبى الدار من كان كافرًا
بنعمة مولاه إذا صلي الحرُّ

ولما أطعت الله جهد استطاعةٍ
أطاعك كلُّ الخلق والبرُّ والبحر
ثم يشيد بأسطوله قائلاً:
إلَيَّ رياحُ النصر زَفَّتْ مراكباً
جوارِي تُجَلِّي والقلوع لها أزر
يُسَابِقُهَا في الماءِ حوتٌ وفي السما
ء طيرٌ ولا حوتٌ حكاها ولا طير⁽¹⁾

وقد أطنب سليمان الحوات في مدح المولى سليمان . فلم تخل أي قصيدة من قصائده من الإشادة بممدوحه وبشجاعته وصولته، من ذلك قوله: من قصيدة يهنئه فيها بانتصاره على «أخبث البرابرة» السالفة الذكر:

فهاب صولتُهُ في كل معتركٍ
أُسْدُ الثرى ثم ألفوا حينهم حانا
يقدم إقدام عمرو بن ذي يزن
وهو شجاع يرون فيه شجعانا

(1) حمدون السلمي المرداسي: النوافح الغالية (مخطوط) ص 50-52، انظرها أيضاً في النوافح الغالية: العراقي، ص 198 وما بعدها.

وقال حمدون في جيشه بمحضر السلطان عند ختم تفسير «الكشاف» من قصيدة مدحية:

وجيش آخر يزهو بالهند من	سيف بمائة مطف نار أسياف
له عوالٍ على السماك عالية	تزهو بس لنور البرق خطاف
له بنود بريح النصر تحسبها	بردا على أهيف رفيق أعطاف
له خيول بيوم الردع سابقة	كسبق فهمك في تفسير «كشاف»

النوافح الغالية، م، خ، ح 222، ص 193-194) النوافح الغالية، ت: العراقي، ص 388. وقال عنه الضعيف إنه كان «بطلاً شهماً شجاعاً عارفاً بالسياسة أدبياً شاعراً ومؤرخاً»، ص 382.

ساء صباح الذين حل ساحتهم
في عسكر تحسبون إنسه جانا
جيش إذا ما رمى العدا ببندقه
أصاب منهم تراقي وأعكانا
نادى هلموا إلى الجهاد فامتلات
أباطح الأرض رجالانا وركبانا⁽¹⁾
وقد مدحت جماعة من طلبة العلم المولى سليمان في قصيدة وجهتها إليه
ضمن «شهادة بالجور والجهل» وقعت في نازلة قضائية بفاس، تشيد فيها بدفاعه
عن الدين بالسيف والقلم:
أنت الذي وضع الأشياء موضعها
وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القديم كما
أوصى به سما الأملاك والبشرا
ولم يزل بك في عزٍّ وفي حرمٍ
يجني ذوو العلم من رياضه ثمرا
تذب عنه بأسيافٍ وأوننةٌ
بفكرةٍ تحكم الأحكام والصورا
ومن يرم هدمه تأخذه صاعقةٌ
من راحتك فلا تبقي له أثرا

(1) الحوات: المدائح السليمانية، م.خ.م، ص 189-203. لقد تقدمت في فصل «الفتوح الداخلية» عدد من القصائد تضمنت مدح الحوات للمولى سليمان، والتغني بجرأته وببساله جيوشه.

وقد شكا الدين من هضم ومن كمدٍ

أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا⁽¹⁾

ولما مر المولى إبراهيم نجل المولى سليمان بتونس، في طريقه إلى الحج على رأس وفد من العلماء، سلمه الشاعر التونسي إبراهيم بن عبدالقادر الرياحي قصيدة، في مدح والده سليمان، مطلعها:

هذي المنى فأنعم بطيب وصالٍ

فطالما أضناك طول مطالٍ

وهذا مما يدل على أنه كان لشجاعة وبطولة السلطان المغربي، أصداء وصلت إلى تونس الحضراء.

يقول الشاعر التونسي في شهامة الملك المغربي:

(1) المراكشي: الأعلام، ج10، ص 94 (دون ذكر للمصدر الأصلي). في ديوان النوافح الغالية لحمدون المرداسي، ص 492 وردت قصيدة للشعر يردد فيها صدى انتصار الجزائر على الأسطول الإنجليزي من نفس الوزن والقافية منها:

حمداً لمن نصر الإسلام فانتصرا	وبدّد الكفر والضلال فانتثرا
ثغر الجزائر أضحى اليوم مبتسما	بالنصر والفتح مسروا ومزدهرا
وقال شاعر مجهول الاسم عن بطولة المولى سليمان في محاربة أعداء الدين أيضاً:	
هيهات ما للأعادي فينا من طمع	أو أننا وهم في التيه أقران
لو أنصفونا لزال اللبس واتضحت	أقوالنا ويقوي الحق برهان
نرجو من الله فتحه ونصرته	لمن على طوعه أشياعهم كانوا
ومن علت نصرة الدين القويم له	مكفولة ما به جور وعدوان

(مجموع مخطوط ب: خ. ح رقم 11532 (دون ترقيم لصفحاته) ويقول آخر يجهل اسمه في المولى سليمان وجيشه ممتدحا:

ما قدر الله للإنسان يدركه	وكل شيء له بقدر كانا
وإن توجه كلن النصر يقدمه	حتى تفر العدا خوفاً وخذلانا
والجيش بحر يجر خلف لججا	من الكتائب رجالنا وفرسانا
تحت سحاب من النقع مضللله	إن شئت أسلحة أو شئت عقبانا

(عن مجموع أشعار مخطوطة بالخرانة الحسنية تحت رقم 12542، ص 45. ويجمع المخطوط هذا قصائد جمّة في مدح المولى سليمان لا تخرج عن المؤلف).

وإذا تقلد للوغى فحسامه
تعنو الرقاب له بدون قتال
تتلوه بالفتح المبين عساكر
قد أرهفت بالنصر حد نصال
تخشى الملوك مقامه ولذكره
رعباً تطير فرائص الأبصال
إلى أن يقول:

تهوى المشارق أن تكون مغارباً
لتنال من جدواه كل منال
يا فخر دين الله منه بناصر
وسعادة الدنيا به من وال
لا تفتخر فاس ولا مراکش
بولائه كل الأنعام موال⁽¹⁾

(1) الزياني: البستان الطريف، م.خ.ج، ص 179 الزياني: «الروضة السليمانية في ذكر الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية» م.خ.ج، ص 296 وقد أجاب الشاعر التونسي: الشاعر المغربي حمدون بن الحاج بقصيدة مدح فيها صاحب تونس، مطلعها:
بشراك إبراهيم بالإقبال إقبال عز لم يكن في البال
وقد سبق لصاحب تونس أن بعث وفدا برئاسة الشاعر الشاعر إبراهيم بن عبد القادر الرياحي، محملاً برسالة إلى المولى سليمان الذي كان بفاس. ولما كان الوفد بحضره السلطان امتدحه السفير إبراهيم الرياحي بقصيدة مطلعها:

إن عز من خير الأنعام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار
ومنها:

هذا الذي رد الخلافة غضة
وأعز دين الله فهو بسكره
وحما حمه بفضله وينصله
فلسانه يوم الجدل صوارم
بمعارف وشهامة علوية
تخشى الضراغم بأسه في غابها
وسما به للمسلمين منار
في أيكها تترنم الأطيوار
وهو الذي يحمي لديه دمار
وسنانه يوم الكريهة نار
من قبل أرهف حدها الأخطار
وتصاغر الأبطال وهي كبار

وبعد وفاة المولى سليمان آل الملك للسلطان المجاهد المولى عبدالرحمن بن هشام. وابتدأت مرحلة جديدة من مراحل النضال والجهاد.

فيقول شاعره محمد ابن إدريس العمراوي، من قصيدة طويلة مردداً أصداء انتصاراته على العدا:

يا أيها المحيي شريعة جَدِه
والمرشد الهادي إلى منهاجها
والباعث الجرد السلاهب ضُمِّرا
نحو العدا تستن في أفواجها
تهدي أسننتها ولمع سيوفها
نحو العدا كالشهب تحت عجاجها
كم أمة شقيت بسيفك إذ عثت
أخنى عليها الدهر باستدراجها
وقبيلة تبعث سبيلك فاهتدت
حاطتها حارسة العلا بسياجها⁽¹⁾

ويقول شاعرنا من قصيدة أخرى، مخلداً فيها بطش جيش السلطان بعصبة الشيطان، في وقائع مشهورة:

(الناصرى: الاستقصاء، ج8، ص 118). ولما توفي المولى سليمان بعث شاعرنا التونسي بقصيدة رثائية إلى المولى عبدالرحمن بن هشام يقول فيها:

يا أهل فاس والمغارب كلها والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في أيامه للدين مطلع سعده
ثم يدعو للسلطان الجديد:

ويديمه ظلا وريفا كلما وحسام فتح كلما نهضت به
حمى الورى هرعوا لجنة برده عزماته فالنصر ساحل حده
(أكنسوس: الجيش العرمرم، ج2، ص 6-7)

(1) شهد ديوان العمراوي، ص 422

حَكَمْتُ سَعَادَتُكَ الْعَلِيَّةُ فِي الْعَدَا
حَكَمَ ابْنُ ذِي يَزْنٍ عَلَى الْحَبْشَانِ
فَحَصَدْتَهُمْ كَحَصَادِ طَسْمٍ عِنْدَمَا
أَغْرَتَ جَدِيسٌ مَعْرَةَ النَّسْوَانِ
وَتَرَكْتَهُمْ صَرَعَى كَعَصْفِ الْفِيلِ أَوْ
عَادَ لَمَّا ارْتَكَبُوا مِنَ الْعَدْوَانِ
نَالَتْ بِأَقْرَبِ مَدَّةٍ مَا لَمْ يَنْلِ
أَبْنَاءُ عَبَسَ فِي بَنِي ذِيبَانَ
أَيُّنَ الْمَفْرُؤِ وَلَا مَفْرُؤَ لِهَارِبٍ
مَنْكُمْ وَهَلْ وَزَرَ مِنَ الْحَدَثَانِ
كَمْ وَقْعَةٌ لَكَ فِي الْعَدُوِّ مَشْهُورَةٌ
أَغْنَتْكَ عَنْ جَيْشٍ وَعَنْ أَعْوَانٍ⁽¹⁾

ولما كان المولى عبدالرحمن بن هشام لم يفتأ محبة منه في الجهاد يمد الأمير
عبدالقادر الجزائري بالعتاد والسلاح، ليقاوم الاحتلال الفرنسي بالجزائر، أنشد
الشاعر الشيخ يوسف بن بدرالدين المدني في إحدى قدماته على المغرب⁽²⁾، مشيداً
بجهود السلطان العلوي في ميدان الحرب والجهاد، وتنظيم جيوشه وإعدادها
لخوض المعارك والحروب.

منها:

وإن ذكرت جيوش النصر طُرّاً
فهولها المقدم والإمام

(1) العمراوي: الديوان، م.خ.ح (دون ترقيم لصفحاته). شهيد: ديوان العمراوي، ص 592-593 وفي رواية
شهيد: سارت به الركبان في البلدان.

(2) ابن زيدان: الإتحاف 156/5.

تطير لها قلوب الأسد خوفاً
ويفزعها عن رؤيتها الحمام
فعند الرمي تصلي الجونا را
وعند الضرب يندق الحسام
وإن صفت فتحسبها بناءً
شديد الرص رصه انتظام
وإن نطق فبرق أو رعود
كساها من ملابسه الظلام
وإن سارت لحرب فالمنايا
تسير وطبعها جثث وهام
ليهنك إذ شددت بنظم جند
غرى مجد فليس له انفصام
فلما أن مننت بنظم جند
تولى الكفر وانقطع الملام
وتم لكم بهذا الدين نصر
ومدتكم ملائكة كرام
فقل للدين جاء النصر فاهناً
ولا تجزع فقد نظم النظام
فعن قرب يكسر جيش كسرى
وترشق في قياصره السهام⁽¹⁾

(1) المشرفي: الحلل البهية، ص 209

ويقول أبو القاسم الزياني⁽¹⁾ في تعداد مناقب المولى عبدالرحمن العسكرية
ومنجزاته الحربية:

أنت الذي رتقتَ فتق الغربِ
بعد حلول أهله في الكربِ
أنت الذي جمعت شمال العربِ
بعد حلول أهل الردى والسلبِ
أنت الذي دوّختَ جنس البربرِ
بالقتل والقطع ونفي المُفترِ
أنت الذي قوّمتَ أهل الجبلِ
لدفع ما يلزمهم بالمنصلِ
أنت الذي جمعت أشتات الجنودِ
أعطيت خيلاً وسلاحاً وبنود⁽²⁾

وتنسب للمولى عبدالرحمن بن هشام قصيدة له، يفتخر فيها افتخاراً ذاتياً:

ونحن أسودٌ عند كل مُلِمةٍ
ونحن هم الأقمار في ظلمة الكربِ
ونحن هم السادات بدءاً وعودةً
لنا المثل الأعلى على أي ما حزب

(1) كتب أبو القاسم عدة رسائل للمولى عبدالرحمن بن هشام، يشيد فيها بجهاده وبلائه في الحروب.
وكان يضمونها بعضاً من أبياته الشعرية، من ذلك يخاطبه وهو بمراكش:

ويستديم على الثغور حصونا	بالمدافع للعدو نكاء
ومنشآت للجهاد ببحر	يطلبون العدا قتلاً وسباء
وكفيتم كل الجنود خيولاً	وسلاحاً وكسوة وخباء

رسال أبي القاسم الزياني، م، خ، ح 11070 دون ترقيم للصفحات:

(2) أبو القاسم الزياني: مجموعة مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 14081 (دون ترقيم لصفحاتها).

ونحن هم الأبطال لا الغرب في الوغى
نسوقهم مثل الغنية بالعصب
ونحن هم الأظواد في ميلنا على
كتائب لا تلوي على البطش في الحرب
نقرب آجال الكُمة بطعننا
وساعة تلقانا تموت من الرعب
تنور إذا يحمي الوطيس وجوهنا
ويبدو عليها البشر كالشمس في الرتب
وما كان أحلانا جمالا ومنظرا
إذا ما دنت منا كتائب كالسحب⁽¹⁾

فيفضل هؤلاء الملوك الصناديد: المولى إسماعيل⁽²⁾، وسيدي محمد بن عبدالله،
والمولى سليمان، والمولى عبدالرحمن بن هشام⁽³⁾ سيوف آل محمد الماحقون للكفار
(1) المشرفي: الحلل البهية، ص 218-219.
(2) توجد منقوشة بالضريح بالإسماعلي، بعض الأبيات الشعرية التي تشيد بمفاخر المولى إسماعيل
الحريرة أيضاً، منها:

فتح المدائن والحصون بجنده	وجهاد وحسامه البنار
ويحمي حمى الإسلام نصحا ورحمة	ويكسب معدوما ويجبر ذا كسر
وكان لدى الهيجا إماما مقدما	إذا طاشت الزحلام من شدة الذعر

(الابن زيدان: المنزع اللطيف م.خ.ج، ص 554، 555، 556):

(3)

أولاده غير ضراغم سادة	يتسابقون إلى الطريق الأحمد
جمعوا المآثر والمفاخر كلها	وهم الغياث بكل روع أكمد
وهم الملاذ إذا الحروب تشابكت	وإذا الهموم مشت بقلب الأنكد

(هذه الأبيات لأحد أدباء مراكش ذكرها اليفرنى في روضة التعريف، ص 72)
وقد أساد محمد أكنسو في عدة قصائد ببطولة جيش حفيد من أحفاد المولى إسماعيل، وهو سيدي
محمد بن عبدالرحمن بن هشام، مثل قوله:
له العسكر الجرار تبرق في الوغى
يعد إلى الأعداء كل كتيبة
(الناصرى: الاستقصا، ج. 4، ص 211).
صوارم منه والمدفع ترعد
من الرعد يحودها الوشيح المسدد

والهالكون للمجرمين، أسود الملامح وأبطال الوغى، الذين حموا البلاد والعباد،
ونصروا الدين والحق، وشنوا الغارات وأقاموا الحصارات، وتسابقوا لحماية الثغور
المغربية ودافعوا عن كيان دولتهم المجاهدة المناضلة:

توالى على جيش العدو الهزائمُ
وهبَّت بنصر المسلمين النساءُ
وقامت على أهل الصليب قيامةُ
تقام عليها في الوجود الولائمُ
وقد أنجز الرحمن للدين وعده
بإظهاره والشرك بالقهر راغم
فالسنة التوحيد تملي على الورى
أحاديث فتح صدقته المغانم
وقد خط سمر الخط في جثث العدا
حروفاً حروفاً أعجمتها الصوارم
وصغر وجه الكفر ضرب عصابة
تطير الطلى من وقعه والجماجم
ورام اكتساب المسلمين وأرضهم
وكم غر بالذات في النوم حالم⁽¹⁾

وقوله:

أعد عدادا للعدا بعساكر	مسومة ركبان خيل ورجلان
ليوث افتراس كلما زأرت على	ديار أناس زارها كل أحزان
فوارس تفتال النفوس كأنها	إذا صبحت أرضاً عصائب عقبان

(الجيش، ج2، 2، 79).

(1) العمراوي: الديوان، م.خ.ج. بدون ترقيم لصفحاته. شهيد: ديون العمراوي، ص 666.

وهكذا - منذ الفتح الإسلامي للمغرب - عرف الأدب المغربي شعر المديح، وارتبط هذا النوع من الشعر بالملوك والحكام وقادة الجهاد، وازدهر ونما في أحضانهم وفي ردهات بلاطاتهم وفي غمرة معاركهم، وواكب مسيرة الجهاد، مهتمًا بوصف معاركها وتجسيم أبعاد انتصاراتها، والإشادة بحماسة وبطولة قادتها الأنجاد.

وكانت صفات الشجاعة والإباء والإقدام والبطولة تشكل أبرز الخصال في أمداح الشعراء للملوكهم وقادة جيوشهم، وحولها كانت تدور كل الفضائل والمكررات الأخرى.

وكان الشعراء يصفون على ممدوحهم هذه الصفات، - صادقين في التعبير والإحساس - لكي يثيروا حميتهم ويجعلوا منهم قادةً أفضلاً يستقطبون الناس حولهم، ويستمرون في حركة الجهاد والنضال والمقاومة الشعبية، التي يفرضها الدين الإسلامي، كلما اعتدى على حرمة الوطن والدين⁽¹⁾.

(1) انظر: د. عباس الجراري: النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830-1912، ص 45.

الفصل الثاني

شعر الجهاد في المولديات⁽¹⁾

المدائح النبوية من فنون الشعر الإسلامي المعبرة عن العواطف الدينية، والغيرة الإسلامية الصادرة عن قلوب مفعمة بالصدق والإيمان. ومحبة الرسول ﷺ وآله وصحبه والدفاع عن دينه وعقيدته، وأكثر المدائح النبوية قيلت بعد وفاة الرسول، رغم أن ما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً، لأن الرسول ﷺ موصول الحياة. ولم يعد من فنون الشعر كالوصف والهجاء والنسيب، لأنه فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل رغم ما فيه من بدائع شعرية⁽²⁾.

وذهب الباحثون إلى أن فن مديح الرسول ﷺ نشأ في القرن السابع الهجري، على يد شعراء مصريين في طليعتهم الإمام البوصيري - ذو الأصل المغربي - صاحب «البردة والهمزية». وتعتبر هاتان القصيدتان نمطاً جديداً للقصيدة المادحة أو المدحية، حيث انتقلت من «قصيدة الدنيا» إلى «قصيدة الدين».

(1) يطلق على المولديات أيضاً اسم: «الحجازيات»، وهو لون من شعر المديح النبوي اشتهر به المغاربة أكثر من غيرهم، وكذلك اسم «النعاليات» وهو لا يختلف كثيراً عن «الحجازيات» إنما حب الرسول ﷺ حمل بعض الشعراء المحبين إلى مدح النعل النبوي. من ذلك قول مالك بن مرسل - الشاعر الذي عاش سقوط الدولة الموحدية وقيام الدولة المرينية:

ومما دعاني والدواعي كثيرة إلى الشوق أن الشوق مما أكاتمه
منال لنعلي من أحب حويته فما أنا في يومي وليلي لائمه

(عبد السلام شقور: الشعر المغربي في العصر، المريني، ص 93).

(2) د. زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، ص 14-15.

ويعد الفاطميون أول من احتفلوا بعيد المولد النبوي في مصر وتونس. وأنشدت أمام خلفائهم - بعد تلاوة القرآن الكريم - قصائد المدح في الرسول. وهي المسماة بالمولديات أو الميلاديات أو «العيديات».

ويبدو أن الموحيدين بالمغرب هم أول من احتفلوا بالمولد في آخر عهدهم⁽¹⁾ وأول من دعا للاحتفال بعيد المولد النبي - على غرار عيدي الفطر والأضحى - في العهد المريني هو قاضي سبتة أحمد بن القاضي العزفي السبتي⁽²⁾. يتبعه في ذلك يعقوب بن عبدالحق المريني، الذي أقام ليلة المولد النبوي بفاس، واستمع إلى قصائد الشعراء وخطب الخطباء. ثم عمم ابنه يوسف هذا الاحتفال في جميع المغرب المريني، واعتبره عيداً رسمياً، سنة 691 هـ كعيدي الفطر والأضحى، وكان يحييه بمدينة فاس في حفل عظيم⁽³⁾. وأصبح الشعراء يلقون قصائدهم ومولدياتهم في البلاط المريني كلما حلت ذكرى المولد النبي الشريف⁽⁴⁾. واعتبر بذلك العصر

(1) تعد القصيدة التي أنشدها الشاعر ميمون ابن خبازة الخطابي (توفي سنة 637 هـ) في مدح الرسول ﷺ في العهد الموحيدي، من أولى القصائد التي قيلت في المديح النبوي.

يقول في مطلعها: حقيق علينا أن نجيب المعاليا لنفني في مدح ال حبيب المعانيا
كما نجد في العصر الموحيدي أن أبا حفص عمر المرتضى، يعنى بهذا النوع من القصيد، يقول في مطلع قصيدته: وافى ربيع قد تعطر نفحه أذكى من المسك العتيق نسима
(انظر المقرئ: أزهار الرياض، ج2، ص 384. د. عباس الجراري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج1، ص 157-158).

(2) هو مؤلف كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» والذي ينهيه ولده أبو القاسم (انظر عبد الهادي التازي: «الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام» - تمهيد - ص 7 (مستهل من دعوة الحق، عدد 233، 1982).

(3) صار اليوم الثاني عشر من ربيع النبوي (ربيع الأول) هو يوم عيد المولد، ثم أضيف إليه الاحتفال باليوم السابع بعد العيد على يد السلطان أبي سعيد المريني. وكان أبو الحسن المريني يقيم هذه الذكرى وفق تقاليد خاصة، كان باقي ملوك الدولة المرينية يتبارون في إقامتها. وكان حرص المرينيين على إقامة هذه الذكرى الدينية لتجشيد محبة الرسول الأكرم واستمالة الفقهاء والعلماء إليهم. (عزالدين سلاوي: شعر النبويات في عصر بني مرين، ص 237).

(4) د. عباس الجراري: الأدب المغربي، ص 143 و146. وقد انتقلت هذه العادة المرينية إلى بني زيان بتلمسان، وبني حفص بتونس وبني نصر ملوك غرناطة. فأصبح ملوكها يحتفلون في الصنيع والدعوة وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب» (ابن خلدون: التعريف، ص 85).

المريني عهد تأسيس المديح النبوي بالمغرب، بعد أن عرف هذا النوع الجديد من المديح بداية في آخر العهد الموحي، وتطوراً مطرداً فيما بعد العهد المريني أي في عصر السعديين وزمن العلويين⁽¹⁾. وقد حذا حذو السعديين الدلائيون في زاويتهم، والسملاليون في إيليج، وانطلقت قرائح شعرائهم تبعد ما وسعها الإبداع، في رحاب المولديات مطنية مستفيضة⁽²⁾.

وقد يعزي شغف خطباء وأدباء وشعراء المغرب بالمديح النبوي، والاحتفال بمولد صاحبه - علي أفضل الصلاة وأزكى التسليم - إلى تعمقهم في الثقافة الدينية، وتمكن العقيدة الإسلامية من نفوسهم، واهتمامهم بالسيرة المحمدية، والتنافس في شرح معالمها وتفسير أدرارها، مما جعل كل القصائد المولدية والأمداح النبوية التي تتشد بالمناسبة، نشيداً يردده الأجداد ويرويه الأحفاد عبر عصور المغرب المتلاحقة⁽³⁾.

(1) يوعز بعض المحللين أن بداية انتشار هذا البني الشعري بالمغرب يرجع إلى السبب الآتي: ذلك أنه لما اشتد الزحف على الأندلس في القرنين السادس والسابع وهرع المسيحيون يحتفلون بميلاد المسيح عليه السلام، اضطر عدد من الشعراء إلى الهجرة إلى المغرب واتجهوا إلى مدح شخصية الرسول ﷺ تبركاً ليمن الله على المجاهدين بالنصر المبين، فتوالت المدائح النبوية ودونت في كثير من الدواوين الشعرية.

(2) يعد الشعراء الدلائيون أكثر إسهاباً في المولديات، إذ إن اهتمامهم بالأمداح النبوية كانت له علاقة بالظروف التاريخية الحرجة والمضطربة التي عاشوها بين العهدين السعدي والعلوي، بل منهم من قصر موهبته الشعرية فقط على المديح النبوي دون سواء كالدغوشي واليوسي ومحمد المرابط ومحمد بن محمد المرابط.. فالأمداح النبوية تشكل عندهم عاملاً أساسياً متجاوباً مع روح الزاوية الدلائية وأهدافها. (السقاط: الشعر الدلائلي، ص 112).

(3) لخص عبد الجواد السقاط بحث له عن نبويات أبي عبد الله المرابط الدلائلي عوامل انتشار المولديات في الأدب المغربي في ست نقاط: 1. تمكن العقيدة الإسلامية من المغاربة، 2. تعدد الطرق الصوفية التي تتخذ من الأمداح النبوية دعائمها الأساسية، 3. التأثر بالشعراء الذين مارسوا هذا اللون الشعري من القدماء كحسان بن ثابت وكعب بن زهير، 4. احتفال المغاربة بالمولد النبوي الشريف وتباري الشعراء فيه، 5. اتخاذ المغاربة سيرة الرسول ﷺ مثلاً أعلى في حياتهم، 6. طول المسافة التي تفصل المغرب عن مثنوى رسول الله ﷺ ومهد الدعوة الإسلامية (ع. الجواد السقاط: من نبويات أبي عبد الله المرابط الدلائلي - دعوة الحق عدد 256 - ماي 1986، ص 98). هذا ولم يهتم الشعراء فقط بمولد الرسول ﷺ وسيرته، بل اهتم به كثير من الأدباء والفقهاء الذين صنّفوا مصنفات مطولة في

فتحت هذه المناسبة «المولدية» للأدباء المغاربة ولشعرائهم، باباً عظيماً من الإبداع الأدبي، وسجلت دواوين من الشعر حافلة بأنواع القريض ورائع القصيد⁽¹⁾.

ويستهل شعراء المولديات قصائدهم غالباً بالحنين إلى البقاع المقدسة ثم يظهرون مكارم السيرة النبوية ووقائعها، مركزين على معجزات الرسول الأكرم ﷺ ومكارم أخلاقه وشمائله وفضائله ومواقفه وجهاده وغزواته في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله. ويشكل هذا القسم الهام من المولدية الغرض الأساسي منها.

ولما كان أمير المؤمنين في الدولة المغربية، وخصوصاً في عهد الأشرف السعديين والعلويين، امتداداً شرعياً للرسول عليه الصلاة والسلام ولسلطته الدينية - اعتباراً لنسبه الذي يربطه بالشجرة النبوية وبوراثته للخلافة الإسلامية - يتعرض الشاعر إلى مدح السلطان المغربي، (في ترابط وانسجام بين العصرين)،

السيرة النبوية، وذلك ككتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (وقد نظمها نظاماً أحمد اسكيريچ) وكتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» لأبي القاسم العزفي وكتاب «زهرة الحقائق وخلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق» لمحمد بن عبدالرحمن الدلائي (انظر في هذا الصدد «حول الأدب الإسلامي في المغرب» لعبدالجواد السقاط - مجلة الموقف عدد: 9 مارس 1989).

(1) من هؤلاء الشعراء المبرزين في هذا الباب وعلى سبيل المثال: القاضي عياض في العصر المرابطي، وميمون الخطابي في العصر الموحيدي (السالف الذكر) وابن المرحل صاحب «المعشرات النبوية»، - لاعتائنه الكبير بالمذائع النبوية - وابن رشيد السبتي، وأبو القاسم العزفي، و(أحمد ابن عبد المنان وابن الحاج وابن الخطيب) في العصر المريني، وأشهر مولدية لابن الخطيب هي التي أنشدها على لسان سلطانه الأمير الغني بالله محمد بن سلطان أبي الحجاج متشوقاً إلى مقام الرسول الأكرم ﷺ ومستعطفاً ومطلعها: دعاك بأقصى «المغربيين» غريب وأنت على بعد المازان قريب (المقري النفح، 65/9) ومن شعراء المولديات أيضاً: أبو محمد عبدالله بن علي بن طاهر الشريف (صاحب ديوان الأمداح النبوية) وأبو عبدالله المرابط الدلائي (وعبدالعزيز الفشتالي وأحمد بن القاضي وعلي بن منصور الشبظمي ومحمد بن علي الهوزالي) في العصر السعدي، وعبدالرحمن ابن عبدالقادر الفاسي، وعبدالكريم ابن زاكور، ومحمد بن الطيب العلمي (أصحاب دواوين الأمداح النبوية) (ومحمد ابن القاسم بن زاكور وحمدون بن الحاج وسليمان الحوات ومحمد بن أحمد الصنهاجي ومحمد ابن ادريس العمراوي) وغيرهم في العهد العلوي (المصدر السابق، ص 98-100).

ومن شديد اهتمام شعرائنا بالمولديات أيضاً أنهم عارضوا قصيدتي البردة والهمزية للبوصيري وذلك كمحمد بن زكري الفاسي، وأحمد بن الحاج، وحمدون بلحاج. كما قام بعض الأدباء بشرحهما كشرح البردة لسعيد بن سليمان السملالي، وشرح الهمزية لمحمد بن زكري الفاسي.

ويرسم صورة متكاملة لأعمال الجهادية لنصرة الدعوة الإسلامية، والدُود عن حرمة الإسلام والمسلمين وحمائهم من الظلم والفساد وقهر أعدائهم المعتدين.

وهكذا «يربط شعراء المولديات الماضي بالحاضر - كما يقول الدكتور عباس الجراري - ويستحضرون التاريخ وسيرة الرسول وأمجاد الإسلام والمسلمين، للنظر من خلالها إلى الواقع وإلى سيرة الملك الحاكم، في رصد لمنجزاته والإشادة ببطولته ومواقفه الجهادية». ويختتمون مولدياتهم «بالتحليق في أجواء الحنين والشكوى والرجاء» متوسلين، متشوقين لزيارة قبر الرسول ﷺ، والصلاة عليه وعلى أصحابه الأطهار.

وبذلك تجمع القصائد المولدية بين مديحين: مديح الرسول باعتباره المثال والقُدوة ومديح السلطان (أمير المؤمنين) باعتباره الداعي لما أمر به الله ورسوله، وتشكل «استجابة» للمناسبة الدينية و«ظاهرة» متميزة شكلاً ومضموناً في الأدب المغربي⁽¹⁾.

وقد تختلف هذه المولديات، من ناحية الشكل قوة وضعفاً، جودة ورداءة حين تصدر عن أدباء مبدعين أو فقهاء ناظمين. إلا أنها تتميز على العموم بسهولة التعبير ووضوح المعنى وخفة الأوزان⁽²⁾.

وبناء على ما سبق، كان شعراء بني مرين يعتبرون الاحتفال بالمولد النبوي في أيامهم موسماً أدبياً، يجمع رجال العلم والأدب. فيتبارون في إظهار مكارم السيرة

(1) عبدالله بن نصر العلوي: القصيدة المولدية بالمغرب، دعوة الحق، عدد 261، 1407 هـ / 1986م، ص 47.

(2) انظر في هذا الباب: د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج1، 162-163.

د. عباس الجراري: المولد النبوي في الأدب المغربي، مجلة المناهل، عدد 9، س 4، ص 33.

محمد المنوني: المولديات في الأدب المغربي، دعوة الحق، س 12، عدد 7، ص 62-65.

هذا وقد اعتبر بعض النقاد أن مصنفات السيرة النبوية ودواوين الأمداح النبوية والمولديات تعد فرعاً من فروع ما أسماه «بالأدب الإسلامي» الذي يشمل أيضاً أدب الجهاد والتصوف والزهد والابتهاالات، وما يتلى من قصائد في ختم دراسة المتون، و«ما ينظم من منظومات تعليمية لترسيخ المفاهيم الإسلامية في أذهان الطلاب». (عبدالجواد السقاط: حول الأدب الإسلامي بالمغرب، «المصدر السابق»)

النبوية، وأخلاق الرسول ﷺ، ومعجزاته النبوية، ثم يتطرقون إلى مدح الملوك المرينيين الذين كانوا يقيمون المواسم في بلاطاتهم من أجل إحيائها. وقد فتحت هذه المناسبة الدينية الجليلة للشعراء باباً جديداً من نشاطهم الأدبي، وأعطتهم فرصة أخرى لإنشاد مولدياتهم الرائعة البليغة الأسلوب، السامية المعاني، و«عدياتهم» الطنانة «الطويلة النفس»، ولإبراز «مهارتهم» في الصنعة والزخرف. وقد امتاز في هذا «اللون» من الشعر على الخصوص، الشعراء المقربون من الملوك المرينيين كابن خلدون وابن الخطيب وابن عبد المنان وابن الأحمر وغيرهم⁽¹⁾.

ونجد ضمن قصائد - المولديات هاته - أثناء مدحهم للملوك المرينيين الإشارة إلى ما وهبهم الله من شجاعة وحنكة عسكرية، وإلى ما وفقهم الله إليه من جهاد ونضال لأجل نصرة الرسالة المحمدية، وصد كل معتد أثيم على المقدسات الدينية. من ذلك يقول الكاتب أبو العباس أحمد ابن يحيى بن عبد المنان، في مولدية له رفعها ليلة عيد المولد النبوي إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي عنان فارس سنة 757 هـ، معارضاً بها قصيدة العالم الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس الحجري:

إِمَامٌ عَدِلٌ وَإِحْسَانٌ سَمَتْ شَرْفًا
فَرَوْعُهُ وَزَكَاةُ طَيْبٍ مَنَابِعُهُ
مَنْ عَصَبَةُ أَثَلُوا الْمَجْدَ التَّلِيدُ غُلًّا
وَدَوَّخُوا الْكُفْرَ فَاسْتَخَزَتْ بِوَاقِعُهُ

من عبد الحق ويعقوب ويوسف وعثمان وعلي وأبوفارس:

وَفَارِسُ الْبَأْسِ وَالْأَنْعَامِ مَنْ عَلِمَتْ
بِهِ الْمُلُوكُ مُذَلَّ الشَّرِكِ قَامِعُهُ
مَوْيِدُ الْأَمْرِ لَمْ تَحْجَمْ صَوَاهِلُهُ
يَوْمَ النَّزَالِ وَلَمْ تَكْهَمْ قَوَاطِعُهُ

(1) للمزيد من معرفة التفاصيل عن المولديات في العصر المريني، انظر: «مدخل شعر النبويات في العصر المريني لحسن شاهدي. دعوة الحق عدد 345 يوليو 1999.

ليث الحروب إذا ماجت كتائبها
غيثُ الجدوب وقد راعت طلائعُ
أبا عنان لك الخيرات من ملكٍ
عاصيه قد خاب لما فاز طائعه
أعليت دين الهدى لا زلت معتلياً
فعرّ أهلوهُ واستخذى مصاصه
بقيت للدين والدنيا تزينهما
والملك ما صدع الإنلام صاعده⁽¹⁾

وبعث ابن الخطيب لما كان مقيماً بسلا في ليلة عيد المولد النبوي من سنة 763 هـ بقصيدة إلى السلطان أبي سالم المريني، حملها له ابنه عبدالله الذي تولى إلقاءها أمامه. فبعد أن مدح الشاعر الرسول ﷺ تخلص لمدح ملوك بني مرين الذين لا تحصى مناقبهم، فهم المشهورون بالشجاعة والثبات وحماية الدين:

حَمَوْا وَهَمَّوْا فِي حَوْمَةِ الْبَاسِ وَالنَدَى
فَكَانُوا الْغِيُوْثَ الْمُسْتَهْلَةَ وَالْأَسَدَا

ثم يخص منهم أبا سالم بحميد الصفات العسكرية:

وَلِلَّهِ مَا قَدْ خَلَفُوا مِنْ خَلِيْفَةٍ
حَوَى الْإِرْثَ عَنْهُمْ وَالْوَصِيَّةَ وَالْعَهْدَا
وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ يَحْمِي حِمَى الْهَدَى
فِيكَفِي مَنْ اسْتَكْفَى وَيَعْدِي مَنْ اسْتَعْدَى
إِذَا مَا أَرَادَ الصَّعْبُ أَغْرَى بَنِيْلَهُ
صَدُورَ الْعَوَالِي وَالْمَطْهَمَةَ الْجَرْدَا
فَكَمْ مَعْتَدٍ أَرْدَى وَكَمْ تَائِهٍ هَدَى
وَكَمْ حَكْمَةٍ أَخْفَى وَكَمْ نَعْمَةٍ أَبْدَى

(1) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 316-326.

أبا سالم دين الإله بك اعتلى
أبا سالم ظلّ الإله بك امتدّا⁽¹⁾
قدم من دفاع الله تحت وقاية
كفاك بها أن تسحب الحلق السردا⁽²⁾

ويقول ابن خلدون كاتب السر والإنشاد لأبي سالم المريني في مولديه له، يمدح
بني مرين، بعد أن أطنب في مدح الرسول وعدد معجزاته:
ورثوا اعتساب البید عن آبائهم
إرث الخلافة في بني يعقوب
الطاعنون الخيل وهي عوابس
يغشى مثار النقع كل سبيب
والواهبون المقربات صوافنا
من كل خوار العنان لعوب
والمانعون الجار حتى عرضه
في منتدى الأعاء غير معيب
تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم
والعز شيمة مرتجى ومهيب⁽³⁾

وقال محمد ابن يحيى ابن عبدالله ابن محمد ابن أحمد العزفي السبتي، من
مولدية له يمدح المستعين بالله أبا سالم المريني لما زار سبته:

(1) يقول ابن الخطيب في مناسبة سابقة مادحاً أبا سالم لما آجره وآواه، موجها إليه نفس الخطاب:
أبا سالم دين الإله بك اعتلى وأيد ركن منه واعتز جانبه
دعا بابك الأعلى الفتوح فأقبلت أيمنع حظا والمهيمن واهبه
(ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 266، ديوان الصيب والجهام، ص 296).
(2) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 177. المقرئ: نفح الطيب، ج 9، ص 159.
(3) عبدالرحمن ابن خلدون: التعريف (تحقيق ابن تاووت)، ص 72-73.

أَتَانَا إِلَى الْغَرْبِ فِي شَوْكَةٍ
بِهَا عَادَ جَمْعُ الْأَعَادِي قَلِيلًا
وَفَوْقَ رُؤُوسِ الطَّغَاةِ انْتَضَى
حَسَامًا لِيَسْمَعَ فِيهَا صَلِيلًا
وَجَرَدَ مِنْ عَزْمِهِ مَرَهَقًا
لِحَسَمِ أُمُورِ الْمَنَاوِي صَقِيلًا
وَكُلَّ كَفُورٍ مَعَادَ لَهُ
سَيَأْخُذُهُ اللَّهُ أَخْذَا وَبِيلًا⁽¹⁾

وفي نفس المعنى يقول أبو القاسم ابن أبي زكرياء البرجي من مولدية له:

لَوْلَا الْخَلِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ لَانْبَهَمْتُ
طَرِيقَ الْمَعَالِي وَنَالَ الْمَلِكُ غَاصِبُهُ
وَخَلَّدَ اللَّهُ مَلِكَ الْمُسْتَعِينِ بِهِ
مُؤَيِّدَ الْأَمْرِ مِنْصُورًا كِتَائِبُهُ
وَفَازَ بِالْأَمْنِ مَحْبُورًا مَسَالِمُهُ
وَبَاءَ بِالْخِزْيِ مَقْهُورًا مُحَارِبُهُ
يَا خَيْرَ مَنْ خَلُصَتْ لِلَّهِ نِيَّتُهُ
فِي الْمَلِكِ أَوْ خُطِبَ الْعُلِيَاءُ خَاطِبُهُ
جَرَدَتْ وَالْفِتْنَةُ الشَّعْوَاءُ مَلْبَسُهُ
سَيْفًا مِنَ الْعِزْمِ لَا تَنْبُو مَضَارِبُهُ
وَخَضَّتْهَا غَيْرُ هِيَابٍ وَلَا وَكَلٍ
وَقَلَّمَا أَدْرَكَ الْمَطْلُوبُ هَائِبُهُ
صَبَرْتُ نَفْسًا لِعَقْبِي الصَّبْرَ حَامِدُهُ
وَالصَّبْرَ مَنْذَرًا كَانَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص 16-17.

فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره
أمن يواليه أو خوف يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه
تقضي بخفض مناويه قواضيه⁽¹⁾

وأنشد الفقيه الخطيب الكاتب عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي
الفاسي، يمدح أبا فارس عبدالعزيز المريني من مولدية طويلة. ومنها يعدد مناقب
الملك المريني الحربية:

هو للغواة شتاتها، هو للعفا
ة حياتها هو للعدة سهامها
في الليث من وثباته وثباته
شبهه يقر بفضلته ضرغامها
هذا وللخطى منها هولة
في الحرب تهزأ بالدروع سظامها
لك في الجهاد سريرة أخلصتها
لله فليُنشر عليك علامها
إن الفتوح عليك يخفق بندها
ولديك فيما ترتضيه قيامها⁽²⁾

ونظم ابن الأحمر مولدية مدح فيها السلطان أبا عامر عبدالله ابن أبي
العباس أحمد المريني، وقد رفعها له بالمدينة البيضاء بفاس سنة 799 هـ، لم يخرج
فيها الشاعر عن المعاني، التي سبق أن تطرق إليها الشعراء السابقون في مدح
ملوك بني مرين:

(1) ابن الخطيب: نقاضة الجراب، ص 386. المقري: النفع، ج 8، ص 182.

(2) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 243-245.

أبا عامرٍ كَعَّتْ لَدَيْكَ فَوَارِسُ
 بأشعارها في الحرب يرضى شعارها
 تغلبت فيهم باحتكام حماسة
 على قطبك السامي أدير مدارها
 وهل أحمد إلا حسام به العدا
 أبيدت مساعيهم وأذهب عارها
 ينبه مهما أيقظت حرب محرب
 لأن هو في حالاتها مستشارها⁽¹⁾

ونعود إلى لسان الدين ابن الخطيب في مولدية له أخرى، أنشدت في محفل
 من المحتفلين من رجالات بني مرين بشالة (سلا)، مطلعها:
 إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه
 كفاني وحسبي أن يهب نسيمه
 ثم يتخلص لمَدح الملوك المرينيين:
 أئمة عدل أوضحوا سبل الهدى
 وسحب نوالٍ لا تشج غيومه
 وأسد جهادٍ أذعننت لسيوفهم
 جلالقة الثغر الغريب ورومه
 فلولا هم يا خير من سكن الحمى
 لريع حماء واستبيح حريمه⁽²⁾

(1) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان، ص 381-382.
 (2) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 125-126. ويذكر المقرئ في نفح الطيب ج9، ص 58-59) الذي
 أورد أبياتاً أخرى من هذه المولدية أن ابن الخطيب أرسل هذه القصيدة عن السلطان أبي الحجاج
 يوسف ابن نصر إلى قبر الرسول ﷺ. إذ كان من عادة الكتاب والشعراء المغاربة والأندلسيين أن
 يبعثوا بقصائدهم الشعرية ورسائلهم الأدبية لتقرأ على قبر الرسول. وتعد هذه المولدية «الخطيبية»
 نموذجاً لذلك.

هولاء هم ملوك بني مرين - ليوث العرين - كما وصفهم شعراؤهم في مولدياتهم:

بنو مرين ليوث في عرين أبوا
رؤيا قرين لهم في البأس والكرم
النازلين من البيضاء وسط الحمى
أحمى من الأبلق السامي ومن إرم⁽¹⁾
والجانسين بدهم الخيل كل ذرى
والداعسين بسمر الخط كل كمي
يريك فارسهم إن هزّ عامله
في مازق بلظى الهيجاء مضطرم
وإن يلثمهم يوم الوغى وهج
أنسوك ما ذكروه عن ذوي اللثم⁽²⁾

ويرجع عبدالجواد السقاط عوامل انتشار قصيدة المديح النبوية في البلاط المريني، والتشجيع الرسمي على نظمها والترغيب فيها إلى:

- أن المديح النبوي هو موضوع تقليدي في المغرب بدءاً من المرابطين فالموحدين ووصولاً إلى المرينيين وإلى أنه وجه من وجوه الثقافة الدينية التي كانت غالبية في العصر المريني، وإلى كونه يبيث روح الحماس في صدور المجاهدين المغاربة - إسوة بالرسول ﷺ وجنوده - سيما وأن العهد المريني عرف «موجة من المعارك

(1) البيضاء: فاس الجديدة.

(2) هذه الأبيات هي من القصيدة التي بعث بها أبو عبدالله ابن الأحمر، بعد نكبة الأندلس، إلى الشيخ الوطاسي سلطان فاس. وهي من نظم محمد بن عبدالله العقيلي، وتسمى: «بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة الفريدة. (المقري: أزهار الرياض، ج1، ص76).

والمواجهات الجهادية»، وإلى كونه يعتبر وسيلة لبث الروح الإسلامية في بساطتها وعفويتها حسب منهجية المذهب المالكي⁽¹⁾.

ولقد كان الشعراء السعديون كذلك مجندين في كل مناسبة: انتصار على الأعداء، فتح مصر جديد، تحرير ثغر من الثغور، بناء قصر بديع، رحلة ميمونة موفقة - ليسمعوا صوته عالياً منشدين وممجدين ومشيدين بخصال ولي نعمتهم أحمد المنصور الهذبي، قائد الفاتحين وقاهر المتمردين، البطل المغوار والمجاهد السامي المقدار، والمشيّد لكل مجد وفخر، والحامي لحملی الإسلام والعقيدة في هذه الديار. فلما أحدث المنصور «عادة خاصة» في الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، حيث يجتمع في رحال قصره بمراكش بهذه المناسبة الصلحاء والفقهاء والعلماء من مختلف بقاع المغرب وحتى من «الأقطار الشاسعة»، كان شعراؤه يفتنونها فرصة سانحة مجيدة، لينشدوا في الحضرة السنية⁽²⁾. روائع قصيدتهم في ذكرى مولد الرسول الأعظم ﷺ، ثم يتخلصون إلى مدح سبطه وسليله أحمد المنصور السعدي «أيده الله وأنجده»⁽³⁾.

(1) قصيدة المديح في العصر المريني، دعوة الحق، عدد 277، ص 94.

(2) حضر أبو العباس أحمد المقرئ جميع الحفلات التي أقامها السلطان السعدي احتفاءً بالمولد النبوي الكريم سنة 1010 هـ. ولقد عاش المقرئ في رعاية المنصور متقلّباً بين مراكش وفاس وتلمسان. وأورد في كتابه: «روضة الآس العاطرة الأنفاس» مجموعة من القصائد والأشعار التي نظمت في مدح ملوك الدولة السعدية. وقد أهداه إلى الخزانة الأحمديّة المنصورية عند ارتحاله سنة 1011 هـ. وقد نظم المقرئ بعض أشعاره في المدافع ووصفها - بأمر من المأمون بن المنصور الذهبي، منها يتحدث على لسانها:

بديع شكلي وفعلي في الوغى رفعا	قدري على البيت والأقواس والأسل
ولأعادي الإمام الشيخ صغت فلا	أنفك أرميهم بالحتف من عجل
وأنا التي فقت السلام بأسرها	تصمى عدا الشيخ الإمام مضاري
مهما ربوت إلى الكمات بسطوتي	يلقون من الموت ضربة لازب

(المقرئ: روضة الآس، ص 78).

(3) كان يتقدم الشعراء في هذا الحفل: قاضي الجماعة قاسم ابن علي الشاطبي، ثم يأتي بعده: الإمام المفتي عبدالواحد بن أحمد الشريف الفيلاي، ثم الوزير علي بن منصور الشياظمي، ثم الكاتب عبدالعزيز الفشتالي، ثم الكاتب محمد بن علي الفشتالي، ويليهِ الأديب محمد بن علي الهوزالي، ثم الفقيه الأديب علي ابن أحمد المسفيوي. وبذلك يطوي بساط القصائد. (اليفرنى: نزهة الحادي، ص 146).

وكان المنصور نفسه يشجع شعراء على الإنشاد في أهل البيت، الذي تنتمي إليه أسرته السعدية، والتباهي بعظمة ملكه وقوة جنوده، «وهو الملك الذي يعجبه التباهي وتخلبه المظاهر ويحرص على أن يخترق ذكره الحدود. ثم إنه كان على حظ كبير في تذوق الأدب وقول الشعر، حتى كان عصره ذهبياً في أدبه، وحتى قال عنه شيخه المنجور: «إنه عالم الخلفاء وخليفة العلماء»⁽¹⁾.

فكانت المولديات أهم ما زخر به شعر الشعراء في عهده الذهبي، سيما أنه كانت بطولته في توسيع رقعة العالم الإسلامي في «بلاد السود»، وفي تحريره بلاده من الغزو المسيحي، وفي انتصاره على كل متمرّد، أعظم حافز للشعراء على تمجيد خصاله المثلى في هذه المناسبة الدينية الكبرى، والمناسبة شرط كما يقال.

فمن تلك القصائد الفيحاء قصيدة مفتي مراكش أبي مالك سيدي عبدالواحد الحسن السجلماسي، الذي نظم أشعاراً كثيرة في المنصور بمناسبة المواسم والفتوحات.

ففي هذه القصيدة بعد مدح الرسول الأكرم أشاد بالمنصور وبهيئته التي من أجلها دانت لسلطوتها الأقاليم وقبائلها:

أَجَلُّ مَنْ قَدْ أَقَامَ رَسْمَ مَمْلَكَةٍ
بصارمٍ من سيوفِ الهندِ بَتَّارِ
أَذَلُّ كُلِّ مُلِكٍ بِمَهَابَتِهِ
وَأَخْمَدُ الْكُلِّ مِنْ بَاعِ وَشَوَّارِ
في السلمِ سهلٌ وفي يومِ الوغَى خَشِنٌ
في عسكرٍ من ليوثِ الغارِ جرَّارِ
يهتز كالنصلِ إن دعي لمكرمةٍ
أو حادث جَلَلٍ في الأرضِ ضَرَّارِ

(1) لفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ص 78.

بسيّفه وبسيّبه جرى مثل
لله من مثل في الأرض سيّار
هذي الأقاليم قد دانت لسطوته
لتأمننْ غبِ إعدارٍ وإنذار⁽¹⁾

ولفقيهنّا البليغ مولدية أخرى يمدح المنصور، الذي حمى الإسلام بسيوفه
وقهر الأعداء بأجناده في وقائع حامية الوطيس، منها:
إمامٌ حمى الإسلام قائمٌ سيفه
وروّع أرضَ الشريكِ فهني بلاقع
سقاهاهم بكأسٍ ما سقوا قَطُّ مثله
هو السم في أمعائهم وهو ناقع
وألبسهم ثوب المذلة قاهرًا
وهدت بهم ديارهم والصوامع
فكم مركب من كيدهم ركبوا لنا
لعيق وصدوا وانثنى وهو ضائع
شأبيب بأسٍ من ديه عليهم
تصب انصبابا فهي فيهم هوامع
إذا ما الملوك شيببتهم وقعةً
فمن خوفكم مولاي شابت وقائع
فكم لكم من موقف عنه أحجمت
ملوك الورى وعاقها عنه مانع
فنحن بكم في مأمِنٍ أيّ مأمِن
كَفَيْتِ عدوا فاطمأنت مضاجع

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 6.

أنت الرعايا في ظلالٍ ظليّةٍ

وسيفك بتّار ورمحك شارع⁽¹⁾

ولشاعر أيضًا مولدية له أنشدها بين يدي المنصور في مولد عام 1009 هـ،
لا تخرج في معانيها عن سابقاتها:

ليث الكتائب من يرفرف فوقه

في الحرب للنصر العزيز لواء

والقائد الجيش العرمم والذي

في ظلمة النقعاء له لألاء

إن أومضت يومًا بروق سيوفه

سحّ على الأعداء منه فناء

كم أورد البيض الرقراق طلى العدا

وسقى الدماء السمروهي ظماء

يأتي الوغي مبتسمًا فكانما

قاني النجيع عنده صهباء

إلى أن يقول:

هذا الذي للكفر من سطواته

في كل وقت رنة وبكاء

هذا مُذل الروم في أوطانها

هذا الذي تعنوله الأمراء

هذا الذي بسنانه وخُسامه

نصر الهدى وأقيمت السمحاء

(1) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 265 (ت: كنون).

هذا الذي في كَفِّهِ للمعتدي
داءٌ وفيهِ للعُفاةِ دواءٌ
قد أصبحت حمراءُ مراکش بكمٍ
من بعدما طال عليها عفاءُ
تعنو البيضاء والسوداءُ
والشهباء والخضراء والزوراء⁽¹⁾

ولأبي القاسم بن علي الشاطبي قاضي الجماعة بمراكش في مدح أبي العباس المنصور من مولدية له، مبرزاً خصاله العسكرية وخطواته على أعدائه وفتوحاته الخالدة.

هذا الذي عرف العدا سطواته
فحذار منه الضيغم الضرغاما
هذا الذي وعد الإله بأنه
يطوي البلاد ويفتح الأهراما
فإذا تغلق باب أرض دونه
بعث المقالد لهذماً وحساما
وكتائب علوية قد صاعت
جمع الأعادي مفرداً وتؤاما
إن تنفتح بالرعد ألسن نارها
تتلولك الفتحة المبين ختاماً
ثم يخاطب شاعرنا بمدوحه العظيم بقوله:
يا مشبه المهدي في أرائه
حزماً وفي كراته إقداماً

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 194-195. البيضاء: لقب دار الملك بافس، والسوداء: لقب حاضرة السودان، والشهباء لقب حلب، والخضراء: لقب تونس، والزوراء لقب بغداد. ويوميء الشاعر إلى تفوق مراكش على الحواضر الإسلامية الأخرى.

أنت الذي عرف الجهاد ثباته
ورسوخه يوم الوغى إقداما
لا يعدون النصر سيف إنه
سيف يحوط الدين والإسلام⁽¹⁾

ولأبي عبدالله محمد بن علي الفشتالي من مولدية له في ذكر جهاد المنصور
بوقعه وادي المخازن، ودفاعه عن الإسلام ضد أعدائه من حملة الصليب وعباده:
ألسنت الذي بترت يد العدا وأرغمت
سيوفك أنفًا كان فيها عرام؟
وجردت في ذات الإله صوارمًا
تصول بها والعاجزون نيام
ضربت بها التثليث للحتف ضربةً
فلم يبق بعد للصليب قيام
وأمطرت وابلًا «بالمخارن» قطره
بموت الأعادي بنندق وسهام
فكم لك من سيول مراكبٍ
طلعت بها كالبدرف فيه تمام
وحولك عقبان الكماة تساقطت
لبطشتها يوم الأعادي وهام
عوامل تبدي الفتح بعد خفائه
وتصحبها عند النواصب لام⁽²⁾

(1) الناصري: الاستقصا، ج5، ص 154. نسب الإفراني هذه القصيدة في نزهة الحادي لأبي القاسم محمد بن علي الشيطمي ص 149 وما بعدها) ونسبها الفشتالي لنفسه في مناهله (ص 286 وما بعدها) ويبدو لنجاة المريني أن نسبه للشاعر الفشتالي أقرب إلى الصواب وفعلًا نسبتهما إليه (عبدالعزیز الفشتالي، شعر ص 250 و393).

(2) مما يبرهن على تضلع شاعرنا في اللغة والمنطق استعماله للتورية النحوية في البيت السابع والتورية المنطقية في البيت العاشر (انظر فصل الخصائص الفنية: في التورية اللغوية والنحوية).

ولاح وميض المرهفات كأنه
وميض نجوم والدياجي قتام
فأبرزت فتحًا دوخ الأرض صيته
وزين أشتات المعالي نظام
إذا للعدا ألفت عزماً ومرهفاً
فإن نتيجة القياس حمام⁽¹⁾
ولشاعرنا، صاحب الإنشاء والقريض، محمد بن علي الفشتالي أيضاً مولدية
له، مطلعها:

أسرارٌ وجدك من جفونك تُعلمُ
ولسانٌ دمعك عن هواك مُترجِمُ
ملك ترى الأملاك خاضعة له
لتحوز عزا من حماه يقسم
وَدَّتْ عداه أن تكون رعيةً
أخذا من الرأي بما هو أحزم
طلعت شمس الدين في أفق العلا
بك وانثنى للشرك ليل مظلم
طود يلوذ بعزة وبعده
دين الرسول من الفساد فيعصم
أنت الذي بكر الخلافة حزتها
في مأزق فيه القنا يتحطم
ولبوس بأسك في المخازن أردت
وسط المخازن بستيان الأشمام⁽²⁾

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 8-9.

(2) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 244-246 (تحقيق كريم).

ولأبي فارس عبدالعزيز الفشتالي «وزير القلم الأعلى الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى»، من مولديته المشهورة (السالفة الذكر)⁽¹⁾ «وهي من أعظم المولديات سراوة وأكثرها سيرورة» - يمدح المنصور في ليلة عيد المولد - التي من شأن خليفة الله أن يحتفل لها غاية الاحتفال ، وينوه بخصاله العسكرية وببطولته المثالية، كما كان يفعل ابن الخطيب مع ملوك بني الأحمر، وابن مرزوق مع ملوك بني مرين.

يقول الفشتالي - بعد مدح الرسول - في حفيده المنصور:

هَزْبَرُ إِذَا زَارَ الْبِلَادَ زُيْرُهُ
تَضَاعِلَ فِي أَخْيَاسِهَا أَسَدُ خَفَانِ
قَضَى اللَّهُ فِي عَلَيْكَ أَنْ تَمْلِكَ الدُّنَا
وَتَفْتَحَهَا مَا بَيْنَ سَوْسٍ وَسُودَانِ
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا مَا رُفِعَتْ سِمَاكُهُ
عَلَى عَمَدِ السَّمَرِ الطُّوْلِ وَمِرَانِ⁽²⁾

وللفشتالي في مولدية أخرى يقول فيها معدداً مناقب المنصور الذهبي الجهادية وفتوحاته الفواتح:

لَدَى أَوْحَدِ الدُّنْيَا الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ
طَوَاغِيَتُهَا: أُرُومُهَا وَزَنُوجُ
وَأَدْرَكَتِ الرِّيَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَمَا
ذَوِي بَرِيَاضِ الْمَجْدِ مِنْهَا وَشِيحُ

(1) ورد ذكر هذه القصيدة في الفصل المتعلق بالدفاع عن الوطن ورد العدوان عن الحديث عن بلاء المنصور الذهبي في وقعة وادي المخازم وتهنئته بالنصر المبين ونأتي هنا بأبيات أخرى منها في مدح المنصور.

(2) الفشتالي: مناهل الصفا، ص 123-125 (ت: كريم) عبدالله كنون: الذكريات، الفشتالي، عدد 1، ص 52.

وانقذ بالسيف المهند تاجها
على حين كادت تقتنيه علوج
وجدل طاغوت العدا وجموعه
وللنمل فوق الأرض منهم دجيج
بيوم غدا ثغر الهدى فيه باسما
وصدر القنا بالطعن فيه بهيج
فتوح أمير المؤمنين فواتح
لها في جبين المجد منك بلوج⁽¹⁾
ويقول من مولدية أخرى في مدح حفيد الرسول المنصور الفتاح، «أعلى الله
أواصره وأدام نصره»:

خير الخلائق أحمد المنصور من
أربى على الأضداد والأنداد
وأجل من خضعت لسطوة سيفه
وهو الغلوب ملوك كل البلاد
فتأاح أمصار البلاد بعزيمة
فرقت لها الأسياف في الأغمد
وموطد لمالك من حسنها
كالعين حفاً بياضها بسواد
بكتائب علوية بسيوفها
وركان بندقها كبرق غواد
هو محمد الأهوال بعد هياجها
هو صالح الأيام بعد فساد

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 125-127.

من معشر فضلوا الأنعام فمنهم

مهديها الأهدى ومنها الهادي⁽¹⁾

وينشد الفشتالي من مولدية أخرى، في مدح ولي نعمته المنصور الذهبي
مرددًا ما سبق له أن ضمنه مولدياته السابقة، من أوصاف وخصال محمودة في
ميدان النضال والكفاح:

خيرٌ إمامٍ له في كل جريحة
حبلٌ من الود مربوطٌ إلى الخلدِ
ليث له من قناه الغيل يسكنه
ومن بنيه الأسود كل ذي لبد
من معشرٍ إن يكن عدنان أصلهمُ
فهم لعدنان أصل المجد والسؤدد
فإن تسالمهم فهم بنو حسن
وإن تحاربهم فهو بنو أسد
له الرماح التي إن هز عاملها
لم يثنهن نسيج الدرع والزرذ
إن أشرعتها يد منه مؤيدةُ
أقمن ما في عصي الدهر من أود
روح سيوفك من دم العدا زمنًا
فكل جفنٍ لها يشكو من الرمد
وما ورا السود إلا السد تفتحه
بجيش نصر له الأقدار من مدد⁽²⁾

(1) المصدر السابق، ص 117.

(2) الفشتالي: المناهل، ص 232 (ت: كنون)

ويقول من مولدية أخرى في المنصور السعدي صاحب «السيف الخطيب»:

وقام سيفكم خطيباً لهم
فأهطعوا من كل فج عميق
لـواؤك المنصور مهما سما
يلقاك وجه الفتح وهو طليق
دمت عزيز الأمر في غلظة
على العدا بكل غضب رقيق
تجلو على كؤوس الردى
من سكرها المثلث لا يستفيق⁽¹⁾

ويقول من مولدية له، يحمد ما يفعله المنصور بسيفه للدفاع عن بلاده:

أسيفه الحمر تـركـن الهدى
ذا ساحة خضرا وبُـرْدُ أنيق
ذو عزيمة قد قصرت قيصر
وغادرت كسرى كسير الفريق
والروم والآتراك قد حملت
من مضض الأهوال مالا تطيق
لا زلت طو الملك ركن العُلا
يخدمك الفتح بوجه طليق⁽²⁾

ولأبي الحسن علي ابن المنصور الشيعي المراكشي همزية رائعة، نظمها
بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي، مدح فيها المنصور السعدي وعدد فتوحاته
الخالدة:

(1) المقرئ: روضة الآس، ص 115.

(2) الفشتالي: المناهل، ص 267 (ت: كريم).

الصارمُ الهنديُّ في يمنى الهدى
 والكوكب الوضاء في الظلماءِ
 والمرسل النقع المصعد في الوغى
 سيحاً وصيبه دم الأعداء
 قد عود المنصور منه سيوفه
 ورماحه أيا يفى بجناء
 وبعدهما يعدد الشاعر فتوحات المنصور يخاطبه قائلاً:
 يا أيها الملك الذي بسيوفه
 حاط الهدى وبرأيه الوضاء
 وقضى له السعد المقيم على العدا
 أن يملك القربا مع البعداء
 فاضرب بسيفك ذا الفقار طلى العدا
 فالسعد يفصل بالضمان قضائي
 لا بد من فتحٍ يروقك واضح
 كالصبح يدرأ في نحور عداء⁽¹⁾

هكذا كانت حفلات عيد المولد النبوي الشريف، حافزاً للشعراء السعديين
 لإحياء ذكريات المجد والعظمة والفتوحات والانتصارات الخالدة التي حققها الملك
 الطموح والبطل المغوار والمجاهد الكبير أبو العباس أحمد المنصور الذهبي. وكان
 هؤلاء الشعراء يحاولون بمولدياتهم «ربط الماضي بالحاضر واستحضار التاريخ

(1) الفشتالي: المناهل، ص 279-280 (ت: كنون) وللشيطمي مولدية أخرى ذكر فيها بمواقف المنصور
 الخالدة في وقعته الكبرى:

وقبيلتهم تركت عساكر قبصر	بالقصر هلكي بالرماد الأرمد
في مأتم تلقى الرؤوس به الظبا	فتخر ساجدة لهيبة أحمد
(الفشتالي: المناهل، ص 240، ت: كريم).	

وحياة الرسول وأمجاد الإسلام للنظر من خلالها إلى الواقع وإلى سيرة الحاكم⁽¹⁾ (كما سبقَت الإشارة إلى ذلك في أول هذا الفصل) ويستغلون مناسبة إنشادها لإيقاظ حمية المنصور السعدي لاسترداد الفردوس المفقود، وللدفاع عن حوزة البلاد المهددة بالاحتلال.

وقد سن شاعر المولى سليمان أبو الربيع سليمان الحوات، سنة إنشاد المولديات بمناسبة حلول عيد المولد النبوي الشريف، فبعدما يمدح الرسول الأكرم ﷺ، يتخلص شاعرنا للإشادة بشهامة المولى سليمان وانتصاره على أعدائه المتمردين.

من ذلك قوله في مولدية له مطلعها:

(أيلة مولى الرسول التي تسري

بأطيب نسمة من العنبر الشحر)

يمدح المولى سليمان ويشيد بشجاعته وبطولته:

وأثبتهم في الحرب جأشاً وجيشة

إذا نارها شبّت يسير على الجمر

فيقتحم الأعداء في كل معقل

ويأخذهم بالقتل والنهب والأسر

ونسوتهم يبكينهم بتحسر

كما بكت الخنساء قبل على صخر

فلا ملك على البسيطة غيره

يؤمن من خوف ويجبر من كسر

وقد ملك السوسين أدنى ببيعة

وأقضى إلى السودان بالغلب القهر

(1) د. عباس الجراري، الأدب المغربي، ص 146.

وتخشاه حتى الأسد وسط عرينها
 ويأتيه نصرُ الله من حيث لا يدرى
 ويفتح كل ما تعسر فتحه
 ويطفئ نار البغي والظلم والغدر
 يسوق جيوشاً لا يُشَقُّ غبارها
 كريح تثير السحب في مهبط القطر
 فزلفى لمن عمته رحمة ملكه
 وخصته بالحسنى إلى آخر العمر⁽¹⁾

وقد تعرض الشاعر حمدون بن الحاج المرداسي أيضاً في مولدياته إلى مدح
 المولى سليمان، وحثه على قبول توبة بعض القبائل التي عثت في الأرض فساداً.
 يقول من مولدية له:

ادفع عدوك بالتّي وإن جنحوا
 للسّلم فاجنح لها فالسّلم مسؤول

(1) الأمداح السلیمانیة، م.خ.ج، ص 97-103. وقد تعرض الحوات في مولدياته الأخرى إلى مدح ولي
 نعمته المولى سليمان بأبيات قليلة كقوله:

ورث الخلافة عن خلائف رشد	سيف الفتوحات سليمان الذي
شهم سعيد غالب متأيد	بطل مظفر جواد حازم
لم تبق شغلا في الفساد لشاغل	وكثارت عنه الفتوحات التي
ما بين صارع لهم أو قاتل	وجيوشه كالأسد تفترس العدا
يوم الوغى من راكب أو راجل	الله أكبر كم يجزر وراءه
بالحسام والعلم والعرفان	وكتوبله: جدد الآن الدين فرضا ونفلا
وكسا المعتدين ثوب الهوان	طوع المغربين سهلا ووعدرا
دخلوا تحت حكمه السلطاني	وتمنى أهل المشارق أن لو
ر لأهل الشقاق والطغیان	فهو ناصر جنده كلما سا
هيه كان من أعظم الشجعان	ليس يقواه في الحروب عدو

(انظر هذه المولديات في المصدر السابق. وبرسالة الحيمر عن «الأمداح السلیمانیة»)

يا أيها الملك المأمول نصرته
وبيته بكمال الأنس مأهول
أبشر بملكٍ عظيمٍ غيرٍ منكسرٍ
إلا العدو به والفتح مأمول
وشمس سيفك نار الله موقدةً
فيهم وإن كان أضحى وهو مشمول
والسيف فيهم فاعل بحدته
ما يفعل الطرف فينا وهو مكحول⁽¹⁾

ولحمدون بن الحاج مولديات أخرى - غرضها الرئيس هو الإطناب في مدح
السلطان وذم أعدائه - منها الرائية السالفة الذكر في فصل المديح التي يعارض
بها قصيدة ابن الخطيب، ورائية ثانية يقول منها في مدح المولى سليمان:
ملكٌ حباه الله مُلكاً مسدداً
وعلماً وفضلاً ما لأفنانه حصرُ
رقى بك سعدالدين في أوج سؤدد
مراقبي مجد ليس يلحقها سير
و«إننا لنرجو فوق ذلك مظهراً»
إلى أن يعود الأمر أمرك لاغير
وتحصّد أعداءً بمنجلٍ لهزم
بأيدي جيوش كلهم في الوغى صبر
ومن حاد عن نهج الطريقة واعتدى
يسلسله رعبٌ مسيرته شهر⁽²⁾

(1) حمدون بالحاج: النوافح الغالية، م.خ.ج، ص 161-163. النوافح الغالية، ت: العراقي، ص 354-355.

(2) النوافح الغالية، ت: العراقي، ص 208.

وقد سار شاعر دولة العلويين محمد ابن إدريس العمراوي على نفس النهج
في نظم مولدياته. فبعدما يمدح الرسول الأكرم ﷺ يتخلص شاعرنا إلى مدح
سلطانة أي زيد المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي، داعياً له ومتضرعاً إلى العلي
القدير بأن يشد أزره ويثبت أقدامه وينصر أعلامه.

من ذلك مولدية له يتشفع فيها للنبي الكريم بأن يعين حفيده «بجنود النصر»،
ليحامي دينه من فتك الأعداء الباغين المعتدين:

فامنن علينا بأمنٍ يا ابن أمانةٍ
من كل نائبةٍ في الدهر تخشاها
فابعث إليه جنود النصر تصحبه
حتى يزيل من الأوغاد طغواها
فالدين دينك أضحى في كفالتة
يذود عند العدا دأباً ويلقاها
ولم تزل ملة الإسلام في كنفٍ
عالي الذرى من علاه فيه منجاها
ما زال يركض في آثار أسرته
يحمي مآثرهم حتى تعدّاه
فما تهيب بحر الهول يركبُه
ولا تجئب نار الحرب يصلها

ثم يخاطبه:

وشردت كل باغ الزيع صولته
فأصبحوا للنعام الربد أشباها

أولى فللسيف أو للسبي غايتها

لا أسعد الله قتلها وأسراها⁽¹⁾

ويقول شاعرنا في مولدية له أخرى، داعياً مخاطبيه بأن يخلصوا للسلطان الدعوات، لأنه حامي الدين والمدافع الأمين عن هذه الديار المغربية:

وَلتُخْلِصُوا دَعَوَاتِكُمْ لِإِمَامِكُمْ

شكراً لبعض حقوقه تقريبا

فهو الذي قد حاط حوزة دينكم

ورعاكم من رعيه المطلوب

وكسا حماة الدين ضافي برّه

وغدا العدو بسيفه مسلوبا

أمضى لنصر الدين ماضي عزمه

وكفاكم المكروه والمرهوبا⁽²⁾

ويدعو في مولدية أخرى - بعد مدح الرسول ﷺ مبتهلاً إلى الهادي الشفيع بأن يكفي المغاربة كيد الأعداء ويمحقهم محققاً، وينصر أمير المؤمنين على رأس كتائب الجهاد والنضال ليحرر الثغور:

يا ربُّ بالهادي الشفيع وآله

والصحب والأتباع والأنصار

حطنا وعاملنا بلطفك واكفنا

كيد العدو وصولة الكفار

وأدر عليه دوائرًا حتى يرى

جزر الصوارم والقنا الخطار

(1) محمد الحجوي: اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، م.خ.ع، ص 398-399. ديوان العمراوي: ت: شهيد، ص 393-394.

(2) العمراوي: الديوان، ص 44، شهيد: ديوان العمراوي، ص 141.

ولتهلك الأشراك في إشراكه
وأنقهم عزماً بوار وبار
ولتمج من أرض الهدى أنجاسه
بتردد النكبات والأخطار
حتى ترى تلك الثغور بواسما
بالفتح معلنة بشكر الباري
وانصر أمير المؤمنين وأوليه
منك العلا في الورد والإصدار
فلقد أعزّ الدين في أيامه
بعناية وكفّ أذى الكفار⁽¹⁾

وقد أنشد الشاعر محمد بن أحمد أكنسوس السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام مولدية، نظمها على نسق «بانت سعاد» لكعب بن زهير، وزناً وقافية وأبان فيها عن قوة عارضته، وعلو نفسه، وحسن تصرفه في الأغراض الشعرية، مطلعها:

عهدي بكم جيرة البطحاء موصول
يا ناسي العهد إن العهد مسؤول

قال فيها بعد أن مدح سيد المخلوقات مشيداً بجهاد السلطان وكفاحه المرير:

هذا حفيدك سلطان الملوك أبو
زيد بن نصر الدين مشغول
ما زال مجتهداً في الله منتصراً
بالله والسيف في يمناء مسلول
فهو المؤمل للسماح بجددها
من بعدما عز للتجديد تأهيل

(1) المصدر السابق، ص 204-205، شهيد ديوان العمراوي، ص 211.

وهو الذي سُنَّه المختار قد حيثُ
 به وقد سامها وهُنْ وتعطيلُ
 وبأسه في ديار الكفر صاعقةُ
 فيها لحزب ذوي الأهواء تنكيل
 إن سار يوماً إلي الهيجاء تتبعهُ
 أجناد جرد بأبابيل أبابيل
 من كد أروع في إقدامه بطر
 وسيفه من قراع الهام مفلول
 يجرها كعديد الطيس عابسةُ
 وما له غير وجه الله مأمول
 يعني به النصر لا ينفك يلزمه
 كأنه علّة والنصر معلول
 من أسرة زين الأقطار ملكهم
 كأن ملكهم تاج وإكليل
 بنو علي أدام الله عزهم
 فهم لمغربنا عز وتأصيل⁽¹⁾

(1) محمد أكنسوس: الجيش العرمرم، ج2، ص 45. ع: كنون: الذكريات: أكنسوس، عدد 4، ص 21
 ولشاعرنا عدة مولديات طرق فيها نفس المعاني، منها مولدية نونية عارض بها قصيدة عبدالعزيز
 الفشتالي:

(هم سلبوني الصبر والصبر من شأني	وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني)
يقول منها: إمام تولى اليمن رفع لوائه	فما أن له في رفعة الشأن ثاني
أقام عماد الدين بعد ازواره	وطهره من كل ظلم وعدوان
فأصبح منصور البنود مهنتاً	بخير كفيل من ذوائب عدنن
له هيبة تسري لكل مساور	فتتركه في زي أضعف نسوان
وأسيافه في المعتدين فواتك	وهن خواف في غمود وأجفان
لقي رضى الرحمن عنا لأننا	رعايا لمن يرضيه عابد الرحمن

(محمد غريط: فواصل الجمان، ص 20. وذكر المؤلف في ص 22 أن هذه القصيدة لصديقه الوزير
 ابن إدريس ولعل أكنسوس أشدها نيابة عنه)

وفي غمرة المأساة التي عاشها المغرب عقب أحداث معركة وادي إيسلي بعث السلطان المولى عبدالرحمن ولديه إلى البقاع المقدسة، وأمر محمد أكنسوس أن ينظم قصيدة في المديح النبوي مخللة بالتوسلات والابتهالات، يحملها الأميران معهما لتتشد أمام الضريح النبوي.

فقال محمد أكنسوس في هذه القصيدة على لسان السلطان العلوي بعد مدح الرسول على الصلاة والسلام:

إليك رسول الله من أرض مغربٍ
عن المذنب الجاني أتيتك شاكيًا
عن ابن هشام الذي ليس يرتجي
سواك فحقق فيك ما كان راجيا
يحاول إصلاحًا لأمتك التي
رجوناك تنفي عن جِماك الأعاديا
رجوناك تكفيننا المخاوف كلها
فمازلت في كل المخاوف كافيا
رجونا لديك النصر في كل حالةٍ
على من عدا بالبغي في الناس باغيا
رجوناك ترعانا من الفتن التي
غدا أهلها فيها الأسود الضواريا⁽¹⁾

وقال العماروي من مولدية أخرى (أشرنا إليها في آخر فصل الداع عن الوطن ورد العدوان الخارجي)، داعيًا متشفعًا للرسول ﷺ باسم السلطان العلوي أبي زيد، بأن يصد الله عنهم كيد عصابة الكفر المتريضة بهم، وينصرهم بنصر من عنده:

(1) محمد أكنسوس: الجيش العرمزم، ج2، ص27. ونسب ابن زيدان هذه المولدية للوزير ابن إدريس العماروي في الاتحاف، ج5، ص268-270.

سلامٌ كريمٌ وافِرٌ مُتواترٌ
به تُملأُ الغبراءُ بالطيبِ والخضرا
من السائلِ اللاجي إلى بابِ فضلهِ
يؤمل في الدنيا الشفاعةَ والأخرا
دعاك وأحداث الزمان تنوشه
ولا يرتجي إلا بغرتك النصرا
فكن يا رسول الله غوثاً لأمة
تمت إلى عليك بالنسبة الكبرى
فلا استنصروا إلا بجاهك في الوغى
ولا قصدوا في الخلق زيذاً ولا عمرا⁽¹⁾

فكان الشاعر العمراوي المعبر عما يخالج نفس سلطان العلويين من تخوفات
وقلق في ظروف صعبة، يجتازها المغرب، ولا يعرف ما سينتج عنها من سلبيات.
وهكذا نلاحظ أن شعراء المولديات في العهد العلوي كانوا يربطون بين مديح
الرسول، وبين الأحداث التي كان يعيشها المغرب بعد احتلال الجزائر وانهزامه
في معركة وادي ايسلي. فكانوا بعد مدح سيد الكائنات خاتم النبيئين والمرسلين،
والإطناب في التنويه بما يمتاز به الملوك العلويين من خصال بطولية وحربية، وتشبث
بأداء رسالة حماية البلاد وقهر أعدائها، يتوسلون للمولى جل وعلا، ويتشفعون له
سبحانه وتعالى بنبيه المصطفى الكريم، أن ينقذ هذه البلاد من ويلات الاحتلال،
وبيعد عنها كل فتنة وبلاء، ويرد عنها كيد الكائدين، لتبقى راية الإسلام خفاقة في
ربوعها وجناباتها.

(1) شهيد: ديوان العمراوي، ص 213-214.

ومن «خلال أشعار الجهاد» في قصائد المولديات التي أثبتتها في هذا الباب، اتضح لنا أن ملوك المغرب عامة من مرينيين وسعديين وعلويين كانوا متزعمين للحركات «الجهادية»، لإحقاق الحق، ومحاربة الباطل، وإسقاط القيادات الجاهلية الضالة، وإحلال الأمن والأمان، محل الخوف والدمار. ولا أدل على ذلك من قول الوزير ابن إدريس العمراوي - أحد شعراء الجهاد الذي صور لنا آل العلويين - وهو تصوير ينطبق على من سبقهم من ملوك المغرب الأفذاذ - تصويراً ينطق بالبطولة والعظمة والشهامة والإباء:

أَوْ مَا خَشِيتَ سَيُوفَ آلِ مُحَمَّدٍ
الْمَالِكِينَ مِنَ الزَّمَانِ زَمَامَا
التَّارِكِينَ الْجَوْرَ مِنْ أَيَّامِهِم
وَالضَّارِبِينَ مِنَ الْبَغَاةِ الْهَامَا
وَالْمَاحِقِينَ الْكُفْرَ مَعَ أَسْبَابِهِ
وَالرَّافِعِينَ الدِّينَ وَالْإِسْلَامَا
وَالكَاسِرِينَ رِقَابَ كُلِّ مُجْبِرٍ
وَالْجَابِرِينَ مِنَ الْكَسِيرِ عِظَامَا
وَالْمُقَدِّمِينَ إِذَا الْكُفَاةُ تَأَخَّرَتْ
وَاخْتَارَتْ الْإِبْقَاءَ وَالْإِحْجَامَا
وَالْقَائِلِينَ إِذَا الْحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ
يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ مَوْتُوا كِرَامَا
وَالْحَامِلِينَ مِنَ السَّعَادَةِ رَايَةً
تَصِلُ الْفَتْوحَ وَتَثْبِتُ الْإِقْدَامَا
وَالنَّاهِجِينَ مِنَ الشَّرِيعَةِ مِنْهَجًا
يَعْلِي الْمَقَامَ وَيَنْصُرُ الْأَعْلَامَا

والناصرين الحق إن زاع الورى

والرفاعين من الهدى أعلاما⁽¹⁾

فكانوا بذلك يعطون المثال الحي للصمود في وجه المعتدين الآثمين، والمثل الأعلى للشهامة المغربية من أجل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن حظيرة الوطن. وقد بقيت ساحات القتال وميادين النزال تشهد لهم بإقدامهم الجريء، واقتحامهم البطولي، و«هم يعززون القول بالفعل ويواصلون الصورة بالخطوة».

(1) العمراوي الديوان، م.خ.ح. بدون ترقيم لصفحاته. شهيد: ديوان العمراوي: ص 568.

الباب الرابع: خصائص شعر الجهاد

- الفصل الأول: الخصائص الموضوعية.

- الفصل الثاني: الخصائص الفنية.

الفصل الأول

خصائصه الموضوعية

إذا رجعنا إلى قصائد شعر الجهاد عامة والتي أتينا على ذكرها في هذه الرسالة، وحللناها في ضوء عصور شعرائنا وناظميها، نجد أن القصائد التي اخترناها من حقبة العهد المرابطي، والتي يغلب عليها طابع الجهاد والنضال من حيث المضمون، يشيد شعراؤها في مجملها -كما رأينا - ببلاء الجيوش المغربي في الغزوات «الجهادية» في الأرض الأندلسية وبالمواقف البطولية الرائعة التي وقفها الأمراء المرابطون، على رأس جيوشهم ويشفعونهم بتقديم التهاني إليهم على فتوحاتهم العظيمة، وعلى نصره راية الإسلام، وإحقاق الحق بتلك الديار.

وأول ما نلاحظ أن محصول الشعر في هذا الموضوع - وربما حتى في مواضيع أخرى - يمتاز بالقلّة وبنوع من الفتور، ذلك أولاً: لأن النهضة المرابطية كانت دينية وإصلاحية أكثر منها أدبية، ولم تكن إلا بالفقهاء ورجال الدين - حملة لواء المذهب المالكي السني - و«المرابطين» المجاهدين. وثانياً: لأن أغلب شعرائه أندلسيون، منهم لم يرقهم دخول الدولة المرابطية إلى الأندلس فانصرفوا عنها لمناصرة ملوك الطوائف⁽¹⁾، إلا الذين كانوا راضين عنها.

(1) من هؤلاء الشعراء: أبو بكر محمد بن عمار الذي كان يعد من الشعراء المجيدين مثل محمد بن هاني الأندلسي. وكان كذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون شاعر أبي القاسم ابن عباد المعتمد على الله ملك إشبيلية. ومن شعره يمتدح المعتضد بالله أبا عمرو - لما ورد عليه - بقصيدة مطلعها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
قادر الكتائب كالكوكب فوقهم	ومنهم: من لأمهم مثل السحاب كنهورا
من كل بيض قد تقلد أبيضاً	عضبا وأسمر قد تأبط أسمرأ

وأنشدوا ومجدوا وقدموا للأمراء اللمتونيين، «المتقشفين» غالي المدائح
ونفائس منتجات القرائح.

وهكذا وقف الشعر المغربي وخاصة منه شعر الجهاد والذي اصطبغ بصبغة
أندلسية بحكم الوحدة القوية التي نشأت بين العدوتين - موقفاً شريفاً إذ كان
بجانب أمراء المغرب، يشجعهم على المضي في سبيل الدفاع عن حوزة الوطن
المغربي، وعن الوجود الإسلامي في الأندلس المهدد بالزوال.

وقد قدمت لنا أشعار الفتوحات والمدائح والتهاني في قالبها الثوري والديني
صورة ناطقة عن حركة الجهاد التي سادت العصر الموحي وتحكمت في مصيره.
فمن خلال الأشعار التي أتينا بها يحمد ناضموها للملوك الموحدين المجاهدين
الفاحين انتصاراتهم على الثوار، والمتمردين والعصاة بالمغرب وأفريقية الذين لعب
بعقولهم الغرور وأعماهم حب السيطرة والظهور، وفوزهم على الجيوش المسيحية
التي اضطهدت المسلمين بالأندلس وحاصرت مدنها وقلاعهم وأذاقتهم ويل

ثم يقول في وقعة أوقها المعتمد بالبربر (وهذا هو الشاهد)
الفشتالي:

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد	إلا اليهود وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم	لما رأيت الغصن يعشق أحمر
إلى أن يقول:	

والسيف أفصح من زياد خطبة	في الحرب إن كانت يمينك منبرا
(المراكشي: المعجب، ص 64-67، ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 169-171) ومن	
شعره في مدح بني عباد معددا مناقبهم العسكرية:	

ملوك أناخ العز في عرصاتهم	ومثوى المعالي بين تلك المعالم
هم البيت ما غير الطبا لبناته	بأس ولا غير القنا بدعائم
إذا قصر الروع الخطى نهضت بهم	طوال العوالي في طوال المعاصم
وأيد أبت من أن تنوب ولم تفز	بجز النواصي أو بجز الغلاصم
ندامى الوغى يجرون بالموت كأسها	إذا رجعت أسيافهم بالجمام
هناك القنا مجرورة من حفاظ	وثم الطبا مهزوزة من عزائم

(المراكشي: المعجب، ص 101، 112، ص: مصرية).

الهجومات بعد غزواته دامية صاخبة وعراك عنيف شديد. فحمل بذلك الخلفاء الموحدون بعد «الصيحات» الشعرية التي استجذبت بهم وحضتهم على تلبية نداء الجهاد حملوا ألوية الإسلام والوحدة خفاقة منصور في كل العدوتين، ولقبهم شعراؤهم «بالمنصورين»، لأن الله ينصر ناصره ويؤيده بنصر من عنده.

وتبين أن أهم دافع شجع الشعراء على قرض قصائدهم العديدة التي سيطر على قلبها ومضمونها الطابع المغربي في تهنئة الخلفاء الموحدين بفتوحاتهم والرشادة بنضالهم وبلاء جيوشهم في الحروب، هو أن الخلفاء كانوا يجلسون في مجالس التهنئة ويستدعون الشعراء من كل فج ليمدحهم ويهنئهم، ويسجلوا للتاريخ ما حققته جيوشهم من فتوحات وما خلدته من بطولات، ثم يناقشونهم في أشعارهم ويباركون لهم تفوقهم وإجادتهم ويجزونهم أحسن الجزاء.

فمثلاً جلس عبد المؤمن للشعراء بجل الفتح كما تقدم يوم بيعة أهل الأندلس له ليستمع إلى قصائدهم وإنشادهم وجلس حفيده يعقوب المنصور في نفس المجلس، بعد غزوة الأرك، ليصغي إلى روائع القصائد التي جادت بها قريحة شعراء العدوتين في تهنيته ومدحه وتكريمه.

وقد اتسمت هذه الأشعار «الموحدية» بطابع الجد والصرامة، واستوتحت مضامينها من الأحداث السياسية والحربية والدينية التي عاشها المغرب في العهد الموحي، وتأثرت بمبادئ الدعوة الموحدية، وكانت صادقة لا إسراف فيها ولا غلو: فإذا مدح الشعراء الموحدون خلفاءهم بالشجاعة وقوة الجأش ونصرة دين الله، وأعجبوا بكتائبهم القوية المنصورة الفاتحة، فهم يرسمون في الواقع نموذج الشخصية المتكاملة للخليفة الموحي كما هي في الحقيقة والواقع⁽¹⁾. فكان أدب الجهاد في العهد الموحي أدباً واقعياً بعيداً عن الخيال والتلفيق.

(1) د. عباس الجراري: أبو الربيع سليمان الموحي، ص 204-205.

وكما نلاحظ أنه إلى جانب اهتمام ملوك بني مرين بالشؤون العسكرية والحربية وفتح البلدان وتثبيت قدم دولتهم، اهتموا كذلك بالناحية الثقافية والأدبية. إذ إن معظم سلاطينهم ووزرائهم وحجابهم كانوا من ذوي العلم والثقافة ومن المتذوقين للأدب ومن القارضين للشعر، فأتاحوا للأدباء والخطباء والشعراء كل ما من شأنه أن يشجعهم على الإنتاج الأدبي وينهض بثقافتهم. فتفتقت قرائح عدد من الشعراء الأفاضل، كمالك ابن المرحل شاعر المغرب الكبير وعبدالعزیز الملزوزي، في مجال وصف الوقائع الحربية التي خاضتها الجيوش المرينية، وتهنئة الملوك المرينيين الفاتحين بانتصاراتهم في غزواتهم وفتوحاتهم، وأنشدوا القصائد تلو القصائد والملاحم تلو الملاحم التي كانت تفيض بالعواطف الجياشة والتعابير الحماسية.

وكانت وقائع الأندلس واستيلاء الإسبان على معظم البلاد الأندلسية حافزاً لشعرائنا المرينيين على الاستغاثة بملوك بني مرين، ليهبوا لنجدة المسلمين مما أصابهم من هول وهوان، ويجاهدوا في المسيحيين الذين عاثوا في الأرض فساداً ودماراً.

ولما بدأت سحب التقهقر والاضمحلال تتلبد في سماء الفردوس المفقود، بدأت أيضاً هجرة «المواهب» الشعرية والأدبية إلى «البيضاء»، من مدينة فاس - قاعدة الدولة المرينية - نزلت الرعب والسعة في بلاط أبي الحسن وأبي عنان وأبي سالم.. وقد توجت هذه «الحركة» بحلول لسان الدين ابن الخطيب - صاحب القلم الرفيع والقريض الفياض - الذي أم الحضرة المرينية مستجيراً ومستجداً ومستغيثاً بملوك بني مرين لينقذوا أولياء أمره بني الأحمر من الهلاك ويعيدوا إليهم عزتهم ومنعتهم.

وقد تبوأ المدح في «مولديات» شعراء بني مرين المقام الملحوظ. لما قطع كل أمل في استعادة الأندلس توجهوا بالمدح إلى الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة

وأزكى التسليم وهبوا بجوارحهم إلى زيارة قبره، والتوسل بجاهه، ثم تخلصوا لمدح ملوك بني مرين والتتويه بمزاياهم ومناقبهم الحربية والنضالية.

فدون شعراء بني مرين بإنتاجهم الذي تحدثنا عن مضمونة وأتينا بنماذج له - شعرا للجهاد في عهد دولتهم المجاهدة فكان شعراً مطبوعاً بطابع الانتصار الديني والتمسك بعروة الإسلام والحرص على وحدة مسلمي العدوتين. وكان شعراً يحمل طابعاً مغرباً صرفاً، متشبعاً بالعقلية المغربية التي نضجت تمام النضج طلية العهد المريني⁽¹⁾. فنجد فيه من خلال القصائد التي أوردناها عواطف صادقة وسجايا خالصة وحقائق ساطعة، في أسلوب رقيق جزل من غير ضعف أو تعقيد، بعيد عن الخيال والتصنع والغموض، وبألفاظ رشيقة وبليغة، وفي صور يغلب عليها أحياناً الفتن والإبداع.

فقادت راية الإسلام، وراية الفتوحات شعراء بني مرين إلى شعر الفتح والجهاد، وإلى فتح باب الثقافة والآداب على مصراعيه.

وعندما عرف العهد الوطاسي كثيراً من الفتن والقلق والحروب، لم تستطع الحركة الأدبية أن تعايش هذه الظروف المضطربة والمتسمة بالبلبل والغموض، وكادت أن تتوقف توقفاً كلياً.

وكان معظم أدباء هذا العصر فقهاء وخطباء أخذتهم غيرتهم الوطنية، فنظموا شعرا بلغة سهلة سلسلة، يصورون به جهود الشعب المغربي لأجل استرداد عزته المغصوبة، وسيادته المسلوبة ويذكرون به حماس جنود الأمة ومجاهديها ليتابعوا صراعمهم ضد المحتلين الغاصبين، وليقفوا موقف الهجوم لا موقف الاستسلام، ويجاهدوا في الله حق جهاده، حتى يقتلوا في سبيل الله ويلقوا ربهم شهداء، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

(1) كان للشعر المغربي في هذا العصر قيمة أرفع من الشعر في المشرق المتخبط في عصر الانحطاط. رغم وجود البوصيري وصفي الدين الحلي وابن نباته وفي الأندلس التي لا يوجد فيها آنذاك شاعر يذكر غير ابن الخطيب. (الأخضر: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 52).

وبعد ما تدخل الأتراك في شؤون المغرب في العهد الوطاسي وتسببوا في وقائع حربية، وبعد أن احتل البرتغاليون معظم شواطئ المغرب وأصبحت الأحوال في البلاد مضطربة تسودها كل أنواع الفتن والقلاقل، ظهر الشرفاء السعديون الذين قضوا على فلول الوطاسيين، وقاوموا الإسبان والبرتغال والأتراك واستطاعوا أن يحرروا ما احتل من بلادهم، وأن يتمكنوا من المحافظة عليه. فكان الأساس الذي قامت عليه الدولة السعدية أساساً دينياً، حيث كان رجالها يستتفرون الناس في أول أمرهم للجهاد والمشاركة في حركة الإنقاذ، حتى يضمنوا السند الأقوى لإيقاع سلسلة الاحتلال المتوالية للأراضي المغربية، وللقضاء على الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية، وحتى يحافظوا على استمرارية الرسالة المقدمة رسالة الجهاد والنضال - التي كان المغرب يحملها طيلة القرون الخالية للدفاع عن نفسه ولحماية عقيدته.

وقد استفاد أكبر ملك في الدولة السعدية أحمد المنصور الذهبي من هذا المبدأ، وتم انتصاره الساحق على البرتغاليين في معركة وادي المخازن، ثم استعان بالأندلسيين النازحين من الأندلس لمحاربة المغيرين على شواطئ المغرب وثغوره ومرافئه من برتغال وإسبان، ومد فتوحاته إلى السودان في أواسط إفريقيا.

فكانت انتصارات السعديين في معركة وادي المخازن وفي فتح السودان، مصدر الإلهام عند الشعراء أنشدوا فيها القصائد الرنانة، وأبدعوا فيها غاية الإبداع، ونوهوا فيها بمزايا خليفتهم المنصور الذهبي الحامي للإسلام والقائم على الشريعة والمجاهد الأمين والمحارب المقدم مبتعدين عن التملق المفرط والأوصاف الزائفة. وقد أثار التهديد المستمر للأعداء على المغرب، رد فعل قوي في نفوس هؤلاء الشعراء، الذين أظهروا في مولدياتهم (وقد أنشدوها في بلاط المنصور طوال السنوات السبع والعشرين التي قضاها المنصور في الحكم) كامل التعلق

بالروح الإسلامي، والإخلاص التام للسعديين - المنحدرين من سلالة الرسول ﷺ
المجاهدين في سبيل الله المحققين لفتوحات العظمى، تحت راية الجهاد، مع إيقاظ
همهم لاسترداد الفردوس المفقود:

هم أتبعوا بالسيف كل معاندٍ
ضرباً على الأذنان والأعناقِ
هم أحموا الكفار كل وقية
فسقوهم بالطعن كأس دهاق
فعلا على الأديان دين محمد
من بعد شِرك ثابتٍ ونفاق⁽¹⁾

فبحلول عهد المنصور السعدي بالمغرب، عاد إذاً للأدب المغربي عمومًا -
ولشعر الجهاد خصوصًا - سالف مجده وسابق عزه، وأصبح الشعراء يمجون
في البلاط السعدي - الذي يذكرنا ببلاط المعتمد بن عباد - ليتغنوا بفتوحات
السعديين، وبانتصاراتهم في أشعار المديح والتهاني، فخمة ألفاظها جزلة معانيها.
ولكن سرعان ما تبدلت الأوضاع، وبدأ ظل الدولة السعدية يتقلص من المغرب،
بعد أن اشتدت الصراعات بين أبناء المنصور، فانتهزها الإسبان فرصة سانحة،
وأغاروا على الشواطئ المغربية ومدنها. هب «المرابطون» وأصحاب الزوايا، للدعوة
إلى الوقوف في وجه الزحف الصليبي على المغرب، وتحولوا إلى مجاهدين يثيرون
الحماس الوطني وروح الجهاد في نفوس المغاربة، ويجندون طوائف منهم، ليستعدوا
للحملات الحربية على المراكز المختلفة. وكان لقادة هذه الحركة الجهادية أثر في
نفوس الفقهاء والشعراء نظموا قصائدهم في الدعوة إلى المقاومة والاستنفار،
استعداداً وتجنّداً لحماية البلاد والدود عنها.

(1) من شعر أحمد بن القاضي الثعلبي يمدح آل السعديين (ابن القاضي: درة الحجال، ج1، ص 104).

والخلاصة أن الحركة الشعرية على الرغم من الأحداث والأزمات التي عاشها العهد السعودي، لم تصب بتلك النكسة التي أصيبت بها في العهد الوطاسي.

وإذا كانت البيئة هي التي توجه الأدب وتصبغة بصبغتها فإن الشعر السعودي تأثر كثيرًا بحركة الجهاد التي عرف أحداثها العصر السعودي. لقد عاش الشعراء السعوديون حياة الصراع والنضال والجهاد، فشغل فكرة الجهاد عقولهم وقلوبهم ونظموا قصائدهم الحماسية، ممزوجة بالعواطف الدينية والوطنية، وأنشدوها إما للتغني ببطولات المحاربين والمجاهدين السعوديين في معارك النضال والفتوحات الداخلية والخارجية، وإما لإيقاد نار الحماسة واستنهاض الهمم وإيقاظ الشعور القدسي والحماس الوطني لنيل الثأر، وللدفاع عن الأهل والبلد والمحافظة على الذمار. فكانت أشعارهم سلاحًا ماضيًا إلى جانب أسلحة الحرب الأخرى وكان صداها يعلو الأراجيز والخطب.

وفي فجر الدولة العلوية عاش المغرب فترة مضطربة وحرجة كانت وطأتها شديدة عليه عامة وعلى أدبه خاصة.

فلما قضى المولى رشيد - مؤسس الدولة العلوية - على طائفة الدلائيين سياسيًا - ولم يقضِ عليها أدبيًا - آل الملك إلى السلاطين العلويين الذين جابهوا - من جهة - حركات للتمرد، قامت بها عدة قبائل في شمال البلاد وجنوبها، فأحبطوها بقوة السيف وأذاقوا أهلها مرارة الانسكار، وقاوموا - من جهة أخرى - بشمم وإباء الاعتداءات الأجنبية المكررة على السواحل المغربية، وقاموا بعمليات تحرير الثغور المغربية المحتلة وتطهيرها من المعتدين الآثمين.

وفي خضم هذه الأحداث، كانت تخفق «بنود الأدب» كما خفقت «بنود النصر والظفر» وانتعش الشعر على الخصوص انتعاشًا، وقام رواه وأعلامه كمحمد ابن إدريس العمراوي، وأبي علي اليوسي، ومحمد بن زاكور، ومحمد ابن الطيب العلمي،

ومحمد أكنسوس، ومحمد غريط، وغيرهم من الفقهاء والناظمين يقرضون الأشعار الطويلة النفس: يشيدون فيها بانتصارات السلاطين العلويين على أعدائهم من النصاري، وعلى العصاة والتمردين، ويصفون وصفاً دقيقاً هزائماً هؤلاء، أمام بأس كمة وقوة أبطال الكتائب السلطانية، متألقين في الوصف ومتفنين في التصوير ويهنتون في النهاية السلاطين الفاتحية بالنصر والظفر.

وكلما عظمت الأهوال، وهددت البلاد الأخطار، يثير الشعراء بصيدهم حمية المجاهدين، ويستنفرونهم لقتال الأعداء ويحثونهم على الزحف المقدس، ويحملونهم على التوثب ضد المعتدين. فآلهبوا بأشعارهم سماء المعارك، وأشعلوا براكين الثورة في قلوب المجاهدين، ومن ورائهم الخطباء والوعاظ والعلماء، يشعلون أوار الحماس. فنفت سوق الشعر في هذا الظرف أشد الإنفاق - مشرقة الأسلوب بينة المرامي - واتخذ شعر الجهاد طابعاً دينياً ووطنياً، يبدو تأثيره جلياً، كلما اشتد ضغط الأعداء وتهديدهم للوطن، وأصبح نابضاً بالحياة وبالواقع الذي يعيشه المغرب. وكان شعراؤه قادرين على التفنن في التعبير عن عواطفهم الجياشة، وإشراكنا معهم في الإحساس بها، كل واحد بطريقته وذوقه، بجيد قريضه أو رديئه، بمتين أسلوبه أو ضعيفه، وكذلك بحسب القدرة على التشخيص والتعبير والتبليغ.

ويمكن تلخيص العناصر الموضوعية التي طبعت هذا الشعر في:

التزام شعر الجهاد:

إذا وضعنا شعر الجهاد والنضال في إطاره الأدبي والتاريخي الصحيح، نكتشف أننا بإزاء شعر ملتزم وواقعي. لأن أعظم قضية طرحت على المغرب عبر عصوره ودوله، هي المحافظة على وحدته، وصيانته استقلاله، بكل ما لديه من حول وقوة. وقد ساهم شعر الجهاد والنضال في إذكاء روح الجهاد والدفاع عن

البلاد، وفي إلهاب الحماس في النفوس، وإلقاء الرعب في صدور الأعداء. واتخذ شعراؤه سلاح الشعر النضالي والحماسي، وسيلة فعالة لتشجيع الملوك في مسيرة فتوحاتهم، ولترغيب الناس في الجهاد في سبيل الله، ولإثارة همهم وبث الحماسة في نفوسهم لغاية الاستشهاد في ساحات الشرف، دفاعاً عن وطنهم وإسلامهم ومقدساتهم، فلم يكن شعراؤه هائمين على وجوههم، أو سابحين في خيالهم مع «شيطانهم»، بل اتخذوا فنهم وسيلة لنشر الغايات والمبادئ التي آمنوا بها، والتزموا بصدق التعبير وقوته، تشيع فيه معاني البطولة والحماسة والتضحية والإيمان والاستشهاد، ويتسم أسلوبه بمظهر الوقار والإيجاز⁽¹⁾.

فإذا كان شعراء صدر الإسلام - في إطار الالتزام - نافحوا عن الدعوة الإسلامية، ودافعوا هجمات المشركين عن رسول الله ﷺ، وسفهاوا أحلام الجاهليين، فإن شعراء الجهاد المغربي - بالتزامهم - شايعوا أيضاً معارك الجهاد، ورافقوا رجاله المجاهدين الأبرار في ساحات الوغى، وعاشوا ملاحمهم كما عاشها المجاهدون. وبذلك ساندت «أسنة» النضال أسنة القتال، وكان شعر الحرب والجهاد في الأدب المغربي خاصة وفي الأدب العربي عامة، أقوى ما نظم الشعراء وأبقى أنواع الشعر على مر العصور الإسلامية.

ومن هم شعراء الجهاد؟

لم يكن للجهاد شعراء خاضوا معمرته وحدها، أو أنشدوا فيه قصائد مستقلة، يطلق عليها قصائد الحرب والجهاد، وإما هم في مجملهم شعراء المديح والفخر والحماسة، أطنبوا في وصف المعارك والحروب، وفي بطولة أجنادها، وهنأوا قادتها

(1) يقول د. حسن الوراكلي: إن ما ينبغي أن يميز قصيدة الجهاد كونها قضية وموقف. أما القضية فهي قضية التحرير من الاستعباد الذي يشل الطاقات ويكسح القدرات في الإنسان الخليفة. وأما الموقف فهو موقف الشاعر المؤمن الواعي برسالة الفن في التغيير والبناء. وهذا هو ما جعل قصيدة الجهاد الصورة الأنموذج للالتزام الشاعر الذي آمن وعمل صالحاً. (الجامعة الشتوية - مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ) في بناء المغرب العربي - المحور الأدبي والفكري - الكتاب الثاني، ص 86، جامعة سيدي محمد بن عبد الله 1988.

الفاتحين بالنصر، وحمسوا المجاهدين بشعر ممزوج بالعاطفة الدينية، وأثاروا حميتهم لمقاومة كل معتد أثيم، على بلادهم ودينهم. والظاهر أن العلة في ذلك هو أن الشاعر لم يكن يحس بضرورة الفصل بين وصف المعركة والتحريض عليها ومدح وتهنئة المنتصر فيها، فهو يعيش المعركة بجميع ظروفها الحربية والسلمية.

وقد وقف حقاً شعراؤنا من موقف حركة الجهاد - من خلال قصائدهم - موقف حزم وقوة، فاقترحوا معاركها بلسانهم وأقلامهم، وسخروا أشعارهم لإنجاح أمرها والترغيب فيها، وإيقاظ الهمم واستنهاضها عندما يحمى وطيسها. فلم يكونوا بعيدين عن مشاهدة ضروب التضحية وبطولات رجالها، المجاهدين في خضم الأحداث والمشاهد، بل سجلوا وقائعها وأبعادها، ورسموا صوراً مشرقة لها، تأثراً بما تبعته في نفوسهم من إكبار وإجلال. فكانوا أداة نشر وإعلام للمجاهدين ومعاركهم في ميدان التدوين والإنشاد، كما كان المجاهدون جنود فتح وأبطال قتال. فأمدت حركات الجهاد شعراءنا بمادة جديدة وثرية، هيأت لهم المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم الشعرية، وصارت حافزاً قوياً لهم، ومصدراً خصباً لإثارة العواطف والمشاعر. فانسابت على ألسنتهم أناشيد رائعة في ميدان الجهاد، وتراتيل حماسية تتجاوب مع أصداء ملاحم النصر والفتح. وبذلك أصبحت أشعارهم في هذا الميدان سجلاً لفخر الأمة المغربية، ونشيداً لبطولاتها، وعنواناً لبأسها، تقدمه للأجيال، كما كانت أشعار صدر الإسلام، وعهود الفتوحات الإسلامية عنوان مفاخر المسلمين وأنشودة انتصاراتهم وأهزوجة بطولاتهم.

فخلق عندئذٍ شعر جديد في الأدب المغربي، يمكن أن نطلق عليه: «شعر الجهاد»، وعلى ناظميه: «شعراء الجهاد».

مضامين شعر الجهاد:

شعر الجهاد هو مرآة صافية لعمليات الجهاد، إذ تنعكس عليه جميع جوانبها وما هو مرتبط بها من تحركات وتحولات وقتال وتهويل وتهديد ومطاردة الأعداء،

وإلقاء الرعب في قلوبهم واستصغارهم واحتقار قادتهم والإيقاع بهم، وللاعتزاز بالقوة الحربية المجاهدة، وببطولة جحافلها وتضحيات قادتها، والإشادة ببلاء المجاهدين المحاربين مشاة وفرساناً، وتصوير قسوة المقاومة وضراوة النضال وشدة اللقاء - وما يحدث أثناءه من إقدام أو إحجام، وما ينتهي إليه من نصر أو هزيمة، ووصف دقيق للأسلحة وأدوات النزال، والتحريض على خوض غمار الجهاد دفاعاً عن الحق، وإلهاب الحماس وتحريك الوجدان في نفس المكافحين. ودفعهم إلى الانتقال، وتبشير بالنصر للأحياء من المجاهدين، وفوز بالجنة للشهداء منهم، وتهنئة الفائزين المنتصرين، وتمنيهم بفتوحات أخرى وانتصارات جديدة، على نمطية تكاد تجعل قصائد شعر الجهاد متماثلة مع بعضها البعض.

بالإضافة إلى ذلك، يتضمن شعر الجهاد جل أنواع الشعر وأغراضه، من وصف ومدح وفخر وحماسة وتهنئة وهجاء ورثاء وزهد، لم تات منفصلة داخل هيكل القصيدة، بل تاتي متداخلة، وهذا التداخل يفرضه على الشاعر موضوع القصيدة، وكذلك بيئته التي يعيشها وينظم فيها قريضه.

الوصف

أ. وصف الجيوش والكتائب والوقائع:

كانت أوصاف شعراء الجهاد للحروب والفتوح وما يدور في «فلكها» قوية وغزيرة، تستنفذ طاقاتهم الشعرية، مما يدل على خصب خيالهم، وفنية ذوقهم، ودقة مشاهداتهم. وقد يصف بعضهم المعارك ورجالها وسلاحها وكتائبها، وصفاً دقيقاً سواء حضرها أم لم يحضرها، فيرسم المشاهد، ويصورها أحسن ما يكون التصوير، وقد أفاضوا في هذا التصوير حتى جاءت أشعارهم بمثابة «لوحات فنية رائعة ووثائق تاريخية صادقة»⁽¹⁾.

(1) سبقت الإحالة على المصادر في الفصول السابقة لجميع الأشعار الواردة في هذا الفصل ولم نثبتها مرة ثانية تفادياً للتكرار.

فيقول عبدالجبار بن حمديس يصف الوقائع المرابطية وأبطالها في إحكام ودقة:

حماة إذا أبصرتهم في كريهة
رضيت من الأساد عن كل غاضبٍ
إذا ضاربوا في مأزق الضرب جردوا
صواعق من أيديهم في سحائب
إذا ما غزوا في الروم كان دخولهم
بطون الخلايا في متون السلاهب

كما يقول في جيش المرابطين وبأسهم الشديد في حصار ضريوه على الروم بالأندلس:

ومن الرجال مروع ومشجع
ومن السيوف مؤنث ومذكر
ألقت قلوبهم الخضوع لربهم
والبأس في أسيافهم متكبر

ويقول الشاعر اللمتوني مقارناً بين حالة خيول المرابطين المطهمة، وخيول جيش النصارى الخاملة:

قد راسلتك ملوم الروم صاغرة
في السلم إذ كادت الهيجاء تفنيها
بخيلها الكمت ملقي البيد وادعة
وكمتك الخيل تدعو في مغانيها
تخشى عقابك في أقصى منازلها
وتطلب العفو من أعلى أصاصيها

ويقول إسماعيل بن عمر الشبلي في صوارم الموحدين التي تتحدث باسم
قائدها عبدالمؤمن:

شهدت بفضلك صادقات وقائع
لم تلتبس بشهوهن طنين
وتحدثت بيض الصوارم في الطلى
بحديث مجدك والحديث شجون
وقال أبوبكر بن المنخل في سيوف الخليفة الموحدي التي تسقي الأعداء سم
الفناء:

وشرت سيوفك بالعلی أغمادها
يوم الوغى فاستجزلت أرباحها
تسقي العداة سماتها فكأنها
أيدي تصقق للندامى راحها
ويقول عبدالله بن محمد بن صاحب الصلاة في فرسان الموحدين بجبل
الفتح:

وخيل تسوق الأسد فوق متونها
وتسبق لمح البرق والبرق خافق
تخيرها التوفيق من كل ضامرٍ
وأركبها الأبطال سعد مطابق
رجال ولكن في الحروب ضراغمُ
وخيلٌ ولكن في السباق شوائقُ
ويقول أبوبكر بن المنخل في جند الموحدين، الذين يركبون الموت كلما نودي
عليهم:

وإذا دعاهم صارخ لكريهةٍ
طاروا لها بيض الوجوه صباحها

متهللين كأن في قسما تهم
سُرجاً تبين تحتها أشباؤها
ويقول شاعر الموحدين في بلاء الجيوش الموحدية بالأندلس ضد الروم:
وقد صرفت نحو المغارب عزيمة
يبين لها في كل ناحية وقد
ستغزو بلاد الروم منهم عصائب
وتحمي حمى التوحيد من خيلهم جند
جيوش بنصر الله تهمني عليكم
يروق بها وهديزها بها نجد
ستعلم أرض الروم أي فوارس
على ظهرها منهم إذا وفد الوفد
وقال الشاعر المريني في الكماة المرينيين، المدججين بالسيوف والرماح:
بكل كمي في اللقاء مدجج
إذا لمح الحرب العوان تبسمًا
أسود مرين أرعدت بصايلها
وأبدت ببرق البيض كالوشي معلما
وفي كتائبهم وصوارهم وما تفعله في رقاب الأعداء يقول:
وكتائب منصوره يحدو بها
أمرًا إذا أمضيته لا يرجع
لله جيشك والصوارم تنتضي
والخيل تردأ والأسنة تشرع
وفي الأسنة السمر المرينية التي ترمي الأعداء «بلهيبها» يقول علي ابن الصباغ
العقيلي:

ترميهم ببروق من أسنتها
رمي الملائك هذا الجن بالشعل
فالسمر تهتز في الأشلاء من قرم
والبيض تحمر في الأعناق من خجل
وقال مالك بن المرحل في حياذ الدولة المرينية، التي لا يمكن للعدو أن يضر من
بطشها، وهي تتسارع لتلبية داعي الجهاد:
أين المفرُّ وخيل الله تطلبهم
لا يعصم الله منهم غير من رحما
ويقول عبدالعزيز المزروزي من قصيدة يصف فيها بأس الجيش المريني، وشدة
ليوث حربه من ملوك بني مرين:
إذا الخيل جالت في الحروب حسبتها
قضاء من الرحمن ما منه عاصمُ
أراك على اليمنى تبيد حماتها
وذاك على اليسرى فأين المقاوم؟
ووالدهم في جاحم الحرب بينهم
يبيد حماة الجيش والسعد قائم
ترى جثث الأبطال تسقط بينهم
سقوط مبان فارقتهم الدعائم
ويقول علي الجزولي في الكماة السعديين وبلاتهم في الجلال والطعان:
ليل من النقع لكن شهبه قصب
تهدي الحتوف ظباها نشوة السحر
تلقى الكماة به نشوى وقد ثملت
من المحيا حميا الموت لا السكر

سوق المنية لا ينفكُ يعمُرُها

كل ابن هيجاء في الأرواح متجرٌ

ويصف محمد الهوزالي الجيش السعودي بأنه قوي الشكيمة في المعارك

الطاحنة:

ألذ معانقة عندهم

معانقة القرن عند النزالِ

وأفضل العوبة بينهم

تراشقهم في الوغى بالنبالِ

إذا الرعب خام به فزع

أذابوا الحديد بحرّ المصالِ

وما رماة وفرسان الجيوش السعودية المجاهدة إلا أسد وسباع، «يفترسون»

الأعداء ويتركون أشلاءهم للنسور:

فيا لك من يوم تظل سباعه

من الجند إلا أنها لم تحارب

كأن نسور الجو فوق بنوده

له وكور قاليات المراقب

ويوقدون نار أسلحتهم الملتهبة من أجساد أعدائهم، يقول عبدالعزيز الفشتالي:

ورماة تشبّ نارًا تلظى

جعلوا وقدها جسوم الرجالِ

ويقول أيضًا عن «جنود الله» في يوم معركتهم بوادي المخازن الذي يشبه يومي

بدر وحنين:

تجمع جند الله من كل جهةٍ

وقد غض من مدينة كل دائن

فذلك يوم نثل بدر وصنوه
حنين بأيدي المؤمنين الميامنِ
هنالك نصر المؤمنين مؤزرٌ
على كل ذي كفرٍ تهجم ضاغن
ويقول محمد الفشتالي في بلاء عساكر المنصور الذهبي، وما تبثه من رعب
في ميدان المعركة:

تلك العساكر مدها من ربها
والرأي عند عميدها لم يهمل
إن البغاة وإن تكاثر عدّها
ما شأنها في البطش شأن الأجل
لا تعجبوا من نصر كل جيوشه
فالرعب بعض جيوشه في جحفل
وقال حمدون المرداسي، مشبهاً أبطال الجيش السليمانى العلوي بموج البحر،
متسلحين بالبليض والسمر المتعطشة للدماء:

يرمي بموج من الأبطال ملتطمٍ
كأنهم في ظهور الخيل كثنانُ
وفي يديهم بيض نارها اشتعلت
من لا يدين إليها فهو قربانُ
وسمر اضطربت شوقاً إلى شرب دمٍ
كان لها بحشاً الأعداء خلجانُ

أما رماة الجيش العلوي وخيوله فهم نسور لا يخطئون أهدافهم:
يقول سليمان الحوات:

وإن رموا خلتهم قد أرسلوا شهباً
للرجم في الأرض لا تخطئ شيطاناً
على جيارٍ من الخيول صافنةٍ
تحسبها في مجال السبق عقباناً
ويقول الحوات في رجال هذا الجيش الذين شبههم بجنود حنين وبدر في
نزالهم، لصلابتهم وقوة عقيدتهم في مواجهة الإسلام:
أتوه رجال في الوغى فكأنهم
رجالٌ أتوه من حنين ومن بدرٍ
ففرق جمع الكافرين وهدهم
وأهلكهم بالطعن والقتل والأسر
وقال محمد بن يوسف الفاسي في بلاء المجاهدين - بثغر طنجة - حتى
الاستشهاد:

على أرجائها الغرات شنوا
وشدوا للوغى عقد النطاق
وقالوا لا برحنا عن ذراها
إلى أن تبلغ الروح الثراق
ملاحم «جهادية و«شعرية»، تتلاطم فيها الأسنة، وتتصادم فيها الرماح،
وتتشابك فيها الرماة والفرسان، وتصطدم فيها قوة الحق بقوة الباطل. ولكن النصر
كان لأهل الحق، وكانت الهزيمة لأهل الباطل.
ب- وصف انهزام الأعداء وخذلانهم:

يدخل وصف شعراء الجهاد، لانهزام الثوار والأعداء، في صلب الحقائق
التاريخية للمعارك الطاحنة، التي دارت بين قوات الحق وقوات الباطل.

فيصف أبوالعباس الجراوي وصفًا رائعًا انهزام بني غانية ببجاية أمام الجيوش
البرية والبحرية الموحدية، وقد تلاطمت بهم أمواج المنايا:

تلاقى عليه البرُّ والبحر ترتمي
سفينًا إلى استئصاله وكتائبُ
غريق بغرقى مثله متمسكُ
وموج المنايا منهم متراكبُ

ويقول عبدالجبار بن حمديس في هزيمة الفونشو الإسباني، أمام الجيوش
المرابطية في الأندلس، مستهزئًا بخيبة فلوله وإدباره وقد خدعتها الحرب:

أرى الفونشو ولى يوم لاقى فوارسا
مغافرهم لاثوا عليها العمائم
يلوم صليب العود وهو يلومه
ومن يغو لا يعدم على الغي لائم
نوى خدعة للحربو الحرب خُدعةُ
فأدبر مهزومًا وقد كان هازما

ويقول أبوالعباس الجراوي، لما دارت الدائرة على الجيوش الإسبانية في وقعة
الأرك، أمام الجيوش الموحدية:

وسهّلتِ المرقى إليه صوارمُ
كثير به القتلى به الأسرى
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا
وأمسّت خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رعى الهيجا عليهم فأصبحوا
هشيمًا طحينًا في مهب الصبا مذرا

كما يقول في استسلام أعداء الإسلام بالأندلس، أمام القوة الإسلامية
الموحدية الزاحفة:

وتضخضخت فرقًا بحار جيوشهم
لما أتاهم بحر جيشك مُزبدا
واستسلموا إذا لم يَرَوْا تحت الثرى
نفقًا ولا فوق الثريا مصعدا

ويقول عبدالعزيز الفشتالي في الهزيمة المنكرة لسبستيان، أمام الجيوش
السعدية المجاهدة في تصوير رائع:

وسببستيان كفنته مياهه
هزيمًا وماء النهر أفضع كافن
وحين قضى البتار في الحكم ما قضى
وأشـلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت ألوفًا من رؤوس تجمّعت
ويا ليتها أيضًا جدارًا ماذن

ويقول محمد بن يوسف الفاسي في الرعب الذي أصاب البرتغاليين بثغر
طنجة أمام الجيوش الإسماعيلية، حتى لاذوا بالفرار - وجلين - من الموت الزؤام
أو من الأسر والوثائق:

فصب على قلوب الكفر رعبُ
وحنّوا للشتات وللفرار
رأوا أن الفرار أقل خطبًا
من الموت المبرح والوثاق
فأعطوا حصنهم رغمًا وساروا
حيارى في انتحابٍ واندلاق

ويقول محمد القادري في هزيمة البرتغاليين وذلّتهم أمام الجيوش الإسماعيلية،
في فتح مدينة العرائش:

علوم بأسياف أسالت رؤوسهم
فساروا سريعاً بين طاوٍ وطائشٍ
وحاشوهم حوش البزاة بغاتها
وقد أثخنوهم فيها إثنان فاتش
فما لبثوا أن طلبوا الأمن في الوغى
وذلووا لدين الله ذلة داهش

ويقول سليمان الحوات يهجو المتعاونين مع المحتلين الغاصبين، ضد القوات العلوية:

يا ويلهم نزلت بهم عساكر من
ملكه الله أمر الخلق في الأزل
فضاقت الأرض كلها بما رحبت
حقاً عليهم لفرط الروع والوجل
وحاصرتهم جنود في معاقلهم
ترمي بأحضائهم بنادق الشعل

وقال شاعر المولى سليمان في وصف خذلان جيوش الأعداء، بعدما ذاقوا
مرارة العقاب:

وجدتُ سعيِرَ الظلم عمّ دخائهُ
بإقليمنا في نجد أرض وفي الغورِ
فجردت سيف العدل من بطن غمدهِ
فأطفأته في الحين عزماً على الفور
أنقثهم كأس العقوبة منزعاً
فهم من أليم الرعب سكرى بلا خمر

تركتهم صرعى خلال ديارهم
كأنهم أعجازٌ نخلٍ بلا صدرٍ
قضى الله بالخذلان حتما لمن طغى
وبالنصر للسلطان ذي النهي والأمر
ويقول شاعر العلويين في جيوش المولى عبدالرحمن بن هشام التي قطعت
دابر المشركين الماكرين، بحوز مراكش:
وفاق حزب التقى حزب الشقا وبه
قد اعتدت تضرب الأمثال والعبرُ
بوقعة دوخت غرباً بموقعها
واهتز بالمشرق الأملاك واعتبروا
دارت عليهم من الأسواء دائرة
وحاق مكرهم بهم لأن مكروا
فأصبحوا وقد أباد الله نعمتهم
وحل ساحتهم الأحداث والغير
صرعى على الأرض قد حاق المحاق بهم
وقد كساهم ثياب الذلة العقر
ويقول محمد ابن إدريس العمراوي في قهر الجيوش العلوية لقبائل البغي
والفساد، بالوسائل التي يفهمونها:
أحاطت جيوش المسلمين بأرضهم
وعمّهم منها التسلط والقسرُ
ولا شيء مثل السيفِ أنفع للعدا
إذا لم تفد فيها المواعظ والذكر

ويقول أيضاً في وصف هزيمة العاقين المضيعين لحقوق الناس، واندحارهم أمام «خيل الإله» من جيوش المولى عبدالرحمن بن هشام:

أحاطت بهم خيل الإله ورجله
وحاق بهم شؤم الخسارة والمكر
فاضحوا حروفاً أعجمت برصاصهم
وأشكلها ضرب المهند والسمر
وهم فرّق أسرى وقتلى وفرقة
تحكم في أعراقها لجج البحر

وهكذا يكون جزاء الذين عاثوا في الأرض فساداً، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واعتدوا على حرمة المسلمين وحقوقهم وديارهم، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ويبس المصير.

2 - الإشادة بالخصال العسكرية للإمام قائد الجيوش:

يورد الشاعر صوراً متعددة لبطولة الأمراء والملوك، الذين يحاربون الثوار والعصاة وأعداء البلاد - داخل المغرب وخارجه - على رأس جيوشهم وأجنادهم، حتى ينقادوا لأمر الله ويدعنوا للإسلام، أو يركنوا للسلام. ويعمد الشاعر من خلال صورة إلى وصف بلاء هؤلاء الملوك والأمراء والقادة وقدرتهم وبراعتهم في تسيير جحافلهم وفتكهم بأعدائهم، ويجعل منهم المثل الأعلى في القيادة المحكنة، والبطولة المثالية، والجهاد المستميت. وبذلك يتم شاعر الجهاد ما بدأه المؤرخ.. ويلتحم فن المديح بشعر الجهاد.

قال المعتمد بن عباد في يوسف بن تاشفين المرابطي الذي سيلقى جزاءه الأوفى على جهاده بالأندلس في يوم الزلاقة.

ستلقى فعالك الحساب
تنشر بالمسك منك انتشارا

وللشهداء ثناء عليك

بحسن مقامك ذاك النهارا

ويقول محمد بن مسعود بن أبي الخصال، مخاطباً تاشفين بن علي لما خلاص الإسلام بالأندلس من قبضة أعدائه:

فأسلمتهم إلى الإسلام غدوتهم

وأذهبَ السيفُ ما بالذقن من حنكٍ

بيّضتَ وجهَ أمير المؤمنين بها

والأرض من ظلمة الإلحاد في حلك

وحسبك الله فرداً لا نظير له

تغنيك نصرته عن كل مشترك

وقال شاعر الموحدين في عظمة المهدي بن تومرت ومضاء سيوفه في غزواته:

إذا خطبت راياته في وسط محفل

ترى قمم الأعداء في الترب تسجدُ

وإذا نطقت بالفعل فيهم سيوفه

أقر بأمر الله من كان يجحد

ويقول آخر في عبدالمؤمن الموحي الذي حارب الإلحاد والشرك، وجاهد في

الملحدين الضالين، وقلده خلفاؤه من بعده في جهاده:

خلائفُ عبدالمؤمن الملك الذي

بسرٍّ من الهدى قد كان فيهم يهتدِ

ودوّخ أكنافَ البسيطة بعده

وأعلن بالتوحيد في كل مسجدٍ

وأبناؤه من بعده أعملوا الظُّبَا

وأَمْضُوا سيوف الله في كل ملحدٍ

وإذا أوقد الفتنة العمياء مُوقدُها
يطفئها الخليفةُ بحدٍّ صارمه
ويقول أبو العباس الجراوي في المنصور الموحدي:
نارُ من الفتنة العمياء أطفأها
سعد الإمام وحدُّ الصارمِ الذكرِ
ويصف محمد بن غالب البنسي الخليفة الموحدي بأنه سيف الله يقطع دابر الكفار:
وإنما هو سيف الله قلده
فموضع الحدِّ منه حدُّ مشهور
فإن يكن بيد المهدي قائمُه
أقوى الهداة يدًا في دفع محذور
ويصف أبوبكر بن المنخل الإشبيلي الالتحام القوي الرابط بين الإمام الموحدي
عبد المؤمن وجنوده في ساحات الوغى لإعزاز دين الله:
وإن عصفت ريح الوغى أحدقوا به
فكانوا له جسمًا وكان لهم قلبا
رأوا بك دين الله كيف اعتزازه
وأنتم له حربٌ فكانوا له حربا
وقال أحمد بن السيد الإشبيلي في وقائع الخليفة عبد المؤمن الموحدي، وبلائته
لنصرة راية الإسلام التي فاقت وقائع الفتح الإسلامي في شدتها وضراوتها:
وكم له وقعة في كل طاغية
علت على وقعات الأعصر الأول
ولا تمنع جيش أن يدين له
إلا توزع بين القتل والنفل

كل يولي صريح العدل صاحبه
والسيف يسبق ما يأتي به العذلُ

ويخلد أبو العباس الجراوي دخول عبدالمؤمن الموحي إلى جبل الفتح، كأنه
تتمة ليوم بدر، وبذلك تعد فتوحاته حلقة من سلسلة الغزوات الإسلامية لإعزاز
الإسلام والمسلمين:

منه يعاود هذا الفتح ثانيةً
أضعاف ما حدثوا في سالف الحقبِ
ويلبس الدين غضا ثوب عزته
كأن أيام بدرٍ عنه لم تغبِ
ولم حل بالأندلس أتم الرسالة «الجهادية» التي افتتحها سابقوه:
وافيت أندلساً فأمن خائف
وسما لأخذ الثار ربَّ النارِ
أتممت ما قد أملوه ففاتهم
من نصر دين الواحد القهار
فأصبح حسام الخلافة الإسلامية في الغرب الإسلامي على هذه الصورة:
شرف الخلافة أن ملكت زمامها
وغدوت من عقب الإمام إمامها
طبع الإله لها حساماً صارماً
يحمي جوانبها وكنت حسامها
وبذلك يكون سيفه قد قضى على كل شرك أو زيف أو اعتداء على حرمة الإسلام:
فكان سيفك نقاداً له بصُرْ
نفى الزيوف وأبقى خالص الذهبِ

وهكذا أمست سيوف الخليفة الموحي لا يصيبها الصداً من كثرة شرب
«دما» الملحين والمعتدين على الإسلام:

فقد نهلت سيوفكم وعلت

فما تشكو الصدا أبدا لظاها

وكيف لها أن تبقى بدون نهل وعلل، وهي «ماسكة» بيد الخليفة الموحي
المجاهد قائد الفتح والهدى:

يقول أبو الربيع سليمان الموحي يخاطب المنصور الموحي:

والسيفُ أعدلُ حاكمٍ فقضى لِهـ

ـذي أن تصانَ وهذه أن تُسفكَ

قدت الهدي مثل الصباح تبلجاً

وحملت ليلاً للردى محلوكا

بموحدين مصممين عدوهم

جعلوا دليلَ الفتح فيه عزمكا

ويقول أبو العباس الجراوي في المنصور «الصالح المصلح»، الذي يستأصل
الكفر بسيفه:

بئمن الإمام الصالح المصلح الرضى

نضاً سيفه الإسلام فاستأصل الكفرا

وقد جاهد في سبيل الله حتى غزا الدين الإسلامي الحنيف ربوع الأندلس:

جاهدتُم في الله حقَّ جهادهِ

ونهضتُم بحماية الإيمانِ

وتركتُم أرضَ العدا وقلوبهم

في غاية الرَجَفان والخفقان

وغزاهم الدين الحنيفي الذي
كتب الظهور له على الأديان
ويقول عبدالعزيز المزروزي في أبي يعقوب المريني الذي يحمي البلاد من
«ذئابها» وأصحاب فتنتها:

من لم يزل يسبي الفوارس في الوغى
إن سلَّ يوماً في الكريهة مُرهفاً
فاليوم لا تخشى النُعماء ذئابها
ويعود من يسطو بها متعطفاً

ويقول:

ولا شمسٌ إلا وجهُ يعقوبَ إذ بدا
تراه لدى الهيجاء والحرب مُسَعْرُ
ويقول علي الخزاعي في المتوكل على الله أبي عنان المريني، الذي أقام الله به
الخلافة الإسلامية، وقوم به عماد الدين وأعزه:
أقام بك الله الخلافة بعدما
وهت وعماد الدين إن هدَّ جانبه
وناضلت عن دين الهدى غير مقصرٍ
فَعَزَّ ولولا أنت عَزَّ مغالبه
وما دأب السلطان المريني إلا الضرب والطعان والجلاد في سبيل الله، وما هو
إلا صارم مجرد للعراك والجهاد:

ينشد ابن زمرك في أبي سالم المريني:
وإن أمير المؤمنين لجامعٌ
مناقب مجدٍ دونها الجمعُ والضربُ

في السلم بدرُ شأنه الجودُ والندى
 وفي الحرب ليثُ دأبه الطعن والضربُ
 ويقول محمد بن عمر الزناتي في أحمد المريني:
 ولم أنسَ سهمًا في الكنانة لم تزلْ
 تصيب به الأغراض تنأى وتقربُ
 وينشد آخر في أبي عثمان المريني:
 وخلفَ عثمانًا فلله صارمُ
 به بانَ للإسلام شرعٌ ومذهبُ
 فكم في سبيل الله شَنَّ إغارةً
 لما شاد أهل الكفر أمست تخربُ
 ويقول عبدالعزيز الملزوزي في أبي مالك المريني «ليث الحروب» و«مذل الأعادي»:
 أبو مالكٍ ليثُ الحروب وغيثُها
 وبدرٌ إذا ما الحرب بالنقع فاحمُ
 مذل الأعادي في سماء عجاجة
 بها البيض برق والدماء غمائمُ
 وينظم سعيد الحامدي في خصال محمد الشيخ السعدي الحربية قائلاً:
 إمام إمام عدد الطعن بالقنا
 وعَلِمَ حدَّ السيفِ حرَّ الغلاصمِ
 فلست ترى في الشرق والغرب مثله
 سلوبًا لأسبلاب الأسود الغواشم
 ملكت على الأعداء بالسيف سيفهم
 جهارًا وكان السيفُ أعدلَ قاسم

ويقول محمد الهوزالي في المنصور الذهبي السعدي المجاهد الظاهر في
سبيل الدعوة الإسلامية والقضاء على الشرك والإلحاد :

فاسأل الركن والمخازن عنه
إذا جلا الخطب عند ضنك المجال
وحمى بالبيض وسمر العوالي
حوزة الملك من أذى كل قال

وينشد أيضاً :

بيُمن أبي العباس صالت سيوفُنا
على الشرك حتى ليس للشرك حارسُ
وينوه عبدالعزيز الفشتالي بفتوحات المنصور الذهبي، وشدة بأسه في حركات
جهاد :

هزبر إذا زار البلاد زئيره
تضائل في أجامها أسد خفان
قضى الله في عليك أن تملك الدنيا
وتفتحها ما بين سوس وسودان
وينظم محمد الفشتالي في صوارم المنصور التي ضربت «التثليث» الضربة القاضية:
وجردت في ذات الإله صوارمًا
تصول بها والعاجزون نيامُ
ضربت بها التثليث للحتف ضربةً
فلم يبق بها للصليب قيام
ويقول أحمد بن القاضي في «سيف السعديين» الذي بلغ مأموله في القضاء
على «سيف» الردى والعصيان :

يا أيها المنصور أبشر بالعلى
الله بلغك في العدا المأمولا
أنضى لكم سيفاً لحتف عداته
وبكم غدا سيف الردى مقتولا
ولما آلت مقاليد الأمر إلى المولى إسماعيل العلوي، صار كالهزبر يعيد للإسلام
عزته وللمغرب ثغوره:

قال محمد بن يوسف الفاسي:
هزبر البس الإسلام عزاً
والبس ضده ثوب المحاق
وجَدَل عصبه الإلحاد قهراً
وعَمَّر بالهدى أرض النفاق
به نصر الإله على الأعادي
جيوش المسلمين لدى الخناق
وردد محمد القادري في ناصر الإسلام والدين ومبيد قلاع الكفر:
أبي النصر إسماعيل ناصر ديننا
وحامي الحمى بالمرهفات البواطش
أباد حصون الكفر بالسيف والقنا
وما أذعنت من قبله لمباشش
وينشد حمدون المرداسي في المولى سليمان، المجاهد الذي قضى على أهل
الفتن والطغيان، وأباد جموعهم وشتت شملهم، كما شتت شمل الكفر يوم بدر:
قتاله إياهم مبيد جموعهم
أيادي سبأ وإنما يومه بدر

وتنشب أظفارُ المنية فيهم

ولم ينجهم من بأسٍ وقفته وعزُّ

ويقول محمد أكنسوس في المولى عبدالرحمن بن هشام «الملك المرهوب» الذي

لا يشق له غبار:

هو الملك الجمجام ليس لمعتدٍ

سواه إذا دارت عليه الدوائرُ

هو السيد المرهوب يفلق بأسه

رواسي الأعداي لا تقيها المغافر

وينظم محمد ابن ادريس العمراوي في وقائع و«مشاهد» المولى عبدالرحمن

التي تتحدث بها الركبان:

كم من مشاهدٍ بالتمكين شاهدةٌ

ومن مواقف فيها النصر ينتشرُ

ومن وقائع في الأعداء قد بهرت

سارت بصورتها الركبان والخبر

وفي بطشة بعصبة الشياطين وقد تركهم «كحصب الفيل»:

حكمت سعادتك العليا في العدا

حكم ابن ذي يزن على الحبشانِ

تركتهم صرعى كحصب الفيل أو

عاد لما ارتكبوا من العدوان

فشاعر الجهاد يصف الملك المغربي، مرابطياً كان أو موحدياً أو مريئياً أو

سعدياً أو علوياً بأنه: الحارس الأمين على إسلام هذا البلد وأمنه وسلامته، والمدافع

الصنديد ضد أعدائه وخصومه، والقائد الموجه لجيوشه وحجافله، والمجاهد في

سبيل إعلاء كلمة الله وتمتين وحدة البلاد الدينية والسياسية، فكل همته للإسلام مصروفة، وكل جهوده لقمع أعدائه موكولة. وهو:

فعال منتقم لله ملتزم به

في الله معتصم بالله مقتدر

☆☆☆☆

«يبيد العدا قتلاً ونهباً ومأسراً

ولا فضل إلا للقنا والقواضب

☆☆☆☆

يكف «به» العادي ويحيا «به» الهدى

ويبني به الإسلام ما هدم الكفر

☆☆☆☆

هو «الصقر» مهما اهتز كل مجلجل

«هزبر» إذا ما أنشب الناب والظفرا

هو «الغوث» إن دارت رحى الحرب واللقا

و«غيث» إذا ما المزن ما أمطرت قطرا

3 - تعدد مناقب الملك المغربي - قائد الجهاد - المرتبطة بالخصال العسكرية:

يعني شاعر الجهاد - عن حب صادق - بمناقب وخصال ممدوحه، قائد الجهاد. فمواقفه البطولية والإنسانية والخلقية توحى إليه بأوصاف ومناقب ملكه المجاهد، فيعدنا وينشد فيها، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخصال العسكرية والمزايا الحربية وصفات الشهامة التي أتينا على ذكرها.

فعبدالمؤمن الموحي هو الحاكم العاقل وصاحب «النقض والإبرام»، الذي يجمع بين الحكم والقوة.

يقول ابن حبوس:

ألا أيها ذا البحر جاورك البحرُ
وخيم في أرجائك النفع والضرُ
وجاش على أمواجك الحلم والجبا
وفاض على أعطافك النهي والأمرُ

وهو المصلح لما أفسد الدهر:

هنيئاً لأهل الغرب أن حلّها امرؤ
به تصلح الأيام إن فسد الدهر
والخليفة المنصور الموحي، هو عند أبي العباس الجراوي الملك الحازم في
السياسة الدينية والدنيوية والحليم عند الانتصار:
وأحزم من ساس الديانة والدنا
وأكرم مأمول وأحلم قادر
ومفتح الأفهام، ومصلح العقول، ومقوم الأفكار:
ومجرد الأفهام من صدإ العمى
ومفتحاً ما كان منها مقفلاً
وهو الملك العادل المحافظ على أصول الشريعة السمحاء:

يقول عبدالله الشبلي:

قسطاسٌ عدلٍ لا يميلُ فإن رأى
ميلَ الشريعةِ أمّها فأقامها
وعلى الخليقة أن تلوذ بسيدٍ
يجري على سبيل الهدى أحكامها

ومن أعظم الصفات التي يتصف بها الملك المغربي: العفو عند المقدرة، الذي هو من أعظم الشيم العربية.

يقول أبو القاسم الرحوي في إبراز هذه الصفة لأبي الحسن المريني:

وإذا «بإغريس» أحاطوا لم يكن
لأهلها إلا إليك المهربُ
فكسوتها العفو الجميل وإنه
لك شيمة يا سيدي ومذهب

ويتصل الملك المغربي بالخلق الجميل الحسن، يقول عبدالله النجاري في أبي يعقوب يوسف المريني:

ملكٌ حباه الله بالخلق والرضا
وأعلى له في المكرمات المنازلا
وإذا بدد جمع الكفر في ساحة المعركة، فهو يبذل الأموال في ساحة العطاء:
يبذل جمع الكفر رعباً وهيبَةً
كما بذل الأموال جوداً ونائلاً

وقد كان أبو عنان المريني ميالاً إلى السلم لما يجنح أعداؤه إليه، ولكنه طعان لمن ناصبه العدا، قال علي الخزاعي مخاطباً المتوكل على الله:

تسالم من قد أوجب الشرع سلمه
وتقطع في نصر الهدى من يناصبه
فيا سعد من سألتموه فقد نجا
ويا ويل من كانت مرين تحاربه

ثم يلتمس منه بأن يبقى يؤمن الناس من الخوف والفرع، ويحميهم من الظلم والاستبداد:

فدم لرجا راج وتأمين خائف
ونصرة مظلوم تضيق مذاهبه
كما يدعو له ابن عبد المنان بأن يقيه الله فارس الهيجاء، وحامل مشعل المكارم الحميدة والآراء الحصيفة:

يا فارس الهيجاء دمت لحكمة
ومكارم وبسالة وسخاء
ولك الخطاب الفصل والفضل الذي
لم يختلف فيه ذوو الآراء
أما أبوسالم المريني فهو يجمع أيضاً بين الكرم في السلم والطعن في الحرب، يقول محمد ابن زمرك:

ففي السلم بدر شأنه الجود والندى
وفي الحرب ليت دأبه الطعن والضرب
ويجير من طلب العفو والسماحة، يقول ابن الخطيب في ذلك:
أجرت وأويت الغريب وإنها
سجية من عزت وطابت مناسبه
ولا يحصى له عد ممن رده عن غيه وهده إلى رشده، يقول ابن الخطيب:
وكم معتد أردى وكم تائه أهدى
وكم حكمة أضفى وكم نعمة أبدى
وكان إبراهيم أبوسالم المريني متحلياً بخصلة الصبر على الشدائد، وهي صفة محمودة عواقبها. يقول أبو القاسم البرجي:

صبرت نفساً لعقبى الصبر حامدة
والصبر منه كان محمود عواقبه
وينعت عبدالله بن رضوان أبا فارس عبدالعزيز المريني، بأنه الملك الشهم
الماجد الذي أعز الإسلام وأذل الكفر:
ملك حمى دين الهدى سلطانه
وأذل دين الكفر قاهر عزته
فهو الكريم الماجد الشهم الذي
تعنو الملوك له فخامة سطوته
كما يصف ابن الأحمر أبا العباس أحمد المريني بأنه خبير بالشؤون السياسية،
وبأن عزمه ماض كمنهده:
بصير بتأسيس السياسة حول
خبير بتدبير السياسة قلب
تقلدت أعلاه من المهند ماضياً
كعزمك لا ينبو له الدهر مضرب
وأنه العالم الذي يعز العلم والعلماء:
وأعليت قدر العلم أن كنت عالماً
فقيهاً وفي طلابه لك مأرب
وكان المنصور الذهبي الملك العادل يحكم بلاده بالقسطاس. قال محمد
الفشتالي:
هو الملك المنصور لا زال عدله
تروى به الغبرا سربا وبطاح

وللمنصور قدرة وحزم ودراية وحكمة سياسية لتسيير دولته، ودول أخرى معاً .
قال عبدالعزيز الفشتالي:

يد لأمير المؤمنين بكفها
زمام يقود الفرس والروم والقبط
وهو الحارس الأمين لرعاياه من اعتداء المعتدين، يقول عبدالواحد الحسني
السجلماسي:

فنحن بكم في مأمّن أي مأمّن
كفّيت عدوات فاطمأنت مضاجع
أمنت الرعايا في ظلال ظليلة
وسيفك بتار ورمحك شارع
وإذا كان غيره من الملوك يخشى الحرب والوغي، فإن الوغي هي التي تخشى
المنصور السعدي، وتخاف من بطشه وصرامته وثباته في جهاده. يقول شاعرنا:
كل الملوك سواء قد يخشى الوغي
والحرب وهو تخافه الهيجاء
ويقول أبوالقاسم بن علي الشاطبي مخاطباً المنصور المجاهد:
أنت الذي عرف الجهاد ثباته
ورسوخه يوم الوغي إقداما
لا يعدون النصر سيفك إنه
سيف يحوط الدين والإسلاما
وقد كان صدى قوة وشدة المولى إسماعيل في حروبه يصل إلى البلدان
المجاورة فترتعث خوفاً وفزعاً، يقول العربي الفيلالي:

له الفتح في كل المعازل آية
فإن رياح النصر قد أمه تمرى
به زلزلت أرض الجزائر خيفةً
كما اهتزت الأهرام بالرعب من مصر
وفوق ذلك كان سلطاناً ميموناً تحفه البركة والعناية الربانية، قال محمد القادري:
ملك له يمن به صار كلنا
يروح ويغدو في أجل معاش
مبارك ميمون التقية في الثرى
له الفتح في أوساطها والهوامش
ويعدّد محمد ابن ادريس العمراوي مناقب المولى عبدالرحمن بن هشام التي
اتصف بها ورافقته في «رحلته الجهادية»:
قد صاحبته مع الأيام أربعة
الفتح والنصر والتمكين والظفر
وساعدته من الرحمن أربعة
السعد واليمن والتوفيق والقدّر
وهو جريء لا يهاب الحرب والأهوال ولا يخاف في الله لومة لائم:
فما يهيب بحر الهول يركبه
ولا تجنب نار الحرب يصلها
وإذا ما حقق انتصاره على أهل الفتن والاعتداء، فإنه يصفح على الأحياء
منهم، ويعفو على التائبين، ويرق للضعفاء منهم، يقول الشاعر الوزير:

فرق أمير المؤمنين لحالهم
وعاد بحلم أنه الراحم البرُّ
عفا عنهم مولاهم عفو قدرة
وقابلهم من فضله الصفح والبرُّ
ويقول محمد اكنسوس متحدثاً عن نفس الخصال والمزايا للملك العلوي من
حلم وعفو وصفح وفضل ونبل:
فلو جناح البغاة إلى إمامٍ
له للفضل والعليا جنوح
لألفوا سيّداً ملكاً حليماً
أما يدرونه وهو الصفوح

هكذا كان شعر المديح في قصيدة الجهاد، شعراً واقعياً وجاداً، لا مبالغة فيه
ولا إسراف في معناه، ولا غرابة بديعية في مبناه. أطنب شعراؤه. ولم يكن هناك
أنسب من الإطناب لوصف الانتصارات ومدح الخلفاء والملوك وتهنئتهم بالفوز على
كل من عداهم.

4 - تهنئة الملك المغربي بالفوز في جهاده والدعاء له بالنصر والظفر؛

في انتصار الملك المغربي انتصار للدين الإسلامي. فإذا هنا شاعر الجهاد
الملك على انتصاره وفوزه وفتوحاته في حروبه بالجهادية فهو في الحقيقة يهنئ
الإسلام ويحمد انتصار الإسلام. وإذا دعا للملك بدوام النصر والعز والتأييد
وللمجاهدين، بأن يؤيدهم الله بنصر من عنده، فهو في الحقيقة يدعو للإسلام
بأن تبقي رايته في هذه الربوع خفاقة منصوره مؤيدة.

فيدعو أبو العباس الجراوي لعبد المؤمن الموحي بعد فتحه للأندلس بدوام
النصر:

وانصر أمير المؤمنين وأوليه
منك العلا في الورد والإصدار
ويهنئ أحمد بن حريون أبا حفص الهنتاتي بالفوز الذي أحرزه على أعداء
الموحدين:

أسيدنا أبا حفص هناكم
ويهني الدين فتحكم الهني
لا زالت صوارمك المواضي
وفيها من دماء عداك يري
ويدعو له عبدالله بن محمد ابن صاحب الصلاة بأن يبقيه الله ما حقاً للكفار:
ولا زال أمر الله للدين هادياً
وأنت لدين الكفر ماحٍ وماحقُ

وإذا كان ابن حريون يستبشر بفتوح يعقوب المنصور الموحي:
هذي فتوحكم بالغرب قد طلعت
على الأنام طلوع الشمس في الحمل
فإن أبا الربيع سليمان الموحي، يدعو له بأن يديمه الله حامياً للإسلام:
ويحميك من تحمي بسيفك دينه
فلا زلت محمياً ولا زلت حامياً
رجونا لديك النصر في كل حالة
على من عدا بالغي في الناس باغيا

ويهنئ بفضله في غزوة الأرك:

اهنأ أمير المؤمنين بغزوة

قالت لك الأقدار فيها هل لك

إن الفتوح عظيمها وجسيمها

لم تدخر لخليفة إلا لك

ويهنئ ابن المرحل الأمير أبا مالك المريني بالفوز والظفر على أعدائه:

مولاي يهنك ما أعطيت من ظفر

على عدا أصبحوا في حيرة وعمى

ويدعو له بالنصر على النصارى بالأندلس:

يا رب وانصرنا على أعدائنا

يارب واعصمنا فأنتم تعصم

ويهنئ ابن عبدالونان أبا عنان المريني بنصره المبين على العدا:

هنيئاً لكم نصر مبين على العدا

وطول سعادتها متدائم

ويهنئ ابن الخطيب أبا سالم إبراهيم المريني بنعمة الفوز على منكري النعمة:

هنيئاً أمير المؤمنين بنعمة

لها أثر في الدين تبدو مذهبها

كما ينشده ابن زمرك مهناً إياه بأجر الجهاد:

لله رحلتك التي نلت بها

أجر الجهاد ونزهة الأبصار

ويوجه إليه أبو القاسم البرجي نفس التهنة على انتصاره للدين:
فليهن دين الهدى إن كنت ناصره
أمن يواليه أو خوف يجانبه

ويهنئ محمد بن علي الهوزالي محمد الشيخ السعدي بالفتح الذي أحرزه على
موقدي الفتنة طالباً أن يجزيه الله خير الجزاء:
جزيتم بني المصطفى بالتي
يجازي بها من يقيم الملال
فلا زلتُم في ذرى عزّة
تصون مهابتكم والجالل

ويدعو علي بن منصور الشيطمي للمنصور بدوام الفتوحات:
ودمت تجني ثمار الفتح يا نعة
من أرض كل عدو وهو مصفود
ولما هاجم المغيرون السواحل المغربية، لجأ شعراء الجهاد إلى التوسل والدعاء
بأن يمن الله عليهم بنصر من عنده ويهزم المعتدين الظالمين:

قال ابن جبش:
فنسال مولانا بجاه نبيه
خلاصاً وتوفيقاً لكل فضيلة
وأن يهلك الأعداء حتى يبيدهم
ويجعلهم فينا لأفضل أمة
وينصر جيش المسلمين بعزة
ويجمع منهم كل شمل مشئت

وعندما خرج المولى إسماعيل لفتح العرائش، توسل الرافعي للعلي القدير بأن
يسر له أمر فتحها:

يا ربنا افتح أمر العرائش يا
رب العماد ومسدي الخير والنعم
يسر لدى المسلمين فتحها عاجلاً
واحفظ غزاتك من سوءٍ ومن نقم
ولما تم استرجاعها، هنا محمد بن الطيب القادري بهذا النصر الجديد:
هنيئاً بنصر الله أمةً أحمدٍ
وإمدادهم منه بجند مباطش
هنيأ بعز المؤمنين وجمعهم
وإذلال أهل الكفر أهل الفواحش
ولما عزم المجاهدون على استرداد سبتة المغصوبة، دعا الرافعي ربه بأن يسهل
فتحها:

يا ربَّ سلِّم ونجِّ كلَّ منتدبٍ
إلى الجهاد وحثِّ فيه واجتهدا
مرادهم سبتةَ البيضا ومينتها
سهل لهم فتحها يا خير من قصدا
ويرجو - من قصيدة أخرى - نفس الرجاء:
إلهي إلهي أنلنا المنى
وسهل لنا كل أمرٍ عسيرا
ومُنَّ علينا بفتح وكن
معيئاً يارب لنا ونصيرا

ويدعو محمد ابن إدريس العمراوي للمولى عبدالرحمن بن هشام بعد انتصاره
على الثوار وتهنئته بالفوز عليهم:

هنيئاً أمير المؤمنين بغزوة
تضعض منها الشرك وانجبر الكسر
بقيت لهذا الدين تحمي ذماره
ودام لك التمكين والفتح والنصر

ويدعو الله متشفعاً ومستغيثاً برسوله ليظهر هذه البلاد من رجز الكافرين:

وأظهر لها من عز جاهك نصرة
ترد على الأعقاب من سامها ذكرا
وتخلي ديار المسلمين من العدا
وتكسبها من بعد نجسهم طهرا

ويبقى دعاء ورجل كل شاعر علوي لسلطانته المجاهد:

بقيت لهذا الدين تحمي ذماره
ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

5 - سيطرة الروح الإسلامية والتركيز على فكرة الانتصار للدين؛

إن النصر الذي يحققه الملك المغربي بعد جهاده وكفاحه هو في الحقيقة نصر
للدين الإسلامي وانتصار للإسلام والمسلمين.

ففكرة الانتصار للدين، الفارضة وجودها في الوقائع السياسية والاجتماعية،
تخالج دائماً شاعر الجهاد في قصيده وشعره، فيبرزها إبرازاً، ويركز في مدحه
لممدوحه عليها تركيزاً. إذ هي وسيلة وغاية: وسيلة لنيل الثواب، وغاية للدفاع عن
الإسلام، وحمايته من كيد المعتدين عليه.

فشاعر الجهاد يبشر قائد الجهاد كلما خرج للجهاد - لنصرة الدين والملة -
بالنصر والفتح المبين:

فيخاطب أحمد ابن حربون أبا يعقوب يوسف الموحي قائلًا:

أبشر فكل صباح يوم إنما

ياتيك بالفتح المبين مبشرا

بيضت وجه الدين منك بعزيمة

لبس الحسام لها الرداء الأحمر

فلا خوف على الدين إذا ظل الخليفة الموحي يقظًا يسهر على سلامة ويعزه

وينصره. فيقول ابن حربون مخاطبًا أيضًا يعقوب:

إن الذي قمت تنصر دينه

أعطاك ميراث النبي محمد

اليوم نام الدين ملء جفونه

عن حزم يقظان الجفون مسهد

ويخاطب سليمان الموحي عمه المنصور بنفس الخطاب:

أليس الذي جاهدت تنصر دينه

معينًا بما جاهدت فيه وكافيا

وكم هو عظيم ابتهاج المدن التي ينتزعها الموحدون من مخالف الشرك

ويفتحونها للإسلام، فلو استطاعت مهدية افريقية ومهدية الرباط أن تنطقا

بالشكر لفعلتا، يقول أحمد الجراوي مخاطبًا عبدالمؤمن الموحي:

لو تنطق المهديتان لقاتتا

في الشكر ما لا يدرك التحصيل

بالأمس يماً سمعها ناقوسهم

واليوم يماً سمعها التهليلُ

وما هدف غزو الفاتح الموحي للأندلس إلا لإعزاز الدين الإسلامي كإعزاز
يوم بدر، يقول الشاعر القرطبي «الطليق». متحدّثاً عن عبدالمؤمن في جبل الفتح:

ويلبس الدين غصاً ثوب عزته

كأن أيام بدر عنه لم تغبِ

ويقول أبوبكر بن المنخل أيضاً:

وقد كان هذا الدين ولي شبابيه

فلما تولى الدين لم يعد أن شبا

وحتى في صيحة الاستجداد بالملوك الموحدين فإن الشاعر الأندلسي يستجد
بحق الدين الإسلامي الذي يجمع بين المسلمين في مغارب الأرض ومشارقها، يقول
أبوموسى هارون بن هارون الأشبيلي:

يا حسرة الدين والدنيا بأندلس

مهما استطال التثليث واجتراما

وحقنا واجب في الدين يجمعنا

مع الجوار الذي ما زال منتظما

ولما يتحسر شاعر الجهاد فإنه يتحسر لما يصيب الدين الإسلامي من نكسة
قد تصيبه بالأندلس، كما يقول عبدالعزيز الملوّزي:

وصار بغربنا الأقصى غريباً

فيا للدين يغترب اغترابا

ولكن حزب بني مرين بالمرصاد، لإحباط هجومات أعداء الإسلام، بكل شمم

وإباء:

فحزب بني مرين حزب الله يحمي

حمى الإسلام لا يخشى عقابا

وكيف لا ياتيهم الله بنصر من عنده، وهم متمسكون بكتاب الله إسوة بأنصار
رسول الله، كما قال ابن الخطيب:

دليلهم القرآن يا حبذا الهدى

ورھطهم الأنصار يا حبذا الرھط

ويخاطب الشاعر الأندلسي المنصور المريني بقوله:

فلقد كسوت الدين عراً شامخاً

ولبست أنت منه مالا يخلع

وإن لمن كرم الله ورحمته بدينه، أن يبعث المنصور المريني ليعيد لهذا الدين
مجده وعزته:

يقول مالك بن المرحل:

من شنة الله أن يحيي خليقته

على يدك وأن يكفيها النكما

وأن يقيم بك الإسلام من أودٍ

وأن يديم بك الإحسان والنعما

ولما نصر الله محمد الشيخ السعدي على أعداء البلاد والإسلام، انشرح قلب
محمد الهوزالي لهذا النصر الذي هو في الحقيقة نصر للدين:

فَبِنَا الْأَنْبَاءَ عَلَى دِينِنَا

وَأَبْنَيْنَا وَخَدُورَ الْعِيَالِ

واطمأن علي الجزولي على مصير هذا الدين في هذا البلد:

فَالْآنَ أَيْقَنَ دِينَ اللَّهِ أَنَّ لَهُ

سَيْفًا إِذَا هَرَّ فَهُوَ بِالْفَتْوحِ حُرٌّ

ويحمد الله محمد الهوزالي على أن المنصور السعدي توصل إلى جمع شمل
الدين بعد أن تصدع لكثرة القلاقل والفتن:

هديت أبا العباس فينا كهديه
فكم فتنة كشفت ليل عثانها
وأطفيتها بالسيف لا السلم بعدما
تصدع شمل الدين من شنانها

وما ذلك على همة هذا الملك المجاهد بعزیز، وقد جعل من حياته كلها حياة
جهاد ونضال في سبيل الله وحماية دينه من الصليبيين. يقول علي الشياظمي:

أليس هو المنصور من وطد العلا
وذب عن الإسلام والخطب مظلم
أليس الذي حاط البرية واغتنى
به الدين مرصوص المباني مفخم
فمن ظفر الإسلام منه بصارم
تيقن أن الشرك لا شك مقصم

وقد حمل المولى سليمان العلوي لواء الإسلام في كل حركاته الجهادية، يدافع
عنه وحمي حوزته في هذه الديار.

يقول محمد ابن إدريس العمراوي داعياً لسلطان العلوي:
خليفة الله دم للدين تنصره

فقد آتاك إله العرش أسعدا

وإذا مس الباغون الدين، فإن المولى عبدالرحمن بن هشام يجاهد فيهم، حتى
يرجعوا عن بغيتهم، ويكون الدين كله لله:

يقول محمد ابن إدريس العمراوي:

كم أظهر الله من عزِّ دولتهِ
للدين أن سامه الباغون وانتدروا
ومن تكن في سبيل الله نهضته
يعنو له الصعب أو يسمو به الخطر
ويحب له الشاعر الانتصار لهذا الدين الحنيف:
وانصر بسيفك هذا الدين معتصماً
بالله فهو لأهل الحق ينتصرُ
وبفضل جهاد هؤلاء الصناديد، في سبيل الدفاع عن هذا الدين الإسلامي،
وتحديده كهدفهم الأسمى وغايتهم المثلى، في جميع حركاتهم وفتوحاتهم، فإن
الإسلام بقي بخير في هذا البلد، ولم يخلف الله وعده:
وقد أنجز الرحمن للدين وعدهُ
بإظهاره والشرك بالقهر راغمُ
فالسنة التوحيد تملئ على الورى
أحاديث فتح صدقتها المغانم
وقد وفى الملوك المجاهدون، بما وعدوا، لإظهار الحق الإلهي ونصرة كتاب
الله وسنة رسوله:
قد حصص الحقُّ لا ريب ولا فند
هذي الفتوح التي كانوا بها وعدوا
فتشهد هذه الأبيات الشعرية، بأن الروح الإسلامية والأحاسيس الدينية، هي
التي تبقى مسيطرة على مضمون القصيدة بأكملها، وأن لا هدف من وراء جهاد
المغاربة إلا نصر دين الله وإعلاء كلمة الإسلام والمسلمين في ديارهم، وأن الله
نارصهم، تحقيقاً لوعده الذي أخذه على نفسه سبحانه وتعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا

نصر المؤمنين ﴿كلما أخلصوا في جهادهم، مُعتدِّين بأنفسهم، ومستهيئين بقوى الباطل والبغي.﴾

6 - التمني بتوسيع حركة الجهاد إلى المشرق واستعادة الخلافة الإسلامية الكبرى:

كان الموحدون بعد فتح إفريقية والأندلس، والسعديون بعد فتح السودان، يأملون تحقيق فتوحات جديدة في المشرق، كما حققوها في المغرب الإسلامي. وكان شعراؤهم يمنونهم بهذه الفتوحات الشرقية، حتى يضم ملوك المغرب الجناح الشرقي إلى الجناح الغربي من العالم الإسلامي، ويحققوا الخلافة الإسلامية الكبرى. وكان حامل لواء هذا «الحلم» والضارب على هذا «الوتر الحساس» هو شاعر الجهاد.

فبعدما يهنئ الشاعر ملكه بالفتح الذي حققه في الغرب الإسلامي، يخبره بما تركه هذا الفتح من صدى في الشرق الإسلامي، الذي ينظر إلى الملك المغربي الفاتح، نظرة إكبار وإجلال واحترام.

يقول أبو الربيع سليمان الموحدي في المنصور الموحدي، بعد غزوه لإفريقية:

يهنيك يا خير الخلائق غزوة

كشفت عن الدين بها اللواء

وارتج بغداد ومأج بغزة

أرض الشام ومصر والبلقاء

وعندما حقق المنصور انتصاره على ابن إسحاق، وفتح بجاية، خاطبه الجراوي

قائلاً:

سينظم السعد مصرًا في ممالكه

حتى تدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى
أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
ولما حقق المنصور الموحي انتصاره في غزوة الأرك بالأندلس، خاطبه
الجرابي أيضًا:

وانعم بفتح جل طالعه
عمّت بشائره مصرًا وبغدادا
وكان الخليفة المنصور الموحي بعد فتحه للأندلس متيقنًا، حسب الشاعر
الأندلسي - ابن السيد الإشبيلي - من فتحه لفارس إذا تقدم لغزوها:
ولقد تيقن أن ستفتح فارس
بجنوده قسرًا وتفتح جلق
وبقي الشاعر الأندلسي يحث الخليفة الموحي على فكرة غزو الفرس بعد
غزوه للروم بالأندلس:

يقول علي بن حزمون:
حكمت أسيفك سيدنا
في كل مصر الكفر مسي
ومضت في الروم مضاربها
وكذلك تفعل في الفرس
لا يخلف ربك موعده
دوخ أقطارهم ودس
ولما فتح أبو الحسن المريني تلمسان وتونس، «تلهف» الشرق الإسلامي - كما
يقول الشاعر أبو القاسم الرحوي - لاستقبال الملك المغربي الفاتح العظيم:
أجابك شرق إذ دعوت ومغرب
بمكة هشت للقاء ويثرّب

وناداك مصرُ والعراق وشامه
بدارا فصdec الدين عندك يشعب
وعندما فتح المنصور الذهبي السودان أنشد أبو الحسن علي بن أحمد
المسفيوي، يمينه بإعادة فتح الأندلس، وضم الشام إلى المغرب:
وتنال أندلسًا وجود ربوعها
برد المنية من غمام العثيرِ
فلسوف يطوي مغاربًا ومشارقًا
ويزور دجلة والفرات بعسكر
ويستعجله في ذلك لإنقاذ «الشرق الإسلامي»:
عما قريب سوف ترغم قيصرًا
ويجود أندلسا سحاب وبالِ
حتى تسربل ذلة أحزابه
ويصير رهن القيد والأغلال
بل يذهب شاعره عبدالعزيز الفشتالي أبعد من هذا، فيمينه - بعد استرجاعه
للأندلس - بغزو بغداد وعمان وبلاد الفرس وحتى الحرمين بطريقة أدبية شاعرية:
وأنك تطوي الأرض غير مدافع
فمن أرض سودان إلى أرض بغدادِ
وتملأها عدلاً يرفُ لوأؤه
على الحرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا
ووافقت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم
أتاك استيلاً تاج كسرى وخاقان

فلا زلتَ للدنيا تحوُّطُ جهاتها

وللدين تحميه بملك سليمان

ولما وحد المنصور السعدي شطري البلاد المغربية شمالها وجنوبها - بعد
عودته من السودان - رجا منه شاعره عبدالعزيز الفشتالي أن يولي وجهه نحو
المشرق الإسلامي، الذي ينتظر «التملي» بطلعة الفاتح المغوار:

فَادْرُكْ مِصرَ والعِراقَ وَيَمِّمْ

حَرَمَ الحَيِّ الكَم خِير آلِ

إن شرق البلاد يرجوك شوقًا

مثل ما يرتجى طلوع الهلال

كما يخبر محمد بن علي الهوزالي الملك المنتصر بأن العالم الإسلامي كله،
ينتظر منه أن يقضي على أرباب الفتن، الذين عاثوا في الأرض فسادًا:

فلا زالت الأقطار تعطي قيادها

لسيفك من سوس إلى خراسانها

وحتى الفشتالي خاطبة داعيًا:

بشير ملوك الأرض أنك فاتح

بالمشرفي على الملا ما أغلقوا

ولما فتح المنصور السعدي «السوس الأقصى» في الجنوب المغربي، بشّره
الشاعر علي بن أحمد المسفيوي بأن الفتح السعدي سيمتد إلى أقصى الشرق
ليجتمع الشمل، وما المشرق ببعيد عن المغرب:

ليهنئه ملك الأرض موطدة له

سينتظم السوس الأقصى إلى النهر

فما دون درب الشام إلا التفاتة

وما دون بغداد العراق سوى فتر

فإذا أسلم المغرب الإسلامي لسلطان الخليفة السعدي - الفاتح الهمام -
فلماذا لم ينقد المشرق لخلافته وسلطانه، وتتحقق بذلك الوحدة الإسلامية رغم
عداء الأعداء، فيرسلها محمد بن علي الهوزالي صيحة مدوية:

لئن أسلمت أرض الجنوب مقادها
فعن كثبٍ تلقى مقاليدها مصرُ
وتزور زوراء العراق فتهتدي
إليك وأعناق العدا خضع صُغر
وتخفق بالوادي المقدس رايةً
عليك وتلوي فيه ألوية حُمر

ويقول محمد الوجدي الغماد مخاطباً المأمون السعدي:

الله مَلَكُ البسيطة فوق ما
نطقت بذلك ألسن الأجفارِ
ترجو لقاءك مصرُها وعراقُها
وحجازُها والشامُ دون ثمار

ويرى علي بن أحمد المسفيوي أن الملك السعدي، بعد أن يضم «الجنوب
الإسلامي» إلى شماله، فإن انتصاراته على «الصليب» في جهات أخرى من العالم
الإسلامي، ستؤتي أكلها بإذن الله.

فدان الجنوب وهذا الشمال
ستنظمه بعد في أقطارِ
وقد كنت أعثرت ضد الصليب
ستعثره ضد ذاك العثار

وبذلك يتحقق الأمل الذي يراود الملك المغربي: ضم المشرق للمغرب، والشمال
(وهو الأندلس) للجنوب (وهو السودان).

يقول محمد بن علي الفشتالي في هذا الأمل «المنشود» مخاطباً المنصور الذهبي:

وتضيفُ مُلْكَ مشارقٍ لمغربٍ
عفوا كنظم جنوبها والشمالِ

فكان شاعر الجهاد ينظر إلى الملك المغربي نظرة بعيد المدى.

فإذا حارب هذا الملك الروم في الأندلس وجاهد فيهم، وانتصر عليهم وضم الشمال الإسلامي إلى جنوبه، فما يمنعه أن يضم المشرق الإسلامي إلى المغرب الإسلامي، ويصبح على رأس الخلافة الإسلامية، يوحد مذاهبها ويصحح مناهج حكمها، ويحميها من أعدائها، وهو الملك الذي سار على نهج الخلفاء الراشدين في جهادهم وفتوحاتهم:

أنت الذي نخر الإله لوقته
في الفتح ما وعدت به الخلفاء

7 - التفاخر بالشهامة والإباء؛

يمكن القول بأن القصيدة الجهادية لها وجهان. الوجه الأول يعبر عن الانتصار للدين الإسلامي وتحبيذ الدفاع عنه، والوجه الثاني يهدف إلى فنين: فن المديح، وفن الفخر والحماسة.

إلا أن هذا الفخر قد يختلف في شعر الجهاد عن فخر الشعراء الآخرين. إذ يصور شاعر الجهاد في فخره وتفاخره، إيمانه القوي بفكرة الجهاد وتفانيه في سبيلها مبرراً أعظم معانيها وأبلغ مقاصدها. وهذا اللون من شعر الفخر هو أصدق أنواع الفخر الأخرى لاصطبائه بالعاطفة الدينية والغيرة الإسلامية، وتصويره لجو المعركة وأدواتها ومستلزماتها وعدتها، ولإبرازه لمناقب الجهاد من - شجاعة وإقدام - وثبات على المبدأ، وصبر على الشدائد.

يقول المولى إدريس ابن إدريس منشداً ومفتخراً على أعدائه الخوارج من
البربر بأن الأدارسة رجال حرب لا تيور وجهاد لا يفتر:

فلسنا نملُّ الحربَ حتى تملُّنا
ولا نشتكي مما يؤول إلى النصب
ولكننا أهل الحفاظ والنهي
إذا طار أرواح الكُماة من الضرب

ويقول ابن حمديس مفتخراً بشجاعة المرابطين وحماسهم في الهيجاء:

إذا طعنوا بالمسهرية خلَّتْهم
ضراغمٌ تُغري بالقلوب أرقاما
وإذا كر منهم ذو لئام مصمم
غداً لفهم الهيجاء بالسيفِ لاثما

ولم يفث الأمير عبدالله بن المنصور الموحي أن يفتر على لسان أهل العدل
والتوحيد:

ألستَ ابنَ من تخشى الليالي انتقامهم
وترجو ندامهم غاياتُ السحائبِ
يخطون بالخطى في حومة الوغي
سطور المنايا في نحور المناقب

ويقول ابن المرحل على لسان المنصور المريني، مفتخراً بحسن جهاد المرينيين
في الأندلس وصادق نضالهم:

لما دعا الداعي وردد صوته
قمنا لنصرته ولم نترددِ
نسري له بأسنةٍ قد جُرِّدتْ
من عضبها والفتح لم يتجرّد

نسري بأجنحة البرزاة إلى العدا
مثل الحمام الحائمات الورد
لولا رجال من مرين قاتلوا
عنكم لكنتم كالنساء الخرد
لولا رجال من مرين دافعوا
عنكم لكنتم بالحضيض الأوهد

ويقول الأمير أبومالك عبدالواحد بن يعقوب المريني، مفتخرًا بحمايته لشغور
بلاده، على رؤوس جيوشه لما كان قائدًا لها:

أقود الجيوش وأضلي الحروب
وأقتطف الهام بالمرهفات
وأحمي ثغوري من أن تنال
وأغزو وأنهب أرض العدا
ويقول أيضًا:

فرقت في الميدان كل مليك
وجمعت بن جرأة ونسوك
وجعلت للإسلام حدًا مالكا
كي لا يغيره العدا بسلوك
ومما ينسب لأبي الحسن المريني، وهو يفتخر بمناقبه الجليلة قوله:
أرضي الله في سري وجهري
وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارًا
وأضرب بالسيوف طلي الرقاب

ويقول ابن الخطيب على لسان السلطان المريني، مفتخرًا ببلائه لإحياء الدين الإسلامي، وبيطولته في جهاده بالعدوتين:

ظهرتُ لأحيي الدين بعد اندراسه
فطوبى لمن أمسى يساقُ له الأمرُ
أنا عمر المشهور في كل غارةٍ
أنا البطل المقدام والعالم الحرُّ

ويقول عبدالله بن رضوان المالقي، مفتخرًا بقوة الأسطول المريني، في معاركه البحرية، ضد أعداء الله ودينه القديم:

ولما استقامت بالزمان أساطلُ
له واستقلت للسعود محاملا
رأها عدو الله فانفضَّ جمعُهُ
وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن عندكم هبت عليه عواصفُ
تدمر أدناها الصلابا الجنادلا

وبلسان المولى إسماعيل يفتخر أبو عثمان سعيد التلمساني «بالقوة» العلوية على رئيس الدلائيين، الذي طمع في بسط نفوذه على المغرب:

ستعلم أشقى الناس يوم لقائنا
إذا قهقهت في الحرب نار وعودُ
فسل إن جهلت الناس عنا وعنكم
متى قابلت جيش القروود أسود
بحيرك يا ابن البربرية غائص
وبحري بموج الصافنات وجود

وأنشد محمد بن علي الرافعي مفتخرًا بهمة العويين في الضرب والطعان
وبرهبتهم في الحرب:

لقد أصبح الإسلام باليُمن مُسفرًا
بقوم حماة بل كفاة لدى الكفاح
لهم همّة في الضرب والطعن بالقنا
لهم رغبة في الحرب إن قعقع السلاح
لهم رهبة في الحرب والحزم دأبهم
ليوث لهم فخر سراة وهم صباح
وينتصب محمد بن علي الرافعي ليفتخر أيضًا على لسان المولى إسماعيل:
أنا الليثُ إسماعيل راية مجدهم
وسيفي ماضٍ في العداة قاهر
أنا فاتح الأمصار لكفر دامع
فسل عن ثغور الشرك ينبئك خابر

ويقول المولى عبدالرحمن بن هشام، مفتخرًا على أعدائه بشدة أهله وقوتهم
في الطعان والنزال:

ونحن أسود عند كل مُلِمة
ونحن من الأقمار في ظلمة الكرب
ونحن هم الأبطال لا الغير في الوغى
نسوقهم مثل الغنيمة بالعصب
نقرب أجال الكُماة بطعننا
وساعة تلقانا تموت من الرعب

وهكذا يتضح أن شعر التفاخر في شعر الجهاد، ليس شعر الفخر بالعصبيات
والنعرات، أو بالثأر والإغارة والانتقام، وإنما هو شعر تمجيد البطولات والتضحيات

من أجل الوصول إلى الهدف الأسمى، ألا وهو تبريك الجهاد في سبيل الله، وإبراز المناقب التي يعتز بها، ويفتخر بتحقيقها، كالشجاعة والإقدام والصبر على المكاره والثبات والنجدة والوفاء والاستجابة لداعي الجهاد ومناادي الاستشهاد.

8 - هجاء الثوار والعصاة والأعداء وتهديدهم بالوعد والوعيد

يتعرض شاعر الجهاد في قصيدة إلى هجاء أعداء الإسلام والثوار، والمضللين، والخارجين عن الجماعة الإسلامية، وإلى التعريض بهم والتشنيع والتحقير، وإلى نقدهم النقد الجريح، والتهكم عليهم التهكم اللاذع. كما يستهين بقوتهم تشجيعاً للمجاهدين على خوض المعارك ضدهم.

يقول سعيد المصمودي يهجو جماعة البرغواطيين الزائعين عن السبيل القويم:

يقولون النبي أبوعفير
فأخزى الله أمر الكاذبيننا
ألم تسمع ولم تر يوم بهت
على آثار خيلهم رنيننا

ويقول صاحب إمارة نكور يهجو عبيد الله المهدي الشيعي الذي ادعى أنه صاحب عدل وحق:

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا
ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا كافر ومنافق
تميل مع الجهال في السنة المثلا

ويقول عبدالجليل بن وهبون هاجياً «الادفونش» «اللعين» المهزوم، في معركة الزلاقة، معيراً إياه، بالضعف والخذلان.

فأين العجب يا أدفنش هلا
تجنبت المشيخة يا غلام

ستسالك النساء ولا الرجال
فخبر ما وراءك يا عصام
فإن ينجو اللعين فلا كُحْرُ
ولكن مثل ما ينجو اللئام

ويقول أبوبكر ابن المنخل مستهزئاً بجنود النصارى الذين أصابهم الرعب،
ففرّوا فزعين أمام الجيوش الموحدة، بمعركة الفتح بالجبل، وخروا وجمين كأنهم
سكارى لا يقدرّون على رد الصاع صاعين:

وقادتهم تلك السيوف إلى الردى
وما غادرت سهل القياد ولا صعبا
وراموا فراراً والرماح تنوشهم
فما قطعوا فجاً ولا سلّكوا شعبا
وخرّوا جميعاً هامدين كأنهم
ندامى تساقوا بينهم أكؤس الصهبا
فقل لا بن ريمند تاهب لغزوةٍ
يسد عليكم جيشها الافتح السهبا
إذا جُرّدت فيها السيوف حَسِبْتَها
جداولَ روضٍ والرماحُ بها قضباً

وطلب أحمد بن السيد الإشبيلي من جنود الأعداء بالأندلس، أن يستسلموا
لدولة العدل والتوحيد، حتى يضمنوا السلامة على أرواحهم:
أَبْلِغْ ذَوِي الشَّرْكِ وَالْإِلْحَادِ قَاطِبَةً
أَنْ مَا لَهُمْ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ
رِيعُوا إِلَى السَّلَامِ وَالْإِسْلَامِ وَيَحْكَمْ
لَا تَحْسِبُوا دَوْلَةَ التَّوْحِيدِ كَالدُّوَلِ

فإن أتيتم حقنتم دماءكم

وإن أبيتم فخافوا فجاء الأجل

ويغير أبو العباس الجراوي الإفرنجة من أهل صقلية بالجهل والغباء، إذ
يجهلون من هو الملك عبد المؤمن الموحي، وما هي قدرته الحربية وشهامته المغربية:

جهل النصارى أنه الملك الذي

يرث البلاد وعذرهم مقبول

أهل الجهالة هم كيف الوهم

وعلمت أن الطبع ليس يحول

ويقول أيضاً هاجياً الثائرين المضللين بمراكش، الذين قاموا في عهد المنصور

الموحي:

غزاهم الرعب في جيش بلا نجب

فأجموا من وراء الدرب وانقمعوا

دارت عليهم كؤوس الذل مترعة

تسقيهم جرعاً من بعدهم جرع

ويقول أحمد ابن حريون في المرتدين الضالين، الذين عميت بصيرتهم:

أنى عموا عن سبيل الرشد ويحهم

ياضل من ضلّ في مهديّة الدول

ومن يحد عن سبيل المؤمنين يحد

بعدل كلّ أصمّ الكعب معتدل

☆☆☆☆

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة

تاھت بهم في حوز ليل ليل

واستعجلوا أمر الإله فجاءهم
والويل كل الويل للمستعجل
ويهجو أيضا الجراوي «الادفنش الغادر»، الذي أحبطت مناوراته الجيوش
الموحدية بموقعة الأرك، داعياً له بالويل والثبور:
فتعساً له ما دام حيا ولا لعا
وكسراً له مادام حياً ولا جبرا
فكيف رأى المغتر عقبى اغتراره
وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
ويتعرض الجراوي بالهزاء اللاذع لعصاة الدعوة الموحدية من أهل أفريقية:
عصوا دعوة المهدي وهي سفينه
فأغرقهم طغيانهم وهو طوفان
إنما فوقهم سقف السماء فأصبحوا
كأنهم في عالم الأرض ما كانوا
ويقول عبدالعزيز الملزوزي هاجياً الثائر المتمرد على أمير المسلمين يعقوب
المريني، لما ولى على أعقابه منسحراً، ومهدداً رياه بالاندثار والزوال:
فلما رأى أسيافكم تستبي الطلا
وأبصر خيل الله كالأسد تزاؤ
تولى على أعقابه متحسرا
فأين مضت أيمانه والتجبر
فتأخذه قهراً وتملك أرضه
فأنت عليه في الملاحم أقدر

ويقول الملزوزي مشفقاً على «يغمراسن» الذي عزم على أخذ ثأره من المرينيين:

أتيت لأخذ الثأر ويحك منهم
وقلت عسى الأيام يوماً تسالمُ
فطوبى لمن واليت يا قمر العلى
وويلٌ لما حاربته أنت دائم
ألا أيها الجيش الذي رام حربهم
تيقظ إلى البلوى فإنك نائم

ولما انقض على أبي عنان المريني وزيره وعامله على جبل طارق بعدما خان
الأمانة، وتآمر مع الأعداء، هجاه أحمد بن عبد المنان هجاء مرّاً:

عصى الله في الشطر الأقل سفاهة
ألا إنه ذاك الذراع أو الشبرُ
ورام مراماً دونه النجم ساريا
ولم يدِرْ جهلاً أنه المترقى الوعر
فيا عجباً بعد السعادة ناله
شقاء وبعد الربح حمٌ له خسر

ولما ثار على أبي سالم المريني عامله على مراکش، «رماه» ابن الخطيب بأسهم
من هجاء حادة:

أيغلب من عاداك والله غالبه
ويفلت من ناواك والسيف طالبة
ويخلص من في راحتك زمامه
فسيبك كاسيه وسيبك سالبه
فيا ذل من عاداك يا ملك العلى
لخابت أمانيه وساءت عواقبه

وهجا عبدالمالك التجمعتي الأمير الوطاسي، الذي تخاذل في الدفاع عن ثغر طنجة:

سحقا لقوم أسلموك وهل

أسسلم قبل مسلم زوجته؟!

ويطلب محمد الفشتالي من المامون السعدي، ألا يكثرث بأهل الفتن والغدر.

وَألا يعبأ بهم ويقوتهم:

فلا تكثرث بما يلم فقد طوى

لك الله في المكروه ما هو محبوب

عدوك كان البحر يلقاتك دونه

فأمك كي تغتاله وهو مجنوب

ويقوم عبدالعزيز الفشتالي بهجاء «أحزاب الضلالة»، مستخفاً بجموعهم

«المكسرة»، أمام جموع حزب الله السالمة:

أتروم أحزاب الضلال سفاهةً

غلباً لحزب الله وهو الغالبُ

أودى بجمع مكسر جمع له

تعنو الجموع أعاجم وأعارب

ويقول محمد بن عمر الشاوي، هاجياً ومتوعداً أحد المارقين المرتدين:

وذاك الذي خيب الله سعده

تردى فلم يتنفعه نصرة مارق

فكان كما قد قيل لكنّ رأسه

أتى سابقاً والرّجل ليست بسابق

ويقول ابن الونان، هاجياً طائفة ضالة من أهل الريف الثائرة على المولى

محمد بن عبدالله:

ضَلُّوا عَلَى النُّهْجِ السَّوِيِّ بَغْيِهِمْ
 فَسَطَا بِهِمْ سَيْفُ الْإِمَامِ وَمَا انْتَمَر
 ظَنُّوا صِيَاصِيهِمْ لَهُمْ وَزْرًا وَإِذْ
 خَابَتْ ظُنُونُهُمْ تَنَادَوْا لَا وَزَرَ
 وَيَقُولُ سَلِيمَانُ الْحَوَاتِ يَهْجُو وَيَشْتُمُ أَهْلَ الْحَيَايَةِ، الَّذِينَ شَقَّوْا عَصَا الطَّاعَةِ
 عَلَى الْمَوْلَى سَلِيمَانَ:
 تَعَسَّأَ لَهُمْ وَلِرَأْيِهِمْ مَا فَعَلُوا
 وَالْجَهْلُ يَعْمِي الْحِجَا عَنْ أَوَجِّهِ الْحَذَرِ
 حُلَّ الْبَلَاءِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
 وَعَادَ ذَنْبُهُمْ وَلَيْسَ بِمَغْتَفَرٍ
 وَقَالَ فِي هِجَاءِ أَهْلِ تَامَسْنَا الثَّائِرِينَ بَعْدَمَا دَارَتْ عَلَيْهِمُ الدَّائِرَةُ، وَفَرُّوا يَجْرُونَ
 ذَيْلَ الْخَيْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ:
 وَالْثَّائِرُونَ وَإِنْ شَبَّتْ لَثُورَتُهُمْ
 نَارُ مِنَ الْبَغْيِ تَرْمِي الْحَقَّ بِالْشَّرِّ
 أَطْفَأَهَا سَعْدُهُ فِي الْحَالِ وَانْتَكَصُوا
 وَمَا لَهُمْ كَالْفَرَارِ قَطُّ مِنْ وَزَرَ
 وَيَقُولُ أَيْضًا مَتَوَعِّدًا بَعْضَ أَهْلِ الرِّيفِ، الْمُتَحَالِفِينَ مَعَ الْأَعْدَاءِ الْغَاصِبِينَ:
 حَقَّ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ أَيْنَ مَا ذَهَبُوا
 وَلَيْسَ يَنْجُو الَّذِي يَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ
 دَلُّوا وَبَانُوا وَلَا عَزْرَ لَهُمْ أَبَدًا
 إِلَّا إِذَا أَسْلَمُوا لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ
 وَيَتَصَدَّى مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْعِمْرَاوِيُّ لِهِجَاءِ الثَّائِرِينَ فِي حَوْزِ مَرَكَشَ ضِدَّ
 الْمَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَيْثُ وَصَفَهُمُ بِالْحَمْرِ وَعَبَّرَهُمُ بِالْجَبَنِ وَالضَّعْفِ:

طارت قلوبهم من بأسهم فَرَقَا
إذا رأى الألف منهم واحد نفروا
ولم يزالوا بهم حتى انثنوا هربا
كأنهم في سباريت الفلا حمر
ويكيل لغيرهم من أصحاب الهلاك والخراب أفضع الشتم والعتاب:
لعنوا لقد جلبوا الهلاك لجمعهم
وتوقعوا جزيا يراد طويلا
فلسوف تدرؤهم وخامة غيهم
ويذيقهم داعي الهوى تذليلا
ويقول هاجيا ومتهدداً من خان العهد منهم:
عموا وصموا من الإنذار حين دعوا
والمتجي لسوى الرحمن مبعود
من لم يدن بك منقاداً بطاعته
فدينه عند أهل الله مردود

فكان شاعر الجهاد المرصاد لكل من سولت له نفسه الإساءة إلى قوة الحق
وسلطة الشرع والقانون، والجنوح إلى الزيغ والضلالة، أو يتهدد البلاد وأهلها
ليغير عليها، ويكيل إليهم جميعاً - نصارى أم عصاة - أبشع الأوصاف، ويتوعدهم
ويعدهم بسود العاقبة، وقبح المآل، وخراب المصير.

9 - الاستغاثة والاستنجاد والتحريض وإسداء النصح:

كان شاعر الجهاد لسان قومه، يحمل على عاقته مهمة «الإحساس القومي»،
دفاعاً وانتصاراً، فيستغيث ويستجد باسمهم، كلما دهمت البلاد إحدى الدواهي،
ويسدي النصح لأمير المؤمنين، وقائد المجاهدين، ليشنها غزوة قاضية على المتمردين

أو على المغيرين من الصليبيين وأهل الكفر والإلحاد، ويستعمل مع المجاهدين جميع وسائل الاستشارة، من تأجيج للحماس ورفض للاستكانة، وتمزيق لحجاب الخنوع، وإلهاب للمشاعر، وامتناع عن السقوط في أي ضم أو خسف، حتى يهبوا للاستشهاد، مستبشرين بنعمة الشهادة، والفوز بجنان الخلد.

وكلما استتصر الشاعر المجاهدين ضد أعداء الإسلام والمسلمين، حفاظاً على وجودهم، وأذكى فيهم روح الجهاد في سبيل الله، طلباً لسعادة الدنيا وأجر الآخرة إلا وكان دافعه في ذلك، تشبثه بالروح الإسلامية العالية، وتمسكه بالعاطفة الدينية المتأججة، التي تتمثل في شعره روحاً وشكلاً.

وأعظم مثال لذلك، قول عبدالعزيز الملزوزي، مخاطباً المجاهدين على لسان المنصور المريني:

من مات منكم مات شهيداً
أو عاش عاش غانماً سعيداً
ألا اصبروا وصابروا ورابطوا
فخيركم مجاهدٌ مرابطٌ

فلم يذكر ابن الصيرفي ضمن قصيدة له - تاشفين بن علي المرابطي بأمور الحبر، يشجعه على الثبات عليها والعمل بها.

أهديك من أدب الوغى حكماً بها
كانت ملوك الفرس قبلك تولع

ومن هذا الحكم:

يا تاشفين أقم لجيشك عذره
بالليل والقدر الذي لا يدفع

ويقدم محمد بن مسعود بن خالصة لتاشفين بن علي «طريقة» خاصة لإبادة المشركين الضالين، ويطلب منه أن يستعين بالله كلما تشابك معهم لينصره عليهم:

فعد وقد واعتمد وأحمد وسد وأبد
وقل وصل واستطل واستول وانتك
وحسبك الله فرداً لا نظير له
تغنيك نصرته عن كل مشترك
ولما عزم عبدالمؤمن الموحي على تلبية نداء المستجدين به من بلاد الأندلس،
خاطب شاعره القبائل العربية يستنفرهم للجهاد بقوله:
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وشدوا على الأعداء شدة حائل
وتوجه أبو العباس بن السيد الملقى بنداثة إلى عبدالمؤمن الموحي يجدد طلب
النجدة:

إليكم أمير المؤمنين توجّهت
بنا الرغبات الجمّ يحتثها جهد
بكم يعتلي الإسلام شرقاً ومغرباً
فلله فيها دائباً ولك الحمد
ويشجع أبو حفص عبد الملك بن سعيد الخليفة الموحي علي اجتياز البحر،
وتتميم ملحمة الفاتحين الأولين:

وحسبك هذا البحر فاه فإنه
يُقبّل ترباً داسه جيشك الغمر
فما طارق إلا لذلك مطرق
ولا ابن نصير لم يكن ذلك النصر
ولما تم لعبدالمؤمن فتح الجبل شجعه شاعره أبو العباس الجراوي للمضي في
هذا السبيل حتى يقطع للكفر دابره في الغرب الإسلامي:

أخليفة المهدي دمت مؤيداً
بالله منتقماً من الكفار
ترمي شياطين الأعادي في الوغى
برجوم خيل من سماء غبار
ويؤكد أبوبكر بن المنخل لعبدالمؤمن أن الأعادي لا يمكن القضاء عليهم إلا
بواسطة سيوفه وحيوشه:
فعلى سيوفك أن تبيد كُماتها
وعلى جيوشك أن تروح ساحها
«فالسيف أصدق أنباء من الكتب»، كما يشير لذلك الشاعر القرطبي المرواني
المعروف «بالطليق» بقوله:
وَحَكَّم السَّيْفَ لَا تَعْبَأُ بِعَاقِبَةٍ
وخلها سيرة تبقى على الحقبِ
فما تنال بغير السيف منزلةً
ولا ترد صدور الخيل بالكتب
ويوجه أبوعمرو بن حربون إلى أبي يعقوب بن عبدالمؤمن نداءً حاراً، ويرجوه
رجاء خالصاً، ينم عن غيرة إسلامية صادقة، ليعيد للأندلس مجدها الغابر:
وإنني لأرجو للجزيرة كَرَّةً
تعيد عليها عهداً المتقادماً
وأنت أمير الله تجبر صدعها
وإن قال قوم أنه قد تقادماً
وتحيي رسوم التابعين بأرضها
فها هي تستدعيك غبرا طواسما

بل يحتم الأمير أبو الربيع سليمان على المنصور الموحي أن يتابع فتحه، بعد
«غزوة الأرك» بجيش الحق والعدل:

جيشُ الفلاةِ بجيشِ الحقِّ مهزومٌ
فننْفذُ العزمَ إنْ الفتحُ محتومٌ
صمم لفتح يرى في الدهر نادرة
بكم أتاكَ به عز وتصميم

وينصح علي بن حزمون الأندلسيين بأن يعتصموا بالخليفة الموحي ويحترسوا
من أعدائهم:

أجزيرة أندلس اعتصمي
بإمام الأمة واحترسي
أرعاكَ حراسة ملك
جبريل له أحد الحرس

ولما أحرق النصارى بإشبيلية بعد أن بدأ أفول الموحدين - حراس دين الله
بالأندلس - وجه الشاعر الأندلسي أبو موسى هارون بن هارون نداء يستجد فيه
«بأهل العدو» الأخرى، وهو متفائل:

وقد دعونا فأسمعنا على كذب
بما قد استنفد القرطاس والقلم
فاصدع بحقك إن الدهر ممتثل
فربَّ دهرٍ غيورٍ عاد مبتسما

ويرفع عبدالعزيز المزروزي قصيدة للأمير عبد المالك المريني، ينصحه بأن
يمزق جيش أعداء المرينيين شر ممزق:

فمزق ذلك الجيش كل ممزق
كما مزقت بيتا بقبر قشاعم

ويحرض محمد بن أبي يعقوب الشبوكي الفاسي أبا فارس عبدالعزيز المريني،
تحريضاً أدبياً، لطيفاً، مشيراً به همة الملك المجاهد لمحاربة الثائرين:
من ذا ينال جيشاً أنت قائده
يوم الكريهة أو من ذا يناضله
ويطلب ابن أبي حجلة التسماني من أبي فارس، أن يأخذ بثأر واقعة طريف
المشؤومة على الوجود المريني بالأندلس:
وعد جياذ الحق للعدوة التي
يبيت بها التوحيد وهو وحيد
ولا تنس نازاً من طريف ففيها
لجيشك منه طارف وتليد
ويأتي دور الشاعر مالك بن المرحل، ليرجو من أبي مالك بن يعقوب المريني،
أن يجاهد في الكافرين بالأندلس ويرحم من يطلب الرحمة بها:
واسترحمتكم فارحموها فإنه
لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ما هي إلا قطعة من أرضكم
وأهلها منكم وأنت منهم
ويشير الشاعر المريني حمية رجال دولته، وينهض همته بقوله:
ظنوا وكان الظن منهم كاذباً
أن ليس لله جنودٌ تقدم
يا أهل هذي الأرض ما أخركم
عنهم وأنتم في الأمور أحزم
ولما يبكي الشاعر ويستبكي ويتحسر، يقولها صريحة:

خذوا السلاح وانفروا وسارعوا

إلى الذي من ربكم وعدتم

ولم يجد شاعر الجهاد، في عصر غروب الوجود المريني بالأندلس، إلا وسيلة إثارة الحمية والغيرة الإسلامية في نفوس الملوك المرينيين، لعلهم يسترجعون قوتهم ويلبون نداء الجهاد، يقول الشاعر الأندلسي ابن شريف الرندي متسائلاً في حسرة ويأس:

ألا نفوس أبيات لها هم

أما على الخير أنصار وأعوان

ويقول أبو عمرو بن المرابط، على لسان ابن الأحمر متشفعاً للمنصور المريني ومستعطفاً ومستنصراً في شيء من العتاب:

ماذا اعتذاركم غدا لنبيكم

وطريق هذا العذر غير ممهد

يا حسرة لحمية الإسلام قد

خدمت وكانت قبل ذات توقد

ويستنفر ابن الخطيب - لما كان مستجيراً بفاس - المرينيين للجهاد بقلب مكلوم:

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا

فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفأ

فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا

وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفا

ويستجد يوسف لثالث الغرناطي رجال «الحرب والمحراب»:

ويا أمة المحراب والحرب أخلصوا

لسامع نجوى حيه وجماده

وكونوا لفتح المبهمات وسيلة

يدين لها حزب العدا بانقياده

ولما لم يجد أحمد الصنهاجي الأندلسي آذناً صاغية لندائه، يتأوه ويرد أمره
إلى الله:

إِ على الدين والدنيا وما نفعت

أه إذا صدرت من قلبٍ بطل

إننا إلى الله والرجعى له وبه

علق القلب في صح وإعلال

ويشارك ابن يجيش بتأنيته المشهورة في حركة التحريض على الجهاد خلال
العهد الوطاسي. فطلب من ملوك بني وطاس أن يعدوا لأعداء المغرب العدة، وأن
لا ينفروا من الجهاد:

أعدوا لهم من قوة كل عدة

وصولوا عليهم باجتهد وفرقة

ولا تنفروا عند القتال فمن يمت

شهيداً ينل من خير ونعمة

وقد وعد المولى بنصر عباده

إذا نصروا الدين المتين بقوة

وينبري علي ابن منصور الشيطمي للمنصور الذهبي، يشجعه على الضرب
على أعدائه، في كل مكان:

واضرب بسيفك من ناواك إن لكم

على العدة بحول الله تأييد

ويمنيه علي بن أحمد المسفيوي في فتح الأندلس مرة أخرى بعد السودان
حتى يأخذ بثأر أهلها:

وتنال أندلسًا يجود ربوعها
برد المنية من غمام العثيرِ
فقد الجياد إلى الضلال تسومها
حكم الردى وتدوس معطس قيصر
أدرك بها الثار المنيم فطالما
ألوى بها للدين رهط الأصفر
ولما اشتدت وطأة الفتنة، تصدى أحمد الدغوشي لشيخ الدلائيين، يستنهضه
لمحاربة أرباب الفتنة:

يا أحلم الحلما وأصرفهم إذا
ما الرأي رد إلى مشورة حازم
صل واغلظن في الله واسقط مجاهدًا
بحسام عزمك ذي الدباب الحاسم
واقطع حبالَ خَبال كل معارضٍ
ومعانِدٍ للحق غيرِ ملائم
ولما بدأ أفول الدولة السعدية، أنشد محمد بن سعودة المري الفاسي قصيدة
موجهة للأمير السعدي بن زيدان، على لسان المولى محمد بن الشريف ينصحه
فيها بالخروج إلى الحرب والطعان، للقضاء على أصحاب الفتن والثورات:

واركب مطايا الصافنات إلى الوغى
إما تحوُّزُ مزيةٍ أو تقتلُ
وخض الغمار وهز رمحًا وادرع
وأعل العنان وفي اليمن المنصل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع
من يعص أمرك تزجرنه فيفعل

وما أن ظهرت الدولة العلوية، حتى بادر عبدالعزيز بن الربيع الغرناطي
بتوجيه نداء لأبي الحسن المولى علي الشريف، يحرضه على الجهاد بالأندلس لا
ستئصال دابر الكفر بها:

أجر جارك اللفان من غمراته
أبا حسن انظر جزيرتك الخضرا
فحثوا لنا بالسير بعدا وقربة
أجيراننا من كيد من أضمر الجورا
فغوثا رجال الله عوناً لعدوة
أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا

ويرى أحمد بن عبدالله الماسجيني أن الرأي السليم هو أن يصل سيدي
محمد بن عبدالله في الثوار صولة قاضية:

فالرأي أن ترقى الجنود إليهم
ويد الصفاح كما تمد بنودها
فتصول فيهم صولة هزاة
فتطير زيغ قلوبهم وكنودها

ولما بوبع المولى إسماعيل بفاس، كانت أول «صيحة» وجهها إليه أحمد العلوي
هي صيحة الرد على عادة الإسلام بالمغرب، ونصرة حمى الدين:

بإمر وزاحم حماة الدين في عددٍ
لهم من الله أنداء وأظهارُ
أنصر حمى الدين واكفف من يكايده
لقد سما قدركم واعتزُّ مقدار

وينشد عبدالسلام كسوس الفاسي قصيدة وجهها للمولى إسماعيل، استعمل
فيها أسلوب القوة والشدة والجرأة، يستنهضه فيها لتحرير «سبتة» الأسيرة:

عار عليكم أن تكون أسيرةً
 بجواركم وجنودكم تعزى لها
 فابعث لها أهل الشجاعة عاجلاً
 حتى تراهم نازلين جبالها
 وارفع لهذا الغرب رأساً إنه
 في الضعف ما دام العدا أنزالها
 وينصح الحوات المولى سليمان أن ينهض «نهضة علوية» ضد خصومه الثائرين:
 وانهض لهم بقوة علوية
 أخذاً لدين المصطفى بالثار
 ويحض الناس على الجهاد للوقوف في وجه زحف المعتدين:
 وخُض المسلمون على جهادٍ
 فقد ناموا بوارفة الغرور
 وذكّرنا بأيام المغازي
 وسيرة الصحابة الصدور
 وفي إحباط مؤامرات المتآمرين:
 واحمل إليهم غارة في غارة
 تظفر لهم في الغارة الشعواء
 واقذف سهامك في كنانة صدرهم
 وأكثر التميزيق في الأشلاء
 ويتوجه محمد بن إدريس العمراوي بقصيدته العصماء للمولى عبدالرحمن بن
 هشام يحضه علي نصره الإسلام:
 قاتل بسعدك فالأيام مسعدةً
 وأمر بما شئت إن الدهر مؤتمر

وانصر بسيفك هذا الدين معتصماً
بالله فهو لأهل الحق ينتصر
ويحرضه في قصيدة أخرى لمحاربة فئات البغي والضلالة:
وسر من نصر ربك في جنود
تفل بها الأعادي والجبالا
وخذهم عاجلاً أخذاً وبيلاً
وأولهم المذلة والوبالا
ويحمس المغاربة للجهاد في سبيل الله، عندما أصبح «الكفار» قاب قوسين أو
أدنى من البلاد المغربية:
يا ساكني المغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد
قدموا لنصر دينكم قومة
تحطم أهل الشرك بحطم الجراد
ويستكر محمد غريط تباطؤ المغاربة في رد عدوان أهل الصليب:
كونوا صلاباً على أهل الصليب فلا
دين لمن لعدو دينه لانا
لقد أصبح الجهاد فرضاً واجباً على كل قوي وضعيف، كما يقول محمد ابن
ادريس العمراوي:
فرض على كل مسكين وسلطان
حمل السلاح على عباد الأوثان
فهو الوسيلة لنصر الإله لكم
ونصرة المصطفى أجل عدنان

وينادي المشرفي على المجاهدين الأنجاد :

هَلِّمُوا يَا غَزَاةً بَادِرُوا

لجنة عدن ما عليكم من جناح

وبذلك كان لشاعر الجهاد، نصيب وافر وفضل عظيم، في إلهاب جذوة الحماس بصدور المجاهدين، ودفعهم إلى مواصلة الجهاد، والالتفاف حول أمير جهادهم - لمداهمة الأخطار ومواجهة الأعداء - وتحبيب الاستشهاد إليهم - كعامل حاسم من عوامل الانتصار والظفر - حفاظاً على الدعوة الإسلامية، ومحافظة على الأرض المغربية من طمع المغيرين، وتحقيقاً للنصر الذي وعد الله به المجاهدين الصامدين، وتصديقاً لوعدة سبحانه: وما النصر إلا من عند الله».

10 - التنبيه على فضل الجهاد والمجاهدين:

ولا يفوت شاعر الجهاد في قصائد الجهاد، أن يذكر من حين لآخر بفضيلة الجهاد، ويشيد بها ويوصي بالتمسك بها والعمل بمقتضى أحكامها، لنيل نعم الدنيا ونعيم الآخرة.

فأعظم خصلة يمكن أن يتحلى بها الإنسان - عند أبي بكر الأشبوني - في حياته، وأحسن فضيلة تذكر في رثائه، هي فضيلة الجهاد، قال في رثاء يوسف بن تاشفين:

تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً

حتم القضاء بكل ما تقضيه

ويشهد أبو العباس الجراوي أن الموحدين جاهدوا في الله حق جهاده، لنصرة دينه وإعلاء كلمته:

جاهدتم في الله حق جهاده

ونهضتم بحماية الإيمان

ويمدح أبو الربيع السلیمان الموحدي المنصور الموحدي بأنه ما انفك ينصر دين
الله طيلة حياته:

ألست الذي جاهدت في نصر دينه

معيناً بما جاهدت فيه وكافياً

ويسجل أبو عبد الله الفيزازي أن الناصر الموحدي جاهد لتكون كلمة الله هي
العليا:

وما زلت تعنى بالديانة جاهداً

ومجاهداً حتى استقل منارها

وينصح عبدالعزيز الملزوزي أبا يعقوب المريني أن يحارب «يغمور» الثائر، لأن
محاربته هي عين الجهاد:

فاسبق له فهو الجهاد برأسه

فحتى متى في الدير يغمور يقصر

ويسجل أبو القاسم الرحوي في سجل الخلد، أن أبا الحسن المريني جاهد في
الكفار لإنقاذ أفريقية من مخالبتهم، وهذا هو أوجب الواجبات:

وجاهدت في الرحمن حق جهاده

فراهب أهل الكفر بأسك يرهب

وأنقذت من أيدي الإغارة أمة

وأولى جهاد كان بل هو أوجب

ويشهد عبدالعزيز الملزوزي على لسان بني مرين أنهم أبلوا البلاء الحسن في
الجهاد بالنفس والنفيس والمال:

ونبذل في جهاد الكفر نفُسًا
ومالاً قد جمعنا اكتساباً

وقد أوفوا حقهم في الجهاد :

أوفوا حقهم فرداً فرداً
كما جعلوا الجهاد لهم نصاباً

ومع ذلك فإن «ابن الأحمر» ما فتئ يستهضهم للجهاد بالأندلس لإعادة الحق
إلى أهله و«يزينه» لهم كعمل من أعظم أعمال التقى:

كتب الجهاد عليكم فتبادروا
منه إلى فرض الأحقِّ الأوكدِ

هذا الجهاد رئيس أعمال التقى
خذ منه زادك لارتحالك تسعد

ويرد ابن المرحل على لسانهم:

الله يعلم أننا لم نعتقد
إلا الجهاد ونصر دين محمدٍ

ويستغيث يوسف الثالث هو الآخر بالمرينيين، لأنهم الحاملون لسيف الجهاد
في الغرب الإسلامي:

أبني مرين والحماية شأنكم
وبكفكم سيف الجهاد مُجرّد

ويتباهى عبدالرحمن التمنارتي ببلاء السعديين في ساحة الجهاد:

فلله من وفى الجهاد مصدقاً

بما قال من قبل في البراء لبيدُ

وينصح الحوات المولى سليمان: بأن يكون مسك ختام صيامه الجهاد في
الذين باعوا جنتهم بنار جهنم:

واختتم صيامك بالجهاد لمعشرٍ

فالريف باعوا جنةً بالنار

وبأن ينادى على المجاهدين من كل صوب وحذب، للجهاد في سبيل الله:

نادى هلموا إلى الجهاد فامتأثتُ

أباطح أرض رجالنا وركبانا

وينشد محمد ابن ادريس العمراوي: أن العز للجهاد والمجاهدين، ولا عزة

بعده:

وما العز إلا للجهاد وأهله

إذا زاغ أهل البغي أو نجم الكفر

وأن الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، هما من أفضل الأعمال الخالدة بخلود

الزمان:

وباعوا نفوساً في الجهاد نفيسة

من الله سيماها التثبت والنصر

وأفضل أعمال الفتى نصرة الهدى

وقتل العدا إن الجهاد هو الذخر

لهذا فهو يشجع المجاهدين على الخوض في غمار الجهاد دون خشية أو

تخاذل:

ولا تخشوا فأنتم في جهادٍ
ونصرة دين رب العالمين
ويرسلها «صيحة مدوية» في صفوف المغاربة لمحاربة أهل الكفر والعدوان:
يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد
يا أيها الناس اتقوا ربكم
وجاهدوا في الله حق الجهاد
فما الجهاد إلا شعار الفضلاء الأماجد من بين الناس:
فجاهدوا جالدوا رابطوا اغتبطوا
إن الجهاد شعار السادة الفضلاء
ويحبب الحسن اليوسي الجهاد للمغاربة، ويعدد مزياء حتى ينفروا إليه خفافاً وثقالاً:
إن الجهاد لخصلةٌ محمودةٌ
في الدين منصبها لعمري منصبٌ
طوبى لعبدٍ خاشعٍ يتقلبُ
في طاعة المولى وفيها يدأب
ويقوم ممثلاً لأمر الله في
أمر الجهاد وفي رضاه يرغب
ويذكر محمد غريط أن من مات شهيداً، بعد جهاده، فقد مات أفضل ميتةً
عند الله:

لا موت أفضل من موت الجهاد لمن
يرجو من الله رحمةً ورضواناً

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون
فرحين بما آتاهم من فضله﴾ صدق الله العظيم.

11 - استخلاص الحكمة والاستشهاد بالأمثال والأقوال المأثورة:

كان شاعر الجهاد «حكيماً» يخلل قصيده بحكم يستتير بها، ويلتقطها إذا كان
في حاجة إليها، فهو من خلال حكمه يؤكد العزم على أن الجهاد أفضل وسيلة
لإنقاذ الشرف والدين والوطن، وأن «لغة» السيوف الحادة هي التي يفهمها كل من
ضل عن سبيل الله، وأن لا سبيل آخر لإعزاز الدين والدولة، إلا الجهاد الخاص
لوجه الله الكريم، فبه تستقيم الأمور ديناً ودنياً.

فالسعي إلى الجهاد لرد العدوان أمر حتمي، فلا تحرير للإنسان والبلاد بدون
حركة جهادية متواصلة:

يقول أبوبكر بن مجبر:

غير أن السعي محمود ولا
يقطعُ السيفُ إذا لم يضرب

وعندما يقول السيف «كلمته» ويفعل «فعلته» فإنه لا مجال للوم والمحابة. يقول
علي بن الصباغ العقيلي:

تقطعوا أمرهم عدلاً فما انتفعوا
والسيفُ عند التلاقي سابقُ العذلِ

وأشار أحمد بن السيد الإشبيلي إلى نفس المعنى بقوله:

كل يولي صريح العذل صاحبه
والسيفُ يسبق ما يأتي من العذلِ

وإذا صرف المخادعون حزمهم، في مقاتلة أهل العدل والتوحيد، فذلك راجع
لعمى أبصارهم وبصائرهم:

هم ضيعوا الحزم إذ جاؤوا مقاتلة

عمى البصائر أو هي من عمى المقل

ويؤكد أحمد بن السيد الإشبيلي أن الملك لا تقوم له قائمة، إلا على قاعدة
عسكرية قوية ومتينة، ليواجه بها أعداء المتربصين له:

والملك ليس بمرساة قواعده

ما لم يقم بين أيدي الخيل والربل

ويذكر أبو العباس الجراوي أن الأعداء كلما استعلوا وتجبروا، فلا بد من أن
ينزلوا إلى أسفل سافلين، كما وقع لرأس النصاري بالأندلس:

طاحت به هفواته والماء لا

بُدَّ له من أن يفيض إذا علا

وإذا ما وقع المهزرم الطريد في قبضة الملك المغربي، فلا مفر له من الهلاك،
قال أبو حفص عمر:

إذا ما الليثُ أصبح في محلِّ

فما لطريدة فيه قرارُ

ومن كان يسعى للمجد والعظمة والفتح، فلا بد له أن يقاسي الأمرين للوصول
إلى غايته المثلى، ولا بد أن يقبل هذا المجد بجلوه ومره، يقول عبدالعزيز الملزوي:

فمن كان يبغي الملك والمجد والعلا

تساوى لديه شهدا والعلاقم

والمجاهد مجبر على تحمل ما سطرته الأقدار له وليس بمخير، قال محمد
العقيلي الأندلسي:

ولا تعاتبُ على أشياء قد قُدِّرَتْ

وخطَّ مسطورُها في اللوح بالقلمِ

وينصح ابن المرحل المهاجمين بأن يسبقوا الحوادث في الحروب قبل أن
تسبقهم وتباغتهم، لأنهم ليسوا على موعد معها:

حتى بغتنا القوم في أوطانهم

إن الحوادث لا تجيء بموعدٍ

ويؤكد ابن الخطيب أن الله لا يسأل عن أفعاله وأحكامه كما يسأله عباده:

الحق يعلو والأباطل تسفلُ

والله عن أحكامه لا يسألُ

ويرى عبدالعزيز الفشتالي أنه من لم يخض معارك الجهاد بكل حزم وعزم،
للدفاع عن دينه وكيانه، فإن العاقبة ستكون وخيمة عليه، وينعت بأشر النعوت.

ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى

لحوزته دون العدا خير صائن

ومن لم يخضها بالثبات فرأيه

يفيل ويمسي حظه جد خائن

ويعتبر محمد ابن ادريس العمراوي أنه لا خير من وراء الضالين المضلين:

ومن يك في سبيل الرشدا حيل

فلا البصيرة تهديه ولا البصر

فالوسيلة الوحيدة لردهم عن غيهم وبغيتهم، إذا لم تنفع الموعظة الحسنة، هو
حد السيف:

وكم يقوّم حدُّ السيف من عِوَجٍ
ويستضيء به الباغي فيعتذرُ
ولا شيءٌ مثلُ السيف أنفع للعدا
إذا لم تفد فيها المواعظ والذكر

وحين تكون حركة الجهاد خالصة لوجه الله، فإن كل صعب يهون، وكل خطر
هو مطية للنصر:

ومن تكن في سبيل الله نهضته
يعنو له الصعب أو يسمو به الخطرُ
إذ إن أفضل الأعمال المدخرة عند الله هو الجهاد في سبيل الله لقتل الأعداء،
ونصرة دين الهدى والرشاد:

وأفضل أعمال الفتى نصرة الهدى
وقتل العدا أن الجهاد هو الذخرُ

فعمر المجاهد ليس هو مدة حياته ولكن ذكره بعد استشهاده:

وما عمر الإنسان وقت حياته
ولكنها الذكرُ الجميل هو العمرُ

وينبه العمر اوي أيضا من صم آذانه عن نداء الحق والصواب، وتمادى في
طاعته «الشيطان» فهو منبوذ عند «الرحمن»:

عموا وصموا عن الإنذار حين دعوا
والملتجئ لسوى الرحمن مبعود

ولهذا يعتبر محمد غريط أن من تساهل في محاربة أعداء الدين والبلاء
والعباد فلا دين له:

كونوا صلاباً على أهل الصليب فلا

دين لمن لعدو دينه لانا

فالشعر الحكمي عند شعراء الجهاد، هو شعر وليد الاختبار الطويل والتفكير
السليم، والاستنتاج القويم.

الفصل الثاني

الخصائص الفنية

كان الشعراء في العهد المرابطي - بصفة عامة - يطبعون شعرهم بالطابع الأندلسي الذي تبدو عليه «ملاح الصنعة القائمة على المحسنات البديعية»، بحكم الوحدة التي كانت تربط المغرب بالأندلس في العهد المرابطي.

وفي العصر الموحي كان شعرهم متأثراً في شكله أيضاً بمذهب المهدي ابن تومرت، فامتاز عن غيره بالبساطة وبالخلو من كل صنعة أو زخرف، كما امتاز بمعجم متأثر بهذا المذهب.

وفي العهد المريني تميز الشعر بالزخرفة والتأنق في الصنعة والتعبير الفني. وفي العصر الوطاسي والسعدي والعلوي، بدت على شعر هذه الدول عوارض الضعف من جراء تلك الحياة القاسية والمضطربة التي عاشها المغرب بلاطاً وشعباً، فأصبح شعرهم «شعراً باهتاً، مقلداً، مليئاً بالصور المتماثلة والألفاظ المتكررة»:

فلم يستطع الشعر الوطاسي أن يعايش ظروف دولته الغامضة:

«فمنفرجة التازي مثلاً تقترب من العامية حتى في فصيحها». ثم غلبت الصنعة البديعية المتكلفة شيئاً ما على الشعر السعدي. وفي العهد الإسماعيلي اتسم الشعر العلوي بصور فيها رقة وجمال، واعتنى شعراؤه باللفظ أكثر من المعنى. وما أن بدأ المغرب يفقد ثغوره وسواحله، حتى صار الشعر عبارة عن «زهديات» كسيرة القلب

مهيضة الجناح»، متميزة بالبساطة والعفوية، تعبر عن الآلام العميقة التي تخالج نفوس الشعراء والناظمين، من جراء توالي الفتن والحروب والاحتلالات.

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه من الصعب أن تحدد الخصائص الفنية لشعر الجهاد، بمعزل عن خصائص القصيدة كلها، إذ إن خصائصه تظهر مندمجة في الخصائص العامة للقصيدة التي تتضمن شعر الحرب والجهاد، ولكن بعد البحث والتمحيص والتحليل، يتبين أن لشعر الجهاد خصائص فنية لها دلالتها وخصوصيتها، تطبع هيكل القصيدة برمتها، على اختلاف موضوعاتها وصياغتها وتجعلها موحدة «الوقع والرؤية والصبغة» وهكذا يمكن التحدث عن الخصائص الفنية الآتية:

أ- التناول المباشر للموضوع:

قلما يعتمد شاعر الجهاد في قصيدته على المقدمة الطللية، أو الخمرية أو الغزلية، أو غيرها من المقدمات، كقول عبدالعزيز الملزوزي في مطلع قصيدته:

أساقتك أطلال الديار الطواسم

فقلبك حيران ودمعك ساجم

وكقول علي الجزولي:

لا تسألني عن البيض العتاق وسل

عن العتاق وبيض الهند والسمر

وكقول محمد الشبوكي الفاسي:

أبان في حبه ما قاله عاذله

دمع جرى فوق صفح الخد هامله

وكقول عبدالعزيز الفشتالي:

هم سلبوني الصبر والصبر من شأني

وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني

وكتلو محمد بن إدريس العمراوي:

خليلي عوجا بالركاب على رسل

وقصًا على قلبي الحديث الذي يسلي

وكتول لسان الدين ابن الخطيب متسائلًا:

سلا هل لديها من مخبر تذكرُ

وهل أعشب الوادي ونمُّ به الزهرُ

وكتول حمدون المرداسي مجيبا ابن الخطيب:

نعم عندها من طيب أخبارها ذكر

وليس على أمثالنا يقع النكر

وكتول أبي محمد عبدالحق السحيمي:

أمن أرضهم ريح الصبا يتضوُّعُ

ومن دونهم بدر الأسنة يلمعُ

وكتول عبدالعزيز بن الربيع الغرناطي:

أيا راحلا يطوي المفاوز والقفرا

رشدت ولقيت السلامة والخيرا

وكتول محمد أكنسوس، مقلدًا كعب ابن زهير في قصيدته المشهورة:

عهدي بكم جيدة بالبطحاء موصولُ

يا ناسي العهد إن العهد مسؤولُ

وبذلك كان هؤلاء الشعراء يقتفون آثار متقدميهم في مطالع قصائدهم -

و«إن تميزت بالنبرات الحماسية والنفحات المجلجلة»، معتمدين على النهج القديم للقصيدة.

فأغلبية شعراء الجهاد لم يسلكوا هذا المسلك، ولم يتقيدوا بالمطلع التقليدي، بل دخلوا إلى الموضوع مباشرة (وصف معركة، تبشير بالفتح، تهنئة بالنصر، تحريض على الجهاد، عتاب وشكوى، تهديد بالوعد والوعيد.. دون تغزل أو بكاء على الأطلال، نظراً لخطورة الحدث وجلال الموقف، وعظمة المناسبة، ونظراً لطغيان «الفكرة الجهادية» على عقولهم ووجدانهم، ونظراً لصرامة المستمعين إلى أشعارهم، من الخلفاء والملوك والقادة الذين يعتبرون أنفسهم حماة للدين، ورافعين للواء الجهاد. وبذلك تحلّلوا من جميع المقدمات التقليدية، وتفرغوا تفكيرياً وموضوعياً وإحساسياً «ليبت القصيدة».

فابن خضاجة يفتح قصيدته بسؤاله لممدوحه المرابطي:

أرأيك أم حسامك أقطعُ

ومراك أبهى أم حديثك أسمعُ

ويفتح ابن زنباع الطنجي قصيدته في التهنة بالفتح، بوصف لمعركة دارت رحاها بين المرابطين والروم:

كذا تصان السيوف في الخلل

ويفخر الخط بالقنا الذبل

ويسير على نفس المنوال عبدالعزيز الفشتالي في تهنة المنصور الذهبي:

جيش الصباح على الدجا متدفقُ

فبياض ذا السواد ذاك يحقُ

ويقول ابن عبد المنعم الدغدوغي في التهنة بالنصر في معركة وادي المخازن.

جنى النصر ما بين الطبّا والكنايس

على سابقات المذكيات الصوافن

ويقول محمد الهوزالي في معركة أخرى:

بيض السيوف وسمو العوال
توطد أركان أس المعال
ويقول محمد بن إدريس العمراوي في انتصار جيش العلويين:
توالت على جيش العدو الهزائم
وهبت بنصر المسلمين النسائم
ويقول أيضًا:

الله أكبر نصر الله قد نزل
وصارم الحق للإشراك قد خذل
وينشد أبو حفص أحمد عبد الملك بن سعيد في الخليفة الموحي طالباً منه أن
يامر ليطاع في ميدان الجهاد:
تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر
وما لسواك اليوم نهى ولا أمر
ويخاطب ابن حبوس البحر الذي جاوره، بحر من نوع آخر ويقصد به
عبد المؤمن الموحي:

ألا أيها البحر جاورك البحر
وخيم في أرجائك النفع والضرر
ويخاطب أبو العباس الجراوي ممدوحه الخليفة الموحي دون أية «مقدمة»:
أعليت دين الواحد القهار
بالمشرفيّة والقنا الخطار

☆☆☆☆

قضى لك الله بالتأييد والظفر
وبالسعادة في ورد وفي صدر

☆☆☆☆

لـواؤك منصور وسعدك غالبُ
وحزبك للأعداء عنك محاربُ

☆☆☆☆

يجد عزمك نال الدين ما طلبا
وأحجم الشرك عن إقدامه وهبا

☆☆☆☆

لك النصر حزب المقادير أعوان
فحسب أعاديك انقياد وإذعانُ

ويخاطب ابن حربون المنصور الموحي على نفس النسق:
بسعدك أضحى الدين جذلان باسمًا
وباسمك أمسى الشرك للشرك هادمًا

وأبو القاسم الرحوي أبا الحسن المريني:
أجابك شرق إذ دعوت ومغرب
بمكة هشت للقاء ويثرب

وابن الخطيب أبا سالم المريني:
أطاع لسانی في مديحك إحساني
ولقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ومحمد بن الطيب العلمي السلطان العلوي:
نصرت أمير المؤمنين يا مطلع النصر
فجاء الردى للطبي والدين للنشر

وقد يتعرض الشاعر مباشرة للإشادة بالفتح الذي حققه ممدوحه «المنصور»
يقول الجراوي:

فتح يطاول فتحه الأحقابا
خضعت له فرق الضلال رقابا
الفتح أعيان وصفه النظم والنثرا
وعمت جميع المسلمين به البشرية

ويقول أبو عمرو بن حربون:
قد حصص الحق لا ريب ولا فند
هذي الفتوح التي كانوا بها وعدوا

ويقول إسماعيل النواش الشبلي:
عزمت منصور العزائم غالب
ضمنت فتوح مشارق ومغارب

ويقول ابن زمرك:
هي نفحة هبت من الأنصار
أهدتك فتح ممالك الأمصار

ويقول مالك بن المرحل، في فتح المرينيين لسوس:
فتح تبسمت الأكوان عنه فما
رأيت أملح منه ميسماً وفما

ويقول عبدالعزيز الفشتالي في فتح من فتوحات المنصور السعدي:
الفتح من حركات أحمد واجب
كل العوامل في العدا له طالب

ويقول عبدالواحد البوعاني في فتح العرائش مخاطباً المولى إسماعيل:
ألا أبشر فهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزمك الأمور

وقبل أن يتحقق الفتح يبشر الشاعر قائد الجهاد بتحقق الفتح على يديه
فيستهل أبوبكر بن مجبر قصيدة بقوله:

بشرأي هذا لواء قبل ما عقدا
إلا ومد له الروح الأمين يدا
ويقدم أبو الربيع سليمان الموحي لعمه المنصور نفس البشري:
جيش الضلال بجيشك مهزوم
فنقذ العزم إن الفتح محتوم

بل يحرض الشاعر ممدوحه على المضي في طريق الجهاد حتى الفتح،
فيخاطب أبوبكر بن المنخل الموحي بقوله:

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا
فإن نسيم النصر بالفتح قد هبّا
ويقول آخر على لسان الخليفة الموحي:
أقيموا إلى العليا هوج الرواحل
وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
ويستنصر مالك بن المرحل الملوك المرينيين للدين في أول قصيدة:
استنصر الدين بكم فأقدموا
فإن لم تسلموه يسلم

وحينما يلبي المجاهدون النداء يشهد شاعرهم بذلك، قال مالك بن المرحل:
شهد الإله وأنت يا أرض أشهدي
أنا أجبنا صرخة المستنجد

فإما أن يستمتع بمتاع الدنيا، أو يفوز بنعمة الشهادة. قال عبدالعزيز الملزوي
على لسان المنصور المريني:

من مات منكم مات شهيدا
أو عاش عاش غانمًا سعيدا
ويفتح عبدالله الهبطي ألفيته «بالتغني» بالجهاد:
إن الجهاد أكبر المعين
عليه تنبني أمور الدين
وينادي محمد ابن إدريس العمراوي أول ما ينادي في مطلع قصيدته:
يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد

...

فرض على كل مسكين وسلطان
حمل السلاح على عباد الأوثان
وقد يفتح الشاعر قصيدة بتحسره وخيبته وشكواه:
قال عبدالسلام كسوس الفاسي على لسان أهل سبته:
رفعت منزل سبته أقوالها
تشكو إليكم بالذي قد هالها
وقال محمد غريط:

مالي أرى جفن أهل الغرب وسنانا
من بعد ما أخذ «الرومي» تلمسانا
وقد يهدد الشاعر عدو المجاهدين بالويل والثبور في أول وهلة قال ابن
الخطيب مخاطبًا أبا سالم المريني:
أيغلب من عاداك والله غالبه
ويفلت من ناداك والله طالبه

وقال العمرأوي مهدداً ومتوعداً عدو سلطانه:

تأهب ليوم العيد فالحرب عيدُ

لنا وعليكم محنة ووعيدُ

وقد يجعل الشاعر من مطلع قصيدته «بيت قصيدة» فيكون قد أحسن

الاستهلال:

يقول أبو عمرو بن حربون في الموحدين:

بلغتُ بكم حجج الكتاب المنزلِ

ونصرتُم نصر النبي المرسلِ

ويقول أبو العباس الجراوي مخاطباً المنصور الموحدي:

أدركت آمال الشريعة في العدا

وتركت نظم جموعهم مُتبدداً

ويقول محمد القادري في فتح المولى إسماعيل للعرائش مستعملاً تورية

لطيفة:

علا عرش دين الله كل العرائش

وهد بنصر الله حسن العرائش

وقد يستهل شاعر الجهاد قصيدة بالحمد والشكر لله، يقول حمدون بلحاج

في تهنئة ممدوحه المولى سليمان:

حمداً لمن نصر الإسلام فانتصرا

وبدّد الكفر والضلال فانتشرا

وأبى عبدالعزيز المزروزي إلا أن يفتح ملحمة التاريخة بالحمد لله:

بحمد الله افتتح الخطابا

وأبدأ في النظام به الكتابا

فجاءت مطالع قصائد الجهاد منفردة في بابها، تبشر في مجملها بالخير وتنبه قارئها أو المستمع إليها، إلى ما سوف يطلعه عليه ناضلها، من عظيم الفعّال، في ميدان الفتح والجهاد.

ب - شيوع ألفاظ الحرب والطعان:

تكثر في شعر الجهاد مفردات تدل على كل المعاني التي تمس معترك الجهاد، وما يتصل به من قريب أو بعيد، كأسماء أنواع الأسلحة - مثل السيوف والقنا والدروع والنبال والرماح والسهام والقسى والأسنة، وفنونه - كالطعن والضرب والكر والفر - ، ونعوت كماته وأبطاله الخائضين غماره، كجند الله وعسكر الفتح. وكما سيتبين فهي ألفاظ جزلة وفصيحة وسليمة، بعيدة عن أية غرابة، ولكنها، «صلبة» ذات «جرس حربي»، يردد صدها ما يخالج شاعر الجهاد ويعبر عنه خير تعبير، مما يجعل الفكرة واللفظ المعبر عنهما قويين وفخمين معا، تتأثر بهما حاسة السمع، إذ يسمع في «دوي حروفها صليل الأسنة ووطء سنابك الخيول المطلّمة وضجيج المعارك اللاهبة». وينتقل الأثر بعد ذلك إلى النفس فيحدث الانفعال المتبادل⁽¹⁾.

وهذه منتقيات منها:

السيف والقنا والحسام: ففي هذا السيف الذي يرفع للدفاع عن النفس، ويشهر لرد العدوان. أو لدفع الظلم، أو لحماية الضعيف أو لنصرة المظلوم، يقول الأمير ادريس بن إدريس:

بسيّفك دانت عنوة وأقرت

بصائر كانت برهة قد تولت

(1) عن هذه الفكرة انظر د. عباس الجراري: فنية التعبير في شعر ابن زيدون، ص 48.

ويقول شاعر يغمراسن:

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا
وتأخذ منكم عبدالوادي بثأرها

ويقول محمد بن المنخل:

طبع الإله لها حسامًا صارمًا
يحمي جوانبها فكنت حسامها
فعلى رماحك أن تشق جيوبها
وعلى سيوفك أن تفلق هامها

ويقول محمد ابن ادريس العمراوي:

وقد قام فيهم خطيب السيف مفتخرًا
في منبر الراح والهيحاء تستعز

ويقول الملزوزي:

أرى كل جبار بسيفك يصغر
وكل مليكٍ عن فعالِك يقصر

البيض والسمر:

يقول أبو العباس الجراوي:

والسمرُ تقطر بالدماء حمرةً
والبيضُ تغمد في طلا وجماجم

ويقول عبدالعزيز الملزوزي:

وقد سطعت بيض خفاف صوارم
وقد حجب الشمس المنيرة أغبر

ويقول علي الشيزمي:

وحمى بالبيض وسمر العوالي

حوزة الملك من أذى كل قال

ويقول أحمد الدغوي:

لينورن الحق ليل ظلاله

بتألق من كل أبيض صارم

النبيل والسهام:

يقول الشاعر المريني:

والنبيل في ظلم العجاج كأنه

وبلّ تتابع في خلال سحائب

ويقول محمد الهوزالي:

وأفضل العوبة بينهم

تراشقهم في الوغى بالنبال

ويقول ابن ادريس:

نزلوا بساحلها وظنوا فرصة

فغدوا حصيد مناجل وسهام

الخيول والفوارس:

لما كان الفرسان وأسلحتهم عنصرًا أساسيًا في ميدان النزال، فقد اهتم الشعراء بحركاتهم، وتحدثوا عنهم، أحاديث الإعجاب والزهو.

يقول أبو العباس الجراوي:

لمن الخيول كأنهم سيول

غصّت بهم سباسب وهجول

يغزو أديم الأرض من سهلاتها
مثل اسمها حتى تكاد تزول

ويقول:

وصواهل وصواعق وحواصب
وكبت كمنهل السحاب الممطر

ويقول:

والعاديات مثيرة في سحبها
نقعا كغيم في أشد تراكم

ويقول سليمان الموحدي:

جيش من العقبان إلا أنه
ضراء قوم عنده سراء

ويقول عبدالعزيز الملزوزي:

كما فارس يصلى بنار لظى
من علة الكبر لا من علة الكبر

ويقول أيضاً:

فلما رأى أسيافكم تستبين الطلا
وأبصر خيل الله كالأسد تزأر

ويقول ابن إدريس العمراوي:

أقام بها جيش الهام مرابطاً
يباركهم من خيله الفتكة البكر

الكتائب والرماة والكُماة:

قال ابن حريون:

لما أتتهم جنودُ الله أسلمهم
شياطنهم وانثنى يثني على الجبلِ

قال سعيد الجامدي:

إذا ما الكُماة ملَّتِ الطعنَ في القفا
أملَى عليهم ضربها بالصوارمِ

ويقول سعيد بن عبدالعزيز الجزولي:

تلقى الكُماة به نشوى وقد ثملتُ
من المحيا محيا الموت لا السكر

ويقول شاعر المرينيين:

سلوا عن مواقفهم لما التقت
يوم الصياح كتائب بكتائب

ويقول عبدالعزيز الفشتالي:

ورماة تشبه نارًا تلظى
جعلوا وقْدَها جُسومَ الرجالِ

ويقول ابن ادريس العمراوي:

عساكرُ فتحٍ عود الله رفعها
إذا قوبلت يسرى بناصيها الكسر

الضرب والطعان في الحرب والهيحاء:

قال الإمام إدريس بن إدريس:

أليس أبونا هاشم شد أزره

وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

ويقول سليمان الموحي:

كم صدمة لك فيهم مشهورة

في قفصة ريعت لها الزواء

ويقول أبو العباس الجراوي:

قسما بأقدام الكماة لدى الوغى

والحرب مظلمة اللظى بتصادم

ويقول عبدالعزيز الملزوي:

ولا شمس إلا وجه يعقوب إذ بدا

تراه لدى الهيحاء والحرب مُسْعَرا

الرايات والأعلام

قال أبو حفص بن عمر:

وأعلام نصرك خافقات

لها في كل جو مستطار

ويقول محمد أكنسوس:

وتخفق الرايات فوق كتائب

لها عزها ناه لهن وأمر

وهكذا تردد هذه الأبيات - كغيرها - قعقعة السلاح، وصلي السيوف، ويزدحم بين مفرداتها حفير الفرسان وصهيلها، وتتعالى بين سطورها صيحات المجاهدين، وتتخللها نفحات الفتح المبين. وبقيت قوة الكلمة فيها مواكبة لقوة الاندفاع، من أجل الدفاع عن المجد والعزة والكرامة. فكانت لغتها وجدانية تعبر أصدق تعبير عن «تجارب شعورية»، يعيشها الشاعر بين أفراد أمته.

ج - المحسنات البيانية والبديعية واللفظية:

قد يغلب على شعر الجهاد - الشعر الوجداني - في مجمله، طابع العفوية، فهو يصدر عن صاحبه بدون تكلف أو تصنع، مشتملاً على صدق المعاني وحرارة التعبير، بعيداً عن كل تصوير بياني دقيق، وعن كل تكليف - لفظاً ومعنى - أو صنعة أو صقل أو تهذيب، نابضاً بالمشاعر البسيطة والانفعالات الإسلامية الوطنية الحماسية، لأن قضية الجهاد - التي تدور حولها القصيدة - نابعة من صميم حياة الأمة المغربية ومن واقعها الأصيل.

ولكنه يلاحظ أن من بين شعراء الجهاد وناظمي قصيدة من جرهم تيار الصنعة البديعية، التي ظهرت في الشعر العباسي، فولعوا به، فمنهم من أحسن استعماله ومنهم من تكلف «وركبوا ألواناً من الصنعة والتأنق» مضموناً وصياغة، كما سيتبين من الأمثلة التي سنسوقها، والتي ستغني عن ذكر مثيلات لها دون القيام بشرح أوجهها وأنواعها لوضوحها.

في التشبيه والكناية:

يقول أبو بكر المنخل:

تسقى العداة سمومها فكأنها

أيّد تصفق للندامى راحها

ويقول أيضاً :

من كل مشرفة التليل كأنها
عقدوا بباسقة النخيل لجامها

ويقول عبدالعزيز المزوزي :

فمزق ذلك الجيش كل ممزق
كما مزقت ميتا بقبر قشاعم

ويقول محمد الفشتالي :

ولاح وميض المرهفات كأنه
وميض نجوم والدياجي قتام

ويقول عبدالعزيز المزوزي :

ترى جثث الأبطال تسقط بينهم
سقوط مبان فارقتها الدعائم

ويقول أبوزكرياء الصيرفي مشبهاً ممدوحه بالسيف في حديثه :

سيف به ثل عرش الروم واطأدت
قواعد الملك واستولى به الخفر

ويقول محمد الجزولي مشبهاً عدو ممدوحه بإبليس :

ما زال إبليس في الأقطار يوقدها
ويرتمي من شرار الخلق بالشرر

ومن الكناية يقول محمد الهوزالي :

فتوح جنى المنصور في عرصاتها
أزهار نصر يانع من جنانها

ولا روض إلا من كثيف كتائب
ولا سقي إلا ما جرى من طعائها
ولا غصن إلا من قناة قويمة
ولا زهر إلا من شتات سنانها

ويقول محمد ابن ادريس العمراوي:

وقد قام خطيب السيف مفتخرًا
في منبر الراح والهيحاء تستعز
ويقول أبوبكر بن مجبر مشبهًا بمدوحه بالملك سليمان وبالنبي داوود:
أنت سليمان في الملك العظيم وفي
طول التهجد في المحراب داوود

في الجنس والطباق:

يقول محمد بن علي الفشتالي:

ولبوس بأسك في المخازن أردت
وسط المخازي بستان الأشام

ويقول أبوبكر بن المنخل:

رأوا بك دين الله يكف اعتزازه
وأنت له حرب فكانوا له حربا

ويقول ابن حمديس:

وإن كرمهم ذو لئام مصمم
غدا لقم الهيحاء بالسيف لئما

ويقول سعيد الجامدي:

ملكنت على الأعداء بالسيف سيفهم
جهازاً وكان السيف أعدل قاسم

(السيف: شاطئ البحر)

ويقول أبو حفص عبد الملك بن سعيد:

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر
وما لسواك اليوم نهى ولا أمر

ويقول العمرأوي:

إذا ما لقوا حادوا عن الحرب وانثنوا
وأجسامهم نظم وأرؤسهم نثر

في الاقتباس والتضمين:

إن معظم شعراء «شعر الجهاد» متشبعون بالثقافة التاريخية والأدبية واللغوية، ومتضلعون في العلوم الدينية والإسلامية. فجاءت أشعارهم متأثرة بآي من القرآن الكريم وبنصوص من الحديث الشريك نصاً أو روحاً ومحاكية لأسالييهما، نابضة بالمشاعر الدينية الإسلامية في صور أدبية بلاغية، ومضمنة لبعض الأحداث التاريخية والأمثال العربية.

يقول أبو العباس الجراوي مضمناً الآية: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾

دعاكم لما يحييكم وارث الهدى
وجامع أشتات العلا والمفاخر

ويقول ابن الخطيب مضمناً الآية: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾:

ونادى لسان الفتح في عرصاتهم
كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ

ويقتبس من الآية: ﴿أليس الصبح بقريب﴾، في قوله:

ودجا ظلام الكفر في آفاقهم

أو ليس صبحك منهم بقريب

ويقول محمد ابن ادريس العمرابي مضمناً الآية: ﴿والعاديات ضبحا﴾:

وسورة الفتح من بعد القتال أتت

والعاديات ضحى بالنصر تفتخر

وقوله مقتبساً من آيتين من سورة الحج:

يا أيها الناس اتقوا ربكم

وجاهدوا في الله حق الجهاد

وقوله مقتبساً من الآية: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم

عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾:

سيخزيهم وينصركم عليهم

ويشفي صدور قوم مؤمنينا

ويقول سليمان الحوات مقتبساً من الآية: ﴿ومن أعرض عن ذكرى﴾

وقد جهلوا ما ي العقود مبينا

لمن حارب المولى وأعرض عن ذكر

ويقول حمدون المرداسي مضمناً الآيتين: ﴿وسيصلون سعيرا﴾، و﴿بئس عقبي الدار﴾:

فسيصلون بالسيوف سعيرا

هي بيضٌ تكسوهم باحمرار

وهو حشر لمن طغوا في بلاد
لسعير وبئس عقبى الدار
كما اقتبس من الآيتين: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾، ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح
لها﴾ في قوله:

ادفع عدوك بالتي وإن جنحوا
للسلم فاجنح لها فالسلم مسؤول
ويضمن أحمد ﴿الدقون﴾ الآية: ﴿فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم﴾ في صوله:
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
كمثل عاد وما عاد بأشكال
ويضمن محمد غريط الآية: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ في هذا البيت:
إن تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا
ولتخلعوا في ابتغاء القوم أرسانا
ويقتبس من الآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة﴾ في قوله:

والله منا اشترى نفوسنا كرما
بجنة جمعت حُورًا وولداناً
ومن الآية ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾ في قوله:
دارت عليهم من الأسواء دائرة
وحاق مكرهم بهم لأن مكروا
ويقتبس الناظم ابن جبش التازي معنى الآية في قوله من قصيدته التائية:
وقد وعد المولى بنصر عباده
إذا نصروا الدين المتين بقوة

ويقتبس الدغوي من الآية: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ في قوله:

فإذا مكره والله يمكر مكره

به إذا حذاه نحو تلك الأماكن

ويقول محمد أكنسوس مقتبساً من الآيتين: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾،

﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ﴾:

فمَنْ يَهْدِ إِلَهُهُ فَلَا مُضِلَّ

وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادٍ يَزِيحُ

ويقتبس محمد المكلاطي من آية بسورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رِيكَمَ فَاسْتَجَابَ

لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ..﴾ في قوله:

فله من النصر العزيز قلادة

مسرودة ومن الملائك عسكر

وقد ضمن عبدالعزيز الملزوزي معنى الحديث الشريف المروي عن سعد بن

أبي وقاص: «لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى

يأتي أمر الله»، أو «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»⁽¹⁾

قوله:

وقد قال خير العالمين محمد

يكون لكم بعدي لدى الغرب معشرٌ

بهم يعتلي الإسلام بعد امتهانه

ويرجع في أثوابه يتبختر

واقتبس عبدالواحد الحسن الفيلالي من الحديث الشريف: «إن الله يبعث

على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» في قوله:

(1) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 9.

ففيك أقول والنصوص شواهدُ
أحاديث صحت ليس فيها مُنازَعُ
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا
وفاضت بحورُ للعلوم دوافع
ويقتبس أبو العباس الجراوي من المثل القائل: «تنتقل الجبال ولا تنتقل الطبائع»
في قوله:

أهل الجهالة كيف ألومهم
وعلمت أن الطبع ليس يحول
ويضمن عبد الجليل بن وهبون المثل القائل: «ما وراءك يا عصام» في قوله:
ستسألك النساء لا الرجالُ
فخبر ما ما وراءك يا عصامُ
ويقتبس أحمد الصنهاجي الأندلسي من المثل القائل: «الصيف ضيعت اللين»
في قوله:

والضيف ضيعت ما أملت من لبن
ففارق الجبح من تدخين نحال
كما يضمن أحمد بن السيد الإشبيلي المثل القائل: «سبق السيف العذل» في
قوله:

كل يولي صريح العدل صاحبه
والسيفُ يسبق ما يأتي به العذلُ
ويضمن إسماعيل بن عمر الشبلي قصيدته بيتاً شعرياً لشاعر عربي:
لله درك والفوارس تدعي
والحرب خاسرة المتاع زبون

في قوله:

وتحدثت بيض الصوارم في الطلى
بحديث مجدك والحديث شجونُ
لله درك والفوارس تدعي
والحرب خاسرة المتاع زبون
وضمن حمدون المرداسي قصيدته شطرًا من قصيدة لأبي فراس الحمداني
الرائية في قوله:

وأظلمت الدنيا عليهم بأسرها
«وفي الليلة الظلماء يفقدُ البدر»
كما ضمن حمدون المرداسي شطرًا آخر من قصيدة أبي صخر في قوله:
وتنتفض الأساد منه مهابةً
«كما انتفض العصفورُ بلله القطرُ»

وفي قوله أيضًا:

ومنه أسود الغاب تنفض هيبةً
«كما انتفض العصفورُ بلله القطرُ»
كما ضمن أبو العباس عبد المنان شطرًا من قصيدة ابن الرومي الدالية في
قوله:

فثق بالذي تعودت أنه
«لكل امرئ من دهره ما تعودا»

كما اقتبس المرداسي من قوله الشاعر:

«وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمةٍ لا تنفعُ»

في قوله:

وتنشب أظفار المنية فيهم

ولم ينجهم من بأس وقفته وعر

وضمن محمد ابن إدريس العمراوي بيتاً من همزية البوصيري في قوله:

فقد أصاب الأعادي منهم عذابٌ

ودهى منهم الدهاة دهاءٌ

و«رذا سخر الإله أناساً

لسعيد فإنهم سعداء»

واقتبس أحمد الدقون من قول الشاعر الأندلسي اليعصبي الذي أصبح مثلاً:

«من جاور الشرك لا يعدم بوائقهُ

كيف الحياة مع الحيات في سفت»

وذلك في قوله:

كيف الحياة إذا الحياةُ قد نفحت

على السواحل أو همت بإرسال

كما ضمن ابن ادريس العمراوي هذا البيت في قوله من قصيدته الطائفة:

وأنتم القصد لا تبقن في دعةٍ

إن السكون إلى الأعداء من السقطِ

«من جاور الشرك لا يعدم بوائقهُ

كيف الحياة مع الحياة في سفت»

وقد ضمن محمد الزناتي شطراً من معلقة امرئ القيس في وصفه لفرس

الملك، أحمد المريني:

«مكرٌّ مفرٌّ مقبلٌ مدبرٌ معاً»

سريعٍ لأقصى غاية الشوط منهبٍ

كما ضمن أبو عبدالله العزفي في مدحه لأبي عنان المريني بيتين من قصيدة
أعشى همذان، أوردها أبو الفرج الأصبهاني في أغانيه:
وجاؤوك أفواجاً يرومون بيعةً
فمدّ بعون الله للبيعة اليدا
«بجند أمير المؤمنين وخيله
وسلطانه أمسى معانا مؤيدا
ليهن أمير المؤمنين ظهوره
على أمة كانت بُغاةً وحُسدًا»

في التورية اللغوية والنحوية

قد تأثر بعض شعراء الجهاد بثقافتهم اللغوية والنحوية فاستعملوا التوريات
في بعض أشعارهم، تدور جلها حول عوامل الجزم التي تحذف حروف العلة
بالمقارنة، مع السيوف والحراب التي «تحذف» رؤوس العدا، وتجمعها جمع «تكسير»
وتخريب وتقتيل.

كما استعملوا عوامل الإعراب في توريثهم: فيقصدون بالنصب الخديعة والمكر،
وبالرفع: الانتصار، وبالكسر: الانكسار والخذلان، وبالجزم: القطع والحذف.

يقول أبوبكر بن المنخل:

أضلتهم البيض الصوارم والقنا
فكانت لهم رفعا وكانوا لها نصبا

يقول الفشتالي مشيراً إلى لام التعليل التي تنصب المضارع بأن مضمومة:

عوامل تبدي الفتح بعد خفائه
وتصحبها عند النواصب لأم

ويقول العمرأوي:

فأضحوا حروفاً أعجمت برصاصهم
وأشكلها ضرب المهند والسمر

ويقول أيضاً:

تعلمت اللام البلاغة فيهم
فللبيض والمران عند اللقا شعرُ

كما يقول في النصب والانحطاط:

وقد جاوروا من عصابة الكفر أمة
تريد بنصب الماكريين لها الجرأ

ويقول ابن الخطيب:

وأضف إلى لام الوغى ألف القنا
تظهره لديك علامة التغليب

ويقول أيضاً:

كتائب أمثال الكتاب تتاليا
فمن بيضها شكل ومن سمرها نقط

ويقول عبدالله بن يوسف ابن رضوان كاتب أبي الحسن:

كتائبه في الفتح تكتب أسطرا
تبين من الأنفال فيها المسائل
عوامله بالحذف تحكم في العدا
كما حكموا في الحرف جزم العواملا

ويقول أحمد الصنهاجي الأندلسي:
إننا إلى الله والرجعى له وبه
تعلق القلب في صحّ واعلالٍ

ويقول عبدالعزيز المزروزي:
كأن كماء الجيش فعل مضارع
ويترك للأعناق منها جوازم

ويقول اسماعيل بن الأحمر:
ملك قضى الملك المهيمين ملكه
ليعيدَ معتلّ الأمور صحيحا

ويقول محمد العقيلي:
أفعال أعدائه معتلة أبداً
متى يرم جزمها بالحذف تنجزم
وما الجمع «عندهم»، إلا جمع «مذكر سالم» أي الجمع الصحيح القوي وهو
جيش المجاهدين، أما جيش الأعداء فهو جمع «تكسير» وانكسار يقول المزروزي:
وتجمعها بالسيف جمعا مكسراً
وجمعك ما بين الكتائب سالمٌ

ويقول علي الشيطمي:
وإذا انتحاك الجمع منه فإنه
وقف على التكسير واستيصال

ويقول سليمان الحوات:
جمعتها جمع تصحيح وقمت بها
في وسط فحكيتم هالة القمر

في الاستشهاد بالقواعد الفقهية:

يقول ابن ادريس العمراوي:

والانتهاء كالابتداء قاعدة

في الفقه مقرونة في كل ديوان

وبالقواعد المنطقية:

يقول أبو مروان بن خالد الأندلسي:

يعنى به النصر لا ينفك يلزمه

كأنه علة والنصر معلول

ويقول ابن الخطيب:

حياتك للإسلام شطر حياته

ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط

ويقول محمد بن علي الفشتالي:

إذا للعدا ألفت عزما ومرهفًا

فإن نتيجة القياس حمام

وبالوقائع التاريخية

يقول محمد الهوزالي مشيرًا إلى حرب داحس والغبراء

حروب طوت ذكر البعاث وملهم

ومات لها ذكر البسوس وداحس

ويقول سليمان الحوات أيضًا:

وآل ما بينهم من الحروب إلى

صلح كم آل في عبس وذبياننا

فقد أضرّموا بينهم للحرب نائرة

لا مثل ما كان في سعد وغسانا⁽¹⁾

ويقول محمد ابن الطيب العلمي:

أتاه رجال في الوغى فكأنهم

رجال أتوه من حنين ومن بدر

ويقول الفشتالي مستعملاً التورية ببدر وحنين:

شغفت ببدرك واستباك حنينها

فتجمعت بكما حنين وبدرها

وبعزیز مصر صاحب يوسف عليه السلام:

وعقيلة الأمصار وهي أصيلة

أنت العزيز لذا أطاعك مصرها

ويقول ابن ادريس العمراوي متمثلاً بالملك اليمني سيف بن ذي يزن في قوله:

حكمت سعادتك العلية في العدا

حكم بن ذي يزن على الحبشان

ومشيراً إلى قصة هلاك عاد لما كذبوا نبيهم هود، فأرسل الله عليهم ريحاً

صرصرًا، عاتية دمرت كل شيء:

وتركتهم صرعى كعصف الفيل أو

عاد لما ارتكبوا من العدوان

وقد سبق لأبي بن سيد المالقي أن أشار إلى نفس الحدث التاريخ في قوله:

وهذي رياح ريحه عصفت بهم

فعادوا كعاد حين خللها الرمد

(1) حرب داحس والغبراء أو حرب السباق وقعت بين قبيلتي عبس وذبيان وتعقدت حتى شملت غيرهما من القبائل كبني أسد وبني تميم وبني عامر. دامت هذه الحرب أربعين عامًا سقط خلالها قتلى كثيرون وانتهبت أموال وانتهكت حرمان.

وكثيراً ما يقرب شعراء الجهاد بين أحداث قديمة تاريخية وأخرى حديثة.
فيشبه مثلاً الشعراء الموحدون معاركهم بمعارك بدر أو صفين:

يقول الأصم المرواني:

ويلبس الدين غضا ثوب عزته
كان أيام بدر عنه لم تغب

ويقول الجراوي:

وتشب حيث توجهت عزماته
حرب كما وصفت لنا صفين

ويشبه ابن حربون أبا حفص بن عبدالمؤمن بلقمان بن عاد في مواجهته لهم:

بحر كان أبا حفص بصهوته
لقمان والمركب الجاري به لبد

وعند الأصم المرواني في وقوفه على جبل الفتح وإنقاذه للمسلمين كموسى
عندما سعى لتخليص بني إسرائيل وإنقاذهم:

وطود طارق قد حل الإمام به
كالطور كان لموسى أيمن الرتب

ولا شك أن الشعراء الموحدين يقصدون بهذه التشبيهات إبراز جهود الملوك
الموحدين وكفاحهم الشاق وجهادهم المتواصل، في سبيل تحقيق أهدافهم المقدسة⁽¹⁾.

أسلوب الحوار:

واستعمل شاعر الجهاد غير ما مرة أسلوب الحوار في بعض قصائده التي
تروي أطوار معارك الجهاد.

(1) انظر عن هذا الموضوع، حسن جلاب: الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الأدب) ص 90-94.

قال الشعر «الطليق» يخاطب عبدالمؤمن الموحي:

ما للعدا جنة أوقى من الهرب.

فقال عبدالمؤمن: إلى أين؟

فكان جواب الشاعر: كيف المفر وخيل الله في الطلب.

ويقول عبدالعزيز الملزوي:

فلو قيل للإسلام من كنت ترتجي

لقال لنا: يعقوب ذاك الغضنفر

ويقول أحمد الدقون:

ثم استغاثوا: ألا فرسان عادية

قال الصدى: لست ذا رمح ونبال

ورغم هذا «الزخرف» البديعي، من جمال المقابلة، وحسن التلميح ورقيق الاقتباس - التي أتينا بصور له - يبقى شعر الجهاد، شعراً متدفقاً سلساً، دون قسر في التعبير أو عمق في التصوير، جامعاً بين البساطة والوضوح والجزالة والرفقة، صادقاً ما دام يصف وصفاً دقيقاً، وقائع معينة ثابتة جادة، ويصورها تصويراً واقعياً في تعبير سليم، وكلمة مؤثرة وصيحة بليغة، مما يكسي القصيدة حلة من الوضوح في كل مكوناتها ويجعل القارئ يستأنس بها والسامع يستلذ لها.

د - الإيقاع:

إذا كانت أوزان الشعر هي أيضاً «قوالب» للانفعالات والإحساسات التي تجيش في نفس الشاعر - كما يقال - فقد كان شاعر الجهاد - انطلاقاً من القصائد الواردة في هذه الرسالة - مركزاً على البحور ذات النفس الطويل أو «التامة» كما يسمونها، مثل الطويل والبسيط والكامل والوافر لأنها تستوعب أكبر قدر ممكن من

المعاني والأفكار، لامتداد تفاعيلها ولجزالة تراكيبها. فكانت هذه الأوزان والبحور تتسع إذًا لمشاعر الشاعر الحماسية، وعواطفه المتأججة وتناسب سرد قصص البطولة والملاحم وتلائم احتدام المعارك، وصراع الأبطال من المجاهدين، وعظمة الفوز والانتصار، وتصلح للمواضيع الجادة والعميقة كموضوع الجهاد التي تتميز تعابيرها بالصدق والحرارة وتراكيبها الموزونة بالفخامة، وكلماتها بالإيقاع الرتيب، وتسعف الشاعر في الأخير لاستخلاص العبر، وهذا ما تضيق عنه البحور المجزوءة. وأكبر مثال لذلك ملحمة الملزوزي التي اختار لها القافية المطلقة المتحركة، ذات الإيقاع الشبيه بإيقاع السلاح يقول منها:

فحزب بني مرين حزب الله يحمي

حمى الإسلام لا يخشى عقابا

وقد نظم شاعر الجهاد أيضًا في وزن الرجز وبألفاظ «مأنوسة» خاصة حين يكون حاملاً للواء التحريض على الجهاد والاستشهاد.

إذ إن هذا البحر هو من أسهل البحور على السنة الشعراء، يساعدهم على التحميس والترغيب - بعبارات مبسطة وجزلة - ويعينهم على الرفع من همة المجاهدين، لقربه من سليقتهم كقول مالك بن النحل:

استنصر الدين بكم فاقدموا

فإنه إن تسلموه يسلم

خذوا السلاح وانفروا وسارعوا

إلى الذي من ربكم وعدتم

وهذا الوزن كان رائجًا أيضًا عند شعراء العرب، في حومة الوغى، سال على ألسنتهم في مبارزاتهم ومفاخراتهم.

فنوع الوزن عند شاعر الجهاد يبدو هنا عنصرًا حيويًا بالنسبة إليه تفرضه «التجربة الشعرية».

أما القوفي فقد استعملها شعراء الجهاد بنوعيتها المطلقة والمقيدة، وقد وفروا لها إيقاعاً خاصاً يناسب عظمة الموضوع، لتوضيح المعنى الشعري والتعمق فيه، ولتسهيل سبر أغوار النفس وولوج فضاء الخيال والفكر.

كقول أبي العباس الجراوي:

شرف الخلافة أن ملكت زمامها
وغذوت من عقب الإمام إمامها
طبع الإله لها حساماً صارماً
يحمي جوانبها وكنت حسامها

وكقول محمد ابن إدريس العمراوي:

أحاطت جيوش المسلمين بأرضهم
وعمَّهم منها التسلُّط والقسرُ
ولا شيء مثل السيف أنفع للعدا
إذا لم تفد فيها المواعظ والذكر

إلا أن شعراء الجهاد اعتمدوا المقاطع الممدودة - بالكتابة التي شاهدناها - مما وفر لقصيدهم «إيقاعاً موسيقياً غنياً».

فالإيقاع في شعر الجهاد بصفة عامة، يمتاز «بالجلجلة والحدة والصخب والصلصلة تتبع من ثايا كلماته «دلالات معنوية عميقة».

ويعطي بذلك صورة صادقة للمشاعر - التي تخالج الشاعر أثناء نظمه لقصيدته - من تحمس واندفاع وأحزان وأفراح في حومة الصراع بين قوى الحق والباطل.

وهكذا يمتاز شعر الجهاد من الناحية الفنية بالتعدد والتنوع في «الأساليب والمباني»، والتكامل في «الأغراض والمعاني».

الخاتمة

لقد ظهر من خلال هذه الصفحات أن الأمة المغربية، أمة محاربة مجاهدة مرابطة، لا تستكين على ضيم، أسال الكثيرون دمائها وأسالت دماء الكثيرين، زحفاً على العدو، أو دفاعاً على الحمى.

وكانت حروبها كلها انتصاراً للحق على الباطل وللهدى على الضلال، ومن أجل تحرير الإنسان المغربي والأرض المغربية من العدوان والاحتلال، لما جبلت عليه من خصال البطولة والصلابة ومن ميل غريزي إلى الاستقلال والحرية وشيم العزة والكرامة.

فالحروب، رغم ضراوتها ومرارتها قد لا يكون للأمة خيار آخر غيرها، عندما تكون هي الوسيلة الوحيدة لوضع الحق، في نصابه. وإذا قدر للمغاربة أن يخوضوا غمارها، ويقتحموا دروبها، فلأنهم أجبروا على ركوبها، بعد أن وجدوا أنفسهم يتعرضون للتحديات، وهذا ما كان يدفعهم لظلول متوثبين يقظين متحفزين، محتفظين بسلاحهم كي يدافعوا به عن أرضهم وملتهم ضد نوازع الشر، ويحموا بيوتهم ودولتهم من الأخطار التي تتهددها من الداخل والخارج.

فتأهب المغاربة، واستعدادهم للجهاد لم يكن قط لدوافع عدوانية، بل هو إحساس غريزي للمحافظة على الحياة الكريمة العزيزة، ونزوع إنساني طبيعي للدفاع عن النفس والحرص على التشبث بالحرية.

من لبان الجهاد حسا ومعنى

قد رضعنا فلا نطيق الفطاما⁽¹⁾

فموقع المغرب على خريطة العالم كصلة الوصل بين البلدان الأوروبية والإفريقية فرض على المغاربة جهاداً دفاعياً مستمراً ومستديماً ومتعدد الجهات، حتى أصبح الجهاد أهم سمة من سمات تاريخ المغرب العتيق.

فألهمت الصور الرائعة من البطولة والشهامة والنجدة والإباء، المستديمة شعراء المغرب فخاضوا «معارك الجهاد» من خلال أشعارهم، يرسمون صوراً خالدة للشهامة المغربية، ولأساليب التصدي والهجوم في حومات الوغى، وزحمت القتال، ويسجلون الخوالت والخوارق، ويشيدون بالفتوحات والانتصارات، ويهيبون بالمجاهدين للدفاع عن الأرض والذود عن الحمى، وإعلاء كلمة الله، ويثبتون في نفوسهم الإحساس بقوة العدالة والحق، والاستهانة بالباطل - أينما حلوا وارتحلوا - والتصديق العميق لما وعد الله به لاشهداء من الجزاء الأوفى وحسن المآب. ويرفعون لقائد جهادهم وملكهم آيات التهاني بما أفاد الله عليه وعلى جيوشه من عز مكين ونصر مبين.

فيهدف شعر الجهاد من خلال أشعارهم إلى التعبير عن الوقائع والأحداث المغربية، وعن قضايا الإنسان المغربي في مراحل كفاحه وجهاده، مستمدين قوتهم واندفاعهم وتحمسهم من الروح الإسلامية والشعور الوطني. إنهم لم يخوضوا

(1) البيت من قصيدة شعرية للمرحوم محمد العلمي. ويقول محمد بن إبراهيم شاعر الحمراء من قصيدة وطنية له مخاطباً المجاهدين من المغاربة:

وإذا أريق في الجهاد دماؤكم فكذا دماء المسلمين تراق
وتوجه الشاعرة غيثة العلمية الدعوة إلى الجهاد من أجل الحق:
سرأيها الشعب في عز وفي شرف إلى الجهاد فإن الله راعينا

غمار حروب الجهاد، مشاركة ومعايشة ولا خبروا تجربتها الحربية كما خبرها شعراء صدر الإسلام، وإنم خاضوها من «الخارج» - انطلاقاً من الرؤية والمعاناة، كما فعل الشعراء الأمويون والعباسيون. فقد كانوا أقرب من المؤرخين إلى حركة الجهاد، بقصائدهم وأشعارهم التي أنشدوها وأطنبوا في أغراضها، كما أتينا على ذكرها من بين ما دبجته قرائحهم من فنون الشعر ومناحيه.

وإذا كان أدباؤنا المحدثون يعدون هذه القصائد ينبوعاً من ينابيع أدبنا الحربي والنضالي بما خلدته من مواقف للفخر والوصف والإشادة والمدح - وأسمى فن شعري نحتلف به ونجله - كما احتفل به العرب قديماً وأجلوه - فهي أيضاً تؤلف سفرًا جليلاً ومصدرًا خصبًا من مصادر تاريخ جهادنا ومعاركنا وقتالنا للدفاع عن حوزتنا ولدرء هجومات أعدائنا، ومرآة صداقة لصور بطولة مجاهدين وتضحياتهم الماجدة، وتشكل وثيقة لها حضور فعال في الواقع المغربي، وتجسد أصلاً من أصول «الوطنية المغربية». وهكذا قدمت هذه «الذخيرة الشعرية» لكتب الأدب والشعر والتاريخ مادة قوية بمضمونها وقالبها ولغتها، ساهم فيها «اليراع واللسان مع السيف والسنان» وتألقت فيها روائع الانتصارات والفتوحات لتلتقي بالقصائد الخالدة والملاحمات الفذة. مما أعطى لشعر الجهاد قيمة مزدوجة: الأولى توثيقية حيث أصبح شعر الجهاد وثيقة تاريخية، تكشف عن أحوال الدفاع والجهاد في المغرب عبر عصوره، والثانية أدبية إبداعية، تتجلى في كونه مثل غرضاً هاماً وأولياً من أغراض الشعر المغربي، بقي مغموراً في بطون الدواوين الشعرية والمصنفات الأدبية والتاريخية.

وهذا أقوى دليل، وأسطع برهان على أن شعر الجهاد - الذي أبرزناه - حسب اجتهادنا ومبلغ علمنا - في هذا الكتاب، بعدما كانت نصوصه دفيئة في عدة مصادر، ذات ألوان معرفية مختلفة، قد واكب بحق مسيرة المغرب الجهادية، فكرة

ودعوة ودولة، وتفاعل معها وعبر من أمني ومطامح المكافحين خاصة والمغاربة عامة، واستنهض همم المجاهدين المرابطين وثبط عزائم المناوئين وقام بدور هام في صنع الأحداث وصياغة الوقائع التاريخية.

فطراً تحول محسوس على الحياة الفكرية بالمغرب، واتضح الشعور بالمسؤولية لمحاربة المعتدي والدفاع عن الإسلام بالقلم والسنان، ومضى اليراع مناصراً لأي سلاح «يخوض» معركة الحياة والشرف⁽¹⁾.

وهكذا وجدت عبر تاريخ المغرب قوتان: قوة الجيوش الجرارة المجاهدة، لمحاربة الأعداء، وفتح البلدان وتحرير الأرض، وقوة «شعر الحرب والجهاد»، لنشر دعوة الجهاد، وتخليد ملاحمها. فكان للجهاد حدان: حد للسيف وحد للقريض. وأصبح هذا القريض ظاهرة متميزة في الأدب المغربي عبر تاريخه، لأن الأجنبي «مهما قرع ثغور المغرب بالتي هي أشد وأقوى، كان لا يجد فقط مقاومة بالسلاح، بل نضالاً بالكلمة والإبداع أيضاً»، لأجل تحقيق أهداف الجهاد ومراميه. فتعايش الجهاد والشعر معاً. وتبادلا التأثير والتأثير فكان الشعر ضرورياً للتحسيس على الجهاد، وكانت حركة الجهاد باعثة لقول الشعر، ومؤثرة فيه، شكلاً ومضموناً. فأسدى الجهاد إذا للشعر المغربي الذي واكبه خدمات جلى، فآلهمه مشاعر صادقة وأفكاراً ثورية وأمدّه بمواضيع حيوية؛ كما أسدى الشعر لحركة الجهاد خدمات جليلة فأشاع رسالتها بين الناس وبشر ببلوغ أهدافها النبيلة وتحقيق غاياتها التحريرية الكبرى.

ويا حبذا لو استتبعت هذه الرسالة المتواضعة برسالة أخرى تكون متممة لها تتناول بالدرس والتحليل شعر النضال والجهاد (من أجل إجلاء المستعمر)

⁽¹⁾ يقول ابن خلدون في مقدمته: «فكل من السيف والقلم آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره».

في الأدب المغربي الحديث من عهد المولى محمد ابن عبدالرحمن حتى المسيرة الخضراء ومعارك الصحراء⁽¹⁾ وبذلك يكمل تدوين تاريخ الملحمة المغربية الكبرى

(1) نظم كتوني الحاج أحمد المذكوري أرجوزة خص جزءاً هاماً منها للحديث عن مقاومة الدار البيضاء، والذاكرة للاحتلال الفرنسي (1907-1908)، انظرها في كتاب ندوة المقاومة المسلحة المغربي 1900-1934، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير (1990)، ص 67-73.

- وأصدر د. إبراهيم السلامي في هذا الصدد رسالته: «الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية» (1912-1956).

- ونشر هلال ناجي كتيب «الشعر المغربي في مقاومة الاستعمار من نشأة الدولة العلوية إلى الخمسينيات». انظر تعليقا على الكتيب لخديجة حركات بمجلة «البحث العلمي»، عدد 34، 1984.

- وأصدر محمد أديب السلاوي: «الشعر المغربي مقارنة تاريخية 1830-1960م.

- وحصل نورالدين إيمان من قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث والدراسات العربية ببيفداد التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على درجة الماجستير عن رسالته التي أنجزها حول موضوع: «شعر النهضة المغربي مكوناته وتطوره».

- وكتيب إبراهيم الباعمراني رسالته الجامعية حول موضوع: «أدب الجهاد في المغرب الأقصى قبل الحماية» تحت إشراف المرحوم محمد بن تاويت، ولم يكتب لها أن تناقش وتخرج للوجود.

- وكتب المؤرخ البحاثة محمد المنوني بحثاً عن أدب المغرب البطولي في القرن التاسع عشر، ونشره بمجلة آفاق 1964، وآخر عن «أدب المغرب البطولي في القرن العشرين».

- وكتب د. عبد الجواد السقاط مقالا بدعوة الحق، عدد 278، مارس 1990، تحت عنوان: «عر الجهاد في ظل العرش المغربي». وصنف شعر الجهاد بالمغرب إلى أصناف ثلاثة: شعر الجهاد الديني، ويعني به شعر الفتوحات بالأندلس، وشعر الجهاد السياسي، ويعني به شعر التحريض على محاربة الثوار قديما، وشعر المقاومة من أجل إجلاء الوجود الاستعماري حديثا، شعر الجهاد الخلقي، ويعني به شعر الزهد والتصوف والوعظ. والحكمة كما نشر بحثا بنفس المجلة، عدد 284 يوليو 1991. عن «شعراء المغرب الشباب في مواجهة الاحتلال الاجنبي».

- ونشر د. حسن الوراكلي بحثا له عن «الوعي الوجداني في قصيدة الجهاد المغاربية بمجلة «عالم الفكر» (مجلد 11، عدد 2، أكتوبر 1991).

- وكتب عبدالله بنصر العلوي عن شعر الجهاد في فجر الدولة العلوية الشريفة، في دعوة الحق رقم 324 دجنير 1997.

- وكتب د. إبراهيم السولامي عن «تجليات المقاومة في الشعر المغربي المعاصر بمجلة «المناهل»، عدد 54 مارس 1997.

- وألف عبدالقادر العافية مؤلفاً بعنوان: «المغرب والجهاد التاريخي» 1998.

- ونشر د. علال ركوك مقالا عن أدب المقاومة المغربية من خلال بعض المرجعيات «الأجنبية والوطنية» بمجلة «الذاكرة الوطنية»، (نشر المندوبية السامية للمقاومة) عدد 1، 2001، ص 229.

- وكتبت بديعة لفصالي أطروحتها عن «شعر المنافي والسجون في الأدب المغربي ما بين 1912 و1956، نشر المندوبية السامية للمقاومة) 2008.

على غرار الملاحم الشعرية الحماسية الكبرى للأمم الغابرة.

وما مات من كان الجهاد سبيله

ليحيى شريفًا غير منتقصٍ قدرا

م. الطيب المريني

- وتزخر أشعار الدعوة السليفة والإصلاحية لشعراء الإصلاح - كعلال الفاسي ومحمد تقي الدين الهيلالي، وعبدالله كنون، ومحمد المهدي الحجوي، ومحمد الجزولي، وأبويكر بناني، ومحمد الناصري، وأحمد المذكوري (في أرجوزته) وغيرهم بالدعوة إلى المقاومة والجهاد. وإذكاء لهيب الحماس في نفوس المغاربة لمواصلة الكفاح والتحدي للاحتلالين: الفرنسي والإسباني. ومساندة الثورة الريفية وحث الريفيين على الجهاد والاستبسال في سبيل الحرية والكرامة.

- والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول أبي بكر بناني:

يا بني المغرب هيا للقتال واستعدوا للوغي قبل النزال

أنتم والله شجعان الرجال واسألوا الله انتصار المسلمين

- وكقول محمد المهدي الحجوي من قصيدة له:

أرجال الغد هبوا دفعة واستعدوا للقاء الخطب الجليل

- وكقول علال الفاسي الذي يدعو المستعمر الفرنسي للاعتراف بحق المغرب في حريته وكرامته:

فقل لبني فرنسة إن عارا خيانتكم لشعب غير عاد

- وكقول الشيخ ماء العينين لا راباس الذي يدعو إلى تحرير الصحراء:

بني وطني هيا لمحو العدا جهرا بفولاذ عزم يضمن العز والنصرا

وكونوا كما كان الأوائل شرفوا بأعمالهم تاريخنا ففدا فخرا

- وكقول شبيهنا حمداتي ماء العينين الذي أنشد هو الآخر:

لا فضل إلا بالجهاد وخوضه يوم النضال بغارة شعواء

- وكقول محمد الجزولي:

زمان المجد هل لك أن تعودا وتنشر فوق مغربنا بنودا

- وكقول شاعر الحمراء محمد ابن إبراهيم:

شعبنا شعب أبي شعبنا شعب سري

شعبنا شعب وفي شعبنا شعب الجهاد

- وكقول إبراهيم طوقان مخاطبا المغاربة:

فتية المغرب هيا للجهاد نحن أولى الناس بالأندلس

نحن أبطال فتاها ابن زياد ولها نرخص غالي الثمن

- وقد أرخ الشاعر السوسي الطاهر الإفرائي في شعره لحركة الجهاد في جنوب المغرب وأدكى في

قصائده الوطنية حماس المجاهدين لتحرير البلاد.

وقديما قال أحمد شوقي:

قد دون رأيك في الحياة مجاهدًا

إن الحياة عقيدهٌ وجهادٌ

وعلى الله الكمال وهو سبحانه وتعالى المستعان.

عبدالحق المريني

الفهارس

- فهرس المصادر المطبوعة.
- فهرس المصادر المخطوطة.
- فهرس المجلات.

فهرس المصادر المطبوعة

- إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (أبو إسحاق): ديوان ابن خفاجة - (طبعة مصرية قديمة) 1282 هـ - الخزانة الحسنية رقم 3920.
- إبراهيم عبدالله ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينية والزاب. دراسة وإعداد: د. محمد بن شقرون (دون ذكر لاسم المطبعة ولا لتاريخ الطبع ولا للمدينة التي طبع بها).
- إبراهيم حركات (دكتور): التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية - مطبعة الدار البيضاء - الدار البيضاء 1986.
- إبراهيم حركات (دكتور) المغرب عبر التاريخ.
- الجزء الأول - دار السلمي - الدار البيضاء 1384 هـ / 1965م.
- الجزء الثاني - دار الرشاد الحديثة - البيضاء 1398 هـ / 1978م.
- الجزء الثالث - دار الرشاد الحديثة - البيضاء 1405 هـ / 1985م.
- إبراهيم السولامي (دكتور): الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية: 1912-1956 دار الثقافة - الدار البيضاء 1974م.
- إبراهيم شحاتة حسن: وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 986 هـ - 1578م - دار الثقافة - الدار البيضاء 1979م.
- إبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين - الفقيه المفكر والداعية والقائد المجاهد - دار الإصلاح - القاهرة (دون ذكر للتاريخ).

- إبراهيم محمد حسن الجمل: أمير المسلمين يوسف بن تاشفين - مطابع دار الشعب - القاهرة 1976م.
- ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس - تحقيق د. محمود علي مكي - دار الكتاب العربي - بيروت 1393 هـ - 1973م.
- ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب - تحقيق: عبد المنعم عامر (القسم التاريخي) لجنة البيان العربي - القاهرة 1961م.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - الجزء الأول - تاريخ أفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري - تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان وليفي بروفنسال - طبع دار الثقافة - بيروت - لبنان، 1967م.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب - الجزء الثالث: تاريخ الموحيين - نشر امبروسي هوييسي مراندة بمساهمة: محمد ابن تاوييت ومحمد إبراهيم الكتاني - دار كريماديس للطباعة - تطوان 1960م.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب - 4 أجزاء - دار الثقافة - بيروت (بدون ذكر للتاريخ).
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء - إحياء الكتب العربية - 1364 هـ.
- ابن القطان: نظم الجمان - تحقيق: د. محمد علي مكي - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المطبعة المهدية - تطوان.
- ابن الموقت المراكشي: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية - جزآن - طبعة حجرية 1910 م.
- أبواسحاق إبراهيم بن خفاجة: الديوان تصحيح سيدي مصطفى غازي، ط 2، الإسكندرية 1979م.

- أبوبكر البوخصيبي: أضواء على ابن يجيش التازي - مطبعة النجاح، الدار البيضاء - 1396 - 1976م.
- أبوجعفر أحمد الأعمى التطيلي: الديوان، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت 1963.
- أبوالحسين بن فركون: الديوان، تقديم وتعليق محمد ابن شريفة - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث.
- أبوالحسن ابن الزقاق البنسي: الديوان، تحقيق عفيفة محمود ديراني، طبعة بيروت 1407 هـ / 1987م.
- أبوالقاسم الزباني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورين براً وبحراً، تحقيق عبدالكريم الفيلاي - مطبعة فضالة 1387 هـ.
- أحمد أبوحاقة: فن المديح، منشورات دار الشرق الجديد - سلسلة 11 - بيروت 1962م.
- أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في أدب شنقيط - القاهرة - (بدون تاريخ).
- أحمد بن الزبير (أبوجعفر): صلة الصلة - صححه: ألفي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية - الرباط - 1937م.
- أحمد بن عبدالعزيز العلوي: الأنوار الحسنية - صححه عبدالكريم الفيلاي - نشر وزارة الأنباء - الرباط 1385 هـ / 1966م.
- أحمد ابن القاضي المكناسي (أبوالعباس): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس - (القسم الأول والقسم الثاني)، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط 1973 - 1974م.

- أحمد ابن محمد المقرئ التلمساني (شهاب الدين): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض - 3 أجزاء - لجنة التأليف والترجمة - القاهرة 1939م - 1940 - 1942م.

- أحمد ابن محمد المقرئ التلمساني: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس - تحقيق عبدالوهاب ابن منصور - المطبعة الملكية - الرباط 1383 هـ - 1964 م - 1983 م.

- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - حققه وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد - 10 أجزاء - مطبعة السعادة - مصر 1367 هـ - 1949م.

- أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال - تحقيق محمد الأحمدى أبوالنور - 3 أجزاء - دار النصر للطباعة - القاهرة 1390 هـ / 1970م.

- أحمد بن القاضي: المنتقى المقصور على مآثر الخيفة المنصور، ت: محمد رزوق - جزآن - الرباط 1986م.

- أحمد المهدي الغزال: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد - (رحلة الغزال وسفارته بالأندلس) - حققه وقدم له: إسماعيل العربي - دار الغرب الإسلامي - بيروت 1980م.

- أحمد أبوزيد: محمد بن سليمان الروداني من أعلام المغرب في القرن الحادي عشر الهجري - منشورات عكاظ 1990م.

- أحمد البوعياشي: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال - الجزء الأول - نشر عبدالسلام كسوس - الدار البيضاء 1974م.

- أحمد بوشرب: دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور - دار الثقافة - الدار البيضاء 1984م.
- وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه - دار الأمان، الرباط، 1997.
- أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية زاوية أبي الجعد - جزآن - مطبعة النجاح الجديدة - 1985 - 1989م.
- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي - مطبعة الرسالة - القاهرة - الطبعة الحادية عشرة (بدون تاريخ).
- أحمد الدغرني: عبدالمؤمن بن علي الكومي - مسرحية من تاريخ الموحدين - مطبعة المعارف الجديدة - الرباط 1987م.
- أحمد العراقي: النوافح الغالية في الأمداح السلیمانية - ديوان شعر ومقامات لحمدون بالحاج السلمي. رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بفاس 1981م.
- أحمد محمد عطية: حرب أكتوبر في الأدب العربي الحديث - سلسلة اقرأ، عدد 480، أكتوبر 1982م.
- أحمد مختار العبادي (دكتور): مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، (مجموعة رسائله).
- أحمد مختار العبادي (دكتور): في تاريخ المغرب والأندلس - دار النهضة العربية 1978م - نشر وتحقيق مطبعة جامعة الإسكندرية - 1958م.
- أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري - 9 أجزاء - دار الكتاب - الدار البيضاء 1956م.
- أحمد النميشي: تاريخ الشعر والشعراء بفاس - مطبعة أندري - فاس 1343 هـ - 1924 م.

- إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الغرناطي (أبوالوليد): بيوتات فاس الكبرى - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط 1972م.
- إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين - المطبعة الملكية - الرباط 1382 هـ / 1962م.
- إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر: مستودع العلامة ومستبدع العلامة - منشورات كلية الآداب بتطوان - المطبعة المهدية 1384 هـ / 1964م.
- إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الغرناطي الأندلسي: نشر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان - حققه: د. محمد رضوان الداية تحت عنوان أعلام المغرب في القرن الثامن، دراسات أندلسية - عدد 8 - مؤسسة الرسالة - بيروت 1396 هـ - 1976م.
- إسماعيل بن يوسف القائم بأمر الله محمد النصري المعروف بابن الأحمر (الأمير): نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان - دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية - دار الثقافة ، بيروت 1967م.
- إسماعيل مولاي عبدالحميد العلوي (دكتور): تاريخ وجدة وانكاد في دوحة الأمجاد، الجزء الأول - مطبعة النجاح الجديدة - البيضاء، 1985، ج2، 1989م.
- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط2، بيروت، 1960م.
- بسام العلي: موسى بن نصير - سلسلة مشاهير قادة الإسلام - دار النفائس - بيروت 1976م.
- التهامي شهيد: ديوان أبي عبدالله محمد ابن إدريس العمراوي - رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط - 1985م.

- ثريا برادة: الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر - مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكرية - دراسة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ 1404 هـ / 1984م.

- ثريا لهي: أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي - حياته وآثاره - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط 1986م.

- جامعة محمد الأول: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.

ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى - سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 1 - أبريل 1984م.

المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر - سلسلة كلية الآداب - رقم 2 - 186.

- الجامعة الصيفية: المغرب من العهد العزيمي إلى سنة 1912 دورة: 1407 هـ - 1987م - المحمدية - يوليو 1987م.

- جامعة سيدي محمد بن عبدالله: الجامعة الشتوية: مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي: الكتاب الأول: المحور التاريخي.

الكتاب الثاني: المحور الأدبي والفكر - إيفران 1988م.

- جعفر بن أحمد الناصري: ابن الخطيب بسلا - منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا 1988م.

- جمال الدين حماد: كتاب معارك الإسلام الكبرى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1952م.

- جودت الركابي (دكتور) في الأدب الأندلسي - دار المعارف - مصر 1960م.
- حسن إبراهيم حسن (دكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - 3 أجزاء - الطبعة الخامسة 1959م - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.
- الحسن بن محمد الوزان: وصف افريقيا - ترجمة عبدالرحمن حميدة - نشر جامعة بن سعود الإسلامية - 1399 هـ.
- الحسن بن مسعود اليوسي (أبو علي): رسائل أبي الحسن بن مسعود اليوسي - جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي - دار الثقافة - الدار البيضاء 1401 - 1981م.
- الحسن بن مسعود اليوسي: المحاضرات - مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - سلسلة الأدب - 1 - الرباط 1396 هـ - 1976م.
- حسن جلاب: الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الأدب) - منشورات جامعة القاضي عياش - 1 - 1983 م
- الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية - المطبعة الوطنية - مراكش 1997.
- الحسن السائح: دفاعاً عن الثقافة المغربية - دار الكتاب - الدار البيضاء 1968م.
- الحسن السائح: منوعات ابن الخطيب - طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط 1398 هـ - 1978م
- الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني - منشورات عكاظ - ج 1 وج 2 - 1990م

- حسن الشيبهي حسني: أبو العباس الجراوي شاعر الموحدين - مطبعة محمد الخامس الجامعية والثقافية - فاس 1406 هـ / 1986م.
- الحسن العبادي: الملك المصلح سيدي محمد بن عبدالله العلوي - مؤسسة «بنشرة» للطباعة والنشر - البيضاء 1987م.
- الحسين ابن أحمد بن الحسين الزوزني: شرح المعلقات السبع - مطبعة دار الكتب العربية الكبرى - مصر (بدون تاريخ).
- حسين مؤنس (دكتور): معالم تاريخ المغرب والأندلس - دار ومطابع المستقبل - القاهرة 1980م.
- حسن الوراكلي (دكتور): لسان الدين ابن الخطيب في آثار الدارسين - دراسة وبيلوغرافيا - منشورات عكاظ 1990م.
- خلف بن عبد الملك ابن بشكوال: كتاب الصلة (القسم الأول والثاني) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - 1966م.
- رشدي فكار (دكتور): في حوار حول الحاضر بالماضي عبر الأندلس - مكتبة وهبة - القاهرة 1411 هـ / 1991م.
- روجية لوتورنو: فاس في عصر بني مرين - ترجمة د. نقولا زيادة - سلسلة مراكز الحضارة - بيروت - 1967م.
- زكي مبارك (محمد بن عبد السلام): المذائع النبوية في الأدب العربي - مطابع دار الشعب بالقاهرة (بدون تاريخ).
- زكي المحاسني (دكتور): شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة - دار المعارف - القاهرة 1973م.

- سعدون عباس نصرالله (دكتور): دولة الأدارسة في المغرب، العصر الذهبي - دار النهضة العربية - بيروت 1987م.
- السعدية فاغية (دكتورة): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب - ج 3 - للسان الدين ابن الخطيب - تقديم وتحقيق - الدار البيضاء 1989م.
- السعدية فاغية (دكتورة): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب - ج 3 - للسان الدين ابن الخطيب - تقديم وتحقيق - الدار البيضاء 1989م.
- سليمان ابن عبدالله الموحي (الأمير أبوالربيع): ديوان نظم العقود ورقم الحل والبرود، تحقيق: ابن تاويت الطنجي وابن العباس القباج وسعيد أعراب. وابن تاويت التطواني - منشورات كلية الآداب - الرباط (بدون تاريخ).
- شوقي ضيف (دكتور): البطولة في الشعر العربي - سلسلة اقرأ - 331 - دار المعارف - مصر 1970م. من المشرق والمغرب - بحوث في الأدب - الدار المصرية اللبنانية - 1998.
- صفوان بن إدريس التجيبي المرسى (أبو بحر): زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر (أشعار الأندلسيين من عصر الدولة الموحدية) دار الرائد العربي - بيروت 1970م.
- طراد الكبيسي: شعر الحرب عند العرب (الموسوعة الصغيرة) منشورات دائرة الشؤون الثقافية للنشر - بغداد 1983م.
- العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام - 10 أجزاء - المطبعة الملكية - الرباط - ابتداء من سنة 1974م.
- عباس الجراري (دكتور): الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها - الجزء الأول - مكتبة المعارف - الرباط 1399 - 1979م

- عباس الجراري (دكتور): الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحي - دار الثقافة - الدار البيضاء 1394 هـ - 1979م
- عباس الجراري (دكتور): «عبقريّة اليوسي» - نشر دار الثقافة - الدار البيضاء 1981.
- عباس الجراري (دكتور): فنية التعبير في شعر ابن زيدون - مطبعة النجاح - الجديدة - 1975م.
- عباس الجراري (دكتور): الفكر والوحدة - مكتبة المعارف 1984.
- عباس الجراري (دكتور): معركة وادي المخازن وملاحمها في الأدب المغربي (فصلة من ندوة وزارة الشؤون الثقافية المنعقدة في القصر الكبير - 4 غشت 1984م) - معركة وادي المخازن في الأدب المغربي - ط 2 - 1988م.
- عباس الجراري (دكتور): من أدب الدعوة الإسلامية - دار الثقافة - المغرب 1974م.
- عباس الجراري (دكتور): النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912 مطبعة فضالة 1975م.
- عباس الجراري (دكتور): وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ - منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي - 1976م.
- عبد الجبار بن حمديس الصقلي: الديوان - صححه وقدم له د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت 1379 هـ - 1960 م.
- عبد الجواد السقاط: الشعر الدلائلي - مكتبة المعارف 1985م. الدولة والأدب في تاريخ المغرب - مطبعة النجاح 2002م.

- عبدالحق حموش: ابن تاشفين - دار الكتاب - الدار البيضاء - بدون تاريخ.
- عبدالحق الحيمر: الأمداح السليمانية لأبي الربيع سليمان الحوات - رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب من كلية الآداب بفاس - 1985م.
- عبدالحق المريني: ابن تومرت المصلح الديني - أو الدعوة الموحدية - رسالة مرقونة.
- عبدالحق المريني: الجيش المغربي عبر التاريخ - مطابع المغرب الكبير - الرباط 1968م. والطبعة الخامسة - دار نشر المعرفة - الرباط 1997.
- عبدالرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً - تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 130 هـ / 1951م.
- عبدالرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي سلطان الأكبر - 8 مجلدات - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1959م.
- عبدالرحمن بن خلدون: المقدمة - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1961م.
- عبدالرحمن ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس 5 أجزاء - المطبعة الوطنية - الرباط - 1347 هـ - 1929م. المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف - تقديم وتحقيق د. عبدالهادي التازي - مطبعة إديال - الدار البيضاء - 1413 هـ - 1993م.
- عبدالرحمن خليل إبراهيم: دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ﷺ - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1971م.
- عبدالسلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى - جزآن - دار الكتاب - الدار البيضاء - 1960 - 1965م ط2.

- عبدالعزيز بن عبدالله: تاريخ المغرب - جزآن - مكتبة السلام - الرباط - ومكتبة المعارف - البيضاء - بدون تاريخ.
- عبدالعزيز ابن عبدالله: تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث - معهد البحوث والدراسات العربية - مطبعة الرسالة - القاهرة 1969م.
- عبدالعزيز بن عبدالله: مظاهر الحضارة المغربية - جزآن - دار السلمي - الدار البيضاء - 1957م.
- عبدالعزيز بن محمد الفشتالي (أبوفارس): مناهل الصفا في أخبار الملوك والشرفاء - مختصر الجزء الثاني - حققه عبدالله كنون - المطبعة المهدية - تطوان 1384 هـ / 1964م.
- عبدالعزيز بن محمد الفشتالي: مناهل الصفا - تحقيق د. عبدالكريم كريم - الرباط 1973م.
- عبدالعزيز المزروزي (أبوفارس): نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك - المطبعة الملكية - الرباط 1382 هـ - 1963م.
- عبدالقادر محمد سيلا: المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل (كتاب الأمة) - شوال 1406 هـ - قطر.
- عبدالقادر الصحراوي: جولات في تاريخ المغرب - دار الكتاب - الدار البيضاء 1961م.
- عبدالقادر العافية: الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها من خلال القرن العاشر الهجري - 16م - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1402 هـ - 1982م.
- عبدالقادر الخراز: الشعر المرابطي في المغرب والأندلس - دفاتر المدرسة العليا للأساتذة بتطوان - عدد 2 - يونيو 1994م.

- عبدالكريم بن موسى الريفى: زهر الأكم دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة - مطبعة المعارف الجديدة - 1992م.
- عبدالكريم كريم (دكتور): المغرب في عهد الدولة السعدية - شركة الطبع والنشر - الدار البيضاء 1977م.
- عبداللطيف الشاذلي: الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في ق 17 - منشورات كلية الآداب بالرباط - 1982م. التصوف والمجتمع - نماذج من القرن العاشر الهجري» - منشورات جامعة الحسن الثاني - رقم 4 - مطابع سلا - 1989م.
- عبدالله بنصر العلوي: أصداء المقاومة لتحرير سبتة في الشعر المغربي خلال العصر العلوي - المغرب في العهد العزى إلى سنة 1912 - الجامعة الصيفية - المحمدية 1987م. تحرير الثغور في الشعر المغربي خلال عهد مولاي إسماعيل - جامعة مولاي علي الشريف الخريفية - مركز الدراسات والبحوث العلوية - الريصاني - دجنبر 1989م.
- عبدالله بن عبدالعزيز البكري: المغرب في بلاد افريقية والمغرب - جزء من كتاب المسالك والممالك - الجزائر 1957م.
- عبدالله علي علام: الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمومن بن علي - دار المعرفة - القاهرة 1964م.
- عبدالله العمراني: مولاي إسماعيل ابن الشريف - حياته - سياسته - مآثره - مطبعة ديسبريس - تطوان 1398 هـ - 1978م.
- عبدالله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث - معهد الدراسات العربية العالية - دار الرائد للطباعة - القاهرة 1964م.

- عبدالله كنون: أمراؤنا الشعراء - المطبعة المهدية - تطوان 1361 هـ.
- عبدالله كنون: أنجم السياسة وقصائد أخرى - دار الثقافة - 1989م.
- عبدالله كنون: شرح الشمقمقية - دار الجيل للطباعة - مصر 1964م.
- عبدالله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب - سلسلة مرقمة من 1 - 40 - دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- عبدالله كنون: رسائل سعدية - تحقيق - معهد مولاي الحسن - تطوان 1373 هـ - 1954 م.
- عبدالله كنون الحسني: المنتخب من شعر ابن زاكور - سلسلة ذخائر العرب رقم 39 - دار المعارف - مصر 1966م.
- عبدالله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي - جزآن - المطبعة المهدية - تطوان 1357 هـ - ودار الكتاب اللبناني - ط 2 - 1395 هـ / 1975م.
- عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت - منشورات عكاظ 1992م.
- عبدالمملك ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين - المجلد الثاني - حققه د. عبدالهادي التازي - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت 1383 هـ / 1964م.
- عبدالهادي التازي (دكتور): قصر البديع بمراكش عجائب الدنيا - نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالرياض - يناير 1977م.
- عبدالهادي بوطالب: وزير غرناطة لسان الدين محمد بن الخطيب السلماي - دار الكتاب - الدار البيضاء 1960م.
- عبدالواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب - مطبعة الثقافة - سلا - 1357 هـ - 1938م - ومطبعة الاستقامة بالقاهرة - 1949م.

- عبدالوهاب بنمنصور: قبائل المغرب - ج1 - المطبعة الملكية - الرباط 1388 - 1968م.
- عبدالوهاب بنمنصور: أعلام المغرب العربي - ج1 - المطبعة الملكية - الرباط 1399 هـ - 1979م. وج 5 - 1410 هـ - 1992 م.
- العربي الفاسي: مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن، مطبعة حجرية - فاس - 1324 هـ.
- عزالدين سلاوي: شعر النبويات في عصر بني مرين - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها.
- عصمت عبداللطيف دندش (دكتورة): دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430 - 515 هـ / 1038 - 1121 م. مع نشر وتحقيق رسائل ابن أبي بكر ابن العربي - دار الغرب الإسلامي 1988. الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين - دار الغرب الإسلامي - مارس 1988م.
- عكاشة برحاب: شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873 - 1907م منشورات جامعة الحسن الثاني - رقم 3 - 1989م.
- علال الفاسي: معركة وادي المخازن في ذكرائها الأربعمئة - نشر لجنة تراث علال الفاسي - مطبعة الرسالة - الرباط 1978م.
- علي ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب. وتاريخ مدينة فاس - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - 1973م.
- علي بن بسام الشنتريني الأندلس (أبو الحسن): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القسم الأول: المجلد الأول والثاني - القسم الرابع: المجلد الأول - مطبعة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1939 - 1942 - 1945م.

- علي بن موسى ابن سعيد الأندلسي: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة - تحقيق: إبراهيم الأبياري - دار المعارف - سلسلة ذخائر العرب - رقم 14 - مصر 1967م.
- علي بن موسى ابن محمد ابن عبد الملك ابن سعيد الأندلسي: المعرف في حلى المغرب - سلسلة ذخائر العرب - جزآن - حققه: د. شوقي ضيف - دار المعارف - مصر 1955 - 1964م.
- علي الجارم: العرب في إسبانيا - دار المعارف - مصر 1957م.
- علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس - تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور - المطبعة الملكية - الرباط 1387 هـ - 1967م.
- علي حامد الماجي: المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - 1986م.
- علي الغزيوي: أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري - مكتبة المعارف - الرباط 1987م.
- عماد الدين الأصفهاني الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء المغرب، تحقيق المرزوقي والمطوي وابن الحاج يحيى - الدار التونسية للنشر - تونس 1966م.
- عمر بن حسن ابن دحية السبتي (أبو الخطاب): المطرب من أشعار أهل المغرب - تحقيق إبراهيم الأبياري ود. حامد عبد المجيد ود. أحمد بوي، راجعه: د. طه حسين - دار العلم للجميع - بيروت 1374 - 1955م.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين 15 جزءاً - مكتبة المتنبّي - بيروت 1957.
- العياشي المريني: صور من التاريخ البطولي لمنطقة جباله - المطابع المغربية الدولية - طنجة بدون تاريخ.

- الفتح بن محمد بن عبدالله ابن خاقان القيسي: قلائد العقيان - المطابع الخديوية - مصر 1283 هـ.
- القسام الزباني (أبو): الترجمانة الكبرى في أخبار العمور برا وبحرا - حققه وعلق عليه عبدالكريم الفيلاي - نشر وزارة الأنباء - المغرب 1387 هـ - 1967م
- الكفيف الزرهوني: ملعبة - تقديم وتعليق وتحقيق د. محمد ابن شريفة - المطبعة الملكية 1987م.
- لفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء - تعريب عبدالقادر الخلادي - مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - سلسلة التاريخ 5 - الرباط - 1395 هـ - 1977م.
- لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة - حققه محمد عبدالله عنان أربع مجلدات. المجلد الأول: دار المعارف - مصر 1375 - 1955م
- سلسلة ذخائر العرب. المجلد الثاني: مكتبة الخانجي - القاهرة 1394 - 1974م. المجلد الثالث: مكتبة الخانجي - القاهرة 1395 - 1975م. المجلد الرابع: مكتبة الخانجي - القاهرة 1396 - 1976م.
- لسان الدين ابن الخطيب: أوصاف الناس في التواريخ والصلات (تليها الزواجر والعظات) - تحقيق د. كمال شبانة - طبع لجنة التراث الإسلامي - المغرب 1397 - 1977.
- لسان الدين ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهايم والماضي والكهام - دراسة وتحقيق: د. محمد الشريف قاهر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1973م
- لسان الدين ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول - المطبعة العمومية - تونس 1316 هـ.

- لسان الدين ابن الخطيب (ذو الوزارتين): كتاب أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوم الإسلام - تحقيق: ا. ليفي بروفنسال - دار المكشوف - بيروت 1956م.

- لسان الدين ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعمال فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - القسم 3 - المغرب في العصر الوسيط (أو تاريخ إسبانيا الإسلامي) - تحقيق: د. أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني - دار الكتاب - الدار البيضاء 1964م.

- لسان الدين ابن الخطيب: اللوحة البدرية في الدولة النصرية - صححه محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة 1347 هـ.

- لسان الدين ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار - تحقيق: د. محمد كمال شبانة - طبع لجنة التراث الإسلامي - المغرب 1396 هـ - 1976م.

- لسان الدين ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب - ج2 - تحقيق: د. أحمد مختار العبادي - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة (بدون تاريخ).

- محسن قنديل: نظرية في القرآن - مطابع روز اليوسف - القاهرة 1981م.

- محمد أحمد الشنتوف: العرائش كما يراها المجلس الجماعي - مطبعة كريماديس - العرائش 1394 هـ - 1974م.

- محمد الأخضر (دكتور): الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية - دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء 1977م.

- محمد أديب السلاوي: الشعر المغربي مقارنة تاريخية 1830 - 1960م - افريقيا الشرق - 1987م.

- محمد إسماعيل إبراهيم: الجهاد - ركن الإسلام السادس - دار الفكر العربي - مصر 1974م.
- محمد ابن الأبار القضاعي البلسني: الديوان - تحقيق: د. عبدالسلام الهراس - الدار التونسية للنشر 1405 هـ - 1985م.
- محمد بن إبراهيم (الزركشي) (أبو عبدالله): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - تحقيق: محمد ماضور - المكتبة العتيقة - تونس 1966م.
- محمد ابن أبي نصر فتوح عبدالله الأزدي الحميدي (أبو عبيدالله): جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - الدار المصرية للتأليف والترجمة - سلسلة المكتبة الأندلسية - رقم 3 - 1966م.
- محمد ابن أبي بكر التطواني: ابن الخطيب من خلال كتبه - مطبعة كريماديس - تطوان - 1959.
- محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي: الجيش العرموم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي - جزآن - المطبعة الحجرية الفاسية 1336 هـ.
- محمد بن أحمد بن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية من ق 13 إلى ق 15 - مطبعة الرسالة - الرباط (بدون تاريخ).
- محمد بن أحمد الشاط: كشف الحجاب عن الأخبار الخاصة بحروب المجاهدين - تحقيق: محمد بن عزوز - حكيم - تطوان 1979م.
- محمد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى - 3 أجزاء - مطبعة دار الثقافة - الدار البيضاء 1982 - 1983 - 1984.
- محمد بن تاويت ومحمد صادق عفيفي: الأدب المغربي - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

- محمد بن جعفر ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس - 3 أجزاء - مطبعة حجرية - فاس 1316 هـ.
- محمد بن سعيد الصديقي: إيقاظ السريرة لتاريخ الصورة - ج 1 - مطبعة دار الكتاب - الدار البيضاء - 1961م.
- محمد بن شريفة: ابن عبدربه الحفيد - فصول من سيرة منسية - دار الغرب الإسلامي 1992م.
- محمد بن الطيب ابن عبدالسلام القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبعة حجرية فاسية - 1310 هـ - الرباط.
- محمد بن الطيب ابن عبدالسلام البقالي: نشر المثاني، لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق - مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - جزآن - 1977م - 1986م.
- محمد بن الطيب العلمي: الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب - طبعة حجرية فاسية - 1305 هـ.
- محمد بن عبدالعزيز الدباغ: من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني - مطبعة النجاح الجديدة 1992م.
- محمد بن عبدالله ابن أبي بكر القضاعي البلنسي (ابن الأبار) التكملة لكتاب الصلة ج 1، و 2 - مكتبة نشر الثقافة الإسلامية - القاهرة - 1955م.
- محمد بن عبدالله ابن أبي بكر القضاعي (المعروف بابن الأبار): الحلة السيرة - تحقيق: د. حسين مؤنس - ج 1 و 2 - الشركة العربية لطباعة والنشر - القاهرة 1963م.
- محمد (أبو عبدالله) محمد ابن الأبار القضاعي البلنسي: ديوان ابن الأبار - قرادة وتعليق د. عبدالسلام الهراس - الدار التونسية للنشر - 1985م.

- محمد بن عزوز حكيم: سبتة ومليلية في عهد الحماية - وثائق تاريخية 1988م.
- معركة وادي المخازن (أسبابها، ظروفها، نتائجها) - المطبعة المهدية - تطوان 1955م.
- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر - تحقيق: د. محمد حجي - دار المغرب - الرباط - 1396 هـ / 1976م.
- محمد بن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز (تاريخ العدوتين) تحقيق مصطفى بوشعراء - منشورات الخزانة الصيحية بسلا - 1406 هـ - 1986م.
- محمد بن غازي العثماني (المكناسي): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون - المطبعة الملكية - الرباط - 1384 هـ - 1964م.
- محمد بن محمد العبدري: الرحلة المغربية - أو رحلة العبدري - تحقيق: محمد الفاسي - سلسلة الرحلات 4 - جامعة محمد الخامس - الرباط 1968م.
- محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر محاسن مولانا أبي الحسن - دراسة وتحقيق: د. ماريا خسوس بغيرا - نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1981م.
- محمد بن المفضل غريط: فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان - المطبعة الجديدة - فاس 1921م.
- محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي: ديوان «الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض» - دراسة وتحقيق: محمد ابن الصغير - كلية الآداب - الرباط - 1989م.
- محمد بن القاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار - تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور - ط 2 - الرباط 1403 هـ - 1983م.
- محمد احوهري: شعر اليوسي - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بالرباط 1987م.

- محمد حجي (دكتور): الحركة الفكرية في عهد السعديين - جزآن - منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة - سلسلة التاريخ: 1-2 الرباط 1976 - 1978.
- محمد حجي (دكتور): الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي - المطبعة الوطنية - الرباط 1384 هـ - 1964 م.
- محمد رزوق (دكتور): الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال قرنين 16-17 - إفريقيا - الشرق 1989 - الدار البيضاء.
- محمد رضا الشبيب: أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية - محاضرات - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة 1960م.
- محمد الصغير ابن الحاج ابن عبدالله الوفراني (أو الإفراني): نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي - صححه: هوداس - ط2 - مكتبة الطالب - الرباط (بدون تاريخ).
- محمد الصغير اليفرنى: روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف - تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور - المطبعة الملكية - الرباط 1382 هـ - 1962م.
- محمد ضريف: تاريخ الفكر السياسي بالمغرب - افريقيا الشرق 1988م.
- محمد الضعيف الرباطي: تاريخ (الضعيف) أو تاريخ الدولة السعدية - تحقيق وتعليق وتقديم: أحمد العماري - نشر دار المآثورات - الرباط 1406 هـ - 1986م.
- محمد عبدالزاق مناع: بطل الأندلس طارق بن زياد - مؤسسة ناصر الثقافية - بنغازي - 1978م.
- محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس - جزآن - لجنة التأليف والترجمة والنشر والقاهرة - 1964م.

- محمد عبدالله عنان: لسان الدين ابن الخطيب - حياته وتراثه الفكري.
- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1966م.
- محمد الفاسي: التعريف بالمغرب - معهد الدراسات العربية العالية - مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة - 1961م.
- محمد الفاسي: شاعر الخلافة الموحدية: أبو العباس الجراوي (محاضرة) - مطبوعات جمعية قدماء تلاميذ مدرسة كسوس - بدون تاريخ.
- محمد فتحي بكوش: معارك الإسلام الكبرى - كتاب الجهاد 4 - ليبيا - 1985م.
- محمد الكراسي (أبو عبدالله): عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل - تعليق عبدالوهاب بن منصور - المطبعة الملكية - الرباط 1383 هـ - 1963م.
- محمد ماهر مادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا - دراسة - مؤسسة الرسالة - بيروت 1400 هـ - 1980م.
- محمد المختار السوسي: إلغ قديماً وحديثاً - المطبعة الملكية - الرباط 1386 هـ - 1966م.
- محمد المختار السوسي: المعسول - عشرون جزءاً - مطبعة النجاح ومطبعة الجامعة - الدار البيضاء 1381 هـ - 1961م.
- محمد مفتاح: شعر أبي عبدالله محمد لسان الدين ابن الخطيب - جمع وتحقيق - رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط 1972م. - طبعتها في مجلدين في دجنير من سنة 1988 تحت عنوان: ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني - دار الثقافة - الدار البيضاء - التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8 هـ - 14 م - أطروحة الدولة بكلية الآداب بالرباط - 1980 - 1981م.

- محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب المريني - السلسلة المرينية 1 - مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية - فاس 1972م.
- محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين - المطبعة المهدية - تطوان 1950م.
- محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث - ج 1 و 2 - ط 2 - دار الغرب الإسلامي - بيروت 1985م.
- محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - مطابع الأطلس - 1979م.
- محمود شيت خطاب (اللواء الركن): قادة الفتح الإسلامي - المغربي العربي - ج 1 و 2 - دار الفكر - لبنان - 1966م.
- محمود شيت خطاب (اللواء الركن): العسكرية العربية الإسلامية - كتاب الأمة 3 - مطابع الدوحة - قطر - 1403 هـ.
- محمود شيت خطاب (اللواء الركن): عقبة بن نافع الفهري - دار الفكر - لبنان 1971م.
- مؤلف مجهول: بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب - تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور - المطبعة الملكية - الرباط 1404 هـ - 1984م
- مؤلف مجهول (أندلسي من أهل القرن 8 هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - مطبعة التقدم الإسلامية - تونس 1329 هـ. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية تحقيق: د. سهيل زكار وعبدالقادر زمامة - مطبعة دار الرشاد الحديث بالدار البيضاء - 1399 هـ - 1979م.

- مؤلف مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية - تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور - وقد نسبته إلى ابن أبي زرع - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط 1972م.

- نجاة المريني: عبدالعزيز الفشتالي - شعره - جمع وتحقيق ودراسة - رسالة جامعية مطبوعة بالآلة الناسهة 1403 هـ - 1983م - النسخة المطبوعة - طبع مكتبة المعارف بالرباط 1986م.

- النعمان عبدالمتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - 1956م.

- نقولا زيادة (دكتور): كتاب العيد - بحث عن المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي من ص 29 - 98. الجامعة الأمريكية - بيروت 1967م

- نوري حمودي القيسي: شعر الحرب عند العرب - الموسوعة الصغيرة رقم 87 - منشورات دار الجاحظ للنشر - العراق - شباط 1981م.

- وزارة الشؤون الثقافية (سلسلة ندوات رقم 2): معركة وادي المخازن في سياقها التاريخي وملاحمها في الفكر والأدب - مطبعة فضالة - غشت 1984م

- يحيى الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام به - مؤسسة الرسالة - بيروت 1981.

- يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - ترجمة محمد عبدالله عنان - القاهرة - 1958م.

- يوسف الثالث (ملك غرناطة): الديوان تحقيق عبدالله كنون - معهد مولاي الحسن- تطوان 1958م

فهرس المصادر المخطوطة

- أحمد ابن أبي محلي: سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق م.خ.ج. رقم 4733. رحلة رصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، ح.خ.ج. رقم 100 ورقم 4442.
- أحمد بن خالد الناصري: (أبوالعباس): زهرة الأفنان من حديقة الونان م.خ.ع. رقم ك 380.
- أحمد بن محمد ابن أبي العافية المشهور بابن القاضي (أبوالعباس): المنتقي المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور: م.خ.ج. رقم 1153، م.خ.ع. رقم ج. 1059.
- أحمد بن محمد بن أحمد ابن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي: درك السلوك فيمن حوى الملك من الملوك، م.خ.ع. رقم د 1428.
- أحمد بن محمد ابن حمدون ابن الحاج: الدر المنتخب المستحسن في مآثر مولانا الحسن، م.خ.ع. ز. 1875 (الجزء الخاص بالمولى إسماعيل) م.خ.ج. رقم 1920، ج 5 رقم 12184، ج 6 رقم 12184، ج (غير مرقم)، رقم 11961.
- أحمد بن محمد ابن القاضي: أدبيات: م.خ.ج. رقم 7248.
- أحمد بن المهدي الغزال: اليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية م.خ.ع: ميكروفيلم رقم 1052.

- ابن أبي حجلة: منطق الطير - م.خ.ح رقم 1910.
- ابن أبي الخصال: رسائل م.خ.ح رقم 10889.
- ابن أحمد ابن علي ابن إبراهيم الزياني (أبو القاسم): البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف - م.خ.ع رقم د 1577 وم.خ.ح رقم 1542 ز.
- ابن أحمد ابن إبراهيم الزياني (أبو القاسم): الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية م.خ.ع رقم د 1275 وم.خ.ح رقم 11022.
- ابن أحمد الزياني: ألفية السلوك في وفيات الملوك، م.خ.ح رقم 1250.
- ابن أحمد الزياني: تكميل الترجمان بدولة السلطان مولاي عبدالرحمن، م.خ.ح رقم 4790 و 126.
- ابن أحمد الزياني: رسائله إلى المولى عبدالرحمن ابن هشام، م.خ.ح رقم 11070.
- ابن أحمد الزياني: عقد الجمان في شمائل السلطان مولانا عبدالرحمن، م.خ.ع رقم ج 40.
- ابن الأعرج السليمانى: زبدة التاريخ وزهر الشماريخ، م.خ.ح رقم 170 (ج3).
- أبو زيد عبدالرحمن الفاسي ابن الشيخ أبي السعود عبدالقادر الفاسي: ديوان اللؤلؤ والمرجان، م.خ.ح رقم رقم 597 (القسم الخاص بالمولى الرشيد).
- ابن سليمان ابن محمد ابن القاسم المراكشي: الحلل البهيجة في فتح ثغر البريجة، م.خ.ح رقم 6997.
- إدريس بن علي ابن علي السناني: الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح، م.خ.ع رقم ك 1678.

- الحاج المشرفي الفاسي: الحل البهية في ملوك الدولة العلوية، م.خ.ع. رقم د 1463.
- حسن اليوسي (أبو علي): الديوان: م.خ.ح رقم 313 - م.خ.ع، طبعة حجرية رقم 32 ج.
- حمدون بن عبدالرحمن ابن الحاج السلمي المرداسي: ديوان النوافح الغالية في المدائح السليمانية (أبو الأمداح السليمانية). ح.خ.ع رقم 385 د. م.خ.ح رقم 225 و 5913 و 222.
- سليمان بن محمد الشفشاوني الشهير بالحوات: البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، م.خ.ع رقم د 261.
- سليمان بن محمد الشفشاوني (الحوات) - أبو الربيع: ديوان الأمداح السليمانية، م.خ.ع رقم د 753.
- سليمان المراكشي (أبو عبدالله): الحل البهيجة في فتح البريجة وسيرة الملك الهاشمي سيدي محمد بن عبدالله، م.خ.ع رقم د 1328.
- شاعر مجهول: قصيدة في مدح يدي محمد ابن عبدالرحمن ابن هشام (ضمن مخطوط)، م.خ.ع رقم د 1115.
- عبد الجبار بن حمديس الصقلي: تكملة الديوان، م.خ.ح رقم 6366.
- عبدالرحمن بن زيدان: المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي إسماعيل: م.خ. رقم ج 595 - م.خ.ح رقم 12155.
- عبدالرحمن التمنارتي: الفوائد الجمّة، م.خ.ح رقم 513.
- عبدالرحيم الراجي: شعر محمد ابن الطيب العلمي، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب (السنة الجامعية 1981-1982).

- عبدالقادر السللاوي: الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب، م.خ.ج، رقم ل 2581-40.
- عبدالقاهر بن محمد ابن أحمد ابن الحسن (أبوإملاق): الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد، م.خ.ع. رقم د 91.
- عبدالكريم بن موسى الريفى: زهر الأكم (مخطوط بخزانة محمد المنونى).
- عبدالله ابن محمد الفاسى: الإعلام بمن حضر وغبر من الأعلام، م.خ.ج رقم 11329 ز.
- عبدالله بن محمد الهبىطى: أرجوزة الألفة السنية فى تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير فى الملة الإسلامية، م.خ.ج رقم 2808.
- عبدالمالك التجمعتى: قصيدة فى مدح ثغر طنجة (ضمن مخطوط)، م.خ.ع رقم د 1030.
- العربى ابن عبدالسلام الفركلى العلوى: الدرة المكنونة الغالية فى وصف الدولة العلوم، م.خ.ج رقم 12238.
- العربى ابن عبدالسلام الفركلى العلوى: الدرة المكنونة الغالية فى وصف الدولة العلوية العالية، م.خ.ج رقم 12238.
- العربى ابن عبدالقادر المشرفى (أبوإمامد): رحلة المشرفى، م.خ.ج رقم 2420.
- على ابن محمد السوسى السملالى (أبوإلحسن): قصيدة فى فتح سيدنا ومولانا الحسن للقطر السوسى، م.خ.ع رقم د 633.
- على بن محمد السوسى السملالى: مجموع مخطوطات له: م.خ.ج رقم 50.
- على ابن مصباح الزروىلى (أبوإلحسن): الديوان، م.خ.ج رقم 6938.

- العمراني الغالي ابن محمد الشريف اللجائي: مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان الاستعداد وحرب النظام، م.خ.ح رقم 965.
- لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الأول): م.خ.ع رقم د 1552.
- لسان الدين ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، م.خ.ع رقم 1263 (ميكروفيلم).
- لسان الدين ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، م.خ.ع رقم د 988، م.خ.ح رقم 2195.
- لسان الدين ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة فيما لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، م.خ.ح رقم 756.
- لسان الدين ابن الخطيب: مختصر الصيب والجهام المسمى: بظل الغمام المغتصب من الصيب والجهام، م.خ.ع ميكروفيلم رقم 1232.
- لسان الدين ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (ج3)، م.خ.ع 256 ك.
- محمد بن أحمد الشراط: كشف الحجاب عن الأخبار الخاصة بحروب المجاهدين الأبرار من أجل استرداد المدن والأمصار (خزانة تطوان).
- محمد بن إبراهيم السباعي: البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، م.خ.ع رم د 1346.
- محمد البزيوي: تاريخ دول الإسلام بالمغرب الأقصى، م.خ.ح رقم 413.
- محمد بن أحمد عيسى التملي: أدبيات، م.خ.ح رقم 5408.

- محمد بن ادريس العمراوي: الديوان، م.خ.ح رقم 1968 و12075 وم.خ.ع رقم ج 845.
- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، م.خ.ع رقم ح114.
- محمد بن الحسن اليعمدي (أبو عبدالله): مدد التأييد في ترتيب التقاليد، م.خ.ح رقم 677.
- محمد بن عبدالله القضاعي (ابن الأبار): أوراق من ديوان ابن الأبار، م.خ.ح رقم 4602.
- محمد بن عبدالقادر بن أحمد الكلالي (الكردودي): الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر، م.خ.ح رقم -11676م.خ.ع رقم د 1584.
- محمد بن عبدالقادر بن أحمد الكلالي المعروف بالكردودي: كشف الغمة ببيان أن حرب النظام واجب على هذه الأمة، م.خ.ح رقم 5989 - م.خ.ع رقم د 1584.
- محمد بن علي الدكالي السلاوي: إتحاف أشراف الملا ببيعض أخبار الرباط وسلا، م.خ.ح رقم 227.
- محمد بن غازي العثماني المكناسي: الروض الهتون، م.خ.ح رقم 1394 د.
- محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسي: الديوان، الروض الأريض في بديع التورية (أو التوشيح) ومنتقى القريض: م.خ.ح رقم 1503 (انظر تحقيق الديوان لمحمد ابن الصغير - رسالة الدبلوم (1988-1989) (مرقونة) كلية الآداب بالرباط.
- محمد ابن المفضل غريط: ديوان الرخيص والثمين، ميكروفيلم، م.خ.ع رقم 53.

- محمد الصغير اليفرنى: الظل الورىف فى مفاخر مولانا إسماعىل الشرفى،
م.خ.ج رقم 12498.
- محمد الضعيف: تأرىخ الضعيف، م.خ.ع رقم 277، م.خ.ج رقم 660 د.
- محمد المشرفى: الحلل البهىة فى تأرىخ ملوك الدولة العلوىة، م.خ.ج رقم 1020،
وم.خ.ع رقم 1463.
- مجموعة أدبىة: (مخطوطة) م.خ.ع رقم د 1030.
- مجموعة قصائذ فى مدح السلطان مولای عبدالرحمن ابن هشام: مخطوطة
بخرانة الفقىه المرحوم عبدالسلام ابن سودة الفاسى.
- يوسف بن محمد الشورى التطوانى (أبوالمحاسن): ورد السهى العاطش وصولة
الإسلام فى العرائش وما كان بها للمسلمىن من أسهم بخىر طوائش، م.خ.ع رقم
ق 330.

فهرس المجالات

مجلة البحث العلمي:

- عدد 2 السنة الأولى ربيع 1384/1 - غشت 1964 - عبدالله كنون: لسان الدين ابن الخطيب الكاتب الساخر، ص 123، محمد بن تاويت: أدب الدولة المرابطية والدولة الموحدية، ص 134.
- عدد 9 السنة الثالثة رمضان 1387 - دجنبر 1966 - محمد الفاسي: موقعة وادي المخازن الحاسمة، ص 217.
- عدد 207-21 جمادى 1393/1 - يونيو 1973 - محمد كمال شبانة: الدولة الموحدية وتأملات في تاريخها، ص 144.
- عدد 34 السنة 12 محرم - ربيع 1395/2 - يناير - أبريل 1975 - د. إبراهيم حركات: أوضاع المغرب ومشاكله قبل قيام الدولة السعدية، ص 82.
- عدد 25 السنة 13 جمادى 1396/2 - يونيو 1976 - محمد بن تاويت: سبته الأسرية (1)، ص 107.
- عدد 26 السنة 13 ذو الحجة 1396 - دجنبر 1976 - محمد بن تاويت: سبته الأسيرة (2)، ص 111.
- عدد 27 السنة 14 جمادى 1397/2 - يوليوز 1977 - عبدالقادر زمامة: بنو مرين بفاس، ص 267. د. أمينة اللوه: قضية العرائش تاريخها في ق 17، ص 185 (ق 1).

- عدد 28 السنة 14 ذو الحجة 1398 - دجنبر 1978 - د. أمينة اللوه: قضية العرائش، ق 2، ص 189.

- عدد 29-30 السنة 1399/16 هـ 1979م - د. إبراهيم حركات: الحياة الدينية في العهد المريني، ص 209. إبراهيم محمد الجميل: الإمام عبدالله بن ياسين في رباط السنغال، ص 247. د. أمينة اللوه: قضية العرائش، ق 3، ص 325.

- عدد 33 السنة 18 محرم 1403 - نونبر 1982 - د. امحمد بن عبود: معركة الزلاقة والواقع الأندلسي، ص 49.

- عدد 35-1405 هـ - 1985، بسام العسلي: وقعة العقاب، ص 101.

- عدد 36 - 1406 هـ - 1986 - روجي كواندور: قراصنة سلا، تعريب محمد العربي حمود، ص 131.

مجلة البيئة:

- عدد 1 السنة الأولى، مايو 1962 - د. أحمد مختار العبادي: حياة ابن الخطيب المغربية، ص 54.

- عدد 2 السنة الأولى ذو الحجة 1381 - يونيو 1962 - محمد الفاسي: نشأة الدولة العلوية، ص 51.

- عدد 8 السنة الأولى رجب 1382 - دجنبر 1962 - محمد الفاسي: نشأة الدولة العلوية، ص 17.

- عدد 9 السنة الأولى شعبان 1382 - يناير 1963 - د. أحمد مختار العبادي: صورة لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس، ص 79.

مجلة تطوان

- العدد الأول 1956 - محمد بن تاويت: وثيقة تاريخية عن تطوان، ص 13.
- العدد 3 و 4 - 1958 - 1959 - محمد بن تاويت: اختاصر الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، ص 73.

مجلة الثقافة العربية

- عدد 2 و 3 السنة الأولى ذو الحجة 1389 - دجنبر 1970 - محمد بن شقرون: الاتجاهات الثقافية المغربية، ص 59.
- عدد 4 صفر 1391 أبريل 1971 - محمد ابراهيم الكتاني: رسائل علماء فاس المجاهدين المحاصرين سبتة، ص 61.
- عدد 5 ذو القعد 1391 - دجنبر 1971 - عبدالله كنون: ابن حبوس الشاعر، ص 31.
- عدد 6/1972 - محمد كمال شبانة: لمحات تاريخية حول الدولة المرابطية، ص 111.
- عدد 7/1972 - محمد بن تاويت: ابن حبوس الفاسي، ص 13.
- عدد 8/1393-1973 - عبدالله كنون: يوسف بن تاشفين، ص 9.
- عدد 9/1393-1973 - عبدالله كنون: قصيدة «أنجم السياسة»، ص 7.

مجلة دعوة الحق:

- عدد 6 السنة الرابعة 1961 - د. عباس الجراري: ابن حبوس.
- عدد 5 السنة السابعة فبراير 1964 - عبدالقادر زمامة: لسان الدين ابن الخطيب في المغرب 1.
- عدد 6 السنة السابعة مارس 1964 - عبدالقادر زمাকে: لسان الدين ابن الخطيب في المغرب 2.

- عدد السنة الثامنة شعبان 1384 - دجنبر 1964 - عبدالله العمراني: معركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير، ص 59.
- عدد 3 السنة 13 - فبراير - مارس 1970: محمد المنوني: مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية.
- عدد 3 السنة 14 محرم 1391 - مارس 1971 - محمد المنتصر الريسوني: المولى سليمان بين شعراء عصره، ص 184.
- عدد 4 و 5 السنة 16 صفر 1394 - مارس 1974 - د. عباس الجراري: التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب، ص 119.
- عدد 10 السنة 16 صفر 1395 - مارس 1975 باحث: باديس المجاهدة، ص 98.
- عدد 4 السنة 17 ذو القعدة 1395 - نونبر 1987 - أحمد البوعياشي: الاحتلال الجائر لجزيرة بادس، ص 167.
- عدد 6 السنة 18/1394-1977 - عبدالقادر العافية: قول على قول (في موضوع شخصية أحمد المنصور الذهبي)، ص 43.
- عدد 8 السنة 19 رمضان 1398 - غشت 1978 - عدد خاص صدر بمناسبة الذكرى الأربعمئة لمعركة وادي المخازن.
- العدد 256 رمضان 1406 - ماي 1986 - محمد المنوني: الحياة الأدبية في العصر المريني الأول، ص 48.
- العدد 259 محرم، صفر 1407 - شتتبر، أكتوبر 1986 - المهدي البرجالي: الجهاد المرابطي في العدو لابن أبي الخصال، ص 108.
- العدد 268 رجب 1408 - مارس 1988 عبدالله بنصر العلوي: الشخصية المغربية من خلال أدب الجهاد، ص 235.

- العدد 270 ذو القعدة 1408 هـ - يوليو 1988 - عبدالله بنصر العلوي: أصداء المقاومة لتحرير سبتة في الشعر المغربي خلال العصر العلوي، ص 267.
- عدد 277 جمادى الأول 1410 - دجنبر 1989 - عبد الجواد السقاط: قصيدة المديح في العصر المريني 1.
- عدد 281 جمادى الأول 1411 - دجنبر 1990 - عبد الجواد السقاط: قصيدة المديح في العصر المريني 2.

مجلة المناهل

- عدد 1 السنة الأولى ذو القعدة 1394 هـ - نونبر 1974، عبدالعزيز بن عبدالله: القصر الكبير أول حاضرة في المغرب، ص 43. د. عباس الجراري: الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، ص 84.
- عدد 2 السنة الثانية صفر 1395 - مارس 1975 د. عباس الجراري: نشأة الأدب العربي في المغرب ظروفها ومظاهرها، ص 91.
- عدد 3 السنة الثالثة ربيع 1396/1 - مارس 1976 د. عباس الجراري: الشعر المغربي في مرحلة النهضة، ص 91.
- عدد 6 السنة الثالثة رجب 1396 هـ - يوليو 1976 - محمد بن تاويت: فاس، جولي في أحداثها الكبرى، ص 296.
- عدد 9 السنة الرابعة رجب 1397 هـ - يوليو 1977. د. عباس الجراري: المولد النبوي في الأدب المغربي، ص 33. د. شوقي عطا الله الجمل: محمد العياشي وجهاده ضد الإسبان والبرتغال، ص 104.
- عدد 11 السنة الخامسة ربيع 1398/1 - مارس 1978 - د. عبد الهادي التازي: إدريس الأكبر فاتح المغرب، ص 105. عصمت دندش: حول رباط عبدالله بن ياسين، ص 354.

- عدد 12 السنة الخامسة شعبان 1398 - يوليو 1978. د.عباس الجراري: البرتغال: بصمات تاريخ مشترك، ص 55.
- عدد 13 السنة الخامسة محرم 1399 - دجنبر 1978 - عبدالله كنون: عبدالملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن، ص 7.
- عدد 15 السنة السادسة شعبان 1399 - يوليوز 1979 - عدد خاص عن أبي الحسن اليوسي.
- عدد 16 السنة السابعة محرم 1400 هـ - دجنبر 1979. د. عباس الجراري: تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، ص 39. عبدالوهاب بنمنصور: أصيلة عبر التاريخ، ص 76.
- عدد 17 السنة السابعة جمادى الأولى 1400 - مارس 1980 - فاضل السباعي: يوم الأرك، ص 192.
- عدد 21 السنة الثامنة رمضان 1401 هـ - يوليوز 1981 - عبدالقادر زمامة: إيقاظ أهل الغفلة والمنام، ص 79.
- عدد 22 السنة التاسعة ربيع 1402/1 هـ - يناير 1982 - عدد خاص عن سبته والحركة الفكرية بها.
- عدد 24 السنة التاسعة رمضان 1402 - يوليو 1982 - محمد زنيير: الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي بن تومرت، ص 107.
- عدد 25 السنة التاسعة صفر 1403 - دجنبر 1982 - د. ضياء الدين الرئيس: الفتوحات الإسلامية، ص 274.
- عدد 26 السنة العاشرة شوال 1403 - يوليو 1983 - محمد مزين: المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن السادس الميلادي، ص 205.

- عدد 27 السنة العاشرة شوال 1403 - يوليو 1983 - محمد مزين: المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن السادس الميلادي، ص 205.
- عدد 30 السنة الحادية عشرة شوال 1404 - يوليو 1984 - عبدالعزيز بن عبدالله - يوليو 1984 بين آنفا والدار البيضاء، ص 88.
- عدد 33 السنة الثانية عشرة ربيع الثاني 1406 - دجنبر 1985 - د. عبدالهادي التازي: معركة وادي المخازن الصغرى، ص 126.
- عدد 35 السنة الثالثة عشرة ربيع الثاني 1407 - دجنبر 1986 - رضوان بن شقرون: شعر السلاطين والأمراء المرينيين، ص 221.
- مجلات كليات الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط وفاس ومكناس وتطوان والدار البيضاء وأكادير:

تنبيه

- تخفيفاً على القارئ حذفنا في هذه الطبعة فصل الفهارس المتضمن للأعلام، وأعلام الشعراء، والأغراض الشعرية، والقوافي، وأعلام المعارك، والبلدان.. كما هو مثبت في الأطروحة الأصل.

تحية شعرية

مرفوعة إلى السيد عبدالحق المريني بمناسبة خروجه من «معركة الجهاد»
الأدبي منتصرًا.

إبراهيم الحاري

الشعرُ عاد فعُدْتُ للإنشادِ
أنا والقريضُ هنا على ميعادِ
جئنا نحیی من تالق نجمه
فغداً يلوح لرائحٍ أو غاد
جئنا نحیی من أتانا كما أتى
طيبُ النسیم من الربى والوادي
هو بالرباط وبالبلاد جميعها
عطري فوح بمن تدي الرواد
وهو الأبى ومن قديم بيته
ماوى الأباة ومعقل الأسياد
دع عنك ما كذبوا عليك فإنما
دار المريني كعبةُ القصاد
يا من تالاً من سماء عفافه
كتالئ المرجان في الأجياد

السيف سيفك في الجهاد كأنه
سيف الوليد وخالد⁽¹⁾ وزياد⁽²⁾
أدب الجهاد كزهرة فواحة
في ربوة الشعراء والنقاد
أنت الذي هذبتَه وصقلته
بمهارة وعقيدة وجهاد
وسبرت أغواراً له بتجلدٍ
في الجمع والتنسيق والإعداد
وإذا به يبدو كبحر زاخرٍ
بالآلئ ونفائسٍ وقلاد
وتخاله بين البحوث حديقة
تغري بروعة حسنها المعتاد
إن كان عبدالحق نجماً ثاقباً
في حومة الأقدار والأسياذ
فله وربُّ الناس منذُ بروزه
إرث يصول به على الأنداد
ورث العلا من فاضلٍ عن فاضلٍ
من خيرة الأبناء والأجداد
رضع المروءة والوداعة والوفا
من ثدي أم في ربي الأمجاد

(1) خالد بن الوليد: بن المغيرة المخزومي (ت 42 هـ) صحابي جليل، أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن الإسلام.

(2) زياد بن أبيه: (ت 687 هـ) والي العراق من قبل الأمويين.

وإذا أمير المغرب الأقصى يرى
فيه العماد لنيل أي مراد
فاهناً بفوزك واقبلن تحيتي
شعراً يسجل من دماء فؤاد
ولسوفَ يشمك الكريم بعطفه
ويقيك ربُّك فتنة الحساد

المحتوى

- التصدير 3
- التقديم 7
- مقدمة الطبعة الجديدة 12
- مقدمة 15
- المبحث الأول: كلمة في الجهاد 29
- المبحث الثاني: شعر الحرب والجهاد في عهد الفتوحات الإسلامية 41
- المبحث الثالث: الجهاد في شعر الفتوحات الإسلامية للمغرب وفي أشعار
العهد الإدريسي 69

الباب الأول: شعر الفتوح

- الفصل الأول: شعر الفتوح الداخلية 91
- الفصل الثاني: شعر الفتوح الخارجية 220
- شعر فتوح المغرب الأوسط وأفريقية 223
- شعر فتوح الأندلس 266
- شعر فتوح السودان 377

الباب الثاني: شعر المقاومة

- الفصل الأول: شعر التحريض على الجهاد والاستجداء بالمجاهدين 393
- الفصل الثاني: شعر الدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي 493

الباب الثالث: أعراض أخرى

- الفصل الأول: شعر الجهاد في أشعار المديح.....561
- الفصل الثاني: شعر الجهاد في المولديات.....639

الباب الرابع: خصائص شعر الجهاد

- الفصل الأول: الخصائص الموضوعية.....677
- الفصل الثاني: الخصائص الفنية.....767
- الخاتمة.....802

الفهارس

- فهرس المصادر المطبوعة.....811
- فهرس المصادر المخطوطة.....837
- فهرس المجالات.....844
- تحية شعرية.....851
- المحتوى.....854
